رواية

ليف تولستوي



البعث

مكتبة بغداد

ترجمة : صياح الجهيم

رواية

المؤلف: ليف تولستوي
عنوان الكتاب: البعـــث
ترجمة: صياح الجهيم
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: 1984
الطبعة الثانية: 2016

Author: **Лев Николáевич Толстóй**
Title: **Resurrection**
Translator: **Sayah Al jhayem**
cover designed by: **Majed Al Majedy**
P.C.: **Al-Mada**
First Edition: 1984
Second Edition: 2016

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس-محلة 102-شارع 13-بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102–13 Street–Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

ليف تولستوي

البعـــث

ترجمة : صياح الجهيم

صدرت الطبعة الأولى عام ١٨٩٩

مقدمة

تشهد سنوات ١٨٨٠ على أزمة تولستوي الكبرى، الدينية والفنية. ذلك أن مؤلِّف «آنا كارينينا»، في بحثه الدؤوب عن المطلق، يدخل صراحةً في نزاع مع الكنيسة الرسمية. بل إنه ينفصل عنها ويغدو كالمتشيّع الذي يشبه بعض الشبه أتباع المانوية وبعض الهوسيين[١] في العصر الوسيط، مقتنعاً حتى التعصب بأنه هو وحده القادر على فهم المعنى الحقيقي للإنجيل، وأنه هو وحده المالك لسر التعليم الذي كان يريد أن ينشره في العالم بأسره، وللناس جميعاً. وحين يجعلُ تولستوي، على هذا النحو، من التبشير الديني والأخلاقي، بل من الدعاوة الدينية والأخلاقية هدفاً له، فإنه يُخضِع عقائد الكنيسة، والدولة، والعلوم، والفنون على وجه الخصوص، لنقد لا هوادة فيه. إن ضرباً من الروسّوية[٢] المتشددة لا تُريه في الفن إلاّ عنصراً مفسداً للأخلاق بعد أن فقد وحيه الديني القديم، ورمى إلى تمجيد الجمال والشهوة وحدهما دون غيرهما. ومن هذه الزاوية البالغة الضيق لا يتردد في إدانة الآداب بمجموعها فُيزري على شكسبير وبوشكين

١. طائفة دينية.

٢. نسبة إلى روسو.

ويتبرّأ من عمله الأدبي الذي يجده مسرفاً في الترويج للجمال بل وسطحيّاً. ولم يعد يطمح إلا في تأليف قصص واعظة أو تعليمية، موجّهة إلى عامة الشعب، جديرة بأن توقظ لدى الناس مشاعر الحب المتبادل، وغفران الخطايا المتبادل. عمل أدبي جديد لا زخرفة فيه، عمل خال من التزويق، وتهذيبي جوهرياً، ذلك هو الهدف الذي كان عليه أن يبلغه منذئذ.

وهو يُنتج إذن في هذه المرحلة طائفةً من القصص سيُطبع معظُمها في «الوسيط». وأهم من ذلك بكثير في نظره الأبحاث ذات الطابع الديني والاجتماعي: «اعترف» (١٨٧٩ –١٨٨٢)، «نقد علم اللاهوت العقائدي» (١٨٨٠)، توافق الأناجيل الأربعة وترجمتها» (١٨٨١)، «ديني» (١٨٨٣)، «ماذا ينبغي أن نفعل» (١٨٨٤). وأبحاث أخرى كان صداها كبيراً في روسيا وخارج روسيا. على أن القريحة الأدبية لديه لم تنضب: فهو يكتب للمسرح، وبعض مسرحياته، بالرغم من «اتجاهها» لا يُعوزها التشويق من الوجهة الدرامية وحدها، بل إنها تشهد هنا وهناك على «مهارة المعلم» مثل «سلطان الظلمات» (١٨٨٦). وأخيراً ففي أثناء هذه السنوات الشديدة، يؤلّف «البعث» هذه الرواية العظيمة التي تحتل، بحق، مكانها إلى جانب «الحرب والسلم» و»آنا كارينينا».

تعود بذرة هذا العمل إلى عام ١٨٨٧. وهي تُولَد من حدث واقعي. كان لتولستوي آنذاك علاقات ممتازة مع النائب العام «أناتول فيدوروفتش كوني» (١٨٤٠ –١٩١٨). وهو حقوقي شهير، ذو فكر متحرر، ونزاهة خلقية عظيمة، وأفضل ممثل للحقوقيين الروس

مـن جيل ١٨٦٠. ولقد أوتي موهبةً أدبية حقيقية، فنشر مرافعاته كما نشـر مذكراتــه، ولاقت نجاحاً كبـيراً. وهو الذي قصّ ذات يوم على تولستـوي واقعةً مؤثرة مـن حياته القانونيـة: زاره شاب من المجتمع الراقي أراد أن يسلّم ظرفاً مختوماً إلى إحدى السجينات. وأبت الإدارة عليه ذلك، فقصد النائب العام «كوني» يطلب عونه. اهتم كوني بالأمر وعلم أن تلك السجينـة مومس اسمها «روزالي أوني»، وأنها محكومة بسبب سرقتها مائة روبل. لكن كان وراء ذلك قصة طويلة: لقد كانت «روزالي» فلاحة صغيرة يتيمة اشتغلت خادمة لدى سيدة ثرية دللتها. فأغراهـا ابـن تلك السيدة –وهـو الشاب الذي قصـد النائب العام– وحملـتْ منه، وما لبثت أن طُـردت من البيت وغرقت شيئاً فشيئاً في الدعـارة. وإذ اتُهمـت ذات يـوم بالسرقة، أُحيلـتْ إلى المحكمة التي كان بـين محلّفيها ذلك العشيق القديم، فحُكم عليها بالسجن. وعندما تعـرّف العشيق تلك الفتـاة التي أغواها قديماً، عضّـه الندم لأنه دفعها علـى طريق الهـلاك، وعرض عليها الزواج ليكفّـر عن خطيئته. لكن البائسة أصيبت بالتيفوس الذي كان يفتك بالسجن حينئذ، وماتت في المشفى، قبل أن يتم الزواج.

تأثر تولستوي بهذه القصة الحقيقيـة، والأخلاقية على نحو شديد العمـق. وإنما اشتـد تأثره لأن حدثـاً مشابهاً وقع له أثنـاء شبابه الذي بعـد العهد به. ونحن نملك بهـذا الصدد شهادة ثمينة من كاتب سيرته «بيريوكوف». فقد روى «بيريوكوف» بالفعل أن الكاتب ابن الثمانين قـد أسـرّ إليه في آب ١٩١٠ قبيل موته قائـلاً: «أنت لا تكتب عني إلا مـا هو حسن. وهذا غير صحيح وغير تام. يجب أن تقول أيضاً ما هو سـيء. وأنا إذ أحدّثـك حديثي لكاتب سيرتي، أرجـوك أن تُثْبت في

سيرتـي بعض الأحداث وهي، أولاً، صلتـي بفلاحة من قريتي قبل أن أتزوج. ويمكن أن نجد إشارة إليها في قصتي «الشيطان»، وثانياً الجريمة التي ارتكبتُها بحق الوصيفة «ماشا» التي كانت تقطن في بيت عمتي. كانت عذراء وأغويتها. فطُرِدَت وسقطت. «وعندما نقبل بين ما رواه بيريوكـوف وحبكة «البعث»، فسوف نـرى كل ما يدخل في العلاقة بـين نيكليودوف وكاتيوشا من سيرة ذاتية. ويقول كاتب سيرته أيضاً: «وهكـذا نستطيـع أن نفسّر شغف تولستوي بهـذا الموضوع، وذلك الاندفـاع الذي أراد به أن يُنهي وينشر هذه الرواية، حتى قبل القصص التي كان قد بدأها». كانت «جريمته» تُثقل كاهله، وكأنه أراد أن يكفّر عنها، وهو يعترف بها علانية.

هنـاك وقائع أخرى: ففي أواخر القـرن الثامن عشر ظهرت طائفة دينيـة في سهوب روسيا الجديدة التي استُـوليَ عليها قبل فترة وجيزة، والتي دعـت كاترين الثانية إليها المستوطنين مـن جميع البلدان؛ ومن بين الذين دعتهم الألمـان والفرنسيون. لقد أنشأت قرى روسية نظاماً دينيـاً شديد الصرامة وربما كان ذلك بتأثيرات مينونية[٣]: كانوا ينبذون العبادة، والطقوس جميعاً، وعبادة الصور، بل وكل تنظيم كنسي. كانوا يأبون أن يكونوا خدّاماً للدولة، وكانوا يأخذون أخذاً حرفياً بالوصية: «لا تقتـل» فيرفضـون أداء الخدمـة العسكرية. كانـوا يجتمعون على حدة ليقرؤوا الإنجيـل ويرتلّوا المزامير، وكانوا يعيشون حياة مستقيمة وفاضلـة، تُلهبهم نفحة صوفية من الحـب الأخوي. وقد أطلق عليهم «دوكوبوري» أي: «أبطـال الروح» أما هم فكانوا يسمّون أنفسهم:

---

٣. مينونية: نسبة إلى مينون وهو مؤسس طائفة دينية.

«المسيحيين الروحانيين» وجرّت عليهم معارضتهم للدولة سلسلة من الاضطهـاد، في بـادئ الأمر، ثم هُجِّروا، في أواخـر ملك الاسكندر الأول، إلى القوقـاز حيث امتزجوا بالسـكان الدخلاء، فلم يستطيعوا أن يؤثروا في السكان الروس. وأُعفوا من الخدمة في الجيش، وأُوكلت إليهـم حراسة الأحـراج. وهكذا قضوا، طوال أكـثر من نصف قرن، حياةً وادعة، يعيشون مما جنت أيديهم، ويضعون أموالهم معاً في عهدة أحد مرشديهم الروحيين الأجلاء. لكن الإدارة في زمن الردة الرجعية -نحـو ١٨٨٥- أعادت الكرّة لتفرض عليهـم الخدمة العسكرية من جديـد. فقبلت فئة منهم، وقاومت فئـة أخرى. عند ذاك نُفي الزعماء إلى شمال روسيا وجُنِّـد المعارضون في أفواج تأديبية، وعوقبوا معاقبة شديـدة. وتستولي على الذين بقـوا في القوقاز ردةٌ من التعصب؛ ففي سنـة ١٨٩٥ تصمـم ثـلاث قرى على إحـراق جميـع الأسلحة التي كانـت في حوزتها (من المعلوم أن جميع الفلاحـين، في القوقاز، بلد اللصوصيـة، كانوا يحملون السلاح)، وعلى قطع صلاتها بالحكومة، وعلـى رفض الخدمـة العسكرية ودفع الضرائب. ولقـد أُحْرقت تلك الأسلحـة في ليلة ٢٩ حزيران بشكل احتفـالي، وعلى ترتيل المزامير، وتعتبر السلطـات ذلك العمل كأنه مقدمة للعصيـان وترسل القوزاق ضدهـم. وبعد أن فتكوا بهم فتكاً ذريعاً، طُرِدَ أربعة آلاف من بيوتهم وفُرِّقوا في القرى الدخيلة، وأُلقي بزعمائهم في السجن.

يُلاحظ «بيريوكو»: «يمكن القول، بهذا الصدد، أن هذه الانطلاقة للروح الفوضوية تعود، في معظمها، إلى تبشير تولستوي الذي ظهرت في «الوسيـط» كتاباتُـه الأخلاقية المنحـى، وهي كتابـات نشرها في القوقـاز أحد أنصار تولستوي المتحمسين-الأمير دميتري كيلكوف-

فأقبل عليها «الدوكوبور» يلتهمونها التهاماً. أما تولستوي الذي كان قد قابل، في الشتاء المنصرم، بعضاً من زعمائهم، وفرح إذ رأى فيهم أناساً قريبين جداً من قناعاته الخاصة، فإنه تأثر تأثراً عميقاً واغتاظ غيظاً شديداً من جراء هذه الحملات التي كان ضحيتها هؤلاء المؤمنون الصادقون والتي بدتْ له كأنها ترمي بروسيا قرنين إلى الوراء، إلى عصر الملك الشمس، وإلى فسخ منشور «نانت». وأَرسلَ أمينَ سره «بيريوكوف» ليتحرى الحقيقة في المكان نفسه. فكتب هذا الأخير مقالة طويلة ملأى بالسخط المتأجج عنوانُها: «اضطهاد المسيحيين في روسيا في عام ١٨٩٥». وبما أن المقالة المذكورة لم يمكن لها بطبيعة الحال أن تظهر في روسيا، فقد ترجمها تشيرتكوف ونُشرت في «التايمز» في لندن، ونقلتها صحف أخرى، وتركت أثراً عميقاً.

عند ذاك أصدر «بيريوكوف» و»تشيرتكوف»، في لندن أيضاً، كراسة عنوانها «إلى النجدة» ذيلها تولستوي بملحق. وقد بذل الكاتب نشاطاً هائلاً لمساعدة «الدوكوبور» وكرّر نداءاته في روسيا وفي الخارج –وعلى وجه الخصوص في الولايات المتحدة حيث سارعت أكثر من طائفة –ومنها طائفة الصاجييّن– إلى تقديم الدعم المعنوي والمادي.

في شباط ١٨٩٨، تلقّى «الدوكوبور» إذناً بالسفر إلى كندا، هذا البلد العظيم الغني بالأراضي العذراء والذي لم يكن يعرف آنذاك الخدمة العسكرية الإلزامية. كان عددهم سبعة آلاف. وبعد أن باعوا كلَّ ما يملكون لم يستطيعوا أن يجمعوا سوى ثلاثمائة ألف روبل. وكان يلزمهم سبعمائة ألف للسفر وحده. عند ذاك لم يكتف تولستوي

بأنـه تدخّل وكتب سلسلـة من الرسائل لشخصيـات مرموقة، أو بأنه وجّه نداءات عامة إلى الإحسان، بل إنه قرر الخروج على خط السلوك الـذي اختطه لنفسه بصفته مؤلفاً –وهـو ألا يجني مالاً من مؤلفاته– وعجّـل بإنهـاء «البعث» ليخرجه بأسـرع ما يمكـن، وليبيعه لمصلحة «الدوكوبور». وعرض عليـه الناشر «الفرد ماركس»، في بطرسبرج، مبلغـاً لا يُصدّق وهو ألف روبل عن كل صفحة مطبوعة، وذلك لكي تَصْـدر الرواية في مجلته «نيفا»[٤] وإذ عجّـل تولستوي عمله، أخذت الرواية تظهر منذ شهر آذار ١٨٩٩ في مجلة «نيفا» (على أن تُحذَف منها مقاطع فرضت الرقابة حذفها) وأخذت تظهر بنصها الروسي الكامل في الوقت نفسه، في لندن، برعاية تشيرتكوف، كما تُرجمت إلى عدة لغـات. وقبض تولستوي مبلغ ثلاثين ألف روبـل صبّها كلها في المال المجموع من أجل هجرة «الدوكوبور» على كندا. وعندما جُمع المبلغ المطلـوب بفضل مساعدات شتّى، أبحـر المسيحيون المضطهدون إلى جزيـرة قبرص أولاً، ومن قبرص إلى كندا حيث استطاعوا أن يستأنفوا مجـرى حياتهم المُلهَمة والعاملـة، وإن لم يخلُ ذلك من خصومات مع السلطـات الكنديّة، لأنّهم كانوا يرفضـون أن يخضعوا للزّواج المدنيّ وأن يسجلوا المواليد الجدد.

لكـنّ تولستـوي استطاع أن يكون مسروراً، فقـد أمكنه أن يُنجح تلك المهمة العظيمة التي فرضها على نفسه؛ بل إن تلك المهمة أتاحت له أن يُنهي عملاً أدبياً واسعاً كان سيظل لولاها ناقصاً، قابعاً في أدراجه.

٤. عمـل الرسام ليونيـد باسترناك والد الكاتـب المعروف رسومـاً للرواية أعجبت تولستوي كثيراً.

وهكذا، فـإن رواية البعـث مرتبطة بصراع الكاتـب ضد تعسّف النظـام الرّجعيّ، وضـدّ التّعصّـب السياسي والدّيني، وضـدّ القضاء الإنسـانيّ، وهو قضاء أعمـى في الغالب، وضد نظـام العقوبة ونظام النفـي، وباختصار ضد شتّى تنظيمات الدولـة. لكن إيمان المؤلف قد صيغ هذه المرة صياغة روائية قويّة، حتّى أنه كتب إلى تشيرتكوف قبل إنجـاز الرواية: «أنا مشغول بالبعـث، ولا أعلم إن كان هذا شيئاً حسناً أم سيّئـاً ، فآمـل أن أعرض في هذه الرواية الكثير مـن الأشياء الهامة. ولذلك أراني مندفعاً؛ ويبدو لي أحياناً أنها ستحتوي على الكثير مما هو حسـنٌ ومما هو ضروري، وأحياناً أخـرى أنني انسَقْتُ وراء الهوى».

إن هـذا الكتاب الذي كُتـب فعلاً بهوىً، تحت وطـأة الأحداث، قد يذكّر، من خـلال بعض السمات، بآنا كارينينا. وإن كانت ألوانه أكثر قتامة وأشد مأساويّة، ففي «آنا كارينينا» نجد ليفين الذي يمثّل تولستوي ذلك الزمان، يعارض بقوة مجتمعاً تبيّن فيه علامات الإنحلال، مستنداً في هـذه المعارضـة إلى طبقة الفلاحـين الفقـراء، وإلى حاملي العقيدة المسيحيـة البسطـاء، ويكاد يتوصـل إلى ذلك التوازن بـين جو الحياة العائلية الهادئ، في أحضان الطبيعة، وبحثه المستمر عن المثل الأعلى. لكـن تولستوي، بعد ربع قرن من الزمان، وبعـد أن تمرّس بالتجارب الدينيـة والأخلاقية التي نعرفها، يبدو معاديـاً بصراحة لكل شكل من أشكال تنظيم الكنيسة أو الدولة، ويدخل في حرب مكشوفة معهما. أما الناطق الجديد باسمه «نيكليودوف» فهو مثل ليفين، موضوع بين عالمـين: عالم العهد القديم الذي بلغ غايـة الإنحطاط هذه المرة، وعالم الفلاحين الذي يمزج به تولستوي المنفيين والمحكومين بالأشغال الشّاقّة الذيـن أثار مصيرهم شفقته. واللوحة التي يقدّمها منذ الآن عن الطبقة

التــي في السلطة لوحةٌ سلبيّة تماماً. إن ذلك مبالغ به أحياناً لكنه قوي: القضــاةُ الذين يؤدون عملهم وهم لا يفكّرون إلا في لذّاتهم الصغيرة، المحلّفــون الضيّقو الفكر الذين يرتكبون خطأ مميتاً في حكمهم، عضو مجلس الشيوخ «المادي» الذي يرفض العمــل على نقض الحكم، لأنه يأبــى كل تظاهر بالشعور الديني، الوزير القــديم الذي تحرّر من أبسط قواعــد الأخــلاق، المحامي الشهــير الوقح الذي لا يهمــه شيء سوى المال، الأمــير «كورتشاغين» المنحط الذي لا توحــي ابنته، بفساتينها المكشوفــة الصدر، سوى «العار والإشمئزاز». لوحات كثيرة لا سبيل إلى نسيانهــا، لقــد صرّح تشيرتكــوف بعد قراءة الروايــة: «إنها عمل فنــي رائــع، وأقلّ الأشياء إثــارة للإهتمام هو ما يتّصــل بالعلاقات بين «نيكليودوف» و«كاتيوشا»، وأكثرها أسراً للنفس الأمراء والجنرالات والفلاحون والسجناء والمفتشّــون. فالمشهد في منزل الجنرال المناجي لــلأرواح الــذي يقود حصن «بطرســ وبولس»، أعــدتُ قراءته وفي نفســي رعشةٌ لفرط ما هو جيّــد، والسّيِّدة كورتشاغين على كرسيّها؛ والفلاح، زوج فيدوسيا! الفلاح يقول: إن الجدة «مؤثّرة» لكن ريشة تولستوي هي المؤثرة، في الحقيقة».

العمــل، منذ بدء الرواية، واحــدٌ ومركّزٌ، والنّظر إلى التّباين البدئي بــين نهوض الأمــير الغني «دمــتري» وعــالم المساكين الفقــراء الذين يُجَــرّون إلى القضــاء. وعندما يتوب «نكليــودوف» عن خطيئته، عن جريمته التي ظلت بدون عقــاب، فإنه سيتحوّل داخلياً وسيجذبه عالم القاع ذاك وسيكشف فيه كائنات أفضل من المجتمع القديم الذي أدانه وأكــثر إنسانية منه. والتناقض بين العدالــة الإجتماعيّة، الإنسانية وبين العدالــة الإلهية –التي تأمر بالغفران حتى سبع وسبعين مرّة– هو الذي

يكــوّن فكرة الرواية الأصلية. إن تولستــوي يكتشف، بواسطة بطله، عالماً يجهله كلياً حتى تلك اللحظة: عالم الثّوار الذين يرسم لهم صوراً حية تنمّ على الإعجاب بما لديهم من روح الإنكار للذات، والتضحية.

علـى أنه لا يبلغ حدود اتّبشـير بالثورة، ففي الفصل الأخير، يقتنع «نيكليودوف»، وهو يعيد قراءة الإنجيل، أن الحب المسيحي هو الذي يمكــن أن يجـدّد العالم، أمّا مــا يستنكره بلا تحفّظ فهــو مجتمع زمانه، مجتمـع «أواخر القــرن» الذي يـرفّ فوقه ظـلُّ «بوبيدونوزتسوف» المشـؤوم -المتمثّل هنا في ملامح توهوروف- ذلــك الرجعي البليد، والمستشــار الرّئيســيّ للإسكنــدر الثّالث ولنيقولا الثّــاني الذي وضع الكنيســة في خدمة الدولة وحدها ليس غير، وأوحى بالجملة المأساوية التالية: «يجب أن تجمّد روسيا قليلاً لكي لا تتعفّن». وهنا يغدو صوت تولستوي بغيةَ الإحتجاج، رهيباً.

إن «البعــث» منتشـرة اليــوم في جميع أرجــاء الإتّحــاد السّوفياتيّ باعتبارهــا مرافعةً ضــدّ العهد القديم، ولاشكّ أن هــذه الرواية تحتوي علــى الكثير من الصفحات المعتمة، القاسيــة، لكنها تحتوي أيضاً على صفحات أخرى تفيض بالغنائية مثل استذكار ليلة الفصح، تلك الليلة العفيفــة التي عاشهــا تولستوي، من غير شك، والتــي تعود إلى ذاكرة «نيكليودوف»، بجمالها الشفّاف.

الكسندر. ف. سولوفييف

القسم الأول

«حينئـذ تقدّم بطرس وقال له: يا سيّد، كم مرة يخطئ أخي إليّ وأغفر له؟ أإلى سبع مرات؟ فقال له يسوع: لا أقول لك، إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرّة سبع مرّات»

متى ١٨: ٢١ – ٢٢

"مـا بالُـك تنظر إلى القذى الذي في عين أخيك؟... والخشـبة التي في عينك لا تنتبه لها".

متى ٧: ٣

"من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر"

يوحنا ٨: ٧

"ليس تلميذ أعظم من معلّمة، كل تلميذ كامل يكون كمعلمه"

لوقا ٦: ٤٠

-١-

عبثـاً كان مئـاتُ آلاف البشـر المزدحمين في حيّـز صغير، يبذلون جهدَهــم ليشوّهوا الأرض التي يعيشون عليهــا؛ عبثاً كانوا يسحقون ترابهــا بالحجــارة لكي لا يَنْبت فيهــا شيء؛ عبثاً كانــوا يقتلعون حتى أصغـر قشة مــن عشب؛ عبثــاً كانوا يملـؤون الهواء بدخــان البترول والفحم؛ عبثاً كانوا يقطعون الأشجار؛ عبثاً كانوا يطردون الحيوانات والطيــور: لقد كان الربيــع، حتى في المدينة، مايزال هــو الرّبيع، فقد كانت الشّمس تسطع؛ وأخذ العشب الذي عادت إليه الحياة ينمو من جديد، لا على مرجات الشّــوارع العريضة فحسب، بل على أرصفة الشوارع؛ ونشرت أشجار البتولة والصفصاف والكرز البري أوراقها الرطبــة الأَرجــة؛ ونفخت أشجــار الزيزفون براعمها التــي أوشكت أن تتفتّــح؛ وشرعت غربــانُ الزرع وعصافير الــدوري والحمائم تبني أعشاشهــا بابتهاج؛ وكان النحل والذبــاب يدوّي على الجدران، وقد فتنَــه أن يجد مرة أخرى دفء الشمس البديع. كان كل شيء غارقاً في البهجة: النباتات والطيور والحشرات والأطفال. الناس وحدهم ظلّوا يَخْدعون ويُتْعِبون ويعذّبــون الآخرين. الناس وحدهم كانوا يرون أن مــا هو هام ومقدّس ليــس صبيحة الربيع هذه، ولا هذا الجمال الإلهي

للكون، الجمال الذي خُلِقَ من أجل فرح جميع الكائنات الحيّة والذي يُهيّئُها جميعاً للسلام والوحدة والمحبة؛ بل إنهم كانوا يرون المقدَّس والهام ما اخترعوه هم أنفسه ليسيطر بعضهم على بعض.

وهكذا، ففي مكتب السجن الإقليمي، لم يكن سحرُ الربيع ومباهجه التي مُنحها البشر والحيوانات، هي ما يُعتبر هامّاً ومقدّساً بل كان الهام والمقدّس أن مستخدمي هذا المكتب تلقّوا عشيةَ البارحة، ورقةً مختومةً ومرقّمة تُخطرهم بوجوب نقل ثلاثة متهمين، رجل وامرأتين، كلٌّ على انفراد، في صباح ٢٨ نيسان الساعة التاسعة، إلى قصر العدل، لمحاكمتهم فيه. ووفقاً لهذا البلاغ دخل الحارس العجوز، في ٢٨ نيسان في الساعة الثامنة صباحاً، إلى ممرّ قسم النساء، وهو ممر مظلم ونتن. وسرعان ما أقبلت عليه، من الجانب الآخر من الممر، المشرفةُ على قسم النساء، وهي امرأة عليلة المظهر، رمادية الشعر، تلبس سترة ذات كُمَّيْنِ طويلين مُزَيَّنين بالأشرطة، وتلفّ قامتها بنجاد أزرق.

سألت:

– أجئت تطلبُ «ماسلوفا»؟

وسرعان ما اتجهت، بصحبة الحارس، إلى أحد الأبواب العديدة التي تفتح على الممر. أدخل الحارس مفتاحاً ضخماً في قفل الباب، فصرّ الحديد صريراً، وانشقَّ الباب، وخرجت منه رائحة نتنة أخبث من رائحة الممر..

صرخ الحارس الذي أعاد إغلاق الباب:

- ماسلوفا! إلى قصر العدل!

ووقف جامداً ينتظر المرأة التي ناداها.

علـى خطوات من هذا المكان، في فناء السجن، كان بوسع المرء أن يتنفّس الهواء النقي المنعش الذي حمله نسيم الربيع من الحقول، لكنّ الهواء في ممر السجن كان مُرهقاً وموبوءاً؛ كان هواءً أفسدتُه القذارة والرطوبة والعفونة، هواء لا يمكن لأحد أن يتنشقه دون أن يجتاحه، في الحال، حزن كئيب. تبيّنت المشرفة على القسم بنفسها من ذلك، وإن كانت قد تعودت هذا الهواء الموبوء. فما إن عادت من الفناء، ودخلت الممر حتى استبد بها الإحساس بالغثيان والنعاس.

كان الاضطراب شديداً، وراء الباب، في غرفة السجينات، كانت تُسمع الأصوات والضحكات ووقع الأقدام العارية.

صرخ الحارس العجوز وهو يشقّ الباب مرة أخرى:

- هيا، أسرعي!

بعد لحظات خرجت من الغرفة بعجلة امرأة شابة، قصيرة، لكنها رشيقة القوام، كانت ترتدي سترة رمادية فوق قميصها وجبتها البيضاوين. أما قدماها المغطاتان بجوربين من القماش فقد انتعلتا حذاء ضخماً من أحذية السجينات. وكان يلفّ رأسها منديل أبيض برزت منه بعض خصل الشعر الأسود الذي جعّدته بعناية. وكان وجهها كله مشوباً بذلك الشحوب الخاص الذي لا نراه إلا على وجوه الذين أقاموا زمناً طويلاً في مكان مغلق. لكن ذلك أبرز إبرازاً أشد بريق

عينيهـا الكبيرتـين السوداويـن اللتين كان في أحدهمـا شيء يسير من الحول، وهو بريق يتناقض مـع ذلك الشحوب الكامد للجلد. وقفت المرأة وقفة مستقيمة، وصدرُها العريض بارز إلى الأمام.

عندمـا بلغـت الممـر حنـت رأسهـا قليلاً، ثـم حدّقـت في عيني الحارس العجوز؛ ثـم استعدت لفعل ما ستُؤمَر به. وما إن هم الحارس بإغـلاق الباب حتى انشقّ مـن جديد وطلع منه وجـهٌ متجهّم. مجعّد لامـرأة عجـوز بيضاء الشعـر عارية الرأس. وأخذت هـذه العجوز تحـدث «ماسلوفا» بصوت منخفض. لكـن الحارس ردّها إلى الداخل وأغلـق الباب. حينذاك دنت «ماسلوفا» من كـوّةٍ مُحدثة في الباب بدا مـن جهتها المقابلة، على الفـور، وجه المرأة العجـوز. وسُمع صوتها المبحوح من خلال الكوة:

– علـى الأخص، لا تكثري الكلام، أصري على هذه النقطة. هذا كل ما يلزم!

فهتفت «ماسلوفا» متعجبة، وهي تهزّ رأسها:

– يـاه! هذه النقطة أو تلك، كله واحد! لن يقـع لي أسوأ مما أنا فيه الآن!

قال الحارس العجوز هازئاً ومزهواً بالنكتة التي خطرت له:

– لاشك أنه واحد لا اثنان! هيا، اتبعيني؛ امشي!

اختفـى رأس المرأة العجوز مـن الكوة، وتقدّمـت «ماسلوفا» في

الممر، ماشيــة بخطوتها الخفيفة خلف الحارس العجــوز. هبطا السلم الحجــري بحــذاء حجرات قسم الرجــال الموبــوءة والصاخبة، ومنها كانــت العيون المستطلعة ترقب مسيرتهما مــن خلال كوى الأبواب. وأخيراً وصلا إلى مكتب السجن. وكان فيه جنديان. بندقية كل منهما علــى كتفه، ينتظران السجينة ليقتاداهــا إلى قصر العدل. وكتب كاتُب المحكمــة شيئاً على ورقة مُشْربة برائحة التبغ. ومد الوثيقة إلى الجندي الذي دسّها في قفا كمّ معطفه. وبعد أن غمز رفيقه بطرف عينه وبشيء من الخبث وهو يشير إلى «ماسلوفا»، جاء فوقف إلى يمينها، بينما وقف الجندي الآخر إلى يسارها. وبهذا الترتيب خرجوا من المكتب، وعبروا فناء السجن الخارجي، واجتازوا الحاجز وبلغوا بلاط شوارع المدينة.

كان الحوذيــون، وباعــةُ الدكاكــين، والطبّاخــات، والعمــال والمستخدمــون يقفون عند مرور الموكب ليتأملــوا السجينة بفضول. وفكّــر كثيرون وهم يهــزّون رؤوسهــم: «إلى مثل هذا المقــام يُوصل سوءُ الســيرة! أما الحياة الكريمــة كحياتنا فهي أجــدى نفعاً! «ووقف الأولاد أيضــاً. لكن فضولهــم كان ممتزجاً بالرعــب. فبعد لأيٍ كانوا يطمئنون إلى الفكرة التالية وهي أن مع هذه المجرمة حراساً يحرسونها يمنعونهــا مــن إيذائهم. وتقدم فــلاح يبيع الفحم في الشــارع، ورسم علامــة الصليب، وأراد أن يعطي السجينة كوبيكاً. فاحمرّت السجينة خجلاً، وخفضت رأسها، وهمست ببضع كلمات غير واضحة.

كانــت «ماسلوفا تبذل وسعهــا لتسير بأسرع مــا تستطيع، بعد أن فقــدت عادة المشي، وإذ أثقل قدميهــا حذاء السجن الضخم، فكانت تلاحــظ كل مــن ينظر إليها في الطريــق، دون أن تحــرّك رأسها، وهي

سعيدة بأن ترى نفسها موضعاً لمثل هذا الإهتمام. كانت تتنشق بلطف الهــواء الربيعــي، لدى خروجها مــن الجو الموبوء الــذي تركته، وعند مرورهــا أمام مخزن يبيع الطحين، وترتــع قربه الحمائم، مسَتْ بقدمها حمامة زرقــاء، فطارت الحمامــة ولامست أذن السجينــة، فأحسّت على خدّها بريح جناحيهــا. تبسّمت، لكنها ما لبثت أن تنهدت حين ارتدّت فجأة إلى الشعور المؤلم بوضعها.

× × ×

-٢-

كانــت قصــة السجينة «ماسلوفــا» من أشد القصصــ ابتذالا. لقد كانــت إبنة سفاح لفلّاحــة، وكانت تساعد أمها علــى العناية ببقرات مزرعة تملكها عانسان إقطاعيتــان. كانت الفلاحة غير المتزوّجة تضع طفلاً كل عام. وكما يقع غالباً في مثل هذه الحالة فإن الأطفال ما كانوا يولدون حتى يُعمّدوا ثــم تُقلع أمهم عن إرضاعهم. كانوا يجيئون إلى هذا العالم دون أن تطلبهم؛ لم تكن بحاجة إليهم، وكانوا يضايقونها في عملهــا. ونتيجة لذلك فسرعان ما كان يموت هؤلاء الأطفال المساكين مــن الجوع. خمسة أطفال ماتوا على هــذا النحو. أما الطفل السادس الذي حملت به من غجري عابر سبيل فقد كان بنتاً. لم تكن هذه الميزة لتمنــع من أن يصيبها ما أصاب إخوتها الذين سبقوها لولا أن المصادفة قــادت إحدى العانستين إلى الإسطبل لتوبــخ خادماتها بصدد القشدة التــي اشتمت فيها رائحة البقــر. وفي الإسطبل، كانت الأم ممددة على الأرض وبجانبها مولود جميل مليء بالحياة وبالعافية. وبّخت السيدة خادماتها لأنهن أهملن القشدة وأيضاً لأنهن آوين، في الإسطبل، امرأة على وشك الوضع. لكنها عادت فطابت نفساً، لدى رؤية الطفل، بل لقد عرضت نفسها لتكون اشبينةً له.

عمّـدت الطفلة إذن، ثم أخذتها الشفقة بها، فأعطت الأم شيئاً من الحليـب وبعض النقود لكي تطعم الصغيرة، وهكذا ظلت الطفلة على قيد الحياة، ولذلك سمّتها السيدتان: «المُخلّصة».

كان عمـر الطفلـة ثـلاث سنوات عندمـا مرضت أمهـا وماتت. وبمـا أن جدَتها الراعيـة رأت فيها عبئاً عليها، فقـد حملتها السيدتان إلى القصـر. كانـت بعينيها السوداويـن الكبيرتين طفلـة بالغة الحيوية واللطافـة، واستمتعـت السيدتـان برؤيتهـا بينهمـا. كانـت صغرى الأختـين وأكثرهما رأفـة تُدعى «صوفيا ايفانوفنـا»: اشبينة الطفلة أما الكـبرى «ماريا إيفانوفنـا» فكانت أَميـل إلى إظهـار القسوة. كانت صوفيا ايفانوفنا تُلبس الصغيرة، وتعلّمها القراءة، وتحلم بأن تجعل منها فتـاة مثقفة. أما مـاري ايفانوفنا فكانت تقول: إنه يجب أن تجعل منها خادمـة، وصيفةً جميلةً، ولذلـك كانت تبدو متشـددة. كانت تُلقي أوامرهـا عليها، وتضربها أحيانـاً، عندما يسوء مزاجُهـا. وبفعل هذا التأثـير المزدوج غدت الطفلـة، حين كبرت، نصـف وصيفة ونصف سيـدة حتـى أن الاسم الـذي أُطلق عليهـا كان يتلاءم مع هـذه الحالة الوسيطـة. فلم تُدعَ «كاتكا» ولا «كاتيانـكا»، بل كاتيوشا[٥]. كانت تخيـط، وترتّب الغـرف، وتنظف بالحـوّار الصور المقدسـة، وتقدم القهـوة، وتُعنى بالغسيل الخفيف، ويُسمح لها أحياناً بمرافقة سيدتيها، والقراءة لهما.

طُلبت للزواج مرات، لكنها رفضت. كانت تشعر أن الحياة ستغدو

٥. كاتـكا، كاتيانكا، كاتيوشـا: كل من هذه الأسماء تصغير كاترين. في كاتكا شيء من التحقير، وفي كاتيانكا شيء من التحبب، أما كاتيوشا فهو أقل تحبباً.

صعبة عليها إذا اقترنت بعامل أو بخادم، بعد أن نعمت بحلاوة العيش مع سيدتيها.

عاشت على هذا النحو حتى السادسة عشرة. وعندما دخلت في السابعة عشرة، قَدِم إلى بيت السيدتين ابن أخيهما وكان قد قضى من قبل صيفاً كاملاً عند عمّتيه عشقته فيه الفتاة دون أن تعترف بذلك لأحد حتى ولا لنفسها. كان ذلك الشاب العظيم الثراء ضابطاً. وكان هدف زيارته الجديدة أن يستريح بضعة أيام، في طريقه، قبل أن يمضي مع فوجه إلى محاربة الأتراك[٦]. وفي اليوم الثالث، في عشية سفره، أغوى كاتيوشا. وسافر في اليوم التالي بعد أن دسّ في يدها ورقة بمائة روبل وبعد ثلاثة أشهر من سفر الشاب أيقنت أنها حامل.

منذ هذه اللحظة، بدا لها كل شيء عبئاً ثقيلاً عليها. وانصرفت إلى الوسائل التي تُتيح لها الإفلات من العار الذي ينتظرها، وصارت تخدم سيدتيها على مضض وبتهاون.

لم يطل الأمر بالسيدتين لتلاحظا ذلك. ووبّختها ماريا ايفانوفنا مرة أو مرتين، لكن السيدتين رأتا نفسيهما مضطرتين في نهاية الأمر إلى «الانفصال عنها» –بحسب تعبيرهما الأنيق– وهذا يعني أنهما ألقتا بها خارج البيت. عند خروج كاتيوشا من بيتهما اشتغلت وصيفة لدى أحد مفوضي الشرطة، وكان رجلا تجاوز الخمسين أخذ منذ الشهر الثاني يغازلها. وفي ذات يوم بدا أشدّ مراودة من عادته، فنعتته

٦. زيارة نيكليودوف هذه تقع إذن في نيسان عام ١٨٧٧. في الوقت الذي أعلنت فيه الحرب، وتقع أحداث الرواية بعد ثماني سنوات أي في عام ١٨٨٥.

بالفظاظة والحقارة ودفعته عن نفسها بقوة حتى سقط على الأرض. فطُردت بسبب وقاحتها. كان وقت الوضع يقترب فلم يكن بوسعها أن تبحث عن عمل آخر. ولجأت بالأجرة إلى منزل عمة لها، أرملة تدير حانة، وتعمل قابلة بين الحين والحين. وتمّ الوضع دون كبير ألم. لكن القابلة التي جاءت من عند امرأة مريضة في القرية حملت إلى كاتيوشا حمّى النفاس. أما ابنها، وكان صبياً صغيراً مريضاً أيضاً، فقد أُرسل إلى ملجأ لم يكد يصل إليه حتى مات، حسب أقوال المرأة التي أخذته.

أما من حيث ثروة كاتيوشا فكان كل ما تملكه مائة وسبعة وعشرين روبلاً: سبعة وعشرين ربحتها من عملها، ومائة الروبل التي أعطاها إياها مُغويها. وعندما خرجت من بيت القابلة، بقي معها ست روبلات. كانت عاجزة عن الاحتفاظ بالمال: كانت مبذّرة على نفسها، وفضلاً عن ذلك فقد كانت تعطي كل من يطلب منها المال. فالقابلة أخذت منها أربعين روبلاً أجرة السكن عن شهرين؛ وذهب خمسة وعشرون روبلاً لتسفير الصبي إلى الملجأ. وابتزت منها القابلة أيضاً أربعين روبلاً كقرض لتشتري بها بقرة؛ أما العشرون روبلاً الباقية فقد أنفقتها كاتيوشا دون أن تعرف كيف، في شراء أشياء لا فائدة منها، وفي شراء الهدايا. وهكذا فعندما شفيتْ ألْفتْ نفسها صفر اليدين من المال، ومضطرة إلى البحث عن عمل. ووجدت ذلك العمل لدى أحد حراس الأحراج. كان متزوجاً، لكنه فعل منذ أول يوم ما فعله مفوّض الشرطة، أخذ يغازل خادمته. وحاولت هذه. منذ البداية، أن تتخلص من ملاحقاته، لأنها كانت حريصة على الاحتفاظ بعملها. لكنه كان أكثر تجربة ومكراً منها، وكان، على الخصوص، السيد الذي يستطيع

أن يأمرهـا بمـا يشـاء. وبعد أن ارتقـب اللحظة المناسبـة، ارتمى عليها وامتلكهـا. ولم تلبـث زوجته أن علمت بالأمـر. وذات يوم، فاجأت زوجها وحـده في الغرفة مع كاتيوشا، فضربـت الخادمة على وجهها حتى أدمته، وصرفتها دون أن تدفع لها أجرها.

عنـد ذاك اتجهـت كاتيوشـا إلى المدينـة، إلى منـزل عمـة لها كان زوجهـا مجلّداً. كان وضع هـذا الزوج حسناً فيمـا مضى، لكنه حين فقـد زبوناته، غدا سكّيراً ينفـق في الحانة كل ما يقع بين يديه من مال. أما الزوجة فكانت تملك مغسلاً تتيح لها أرباحه الهزيلة تغذية أولادها والإنفـاق على زوجها السكـير. وعرضت على كاتيوشـا أن تعلّمها مهنتهـا. لكن الفتـاة ترددت، حـين رأت الحياة الشاقة التـي تعيشها العامـلات الغاسلات عند عمتهـا. وآثرت أن تتقـدّم بطلب إلى أحد مكاتب الاستخدام تلتمـس فيه العمل كخادمة. في هذه المرة، ذهبت إلى منـزل أرملة تعيش مع ولديها الشابين. لكـن بعد نحو أسبوع من دخولها هذا البيت، أخذ الابن الأكبر، وهو طالب في السنة السادسة، طرّ شارباه، يهمـل دروسه ليغازل الخادمة الجميلة. فألقت الأم الغلطة كلها على كاتيوشا وطردتها.

لم تجـد كاتيوشـا عمـلاً جديـداً. وذات يوم صادفـت في مكتب الاستخدام الـذي رجعت إليه سيدة يداهـا العاريتان محمّلتان بالخواتم والأسـاور. ومـا أن علمـت السيدة بوضعهـا حتى أعطتهـا عنوانها ودعتها إلى المجـيء إليها. وذهبت «ماسلوفا» إليهـا. فاستقبلتها تلك السيـدة أحسن استقبال، وقدّمت لها الكثير من الحلوى والنبيذ الحلو، وأرسلت خادمتها إلى المدينة ومعها رسالة.

وفي المساء رأت كاتيوشا رجلاً طويل القامة. ذا شعر طويل أشيب، ولحيـة دبّ فيهـا الشيـب، يدخـل الغرفـة ويجلس بجانبهـا ثم أخذ يتفحّصها ويمازحهـا وعيناه تلتمعان. وعلى شفتيـه ابتسامة. فأخذته السيـدة وانتحت به برهـة في الغرفة المجـاورة. واستطاعت كاتيوشا أن تسمع هـذه الكلمات: «إنها ماتزال غضّـة، وهي تأتي مباشرة من الريـف». ثم دعتهـا السيدة وقالت لها: إن هـذا السيد الكهل كاتب وأنـه يملك الكثير من المال، وأنـه سيعطيها كل ما تطلب لو استطاعت أن تنـال إعجابه. والواقع أنهـا أعجبته، وأن الكاتب قد نقدها خمسة وعشرين روبلاً، ووعدها بأن يراها كثيراً. وسرعان ما أنفقت كاتيوشا ذلـك المال. فقد أرسلت جزءاً لعمتها الغسّالة هو أجرة إقامتها عندها؛ أمـا الباقـي فقد اشترت بـه فستاناً وقبعـةً وأشرطة، وبعـد بضعة أيام، أعطاهـا الكاتب أيضاً خمسة وعشرين روبلاً، ودعاها إلى أن تقيم معه في غرفة مفروشة.

وفي الغرفـة المؤثّثة التي استأجرها الكاتب لها، تعرفت «ماسلوفا» بموظـف في متجر، وهو فتى مرح يسكـن في الفناء نفسه. فأولعت به واعترفت بذلك للكاتب الذي تخلّى عنها من فوره. أما الموظف الذي وعدها بالزواج فقد سافر فجأة إلى «نيجني»، دون أن يقول لها شيئاً، وفي نيتـه أن يهجرهـا. وكان بودها لو تعيش وحدهـا في هذه الغرفة المؤثثة. لكن ذلك لم يُسمَـح لها: ذلك أن مفوّض الشرطة صرّح بأنها لا تستطيـع أن تفعل ذلـك إلا إذا طلبت البطاقـة الصفراء، وخضعت للكشف الطبي.

حينئـذ عادت كاتيوشا إلى منزل عمتها. وعندما رأتها هذه ترتدي فستانـاً حدَيثاً، وقبعةً جميلة، ومعطفاً من فرو. استقبلتها باحترام، و لم

تجـرؤ أن تعرض عليها الاشتغـال في مغسلها. ومنذ ذلك الوقت رأت أنها ارتقت إلى طبقة عليا من طبقات المجتمع. وكذلك فإن «ماسلوفا» نفسها، لم يكن ليخطر لها أن تشتغل في مشغل للغسيل. غاية ما كانت ترضـى به أن تقيـم موقتاً في غرفة عمتها. كانـت تنظر بشفقة مشوبة بالاحتقار إلى حياة الأشغال الشاقة التي تحياها، في المشغل، الغاسلات، وهـن ينهكن أنفسهن بفرك الغسيل وكيّـه، في درجة من الحرارة تبلغ الثلاثـين، والنافذة مفتوحة شتاء وصيفاً. في هـذه الفترة التي وصلت فيها كاتيوشا إلى أقصى الفاقة. وأعياها أن تجد حامياً واحداً لها، التقت قوّادة تصطاد الفتيات لبيوت الدعارة.

كانـت «ماسلوفـا» قد تعـودت التدخين منذ زمـن طويل. وفوق ذلـك فإنها أخذت تدمن الشـرب شيئاً فشيئاً، في الفـترة الأخيرة من علاقاتها مع الموظف التاجر. كانت الخمر تجذبها لا لأنها لذيذة الطعم فحسب، بل لأنها تلهيها عن واقعها، وبدون خمر كانت تحس بالغم، وبالعـار في الغالب، وكذلك حرصت تلك القـوّادة على دعوتها إلى مأدبـة هي وعمتها؛ ثم عرضت عليها، بعد أن أثملتها، أن تدخلها إلى بيـت فخم، أفضل بيت في المدينة، وزيّنت لها ضروب الرفاهية وفنون المزايـا في تلك الحيـاة التي ستحياها فيه. كان علـى ماسلوفا أن تختار بين أمريـن؛ فإما أن تختار عمل الخادمة المُـذل، فتعاني لحاجة الرجال وتنخرط في بغاء سري وموقت؛ وإما أن تختار وضعاً مضموناً وهادئاً، هـو البغاء العلني الذي يحميه القانـون ويُكافأ عليه بسخاء. فاختارت الأمر الثاني بطبيعة الحال. وبدا لها أنها تنتقم بذلك من الأمير مغويها، ومـن الموظف التاجر، ومن جميع الرجال الذين أساؤوا إليها. لكن ما أغراها على وجه الخصوص بهذا الاختيار، وهذا هو السبب الأساسي

لقرارها، كان الفكـرة التالية وهي أنها تستطيع أن تأمر لنفسها بجميع الفساتـين التي تحبّها، كمـا أكّدت لها تلـك المرأة القـوّادة. الفساتين المخملية والحريريـة المحبّبة. والحريرية الخالصـة وفساتين الرقص التي تكشف عن الكتفين والذراعين. وعندما تخيلت ماسلوفا نفسها وهي ترتدي فستاناً من الحريـر الأصفر الباهت المقّور، والمزخرف بالمخمل الأسود، لم تستطع أن تصمد، ووقعت العقد. وسرعان ما أمرت القوّادة بعربة وأخذتها إلى بيت «كيتايفا» الشهير.

منذ هذا اليوم بدأت، بالنسبة إلى ماسلوفا، تلك الحياة، حياة الخَرْق المستمر للقوانين الإلهية والبشرية، وهي حياة تحياها مئات آلاف النساء اليوم، لا بإذن السلطة الشرعية الحريصة على راحة الرعية فحسب، بل بحمايتهـا الفعلية أيضاً. إنها لحياة مخزيـة، فظيعة، تُفضي بتسعة أعشار هؤلاء النسوة إلى التقحُّل والعجز، وإلى الموت المبكر، بعد آلام مبرحة.

في الصبـاح وأثنـاء القسم الأكـبر من النهـار، هناك النـوم الثقيل بعد متاعـب الليل. وبين الساعـة الثالثة والرابعة استيقـاظ مُتعّب، في أغطية السرير المدنّسة، وجرعـات من المياه المعدنية ومن القهوة، وتمشٍّ في الغرفـة بالقميص أو بالمئـزر أو بثوب النوم، ونظـرات إلى الشارع من النافـذة ذات الستائر المغلقـة، ومشاجرات رخوة بـين النساء؛ ثم الاغتسـال والتزيـن وخنـق الجسد في مِشَـدٍّ مسرف الضيـق واختيار الفستان، والخصام مع صاحبـة البيت بهذا الصدد، ودراسة الأوضاع أمام المـرآة، وطلاء الخدّيـنَ بالمساحيق، وتكحيـل الرموش بالكحل؛ والموسيقـى والرقصـات والحلوى والخمـر والتبغ، ومعاشـرة الفتيان، والرجـال الناضجين، والمراهقين، والشيـوخ العاجزين، والمتزوجين؛ والعزّاب، والتجـار والسماسرة، والأرمن واليهـود والتتار، والأغنياء

والفقراء، والأصحاء والمرضى، والمخمورين والصاحين، والمتوحشين وأبنــاء الطبقة الراقية، والعسكريــين والموظفين والطلاب، ورجال من جميــع الفئات والأعمار والطباع. وصرخات وسخريات وضحكات وموسيقــا، وتبغ وخمر، وخمر وتبغ وموسيقا، من المساء حتى الفجر. في الصباح وحده، الحرية والنوم الثقيل. وهكذا في كل الأيام، من أول الأسبــوع إلى آخره. ثم في آخـر الأسبوع، الكشف الطّبيّ، في مكتب الشرطــة حيث يَجهْد رجــال آخرون، هم موظفــون في الدولة بثياب الأطباء، وقــورون وقساة حيناً، ومستهزئون حينــاً آخر، يجهدون في إذلال ذلــك الإحساس بالحياء الذي وهبتــه الطبيعة كوقاية، لا للجنس البشري وحده، بل للحيوانات أيضاً. كان هؤلاء الموظّفون يستعرضون النســاء، ثم يعطونهنّ بعد ذلك شهــادة تسمح لهن بمتابعة الحياة نفسها أثنــاء الأسبــوع الآتي. أو هكــذا إلى ما لا نهاية، شتــاء وصيفاً، في أيام الأعياد الكبرى. وفي أيام العمل على السواء.

عاشــت «ماسلوفا» هذه الحياة طــوال سبع سنوات، وغيّرت البيت مرتــين، واضطُرت مــرة إلى الإقامة في المستشفــى. وفي غضون السنة السابعــة –وكان عمرها حينئذ ستة وعشرين عاماً– وقع الحادث الذي استوجــب أن تُقاد الآن إلى محكمة الجنايات، بعد سجن وقائي دام عدة أشهر، بصحبة كائنات مهنتها السرقة والقتل.

× × ×

-٣-

حـين دنت ماسلوفا مع مرافقيها مـن قصر العدل، في نهاية المسيرة الطويلـة، كان الأمير «دميتري إيفانوفتشـ نيكليودوف»، وهو نفسه الذي أغواها من قبل، يستيقظ في سريره الكبير ذي النوابض، والمغطّى بلحـاف ناعم من الريش. كان يرتدي قميص الليل، وهو قميص من قماش هولنـدي مغضّن بأناقة على الصدر، ويتكئ على مرفقه بفتور، ويفكّر، وهو يشعل سيجارة، بمـا فعله البارحة وبما سيفعله هذا اليوم. وعـادت إليه ذكرى سهرة البارحة التي قضاها في منزل آل كوراغين. كانـا زوجـين ثريين جـداً، محترمين جـداً، أشـاع الناس جميعـاً بأنه سيتزوج ابنتهمـا. دفعته الذكرى إلى التنهد. وبعـد ذلك رمى لفّافته، ومـدّ يده نحـو علبة فضية لتناول لفافة أخـرى، لكنه ما لبث أن عدل عن ذلك، ورفـع بشجاعة جسده المتثاقل، وأخـرج من السرير قدميه البيضاويـن اللتين تناثر عليهما الشعـر، واحتذى بهما خفّيه. ثم غطى كتفيـه العريضتين بمبذل حريري ومضى بخطاً ثقيلة وسريعة إلى حجرة الاغتسـال المجـاورة. وهنا شـرع ينظـف أسنانه المرصّصـة في عدة مواضـع، بعنايـة وبمسحوق خاص؛ ثـم شطفها بسائـل طبّي معطّر؛ ثـم دنا من مغسلـة المرمر وغسل يديـه بصابونة معطّـرة، مجتهداً على

الخصوص في تنظيف أظافره وفركها. وعندما انتهى من ذلك، فتح ماء المغسلـة بقوة، وغسل وجهه وأذنيه وعنقــه. وحينئذ انتقل إلى حجرة ثالثة أقيم فيها طقــم الرشاشات: فأنعش دفق الماء البارد جسده القوي العضلات والممتلئ شحماً. وبعد أن جفف جسمه بمناشف اسفنجية، بـدّل قميصه، واحتذى حذاءً لماعاً كالمـرآة، وجلس أمام المرآة، وأخذ يمتشـط بمجموعتين من الفراشي، مشط أول الأمـر لحيته السوداء، ثم مشط شعره الذي غدا نــادراً في أعلى رأسه. كانت كل الأدوات التي استخدمهــا لزينته: الثياب الداخلية والخارجيــة، الحذاءن ربطة العنق، الدبابيســ، أزرار الأكمــام، كل ذلــك كان من الصنــف الأول، كان شديد البساطة، جذّاباً للنظر، بالغ المتانة وباهظ الثمن.

انتهى نيكليــودوف من ارتداء ملابسه، دون عجلــة؛ ثم قصد إلى قاعــة الطعام، وهــي غرفة طويلة اشتغل ثلاثة رجــال أشداء، في تلميع أرضيتهــا الخشبيــة، عشيــة البارحــة. وفي هذه القاعة صــوانٌ ضخم للسفــرة من السنديــان، ومائدة لا تقل ضخامة عنــه، وهي طاولة من السنديــان أضيفــت إليهــا وصلة: وعليهــا مسحة رسميــة، بقوائمها الأربــع المحفورة والمتباعــدة، محاكية شكل قوائــم الأسد. وعلى هذه الطاولــة المغطاة بغطاء ناعم ومنشــى، ومزيّن بعقد ضخمة في زواياه، وُضعــت غلاّية فضية مليئــة بالقهوة الأرجة، وسكّريــة فضية، ووعاء للقشدة وسلّة تحتوي على أرغفة صغيرة طازجة، وعلى الخبز المحمّص والبسكويت. وأخــيراً وضع بقرب الشوكة والسكين، بريد الصباح: الرسائل والصحف وكراس من «مجلة العالمين».

كان نيكليودوف يستعــد ليفضّ بريده، عندما دخلت قاعة الطعام

من الباب الذي يطلّ على البهو، امرأة بدينة، متوسطة العمر وهي، في ثياب الحداد، وعلى رأسها قبعة من الدنتيلا. كانت هذه هي «اغرافينا بيتوفنا» وصيفة الأميرة العجوز، أم نيكليودوف التي ماتت قبل زمن في هذا البيت. وقد بقيت الوصيفة قرب الابن بصفتها مدبّرة لشؤون البيت.

أقامت أغرافينا بيتروفنا في الخارج، عدة مرات، إقامات طويلة مع أم نيكليودوف: كان لها مظهر السيدة وطرائقها. وقد سكنت في منزل آل نيكليودوف منذ الطفولة وعرفت دميتري إيفانوفتش، عندما لم يكن سوى الطفل «اماتينكا»:

– طاب يومك، يا دميتري إيفانوفتش!

– طاب يومك، يا أغرافينا بيتروفنا!

ثم استفهم نيكليودوف بلهجة المزاح:

– ما الجديد؟

قالت اغرافينا بيتروفنا وهي تمد رسالة وتبتسم ابتسامة ذات مغزى:

– هذه رسالة لك، حملتها وصيفة كور تشاغين منذ زمن طويل، وهي ماتزال تنتظر عندي.

أجابها نيكليودوف وهو يتناول الرسالة:

– حسناً، سآتي في الحال.

لكنه رأى ابتسامة أغرافينا بيتروفنا فاربدّ وجهه.

كانت ابتسامــة أغرافينا بيتروفنا تعني أنها تعلم أن الرسالة تأتي من الأميرة الشابة كورتشاغين، وكانت تظن أن سيدها سيتزوج بها. لكن هذا الافتراض لم يكن يروق لنيكليودوف.

– قولي للوصيفة أن تنتظر!

غــادرت أغرافينا بيتروفنا الغرفة بمهابة، و لم تَنْس، قبل خروجها أن تُعيد فرشاة منسيّة على الطاولة إلى موضعها.

فض نيكليودوف المغلّف المعطــر وفتح الرسالة المكتوبة على ورق سميك رمادي بخط دقيق وغير منتظم:

«قيامــاً مني بالمهمة التي أخذتُها على عاتقي وهي أن أكون مذكّرةً لــك، فإني أذكّرك بأنه ينبغي لك في هــذا اليوم، ٢٨ نيسان، أن تكون بــين محلفي محكمة الجنايات. وبالتالي، فسيكــون من المستحيل عليك أن تذهــب معنا ومع كولوســوف لرؤية معرض اللوحات كما وعدتنا أمســ بخفتك المعتــادة. إلا إذا شئت أن تدفع لمحكمة الجنايات غرامة ثلاثمائــة الروبل التــي تأباها على جوادك. تذكــرتُ ذلك أمس، بعد ذهابك، فلا تنسَ!»

بر. م. كروتشاغين

وعلى الصفحة الأخرى كُتب:

"تقول لك أمي إننا ننتظرك على العشاء، فتعال بدون إبطاء في أية ساعة شئت".

م.ك

قطب نيكليودوف بين حاجبيه. لقد كانت هذه البطاقة تتمة للحملة التي شرعت بها قبل شهرين من حوله. الأميرة كورتشاغين، لتُحكم لفّه بالحبائل التي يغدو من الصعب فكّها. ومن جهة أخرى، ففضلاً عن ذلك التردد الذي يشعر به، أمام الزواج، الرجال الذين بلغوا سنَّ النضج وتعودوا العزوبة، وامتنعوا، فوق ذلك، على الغرام، كان هناك أيضاً دافعٌ آخر يمنعه من إعلان رغبته في الزواج، حتى لو صمّم على ذلك الزواج. هذا الدافع لم يكن له علاقة بكون نيكليودوف قد أغوى كاتيوشا قبل ثماني سنوات ثم هجرها: وهو أمر لم يكن يحبّ التفكير فيه. وعلى كل حال فلم يكن يخطر بباله أن ذلك يحول دون زواجه بالأميرة الشابة. لقد جاء امتعاضُه من أن له علاقات سرية مع امرأة متزوجة؛ والحقيقة أنه قرر، ومنذ أمد قريب، أن يفصم هذه العلاقة، لكن عشيقته أبت أن تعترف بذلك الفصم.

كان نيكليودوف خجلاً جداً مع النساء؛ ولقد أوحى ذلك الخجلُ إلى "ماريا فاسيلييفنا"، وهي زوجة أحد مارشالات النبلاء، بالرغبة في إخضاعه. فجرّته، بالفعل، إلى علاقة كانت تغدو من يوم إلى يوم أكثر استغراقاً له، وأشد ثقلاً على نفسه. في البدء، لم يستطع نيكليودوف أن يقاوم الإغراء، و لم يستطع، فيما بعد، عندما أحس بأنه آثم تجاه عشيقته، أن يعزم على قطع علاقاته بها دون أن ينال موافقتها المسبقة. أما هي فبدلاً من أن توافق قالت له: إنه لو هجرها الآن وقد ضحّت له بكل شيء، فلسوف تقتل نفسها.

كان في بريد نيكليودوف، هذا الصباح، رسالة من زوج عشيقته؛ عرف الأمير ذلك من الخط والخاتم. فاحمرّ خجلاً وأحس بانتفاضة

القـوة التي يحسّها دائماً عند دنـوّ الخطر، لكن انفعاله هدأ عندما فتح الرسالة. ذلك أن زوج "ماريـا فاسيليفنا" مارشال النبلاء في المقاطعة التـي فيها أعظم أملاك أسـرة نيكليودوف، كتب إلى الأمـير ليبلّغه أن جلسـة استثنائيـة للمجلس الذي يرأسـه ستُفتتح في نهايـة أيار؛ وهو يرجوه، أن يحضر بكل تأكيد، ويشارك فيها لكي يسانده، لأن النقاش سيتناول مسألتين خطيرتين، قضية المدارس ومسألة الطرق بين القرى. وهو يتوقع معارضةً شديدة من الحزب الرجعي في هاتين المسألتين.

كان هـذا المارشـال، بالفعـل، متحـرراً؛ وكان يناضـل مع بعض المتحررين من شاكلته، ضد الرجعية التي أخذت تَنْزع إلى تدعيم ذاتها في عهـد الاسكندر الثالث. وكان هذا النضال يستأثر به بحيث لم يبق لديه وقت ليرى أن امرأته تخدعه.

تذكّـر نيكليودوف قلقـه القديم؛ تذكّر كيف تخيّـل ذات يوم، أن الزوج اكتشف كل شيء، فهيّأ نفسه للمبارزة، ونوى أن يطلق النار في الهـواء. واستعاد في فكره مشاحنته مع عشيقتـه، عندما انتابها اليأس ووثبـت إلى الحديقة وجـرت إلى المستنقع لتُغرق نفسها فيه. وفكّر في نفسـه: "لا أستطيع أن أذهـب إلى تلك الجلسة في هذا الوقت، ولا أن أباشـر شيئاً قبل أن يأتيني جوابهـا". وكان قد كتب إلى عشيقته رسالة حاسمة يعترف فيها بأنه مذنب، ويصرح بأنه مستعد للتكفير عن ذنبه، لكنـه أنهى الرسالـة قائـلاً: إن علاقاتهما يجب أن تنتهـي إلى الأبد، وذلـك لخيرها هي. وعلى هذه الرسالـة كان ينتظر الرد الذي لم يأت. بـدا له عدم الرد فألاً حسناً. فلـو أن عشيقته لم ترضَ بالقطيعة لكتبت إليـه منذ زمن بعيـد، أو لجأت هي نفسها، كما فعلـت ذلك من قبل.

ولقد سمع أن أحد الضباط يغازل ماريا فاسيلييفا؛ فآلمته الغيرة من هذا المنافس، لكن ذلك أفرحه، في الوقت نفسه، إذ منحه الأمل بإمكان الانعتاق من هذا الكذب الذي ثَقُل عليه.

رسالة أخرى وجدها نيكليودوف في بريده آتية من الوكيل الرئيسي لأملاك أمه التي آلت إليه تركتُها منذ بعض الوقت. كتب إليه هذا الوكيل يخبره بأنه يجب أن يتوجه إلى أملاكه ليحصل على إثبات حقوقه في الإرث، وينظّم إدارة الأملاك المذكورة: فإما أن يفعل ما فعلته المرحومة الأميرة في حياتها، وإما أن يفسخ العقود ويستردّ من الفلاحين جميع الأراضي التي استأجروها، وهو ما نصح به الوكيل أمه من قبل. وكان الوكيل يؤكد في رسالته أن الاستثمار المباشر لهذه الأراضي أكثر نفعاً بما لا يُحصى، ويعتذر عن التأخر بإرسال الريع ومقدارُه ثلاثة آلاف روبل هي حصة الأمير: وسيُرسَل إليه هذا المبلغ في البريد المقبل. ومردُّ هذا التأخر أن الوكيل يجد أعظم المشقات في تحصيل المال من الفلاحين الذين بلغت بهم قلةُ الوجدان حدّاً اضطرّوه إلى استخدام القوة ليدفعوا ما عليهم.

سرّتْ هذه الرسالة نيكليودوف وساءته في الوقت نفسه، لقد سُرَّ إذ أحسّ بنفسه مالكاً لثروة أعظم من الثروة التي امتلكها حتّى الآن، ولكنّه تذكّر، من جهة أخرى، حين تحمّس في مطلع شبابه، بما في الشباب من كرم وعزم، لنظريات سبنسر وهنري جورج الإجتماعية، إنه لم يفكّر فقط في أن الأرض لا يمكن أن تكون غرضاً للملكية الفردية، ولم يعلن ويكتب عن ذلك فقط، بل إنه أعطى الفلاحين ملكية صغيرة ورثها عن أبيه، وذلك لكي يطابق بين أفعاله ومبادئه.

والآن بعد أن جعل منه موتُ أمه ملاّكاً كبيراً، ألفى نفسه بين خيارين: إمــا أن يتنــازل عــن جميع أملاكه كمــا فعل قبل عشر سنــوات عندما تنــازل عن مائتي هكتار ورثها عن أبيه؛ وإما أن يضع يده على أراضيه فيعــترف بذلك على نحو ضمني وصريح بأن المبــادئ التي دافع عنها قديماً خاطئة وكاذبة.

كان الاختيــار الأول مستحيلاً، بالنسبة إليه، مــن الناحية الفعلية، لأن أملاكه هي كل ثروته. والعودة إلى الخدمة أمر لم يكن ليقدم عليه؛ فقــد ألِفَ حياةَ الفراغ والترف كثــيراً حتى غدا عاجزاً عن التفكير في الإقــلاع عنها. ثم إن التضحيــة لا جدوى منها. ذلك أن نيكليودوف لم يعد يجد في نفسه لا قوة القناعة ولا العزم اللذين صاحباه في شبابه.

لكــن الاختيار الثــاني وقوامُه أن يتنكّــر صراحةً للمبــادئ النزيهة والكريمة التي طالما افتخر بها بدا له مستحيلاً أيضاً.

ولذلك كانت رسالة الوكيل مبعثاً لاغتمامه.

× × ×

-٤-

عندمـا انتهى نيكليودوف من فطـوره، انتقل إلى مكتبه، كان يريد أن يقـرأ، في الدعوة الموجهة إليه، ساعة الجلسة في قصر العدل، وكان عليه أيضاً أن يرد على الأميرة كورتشاغين، وعَبرَ مشاغله الذي عُلقت فيـه علـى الحامل لوحة شـرع برسمهـا، والذي تدلّت علـى جدرانه دراسـات شتّى. إن هـذه اللوحة الذي مازال يشتغـل فيها منذ سنتين دون أن يتمكـن من إنجازها، ودراساتـه، وتخطيطاته وبكلمة واحدة إن حالة مشغله ابتعثت فيه الإحساس المتزايد بعجزه عن التقدم في فن التصوير، والشعـور بنقصان موهبتـه. وكان، في الحقيقة، يعزو ذلك الإحساس إلى الإرهاف المفرط لذوقه الفنـي؛ لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في أنه قد ترك الجيش، قبل خمس سنوات، لاعتقاده أنـه اكتشف في ذاتـه موهبة الفنان. ولذلك كان أقـرب إلى الاكتئاب عندما دخل مكتبـه الواسع المغطّى بالمذهبات والممتلئ بوسائل الراحة الفاخرة. واقترب من مكتب كبير مليء بالأدراج المُعَنْونة، ففتح درجاً كُتـب عليه «عاجـل»، ووجد فيه البلاغ الذي يبحـث عنه. كان هذا البـلاغ يُنبئه أن عليه الحضور إلى قصر العدل في الساعة الحادية عشرة. ثم أغلق نيكليودوف الدرج، وجلس، وبدأ رسالة ليشكر الأميرة على

دعوتهـا، وليقول لها إنـه يأمل أن يستطيع المجـيء للغداء بعد الظهر. لكنـه مـزّق الرسالة بعد أن كتبهـا، كانت لهجة الرسالة أكـثر ألفةً مما ينبغـي، ومزّق الرسالـة الثانية أيضاً: كانت مسرفـةَ البرودة، بل كانت خاليـة من التهذيـب، ودقّ الجرس، فدخل الغرفة خـادم كبير السن، وقور الهيئة. حليق الوجه، يلبس وزرة من القطن الرمادي.

– ائتني بعربة!

– وقلْ للمرأة التي تنتظر إنني أشكر الأميرة وأنني سأحاول المجيء. وفكّـر نيكليودوف: «هذا غير لائق، لكنـي لم أوفّق في الكتابة! على كل حال، سوف أراها اليوم».

ارتدى ثيابه وخرج إلى سطح الدّرج، فكانت العربة التي تُقلّه عادةً والتي غُلِّفت عجلاتُها بالمطّاط، تنتظره.

قال له الحوذي الذي استدار نحوه نصف استدارة:

– ما كـدت تخرج، مسـاء البارحة، من عند الأمـير كورتشاغين حتى وصلت. قال لي الخادم: «قد خرج قبل هنيهة»:

فكّر نيكليودوف: «حتى الحوذيـون أنفسهم يعرفون علاقتي بآل كورتشاغـين». ومَثلتْ أمامه، مرة أخرى، تلك المسألة: وهي أن يعلم إن كان ينبغـي أن يتزوج الأميرة الشّابة أم لا، و لم يتوصّل إلى البتّ في هذه المسألة، لا بهذا الاتجاه ولا بذاك.

كانـت تؤيّد الزواج حجتان. أولاً إن الزواج، فضلاً عما يوفّره من

راحــة في المنزل، يُبعد عنه شذوذ حياته الجنسيــة، ويؤمّن إمكان حياة كريمة وأخلاقية؛ ثانياً وعلى وجــه الخصوص، كان نيكليودوف يأمل أن تَهــبَ العائلة والأولاد حياته هدفــاً، بعد أن غدت الآن بلا هدف. أما ضد الزواج فقد كان هناك، من جهة، ذلك النوع من الخوف الذي يوحــي به إلى العزّاب المسنين احتمــال فقدانهم حريتهم؛ وهناك أيضاً من جهــة أخرى، ذلك الخوف اللاواعي من الخفايا التي تحتوي عليها طبيعة المرأة.

الحجــة الأولى المؤيدة للــزواج بميسي («ميسي» هــو اللقب الذي كانــت تُلقّــب به الأمــيرة الشابــة كورتشاغــين في حياتهــا الخاصّة، والتّــي كان اسمُهــا الحقيقــي مــاري) هو أن الفتــاة تنتمــي إلى عائلة كريمــة وأنها، في كل الأشياء، بــدءاً من زينتها حتى طريقتها في الكلام والمشــي والضحك، تختلف عن عموم النســاء، لا بشيء استثنائي بل «بتميّزهــا». لم يكن نيكليودوف يجد كلمة أخــرى غير «تميّز» لتدلّ علــى تلك الصفة التي كان يُكبرهــا إلى أقصى حد. والحجة الثانية هي أنها كانــت تقدّره أكثر من غيرها، وتفهمه أكــثر من غيرها؛ ولكونها كانت تفهمه، أي تقرّ بمزاياه الرفيعة، فقد وجد في ذلك الدليل القاطع علــى ذكائهــا وصحّة حكمها، لكــن كان هناك حجــج خطيرة ضد الــزواج بميسي: الحجة الأولى هــي أن باستطاعــة نيكليودوف، على الأغلب، أن يعثر على فتاة أكثر «تميزاً» منها؛ والثانية أن ميسي صارت في السابعــة والعشرين ومن المحتمــل أنها أحبت رجالاً آخرين. وهذه الفكــرة كانت تعذّب نيكليودوف، فلم يكن غروره ليرضى أن تكون هــذه الفتاة قد أحبّت، حتــى في الماضي، أحداً غــيره. ولا ريب أنه لا يستطيــع أن يطلب من الفتاة أن تعرف مسبقــاً أنها ستلتقيه ذات يوم؛

لكن مجرّد التفكير بأنها أحبّت غيره كان إذلالاً له. وهكذا فإن الحجج التي تؤيـد الزواج وتنقضه كانت متساويـة. وكان نيكليودوف يشبّه نفسـه، في شيء مـن الدعابة، بحمار «بوريـدان». لكنه ظل مع ذلك شبيهاً بحمار «بوريدان» فلا يدري نحو أي من حزمتي القش يتجه.

وفكّر في نفسه: «ثم إنني مادمت لم أتلقَ رداً من «ماريا فاسيلييفنا» و لم تنته تلك القضية، فمن المستحيل علي أن ألتزم شيئاً».

سرّه هـذا الإحساس بضرورة تأجيل قراره. وقـال في نفسه أيضاً، بينمـا كانت عربته تجري دون ضوضـاء على إسفلت فناء قصر العدل: «سأفكـر في ذلك فيما بعد». وقال وهو يمر قرب حارس قصر العدل: «القضيـة الأساسية الآن بالنسبة إلي هـي أن أؤدّي واجبي الاجتماعي بالعنايـة التي أُعالجُ بها كل شـيء. ثم إن هذه الجلسات شائقة جداً في الغالب.

× × ×

-٥-

عندما دخل نيكليودوف قصر العدل، كانت الممرات تعجّ بالحركة. كان الحراس يركضون وهم يحملون الأوراق، وكان آخرون يمشون بخطىً رصينة وهادئة، وأيديهم خلف ظهورهم. وكان الحُجاب والمحامون ووكلاء الدعاوى يتمشّون ذهاباً وإياباً؛ أما أصحاب الطلبات والمتّهمون الطلقاء فقد انزووا بتواضع قرب الجدران، أو ظلّوا جالسين في مقاعدهم ينتظرون.

سأل نيكليودوف أحد الحراس:

- أين محكمة المقاطعة؟

- أية محكمة؟ الجنائية أم المدنية؟

- أنا محلّف.

- إذن، محكمة الجنايات! كان يجب أن تقول ذلك فوراً. اذهب إلى اليمين ثم إلى اليسار، الباب الثاني.

سار نيكليودوف في الممرات.

أمام الباب الذي أشار إليـه الحارس وقف رجلان وهما يتحدثان. كان أحدهمـا تاجراً ضخم الجسم، ولا شك أنـه أكل وشرب بوفرة؛ استعـداداً للقيام بمهمته، فبـدا في أبهج حالاته الذهنيـة؛ وكان الآخر وكيـلاً تجارياً مـن أصل يهودي. كانـا يتحدثان عن سعـر الأصواف عندمـا اقترب منهمـا نيكليـودوف وسألهما إن كان هـذا هو المكان الذي يجتمع فيه المحلفون.

- نعم، يا سيدي، هو بعينه.

وأضاف التاجر الباش وهو يبتسم ويغمز بعينه.

- لاشك أنك محلّف أيضاً، أحد زملائنا؟

وبعد أن ردّ نيكليودوف بالإيجاب تابع قائلاً:

- حسناً! سنعمل معاً!

وأضاف وهو يمدّ يده العريضة للأمير:

- باكلاشـوف. من الجمعية التجاريـة[٧] الثانية. ومع مَنْ لي شرفُ الحديث؟

سمّى نيكليودوف نفسه ودخل قاعة المحلّفين.

همس اليهودي:

---

٧. كان أغنى التجار في المدينة يشكلون الجمعية الأولى والجمعية الثانية.

– هذا الذي كان أبوه ملحقاً بالإمبراطور.

واستخبر التاجر:

– ولديه ثروة؟

– إنه واسع الثراء.

في غرفـة المحلّفين الصغيرة، اجتمع حوالي اثنـي عشر شخصاً من جميـع الفئات، كلهم وصلوا قبل قليل، كان بعضهم جالساً وبعضهم يتمشّـى ذهاباً وإياباً. وقد أخذ يفحص بعضهم بعضاً ويتعارفون؛ كان بينهم عقيد متقاعد، في بزتـه؛ وكان بعض المحلفين الآخرين يلبسون السـترة الرسمية أو السـترة القصيرة؛ محلّف واحد فقـط كان في ثيابه العادية. كثير منهم تركوا أعمالهم ليؤدوا مهمات المحلفين. و لم يكفّوا عن الشكوى مـن ذلك، وبالرغم من ذلك فقد ارتسم على وجوههم الرضا الممتزج الإفتخار، والشعور بأنهم يؤدون واجباً اجتماعياً.

بعـد أن انتهى هذا الفحص الأول، تجمّع المحلّفون دون أن يعمّقوا علاقاتهـم. ودار الحديث عن الطقس، وعن قدوم الربيع المبكّر، وعن الدعاوى المسجّلة في الجدول. وبادر عدد كبير من المحلفين إلى التعرّف بالأمـير نيكليودوف؛ ولاشك أنهم رأوا في ذلك التعرّف شرفاً عظيماً لهم. ووجد نيكليودوف ذلك طبيعياً ومشروعاً، كدأبه دائماً. ولو أنه سُئل لمـاذا يعتبر نفسه أسمى من معظم الناس لعجز عن الإجابة، لأن حياتـه، ولاسيما في الآونة الأخيرة، لم يكن فيهـا ما يستحقّ التقدير. كان، في الحقيقـة، يتكلـم الفرنسيـة والإنكليزيـة والألمانيـة بطلاقة؛

وكانــت ملابسه الداخليــة والخارجية وربطات عنقــه وأزرار أكمامه تأتيــه دائماً من أشهر المخــازن، وكانت أغلى مما هو موجود؛ لكنه هو نفسه مــا كان يزعم أن ذلك كله صفة كافية لتجعــل منه كائناً أسمى، علــى أنّه كان يشعر شعوراً عميقاً بسمــوّه، ويعتبر مظاهر التكريم التي يخصه الناس بها كأنها واجبة الأداء. وكان غياب ذلك التكريم يجرحه وكأنه إهانة.

مثــل هذه الإهانة كانــت تنتظره في غرفة المحلّفــين بالضّبط، فبين المحلّفــين كان رجل يعرفــه، اسمه بطرس غيراسيموفتس – لم يعرف نيكليــودوف قــط اسم عائلتــه– كان مربيــاً لأولاد أختــه. وقد أنهى بطرس هذا دروسه وأصبح في الوقت الحاضر أستاذاً في معهد ثانوي. كان نيكليــودوف يجده ثقيل الظل بسبــب دالته، وضحكه الذي ينمّ علــى الإعجاب بالذات، وسوء تصرّفاته، وهيئته «المبتذلة» كما كانت تقول ابنة أخت «نيكليودوف».

قال للأمير وهو يتقدم نحوه وعلى وجهه ضحكةً عريضة:

– آه! وأنت أيضاً، جاء بك الحظ! ألم تسعَ إلى إعفاء نفسك.

أجاب نيكليودوف بجفاف:

– لم يمرّ ببالي قط أن أسعى إلى إعفاء نفسي.

تابع المربّي كلامه وهو يضحك ضحكاً أشد:

– عظيــم! هذه صفــة حسنة من صفات الشّجاعــة المدنيّة، سترى كيف ستتألم من الجوع! ولا سبيل إلى النوم أو الشرب!

وفكّر نيكليودوف:

«ابنُ الكاهن هذا لن يلبث طويلاً حتى يخاطبني بضمير المفرد!» وأسبغَ على وجهه تعبيراً حزيناً كأنه علم قبل هنيهة، بموت أحد أقربائه، فأدار ظهره لبطرس غيراسيموفتش ليقترب من جماعةٍ تشكّلت من حول شخص طويل القامة، حليق الوجه، عظيم الوقارً، منهمك في رواية قصة ما. كان يتحدث عن دعوى تحكم فيها المحكمة المدنية، ويتكلم كمن يعرف بعمق القضية برمّتها مسمّياً القُضاةَ والمحامين بأسمائهم. وقد أفاض في الحديث عن الوجهة الغريبة التي وجّه بها الدعوى محام شهير من بطرسبرج، فبفضله أيقنت سيدة عجوز بأنها ستخسر دعواها مع أنها هي صاحبة الحق. وهتف:

– إنه عبقري، ذلك المحامي!

كان الحضور يصغون إليه بانتباه، فأراد بعض المحلّفين أن يبدوا رأيهم، لكنه كان لا يلبث أن يقاطعهم، وكأنه كان وحده يعرف بدقة حقيقة الأمر.

كان على نيكليودوف أن ينتظر طويلاً في غرفة المحلّفين، مع أنه وصل متأخراً إلى قصر العدل: ذلك أن أحد أعضاء المحكمة لم يكن قد وصل بعد؛ وكانوا ينتظرونه ليفتتحوا الجلسة.

× × ×

-٦-

أما رئيس محكمة الجنايات فقــد وصل إلى قصر العدل مبكّراً. كان رجلاً طويلاً وبديناً، له سالفان طويلان وخطهما الشيب. وكان، وهو متزوج، يعيش حيـاة ماجنةً، وكانت امرأته تفعــل مثله: كان مبدؤها ألا يضايـق أحدهمـا الآخــر. وفي صباح هــذا اليوم بالــذات، تلقّى الرئيــس بطاقة من مربية سويسرية عملــت قديماً في بيته، وهي تمرّ الآن بالمدينــة قاصــدةً إلى بطرسبرج، تقول فيها: إنهــا ستنتظره بين الساعة الثالثــة والساعــة السادسة في فنــدق إيطاليا. ولذلــك كان مستعجلاً ليبدأ ولينهــي جلسةَ اليوم بأسرع ما يمكن حتى يتسنّى له لقاء «كلارا» في الساعــة السادسة، تلــك الشقراء التي بدأ معهــا مغامرة غرامية في الصيف الماضي.

حــين دخل مكتبه، أغلق الباب بالمفتــاح، وتناول من درج الخزانة الأسفــل ثقالــة الحديد، وقام بعشريــن حركة إلى الأمــام وإلى الخلف، وعلى الجانــب، وإلى الأعلى وإلى الأسفل. وبعــد أن فعل ذلك ثلاث مرات متوالية طوى ركبتيه طياً خفيفاً وهو يرفع الثقالة فوق رأسه.

وفكّر وهو يقرص بيده اليسرى التي يلتمع فيها خاتم ذهبي، العضلة

البارزة في ذراعه اليمنى: لا شيء يُكسبنا النشاط مثل الإغتسال بالماء والرياضة. وكان يتأهب أيضاً للقيام بتمرين «الطواحين» – إعتاد أن يقوم بهذين التدريبين قبل كل جلسة طويلة –عندما اهتزّ الباب. كان وراءه من يحاول فتحه. فبادر الرئيس إلى إخفاء الثقالة وفتح الباب. قال:

– معذرة.

دخل الغرفة أحد قضاة المحكمة. كان رجلاً قصير القامة، مقرّن الكتفين، حزين الوجه، يضع على أنفه نظارة ذهبية. وهتف بصوت نحيل:

– حسناً! لقد حان الوقت!

أجاب الرئيس وهو يرتدي بزّته:

– أنا جاهز. لكن «ماتيو نيكيتتش» لم يحضر بعد!

فوافقه القاضي قائلاً:

– في الحقيقة، لقد بلغت به قلّةُ الوجدان حدًّا بعيداً.

وجلس على أحد المقاعد، وهو بادي الإمتعاض، وأشعل لفّافة.

وقعت بين هذا القاضي، وهو رجل دقيق للغاية، وبين زوجته مشاحنة، هذا الصباح، كأسوأ ما تكون المشاحنة، لأنها أنفقت مال الشهر بسرعة فائقة. وطلبت سلفة فرفض: ومن هنا المشاحنة. وأعلنت

المـرأة أنها لن تعدّ العشاء في هذه الشّروط، ومضى القاضي إلى عمله وهـو يخشى أن تنفّـذ تهديدها، لأنه يعلم أنها قـادرة على كل شيء. قال في نفسـه وهو ينظر إلى الرئيس، هذا الرجـل الضخم الذي يشعّ عافيـة وطيب مزاج، والذي بسط مرفقيه وأخذ يملّس بيديه البيضاوين الشعر السميـك والحريري في سالفيه الطويلـين ليرتبهما على جانبي ياقتـه المزيّنة بأشرطة، قال في نفسه: «اذهـب وعش بعد ذلك حياتك المستقيمة التي لا غبار عليها. هو مرح دائماً، راضٍ دائماً، أما أنا فليس لي سوى المتاعب».

في هذه اللحظـة، دخل كاتب المحكمة، يحمـل وثائق طلبها منه الرئيس.

قال الرئيس وهو يشعل لفافة:

– أشكرك. وبأية قضية سنبدأ؟

أجاب الكاتب:

– بقضية التسميم، في رأيي، إلا إذا شئت أن تغيّر الترتيب.

قال الرئيس:

– حسناً، ليكنْ، فلنبدأ بالتسميم.

قال ذلك وهو يقدّر أن هذه القضية ستكون قضية بسيطة جداً يمكن أن يبـتّ فيها قبل أربع ساعات ممـا يتيح له أن يذهب للقاء السويسرية. وسأل أيضاً الكاتب الذي همّ بالخروج:

– و«بريف»، هل حضر؟

– نعم، أعتقد.

– إذن قل له إننا سنبدأ بقضية التسميم.

كان «بريف» وكيل النيابة الذي سيمثّل الإتّهام في جلسة الجنايات هذه.

صادفه الكاتب في رواق المحكمة حاني الرأس، محلول السترة، حاملاً محفظة الأوراق تحت ذراعه، وهو يمشي بخطىً حثيثة، بل وهو يكاد يركض، ضارباً الأرض بعقبيه، محركاً ذراعه بحركة محمومة.

سأله الكاتب وهو يحاذيه:

– ميشيل بيتروفيتش يسأل إن كنت مستعداً؟

– بالطبع! أنا دائماً مستعد. وبأية قضية سنبدأ؟

– بقضية التسميم.

– ممتاز.

الحقيقة أنه لم يكن يجد ذلك «ممتازاً» في شيء: ذلك أنه قضى ليلته يقامرُ في مقهى، مع شباب آخرين، وأوصلوا رفيقاً إلى بيته، وشربوا كثيراً، ولعبوا حتى الساعة الخامسة صباحاً، ثم ذهبوا لمعاشرة النساء في ذلك البيت الذي عاشت فيه «ماسلوفا» قبل ستة أشهر. وهكذا

لم يتّسع الوقــت لوكيل النيابة كي يلقي، ولو نظرة خاطفة، على ملف قضيــة التسميم التي سيُنظَر فيها. لم يكن الكاتب يجهل ذلك، فأوحى عــن قصد إلى الرئيس أن يبدأ بهذه القضيــة التي لم تتسنَّ لوكيل النيابة دراستهــا. لأن الكاتــب كان متحرراً، إن لم نقــل راديكالياً، وذلك لم يكن يمنعه من أن يعمل في القضاء، وأن يطمح إلى منصب وكيل نيابة. أمــا «بريف» فكان محافظاً ومتحمّساً أشــد التحمّس للنزعة التقليدية، شأنــه شأن معظــم الألمان الذين يعملون في روسيــا بصفتهم موظفين. كان الكاتب يحسده على منصبه ولا يحسّ بأية مودّة تجاهه.

وسأله الكاتب:

– وقضية «السكوبتسي»؟[٨]

أجاب الوكيل:

– لقــد أعلنــتُ أن ذلك غير ممكن في غياب الشهــود. وسأكرّر ما قلته أمام المحكمة.

– وما أهمية ذلك؟

وكرّر الوكيل:

– غير ممكن.

---

٨. السكوبتســي: أعضاء شيعة منشقة كانت تقوم بالخصــاء الإرادي من أجل بلوغ القداسة.

وجرى إلى مكتبه وهو يحرك ذراعه.

كان يؤجل قضية «السكوبتسي» لا بسبب غياب بعض الشهود الذين لا قيمة لحضورهم، بل لأن تلك القضية، إذا ما نُظر فيها، في مدينة كبيرة معظم محلّفيها من الطبقات المثقفة، قد تنتهي بالبراءة. لذلك اتفق مع الرئيس على نقل القضية إلى محكمة مدينة صغيرة تكون هيئة المحلّفين فيها مشكّلة بأغلبيتها من الفلاحين، ويكون الحصول على الإدانة، من ثمّ، أسهل.

على أن الحركة في الرواق عظمت أيضاً. وتجمع الجمهور، على الخصوص، في قاعة المحكمة المدينة حيث سيُفصل في قضية من تلك القضايا التي اعتاد الناس أن يقولوا عنها: «مثيرة للاهتمام»، وهي القضية نفسها التي كان يتحدث عنها بكثير من الكفاية، في قاعة المحلفين، ذلك الشخص الوقور. ومؤدّاها أن رجلاً من رجال القانون الماهرين استولى على ثروة سيدة عجوز دون أدنى حق أو قانون أخلاقي، لكن بطريقة قانونية حصراً. كانت شكوى تلك السيدة محقّة كل الحق. وكان القضاة على علم بذلك، وأكثر علماً منهم كان رجل القانون ومحاميه؛ لكن هذا المحامي تصوّر مرافعة بالغة الحذق بحيث تخسر تلك السيدة حتماً دعواها.

في اللحظة التي أراد فيها كاتب المحكمة أن يدخل مكتب الرئاسة رأى تلك السيدة التي انتُزعت منها ثروتها طبقاً للأصول الواجبة، تمر أمامه بالضبط في الرواق. كانت امرأة جسيمة، تضع على رأسها قبعة مزينة بورود ضخمة. خرجت من قاعة الحضور وهي تبسط يديها

القصيرتــين والربلتــين ثم تسحبهمــا إليها مــردّدة دون انقطاع «ماذا سينجم عــن ذلك؟ أرجوكم، ماذا يعنــي...؟ ومضت فتهالكت على مقعــد لم يلبث أن جاء محاميها إليــه، وسرعان ما أخذت تروي له قصة معقدة جداً ولا صلة لها بقضيتهــا. تأمّل المحامي ورودَ قبعتها ووافق برأسه، ولعله لم يكن يصغي إليها.

وفجــأة انفتح باب صغير، وخرج منــه رجل القانون الشهير الذي عمل بحيث غــدت تلك المرأة ذات القبعة المزينــة بالورود بلا مورد، وبحيــث حصل خصمُها، وهو ينتهــك القانون، على مائة ألف روبل مقابل عشرة آلاف روبل أجرة المحامي، خرج ذلك الرجل وهو أعظم مــا يكون إشراقاً، ورضــاً عن الذات، عارضاً مقدمــة القميص المنشأة فــوق صــدرة مفتوحة علــى طولها. التفتــت جميع العيــون باحترام إلى المحامــي. وأدرك هــو ذلك، فكان كل شخصــه كأنه يقول: «من فضلكم، أيها السادة، اعفوني من مظاهر إعجابكم!»

× × ×

-٧-

وأخيراً وصــل «ماتيونيكتيتش»، القاضي الــذي كانوا ينتظرونه. وسرعــان مــا رأى المحلفــون حاجــب المحكمــة يدخل القاعــة التي اجتمعــوا فيها، وكان رجلاً قصيراً، هزيلاً، طويل العنق، غير متّسق في مشيته. وكان، علــى كل حال، رجلاً طيباً، درس في الجامعة، لكنه لم يكن يستطيع أن يحتفظ بمركزه أينما كان ذلك المركز لأنه كان يشرب. وقبــل ثلاثة أشهر أمّنت له كونتيسة كانت تهتم بامرأته وظيفة حاجب في قصر العدل. واستطاع أن يستمر فيه حتى الوقت الحاضر، وهو أمر فرح به كما يفرح من المعجزة.

سأل وهو يضع نظارته الأنفية لينظر إلى المحلفين:

– حسناً! أيها السادة، هل الجميع هنا؟

أجاب التاجر المرح:

– هم هنا، بلاشك، على ما يبدو لي.

وتنــاول من جيبه قائمــة، وأخذ يقرأ الأسماء، وهــو ينظر بين كل

إســم وإســم إلى وجوه المحلفين، تارة من خــلال نظارته وتارة أخرى من فوقها.

– مستشار الدولة. ا. م. نيكليودوف؟

أجاب الشخص الوقور الذي يعرف جيداً خفايا الدعاوى جميعاً:

– أنا!

– العقيد المتقاعد إيفان سيميونوفتش ايفانوف؟

أجاب الرجل الذي بالبزّة:

– هنا!

– تاجر الجمعية الثانية بطرس باكلاشوف؟

صرخ التاجر المرح وهو ينقّل ابتسامة طلقة على كل من حوله:

– حاضر! أنا مستعد!

– ضابط الحرس، الأمير دميتري نيكليودوف.

قال نيكليودوف:

– أنا!

وهنا انحنــى الحاجب بمزيج من الاحترام واللطــف وكأنه يريد أن يميّز نيكليودوف من سائر المحلّفين. ثم تابع تلاوته للأسماء:

– النقيب يوري دميتريفتش دنشنكو؟ التاجر غريغوري ايفيموفتش كوليشوف؟

وهكذا دواليك. كان جميع المحلفين حاضرين ماعدا اثنين.

هتف الحاجب وهو يشير إلى الباب بحركة محرّضة:

– والآن، أيها السادة، تفضلوا بدخول قاعة المحكمة!

تحرك الجميع للخروج من القاعة، وكل منهم يتنحّى بأدب كي يسمح لزميله بالمرور.

كانت محكمة الجنايات تنعقد في قاعة كبيرة، متطاولة الشكل، تتصدّرها منصة لها ثلاث درجات. وفي وسط المنصة وُضعت طاولة مغطاة بقماش أخضر، مزركش بأهداب قاتمة الخضرة. وخلف الطاولة ثلاثة مقاعد لها مساند عالية من السنديان المحفور وُضعت تحت صورة مذهبة الإطار. وكانت هذه الصورة ذات الألوان الصارخة تمثل الإمبراطور بثيابه الرسمية، والوسام الأكبر حول عنقه، وقد تباعدت رجلاه، ويدُه على مقبض سيفه. وفي الزاوية اليمنى رافدة مذبح تحتوي على صورة للسيد المسيح مكللاً بالشوك، وتحتها مقرِئ مع منبر صغير مخصص للنائب العام الإمبراطوري. وإلى اليسار، في الصدر طاولة الكاتب، وفي الأمام، على مقربة من الجمهور، حاجز من الخشب حول مقعد المتّهمين. كان المقعد خالياً كما كانت المنصة خالية أيضاً. وإلى يمين المنصة، في مواجهة مقعد المتّهمين، طائفة من المقاعد عالية المساند، تنتظر المحلفين، وفوقها رُتّبت طاولات

المحامــين. أما القسم الآخر من القاعة الذي يفصله حاجز عن المنصة، فــكان مكّوناً من مقاعــد متدرجة تعلو حتى تصل صــدر القاعة. في الصفــوف الأربعة الأولى من هذه المقاعد، جلســت أربع نساء يلبسن كالعاملات أو الخادمات، ويصحبهــن رجلان ربما كانا أيضاً عاملين. كانــت هذه الجماعة متهيّبة بدون شك، مــن عظمة المنصة وزخرفها، لأنها كانت تتحدث بصوت خفيض وباستحياء.

مــا إن أدخــل الحاجب المحلّفــين وأجلسهم حتى تقــدّم إلى وسط المنصة، وأعلن بصــوت مرتفع جداً يرمي إلى إلقاء المزيد من الرهبة في نفوس الحضور:

– محكمة، أيها السادة!

نهض الجميــع، ظهر القضاة على المنصة يسبقهــم الرئيس بسالفيه الجميلــين، وخلفه جاء القاضي المتجهّم الوجه، الذي ازداد تجهّماً بعد لقائه أخا زوجتــه قبل الجلسة، فقد أخبره أن أخته أعلمته أنه لن يكون هناك عشاءٌ في البيت، هذا المساء، وأضاف وهو يضحك:

– ماذا نصنع؟ سنُضطر إلى العشاء في الحانة.

أجاب القاضي المتجهّم الذي ضاق صدره:

– لا أرى ما يُضحك في ذلك!

كان القاضي الثالث، ماتيو نيكتيتش» الذي يصل متأخراً أبداً، كان رجلاً طويل اللحيــة، ذا عينين كبيرتين، جميلتــين، مدوّرتين، تحتهما

جيـوب منتفخة. وفي هـذا الصباح، فرض عليه طبيبـه حمية جديدة تضطـره إلى التأخر في منزله فوق المعتاد، فقـد كان يتقدّم على المنصة وهو بادي الانشغال. والواقع أنه كان منهمكاً جداً. كان من عادته أن يتنبـأ، بشتّى وسائل المصادفة، عن أجوبـة لأسئلة يطرحها على نفسه. وفي هـذه المرة، قال لنفسه: إنـه إن كان عدد الخطوات التي سيقطعها مـن باب مكتبـه إلى مقعده ينقسم علـى ثلاثة. فمعنى ذلـك أن هذه الحمْيـة الجديدة ستشفيه من التهاب قصباتـه. بيد أن كل ما ساره كان ستـاً وعشرين خطوة، لكنه لجأ إلى الغشـ في آخر لحظة، فسار خطوة صغيرة فوقها وبلغ مكانه وهو يعدّ الخطوة السابعة والعشرين.

كانت وجـوه الرئيس والقاضيـين، وهـم منتصبون فـوق المنصّة، بزيّهـم الرسمـي ذي الياقـات المزركشـة بالذهـب، منظـراً من أعظم المناظـر هيبةً. وكان القضاة أنفسهـم يشعرون بذلك. فثلاثتهم بادروا إلى الجلوس وهم يغضّون أبصارهم بتواضع، وكأنهم ارتبكوا من جرّاء عظمتهم. وعلى الطاولة الخضراء أمامهم، وُضع شيء مثلث الشكل[٩] يعلوه النسر الامبراطـوري، ومحابر وأقلام وأوراق بيضاء وكمية وافرة من الأقلام المختلفة الأحجام، المبريّة حديثاً.

خَلْـفَ القضاة، دخل وكيل النيابة. وتقدّم هـو أيضاً نحو مقعده، بأسرع ما يمكن، وهو يحمل محفظته تحت إبطه، ويحرّك ذراعه. وما إن جلس حتى استغرق في قـراءة إضبارة، مستفيداً من كل دقيقة ليحضّر مرافعته. كانت هذه المرة الرابعة فقط التي يرافع فيها في الجنايات. كان

٩. هذا الشيء هو مرآة العدالة.

طموحاً، يحلم أن ينجح في منصبه، ويرى من الضروري، لكي ينجح، أن يحصــل على إدانة في جميــع القضايا التي يشارك فيها. ولقد رتّب الخطة العامــة للمرافعة التي سيلقيها في قضية التسميم. لكن كان عليه أن يلمّ بوقائع القضية نفسها لكي يَدْعم أدلّته ويُغنيها.

أمــا كاتب المحكمة الجالس في أقصى الجــزء المقابل للمنصة، فبعد أن رتّب أمامه جميع الوثائق التي ينبغي عليه قراءتُها، أخذ يُطالع مقالة في جريــدة ممنوعة تلقّاهــا عشية أمس وقرأها مــرة أولى. كان يريد أن يحــدّث القاضي ذا اللحية الطويلة عن هذا المقالــة، لعلمه أنه يشاركه الرأي في السياسة. لكن قبل أن يتحدث عنها أراد أن يكوّن عنها فكرة واضحة جداً.

× × ×

-٨-

بعــد أن نظر الرئيس في أوراق الدعوى، ألقــى بعض الأسئلة على الحاجــب والكاتب. وحــين تلقى منهما رداً بالإيجــاب، أمر بإدخال المتّهمين:

وفي الحــال، فُتح بــاب في صدر القاعة، ودخل منــه دركيان على رأســ كل منهمــا قبعة من وبر، وقــد شهرا سيفيهمــا. وظهر خلفهما المتّهمــون الثلاثــة: أولاً رجل أحمر الشعر تغطــي وجهه بقع حمراء، ثم المرأتان. كان الرجل يرتــدي بزّة السجناء وهي أطول منه وأعرض كثــيراً. كان يشدّ ذراعيه على جسمه لكي يمسك بالكمّين اللذين كانا سيغطّيان يديه لولا ذلك. وكانت عيناه متشبّثتين بالمقعد الذي كان يمر بقربــه وكأنه لا يرى القضــاة ولا الجمهور. وبعد أن دار حوله جلس، ورفع بصره إلى الرئيس وأخذ يحرّك شفتيه، وكأنه يهمس بشيء.

المــرأة التي تلته واللابسة ثوب السجينات ربما كانت في الخمسين. كانت تلفّ رأسها بمنديل السجينة، وكان وجهها الذي غشيه شحوب رمادي، لا يُنبئ إلا عن شيء عادي جداً، لولا غياب الحاجبين والرموش

غيابــاً تاماً. بدت شديدة الهدوء، وعندمــا وصلت إلى موضعها، علقَ فستانها بمسمار، فحسبته بأناة وعناية وأصلحته وجلست.

المتهمة الثالثة كانت «ماسلوفا»

عند دخولها اتّجهت إليها أنظارُ جميع الحاضرين في القاعة، وظلّت محدّقــة في هذا الوجه الشاحب ذي العينين السوداوين اللامعتين، وفي صدرها البــارز المرتفع. الدركي نفسه الذي كانــت تمر من أمامه نظر إليهــا حتــى جلست. عنــد ذاك فقط، استــدرك الأمر، وكأنــه أحسّ بالخطأ، وأخذ يحدّق في النافذة التي أمامه.

انتظر الرئيس جلوســ المتهمين قبل أن يلتفت إلى كاتب المحكمة. وبدأت الإجراءات العادية: تفقّــد المحلّفين، والوكلاء، تطبيق الغرامة علــى الغائبين، النظر في الأعذار التــي قدّمها هؤلاء الغائبون، استبدال غيرهم بهم. وبعد ذلك رجا الرئيس الكاهن أن يؤدي المحلّفون القَسَم أمامه.

كان هــذا الكاهن شيخاً قصيراً، وجهُــه منتفخ، بلون الشمع. كان يرتــدي جبّة بلون القِرفة، ويضع صليباً ذهبيــاً معلّقاً بسلسلة لم ينقطع عــن تقليبه على صدره الــذي ثُبّت عليه أيضاً وســامٌ صغير. رفع ببطء قدميه المنتفختين، وسار نحو المقرأ القائم أمام الصورة المقدسة. فنهض المحلفون وسارعوا إلى اللحاق به.

بدأ هــذا الكاهن خدمتــه الكهنوتية منذ سبع وأربعــين سنة. وهو يأمــل أن يحتفــل بيوبيلــه الذهبي بعد ثــلاث سنوات، كمــا فعلَ منذ

وقت قريب رئيس كهنة الكاتدرائية. وقد أُلحق بالمحكمة منذ بناء قصر العدل، وكان يفتخر بأنه حلّف عشرات آلاف الأشخاص اليمين القانونية، وبأنه مايزال يعمل، في شيخوخته، من أجل خير الكنيسة والوطن، وخير أسرته أيضاً التي ينوي أن يترك لها، إضافةً إلى منزله رأس مال لا يقلّ عن ثلاثين ألف روبل في سندات مثمرة. و لم يخطر بباله أنه قد يُسيء وهو يحلّف الناس على الإنجيل أمام المحكمة. وبدلاً من أن يتحرج، فقد أحبّ هذه الوظيفة التي أتاحت له، في الغالب، معرفة شخصيات مرموقة، وهكذا كان سعيداً جداً هذا اليوم، بلقائه محامي بطرسبرج الشهير الذي ضاعفَ من احترامه له علمُه بأن دعوى واحدة قد درّت عليه عشرة آلاف روبل.

عندما وصل المحلّفون إلى قرب الصورة المقدسة، حَنَى الكاهن جانباً رأسه الأصلع الذي تكلّله شعرات رمادية، وأدخله في فتحة الصدرة الكهنوتية الملطّخة بالشحم. وبعد أن رتّب بيده شعرَه الوسخ، التفت إلى المحلّفين، وقال:

– ارفعوا اليد اليمنى وضمّوا أصابعكم هكذا!

قال ذلك ورفعَ يدَه الربلة، وطوى أصابعه كمن يريد أن يتناول تنشيقة عطوس:

– والآن ردّدوا معي: أقسم أمام الإنجيل المقدس وصليب سيّدنا المحيي أن أكون في الدعوى التي...

وهنا توقّف وخاطب شاباً بدا عليه أنه سيرخي يده:

– لا تَخْفض يَدك!

واستأنـف ببطء مع وقفاتٍ بعد كل جزء من الجملة. -في الدعوى التي...

الشخص المهيب ذو السالفين الجميلين والعقيد المتقاعد والتاجر وبعض المحلفين حافظوا على أيديهم مرفوعة وعلى أصابعهم مطويّة كما أراد الكاهن بالضبط. والبعض الآخر، بدوا كمن يفعلون ذلك بدون اندفاع، وعلى نحو متردّد. كان بعضهم يرددون بصوت عال جداً صيغة القسم بضرب من الهيجان وكأنهم يقولون: أؤكد ذلك وسأحافظ عليه من أجل الجميع وضد الجميع. وكان آخرون يهمسون القسم همساً ويتريثون في إلقائه بعد الكاهن، ثم لا يلبثون أن يسرعوا ليدركوه وكأنهم خافوا من تريّثهم. لكنهم جميعاً كانوا يشعرون بشيء من الضيق، ماعدا الكاهن العجوز. الذي كان على قناعة لا تتزعزع بأنه يؤدّي عملاً بالغ الأهمية والنفع.

بعد القسم، طلب الرئيس إلى المحلّفين أن يختاروا رئيساً لهيئة التحكيم. وفي الحال، نهض المحلّفون، مرة أخرى، واتجهوا إلى قاعة المداولات حيث بدأ معظمهم التدخين واقترح أحدهم انتخاب الشخص المهيب رئيساً فبادر الجميع إلى الموافقة. ثم عادوا إلى المحكمة بعد أن رموا سجائرهم. وأعلن الشخص المهيب لرئيس المحكمة أنه هو الذي انتُخب، وعاد الجميع إلى أماكنهم على المقاعد ذات المساند العالية.

تابعت الإجراءات مجراها بسرعة لا تخلو من طابع احتفالي. إن هذه الشرعية وتلك الشكلية كانتا تبثّان في الجميع إحساساً ساراً ناجماً عن

شعورهــم بأنهمْ يؤدون واجباً اجتماعياً عظيم الجدّية والأهمية. وكان نيكليودوف يشاركهم هو أيضاً هذا الشعور.

عندما جلس المحلفون، وجّه رئيس المحكمة كلمة إليهم ليُرشدهم إلى حقوقهــم وواجباتهــم ومسؤوليتهــم. وكان لا يني يغــيّر وضعَه، وهــو يتكلم. فتارة يلتفت إلى اليمين وتــارة إلى الشمال، وحيناً يستند إلى مقعــده أو ينحني إلى الأمام، وحيناً آخــر يسوي بين الأوراق على الطاولة، ويرفع قاطعة الورق أو يعبث بأحد الأقلام.

كانــت حقوق المحلّفين، بحســب ما قال لهــم، تتلخّص في أنهم يستطيعــون أن يَسْتجوبــوا المتهمــين بواسطة الرئيســ، وأن يفحصوا وثائــق الإثبات. أمــا واجباتهم فتنحصــر في أن يحكموا وفق الحق لا وفق الظلم. وأما مسؤولياتهم فتأمرهم بالمحافظة على سرّية المداولات، وتمنعهم من الاتصال بالآخرين، وإلا تعرّضوا لصرامة القانون.

استمــع المحلّفون إلى هذه الخطبة بانتباه خاشع. وكان التاجر الذي فاحت منه رائحة الخمــر وجهِدَ في أن يتجشأ دون أن يحدث صوتاً، يوافق بهزّ رأسه على كل جملة.

× × ×

-٩-

ما أن فرغ الرئيس من كلمته حتى التفت إلى المتهمين.

– سيمون كارتنكين، قف!

فوثب سيمون بعصبية؛ وكانت عضلات وجهه ترتجف بسرعة متزايدة.

– اسمُكَ؟

أجاب المتهم بنَفَسٍ واحد وبصوت صارخ، فبدا وكأنه هيأ أجوبته سلفاً:

– سيمون بيتروفتش كارتنكين

– وضعُكَ؟

– فلاح؟

– أية حكومة وأية مقاطعة؟

– حكومة «تولا»، مقاطعة كابريفنو، ناحية كوبيانسكي، قرية بوركي.

– عمرك؟

– أربعة وثلاثون عاماً، وُلدت سنة ألف وثمانمائة...

– دينكَ؟

– «نحن من» الديانة الروسية الأرثوذكسية.

– متزوج؟

– لم نتزوج قط.

– مهنتك؟

– نشتغل في أروقة فندق «موريتانيا»

– هل حوكمتَ من قبل؟

– لم نُحاكَم قط، لأننا كما كنا نعيش قبل...

– ألم تُحاكم من قبل؟

– الحق، لا، كما أن الله حق!

– هل تلقيتَ صورة من قرار الإتّهام؟

– تلقيناها.

– اجلسْ.

وتابع الرئيس وهو يتوجّه إلى إحدى المرأتين:

– ايفيميا إيفانوفنا بوتشكوف!

لكن سيمون ظل واقفاً فحجب المرأة.

– اجلسْ، يا كارتنكين!

لكنه ظل واقفاً؛ و لم يجلس إلا عندما حنى الحاجب رأسه وفتّح عينيه القاسيتين، وأمره بصوت هامس ومأساوي أن يجلس.

حينذاك جلس المتّهم بالسرعة نفسها التي نهض بها، وتلفّع بمعطفه وأخذ يحرك شفتيه.

التفت الرئيس إلى كبرى المرأتين، وهو يتنهّد من العياء، كما يتنهد رجل عيل صبره لأن عليه أن يردّد دائماً الشيء نفسه، وسألها:

– اسمكِ؟

سألها دون أن يرفع بصره إليها ودون أن ينقطع عن النظر إلى ورقة أمسكها بيده. ولقد ألف هذا الإجراء ألفةً عظيمة حتى أنه كان يستطيع، لكي يكون أسرع، أن يهتم بشيئين في آن واحد.

كان عمر «بوتشكوفا» ثلاثة وأربعين عاماً. وضعُها: عاملة في المدينة. مهنتها: خادمة في فندق موريتانيا نفسه. لم تُحاكم من قبل. بُلِّغت صورة الإتّهام. كانت تجيب عن أسئلة الرئيس بجرأة مُثيرة، كأنها تريد أن تقول: «حسناً! نعم، أنا «ايفيميا بوتشكوف»، بُلِّغتُ صورة الإتّهام، وأنا أفخر بذلك، ولا أسمح لأحدٍ أن يضحك مني!». وحالما انتهى استجوابُها عادت إلى الجلوس دون أن تنتظر الإذن بالجلوس.

تابع الرئيس استجوابه وخاطبَ برفقٍ بالغٍ المرأة الأخرى:

– إسمكِ؟

وحين لاحظ أن «ماسلوفا ظلت جالسة» قال لها بلهجة لطيفة:

– يجب أن تقفي. ما اسمك؟

فهمستْ بسرعة:

– اسمي «ليوبوف».

في هذه الأثناء، أخذ نيكليودوف الذي وضع نظارته يتأمل المرأتين وهما تُستَجْوبان، وفكّر، وقد تسمّرت عيناه على وجه المتهمة:

– هذا غير ممكن! إنها تُدعى «ليوبوف» ليس الاسم واحداً! لكن ماهذا الشبه العجيب!

أراد الرئيس أن ينتقل إلى سؤال آخر، لكن القاضي ذا النظارة همس في أذنه بضع كلمات أدهشته، فالتفت إلى المتهمة وسألها:

– كيف، ليوبوف؟ أنتِ مسجّلة باسم آخر!

فلزمت المتهمة الصمت.

وسألها القاضي ذو النظارة:

– أسألك عن اسمك الحقيقي؟ اسم المعْمودية!

– كنتُ أُدعى قديماً «كاترين».

قال نيكليودوف في نفسه: «هذا غير ممكن». لكن الشك قد زايله.

إنهــا هي ربيبة عمّتيه بدون شك، هي الفتاة التي أحبّها قديماً والتي أغواهــا في لحظة من لحظات الجنون، ثم هجرها، وطَرَدَ ذكراها ذاتها من ذهنــه. كانت هذه الذكرى تؤلمه أشدَّ الإيلام، وتُذلّه أشد الإذلال، وتُريه أنــه، وهو الفخور باستقامته، قد تصــرّف بجبن ودناءة مع هذه المرأة.

نعــم، كانت هي بعينها! ولقد تبيّن الآن بوضوح على وجهها تلك الخاصيّــة الخفية التي تميّــز وجهاً عن جميع الوجــوه الأخرى، وتجعل منه شيئــاً متفرّداً، خاصاً، لا شبيه له. وبالرغم مــن شحوبها المَرَضيّ، ومــن هزالها، فقد عثر على تلك الخاصية في جميع ملامحها، في الفم، في العينــين اللتــين كان فيهمــا شيء مــن الحول، في الصــوت، وعلى الخصوصــ في النظرة البريئة والساحــرة، وفي ملامح وجهها الحلوة، وفي هيئة شخصها كله.

أنّبها الرئيس، لكن برفق، لفرط ما كانت جاذبيتها جارفة:

– كان ينبغي أن تقولي ذلك على الفور.

أجابت ماسلوفا:

– أنا ابنة غير شرعية.

– لا قيمة لذلك؛ ما اسم اشبينتك، كيف سمّوك؟

– ميخايلوفنا.

تساءل نيكليودوف وهو يحبس أنفاسه:

– ماذا عساها ارتكبت؟

وتابع الرئيس:

– ما اسم عائلتكِ؟ ما اللقب الذي لُقّبتِهِ؟

– سُجّلتُ باسم أمي، ماسلوف.

– وضعكِ؟

– عاملة في المدينة.

– دينكِ؟ أرثوذكسية؟

– أرثوذكسية.

– مهنتك؟ ما المهنة التي مارستها؟

فلم تجب «ماسلوفا».

وأصرّ الرئيس:

– ما المهنة التي مارستها؟

– كنتُ في أحد بيوت البغاء.

سأل القاضي ذو النظارة بصرامة:

– في أي بيت؟

فردّت ماسلوفا:

– أنتم أنفسكم تعلمون في أي بيت كنت.

وبعد أن حوّلت عينيها لحظة، عادت لتحدّق في الرئيس وصعدت الحمرةُ إلى وجهها.

كان في تعبير وجهها شيء خارق للعادة. وكان في كلماتها وفي النظرة السريعة التي لفّت بها الحضور شيء رهيب جداً، ومؤلم جداً

حتى إن الرئيس أطرق رأسه. وساد القاعة للحظة صمتٌ قطعت قهقهةٌ آتية من الجمهور، قهقهة تلتها كلمة «صه» قالها أحد الحضور.

رفع الرئيس رأسه وسألها، مستأنفاً استجوابه:

– ألم تُحاكمي من قبل؟

قالت ماسلوفا بصوت خفيض، وهي تتنهد:

– لا.

– هل بُلِّغتِ صورة عن قرار الإتّهام؟

– نعم.

– اجلسي!

رفعت ماسلوفا حاشية ثوبها كما تفعل النساء اللواتي هن في لباس الإحتفال عندما يرفعن ذيول أثوابهن؛ ثم جلست، وأدخلت يديها في كمّي سترتها، دون أن تحوّل عينيها عن الرّئيس، وعاد إلى وجهها هدوءُه وشحوبه.

بدأت بعد ذلك المناداة على الشهود الذين خرجوا من القاعة، وعلى الطبيب الخبير الذي لحِقَ بالشهود إلى الغرفة التي سينتظرون فيها ريثما يتمّ استدعاؤهم.

وأخيراً نهض كاتب المحكمة، وبدأ تلاوةَ قرار الإتّهام. كان يقرأ بصوت مرتفع ومتميز، لكن قراءته كانت شديدة السرعة حتى إن كلماته لم تشكّل سوى ضجيج أصمّ، متصل، منوّم.

كان القضاة يتململون على مقاعدهم، وقد بدا عليهم نفاذ الصبر طلباً لانتهاء التلاوة، وأجهد الدركي نفسه ليخفي تثاؤبه.

لم يكفّ كاتنكين وهو في صف المتهمين، عن تحريك شفتيه؛ وبدت «بوتشكوف» هادئة تماماً، وهي تردّ، بين الحين والحين، شعرها إلى ما تحت المنديل، وظلت ماسلوفا جامــدة، وعيناها محدّقتان في الكاتب. تنهّدت مرتين أو ثلاثاً، وغيّرت وضع يديها.

كان نيكليــودوف الجالســ في الصف الأول بــين المحلفين، على مقعــده العالي المسند، ينظر إلى ماسلوفا دون أن يرفع نظارته. لقد كان يجري في نفسه تطور عميق ومؤلم.

× × ×

-١٠-

كان قرار الإتّهام مدوّناً على النحو التالي:

في السابع عشر من شباط اتصل مدير فندق موريتانيا الكائن في هذه المدينة، برجال الشرطة وأنبأهم بالموت المفاجئ لأحد زبونات الفندق المذكور، المدعو فيرابونت سميلكوف، وهو تاجر سيبيري من الجمعية التجارية الثانية. وأثبتت شهادة طبيب الدائرة الرابعة أن موت سميلكوف يعود إلى توقّف القلب الذي سبّبه الإفراط في المشروبات الروحية. وقد دُفن جُثمان سميلكوف بشكل نظامي في اليوم الثالث بعد الوفاة. على أن مواطناً وزميلاً لسميلكوف، هو التاجر السيبيري تيموخين الذي وصل إلى بطرسبرج، في اليوم الرابع بعد الوفاة المذكورة، واستعلم ظروف موت سميلكوف، قد أعرب عن ارتيابه في أن يكون هذا الموت طبيعياً، وعن اعتقاده بأنه مات مسموماً على يد الجناة الذين استولوا على خاتمه الماسي وعلى مبلغ كبير من المال كان بحوزته و لم يُذكَر في القائمة التي حررت بعد وفاته. ونتيجة لذلك صدر الأمر بالتحقيق الذي أظهر مايلي:

١- لقد كان في حوزة سميكلوف مبلغ ثلاثة آلاف وثمانمائة روبل

تسلّمها مـن أحد مصارف المدينة.بمعرفة مدير فنـدق موريتانيا وأيضاً .بمعرفة الوكيل الرئيسي للتاجر ستاريكوف الذي اتصل به سميلكوف عنـد وصولـه إلى المدينة، ومع ذلك فلم يوجد، بعـد موته، في حقيبته وفي محفظته سوى مبلغ ثلاثمائة واثني عشر روبلاً وستة عشر كوبيكاً.

٢– إن سميلكـوف قضـى، عشية موتـه، يوماً بأكملـه مع البغيّ ليوبكا (كاترين ماسلوفا)، التي جاءت مرتين إلى غرفته.

٣– إن البغيّ المذكورة ليوبكا سلّمت لرئيسة البيت الذي تعيش فيه خاتماً ماسياً كان يملكه التاجر سميلكوف.

٤– إن خادمة الفنـدق، ايفيميا بوتشكوف، وضعت في المصرف التجاري، في اليوم التالي لموت سميلكوف، مبلغ ألف وثمانمائة روبل، كحساب جار.

٥– إن خـادم الفنـدق، المدعو سيمـون كاتنكين، قـد سلّم البغي ليوبـكا، بحسب أقوالهـا، مسحوقاً ونصحها بـأن تضيفه إلى الخمرة التي سيشربها سميلكوف، وهو ما فعلته «ليوبكا» بحسب اعترافها.

وعندما استجوب القاضي المحقـق البغي الملقبة «ليوبكا» بصفتها متهمة، صرّحت بأنه بينما كان التاجر سميلكوف في بيت البغاء حيث كانت «تشتغل» –حسب تعبيرها– أرسلها التاجر المذكور سميلكوف إلى الغرفة التي يشغلها في فندق موريتانيا لتأتيه بالمال منها، وأنها، بعد أن فتحت حقيبة التاجر بالمفتاح الذي أعطاها إياه، أخذت منها أربعين روبـلاً كمـا أمرها. وصرحت بأنهـا لم تأخذ شيئاً مـن المال غير هذا،

وهـو ما يَشهد به سيمون كاتنكـين وايفيما بوتشكوف اللذان فتحت بحضورهما الحقيبة وأغلقتها.

وفيمـا يتعلّـق بتسمّم سميلكـوف، صرّحـت البغي ليوبـكا أنها عندمـا عادت مرة ثانية إلى غرفة التاجـر سميلكوف، صبّت في كأس الكونياك الذي كان سيشربه، مسحوقاً سلّمها إياه سيمون كارتنكين، لكنها كانت تعتقد أن هذا المسحوق مجرّد مُنوم. وقد وضعته لكي ينام التاجر وتنصرف هي بأسرع ما يمكن. وأضافت أنها لم تأخذ مالاً قط، وأن سميلكـوف نفسه هو الذي أعطاها الخاتم، بعد أن ضربها ليمنعها من الانصراف.

وعندما استجوب القاضي المحقق «ايفيميا بوتشكوف» وسيمون كارتنكين بصفتهما متّهمين صرّحا بمايلي:

أفـادت افيميـا بوتشكـوف أنها لا تعلـم شيئاً علـى الإطلاق عن اختفاء المال، وأنها لم تدخل غرفة التاجر، وأن ليوبكا وحدها هي التي دخلـت. وأكّدت أنه إذا كان قد سُرقَ مبلغ من التاجر فلابد أن ليوبكا هي التـي أخذته، عندما جاءت إلى الغرفة ومعهـا مفتاح الحقيبة (عند هـذا الموضع من تـلاوة قرار الإتّهام انتفضـت ماسلوفا وفتحت فمها كأنها تريـد أن تصرخ، واستدارت نحـو بوتشكوفا). وعندما سُئلت عـن مصدر ألف وثمانمائة روبل أودعتهـا المصرف، صرّحت بأن هذا المال كسبته، أثناء الاثنتي عشرة سنة الماضية هي وسيمون الذي توشك أن تقترن به.

أمـا سيمـون كارتنكين فقد اعـترف، حين استُجـوب، بأنه سرق

مبلغـاً كبيراً من المال بالتواطـؤ مع «بوتشكوفا» وبإيعـاز من ماسلوفا التـي أعطاهـا التاجر مفتـاح حقيبته، وأنـه اقتسم المبلغ مـع ماسلوفا وبوتشكوفـا. واعـترف أيضاً بأنـه أعطـى ماسلوفا مسحوقـاً لتنويم التاجر. لكنه أنكر، في استجواب ثان، أية مشاركة في سرقة المال وفي تسليـم المسحوق، ملقياً الذنب على ماسلوفـا. وعندما سُئل عن المال الـذي أودعته بوتشكوفا المصـرف، أجاب هو أيضـاً أن هذا المال قد ادّخراه معاً أثناء اثنتي عشرة سنة في الخدمة، وأنه ثمرة ما يعطيه النزلاء من حلوان.

وأظهـر تشريح جثـة التاجر سميلكـوف، وقد تم وفقـاً للقانون، وجود كمية من السم في الإمعاء.

ثم سرد قرار الإتّهام أقوال المتهمين عندما ووُجهوا بعضهم ببعض، وشهادات الشهود وهلمّ جرّا. وانتهى القرار على النحو التالي:

وبناء علـى ما تقدّم، فـإن سيمون كارتنكين، فـلاح، عمره أربعة وثلاثـون عامـاً، وايفيميـا ايفانوفنا بوتشكـوف، عاملـة في المدينة، عمرها ثلاثـة وأربعون عاماً، وكاتريـن ميخايلوفنا ماسلوف، عمرها سبعة وعشرون عاماً، متّهمـون بأنهم سرقوا معاً، في ١٧ كانون الثاني ١٨٨٠، مبلـغ ألفين وخمسمائة روبل من التاجر سميلكوف، وأنهم بعد ذلك اعتدوا عمداً على حياة سميلكوف المذكور، بغية إخفاء آثار السرقة، بأن سقوه سمّاً ونتج عن ذلك موتُه.

هـذه الجرائم نصت عليهـا الفقرتان ٤ و٥ من المـادة ١٤٥٥ من القانـون الجزائي: وبناء عليه يُحال سيمـون كارتنكين، فلاح، ايفيميا

بوتشكوف وكاترين ماسلوف، عاملتان في المدينة، إلى المحاكمة في محكمة المقاطعة التي تجتمع بصفتها محكمة للجنايات وبمعاونة المحلّفين.

عندما انتهى كاتب المحكمة من تلاوته: رتّب الأوراق التي تلاها، وجلس وملّس بيديه شعره الأسود الطويل. تنهّد جميع الحضور ارتياحاً. فقد أحس كل منهم إحساساً مفرحاً بأن كل شيء سيتضح، وأن العدالة ستنتصر، بعد أن أخذ التحقيق مجراه منذ الآن. نيكليودوف وحده لم يكن يساوره هذا الإحساس. وظل يفكّر بارتياع في الجريمة التي أمكن لماسلوفا أن ترتكبها، وهي التي عرفها قبل عشر سنوات، بريئة وفاتنة.

× × ×

-١١-

عندمــا فرغ الكاتب مــن تلاوة قرار الإتّهــام، التفت الرئيس نحو كارتنكــين، بعــد أن أخذ رأي معاونيه، وملامــح وجهه تقول: «الآن سنعلم كل شيء بأوثق السبل، حتى أتفه التفاصيل». وصاح وهو يميل إلى اليسار:

– سيمون كارتنكين.

نهض سيمــون كارتنكين، وردّ كميّ معطفه، وتقدّم بكل جسده، دون أن يكفّ عن تحريك شفتيه.

– أنــت متّهمٌ بأنك سرقتَ مــن حقيبة التاجر سميلكوف مبلغاً من المــال يخصّــه، بالتواطؤ مــع ايفيميا بوتشكوف وكاتريــن ماسلوف، وبأنــك حصلت على الزرنيــخ وحرّضت كاتريــن ماسلوف على أن تدسّــه في شراب التاجر سميلكوف، وهو مــا فَعَلتْه، وكان من نتيجته موت سميكلوف.

واختتم الرئيس كلامه، وهو يميل إلى اليمين، بقوله:

– هل تعترف بأنك مذنب؟

– هذا غير ممكن، لأننا يجب أن نخدم الزبونات...

– ستقول هذا فيما بعد، هل تعترف بأنك مذنب؟

– هذا غير ممكن. أريد فقط...

وكرر الرئيس بصوت هادئ لكنه صارم:

– ستقول لنا ذلك فيما بعد. هل تعترف بأنك مذنب؟

– هذا غير ممكن، لأن...

ومرة أخرى التفت الحاجب فجأة نحو سيمون كارتنكين ليوقفه عن همسه المأساوي.

غيّر الرئيس موضع مرفقيه، وعلى وجهه تعبير يعني أن هذا الجزء من القضية قد انتهى، وخاطب ايفيميا بوتشكوف قائلاً:

– ايفيميا بوتشكوف، أنت متهمة بأنك سرقتِ من التاجر سميلكوف، بالتواطؤ مع سيمون كارتنكين وكاترين ماسلوف، مبلغاً من المال وخاتماً، وبأنك، بعد اقتسام السرقة بينكم أنتم الثلاثة، شاركت في تسميم التاجر سميكلوف بالزرنيخ الذي مات به. فهل تعترفين بأنك مذنبة؟

احتجّت المتهمة بصوت قاس وجريء:

– لستُ مذنبة في شيء! بل إني لم أدخل الغرفة... وبما أن هذه القَذِرة هي التي دخلت الغرفة، فهي وحدها، بدون شك، التي ارتكبت كل شيء.

قال الرئيس بصوته الهادئ والثابت، مرة أخرى:

– ستقولين لنا ذلك فيما بعد، وهكذا فأنت لا تعترفين بأنك مذنبة.

– لم أسرق مالاً، ولم أدسّ سمّاً، ولم أدخل الغرفة. ولو كنتُ دخلتُها لألقيتُ بها إلى الخارج!

– ألا تعترفين بأنك مذنبة؟

– كلا!

– هذا حسن.

التفت الرئيس بعد ذلك إلى المتهمة الأخرى:

– كاترين ماسلوف، أنتِ متهمة بأنك، بعد أن جئت إلى غرفةٍ في فندق موريتانيا ومعك مفتاح حقيبة التاجر سميكلوف، قد سرقتِ من الحقيبة مبلغاً من المال وخاتماً...

قطع الرئيس حملته ليصغي إلى ما همس به في أذنه القاضي الجالس على يمينه، لقد نبّهه هذا القاضي إلى أن أحد أدلة الإثبات المسجّل في القائمة، وهو القمقم، غيرُ موجود على الطاولة. فأجابه الرئيس همساً:

– سنرى ذلك بعد قليل.

وتابع جملته وكأنها درسٌ حفظه عن ظهر قلب:

–... قد سرقتِ من تلك الحقيبة مالاً وخاتماً، ثم اقتسمت ناتج

تلـك السرقة مـع شريكيك، وبأنك قدّمت، بعـد أن عدتِ إلى الفندق مع التاجر سميكلوف، الكونياك المسمّم. فهل تعترفين بأنك مذنبة؟

أجابت المتهمة على الفور:

– لستُ مذنبة في شيء. وما قلتُه منذ البداية أقوله الآن: إني لم آخذ شيئاً، على الإطلاق! أما الخاتم فهو الذي أعطاني إياه!

– ألا تعترفين بأنك مذنبة لسرقتك ألفين وستمائة روبل؟

– لم آخذ شيئاً، كما قلتُ لك، لا شيء سوى أربعين روبلاً!

– وكونُـكِ دسستِ مسحوقـاً في كأس التاجـر سميكلوف، ألا تعترفين بأنك مذنبة في ذلك؛

– هذا أعترف به. لكني كنتُ أعتقد، كما قيل لي، أن هذا المسحوق يصلح للتنويم، ولا ضرر منه. أمن الممكن أن أسمّم أحداً. ها إن...

قاطعها الرئيس، ولعله كان راضياً عن النتائج التي حصل عليها:

– حسناً! اروي لنا الآن كيف جرت الأمور، إروِ لنا كلّ ما تعرفينه، إنّ اعترافاً صادقاً يمكن أن يخفّف من وضعك.

ظلّت ماسلوفا شاخصةً بعينيهـا إلى الرّئيس، فلزمت الصّمت وقد احمرّت خجلاً؛ وكان جليّاً أنها تبذل جهدها لتتغلب على استحيائها.

– هيا! اروي لنا كيف جرت الأمور!

قالت ماسلوفا فجأة:

– كيف جــرت الأمور؟ حسناً! جاء التاجــر ذات مساء إلى البيت الذي أشتغل فيه، وجلس بجانبي، وقدّم إلي خمراً...

سكتــت مرة أخرى، وكأنهــا نسيت تسلسل الأحــداث، أو كأن ذكرى أخرى مرّت ببالها.

– حسناً! ثم ماذا؟

– ماذا بعد ذلك؟ بقي، ماذا أقول، ثم رجع!

في هــذه اللحظة نهض وكيل النيابة قليلاً، واتكأ بتكلّف على احد مرفقيه. فسأله الرئيس:

– أتريد أن تطرح سؤالاً.

وبنــاء على رده الإيجابــي، أفهمه الرئيس بحركةٍ منــه أنه يستطيع الكلام.

سأل وكيل النيابة بفخامة دون أن يحوّل عينيه إلى ماسلوفا:

– الســؤال الــذي أودّ طرحَه هو التالي: هل كانــت المتّهمة تعرف سيمون كارتنكين من قبل؟

بعــد أن طرح سؤاله زمّ شفتيه، وقطّب بين حاجبيه. وكرر الرئيس الســؤال. كانــت ماسلوفــا تلقي على وكيــل النيابة نظـراتٍ مرتاعة. واعترفت:

– سيمون؟ نعم، كنت أعرفه.

– أود أن أعلم قــوامَ تلك العلاقة بين المتهمة وكارتنكين. هل كانا يتقابلان كثيراً؟

أجابت ماسلوفا وهي تنقّل نظرةً حيرى من النائب العام إلى الرئيس وبالعكس:

– ما قوام علاقاتنــا؟ كان يقدّمني إلى الغرباء في الفندق. لكن هذا لا يُسمى علاقة!

وتبسّــم وكيل النيابة تبسّم رجــلٍ ينصب شركاً هيّأه منذ زمن بعيد. وقال:

– أود أن أعلمَ لمــاذا كان كارتنكين يقدّم ماسلوفا وحدها للغرباء. ولا يقدم غيرها من البنات؟

أجابت ماسلوفا وهي تنظر حولها بذعر.

– لا أدري! وكيف أدري؟ كان يقدّم مَنْ يشاء.

فكّــر نيكليودوف الذي استقرت عليه لحظــة عينا المتهمة: «ترى، هل عَرَفْتني؟» وأحس بدمه كله يتدفق إلى وجهه. لكن ماسلوفا لم تميّزه عن المحلفين الآخرين، وحطّتْ نظرتها المرتعبة على النائب العام.

– وهكذا فالمتهمة تُنكر أن لها علاقات حميمة بكارتنكين؟ ممتاز؟ ليس لدي ما أسأل عنه غير ذلك.

سحــب وكيــل النيابة مرفقه عــن الطاولة، وأخذ يكتــب، أو على

الأصـح أخذ يتظاهر بذلك، لأنه اقتصر على تمرير ريشته فوق حروف قـرار الإتّهام، فقد لاحظ أن النـواب العامين والمحامين كانوا يدوّنون دائماً، بعد كل سؤال يسألونه، ملاحظات ترمي إلى سحق الخصم.

في هـذه الأثنـاء، تحـادث الرئيسـ والقاضي ذو النظـارة بصوت خفيض. فإذا الرئيس يستدير نحو المتهمة ليسألها:

– ثم ماذا جرى بعد ذلك؟

أعلنـت ماسلوفا، وقد استعادت شجاعتها حين أدركت أن العلاقة صارت مع الرئيس وحده:

– أقبـل الليـل فصعدت إلى غرفتـي، وجاءت «بيرتـا» لتقول لي: «انـزلي، فها هـوذا تاجرك يعود» ما كنت أريـد النزول، لكن صاحبة الـدار أمرتني بالنـزول. وهو... (عاد صوتها قلقـاً بعد قولها «هو») وهو كان هناك، في قاعـة الاستقبال، يسقي جميع السيدات؛ أراد أن يطلـب مزيـداً من الخمرة، لكن لم يبـقَ معه نقود. حينئـذ أرسلني إلى غرفتـه في الفندق، ودلّني على موضع المـال، وكم ينبغي أن آخذ منه، فذهبت...

كان الرئيسـ يواصـل كلامه بصـوت خفيض مع جـاره، لم يصغ إلى مـا قالته، لكنه أراد أن يثبت سماعـه له فرأى لزاماً عليه ترديد آخر كلمات ماسلوفا:

– ذهبتِ؟ ثم ماذا؟

قالت:

– وصلت إلى الفندق، وفعلتُ كل ما أمرني به وكما أمرني. أخذتُ أربع ورقات حمراء من فئة العشرة.

وتوقفتْ أيضاً، وكأن خوفاً مفاجئاً هاجمها، ثم استأنفت:

– لم أذهب وحدي إلى الغرفة، وإنما دعوتُ سيمون ميخايلوفتش. وأضافت وهي تشير إلى بوتشكوفا:

– ودعوتُها هي أيضاً.

شرعت بوتشكوفا تقول:

– إنها تكذب! بالنسبة إلى الدخول، أنا لم أدخل...

لكن الحاجب أوقفها.

أكدت ماسلوفا، وهي مقطّبة الحاجبين، ودون أن تتطلّع إلى ماسلوفا:

– إنما أخذتُ الأوراق الأربع الحمراء بحضورهما.

وتدخّل وكيلُ النيابة:

– أود لو أعرف إن كانت المتّهمة قد رأت، وهي تتناول الأربعين روبلاً، كم كان في الحقيبة من نقود.

– لم أعدّها. رأيت أنه لم يكن فيها سوى نقود من فئة مائة روبل.

– وإذن فقد رأت المتهمة أوراقاً مالية من ذات مائة روبل، ليس عندي شيء آخر أسأل عنه.

وسألها الرئيس وهو ينظر إلى ساعته:

– وحينذاك جئتِ بالمال:

– نعم، جئتُ به.

– ثم ماذا بعد ذلك؟

– بعد ذلك أخذني التاجر إلى غرفته.

– طيب. كيف أعطيته المسحوق؟

– صببتُه في كأس، وحملتُه على شربه كله.

– لماذا؟

لم تجبْ، واكتفت بأن تنهدت بعمق وبقوة.

وواصلت بعد صمت:

– أبى أن يدعني أذهب. تعبتُ من البقاء معه. خرجتُ إلى الممرّ وقلت لسيمون ميخايلوفتش: «ليته يدعني أنصرف! أنا متعبة». فأجابني سيمون ميخايلوفتش: «نحن أيضاً تعبنا منه، لنعطِه مسحوقاً ينوّمه وتستطيعين الانصراف بعد ذلك». أنا، ظننت أن المَسحوق لا ضرر منه. فأخذتُه لأصبّه في كأسه. وعندما رجعتُ إليه كان مضطجعاً في مخدعه. وفي الحال طلب إليّ أن آتيه بالكونياك. عند ذاك، أخذتُ عن الطاولة زجاجة الشمبانيا الفاخرة، وملأت كأسين، كأساً لي وكأساً

لـه. وفي كأسه سكبتُ المسحوق... ظننتُ، أنا، أن المسحوق للتنويم، وأنـه سينام؛ ما كنتُ لأضع المسحوق في كأسه لو كنتُ أعلم... مهما يكن الثمن.

سألها الرئيس:

– كيف تسلّمتِ الخاتم؟ متى أعطاك إياه؟

– عندما وصلتُ إلى الغرفة أردتُ الانصراف، فضربني على رأسي، وكسـر لي مشطي، فأخـذتُ أبكي، عند ذاك، نزع خاتمـه من إصبعه وأهدانيه لكي لا أنصرف.

في هذه اللحظة، نهض وكيل النيابة مرة أخرى، واستأذن في طرح بعض الأسئلة. قال أولاً:

– أود أن أعلـم كـم قضـتْ المتهمة مـن الوقت في غرفـة التاجر سميكلوف.

وكأنما استولى على ماسلوفا رعب جديد، فأجابت بسرعة شديدة، وهي تنقّل نظرتها القلقة من الوكيل إلى الرئيس:

– لا أذكر. بعض الوقت.

– آه! وهل نسيتْ المتهمة أيضاً، إن كانت قد دخلت مكاناً آخر في الفندق، بعد خروجها من عند التاجر سميكلوف؟

فكّرت ماسلوفا لحظةً، وأجابت:

– دخلتُ الغرفة المجاورة، التي كانت خالية!

سألها وكيلُ النيابة وقد استدار بجسده كله ليخاطبها مباشرة:

– ولماذا دخلتِها؟

– كان ذلك لأصلح ثيابي ولأنتظر العربة.

– هل دخل كارتنكين الغرفة أيضاً مع المتهمة، نعم أم لا؟

– دخلها هو أيضاً.

– ولماذا دخلها؟

– بقي شيء من الخمر في الزجاجة فشربناه معاً.

– هل كلّمت المتهمة سيمون، وفيمَ؟

احتدّت ماسلوفا فجأة، واحمرّ وجهها، وقالت بسرعة:

– تسألني إن كنت قد تكلّمتٍ؟ لم أقل شيئاً، وما جرى قلتُه، لستُ أعرف شيئاً غيره، افعلوا بي ما تشاؤون، أنا بريئة، هذا كلّ ما عندي.

أبلغَ وكيلُ النيابة الرئيس:

– لم يبقَ لدي ما أسأل عنه.

وبعد ذلك أخذ يسجّل، في ملخّص خطابه، أن المتهمة اعترفت بذهابها إلى الغرفة الخالية مع سيمون.

تلا ذلك صمتٌ.

– أليس لديكِ ما تضيفينه؟

فكرّرت ماسلوفا:

– قلتُ كل ما ينبغي أن أقوله.

وجلستْ وهي تتنهد.

علـى أثر ذلك، دوّن الرئيس بعض الملاحظـات، واستمع إلى رأي همسـه في أذنه أحـد معاونيه، وأعلن تعليق الجلسـة لمدة عشر دقائق، ونهض بسرعة وخرج من القاعة.

المعـاون الـذي كلّمه هو القاضـي ذو اللّحيـة الطّويلـة، والعينين الواسعتـين والوديعتين. لقد قال للرئيس: إنه يحسّ باضطراب طفيف في معدتـه، وأعرب عن رغبتـه في تناول منعش. ولهـذه الغاية، علّق الرئيس الجلسة.

سرعـان ما نهض الرئيس والقاضيـان والمحلّفون ليلجؤوا إلى قاعة المداولات. ثم تفرّقوا وقد استولى عليهم إحساس سار بأنهم أتمّوا جزءاً عظيماً من واجبهم المقدس.

دخل نيكليودوف قاعة المحلفين ومضى ليجلس قرب النافذة.

× × ×

-١٢-

نعم، كانت هي كاتيوشا بعينها.

أخذ نيكليودوف يستعرض في ذاكرته الظروف التي عرفها فيها.

عندما رآها لأول مرة، كان قد أنهى سنته الجامعية الثالثة. كان مقيماً عند عمّتيه يحضّر رسالته بأناة. لقد كان من عادته أن يقضي الصيف مع أمه وأخته في القصر الذي تملكه أمه، في ضواحي موسكو. لكن أخته تزوجت في هذه السنة؛ وسافرت أمه للاستشفاء بالمياه المعدنية في الخارج، و لم يستطع نيكليودوف أن يرافقها، إذ كان عليه أن يُعدّ رسالته. فقرّر إذن أن يقضي الصيف عند عمّتيه حيث ظن أنه يجد الهدوء الضروري لعمله؛ فلا شيء يمكن أن يلهيه عندهما؛ كانتا تحبانه كثيراً، وكان هو أيضاً يحبهما كثيراً، ويقدّر بساطة حياتهما التي ظلت على النمط القديم.

كان إذ ذاك في حالة حماسية، حالة الشاب الذي يرى بأم عينه، لأول مرة، جمال الحياة كله وأهميتها كلها، مدركاً في الوقت نفسه خطورة المهمات الملقاة على عاتق الإنسان. في هذه السن، يظن المرء

أنه يستطيع العمل على تحقيق تلك المهمات تحقيقاً مباشراً. فينذر نفسه لذلــك، وهو ممتلئ لا بالأمل وحده، بل وأيضاً باليقين في الوصول إلى أعلــى درجات الكمال كمــا يتخيّله. لقد قرأ نيكليــودوف قبل بعض الوقت، آراء سبنسر وهنري جورج الإجتماعية، وكان الإنطباع الذّي تلقّــاه قويًّــا ، ولا سيّمــا أن المسائل التي عالجها هــذان المؤلفان كانت تمسّه مباشرة، لأن أمه كانت ملاّكة لممتلكات واسعة. لم يكن لأبيه، في الحقيقة، ثروة، لكــن أمه حملت عند زواجها مهراً بنحو عشرة آلاف هكتــار من الأرضــ عاد معظمها إليه فيما بعــد. وها هو ذا يكتشف، للمرة الأولى، ما في نظام الملكية الخاصة للأرض من قسوة وظلم.

ولمــا كان، بطبيعته، من أولئك الذين تكوّن التضحية التي تتمّ باسم أوامــر الضمير، متعــة حقيقية بالنسبــة إليهم، فقد قــرر أن يتنازل عن ملكيتــه للأرض وأن يمنح الفلاحين كل مــا يملكه، أي الملكية الصغيرة التي ورثها عن أبيه. وبهذه الروح نفسها تصوّر رسالته. لقد اختار لها الموضوع التالي: «الملكية العقارية».

كانــت الحياة التي عاشها. في الريف، عند عمتيه، منظّمة كأحسن مــا يكون التنظيم. كان ينهض مبكراً جداً، منذ الساعة الثالثة صباحاً، في بعضــ الأحيــان، ويمضي ليستحم، قبل طلــوع الشمس، بماء النهر الــذي يجــري عند سفــح الهضاب، ويعــود إلى البيــت العتيق خلال المروج التي لم تزل مبلّلة بالندى. وبعد الفطور، كان يشتغل في رسالته تارة، وتارة أخرى يخرج، بدلاً من أن يقرأ ويكتب، ليهيم عبر الحقول حتــى الساعة الحادية عشرة. وكان يقضي قيلولته، قبل الغداء، في ركن من البستان؛ وأثناء الطعــام كان يسلّي عمّتيه ويسحرهما بمرحه الذي

لا ينضب، ثم يمتطي جواده أو يتنزه في زورق صغير، ثم يستأنف قراءته في المساء، أو يبقى في صالة الاستقبال مع عمتيه، يتعلم منهما بالورق لعبة النجّاحة. وطالما عصاه النوم، في الليل، في ضوء القمر على الخصوص. كان فرح الشباب بالحياة، الفرح الكامن فيه يؤرّقه، فيمشي في الحديقة حتى الفجر، مرخياً العنان لأحلام يقظته.

وهكذا كانت حياته هادئة وسعيدة، طوال الشهر الأول من إقامته في منزل عمتيه و لم ينتبه قط للفتاة التي كانت تحيا عندهما نصف ربيبة ونصف وصيفة، الفتاة الرشيقة والساحرة كاتيوشا ذات العينين السوداوين. كان نيكليودوف الذي تربّى في كنف أمه، مايزال يحتفظ، وهو في التاسعة عشرة، ببراءة الطفل الطاهرة. لم يكن يحلم بالنساء إلا من أجل الزواج. أما النساء اللواتي لا يستطعن الاقتران به فما كان يعتبرهن نساء، بل مجرد مخلوقات لا تثير شعوره.

في هذا الصيف بالذات، وفي عشية عيد الصعود، جاءت لزيارة عمتيه امرأة من الجوار يصحبها أولادها، وفتى رسّام هو صديق ابنها. بعد الشاي نظّم الشابان سباقاً على مرج يمتدّ أمام المنزل، قد حُصد عشبه مؤخّراً، وقد دُعِيَتْ كاتيوشا لتشارك في اللعب، وجاء وقت كان على نيكليودوف أن يركض معها. كان يستمتع بالنظر إليها، شأنه شأن الناس جميعاً، لأنها كانت فاتنة، لكن لم يخطر بباله أن علاقات أكثر خصوصية ستقوم بينه وبينها.

كان عليهما أن يركضا يداً بيد، حسب قواعد اللعبة. وكان على الرسام أن يحاول اللحاق بهما. وفكّر الرسام، وهو من أصل فلاّحي:

«أوه! سأجد مشقّة في اللحاق بهما!» مع أنه كان سريع الجري بساقيه، ساقـي الفلاح القصيرتين، الملتويتين قليلاً، والقويتي العضلات. صاح ليعطي إشارة البدء، وهو يضرب يداً بيد ثلاث مرات:

- واحد! اثنان، ثلاثة!

دنت كاتيوشا من نيكليودوف، وهي تبتسم، وأخذت يده بحركة قويـة، أخذتها بيدها الصغيرة، الخشنة، وانطلقـت إلى اليسار، فسُمع حفيف تنورتها المنشّاة.

كان نيكليودوف، هـو أيضاً، سريع الجري وبما أنه كان حريصاً ألا يدركـه الرسام، فسرعان ما سبق كاتيوشـا. وعندما وصل إلى أطراف المـرج، التفـت وراءه، ورأى أن الرسام يلاحق الفتـاة، لكنها نشطت فأفلتـت منه وأخذت تبتعـد عنه أكثر فأكثر نحـو اليسار. وكان هناك أيكـةٌ من الليلـك اتفقوا أنه لا يجـوز الركض وراءهـا. لكن كاتيوشا أسرعـت إليها لكـي لا تُمسَك، ورأى نيكليـودوف، وهو شريكها في اللعبة، لزاماً عليه أن يلحق بها.

نسي أن قـرب الليلك حفـرة مليئة بالقرّاص، وتعثّر فسقط فيها وآذى يديه شوكُها، وبلّله ندى المساء؛ وسرعان ما نهض وهو يضحك، ووثب وثبة فإذا به خلف الليلك.

انطلقـت كاتيوشـا أمامـه، دون أن تكـفّ عن الضحـك بعينيها الملتمعتين مثل حبتين من التوت مبلّلتين، ومدّ كلٌّ منهما يده للآخر.

سألته وهي تصلح بيدها خصلاً من شعرها تفلّتت من جدائلها.

– لابد أن شوك الليلك قد وخزك، كما أقدّر؟

كانت تضحك وهي تلهث، وترفع بصرها إليه.

أجاب نيكليودوف:

– ما كنت أعلم أن ها هنا حفرة!

كان يبتسم دون أن يرخي يدها من يده. وقرّب وجهه من وجهها، دون أن يعلم كيف. فلم تبتعد كاتيوشا عنه. شدّ يدها بيده، بقوة أكبر، وانحنى عليها وقبّلها على شفتيها.

فهتفت الفتاة متعجبة:

– هيه! ماذا فعلتَ!

خلّصتْ يدها من يده، وتراجعت خطوات إلى الوراء، وهي تركض. وعندما وصلت إلى أجمة من الليلك الأبيض، قطعت غصنين مزهرين وقرّبتهما من وجنتيها الملتهبتين؛ ثم حركت ذراعها، وجرت لتلحق باللاعبين الآخرين.

منذ هذه اللحظة، تغيّرت العلاقات بين نيكليودوف وكاتيوشا، فقد وجد الشابان نفسيهما في وضع جميع الفتيان والفتيات الأبرياء والمتجاذبين.

كان يكفي أن تدخل كاتيوشا الغرفة، أو أن يرى نيكليودوف وزرتها البيضاء لكي يستضيء الكون، عنده، بالشّمس، فبدا له كل

شيء آنـذاك أكثر إثارة وبهجـة وأهمية. وغدت الحيـاة فرحاً بالنسبة إليه. وأحسّت، من جهتها، بالإحساس نفسه. لم يكن وجود كاتيوشا يفعـل في نيكليـودوف هـذا الفعل فحسـب بل إن مجـرد التفكير في وجود كاتيوشا كان يملـؤه سعادة. وكانت الفتاة تشعّ بالسعادة لمجرد تفكيرهـا في أنه موجود. وإذا صادف أن تلقّى نيكليودوف رسالة من أمه تحمل إليه الغمّ، أو إذا لم يتقدّم في عمله، أو إذا أحسّ بنوبة من ذلك الحزن المبهم الذي يُصيب جميع الشباب، فقد كان يكفيه أن يفكّر في كاتيوشا حتى تتلاشى جميع آلامه.

كان عمل كاتيوشا، في البيـت، كبيراً. لكنها كانت تعمل بسرعة. وكانـت تحب أن تقـرأ، في أوقات فراغها. وقـد أعارها نيكليودوف روايـات دستويفسكـي وتورغنيف التـي فرغ من قراءتهـا. وأعجبه «الهدوء»[١٠] لتورغنيف، أكثر من أي شيء آخر.

كانا يتبـادلان بضع كلمات، عدة مرات في اليـوم، عندما يلتقيان في الممر، أو على سطح الدرج، أو في الفناء. وأحياناً، كان يلتقيان في غرفة «ماتريونا بافلوفنا»، وصيفـة السيدتين العجوز. كانت كاتيوشا تنام عندها، وكان نيكليـودوف يذهب أحياناً ليشرب الشاي معهما. كانت محادثاتهما بحضور ماتريونا بافلوفنا من أمتع ما يكون، في حين أنهمـا لو بقيـا وحدهما لشقّ عليهمـا الحديث إذ ذاك تعـبّر عيونهما بلغة أبلـغ من الكلمات، وتتجمّد شفاههما، وإذا بالشابين يجتاحهما إحساس بالضيق فيبادران إلى الافتراق.

---

١٠. قصة لتورغنيف نشرت في سنة ١٨٥٤.

استمـرّت هـذه العلاقـات الجديدة طـوال الوقت الـذي بقي فيه نيكليـودوف عند عمتيـه. ولقد لاحظـت العمتان ما بـين الشابين، فأقلقهمـا ذلك، ورأتا من واجبهما أن يخـبرا، في رسالة، أم الشاب، زوجـة أخيهمـا. كانت العمـة ماريـا ايفانوفنا تخشـى أن يكون بين نيكليـودوف والفتـاة عشرةٌ؛ خشيـة باطلـة، لأن نيكليودوف أحب الفتـاة حباً بريئاً كافياً لأَن يعصمه من السقـوط، ويعصمها هي أيضاً. لم يكـن عازفـاً عن امتلاكها الجسـدي فحسب، بل إنـه لم يكن يقبل بالتفكير في إمكان ذلك.

بيد أن مخاوف صوفيا ايفانوفنا الحالمة كانت مسوّغة أكثر من غيرها. فقد كانت تخشى أن يعمـد نيكليودوف، بطبعه العنيد الذي لا ينثني عن عزمه، إلى الزواج بالفتاة، إذا ما أحبّها، ذات يوم بالرغم من أصلها ومن وضعها. ولو تبيّن نيكليـودوف حبّه لكاتيوشا، وحاول أحدهم إقناعـه بأنه لا يستطيع أن يقـرن مصيره بمصيرها، فمن المحتمل أنه، بما عُـرف بـه من استقامة، سيتزوجهـا ليُثبت أن ليس مـن داع يدعو إلى عـدم الزواج بمن يحب، مهما يكن وضعُها. وبما أن عمتيه لم تكاشفاه بمخاوفهما، فقد سافر نيكليودوف وهو يظن أن عواطفه نحو كاتيوشا لا تأتي إلا من فرحهما المتبادل بالحياة. وعند سفره، جّمدتْ كاتيوشا علـى سطح الدرج قرب عمتيه، وأخذت تحـدّق فيه بعينيها الجميلتين السوداوين الممتلئتين بالدموع. وأدرك نيكليودوف أنه أضاع هنا شيئاً جميلاً جداً، نقياً جداً، شيئاً لن يلقاه بعد الآن. فانتابه حزنُ عظيم.

هَمسَ إليها مـن خلف قبعة صوفيـا ايفانوفنا المخرّمـة، وهو يهمّ بالصعود إلى العربة:

– وداعاً، يا كاتيوشا، وشكراً على كل شيء.

فردّت بصوتها الرقيق، الملاطف وهي لا تكاد تمسك دموعها التي فاضت بها عيناها:

– وداعاً، يا دميتري ايفانوفتش.

وهرعت إلى البهو تأوي إليه لتتمكن من البكاء بحرية.

× × ×

-١٣-

مـرت ثلاث سنـوات دون أن يـرى نيكليـودوف كاتيوشا فيها، وعندما لقيها، بعد هذه السنوات الثلاث، أثناء توقّفه في منزل عمتيه، وهو ذاهـب ليلتحق بفوجه -لأنه عُيِّن، منذ فـترة وجيزة، ضابطاً في الحرس- كان قد أصبح رجـلاً مختلفاً كل الاختـلاف عن ذاك الذي كانت له قديماً مع تلك الفتاة علاقات غرامية ساذجة.

كان، فيمـا مضى، شابـاً أميناً، نزيهاً، مستعـداً دائماً لبذل ذاته في سبيل مـا يعتقد أنه الخير؛ أما الآن فلم يعد سوى أناني، ماجن، لا يُعنى بغير ملذاته؛ كان العالم، فيما مضى، يبدو له لغزاً، وكان يبذل وسعه في حل ذلك اللغز بحماسة فرحة. أما الآن فقد غدا كل ما في العالم بسيطاً وواضحـاً عنده، وبدا كل شيء له خاضعاً لشـروط الحياة الشخصية. كان قديمـاً يعدّ الإتّحاد بالطبيعة وبأولئك الناس الذين عاشوا وفكروا وأحسّـوا قبله، بفلاسفة الماضي وشعرائه، يعـدّ ذلك مهماً وضرورياً. أما الآن فهو يعدّ الاتحاد برفاقه والتقيد بالعادات الاجتماعية لطبقته هو المهـم والضروري. كان قديماً يرى في المرأة كائناً غامضاً، ساحراً، يأتي سحرُها من غموضها، أما الآن فالمرأة، كل امرأة -باستثناء أهله ونساء

أصدقائـه– لها في عينيه معنـى دقيق جداً ومحدد جـداً: لم تعد المرأة، بالنسبـة إليه، سوى أداة للمتعة التـي شعر بها والتي أعجبته بين جميع المتـع. كان قديماً لا يحتاج إلى المال: كان لا يكاد ينفق ثلث النفقة التي تعطيهـا إيـاه أمه؛ كان بوسعـه أن يتخلّى عن تركة والـده وأن يمنحها الفقـراء؛ أما الآن فلم يكن يكفيه ألـفٌ وخمسمائة روبل يتسلّمها من أمه؛ وقد جرت بين الأم وابنها بهذا الصدد استفسارات مزعجة.

إن هـذا التحول الشديـد العمق الذي تمّ فيه، جـاء ببساطة من أنه كفَّ عـن قيادة نفسه، وأنه أخـذ يتبع الآخرين. ذلـك أن حياته وهو يقـود نفسه، كانـت تضطره إلى اتخاذ قـرارات، لا في منفعة شخصه الأنـاني المنقطع للذة وحدها، بل ضد مصالحة الخاصة، على الأغلب. أمـا حياته وهو منقاد للآخرين، فلم تكن تحوجه إلى أن يقرّر شيئاً، لأن كل شـيء مقرر سلفاً، ولمنفعته الشخصيـة. وأكثر من ذلك، فهو حين كان يقـود نفسه، كان يتعرّض دائماً لاستنكار الناس، بينما كان واثقاً من أنه سيحظى بثناء الناس الذين يعاشرهم عندما يتبع الآخرين.

وهكـذا فعندما كان مهتمـاً بالحقيقة، وبمصير الإنسـان، وبالغنى والفقر، حَكَم كل الذين يحيطون به على اهتماماته بأنها مجافية للعقل، ومضحكة في الغالب. وكانت أمـه وعمتاه يسمينه بشيء من التهكم الرقيـق: «فيلسوفنـا العزيز». أمـا عندما أخذ يقـرأ الروايات ويروي القصص الماجنة، ويحكي التفاصيل حول الهزليات التي يمثّلها المسرح الفرنسـي، كان الجميـع يثنون عليـه ويجدونه ساحـراً. وفي الوقت الـذي اعتقد فيه أن من واجبـه التخفيف من حاجاتـه والسير بها إلى الاعتدال فلبس سترة من السنة السابقة، وامتنع عن شرب الخمر، اتهمه

الجميـع بأنه يسعـى إلى التفرّد، من جراء الغـرور. أما عندما كان ينفق علـى ملذاته أكثر مما عنده مـن المال، عندما كان يصيد، أو يقيم المآدب الفخمة، كان الجميـع يستحسنون عمله. ولما أراد أن يزين مكتبه زينة فخمة باذخة، بادر كل واحـد إلى إهدائه الأشياء الثمينة. وعندما التزم العفة وأعرب عن نيته في البقاء عفيفاً حتى الزواج، ارتعدت أسرته كلها خوفـاً على صحته؛ وأمه، أمه التـي كانت مجرد فكرة زواجه بكاتيوشا تملؤهـا رعباً، ابتهجت حين علمـت أنه انتزع سيـدة فرنسية من احد رفاقـه. وأخيراً، عندمـا وَهبَ نيكليودوف الفلاحـين الملكية الصغيرة التي جاءته من أبيه، لأنـه كان يرى امتلاك الأرض ظلماً، أرعب قراره أسرتـه. وقد جرّ عليه ذلك لـوم من حوله وسخريتهم التي لا نهاية لها: وظلـوا يردّدون عليه: إن الهبة التي قدمهـا للفلاحين أفقرتهم بدلاً من أن تغنيهـم. ذلـك أنهم أنشؤوا في قريتهم ثـلاث حانات. وأقلعوا عن العمـل تماماً. لكن عندما دخل نيكليـودوف الحرس، وفتح له المجتمع الأرستقراطيّ ذراعيه، فأخذ ينفق الكثير من المال حتى رأت أمه نفسها مضطـرة إلى اقتطاع المال من رأسمالها، غضبت الأميرة العجوز قليلاً، لكنها اغتبطت في أعماق قلبها، لأنها رأت من الطبيعي ومن العدل أن ينـال الشباب نصيبهم من اللهـو؛ فضلاً عما شعرت به من حبور وهي ترى ابنها يتلهى مع أولئك الصحاب اللامعين.

في الأوقـات الأولى، كافح نيكليودوف هـذه الطريقة الجديدة من الحياة. وكان هذا الكفاح صعباً جداً عليه، لأن كل ما عدّه خيراً، عندما كان سيد نفسه، اعتبره الآخرون شراً ومخالفاً للعقل. وبالعكس، كل ما بـدا له شراً بـدا لمن حوله ممتازاً بحيث استسلـم نيكليودوف، في نهاية الأمـر، وكفّ عن كونه سيداً لوجوده، متبنياً وجود الآخرين. وقد شقّ

عليه هذا التنازل في البدء، لكن هذا الانطباع الأول لم يدم طويلاً. وبدأ يدخّـن، ويشرب الخمرة، وانتهى بـه الأمر إلى الإحساس بعزاء حقيقي لدى تفكيره بأن ليس عليه بعد الآن أن يشغل باله بآراء الآخرين.

منـذ ذلك الوقت، استسلم كلياً، بما أوتي من طبيعة متأججة، لهذه الحيـاة الجديـدة التي يحياها كل من حوله. ولقـد خنق في نفسه ذلك الصـوت الـذي كان يطلب شيئاً مختلفاً، خنقاً تامـاً. هذا التغير حدث فيه لدى وصوله إلى بطرسبرج؛ وبلغ غايته لدى دخوله فوج الحرس.

الحياة العسكرية، على العموم، تُفسد أخلاق الرجال. فهي تعوّدهم الحياة الفارغة، أو على الأصح، هي تحرمهم ذلك النشاط الطبيعي جداً والنافـع جداً، بالنسبة إلى الكائن البشري، وهي تعفيهم من الواجبات العامـة، وتمجّد، بالمقابل، قيمـاً اصطلاحية مثل شرف الفوج، والبزة، والعَلَـم، في حين أن سلطة البعض التي لا حـدود لها يقابلها خضوع عبودي للآخرين.

لكـن عندمـا يتلاقى فسـاد العسكرية التـي تُبيح العنـف والقتل، والفسـاد الذي يحدثه الغنى ومصاحبـة العائلة الإمبراطورية، كما هو الحـال بالنسبة إلى أفـواج الحرس المختارة، والمؤلفـة فقط من الضباط الأغنيـاء والنبـلاء، عند ذاك سيدفـع هذا الفساد الناسـ إلى درجة من الأنانية لا يمكن، في الحقيقة، تجاوزها.

ألقـى نيكليودوف نفسه في هـذه الظروف، منـذ أن دخل الحياة العسكرية، وبدأ يحيا كما يحيا رفاقه.

كان همّه الوحيد أن يرتـدي بزة رائعة، يدع لغيره شؤون صيانتها

في أحسن حال؛ ويغطي رأسه بعمرة، ويحمل أسلحة ينظفها غيره، ويمتطي جواداً مروّضاً أبدع ترويض، تعتني به أيدٍ أخرى غير يديه. كانت مهمته اليومية تقوم على مشاركته ومشاركة رفاقه، في الاستعراضات، في التدريب، في أن يُجري حصانه، وأن يلوّح بسيفه، وأن يطلق طلقات نارية، وأن يعلّم الرّماية، كانت هذه هي مشاغله الوحيدة التي كانت تثني عليها أشهر الشخصيات، من الشباب والشيوخ، ومن ضمنهم الامبراطور وحاشيته الذين لم يكونوا يلقون المدح والثناء جزافا.

كان هناك شغل مهم آخر هو الاجتماع في نوادي الضباط أو المطاعم الفاخرة، وإنفاق المال الذي يعلم الله من أين يأتي. المسرح، الحفلات الراقصة، النساء، ثم الجياد، والمسابقة، وسباق الخيل، والنفقات المجنونة، والخمر، والقمار، والنساء...

هذا النمط من الحياة يؤذي العسكريين إيذاءً شديداً، لأن المدني، في أعماقه، يخجل من أن يحيا بهذه الطريقة؛ وهم يتباهون ويفخرون بها، ولاسيما في أوقات الحروب. كذلك كانت حال نيكليودوف الذي دخل الجيش قبل إعلان الحرب على تركيا.

«نحن مستعدون للتضحية بحياتنا، ومن ثم، فإن الحياة التي نحياها، هذه الحياة الخليّة والمرحة ليست مُغتَفرة فحسب، بل لابد منها لنا. ولذلك سيكون من الجنون أن نحيا حياة أخرى»!

هكذا كان نيكليودوف يفكّر. كان يغتبط وهو يحسّ بأنه انعتق من جميع القيود الأخلاقية التي فرضها على نفسه في شبابه.

كان متباهياً بأنانيته، كان بهذه العقليّة، عندما عاد، بعد ثلاث سنوات، إلى منزل عمتيه.

-١٤-

بواعث شتّى دفعت نيكليودوف إلى التوقف في منزل عمتيه. أولاً إن أملاكهما تقع على الطريق الذي ينبغي أن يسلكه ليلتحق بفوجه، ثم إن عمتيه طالما طَلَبتا إليه أن يمرّ بهما في طريقه، وأخيراً، حرص هو نفسه على رؤية كاتيوشا. ولعله كان يبيّت، مسبقاً، قصداً شريراً تجاه الفتاة، قصداً يمليه عليه الرجل الجديد الذي وُلد فيه. على كل حال، لم يكن هو ليعترف بذلك أمام نفسه، وكان يظن أن لا هدف له إلا أن يزور المكان الذي سَعدَ فيه معها، وأن يلقاها، ويلقى عمتيه الطيبتين واللطيفتين جداً، وإن كانتا مضحكتين قليلاً، اللتين أحاطتاه دائماً بجوّ من الحنان والإعجاب.

وصل في الأيام الأخيرة من آذار، صباح الجمعة المقدسة، إبان ذوبان الجليد، في المطر المدرار؛ بحيث أحسّ وهو يدنو من البيت أنه مبلّل وأنه يرتعد من البرد لكنه كان قوياً متين البنية، شأنه في هذه الفترة من حياته.

فكّر وهو يَلجُ الفناءَ المملوء بالثلج الذائب، ويشاهد البيت القديم الذي عرفه أحسن معرفة: «بشرط أن تكون ماتزال هنا!» وقال في

نفسه: «ليتني أستطيع أن أراها تظهر، هنا، على العتبة، لتستقبلني».

على العتبة ظهرت خادمتان حافيتان، شمّرتا تنورتيهما، وحملتا سطل مـاء. ولعلهما كانتـا منشغلتين بتنظيف البلاط أمـام كاتيوشا فلـم يبد لها أثر. رأى نيكليودوف فقـط العجوز تيخون يُقبل عليه، والخادم بوزرته، ولعله كان منشغلاً هو أيضاً ببعض التنظيفات. وفي قاعة الإستقبـال استقبلته صوفيا ايفانوفنا وهي ترتدي الحرير وتضع على رأسها قبعة مخرّمة هتفت صوفيا ايفانوفنا وهي تعانقه.

– آه لطـفٌ منك أنك أتيتَ العمة ماشـا متوعكة قليلاً. لقد تعبت هذا الصباح، في الكنيسة. ذهبنا لكي نعترف.

قال نيكليودوف وهو يقبّل يدها:

– مرحباً، يا عمة صوفيا. اعذريني، لقد بللتك!

– أسـرعْ وبـدّل ثيابـك في غرفتـك! أنـت مبلـل. وهـا قـد طرَّ شاربُك!... كاتيوشا! كاتيوشا! أسرعي وهيئي له الشاي!

أجابها من الممر صوت رخيم:

– في الحال.

أخـذ قلب نيكليودوف يخفق بفرح. كانت هي! إنها ماتزال هنا! وفي اللحظة نفسها، ظهرت الشمس بين الغيوم.

سار نيكليودوف بمرح في إثر تيخون الذي أوصله إلى الغرفة نفسها

التي أقام فيهــا قديماً. كان بودّه أن يسأل تيخون العجوز عن كاتيوشا، كيــف حالها، وكيف صــارت، وهل هي مخطوبة. لكــن تيخون كان شديــد الاحترام لــه، وفاضلاً في آن واحد، وكان يصــرّ إصراراً شديداً علــى أن يصب المــاء على يدي نيكليــودوف، حتّى إنّ هــذا لم يجرؤ علــى سؤاله واكتفى بأن سأله عن أخبار أحفاده، وعن الحصان المسن، وعــن كلب الحراســة «بولكان». الجميع كانوا أحيــاء، وبخير، ماعدا «بولكان» الذي أُصيب بداء الكلب في السنة السابقة.

كان نيكليــودوف يبــدّل ثيابــه، عندما سمع وَقْعَ خطــاً خفيفة في الممر. وطُــرِق الباب، فتعــرّف نيكليودوف الخطــوة وأسلوب طرق البــاب؛ هي وحدهــا كانت تخطو بهذه الخطــوة، هي وحدها كانت تطرق بهــذا الأسلوب! وأسرع فألقى على كتفيــه معطفه المبلّل بالماء، وصاح» «ادخلي!».

كانت هي، كاتيوشــا، كعهده بها من قبل، بل أجمل من ذي قبل، وأعظــم فتنــةً. كانت عيناها الســوداوان تلتمعان بابتسامــة بريئة كما التمعتــا فيمــا مضى، وكانــت تلبــس وزرة بيضاء، نظيفة جــداً، كما لبستهــا قديماً جــاءت تحمل إليه، من عند عمتيــه، صابونةً معطرة نُزِعَ غلافُهــا قبل حــين، ومنشفتــين، إحداهما كبيرة مــن القماش الناعم، والأخــرى من القطن الخشن. كانت الصابونة، والمنشفتان، وكاتيوشا نفسها، كل ذلك كان نظيفاً، غضاً، لم تمسسْه يد، ساحراً.

قالت بغير جهد:

– طاب مَقدمُك، يا دميتري ايفانوفتش!

وغطّت الحمرة وجهها كله.

– أحييكِ!... أحييك!... أنتِ بخير؟

لم يدرِ إن كان ينبغي أن يخاطبها بضمير المفرد أم بضمير الجمع فخاطبها مرة بهذا ومرة بذاك. وأحسّ هو أيضاً بأنه يحمرّ خجلاً.

فأجابت وهي تضع الصابونة على الطاولة، وتنشر المنشفتين على مسند أحد الكراسي:

– بكل تأكيد، الحمد لله! أرسلتْ لك عمّتاك صابونك المفضّل، بالورد.

فلاحظ تيخون:

– دميتري ايفانوفتش حمل أيضاً صابونه معه!

قال ذلك وهو يشير بأصبعه إلى حقيبة السفر ذات الأقفال الفضية التي فتحها نيكليودوف على الطاولة. كانت الحقيبة ملأى بطائفة من القماقم والفراشي والمساحيق والعطور، وكل ما يلزم للزينة.

قال نيكليودوف وقد أحسّ أن كل شيء في قلبه عاد فجأة واضحاً، رقيقاً، كما كان من قبل:

– قولي لعمتيَّ: إنني أشكرهما! ما أسعدني بالمجيء!

كان جوابُها الابتسام، ثم خرجت من الغرفة.

إن العمتين اللتين تولعتا بنيكليودوف دائماً، رحّبتا به هذه المرة أكثر من العادة. ذلك أن دميتري ماضٍ إلى الحرب، وقد يُجرح، وقد يُقتل. كانت هذه الفكرة تهزّ العمتين هزاً.

كان نيكليودوف ينوي، في البداية، ألا يمكث سوى يوم واحد. لكنه ما إن رأى كاتيوشا، حتى قرر أن يقضي بقربها عيد الفصح. فأبرق إلى رفيقه وصديقه «سكونبوك»، الذي كان قد ضرب له موعداً في أوديسا، يرجوه أن يلاقيه بدلاً من ذلك، في منزل عمتيه.

منذ اللحظة الأولى التي لقي نيكليودوف فيها كاتيوشا أحسّ بالانطباعات القديمة تستيقظ فيه. لم يكن يستطيع، كما لم يستطع من قبل، أن ينظر إلى وزرة الفتاة البيضاء دون انفعال؛ و لم يكن يستطيع أن يسمع صوتَها وضحكها ووقع خطواتها دون لذة؛ لم يكن يستطيع أن يتلقّى نظرة عينيها السوداوين بلا مبالاة، ولاسيما عندما تبتسم، ولا أن يراها تحمرّ في حضوره، دون أن يضطرب. أحسّ، مرة أخرى، أنه عاشق، لكن ليس بنفس الطريقة القديمة؛ الآن أدرك أنه عاشق، وفرح بذلك. وكان يعلم أيضاً، وهو يحاول أن يصرف ذهنه عن هذا الحب، ما قوام هذا الحب، وما النتيجة التي سيؤدي إليها.

كان في نيكليودوف، كما في أي كائن بشري، رجلان اثنان. هناك، من جهة، الرجل الأخلاقي الذي لا يرى خيره إلا في خير الآخرين؛ وهناك الرجل الحيوان الذي لا يبحث إلا عن راحته الفردية،

وهو مستعــد لأن يضحيٍ من أجلها بخير العالم كلها. وفي تلك الحالة من الجنــون الأناني التي ألْفى نفسه فيها، تغلّــب الحيوان إلى حدّ خنق الإنسان الآخر كلياً. لكنه عندما لقي كاتيوشا واستيقظت فيه عواطفه القديمة نحوها، أطلّ الإنسان الأخلاقي برأسه وطالب بحقوقه، بحيث نشــب في أعماقه صراع دائم، طوال هذا اليوم واليوم الذي تلاه. كان يعلم أن من واجبه أن يسافر، وأنه سيسيء التصرف إذا مدّد إقامته عند عمتيــه. لا يمكن أن ينتج عن هذه الإقامة شيء حسن، لكنه كان يشعر بكثــير من المتعة والسعادة حتى أنه أبــى أن يصغي إلى صوت الضمير. فبقي.

في مســاء السبت، عشيــة عيد الفصــح، جاء الكاهــن والشماس وخــادم الكنيســة، في زلاجة، ليحتفلــوا بقدّاس الليــل. وأكّدوا أنهم عانــوا صعوبات جمة لقطع ثلاثــة الفراسخ من الطريــق الموحلة التي تفصل الكنيسة عن ملك الآنستين. حضر نيكليودوف الصلاة بصحبة عمتيــه والخدم. ولم يستطع أن يحوّل نظره عن كاتيوشا، الواقفة قرب البــاب، وبيدها المبخرة. وبعد أن تبــادل مع عمتيه ومع الكاهن ثلاث قبــلات، جرياً على التقاليد، أراد أن يعــود إلى غرفته، عندما سمع في الممر صــوت ماتريونا بافلوفنــا، وصيفة ماريا ايفانوفنــا. كانت تتهيأ للذهاب إلى الكنيسة مع كاتيوشا من أجل مباركة حلوى العيد بخبزه.

قال نيكليودوف في نفسه «سأذهب، أنا أيضاً!»

لم يكــن ليخطر ببال نيكليــودوف أن يسافر في العربة أو الزلاجة. لقــد كان يحسّ، في بيت عمتيــه، كأنه في بيته، فأمــر بسرج الحصان

القديم. وبدلاً مـن أن يذهب إلى سريره، ارتـدى بزّته الجميلة وبنطال الركـوب، ومعطفـه وامتطـى ذلك الجـواد السمين، المتثاقـل، الذي لم يكـفّ عن الصهيـل، في الليل، وقصـد إلى الكنيسـة، عبر الحقول الموحلة، المغطاة بالثلج.

× × ×

-١٥-

لقد قُدِّر لصلاة الليل هذه أن تظلّ، بالنسبة إلى نيكليودوف، ذكرى من أعذب الذكريات. وانطباعاً من أقوى الانطباعات.

عندما دلف أخيراً إلى فناء الكنيسة، بعد مسيرة طويلة في الظلمات التي لا ينيرها إلا بياض الثلج، من مكان إلى آخر، كان القدّاس قد بدأ.

وإذ عرف الفلاحون أنه ابن أخي ماريا ايفانوفنا، اصطحبوه إلى مكان جاف يستطيع أن يترجّل فيه عن جواده. وبعد أن اقتادوا حصانه، فتحوا له باب الكنيسة التي غصّت بالناس.

كان الرّجال يقفون إلى اليمين. الكبار منهم يرتدون ستراً مخيّطة في البيت، وينتعلون صنادل من قشر البتولة، ويلفّون سوقهم بعصابات من القماش الأبيض؛ والشباب يرتدون ستراً من القماش الجديد، وحول أجسادهم وشاحٌ من لون زاه، وفي أقدامهم جزمات ضخمة. وإلى اليسار وقفت النساء، وقد غطين رؤوسهن بمناديل من الحرير، ولبسن قمصاناً من المخمل بأكمام قرمزية اللون، وتنانير زرقاء وخضراء وحمراء، ومن كل الألوان، واحتذين أحذية محدّدة، ضخمة. أما

الطاعنات في السن منهن فقد انزوين في صدر الكنيسة، متضعات، بمناديلهن البيضاء وسترهنّ الرّمادية، و بينهنّ و بين النّساء الأصغر سناً منهن اصطف الأولاد بثياب العيد، وشعورهم لامعة من الدهن.

كان الرجال يرسمون باستمرار علامة الصليب؛ وكانوا يسجدون وهم يردون إلى الوراء شعورهم الطويلة. أما النساء، ولاسيما العجائز منهن فكنّ يحدّقن في الأيقونة التي تحيط بها الشموع. ويشددْن بقوة أصابعهن المطوية على الجبهة ثم الصدر ثم الكتفين بينما تهمس شفاههن بالصلاة. وكان الأولاد يقلّدون الكبار. فيصلّون بحماسة، ولاسيما حين كانوا يحسّون أن عيون أهلهم قد حطّت عليهم. كان الفاصل الأيقوني المذهب يتلألأ بالنور وسط هذه الشموع الكبيرة المحاطة بأوراق مذهبة. وكان الشمعدان، هو أيضاً، مزداناً بالشموع. ومن الجوقتين تعالت الأنغام الفرحة، يرتّلها مرتّلون متطوعون، ويختلط فيها الهدير الجهير بنديّ الأطفال الحاد.

تقدم نيكليودوف في الكنيسة. كانت الأرستقراطيّة، تقف في الوسط. كان هناك ملاّك وزوجته وابنه الذي لبس ثياب البحارة؛ ومفوّض الشرطة، والمسؤول عن البرق، وتاجر ينتعل جزمة طويلة الساقين، وإلى يمين المنبر الكنسي، خلف امرأة الملاّك، وقفت ماتريوفا بافلوفنا، وهي ترتدي ثوباً حريرياً بلون متموّج، وقد تغطّى كتفاها بشال مخطّط. وكانت كاتيوشا بجانبها بفستان أبيض مثني الصدر يلفّه زنار أزرق. وفي شعرها الأسود عقدة حمراء، وقد امتلأت عيناها بالإنشداه.

كان كل شـيء مصطبغـاً بصبغة العيد، كان كل شـيء مهيباً، فرحاً وجميـلاً: الكاهن بحلّتـه الفضية المزدانـة بصليب ذهبـي، الشماس وخادم الكنيسة بجبتيهما المطرزتـين بالفضة المذهبة، التراتيل الفرحة التي ينشدها مرتلون هواة، وتلك الطريقة التي يرفع بها راعي القداس، في كل لحظة، شمعة ثلاثية، مزدانة بالزهور، لمباركة الحضور، وأخيراً، الطريقـة التـي يردّد بها الجميـع، في كل لحظة: «المسيح قـام! المسيح قـام!». كان كل ذلك جميلاً، وأجمل ما فيه كانت كاتيوشا بفستانها الأبيض، وزنارها الأزرق، والربطة الحمراء في شعرها الأسود.

أحسّ نيكليـودوف، دون أن يلتفت، أنها كانت تراه. ومرَّ بقربها ليذهـب إلى الهيكل. لم يكن لديه ما يقوله لها. فخطر بباله في اللحظة نفسها، أن يهمس إليها، في طريقه.

– عمتي تنبئك أن العشاء لن يكون إلا بعد القدّاس الثاني.

انتشـر دمُ الشباب على وجه كاتيوشا. كما كان شأنها دائماً عندما تشاهد نيكليودوف. حطّت عيناها السوداوان عليه، وهما تضحكان من السعادة البريئة، وأجابت وهي تبتسم.

– أَعلمُ ذلك.

في هذه اللحظة، مر الشماس الذي كان يطوف في الجمهور ليجمع الصدقـة، قرب كاتيوشا، ومسّها بجبته، دون أن يراها. أراد أن يتنحى عـن طريق نيكليودوف، احتراماً له. فدهش الأمير حين رأى أن خادم الكنيسـة لم يفهم أن كل ما يجري في الكنيسة، بل وكل ما يجري في

العالم بأسره، لا يجري إلا من أجل كاتيوشا. هي وحدها التي لا يجوز أن يتغافل عنها أحد، لأنها هي مركز الكون. ومن أجلها يتلألأ ذهب الفاصل الإيقوني، ومن أجلها تلتهب شموع الشمعدان، ومن أجلها تتصاعد تلك الأغاني البهيجة: «فِصْحُ الرب! افرحوا به!». كل ما كان على الأرض من خير وجمال، فمن أجل كاتيوشا كان، ولاشك أنها تُدرك ذلك. تلك كانت مشاعر نيكليودوف وهو يتأمل مفاتن جسدها التي أبرز خطوطَها الفستان الأبيض، وذلك الوجه الذي غمره الفرح الخاشع، والذي كانت ملامحه تقول: إن كل ما يغرّد فيه لابد أن يغرِّد فيها أيضاً.

خرج نيكليودوف من الكنيسة، في الفترة التي تفصل القدّاس الأول عن الثاني. وفسح الناس له الطريق وهم يحيّونه. وعرفه بعضهم، وبعضهم تساءل: «من هذا؟» توقّف في فناء الكنيسة: أحاط به المتسوّلون، فوزّع عليهم كل ما عثر عليه في جيوبه من نقود. قبل أن يهبط الدرج.

انزاح ظلام الليل، لكن الشمس لم تطلع بعد. وخرج المصلّون واجتاحوا فناء الكنيسة، لكن كاتيوشا لم تطلّ. فعاد نيكليودوف أدراجه لينتظرها.

واصل الجمهور خروجه. كان البلاط يرن من تحت مسامير الأحذية. وجاء شيخ راعش الرأس، هو طاهي ماريا ايفانوفنا، فأوقف نيكليودوف ليقبّله ثلاث قبلات ثم قدّمت له زوجتُه، وهي عجوز

قصيرة مغضنة الوجه، بيضة مصبوغة باللون الأصفر الزعفراني[١١] أخرجتها من منديل. ومن خلفهما دنا فلاح شاب، قوي البنية، يرتدي سترة جديدة مع زنار أخضر، وهتف، وفي عينيه ابتسامة بريئة:

- المسيح قام!

وطوّق عنقه بيديه، وقبله ثلاثاً على الفم، مدغدغاً وجهه بلحيته القصيرة المجعدة، وغامراً إياه برائحة الفلاح.

وبعد أن استقبل نيكليودوف قبلات الفرح، وتلقى البيضة المصبوغة بلون كستنائي، رأى ماتريونا بافلوفنا بثوبها المخملي يتبعها ذلك الرأس العزيز، الصغير، الأسود الذي تزينه شريطة حمراء.

شاهدته كاتيوشا، على الفور، عبر الجمهور الذي كان يفصلها عنه، ورآها تحمرّ مرة أخرى. فلما وصلت إلى الفناء توقّفت لتمنح الفقراء بعض النقود، وكان بينهم بائس له في موضع الأنف جرح أحمر، كبير، دنا منها. تناولت الفتاة شيئاً من فستانها وأعطته إياه، وتقدم منها فقبلته ثلاث مرات دون أن تبدو عليها أية علامة من علامات الاشمئزاز. وبينما هي تقبل ذلك المتسوّل، التقت عيناها بعينيّ نيكليودوف، وكأنها تسأله: «أكان حسناً ما فعلْتُه؟».

- «لاشك، يا عزيزتي، كل ما تفعلينه حسن وجميل، وأنا أحبك».

---

١١. جرت العادة، لدى أبناء الشعب الروسي، أن يتبادلوا البيضات المصبوغة في يوم عيد الفصح، وأن يقبل بعضهم بعضاً ثلاث مرات وأن يخاطب الواحد الآخر قائلاً: المسيح قام، فجيبه: حقاً قام».

هبطت المرأتان درجات السلم وبادر نيكليودوف إلى لقائهما، ولكنّه لم يكن في نيته أن يهنئهما بالعيد مقبّلاً لهما، بل قد أراد فقط أن يتقرّب منهما.

هتفت ماتريونا بافلوفنا مع إشارة من رأسها تصحبها ابتسامة، وبلهجة توحي أن الجميع سواسية في هذا اليوم:

– المسيح قام!

وبعد أن مسحت فمها بمنديلها، مدّت شفتيها للشاب.

أجاب نيكليودوف وهو يقبّلها:

– حقاً قام!

وألقى نظرة على كاتيوشا اتجهت إليه الفتاة وقد غمرتها حمرة الخجل:

– المسيح قام، يا دميتري ايفانوفتش!

فأجاب:

حقاً قام!

وتبادلا قبلتين، ثمّ توقّفا كأنهما يتساءلان إن كان ينبغي أن يستمرّا. وكأنهما اتفقا على أنه لابد من ذلك، فتبادلا الثالثة وكانا يبتسمان.

استخبر نيكليودوف:

– ألن تذهبا إلى الكاهن؟

أجابت كاتيوشا وهي تتنفس تنفساً عميقاً، بملء رئتيها، وكأنها تفعل ذلك بعد جهد لا يقل مشقة:

– لا، يا دميتري ايفانوفتش، سننتظر هنا..

كانت تنظر إليه، في عينيه، بعينيها الخجلتين، البريئتين والرقيقتين.

في الحب بين الرجل والمرأة، تأتي دائماً لحظة يبلغ فيها ذلك الحب ذروته، ولا يبقى فيه شيء متعقّل، ولاشيء شهواني، ويغدو اتحاداً تاماً بين كائنين في كائن واحد. تلك اللحظة المباركة عرفها نيكليودوف في ليلة الفصح هذه.

وعندما كان يحاول الآن، وهو جالس في قاعة مداولات المحلفين، أن يتذكّر جميع الظروف التي رأى فيها كاتيوشا، انبعثت تلك الدقيقة، ماحية كل ما سواها: ذلك الرأس الصغير الأسود الممشوط بعناية، بشريطه الأحمر، ذلك الفستان الأبيض بصدره المثني، ذلك القوام النحيل، وذلك الصدر الذي لم يكد يتكوّن بعد، وتلك الحمرة، وتانك العينان الملتمعتان، والتعبير الظاهر عن النقاء في شخص كاتيوشا كله، وأيضاً عن الحب الطاهر والعميق، لا لنيكليودوف وحده، لكن لكل ما هو جميل في الكون. لقد أحبّت كل شيء، لا الجمال وحده، بل كل ما هو موجود، حتى ذلك المتسوّل المشوّه الذي قبّلته. هذا الحب، أحسّه فيها، في ليلة الفصح تلك، لأنه أحسه في نفسه. لقد صهرهما ذلك الحب كليهما في كائن واحد.

آه! ليتـه استطـاع أن يقف عند هذه العاطفـة! كل ما كان بيننا من فظاعة إنما جاء بعد ليلة الفصح هذه!».

كذلك كان يفكّر، وهو جالس إلى النافذة في قاعة المحلفين.

× × ×

-١٦-

تعشّى نيكليودوف عند عمتيه، بعد عودته من الكنيسة. ولكي يستريح من تعبه، شرب عدة كؤوس من الفودكا والنبيذ، جرياً على عادة تعودها في فوجه. واستلقى على فراشه، دون أن يخلع ملابسه. ومالبث أن نام. وأيقظه قرْعٌ على الباب. ومن طريقة القرع، عرف أنها هي. وثبَ عن السرير وهو يفرك عينيه، وسأل:

– أهذا أنتِ، كاتيوشا؟ ادخلي!

شقت الباب:

– أنت مدعوّ لتناول الطعام، يا دميتري ايفانوفتش!

كانت ترتدي الفستان الأبيض ذاته، لكن بدون الربطة الحمراء في شعرها. كان وجهها يتهلل، وهي تنظر إليه في عينيه، وكأنها قد أنبأته بنبأ مفرح إلى أبعد الحدود. فأجاب:

– أنا آت، على الفور.

لبثت لحظة، دون أن تقول شيئاً. وفجأة، انطلق نيكليودوف

نحوهــا. لكنها استدارت بحركة خفيفــة، في اللحظة نفسها، وفرّت إلى الممر.

قال نيكليودوف في نفسه: «ما أغباني لأني لم أمسك بها»! وخرج من غرفته ليلحق بها.

لم يكن هو نفسه يعلم ما الذي يريده منها، وخُيِّل إليه أنه كان ينبغي لــه أن يفعــل، عند دخولها غرفته، ما يفعله النــاس جميعاً في مثل هذه المناسبة، وما لم يفعله هو. وصاح:

– كاتيوشا، قفي!

فالتفتت إليه وسألته وهي تتوقف عن الجري:

– ماذا تريد؟

– لا شيء. لكن...

تحامــل على نفســه، وتذكّر كيــف يتصرف جميع مَــنْ في طبقته، فطوق خصرها بذراعه.

توقفت تماماً، وحدقت فيه في عينيه.

قالت وقد توردت من الخجل وأوشكت أن تبكي.

– ليس هذا حسناً، يا دميتري ايفانوفتش، ليس حسناً.

ثم أبعدت بيدها القوية ذراعه التي طوقتها.

أرخى نيكليودوف يده، وأحس فجأة لا بالضيق والخجل فحسب، بل بالاشمئـزاز من ذاته أيضاً. كان ينبغي عليه أن يؤمن بنفسه في هذه اللحظـة الحاسمة. لكنه لم يدرك أن ذلك الخجل وهذا الاشمئزاز كانا تعبيراً عن أعماق نفســه. على العكس، لقد تصور أن غباوته هي التي كانت تتكلم فيه، وأن واجبه أن يفعل ما يفعله الناس جميعاً.

ومـرة أخرى، خــفّ في أثر كاتيوشا، ومـرة أخرى طوّق خصرها واختلس قبلة على عنقها.

لم يكــن بــين هــذه القبلة والقبــلات التــي بادلها إياهــا في المرتين السابقتــين مــن شيء مشترك: كانــت المرة الأولى خلــف أيكة الليلك والمــرة الثانية في الكنيسة، في صباح هذا اليوم بعينه. كان في قبلة هذه اللحظة الحاضرة شيء رهيب. وأحست هي بذلك.

صاحت بصوت مرتعب:

– ماذا تفعل؟

ثم وثبت وهربت بسرعة كبيرة.

مضى نيكليودوف إلى قاعــة الطعام، وكانت عمّتاه، بثياب العيد، والطبيب وجارة لهما، قد جلسوا إلى المائدة وبدؤوا بالمقبلات. جرى كل شيء كعادته، لكــن العاصفة كانت تهدر في قلب نيكليودوف لم يكــن يفهم شيئاً مما يقال لــه، ولم يكن يحسن الجواب، ولم يكن يفكر إلا بكاتيوشا، متذكراً إحساسه بتلك القبلة التي اختلسها منها وفجأة، سمع وقــع خطواتها في الممر. ومنذ هذه اللحظــة، لم يعد يسمع شيئاً

آخـر. وعندما دخلت قاعـة الطعام، لم يرفع بصره إليهـا، لكنه أحس بكل كيانه أنها هنا، وتحامل على نفسه لكي لا ينظر إليها.

بعـد العشاء، رجع إلى غرفته. وأخذ يتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً، وقد هـزّه الإنفعال ، مصيخاً السمع إلى كل ما في المنزل من أصوات، منتظراً وقع خطوات كاتيوشا. إن الحيوان الذي كان يحيا فيه، لم يرفع رأسـه، فقط، في هذه اللحظة، بل لقد داس كلياً بقدميه الكائن المحب والأمـين الذي كانه نيكليودوف أثناء إقامتـه الأولى عند عمتيه، ذلك الكائن الذي كان ماثلاً، صباح هذا اليوم بالذات في الكنيسة. الحيوان وحده هو الذي يسيطر منذ الآن فيه.

لكن. مع أنه لم يكفّ عن ترصّد الفتاة، إلا أنه لم يفلح، مرة واحدة طوال النهار، في الإنفراد بها ، وكان يتحاشاها، في الظاهر في المساء، اضطرت إلى دخول غرفة مجاورة للغرفة التي يشغلها. فقد قبل الطبيب البقاء إلى اليوم التالي، وأُمرت كاتيوشا بإعداد الغرفة التي سيقضي ليلته فيها. وعندما سمـع نيكليودوف وقع خطواتها، انسل إلى الغرفة التي دخلتهـا، وهو يمشي بـلا ضوضاء، حابساً نفسـه كمن يهم بارتكاب جريمة.

كانت كاتيوشا تُدخل يديها في غطاء الوسادة، لكي تدخل الوسادة فيه عندما سمعـت الباب يفتح، فالتفتت وتبسمت، لكن ابتسامتها لم تكـن تلك الإبتسامـة المطمئنة والفرحة، وإنما كانـت ابتسامة شاكية، مروعـة، كأنها تقول لنيكليـودوف، إن ما يصنعه هنا سيء، ولا ينبغي له أن يتصرف على هذا النحو. والحقيقة، أن نيكليودوف أحجم، أثناء

دقيقة؛ كاد ينشب، مرة أخرى الصراع بين الرجلين فيه. وسمع، لآخر مرة، وعلى نحو خافت، صوت حبه الحقيقي لها، يحدثه «عنها»، وعن عواطفه «نحوها»، وعن حياتها «هي». لكن صوتاً آخر ما لبث أن هتف به: «خذ حذرك، ستدع اللذة تفوتك!» فتقدم نحو الفتاة بخطوات ثابتة، في حين استبدت به عاطفة حيوانية لا سبيل إلى صدها.

أجلسها على السرير، وهو يضمها ضمة عصبية، وارتمى قربها.

قالت بصوت متوسل:

– دميتري ايفانوفتش، يا عزيزي دميتري ايفانوفتش، أرجوك، دعني!

وأضافت وهي تتخلص منه بغتة:

– إنني أسمع ماتريوفا بافلوفنا، إنها آتية!

والواقع، أن خطوات كانت تقترب.

همس إليها نيكليودوف:

– اسمعي! سأذهب إلى لقائك في الليل. ستكونين وحدك، أليس كذلك؟

قالت:

– لكن ماذا أصابك؟ لماذا؟ لا، لا، ليس هذا حسناً!

كانت شفتاها تتكلمان، لكن كيانها كله الذي تزعزع وانفعل كان يكذب أقوالها.

دخلت ماتريونا بافلوفنا الغرفة. كانت تحمل غطاء للسرير، وبعد أن رمت نيكليودوف بنظرة اللوم له، أخذت توبخ كاتيوشا لأنها جاءت بغطاء لا يليق. خرج نيكليودوف دون أن ينبس بكلمة؛ لم يكن يشعر بالخجل، لكنه أدرك من ملامح وجه ماتريونا بافلوفنا أنها تلومه. وكان يعلم أنها على حق في أن تلومه، لأن ما يفعله شر، لكن الغريزة الوحشية التي حلّت فيه محل حبه القديم لكاتيوشا، سيطرت عليه، وصمّت أذنيه عن كل نداء. كان يعلم الآن كيف يشبع هذه الغريزة، وقد انصرف بتفكيره إلى البحث عن الوسائل التي توصله إلى ذلك.

لم يكد يستقر، طوال المساء. فتارة يدخل غرفة عمتيه، وتارة يعود إلى غرفته، أو يخرج إلى درج المدخل. انصرف تفكيره إلى شيء واحد: أن يلقى كاتيوشا، وحدها. لكنها كانت تتحاشاه، وكانت ماتريونا بافلوفنا تبذل وسعها لكي لا تغيب كاتيوشا عن نظرها.

× × ×

-١٧-

هكـذا انقضـى المساء، وجاء الليـل. ذهب الطبيب لينـام، وأوت الآنستان إلى حجرتيهما. وكان نيكليودوف يعلم أن ماتريونا بافلوفنا في هذه اللحظة، عند عمتيـه، وأنها تساعدهما على خلع ملابسهما. ولابد أن كاتيوشا وحدها في غرفة الخدمة. خرج مرة أخرى إلى درج المدخـل. كانـت الليلة مظلمة، رطبـة، دافئة؛ وكان الهـواء كله ممتلئاً بهـذا الضباب الأبيض الذي يحدثه، في الربيـع، ذوبان الثلوج. ومن النهر حتى مائه قدم من البيت موافياً صوتاً غريباً. صوت الجليد الذي يتقصف.

هبط نيكليودوف من درج المدخل، وتقدم نحو نافذة غرفة الخدمة، وهو يخبـط في نقع الثلج الذائب. كان قلبه يخفق بقوة حتى إنه سمع خفقانه؛ وكان تنفسه يتوقف حيناً، وينفثه حيناً آخر في نفس ثقيل.

كانت غرفة الخدمة مضاءة بضوء مرتعش ينبعث من مصباح صغير. كانـت كاتيوشا جالسـة إلى النافذة، وعيناها شاخصتـان إلى الفراغ. ظـل نيكليـودوف يتأملها، وهـو جامد، وهو في شـوق إلى معرفة ما ستفعله. لزمت الفتاة الوضع ذاته، أثناء بضع دقائق، ثم رفعت عينيها، وابتسمـت، وأومأت برأسها، كأنها تحدث نفسها وتوجّه إليها اللوم.

وأخيراً، هزت رأسها، ووضعت يديها على الطاولة وأخذت تحدق في الفراغ، مرة أخرى.

ظل هنا يتأملها، مصغياً، بالرغم منه، إلى خفقات قلبه وصوت النهر الغريب. هناك، كان العمل ذاته مستمراً دون انقطاع: كانت تسمع، في الضباب ضروب الهدير، والتقصفات، والانهيارات، وخشخشة شظايا الجليد، كأنها الزجاج الذي يتحطّم.

كان نيكليودوف، أمام النافذة، يترصّد على وجه الفتاة المتعب، الساهم، آثار اعتمال آخر مستمر فيها؛ لقد أخذته الشفقة عليها، لكن الغريب أن هذه الشفقة قد أذكت رغبته في امتلاكها، وهي رغبة اجتاحته، منذ هذه اللحظة، اجتياحاً تاماً.

قرع النافذة، فارتعشت كاتيوشا بكل جسدها، وكأنها ترتعش بتأثير صدمة كهربائية. وارتسم الفزع على قسمات وجهها. هبت واثبة، وانطلقت إلى النافذة وألصقت وجهها بالزجاج. لم تختف ملامح الرعب، عندما وضعت يديها فوق عينيها لتبصر على نحو أفضل، فعرفت أن الطارق هو نيكليودوف. كان على وجهها تعبير من الرصانة لم يعرفه الشاب فيها من قبل. و لم تبتسم إلا عندما ابتسم لها، خضوعاً له، لأنه رأى أن قلبها ليس فيه ابتسام، ليس فيه سوى الهلع.

أشار إليها بيده لكي يدفعها إلى ملاقاته في الفناء. هزت رأسها؛ لا، لن تخرج! فألصق وجهه مرة أخرى على الزجاج، يريد أن يصرخ بها لتخرج في اللحظة نفسها، استدارت نحو الباب. لابد أن أحداً يناديها.

ابتعد نيكليودوف. لقد تكاثف الضباب حتى تعذرت رؤيا النوافذ على بعد خمس خطوات. و لم يكن الناظر يميز منها سوى كتلة سوداء ضخمة ينبعث منها ضياء المصباح، ضياء أحمر بدا متسعاً. وعند النهر، استمر التقصف ذاته، والهدير ذاته، وتشظّي الجليد ذاته. وخلال الضباب صاح الديك بغتة، فجاوبته الديَكة في الفناء؛ وديوك أخرى، في الريف، أبعد من تلك تنادت تناديات متناوبة انتهت بأن اختلطت في صيحة واحدة. وفي الأرجاء المحيطة، وفيما عدا عمل النهر، كان كل شيء صامتاً.

بعد أن خطا نيكليودوف خطوات جيئة وذهاباً، أمام البيت، اقترب مجدداً من النافذة. رأى، على ضوء المصباح، كاتيوشا التي عادت إلى مكانها عند الطاولة. لكن، ما كاد يدنو حتى رفعت بصرها نحو النافذة، طرق النافذة وعلى الفور، خرجت من غرفة الخدمة، دون أن ترى: من الطارق، سمع الباب يصر وهو ينفتح، وسمعه ينغلق. فهرع لملاقاتها أمام درج المدخل. وسرعان ما احتضنها بين ذراعيه، دون أن يتفوّه بكلمة. شدّت نفسها إليه، وقدّمت شفتيها لقبلاته، رافعة رأسها، لبثا هنا، واقفين أمام زاوية البيت، في موضع جاف نسبياً، أحسّ نيكليودوف بتعاظم الرغبة في امتلاكها. لكنهما سمعا فجأة صرير الباب وصوت ماتريونا بافلوفنا الغاضب يصرخ، في الليل: «كاتيوشا!» فانتزعت نفسها من ذراعيه لتجري إلى غرفة الخدمة. وسمع إغلاق القفل. وعاد كل شيء إلى الصمت، وانطفأ ضياء المصباح الأحمر. لم يبق سوى الضباب وتقصف الجليد.

دنا نيكليودوف من النافذة: لم يستطع أن يميز شيئاً. قرع: لم يجب

أحــد عاد إلى البيت عن طريق الــدرج الكبير، وانكفأ إلى غرفته، لكنه لم ينم البتّة.

بعــد نصف ساعة، نزع جزمته، وسار في الممــر، إلى أن بلغ الغرفة التي تنام فيهــا كاتيوشا. وعند مروره أمام غرفة ماتريونا بافلوفنا سمع الخادمة العجوز تشخر بهدوء، وكان يهمّ بمتابعة طريقه، عندما أخذت ماتريونا بافلوفنا فجأة تسعل وتتقلّب في فراشها، فتجمّد نيكليودوف وحبس أنفاســه. وعندمــا سمع مرة أخــرى، شخير العجــوز، تقدّم وهــو يحرص ألا يصرّ خشب الأرض. وأخــيراً، ألفى نفسه أمام باب كاتيوشا. لا صــوت لأنفاسها، من الداخل؛ فلعلها لم تكن نائمة. وما كاد يهمس: «كاتيوشا»، حتى اندفعت إلى الباب، وطلبت إليه، بلهجة غاضبة، على ما بدا له، أن ينصرف. قالت له:

– فيم تفكّر؟ أهذا ممكن؟ سوف تستيقظ عمتاك.

لكن كل شيء فيها كان يصرخ: «أنا لك»، أنا كلي لك».

ولم يسمع نيكليودوف غير ذلك.

– أرجوك، افتحي لي، لدقيقة واحدة فقط، أتوسل إليك!

كان يتكلــم دون أن يفكــر فيمــا يقــول. وكان صمــت، ثم سمع نيكليــودوف حفيف يــد تتلمّس القفــل، في العتمــة. وانفتح الباب، ودخــل نيكليودوف الغرفة. أمسك بذراعيه الفتاة التي غطاها قميص من الكتان الغليظ تاركاً ذراعيها عاريتين، وحملها إلى السرير.

همست:

– آه! ماذا تفعل؟

ضمها إليه، دون أن يصغي إلى كلماتها.

كانت تقول وهي تشد نفسها إليه:

– هذا سيء، دعني!

عندما تركها وهي مرتجفة وصامتة، لا ترد بشيء على ما كان يقوله، خرج إلى درج المدخل حيث توقف محاولاً إدراك معنى ما قد جرى.

غدا الليل، في الخارج، أقل ظلاماً. وفي النهر البعيد، تزايد هدير تحطم الجليد، وانضاف إليه الآن، خرير الماء، وتراجع الضّباب، فأتاح للهلال أن تسرّب من خلاله تسرُّباً غير واضح.

سأل نيكليودوف نفسه:

– أهي نعمة عظيمة، أم نقمة كبيرة، ما وقع لي؟ ياه! الأمر كذلك دائماً، بالنسبة إلى جميع الناس.

على هذا الأساس، عاد إلى غرفته، واضطجع، وأغفى.

× × ×

-١٨-

في اليـــوم التـــالي، يـــوم عيدالفصـــح، لحـــق «شو نبـــوك» بصديقـــه نيكليودوف في منزل عمتيه. كان جميلاً، لامعاً، مرحاً، فتن العانسين، بالمعنـــى الحرفي للكلمة؛ فتنهما بفصاحته وأدبه وسخائه، وبالود الذي أظهره لدميـــتري. على أن تبذيره، وإن أعجبهما بـــدا لهما مبالغاً فيه، مـــع ذلك. لقد دهشتا حين رأتاه يعطي متسولاً أعمى روبلا؛ ويوزع، دفعـــة واحدة، خمسة عشر روبلا مكافأة للخـــدم؛ وعندما رأتاه يمزق دون تـــردد منديلاً من الحريـــر المطرز يساوي أكثر مـــن روبل، ليضمد بـــه ساقاً جريحـــة للكلبة الصغيرة «سوزيـــت»، صرختا محتجتين. لم تر العمتان الفاضلتان شيئاً كهذا قط، لكنهما كانتا تجهلان أن «شونبوك» هذا مدين بمائتي ألف روبل، وهو دين قرر ألا يسدده أبداً. وهكذا، فلا أهمية لخمسة وعشرين روبلا، زادت أم نقصت.

علـــى كل حال، لم يمكث شونبوك سوى يوم واحد في منزل عمتي نيكليـــودوف. فقد سافـــر الصديقان، منـــذ المساء؛ لم يكـــن بوسعهما أن يمـــددا إقامتهمـــا، لأنهما بلغا الحد الأقصـــى للمهلة التي من حقهما التصرف بها.

كان قلـب نيكليودوف، طوال هـذا اليوم، منشغـلاً انشغالاً كلياً بذكـرى الليلة الماضية ، وقد تصادمت فيـه عاطفتان متناقضتان: كان الشـاب، من جهـة يطرب لذكرى اللذة التي جناهـا –وهي لذة أدنى كثـيراً مما قـدر– وكان يحس من جهة ثانية بأنه ارتكـب عملاً شائناً، وأن مـن واجبه أن يتداركه، لا في مصلحـة كاتيوشا، بل في مصلحته هو نفسه.

لأن نيكليـودوف، في هذه الحالة من الأنانية العاتية التي كان فيها، لم يكـن تفكيره ينصرف إلّا لذاته، كان يسائل نفسه ماذا سيقول الناس عنـه لو عرفـوا الطريقة التي تصرَّف بها إزاء الفتـاة، لكنه لم يفكر البتة فيما ستحس به هذه الفتاة، ولا فيما قد يصيبها.

كان متلهفـاً، مثـلاً، ليعلـم أن كان شونبوك قـد اكتشف علاقاته بكاتيوشا، وهو ما يرضي حبه لذاته.

قال له صديقه منذ أن شاهد الفتاة:

– مـن أجل هذا إذن تولعت بعمتيك فجـأة!. الواقع أنني لو كنت مكانك لمددت إقامتي! جمال حقيقي!

كان نيكليودوف يرى أيضاً، أنه وإن يكن شاقاً عليه وجوب السفر قبـل أن يُشبع شهواته، فقـد كان لهذا الواجب مزيـة كبرى: وهو أن يفصـم، دفعـة واحدة،علاقات يصعب الإبقاء عليهـا. وكان يرى من واجبـه أن يعطي كاتيوشا بعض المال، لا ليمـدّ إليها يد العون، بل لأن هـذا هو ما يفعل كل رجل شريف في مثل هـذه الحالة. قرر أن يعطيها مبلغاً يتناسب مع وضعها ووضعه.

انتظرها بعد العشاء في الممرّ، فلمّا رأته احمرّت وأرادت أن تهرب، مشيرة بغمزة من عينها إلى باب غرفة ماتريونا الذي ظل مشقوقاً.

قال لها وهو يفرك بأصابعه المغلّف الذي أودعه ورقة بمائة روبل:

– أردت أن أسلّم عليك. فها أنا...

كشفت نيّته، فاربدّت، وقطبت بين حاجبيها، وهزّت رأسها، وردّت يد الشاب الممدودة.

همس، وهو يدسّ المغلف في فتحة صدرها:

– هيا، خذي!

ثم قطّب بين حاجبيه هو أيضاً، وتأوه كأنه قد جُرح، وجرى ليحبس نفسه في غرفته. وتمشى زمناً طويلاً، جيئة وذهاباً، وهو يتنهد، كانت ذكرى هذه الحادثة تعذّبه وكأنها جرحته جرحاً حقيقياً. لكن ما العمل؟ الناس كلهم يتصرفون على هذا النحو... ألم يتصرف شونبوك كذلك إزاء تلك المربية التي حدّثه عنها؟ والعم غريشا؟ وأبوه، وهو يسكن الريف، حين جاءه ولد غير شرعي؟ وبما أن الناس، جميعاً يتصرفون بهذه الطريقة، فعليه أن يفعل مثل ما فعلوا!

كان يسعى إلى طمأنة نفسه، بفضل هذه المحاكمات، دون أن يفلح في ذلك. كانت ذكرى لقائه الأخير لكاتيوشا تلهب ضميره.

في أعماقه، في أعمق زوايا قلبه، كان يحس أنه تصرف تصرفاً شديد الحقارة والنذالة والوحشية حتى أنه لم يفقد فقط حقه في الحكم على الآخرين، بل وفي مواجهة العالم أيضًا ، وكيف يمكن أن يعتبر نفسه

رجــلاً شريفاً، ذا أخلاقية سامية وكريمة؟ هذه الفكرة السامية عن نفسه كانت ضرورية لكي يواصل حياته الفرحة الطائشة. ولذلك صمم ألا يفكر في هذه المغامرة بعد الآن.

إن الحياة الجديـدة التي انفتحت أمامه، والسفر والرفاق والحرب، كل ذلــك سهل عليــه النّسيان ، وكلّما مر الزمــن ازداد نسيانه بحيث انتهى حقاً بنسيان كل شيء تماماً.

علــى أن قلبه انقبضــ، مرة واحــدة، وذلك عندما عــاد إلى منزل عمتيــه، بعــد عدة شهور مــن عودته من الحــرب، وعلــم أن كاتيوشا ليســت في البيــت، لأنها هجرت البيــت بعد سفره بقليــل، وأنها قد وضعت طفلاً، وأنها سقطــت، على حد قول العانسين، إلى حضيض الفســاد. أمــا الطفل الذي وضعتــه فقد يكون ابنــه، إذا ما حكم على الأمــور بحســب التّواريخ، وقد لا يكــون ابنه، فعندمــا روت عمتاه القصة أضافتــا أن كاتيوشا، قبل أن تتركهما، انحلت أخلاقها انحلالاً تاماً: كانت فاجرة. شريرة كأمهــا. هذا الحكم الذي أصدرته العمتان أعجــب نيكليودوف؛ إذ قد وجد نفسه بعد ذلــك، مبرأ ومغفوراً له. ومع ذلك، كان في نيتــه، أول الأمر، أن يبحث عن كاتيوشا والطفل، لكــن بما أن ذكــرى سلوكه ظلت، في أعماقه، تؤلمــه وتخجله، فإنه لم يحــاول، فعلاً، أن يسعــى أي مسعى من المساعي التــي انتواها. وفي النهاية، نسي خطيئته نسياناً أعمق، وكف عن التفكير فيها.

وإذا بمصادفــة خارقــة تعيد كل شيء إلى ذاكرتــه الآن، وتجبره على أن يعــي مــن جديد أنانيته ووحشيتــه ودناءته التي أتاحــت له أن يحيا

حيــاة هادئة، طوال ثماني سنوات، وضمــيره مثقل بمثل هذه الخطيئة! لكن هيهــات أن يقبل الإعتراف لنفسه بذلــك: كان همه الوحيد هو خطــر الإكتشاف وذلك حين تعلن كاتيوشا أو محاميها كل شيء للناس فيهينانه في نظر الجميع.

× × ×

-١٩-

كان نيكليودوف في هــذه الحالة الذهنية، وهو جالس إلى النافذة، في قاعــة المحلفــين، يصغي إلى دوي أحاديث زملائــه من حوله. كان يدخن لفافة بعد لفافة، في انتظار استئناف الجلسة.

كان التاجــر المرح واضح التعاطف مع زميله، المرحوم سميلكوف فأثنى على أسلوبه في اللهو:

– هيه! كان يلهو، الأخ، على الطريقة السيبيرية! و لم يكن غبياً، مع هذا! فقد اختار في الواقع، فتاة ممشوقة.

كان رئيســ المحلفــين يعرض الإعتبارات التي قــد يُستنتَج منها أن كل شــيء منوط بالخــبرة. وكان بطرس غيراسيموفتشــ يمازح الوكيل التجاري اليهــودي ويقهقهان. وكان نيكليــودوف يجيب باقتضاب شديد عن الأسئلة التي تُلقى عليه، و لم يكن يرغب إلا في شيء واحد: أن يَدَعوه وشأنه.

عندمــا دخل الحاجــب، بمشيته الحاجلة، قاعــة المحلفين ليستدعي

المحلفين، أحس نيكليودوف بالرعب، وكأنه لم يُدْعَ ليكون حاكماً، بل كأنه يُقتاد ليكون هو المحاكَم. لقد أدرك منذ الآن، في أعماق قلبه، أنه بائس، غير جدير بأن يواجه الناس. على أن قوة العادة كانت مستحكمة فيه حتى أنه صعد إلى المنصة بخطا واثقة، وبلغ مقعده، في الصف الأول، بجنب الرئيس؛ ثم وضع بهدوء ساقاً على ساق وأخذ يعبث بنظارته. أما المتهمون الذين كانوا قد أُخرجوا من القاعة فإنهم أُعيدوا إليها الآن.

ظهرت، في المحكمة، وجوه جديدة، وجوه الشهود. ولاحظ نيكليودوف أن كاتيوشا كانت تلقي نظرات متكررة على سيدة بدينة ترتدي ثياباً فخمة من الحرير والجوخ، وتلبس على رأسها قبعة عريضة ذات أشرطة مسرفة الطول، وهي عارية الذراعين حتى المرفقين. كانت هذه السيدة، الجالسة في صف الشهود الأول، تمسك بحقيبة يد من أعظم الحقائب أناقة. لم يطل الأمر بنيكليودوف حتى يعلم من هي. لقد كانت صاحبة بيت البغاء الذي عملت فيه، آخر مرة، ماسلوفا.

لم تلبث أن شرعت المحكمة في الإستماع إلى الشهود. سئلوا عن كناهم وأسمائهم ومهنهم ودينهم، وهلم جراً. وعندما سئلوا إن كانوا يريدون أن يدلوا بشهاداتهم بعد حلف اليمين أم لا، ظهر الكاهن العجوز من جديد على المنصة. واتجه إلى الصورة المقدسة وهو يجر قدميه جراً، ويحرك بيده صليبه الذهبي الذي يتدلى على صدره، وحلف الشهود والخبير اليمين. وبدا، كعادته دائماً، مشبعاً باليقين من أنه يؤدي مهمة في أعلى مراتب الجدية والنفع.

بعد أن انتهت هذه المراسم، أخرج الرئيس جميع الشهود ما عدا الشاهدة البدينة، السيدة «كيتايف» مديرة محل البغاء. دُعيت السيدة «كيتايف» إلى أن تدلي بكل ما تعلمه فيما يتعلق بقضية التسميم. عرضت هذه السيدة عرضاً دقيقاً ومنهجياً كل ما كانت تعلمه، وهي تبتسم ابتسامة متكلفة، وتخفض قبعتها عند كل جملة، وتتكلم الروسية بلهجة ألمانية شديدة البروز. روت كيف أن خادم الفندق سيمون، الذي كانت تعرفه، جاءها يطلب بغياً لتاجر سيبيري ثري. فأرسلت «ليوباشا». وبعد بعض الوقت، عادت ليوباشا بصحبة التاجر.

قالت بتغنج ترافقه ابتسامة خفيفة:

– كان «في نشوة» وظل يشرب عندنا، ويقدم الشراب للبنات، وبما أن نقوده نفدت أرسل ليوباشا التي كانت «المفضلة» عنده، إلى غرفته في الفندق.

وعندما قالت الكلمات الأخيرة استدارت لتتطلع إلى المتهمة، وخيل إلى نيكليودوف أن ماسلوفا عند سماعها هذه الكلمات. فأحس بإحساس غريب، لا سبيل إلى تحديده، تمتزج فيه الشفقة بالاشمئزاز، حين رأى تلك الإبتسامة الكريهة.

سأل السيدة «كيتايف» محامي المتهمة، وكان شاباً خجولاً، أسرعت إليه حمرة الخجل؛ وكان يستعد لدخول القضاء، وقد عينته المحكمة للدفاع عن ماسلوفا:

– هل تريد الشاهدة أن تقول لنا: ما رأيها في ماسلوفا؟

أجابت السيدة كيتايف:

– رأيي فيها ممتاز. فهي شابة متعلمة، حسنة الأناقة، تربت في عائلة نبيلـة، حتى أنها تكتب الفرنسية! قد تسرف في الشراب أحياناً، لكنني لم أرها قط تنسى نفسها دقيقة واحدة. إنها شابة رائعة حقاً!

ظلت كاتيوشا محدقة في السيدة كيتايف، ثم حولتهما نحو المحلفين، ولاسيمـا نحو نيكليودوف الذي لاحظ أن وجهها ارتسمت عليه في اللحظة نفسها، أمارات الرصانة، وشيء من القسوة. وتعلقت عيناها، الغريبتـا النظـرة، بعيني نيكليـودوف، زمناً طويلاً، وهـو لم يستطع، بالرغـم من ذعـره، أن يرفع عينيه عن هاتين العينـين السوداوين اللتين حطتا عليـه. لقد تذكّر تلك الليلة الحاسمة، وتقصف الجليد في النهر، والضبـاب، وذلك الهلال على شكل منجـل مقلوب، وهو لم يبد إلا في الصبـاح لينير شيئاً مظلماً ورهيباً. هاتـان العينان السوداوان اللتان تسمرتا عليه، ذكرتاه، رغماً عنه، بذلك الشيء المظلم والرهيب. وفكّر «لقد عرفتني»! وعلى نحو آلي، تصاغر في مقعده، انتظاراً للضربة.

لكنهـا لم تتعرفـه. وتنهدت تنهـداً خفيفاً، وحوّلت مـرة أخرى، عينيهـا نحو الرئيس. تنهد نيكليودوف بـدوره. وفكّر: «آه! أتمنى لو ينتهي ذلك كله».

كان يعـاني ذلـك الإحساس الذي طالمـا عانـاه في الصيد، عندما كان يضطـر إلى الإجهاز على طائر جريـح: إنه الإحساس بالاشمئزاز

والشفقة والندم. الطائر الجريح يتخبط في كيس الصياد، والصياد يرثي له، ويتردد، ويشمئز منـــه، في الوقت نفسه، ويتمنى أن يُجهز عليه في أسرع وقت.

مثـــل هذا المزيـــج من العواطف هو مـــا كان يحسه نيكليودوف في هذه الساعة، وهو يصغي إلى شهادة الشهود.

× × ×

-٢٠-

طالت القضية، وكأنها طالت بقصد الإساءة. فبعد استجواب الشهود والخبير واحداً واحداً، وبعد أن طرح وكيل النيابة والمحامون، حسب العادة المتبعة، طائفة من الأسئلة التافهة، بكثير من الرزانة، دعا الرئيس المحلفين إلى الاطلاع على الأدلة الثبوتية التي كانت عبارة عما يقرب من عشرة قماقم، ومصفاة استُخدمت في تحليل السم، وخاتم ماسي ضخم، خاتم كبير جداً لابد أنه زان سبابة حجمُها غير طبيعي. جميع هذه الأشياء كانت مختومة بالشمع الأحمر ومصحوبة ببطاقة.

كان المحلفون يستعدّون للنهوض من مقاعدهم، من أجل معاينة هذه الأشياء، عندما استوى وكيل النيابة في جلسته وطلب أن تُتلى أولاً، نتائج التحقيق الطبي الذي أُجري على جثة المُتوفّى «سميكلوف».

وكان الرئيس الذي بذل قُصارى جهده لتعجيل القضية، كي يلقى صاحبته السويسرية بأسرع ما يمكن، يعلم جيداً أن تلاوة هذه الوثائق لن يَنتج عنها سوى ضجر الجميع. وكان يعلم أن وكيل النيابة يطلب

تلاوتها لأن له الحق في تلاوتها لا غير. ولم يكن بالإمكان معارضته في ذلك، فاضطُر الرئيس إلى أن يأمر بتلاوتها. تناول الكاتب الأوراق وشرع يقرأ بصوت لاثغ، حزين:

- من الفحص الخارجي للجثة ينتج مايلي:

١- طول قامة «فبرابونت سميكلوف» متران وثلاثة سنتمترات (همس التاجر في أذن نيكليودوف: «يا له من رجل شديد القوى»)

٢- عمره في حدود الأربعين، إذا قدرنا عمره بحسب ما يوحي به الفحص الخارجي.

٣- كانت الجثة، أثناء الفحص، منتفخة.

٤- كانت عروقه مائلة إلى الخضرة، تنقّطها بقع سوداء.

٥- كان الجلد منسلخاً عن الجسم كله، ومتدلياً في مواضع كثيرة.

٦- كان الشعر الأحمر الشديد الكثافة ينفصل عن الجلد لدى أدنى ملامسة للأصبع.

٧- كانت العينان خارجتين من محجريهما وكانت القرنية باهتة.

- كان يسيل من المنخرين والأذنين والفم قيحٌ مزبدٌ ونتن.

- لم يكن للجثة رقبة تقريباً، نتيجة انتفاخ الوجه والصدر.

وهكذا عرض التقرير وصف جميع التفاصيل المسجّلة بشأن الجثة

المنتفخـة، جثة سميكلوف المـرح الذي انتهز فرصـة إقامته في المدينة ليلهـو على هـواه، في أربـع صفحات وسبعـة وعشرين بنـداً. تزايد إحساس نيكليـودوف بالاشمئزاز، وكان إحساسـاً عاتياً لا سبيل إلى ردّه، على أثر هذه التـلاوة المأتمية. فحياة كاتيوشا؛ والقيح السائل من منخـري التاجر، وهاتان العينان الخارجتـان من محجريهما، والطريقة التـي تصرّف بها قديمـاً إزاء الفتاة، كل ذلك كان كأنمـا يشكل خليطاً حقيراً ومثيراً للغثيان.

عندمـا انتهت أخيراً تلاوة التقرير، تنهد الرئيس ارتياحاً وهو يرفع رأسـه. لكن كاتب المحكمة ما لبث أن شرع في قـراءة الوثيقة الثانية، وهي محضر التشريح الداخلي للجثة. خفضَ الرئيس رأسه، واتّكأ بمرفقيه على الطاولة، ووضع يديه على عينيه وأغمضهما. وكان التاجر المرح، جار نيكليودوف، يبذل جهوداً مضنية ليطرد النعاس، ويَخفض رأسه إلى الأمـام، بين الحين والآخر، بحركة مباغتة. حتى المتهمون أنفسهم والدرك الذين يحرسونهم جمدوا في أماكنهم واستولى عليهم خمول النعاس.

كانت نتيجة الفحص الداخلي:

١- كان جلـد غطاء الجمجمـة منفصل عن العظـام، دون أي أثر للنزف.

٢- كانت عظام الجمجمة بحجمها الطبيعي، وسليمة.

٣- على غلاف النخاع كانت تُرى بقعتان بحجم أربعة إبهامات، الخ.

ثم تلا ثلاث عشرة فقرة من النوع نفسه.

وجاءت بعد ذلك أسماء شهود التحقيق، وتوقيعاتهم، وأخيراً استنتاجات الطبيب الخبير الذي صرَّح بما يلي: يُستدَل من التغيرات الحادثة في المعدة والأمعاء والكليتين أن سميكلوف مات –على الأرجح– بسبب تجرعه السم الذي ابتلعه مع الكونياك. أما ما اسم ذلك السم بالضبط فمن المستحيل معرفته، وفرضية تجرع السم مع الخمر قامت على أساس وجود كمية كبيرة من الكونياك في معدة المتوفّى.

همس في أذن نيكليودوف جاره التاجر، مرة أخرى، وقد استيقظ فجأة:

– من الواضح أنه كان يُسرف في الشراب.

استغرقت قراءة هذه المحاضر نحواً من ساعة لكن وكيل النيابة لم يكن ليكتفي بذلك. ذلك أن الرئيس قال وهو يلتفت إلى وكيل النيابة، بعد أن انتهى كاتب المحكمة من تلاوة استنتاجات الطبيب الخبير:

– أعتقد أنه لا فائدة من قراءة تحليل الأحشاء.

فاحتج ممثل النيابة بلهجة قاسية:

– عفواً، أطلب أن تتم قراءتها.

ومال ميلاً خفيفاً على جانبه، وأوحت نبرة صوته أن من حقه أن يطلب تلاوتها، وأنه لن يتنازل عن ذلك إطلاقاً، وأن الرفض سيكون سبباً لتمييز الدعوى.

أحس القاضي ذو اللحية الطويلة بالإنزعاج مرة أخرى من جراء وجع معدته. وسأل الرئيس:

- ولمَ هذه التلاوة؟ لن يؤدي ذلك إلا إلى تضييع الوقت!

أما القاضي ذو النظارة الذهبية فلم يكن يقول شيئاً. كان ينظر أمامه، متجهم الوجه، كرجل لا ينتظر شيئاً صالحاً، لا من زوجته على الخصوص، ولاسيما من الحياة على العموم.

وبدأت القراءة:

- في ١٥ شباط... ١٨٨٠، أنا الموقع أدناه، بأمر من التفتيش الطبي، وبموجب المادة...

استأنف كاتب المحكمة قراءته بلهجة رصينة وبصوت عال، كأنه يريد أن يتغلب على نعاسه ونعاس القاعة بأسرها.

- باشرنا، بحضور مندوب التفتيش الطبي المذكور أعلاه، تحليل الأحشاء التالية:

١- الرئة اليمنى والقلب (المحفوظان في وعاء زجاجي من ست ليبرات).

٢- محتوى المعدة (المحفوظ في وعاء زجاجي من ست ليبرات).

٣- المعدة (المحفوظة في وعاء من ست ليبرات).

٤- الكبد والطحال والكليتان (المحفوظة في وعاء زجاجي من ثلاث ليبرات).

٥- الأمعاء (المحفوظة في وعاء زجاجي من ست ليبرات).

في هـذا الموضع من التلاوة، همس الرئيس بشيء في أذن مساعده الأول، ثـم في أذن مساعده الثاني. ولما تلقّـى الرد بالإيجاب أشار إلى كاتب المحكمة بالكفّ عن القراءة، وأعلن:

- تقدّر المحكمة أنه لا طائل من هذه القراءة.

ومـا لبث كاتب المحكمة أن سكـت وأخذ يجمع أوراق المحضر. في حين أخذ وكيل النيابة يخربش ملاحظة، وقد بدا عليه الغضب.

وأعلن الرئيس:

- يستطيع السادة المحلفون، منذ الآن، الاطلاع على أدلة الإثبات.

نهض عدد غير قليل من المحلفين. وبدا عليهم أنهم كانوا منشغلين بما سيفعلونه بأيديهم أثناء التفتيش، فاقتربوا من الطاولة حيث فحصوا واحـداً وراء واحد، الخاتم والآنية الزجاجيـة والمصفاة. وأقدم التاجر على إدخـال الخاتم في أحد أصابعه. وقال لنيكليودوف وهو يعود إلى مكانه:

- انظر! ما أضخم هذه الأصبع!

وأضاف، ولعله أُعجب بفكرة العملاق الذي كانه التاجر الميت:

- أصبعٌ مثل خيارة مخلّلة حقيقية.

× × ×

-٢١-

انتهى فحص أدلة الإثبات، وأعلن الرئيس انتهاء التحقيق القضائي، وأعطى الكلمة وكيل النيابة، دون أن يتوقف، لفرط عجلته في تصريف القضيــة. وقال في نفسه إن وكيل النيابة بشر هو أيضاً، رغم كل شيء، ولابد أن يكون مستعجلاً أيضاً في الذهاب كي يدخن ويأكل، ولاشك أنــه سيشفق على الحضور. لكن وكيــل النيابة لم يرحم أحداً، لا نفسه ولا الآخرين. كان هذا القاضي غاية في الجهل والغباء، وكان من سوء حظــه أن تخــرّج من المعهد بوسام ذهبي. ونــال جائزة، فيما بعد، في الجامعة على رسالته عــن «العبوديات في القانون الروماني». كان إذن مزهواً بنفسه، مغترّاً بها إلى أقصى حد –وهو ما أسهم فيه أيضاً حظوته لدى النساء– ومن ثم فإن حماقته الفطرية بلغت حدوداً غير عادية.

عندمــا أعطاه الرئيس الكلام، وقف على مهــل، مبرزاً للعيان أناقة شخصه ببزّته المطرزة بالذهب. طرح يديه على الطاولة، وحنى رأسه، ونقّــل نظرة عريضــة في الحضور، ماعدا المتهمين، وبــدأ خطبته، لقد تسنى له، أثناء قراءة المحاضر، أن يُهيئ مرافعته.

–القضية المطروحــة عليكم لتحكموا فيها، أيها السادة المحلّفون،

تكـون – إذا أمكننـي استخدام هـذا التعبير– نموذجـاً لجريمة متميزة أوضح تميّز.

كان ينبغـي أن يكون لمرافعة وكيل النيابـة، في تصوّره، قيمة عامة لتغـدو شبيهـة بالخطب الشهيرة التـي وطّدت مجد المحامـين العظام. صحيـح أن جمهور المستمعـين، في هذا اليـوم، كان مكوناً فقط من الخياطات والطاهيات والحوذيين والحمّالين، لكن هذا الاعتبار لم يكن لـيردّه عن قصده. فكبـار المحامين أنفسهم بـدؤوا أمام مستمعين من هذا النوع. ولقد وضع وكيل النيابة لنفسه مبدأ وهو أن يرتفع إلى قمة المسائل»، مستخلصـاً الدلالة البسيكولوجية مـن كل جريمة، ومعرّياً الجرح الاجتماعي الذي كانت الجريمة تعبيراً عنه.

– أنتم ترون أمامكم، أيها السادة المحلّفون، جريمة نموذجية خاصة بأواخـر قرننا، جريمة تحمـل في ثناياها جميع السمـات النوعية لهذه المسيرة الخاصة، مسيرة الإنحلال الأخلاقي الذي يصيب اليوم عناصر كثيرة من مجتمعنا.

تكلّم وكيل النيابة طويلاً بهذه اللهجة. ووضع نصب عينيه شيئين، على الخصوص: الأول أن يذكر كل واقعة من الوقائع المتعلقة بالقضية، سـواء أكانت كبيرة أم صغيرة؛ والثـاني، أن يحرص، بخاصة، على ألا يتوقـف لحظـة، وأن يتكلم بحيـث يتدفق خطابـه دون انقطاع، لمدة ساعـة وربع على الأقل. على أنه اضطر إلى التوقف، مرة واحدة، لأنه فقـد سلك محاجّته؛ لكنه ما إن أفلح في استئناف انطلاقته حتى عوّض هـذا الاضطراب الموقت بمزيد مـن البلاغة. كان يعبّر عـن نفسه تارة

بصـوت خافت مَلِقٍ، متمايلاً مـن قدم إلى أخرى، محدّقـاً بالمحلّفين، وتارة أخرى، بلهجـة رصينة وطبيعية، مستعيناً بإضباراته، وفي بعض الأحيان كان صوته يغدو كصوت المُلْهَمين، فيهدر هديراً وهو يلتفت إلى الجمهور والمحامين. المتهمـون وحدهم الذين سمّروا أعينهم فيه، لم ينلهـم الشرف بـأن يُلقي عليهم نظرة واحدة. كانـت مرافعته مليئة بالصيـغ الجديدة، الصيغ الشائعة في حلقته، والتي كانت تُعدّ وماتزال تُعـدّ آخـر ما وصل إليه العلـم. كانت تدور حـول الوراثة، والإجرام الفطـري، ولومبروزو، وتـارد، والتطور، والصراع مـن أجل الحياة، وشاركو، وانحطاط النوع.

كان التاجـر سميكلـوف، حسـب تعريف وكيل النيابـة، نموذجاً أصيـلاً للروسي البدائي الذي غدا، بتأثير ثقته وكرمه، فريسة لكائنات منحرفة أشد انحـراف، سقط بين أيديهمـا، وكان سيمون كارتنكين نتاجـاً وراثياً للعبوديـة القديمة، ورجلاً بلا علـم ولا مبادئ ولا دين. وكانـت ايفيميـا بوتشكـوف، خليلتـه، ضحيـة الوراثـة: مظهرها الجسماني، وطابعها الأخلاقي يَنطويـان على جميع أمارات انحطاط النوع. لكن العامل الأساسي للجريمة كان «ماسلوفا» التي تمثّل نموذج الانحطاط الاجتماعي المعاصر، في أحط أشكاله.

وواصل وكيل النيابة كلامه دون أن يلتفت إليها:

– هـذه المخلوقة حظيت، على عكـس شركائها في الجريمة، بنعمة التعلـم. لقد سمعنـا، قبل قليل، شهادة مديرة الـدار التي تشتغل فيها، والتـي قالـت إن المتهمة لا تعـرف القراءة والكتابة فحسـب، بل إنها

تعرف الفرنسية أيضاً؛ كانت ابنة سفاح، مصابة، من دون شك، بعاهة وراثيـة، لكنها تربّت في أحضان عائلة نبيلة من أكرم العائلات، وكان بإمكانها تماماً أن تحيا بعملها الشريف: فآثرت أن تهجر الذين أحسنوا إليهـا لتستسلم بكلّيتها إلى غرائزهـا الشريرة. ولكي تتمكن من إشباع هذه الغرائز على نحو أفضـل، دخلت بيتاً من بيوت الدعارة أتاح لها فيـه تفوّقها الفكري، كمـا سمعتم الشاهدة تؤكّد ذلـك، أيها السادة المحلّفون، أن تؤثّر في عاشقيها هذا التأثير الغريب الذي اهتم به العلم، في هذه الأوقات الأخيرة، والذي عرّفته مدرسة «شاركو»، على وجه الخصوص، تعريفـاً موفقاً: «الإيحاء الذهني». إن سلطان هذا الإيحاء قـد مارسته على العملاق الروسي الشريـف والساذج الذي سقط بين يديها، فأساءت استخدام ثقته لتسلبه ماله أولاً، ثم لتسلبه حياته.

همس الرئيس، وهو يميل على القاضي الصارم، وعلى فمه ابتسامة:

– إنه يَهذي حقاً؟

فوافق القاضي قائلاً:

– غبي فظيع!

واصـل وكيل النيابة كلامه، في غضون ذلك، مع انحناءة من رأسه مليئة بالاحترام:

– أيها السـادة المحلّفون، بين أيديكم الآن، مصير هؤلاء المجرمين الثلاثة. وبين أيديكم أيضاً مصير المجتمع، في جزء منه. لأن لحكمكم، أيهـا السادة، أهمية العمل الاجتماعي الكبير. انفذوا إلى أعماق دلالة

هذه الجريمة وستقنعون بالخطر الذي تشكّله، بالنسبة إلى مجتمعنا، هذه العناصر المنحطة، بل هذه الظواهر المرضية، من مثل ماسلوفا. حافظوا على المجتمع من عدوى مثل هؤلاء الوحوش، حافظوا على عناصر المجتمع السليمة والقوية من الإحتكاك بهذه العناصر المريضة!

تهالك وكيل النيابة على مقعده، وهو مفتون بخطبته، وكأنه سُحِقَ هو نفسه بالأهمية الاجتماعية للحكم الذي سيصدر. والمعنى الإيجابي لمرافعته، تحت ركام ورود البلاغة التي غطّاه بها، يتلخّص في أن ماسلوفا فتنت التاجر، ونالت ثقته، وأرادت أن تسلبه ماله، وأن سيمون وايفيميا اكتشفا مشروعها فقاسمتهما السرقة. ثم أجبرت التاجر على الرجوع معها إلى الفندق، لتخفي آثار سرقتها، وهناك دسّت له السم في شرابه.

ما أن انتهت المرافعة، حتى نهض، من مقعد المحامين، رجل قصير، متوسط العمر، يرتدي الثياب الرسمية، وقميصاً نُشّيت مقدمته بشدة، وشرع في إلقاء خطبة قوية للدفاع عن كارتنكين وبوتشكوفا. كان هذا المحامي محلّفاً، وقد دفع له المتهمان سلفاً ثلاثمائة روبل عن دفاعه. ولذلك لم يهمل شيئاً من أجل تبرئتهما كليهما، وألقى الخطأ كله على ماسلوفا.

وحرص، بخاصة، على دحض ما أكّدته ماسلوفا من أن سيمون وايفيميا كانا في الغرفة عندما أخذت النقود. لقد أعلن المحامي أن تأكيدها ليس له أية قيمة، لأنه صادر عن شخص ثبتت عليه جريمة التسميم. أما الألف والثمانمائة روبل التي أودعها في المصرف سيمون

كارتنكين فيمكن أن تكون حقاً ثمرة كسب الخادمين الشغيلين والشريفين اللذين كانا يتلقيان، باعتراف مدير الفندق، من ثلاثة روبلات إلى خمسة روبلات حلواناً يومياً. وأما مال التاجر فقد سُرقَ، سرقته ماسلوفا، إذ أثبت التحقيق أنها كانت في حالة سكر. أثناء تلك الليلة. وأما حادثة التسميم فالشك لا يرقى إليها، ذلك أن ماسلوفا اعترفت هي نفسها بأنها دسّت السم.

ومن ثم، لقد رجا المحلّفين أن يعلنوا براءة كاتنكين وبوتشكوفا من سرقة المال، وأضاف أن المحلفين إذا اعتبروهما مشتركين في السرقة فهو يرجوهم أن يعلنوا براءتهما من جرم التسميم، أو أن يستبعدوا، على كل حال، فرضيةالعمد المسبق.

وختاماً لفت محامي كارتنكين وبوتشكوفا الأنظار إلى أن «التأملات اللامعة التي عرضها وكيل النيابة حول الوراثة» مهما تكن أهميتها من وجهة النظر العلمية، فهي لا تنطبق على الحالة الراهنة، لأن بوتشكوفا مجهولة الأبوين.

بدا الغضب على وجه وكيل النيابة، وسجّل على عجل شيئاً على الورق وهز كتفيه هزّة الازدراء.

عندما عاد المحامي الأول إلى مكانه، نهض محامي ماسلوفا، وألقى بلهجة خجلة وهو يتلعثم، دفاعه.

لم ينكر أن ماسلوفا شاركت في سرقة المال، واكتفى بالتأكيد على أنها لم تكن تنوي تسميم سميكلوف وأنها لم تعطه المسحوق إلا لتنويمه. وأراد بعد ذلك، أن يجري بدوره في ميدان البلاغة، فرسم

لوحة عن الطريقة التي دُفعت فيها إلى الرذيلة على يد مغوٍ ظل بلا عقاب، في حين تحمّلت هي نفسها عبء خطيئته. هذا الخروج إلى ميدان علم النفس، لم يكن موفّقاً، وأحس كل واحد أنه أخطأ قصده. وحينما استفاض في الكلام على وحشية الرجال، وعلى دونيّة وضع النساء الاجتماعية والقانونية، دعاه الرئيس، ليخلصه من ورطته، للعودة إلى مناقشة الوقائع المحسوسة.

وأسرع المحامي في إنهاء دفاعه. وتكلّم بعده وكيل النيابة، مرة أخرى. فحرص على الدفاع عن آرائه في الوراثة، وأراد أن يرد على الانتقادات التي وجّهها إليه محامي الدفاع، فأعلن أن بوتشكوفا وإن كانت من أبوين مجهولين، إلا أن ذلك لا يقلل من القيمة العلمية لنظرية الوراثة. قال:

– هذه النظرية قد أقامها العلم على أسس جد وطيدة بحيث يمكننا الآن أن نستنبط الجريمة من الوراثة، بل أن نستنبط الوراثة من الجريمة. أما الاحتمال الذي صدر عن محامي الدفاع والذي يذهب إلى أن ماسلوفا قد أفسدها مغوٍ خيالي غرر بها (وشدد وكيل النيابة تشديداً ساخراً على كلمة خيالي)، فإن جميع المعطيات تحمل على الاعتقاد بأنها هي التي غرّرت دائماً بما لا يُحصى من الضحايا الذين وضعتهم المصادفة في متناول يديها. فلما قال الوكيل هذا، جلس كالمنتصر.

حينئذ سأل الرئيس المتهمين إن كان لديهم ما يضيفونه. فردّدت إيفيميا بوتشكوف، مرة أخرى، أنها لم تكن تعلم شيئاً، وأنها لم تفعل شيئاً، وأن ماسلوفا وحدها هي المذنبة في كل شيء.

واكتفى سيمون كارتنكين بالقول:

– الأمر لكم، أنا بريء!

وعندما جاء دور ماسلوفا، لم تقل شيئاً. فحين سألها الرئيس إن كان لديها ما تضيفه للدفاع عن نفسها، اكتفت برفع عينيها، وتنقيلهما في القاعة، كأنها حيوان مطارد. ثم أطرقت رأسها وأخذت تنتحب.

سأل التاجر جاره نيكليودوف، وقد سمع منه صرخة غريبة.

– ما بكَ؟

كانت هذه الصرخة، في الواقع، نحيباً مكبوتاً. لكن نيكليودوف لم يدرك حالته الجديدة، وعزا هذا النحيب المفاجئ إلى توتر أعصابه، كما عزا إلى هذا التوتر الدموع التي فاضت بها عيناه.

إن الخوف من العار الذي سيجلّله لو علم جميع من في قاعة المحكمة سلوكه إزاء ماسلوفا، قد منعه من أن يعي هذا الاختمار الداخلي الذي بدأ يعتمل فيه.

× × ×

-٢٢-

بعد أقـوال المتهمين الأخيرة، اهتمت المحكمـة بتدوين الأسئلة التي ستُطرح علـى المحلفين. وما لبث الرئيس، بعد ذلك، أن شرع في تلخيص المرافعات والمناقشات.

وقبـل أن يتصـدّى للقضيـة ذاتهـا، أوضح مطـوّلاً للمحلفين، بنـبرات متعاليـة، أن السرقـة البسيطة يجب ألا تُخلـط بالسرقة عن طريق الكسر، وأن سرقة شيء ما من مكان مغلق يجب أن تُميَّز بعناية عن السرقـة من مكان مفتـوح، وكان يُؤثر نيكليـودوف بنظراته، وهـو يقدّم هذه الإيضاحات، وكأنه هـو المقصود بهذه التعليقات، حتـى إذا فهمها هو نفسه، تولّى تأكيدها لزملائه في هيئة التحكيم. ثـم إن الرئيس، عندما قـدّر أن مستمعيه تشرّبوا هذه الحقائق المهمة تشرّبـاً كافياً، انتقـل إلى حقائق من نوع آخر، فبـيّن أن جريمة القتل تعنـي القيام بفعـل ينتج عنه مـوت إنسـان، وأن التسميم، من ثم، يشـكل جريمة قتل تامة. فلما تأكّدت هذه الحقيقة بوضوح، أوضح للمحلفين أنـه في حال اجتماع السرقة والقتل معـاً، نصبح أمام ما يسمى: القتل المصحوب بالسرقة.

علـى أن الرئيس لم يكن ينسى أنـه مستعجل للفراغ من القضية بغيـة اللحاق بصاحبتـه السويسرية. لكنه قد تعـود عادة مهنته التي تأصّلت فيه حتى إنه لم يكن يستطيع التوقّف عن الكلام إذا ما بدأه. ولذلـك شرح للمحلفين بإسهاب أن لهـم الحق في إعلان مسؤولية المتهمـين إن بدوا لهم مذنبـين، وبراءتهم إن بدوا لهـم أبرياء. وإذا ما أيقنوا، مـن جهة أخرى، أنهم مذنبون في أحـد عناصر الإتّهام، وأبريـاء في عنصر آخر، فإن لهم حـق تجريمهم في أحدهما وتبرئتهم في العنصر الآخر. ومع أنهم مُنحوا هذا الحق بتمامه إلا أنه ينبغي أن يستخدموه استخداماً معقولاً. وفي اللحظة التي أراد فيها أن يوضح لهـم أنهم إن ردّوا علـى الأسئلة المطروحة بالإيجـاب، فالإيجاب ينطبـق إذ ذاك على مجموع الأسئلة، أمـا إذا أرادوا أن يتناول ردُّهم جزءاً مـن هذا السؤال أو مـن ذاك فينبغـي أن يحرصوا على تعيين ذلـك، في هذه اللحظة، خطر له أن ينظـر إلى ساعته. وحين شاهد بهلـع، أن الساعة بلغت الثالثة إلا خمسـ دقائق، بادر إلى التصدّي لصلب القضية.

بـدأ كلامه فأخذ يردّد ما قد قيـل مرات كثيرة، ما قاله المحامون وما قاله وكيل النيابة وما قاله الشهود.

– إن ظروف الجريمة هي التالية...

كان الرئيس يتكلـم، وكان معاوناه، على جانبيه، يصغيان بهيئة المقتنعين، ناظرين إلى الساعة خلسـة، وكانا يريان أن خطبته طويلة بعضـ الطول، لكنها ممتازة، وإن لم تخرج عـن مثيلاتها. كان هذا

رأي وكيل النيابة، وجميع العاملين في المحكمة، والقاعة بأسرها. فلما انتهى التلخيص، بدا أن كل ما ينبغي أن يُقال قد قيل. لكن الرئيس لم يكن يرضى بالإقلاع عن الكلام، لفرط ما كان يستحسن الإصغاء إلى نبرات صوته الناعمة. ورأى من المناسب أن يوجّه إلى المحلّفين بعض الكلمات بصدد أهمية الحق الذي منحهم إياه القانون، وعن الحكمة والحذر اللذين ينبغي بهما أن يستخدموا القانون لا أن يسيئوا استخدامه. وأخيراً ألحّ على اليمين التي تربطهم. وقال لهم: إنهم ضمير المجتمع، وأن سر مداولاتهم يجب أن يكون مقدساً، وهلم جراً....

منذ اللحظة التي بدأ فيها الرئيس كلامه، شخصت ماسلوفا بعينيها إليه، كأنها تخشى أن تضيع كلمة من كلماته. وهكذا استطاع نيكليودوف أن يتأملها طويلاً وهو غير خائف من لقاء نظرتها. أحس أن ما يجري فيه، هو ما يجري عادة، في كل واحد منا، عندما نلتقي، بعد عدة سنين، وجهاً ألفْناه قديماً. لقد دهش نيكليودوف، أول الأمر من التبدلات التي طرأت منذ فراقهما، لكن الإحساس بهذه التبدلات كان يمحي شيئاً فشيئاً، وعاد الوجه شبيهاً بالوجه الذي كانه فيما مضى. عينا روحه تغلّبتا على حواسه، ولم تُرياه إلا السمات الجوهرية، السمات التي تعبر عن شخصية المرأة الشابة، تلك التي لم يُعد لها أي تغير.

بالرغم من لباس السجن، بالرغم من مجموع الجسد الذي ازداد تفتحاً، بالرغم من ثخانة أدنى الوجه، وتجاعيد الجبهة والصدغين، وانتفاخ الجفون، وبالرغم من التعبير المثير للشفقة، والضعيف،

كانت هي بعينها كاتيوشا نفسها. كاتيوشا التي رفعت عينيها ببراءة إليـه، ذات ليلة من ليالي الفصح، التي نظرت إليه بعينيها العاشقتين، المبتسمتين من السعادة، والملتمعتين بالحياة!

«يـا للمصادفة العجيبة! أكان يجب أن تعرض هذه القضية على المحاكمـة في هذه الدورة بالـذات، وأن أكون محلّفاً فيها، وأن أرى كاتيوشا هنا، على مقعد المتهمين، بعد أن فارقتها منذ عشر سنوات؟ كيف سينتهي ذلك كله؟ آه! ليت ذلك ينتهي بسرعة، على الأقل!».

على أنه لم يستسلم بعد لشعور الندم الذي أخذ يتشكل ويتعاظم فيـه. شيئاً فشيئاً. وأصر أن يرى في ذلك مجرد حادث عارض سيمرّ دون أن يعكّـر حياته. لكنه بـدأ يعترف بدناءة فعلتـه وخُيّل إليه أن يـداً قوية جاءت بـه قسراً ليشاهد غلطته. ومع ذلـك فهو لم يشأ أن يرى الدلالة الحقيقية لما فعل، ولا أن يفهم ما تريد منه تلك اليد التي تدفعه. لقد أبى أن يصدّق أن عملها الشرير كان من صُنعه، لكن اليد الخفيـة كانت تمسك به، وتضغط عليه، وأخذ يحس مسبقاً بأنها لن ترخيه بعد الآن.

كان يبـذل جهده لكي يظهر بمظهر الرجل الشديد؛ وضع رجلاً علـى رجل، وهو طلق المحيـا، وأخذ يعبث بنظارتـه، ولزم وضعاً مليئـاً بالعفويـة، خالياً مـن التصنع، وهـو جالس علـى مقعده في الصف الأول بين المحلفين. في هذه الأثناء، أخذ يشعر، في أعماقه، بالحقـارة، لا حقارة سلوكه قديمـاً إزاء كاتيوشا فحسب، بل وأيضاً حقارة كل هـذه الحياة الفارغـة، المنحرفة، الشريـرة والبائسة التي

يحياهــا منذ اثني عشر عاماً. فــكأن الستار الذي حجَبَ عنه، حتى الآن، وبشكل غريب، دناءة سلوكه، قد بدأ ينزاح من أمامه، ويتيح له أن يلمح ما ظل خافياً عنه حتى الآن.

× × ×

-٢٣-

وأخيراً انتهى الرئيس من خطبته، وحرّك في الهواء، بحركة رشيقة، الورقة التي تحتوي على قائمة الأسئلة، وسلّمها إلى رئيس هيئة المحلفين. نهض المحلفون، متضايقين، كأنهم خجلون بأن يكونوا هنا، وسعداء لأنهم تمكنوا من ترك مقاعدهم. ومضوا إلى قاعة المداولات واحداً وراء الآخر. وما إن أُغلق الباب عليهم حتى وقف دركي في حراسة المدخل؛ استلّ سيفه من غمده ووقف وقفة الاستعداد. انسحب القضاة واقتيد المتهمون.

عندما دخل المحلّفون قاعة المداولات، بدؤوا، هذه المرة كالمرة السابقة، بتناول السجائر وإشعالها «إن شعورهم بما كان في وضعهم من تصنّع وزيف، وهو شعور خامرهم جميعاً بقليل أو كثير من الوضوح.

أثناء جلسة المحكمة، قد امّحى عندما غدوا أحراراً، وسجائرهم في أفواههم، تخففَوا واستعادوا حريتهم، وجلسوا على هواهم. وما لبث النقاش أن نشب بينهم كأحمى ما يكون. أدلى التاجر الطيب برأيه:

– ليست الصغيرة مذنبة. لقد تخبّطت في كلامها! يجب أن تأخذنا الشفقة بها.

أجاب الرئيس:

– هذا ما سنفحصه. احذروا من الانسياق وراء الانطباعات الشخصية.

ولاحظ العقيد:

– ألقى رئيس المحكمة خطبة رائعة.

– رائعة، حقاً. لكن هل تصدقون أنني كدت أنام؟

وأكّد الوكيل التجاري للشخص اليهودي:

– النقطة الأساسية هي أن الخادمين كان يمكنهما ألا يعلما شيئاً عن مال التاجر، لولا أن ماسلوفا كانت على اتفاق معهما.

سأل أحد المحلفين:

– في رأيك إذن، أنها هي السارقة؟

فصاح التاجر البدين:

– كلا، لن يُقنعني أحد بذلك! كل الشر جاء من تلك الحقيرة ذات العينين المحمرتين.

قاطعه العقيد:

– طيب، لكن تلك المرأة تؤكد أنها لم تدخل الغرفة.

– وأنت تفضل أن تصدقها؟ أنا لا أقبل أبداً أن أثق بمثل هذه الجيفة النتنة!

قال الوكيل التجاري ساخراً:

– طيب! والنتيجة؟ فهي التي كانت تحمل المفتاح!

قال التاجر:

– علام يدل هذا؟

– والخاتم؟

– لكن ماسلوفا شرحت لنا القضية كلها! كان السيبيري رجلاً غريب الأطوار ثم إنه شرب. وقد ضربها ثم أخذته الشفقة عليها. «خذي، هذا لك، لا تعودي إلى البكاء!» لقد قالوا لنا أي نوع من الرجال كان: قامته متران وثلاثة سنتمترات، ووزنه متناسب مع قامته!

فلاحظ بطرس غيراسيموفتش:

– المسألة ليست هنا، والمطلوب أن نعلم إن كانت هي التي نفذت الجريمة عن سابق قصد وتصميم، أم الخادمان.

فكرر اليهودي:

– لكن الخادمين لم يكن بوسعهما أن يفعلا ذلك بدونها! هي التي كانت تحمل المفتاح!

وهكذا امتدّ النقاش طويلاً، دون نتيجة.

قال رئيس هيئة المحلفين أخيراً:

– عفواً، أيها السادة. لنجلس حول الطاولة ولنتناقش! وبدأ بنفسه، فجلس على مقعد الرئاسة الكبير.

أعلن الوكيل التجاري.

– ما أخبث هؤلاء النساء!

ولكي يدحض رأي الذين زعموا أن ماسلوفا لم تسرق، روى كيف أن مخلوقة من هذا النوع، سرقت ساعة أحد زملائه، ذات يوم، في الشارع. وروى العقيد بعده واقعة أغرب وأكثر إقناعاً: سرقة سماور فضي.

قال الرئيس وهو يضرب الطاولة بقلمه:

– العفو، أيها السادة لننظر في الأسئلة!

صمت الجميع، وشرع الرئيس في قراءة الأسئلة المطروحة على المحلفين، والتي صيغت كمايلي:

١ – الفلاح سيمون بيتروفيتش كارتنكين، من قرية بوركي، مقاطعة كابريفنو، العمر أربعة وثلاثون عاماً، هل هو مذنب بالتعدي عن عمد على حياة التاجر سميلكوف. بتاريخ ١٧ كانون الثاني ١٨٨٠، بقصد سرقته؟ هل هو مذنب بسرقة مبلغ يُقدّر بنحو ألفين وخمسمائة روبل وخاتم ماسي من التاجر المذكور، بعد أن دسّ له السم، بالتواطؤ مع أشخاص آخرين؟

٢– ايفيميا ايفانوفنا بوتشكوف، عاملة في المدينة، عمرها ثلاثة وأربعون عاماً، هل هي مذنبة بارتكابها الأفعال الواردة في السؤال الأول، بالتواطؤ مع سيمون كارتنكين؟

٣- كاتريـن ميخايلوفنا ماسلوف، عمرها سبعـة وعشرون عاماً، هل هي مذنبة بارتكابها الأفعـال الواردة في السؤال الأول، بالتواطؤ مع المتهمين الآخرين؟

٤- في حـال اعتبـار ايفيمـا بوتشكوف غـير مذنبـة في الأفعال الـواردة في السـؤال الأول، فهل هي مذنبة بأنهـا اختلست، في ١٧ كانـون الثاني ١٨٨٠، وهي خادمـة في فندق موريتانيـا، مبلغاً يقدّر بنحو ألفين وخمسمائة روبل، من حقيبة التاجر سميلكوف المغلقة؟

عندما انتهى الرئيس من قراءته. عاد إلى السؤال الأول.

- حسناً! أيها السادة، كيف سنجيب عن هذا البند الأول؟

وسرعان ما وُجد الجواب، لقد اتفقوا جميعاً على الجواب بالموافقة سـواء أكان ذلك بصـدد السرقة أم التسميم. واحـد من المحلفين فقط رفض أن يعـد كارتنكـين مذنباً: كان ذلـك المحلّف صانعـاً عجوزاً أجاب بالنفي عن جميع الأسئلة، دون تعليق.

تصـوّر الرئيسـ في أول الأمر أن هذا الشيـخ لم يكن يفهم، فطفق يوضـح له أن كارتنكين وبوتشكوفا مذنبان بدون أدنى شك. فأجاب الشيـخ أنه يفهم ذلك جيداً، لكن الأفضـل، برأيه، أن نغفر كل شيء. قال:

- نحن أنفسنا، لسنا قدّيسين!

وأبى أن يغيّر رأيه.

وعن السـؤال الثاني، والمتعلّق ببوتشكوفا، كان الجواب عاماً، بعد مناقشـات طويلة: إنها غير مذنبة. لقد قـدّر المحلّفون أن الدلائل التي تثبـت اشتراكها في التسميم مفقـودة، في الواقع. على كل حال، هذه النقطة هي التي ألح عليها بخاصة، محاميها.

لكـن التاجر الذي كان يسعى إلى تبرئـة ماسلوفا أصرّ مرة أخرى، على أن بوتشكوفا هي العامل الرئيسي في هذه القضية. ورأى كثير من المحلّفـين رأيه حتى لفت الرئيس نظر المحلفين، وكان الرئيس حريصاً على أن يتقيد بالنص القانوني الدقيق، إلى أن اشتراكها، على كل حال، في التسميـم لم يقـم عليه أي دليل مادي. ونوقشـ الأمر طويلاً، لكن رأي الرئيس هو الذي انتهى بالانتصار.

وبالمقابـل، فقد أعلنوا، بصدد السؤال الرابع، أن بوتشكوفا كانت مذنبـة بسرقتها للمال. وأضيف، بناء علـى طلب الصانع الشيخ: «مع الظروف المخفّفة».

وأخيراً، جاء دور السؤال الثالث الذي أخرّوه إلى النهاية. وقد أثار مناقشة أشد من الأسئلة الثلاثة الأخرى.

أكد الرئيسـ أن ماسلوفا مذنبة، وأصر التاجر على أنها بريئة، وأيّد رأيـه العقيد والصانع. تـردد بقية المحلفين لكنهم بـدوا أميل إلى رأي الرئيس. ومردُّ ذلك إلى أن جميع المحلفين تعبوا، وأنهم كانوا يؤثرون أن يأخذوا بأحد الرأيين الذي يوافق عليه الجميع موافقة أسرع، والذي يعيد إليهم حريتهم على نحو أسرع.

كان نيكليودوف مقتنعاً، من خلال نتائج الاستجواب ومن خلال ما يعرفه عن ماسلوفا، أن ماسلوفا غير مذنبة، لا بالسرقة ولا بالتسميم. وقد ظن، في بادئ الأمر، أن الجميع سيكونون من رأيه، لكنه ما لبث أن أقرّ بأنه مخطئ. كانت الأكثرية تميل إلى تجريمها، مراعاة للرئيس من جهة، ومن جهة أخرى، لأن التاجر الساذج الذي لم يُخف إعجابه بماسلوفا، قد أساء الدفاع عنها. وعندما رأى نيكليودوف ذلك، راودته نفسه في الكلام. لكن الخوف استولى عليه من كونه سيطلب الرحمة لكاتيوشا، كأنه أحسّ أن الجميع سيكتشفون، على الفور، علاقاته القديمة بها. على أنه حدّث نفسه بأن الأشياء لا يجوز أن تمرّ بهذا الشكل. كان من واجبه قطعاً أن يتدخل. وهذه الفكرة جعلته يحمرّ ويشحب، وكاد يعزم على الكلام، في نهاية الأمر، لولا أن بطرس غيراسيموفتش. الذي استاء، بدون شك، من لهجة الرئيس الآمرة، تدخّل ليقول بالضبط، ما أراد الأمير أن يكون قد قاله. قال ذلك المربي:

– عفواً، لقد أكدتم أنها مذنبة بالسرقة لأنها كانت تحمل مفتاح الحقيبة، لكن أليس من الجائز أن الخادم استطاع أن يفتح الحقيبة بمفتاح آخر؟

فأيّده التاجر:

– بالضبط، بالضبط!

– من المستحيل، في الواقع، أن تسرق ماسلوفا المال، لأنها لا تعلم، وهي في وضعها المعروف، ما تفعل به.

أضاف التاجر أيضاً:

– تماماً، هذا ما قلتُه بدقة.

– بل إني أقدّر أن وصولها إلى الفندق ومعها المفتاح، قد أوحى إلى الخادمين بفكرة السرقة. ولعلهما قد انتهزا المناسبة ليلقيا بالتبعة كلها على ماسلوفا.

كان بطرس غيراسيموفتش يتكلم بصوت مهتاج. وانتقل امتعاضه إلى الرئيس الذي ازداد إصراراً على رأيه. لكن بطرس غيراسيموفتش كان يتكلم بكثير من الثقة بالذات حتى إن الأكثرية انحازت إلى رأيه، وأقرت أن ماسلوفا لم تشارك لا في سرقة المال ولا في سرقة الخاتم الذي أهداها إياه التاجر.

بقي أن يقرروا إن كانت قد ارتكبت جريمة التسميم. ومرة أخرى صرّح التاجر، وهو المدافع المتحمّس عن ماسلوفا، أن من الواجب إعلان براءتها. فرد الرئيس، بكثير من القوة، أن من المستحيل مادياً إعلان براءتها في هذه النقطة، بما أنها هي نفسها اعترفت بسكب المسحوق في الكأس.

إحتجّ التاجر قائلاً:

– سكبت المسحوق، نعم، لكنها كانت تعتقد أنه من الأفيون!

ردّ العقيد الذي يهوى الاستطرادات.

– الأفيون نفسه سمٌّ.

وروى بهذا الصدد، حادثة غريبة جرت لزوجة صهره التي ابتلعت الأفيون سهواً، وكادت تموت، لولا المهارة العجيبة للطبيب الذي استُدعي على عجل. وكان العقيد يروي القصة بكثير من العُجب بحيث لم يجرؤ أحد على مقاطعته، ماعدا الوكيل التجاري اليهودي الذي أراد أن يحتذي حذوه، فأقدم على مقاطعته، وقال:

- يستطيع المرء أن يتعود السم جيداً حتى إنه ينتهي بتحمّل جرعات كبيرة منه؛ إن زوجة أحد أقاربي...

لكن العقيد لم يكن رجلاً يُطيق المقاطعة، فتابع قصته وعرف الجميع الدور الذي لعبه الأفيون في حياة زوجة صهره.

هتف أحد المحلفين:

- يا إلهي، ها إن الساعة قد بلغت الخامسة!

تدخّل الرئيس:

حسناً! أيها السادة، بماذا سنجيب؟ أتريدون أن نردّ بشيء من هذا القبيل: «إنها مذنبة بسكب السم، لكن بدون قصد السرقة؟».

وافق بطرس غيراسيموفتش، وكان راضياً عن النجاح الذي أحرزه في المسألة الآنفة، موافقة تامة. هذه المرة.

صاح التاجر:

- أطلب أن يُضاف: «مع الظروف المخفّفة».

وافق الجميع على الفور. الصانع وحده أصرّ على أن يكون الجواب: «لا، إنها غير مذنبة».

فأعلن التاجر المعتز باختراعه:

– على شرط أن يُضاف «مع الظروف المخفّفة». لنصل إلى تبرئة المتهمة.

كان الجميع متعبين جداً، وقد شوّشت هذه النقاشات الطويلة الأذهان، إلى حد كبير، حتى إنه لم يخطر لأحد أن يُضيف إلى الجواب: «نعم، ولكن دون قصد القتل». حتى نيكليودوف نفسه لم يخطر له ذلك، لفرط ما كان مستغرقاً في ألمه وفي قلقه. وصيغت الأجوبة بالشكل الذي تبنّاه المحلّفون، وسُلّمت كما هي إلى المحكمة.

يروي «رابليه» أن قانونياً دُعي إلى الفصل في إحدى الدعاوى، اقترح على زملائه، بعد أن عدّد طائفة من مواد القوانين، وبعد أن قرأ عشرين صفحة من الهراء الذي لا يُفهم، أن يقترعوا على الحكم الذي سيصدرونه، فإذا كان رقم النرد مزدوجاً كان الحق مع المدعي وإذا كان مفرداً كان الحق مع المتهم.

كان الأمر كذلك، هذه المرة، أيضاً. ذلك أن الأجوبة التي تبناها المحلّفون لم يتبنوها لأن المحلفين قد أجمعوا على رأي واحد، لكن لأن الرئيس الذي استفاض في خطبته أهمل أن يضيف ما كان يضيفه عادة، في مثل هذه الحالة: «يستطيع المحلفون أن يجيبوا: نعم، لكن دون قصد القتل». ثم إن المحلفين تبنّوا هذه الأجوبة لأن العقيد

أسهب في روايته لقصة زوجة صهره، مما أتعب المحلفين وأضجرهم؛ وتبنّوها لأن نيكليودوف الذي كان مستغرقاً في همومه الشخصية، لم يفطن إلى أن الكلمات: «دون قصد السرقة» كان يجب أن يرافقها هذا التخصيص: «دون قصد القتل». وسبب آخر: إن بطرس غيراسيموفتش الذي ابتهج لأنه فرض رأيه، قد فقد اهتمامه بالنقاش. بل إنه خرج من القاعة أثناء الأجوبة. لكن تبنّي هذه الأجوبة إنما جرى، على وجه الخصوص، لأن المحلّفين أعياهم التعب، فاستعجلوا ليستعيدوا حريتهم في التوجه إلى الغداء، بحيث أنهم رحّبوا بأول راي اقتُرح عليهم.

عندما انتهى الرئيس من قراءة الأجوبة، قرع الجرس. أغمد الحارس الذي وقف أمام الباب سيفه في قرابه، وتنحى للمحلفين الذين دخلوا القاعة الواحد تلو الآخر.

حمل رئيس المحلفين الورقة التي تحتوي على الأجوبة، وقد بدا عليه الطابع الرسمي، وتقدّم إلى الطاولة التي تجلس إليها هيئة المحكمة وسلّم الرئيس الورقة. وبعد أن قرأها الرئيس بنظرة سريعة، حرّك ذراعه والتفت نحو زميليه ليسألهما رأيهما. لقد ذُهل حين لاحظ أن المحلفين الذين ردّوا بالنفي على مسألة السرقة، قد ردّوا بالإيجاب ودون تحفظ على مسألة القتل. ومن هذا الجواب ينتج أن ماسلوفا لم تسرق المال ولا الخاتم، وأنها، مع ذلك سمّمت التاجر، دون أي داعٍ.

همس الرئيس إلى جاره الذي على يساره:

– أُنظر إلى التفسير اللامنطقي الذي جاؤوا به! هذا يعني الأشغال الشاقة لهذه المرأة، مع أنها بريئة، بكل تأكيد.

- ولَمَ كانت بريئة؟

- هذا واضح للعيان! هناك ما يدعو، برأيي، إلى تطبيق المادة ٨١٨.

المادة ٨١٨ تعلن بأن للمحكمة الحق في تعديل قرار المحلفين إذا رأته مخالفاً للحق والقانون.

وسأل الرئيس جاره الآخر:

- وأنتَ ما رأيك؟

قال القاضي ذو العينين الواسعتين.

- ربما كان من واجبنا، في الواقع، تطبيق المادة ٨١٨.

ثم سأل الرئيس القاضي المتذمّر على يساره:

- وأنت؟

أجاب هذا القاضي بلهجة جازمة:

- أرى أننا لا ينبغي أن نطبق تلك المادة، بأي حال من الأحوال. إن الناس يشكون كثيراً من أن المحلفين يبرّون المذنبين. فماذا سيُقال إذا زايدت المحكمة عليهم. لا أقبل بذلك، بأي حال.

أخرج الرئيس ساعته، وفكّر: «أنا آسف، لكن ما حيلتي؟» وسلّم الأوراق إلى رئيس المحلفين لكي يتلوها.

وفي الحال، وقف المحلّفون جميعاً. قرأ رئيسهم، وهو يتمايل من قدم إلى أخرى، الأسئلة والأجوبة بصوت عال. ولم يستطع كاتب

المحكمة ولا المحامون ولا وكيل النيابة إخفاء دهشتهم. المتهمون وحدهم ظلّوا بلا حراك، على مقاعدهم، إذ لم يفهموا معنى هذه الأجوبة.

عاد المحلفون إلى الجلوس. والتفت رئيس المحكمة نحو وكيل النيابة، وسأله عن العقوبات التي يقترح تطبيقها على المتّهمين.

انتفج وكيل النيابة، وقد سحرته قسوة المحلّفين إزاء ماسلوفا، وهي قسوة عزاها إلى بلاغته ليس غير، وتظاهر بالتفكير، ثم أعلن:

- أطلب تطبيق المادة ١٤٥٢ ما عدا الفقرة ٤ من المادة ١٤٥٣، على سيمون كارتنكين، والمادة ١٦٥٩ على ايفيميا بوتشكوف، والمادة ١٤٥٤ على كاترين ماسلوفا.

وغني عن القول أن العقوبات التي نصت عليها هذه المواد، كانت من أشد العقوبات التي يمكن تطبيقها في هذه الحالة.

أعلن رئيس المحكمة وهو ينهض:

- أرفع الجلسة لتتشاور المحكمة بشأن تطبيق العقوبة!

وخرج يتبعه القاضيان. كان كل واحد، على المنصة، يشعر بالارتياح الذي يبتعثه الشعور بإتمام المهمة. كان المحلّفون بخاصة، يثرثرون على هواهم.

قال بطرس غيراسيموفتش وهو يدنو من نيكليودوف الذي كان رئيس المحلفين يقدّم له بعض الإيضاحات:

- أرأيت، يا عزيزي، لقد قمنا هنا بعمل عظيم!... ها نحن نرسل تلك الفتاة البائسة إلى الأشغال الشاقة!

بلغ انفعال نيكليـودوف، وهو يسمع هذه الكلمات، حدّاً لم يكد يغتاظ معهـا من تلك الدالة الجارحة التي يخاطبه بها مربّي أولاد أخته القديم. وقال بدهشة:

– ماذا؟ ماذا تقول؟

أجاب بطرس غيراسيموفتش:

– لا شك في ذلك! لم نضف إلى جوابنا: «لكن دون قصد القتل». قـال لي كاتب المحكمة: إن النائب العـام يطلب خمسة عشر عاماً من الأشغال الشاقة.

ودهش الرئيس:

– لكن الجواب مطابق لما قررناه معاً!

فعارضـه بطرس غيراسيموفتش، وصـرح قائلاً: بما أننـا قررنا أن ماسلوفا لم تسرق المال، كان من واجبنا أن نضيف: أنها لم تقصد القتل.

برر الرئيس نفسه:

– لكننـي أعدت قراءة الأجوبة قبـل دخول المحكمة، فلم يعترض أحد.

أوضح بطرس غيراسيموفتش.

– اضطـررت إلى الخروج لحظة، أثناء القـراءة. لكن كيف تركت ذلك يمرّ، أنت، يا دميتري ايفانوفتش؟

قال نيكليودوف:

– لم أفطن لشيء.

– مع ذلك، كان من السهل ملاحظة هذا الشيء.

اقترح نيكليودوف:

– يمكننا تدارك الخطأ.

– أوه! كلا، فات الأوان! الآن، انتهى كل شيء.

ألقى نيكليودوف نظرة على المتهمين. ظلوا جالسين على مقاعدهم بين الجنديين، في حين كان مصيرهم يتقرّر. كانت ماسلوفا تبتسم، وانسلت إلى نفس نيكليودوف فكرة شريرة. لقد كان قبل قليل، وهو يتوقع تبرئة كاتيوشا وإطلاق سراحها. منهمكاً بمعرفة الطريقة التي بها يجب أن يتصرف معها. أما الآن، فإن الأشغال الشاقة في سيبيريا ستلغي إمكان استئناف العلاقات معها. سوف يكف العصفور الجريح، عمّا قريب، عن التخبّط في جعبة الصياد.

× × ×

-٢٤-

جرت الأمور كما تنبأ بطرس غيراسيموفتش.

عاد القضاة الثلاثة، بعد مداولة قصيرة. وتلا الرئيس قرار المحكمة الذي يبدأ على النحو التالي:

«في ٢٨ نيسان ١٨٨٠، وبأمر من جلالة الامبراطور، فإن الشعبة الجنائية في محكمة مقاطعة ن... التي جلست جلستها بمعاونة المحلفين، وبموجب المواد ٧٧١، الفقرة ٣؛ و٧٧٦، الفقرة ٣؛ و٧٧٧ من القانون الجزائي، حكمت على سيمون كارتنكين، فلاح، عمره، أربعة وثلاثون عاماً، وعلى كاترين ماسلوف، عاملة عمرها سبعة وعشرون عاماً، بالحرمان من جميع الحقوق المدنية والشخصية، وأمرت أن يُرسلا إلى الأشغال الشاقة: كارتنكين لمدة ثماني سنوات؛ والمرأة ماسلوفا لمدة أربع سنوات، وفقاً لأحكام المادة ٢٨ من القانون الجزائي.

وحكمت على ايفيميا بوتشكوف، عاملة، عمرها ثلاثة وأربعون عاماً بالحرمان من الحقوق المدنية والشخصية وبالسجن ثلاث سنوات، وفقاً لأحكام المادة ٤٩ من القانون الجزائي. وحكمت،

فضلاً عن ذلك، على المتهمين الثلاثة، بدفع نفقات الدعوى مجتمعين، وقررت أنه إذا عجز المتهمون عن الدفع، فإن النفقات المذكورة تقع على عاتق الخزينة.

تُباع أو تُتلف أدلة الإثبات، ويعاد الخاتم إلى ورثة التاجر سميكلوف».

عندما سمع سيمون كارتنكين هذا القرار، ظل يتململ، وينقّل يديه على أطراف بنطاله، ويحرّك شفتيه. ولزمت بوتشكوفا هدوءها. أما كاترين ماسلوفا فقد علتها الحمرة القانية فجأة؛ وصاحت حالما انتهى الرئيس من تلاوة الحكم:

– لستُ مذنبة! لم أقصد قتله، لم أفكر في قتله! إني أقول الحقيقة! إني أقول الحقيقة! الحقيقة الصحيحة!

ثم إنها بعد أن صرخت بهذه الكلمات صراخاً قوياً أسمع القاعة بأسرها، ارتمت على مقعدها، وغطّت وجهها بيديها، وانفجرت منتحبة.

عندما نهض سيمون وايفيما ليخرجا، ظلت جالسة لا تني تنتحب. واضطر أحد الدرك إلى هزّها من ذراعها ليجبرها على النهوض.

قال نيكليودوف في نفسه: «لا، لا يمكن أن أدع الأشياء تجري هكذا». نسي الفكرة الشريرة التي جالت بخاطره قبل لحظات، واندفع في الممر، دون أن يفكر، تسوقه قوة دافعة لا تُقاوم، ليرى، مرة أخرى، المرأة التي اقتيدت.

ازدحم جمهور المحلفين والقضاة، أمام الباب، مثرثراً وملوحاً بالأيدي، حتى إن نيكليودوف اضطر إلى الانتظار طويلاً قبل أن يستطيع الخروج من القاعة. وعندما بلغ الممر أخيراً، كانت ماسلوفا قد ابتعدت. فجرى نحوها، غير عابئ بما أثاره من انتباه، و لم يقف إلا عندما أدركها.

لم تكن تبكي، لكن شهقات عنيفة من النحيب كانت ترفع صدرها، من حين إلى حين، بينما كانت تمسح، بطرف منديلها، قطرات العرق التي سالت على خديها. مرت أمام نيكليودوف، من دون أن تتطلع إليه، وهو أيضاً، لم يحرك ساكناً ليلفت انتباهها. تركها تمر أمامه، واستأنف جريه في الممر، وأخذ يبحث عن رئيس المحكمة.

كان رئيس المحكمة، عند غرفة البوّاب، حين استطاع نيكليودوف أن يلحق به. كان يرتدي معطفه الربيعي الأنيق، وأمامه البواب يمد إليه باحترام عصاه ذات الرأس الفضي.

سأله نيكليودوف:

– سيدي الرئيس، هل أستطيع أن أحدثك لحظة؟ بصدد القضية التي صدر الحكم بها قبل حين. أنا أحد المحلفين.

أجاب الرئيس وهو يشدّ على يده:

– وكيف لا أعرفك! الأمير نيكليودوف، أليس كذلك؟ أنا سعيد جداً بلقائك!

وتذكّر، برضى شديد، الحفلة الراقصة التي لقيه فيها، والتي رقص فيها بنشاط وحيوية أكثر من جميع الشباب.

- وفيمَ أستطيع أن أخدمك؟

أوضح نيكليودوف وهو متجهم:

- كان هناك سوء فهم في الجواب المتعلّق بماسلوفا. إنها بريئة من التسميم، وها هي ذي تُحكم بالأشغال الشاقة.

فاحتج الرئيس وهو يتقدّم من الباب:

- لكننا استندنا في القرار إلى أجوبتكم. مع أن المحكمة وجدت هذه الأجوبة متهافتة جداً.

تذكّر الرئيس فجأة أنه كان على وشك أن يوضح للمحلفين، في تلخيصه للمناقشات، الطريقة التي بها ينبغي أن يصوغوا تحفظّاتهم، في حال وجود تلك التحفظات، وتذكّر أنه عَزف عن هذا القسم من الإيضاح، كسباً للوقت. لكنه لم يقو على التصريح بذلك لمحدّثه.

سأله نيكليودوف:

- ألا يمكننا تدارك هذا الخطأ؟

أشار عليه الرئيس، وهو يمد يديه في كمّي المعطف، دون أن يكف عن السير:

- بواعث تمييز الدعوى يمكن العثور عليها دائماً. استشرْ محامياً!

– لكن هذا فظيع!

– أنت تعلم أنه لم يكن أمامنا سوى حلين ممكنين.

كان الرئيس موزّع النفس بين الرغبة في إرضاء نيكليودوف والخوف من التأخر عن موعده. وما إن انتهى من تصفيف سالفيه على قفا معطفه، حتى أمسك بنيكليودوف من مرفقه وجذبه نحو الباب. واقترح عليه:

– أتريد أن نخرج من هنا؟

أجاب نيكليودوف:

– نعم.

فارتدى معطفه على عجل وخرج مع الرئيس. كانت الشمس المضيئة تلتمع، في الخارج، وقد امتلأت الشوارع بالضوضاء وبالحركة. واضطر الرئيس إلى أن يرفع صوته بسبب رجّات العجلات على الرصيف وتابع قائلاً:

– أرأيت، الوضع كأبسط ما يكون، وليس لهذه القضية سوى حلين ممكنين، كما قلتُ لك. فإما أن تُبرأ هذه المخلوقة، ماسلوفا، وتُحكم فقط بالسجن بضعة أشهر، وقد يُخْصم حجزُها الإحتراسيّ من مجموع العقوبة، مما يؤدي إلى جعل العقوبة تافهة؛ وإما أن تُحكم بالأشغال الشاقة. لقد كنا مضطرين إلى تبني أحد الاحتمالين، وكان اختيارنا منوطاً بأجوبتكم.

قال نيكليودوف، وقد تألم:

– لم يخطـر لي أن أطلـب إضافـة ذلك القيد الذي هـو جدير بأن يترجم فكرتنا.. لا عذر لي لأني لم أفكر فيه.

فأكّد الرئيس وعلى فمه ابتسامة:

– وكل القضية ها هنا.

وأخرج ساعته لينظر إلى الوقت. لم يكد يبقى له سوى ثلاثة أرباع الساعة ليقضيها مع صاحبته «كلارا».

وأضاف:

– استشـر الآن أحد المحامـين، إذا شئت. المهم أن تعثر على وسيلة لتمييز الدعوى، وهي موجودة دائماً.

ثم دعا حوذياً يمر بعربته وصاح به:

– شـارع دفوريانسكايا! ثلاثون كوبيـكاً أجرة الطريق، هذه هي الأجرة التي أعطيها دائماً.

– لتتفضّل سيادتُك بالصعود!

– لـك مودتـي. إذا أمكـن أن أخدمـك بشـيء فأنـا في منـزل دفورنيكوف شارع دفوريانسكايا؛ من السهل حفظ هذا العنوان.

وابتعـد، بعـد أن حيّا نيكليـودوف، مرة أخيرة بإيمـاءة خفيفة من رأسه.

× × ×

-٢٥-

إن حديث نيكليودوف إلى رئيس المحكمة، وكذلك هواء الخارج الندي، قد ردّاه إلى شيء من الهدوء. وقال في نفسه إن الإنفعال غير العادي الذي أحسّ به قبل حين يعود، بخاصة، إلى تعبه، وان الظروف الشاذة التي مرّ بها منذ الصباح قد أسهمت، من غير شك، في تضخيمه. وحدّث نفسه «ومع ذلك، يا لها من مصادفة مذهلة، لا تُصدق! يجب حتماً أن أبذل قصارى جهدي للتلطيف من مصير هذه البائسة وذلك في أسرع وقت ممكن! وما دمت هنا فسأنتهز الفرصة لأسأل عن عنوان فانارين أو ميكيشين» وكان هذان محاميين شهيرين تذكّر أسمهما.

وعاد أدراجه، راجعاً إلى قصر العدل، فخلع معطفه مرة أخرى، وصعد الدرج. وفي مدخل الممر لقي فانارين بذاته. اقترب منه نيكليودوف وسأله إن كان يمكنه التحدث إليه. فبادر المحامي الذي كان يعرف وجهه واسمه، إلى القبول قائلاً له: إنه سيكون سعيداً جداً لو أسعفه في طلبه:

– أنا متعب قليلاً، لكنك تستطيع أن تشرح لي الأمر بكلمتين.

أتريد أن تدخل هذه الغرفة ، لحظة ؟

وأُدخــل نيكليودوف غرفة صغيرة كانــت مفتوحة، ولعلها كانت مكتباً لأحد مستخدمي المحكمة ، وجلس كلاهما قرب الطّاولة.

– هيّا! علام يدور الأمر؟

قال نيكليودوف:

– أطلــب إليــك أولاً ألا يعلم أحد عن مشاركتــي في القضية التي سأحدثك عنها.

– بالتأكيد، هذا طبيعي. وما القضية؟..

– كنتُ محلّفاً اليوم، وقد حكمنــا على امرأة بالأشغال الشاقة ،مع أنّها غير مذنبة. وهذا يعذّبني.

احمرّ نيكليــودوف بالرغم منــه، واضطرب. تفرّســ فانارين فيه بنظرة سريعة، ثم خفض بصره، واستعدّ للإصغاء، مكتفياً بالسؤال:

– ثم ماذا؟..

– حكمنــا على بريئة، وأود أن أعمل علــى نقض الحكم، أن أرفع القضية إلى محكمة عليا.

فأوضح فانارين:

– إلى مجلس الشيوخ.

– جئت أطلب إليك أن تتولى هذه القضية بنفسك.

وعجّل نيكليودوف فسوّى تلك النقطة التي كان يؤلمه أشد الألم أن يمسّها. أضاف على الفور دون أن يتوقف:

– أما أتعابك وجميع النفقات الناتجة عن هذه القضية فأنا بالطبع، أتكفّل بها، مهما تكن عالية.

وأحسّ أنه يحمرّ، للمرة الثانية.

أجاب المحامي وهو يبتسم ابتسامة المجاملة من قلة خبرة موكّله الأرستقراطيّ:

– نعم، نعم، سنتفاهم على ذلك.

روى له نيكليودوف القضية بإيجاز، واختتم بقوله:

– أود أن أعلم منك الآن، ما الذي ينبغي فعله.

– سأطلب الإضبارة غداً لأتمكن من إفادتك. بعد غد... لا، لنقل نهار الخميس... الخميس إذن، في الساعة السادسة مساءً، إذا تفضّلت بالمجيء إلى منزلي، فسأعطيك الجواب. موافق، أليس كذلك؟ أرجو أن تعذرني، فمايزال علي الكثير من الأشياء التي يجب فعلها في القصر قبل العودة.

استأذن نيكليودوف المحامي. وقد ردّ إليه هذا الحديث الجديد هدوءه أكثر من الحديث السابق؛ كان سعيداً كل السعادة لأنه بدأ مساعيه من أجل ماسلوفا. خرج من القصر وتنشّق الهواء الربيعي بلذة. وعرض عليه حوذيو العربات خدماتهم، لكنه آثر أن يمشي. وسرعان ما

أقبلت عليه طائفة من الأفكار والذكريات المتعلقة بكاتيوشا وبالطريقة التي تصرّف بها نحوها، تدوّي في رأسه. قال في نفسه «لا، سأفكر فيها فيما بعد، ينبغي أولاً أن أصرف ذهني عن هذه الانطباعات المؤلمة التي عانيتُها!».

حينئذ تذكّر عشاء كورتشاغين ونظر إلى ساعته. لاشك أن العشاء لم ينته بعد. وجرى نيكليودوف ليدرك مركبة تجرها خيول، مرّت وهي تدقّ جرسها. وعندما وصل الساحة، قفز من المركبة واختار أفضل عربة، ولم تمض عشر دقائق حتى ألفى نفسه أمام درج منزل كورتشاغين.

× × ×

-٢٦-

قال لنيكليودوف بوّاب منزل كورتشاغين البدين، بابتسامة متلطّفة، وهو يتقدّم نحوه، ويفتح باب السنديان الثقيل دون ضوضاء:

– لتتفضل سيادتك بالدخول. فهم في انتظارك، فوق. هم على المائدة، ويرجون سيادتك أن تصعد إلى قاعة الطعام.

استخبر نيكليودوف وهو يخلع معطفه:

– وهل هناك مدعوون؟

أجاب البواب:

– هناك م. كولوسوف. ثم ميشيل سيرغيفتش، إضافة إلى الأسرة.

في أعلى السلم بدا وجه أنيق، وجه الخادم باللباس الرسمي، وبقفازين أبيضين.

– لتتفضل سيادتك بالصعود. هم يرجون سيادتك أن تدخل.

صعد نيكليودوف السلم، واجتاز غرفة الانتظار الفسيحة،

الفخمـة، ودخل قاعة الطعـام. كانت أسرة كورتشاغـين كلها تجلس حـول المائدة، ماعـدا الأم «ميســي»، الأميرة صوفيـا فاسييلفنا، التي كانـت تتنـاول دائماً طعامهـا في غرفتهـا. كان كورتشاغين العجوز يتصدر المائدة، وإلى يمينه طبيب الأسرة، وإلى يساره صديقه ايفانوفتش كولوسـوف، وهـو موظف قـديم، لكنه في الوقـت الحاضر عضو في مجلس إدارة أحـد المصارف. ثم تأتـي، إلى اليسار السيـدة «ريدر»، مربية أخت «ميسي» الصغرى، ثم الأخت نفسها، وهي طفلة عمرها أربعـة أعـوام. وإلى اليمين، في مواجهة هؤلاء، أخـو ميسي، «بيتيا»، ابـن كورتشاغـين الوحيـد، وهو طالب ثانـوي في السنـة السادسة، وكان يستعـد للتقـدم إلى الامتحانـات؛ ولذلك اضطـرت أسرته إلى البقـاء في المدينـة. وإلى جانبـه كان يجلس طالب شاب، هـو أستاذه المعيد، وإزاءه، «ميشيل سيرغيفتش تيلغين» الملقب بـ «ماشا»، ابن عم ميسي، وكاترين الكسييفنا، وهي عانس ابنة أربعين، مولعة بالسلافية. وأخيراً، في نهاية الطاولة، ميسي بقرب مكان ظل خالياً.

هتـف كورتشاغـين العجوز وهـو يرفع على نيكليـودوف عينين محتقنتـين بالـدم. وكان يمضـغ طعامـه بجهـد لابتلاعـه بالأسنـان الاصطناعية:

– هذا بديع! أسرعْ، فمازلنا في حساء السمك.

وأضـاف وفمُه ممتلئ بالطعام، وهو يشـير إلى رئيس الخدم المهيب لكي يقود نيكليودوف إلى المكان الذي ظل خالياً:

– ستيفان!

كان نيكليودوف يعرف منذ زمن بعيد كورتشاغين العجوز، ورآه على المائدة كثيراً. على أن وجهه الأحمر والمحتقن، في هذا المساء، وفمه الشهواني، وعنقه الضخمة، وجملة وجهه، وحتى الطريقة التي بها مرّر زاوية فوطته في قفا صدرته، كل ذلك صدمه بشدة. وتذكّر على الفور وبالرغم منه، كل ما رُوي له عن قسوة هذا الرجل الذي أَمَر، عندما كان حاكماً للمقاطعة، بجلد ما لا يُحصى من الناس، بل وبشنق عدد كبير منهم.

– ستُخدم سيادتُك، على الفور.

كذلك قال ستيفان وهو يتناول من أحد أدراج الصوان ملعقة كبيرة للحساء. ووقف الخادم الأنيق خلف الكرسي الفارغة وسارع إلى ترتيب أدوات الطعام حول الفوطة المطرّزة بشعارات النبالة، المنشّاة جيداً والمطوية بفن.

دار نيكليودوف حول المائدة ليشد على أيدي المدعووين واحداً واحداً. ووقف كل منهم ليمد يده إليه، باستثناء السيدات وكورتشاغين العجوز. هذه الجولة حول المائدة، هذه المصافحات لأناس يجهل معظمهم، بدت له مضحكة وبغيضة. اعتذر عن تأخره وهمَّ بالجلوس بين ميسي وكاترين اليكسيفنا، لولا أن طلب إليه كورتشاغين العجوز أن يتناول المقبلات، إن أبى أن يشرب كأساً من الفودكا. فاضطر نيكليودوف أن يقترب من الطاولة الصغيرة التي وُضعتْ عليها المقبلات، من سرطان البحر، والكافيار، والجبن، وسمك البلم. وحسب نفسه غير جائع، لكنه بعد أن ذاق الجبن، أقبل على الطعام بنهمٍ.

سألــه كولوسوف، وهو يردّد بسخريــة تعبيراً استخدمته قبل بعض الوقت صحيفة رجعية، في مقالة ترمي إلى إظهار مخاطر نظام المحلّفين:

– مــاذا هــل نسفتم الأسس؟ لاشــك أنكم برّأتم المذنبــين، وأدنتم الأبرياء؟

فردّد الأمير العجوز وهو يتلوى من الضحك:

– نسفتم الأسس! نسفتم الأسس!

كان يستشعر ثقة لا حدّ لها، بفكر زميله وصديقه المتحرر وبعلمه.

لكن نيكليــودوف لم يجب بشيء، خوفاً من أن يبدو غير مهذب. وجلس أمام صحنه وملأه بالحساء وظل يأكل بأقصى شهية.

قالــت ميســي وهــي تبتســم بدالّةٍ تظهــر طابع المــودة الخاص في علاقاتهما:

– دعوه يأكل بهدوء.

كان كولوســوف قــد نســي سؤالــه. وكان يناقشــ، بلهجة عنيفة وبصوت عال جداً، مقالة الصحيفة الرجعية عن نظام المحلّفين. وكان ميشيل سيرغيفتش يشير، وهو يردّ عليه، إلى الأخطاء الفظيعة في مقالة أخرى جديدة، منشورة في الصحيفة نفسها.

كانــت ميسي كعادتهــا، متميزة تمامــاً. وكانت زينتُهــا أنيقة أناقة محتشمة، معتدلة، لا عيب فيها.

قالت لنيكليودوف عندما فرغ من بلع حسائه:

– لاشك أنك مُرهقٌ من التعب وميت من الجوع.

– كلا، لم أبلغ هذا الحد! وأنتم هل شاهدتم معرض تلك اللوحات؟

– لا، أجّلنــا الزيارة. وقد لعبنا بكُرة المضرب عند آل سالاماتوف. أتعلم أن السيد «كروكس» يلعب لعباً رائعاً!

إنما جاء نيكليودوف إلى منزل آل كورتشاغين طلباً للتسلية. فزياراته لهذا المنزل كانت دائماً مبعث سرور له، سواء أكان ذلك بسبب الترف والـثراء الـذي يسود المنـزل ويفتن ذوقـه، ذوق الشــاب المرهف، أم بسبـب الإطراء الرقيق الذي كان يغمـره على نحو غير ملحوظ. لكن كل شـيء، في هذا المساء، وبمصادفـة غريبة، كان مبعثاً لإنزعاجه. كل شــيء من البواب، حتى الـرواق الفسيح، حتى الزهـور، حتى الخدم بألبستهـم الرسميــة حتى ميســي ذاتها. و لم يستطـع أن يمنع نفسه من أن يراهــا متصنّعــة ومنفّـرة. وقد صدمتــه لهجة كولوســوف المدّعية والخشنــة، ونزعتــه التحررية؛ صدمـــه وجه كورتشاغــين الشهواني، الفاســد، والاستشهــادات الفرنسيــة مــن العانس المولعــة بالسلافية؛ وسحنتا المعلمة والمربـي العابستان؛ وما صدمه على الأخص هو تلك الدالــة التي تحدثت بهــا ميسي عنه، بدلاً مــن أن تسميه باسمه وباسم عائلته، مثل بقية المدعوين.

بصــدد «ميســي»، كان نيكليودوف مــترددا دائماً بــين عاطفتين متناقضتــين. فحيناً كان يــرى فيها كل ضروب الكمــال، وكأنه يراها

في الظل. كانت تبدو له صريحــة، جميلة وذكية، بعيدة عن التكلّف. وحيناً آخر كانت تبدو أنها تنتقل من الظل إلى النور. حينئذ يضطر إلى اكتشاف نقائصها. كانت هذه الحالة الأخيرة هي حالته في هذا المساء. رأى كل مــا في جبينها من تجاعيد، والسنَّين الصناعيين في فمها، وأثر مجعِّــد الشعر في ضفائرها؛ كان يرى نتوء عظام مرفقيها، وأذهله، على الخصوص، عرضــ أظافر أصابعها، التي ذكّرتــه بأصابع كورتشاغين الغليظة.

صاح كولوسوف:

– يــا لها من لعبة مضجرة، كرة المضــرب تلك! لعبة «الطابة» التي كنا نلعبها في طفولتنا تسلّي أكثر منها!

فاحتجت ميسي:

– كلا، ذلك لأنك لا تعرف تلك اللعبة. إنها مثيرة.

خُيِّل إلى نيكليودوف أنها لفظت كلمة «مثيرة» بتصنّع لا يُطاق.

ونشــب النقاش الذي اشــترك فيه ميشيــل سيرغيفتشــ وكاترين الكسييفنــا. المعيــد والمعلمــة والأولاد ظلّوا وحدهــم صامتين، وبدا الضجر الشديد عليهم.

قال الأمير كورتشاغين وهو يُمعن في الضحك:

– ما لكم تتخاصمون دائماً!

ثــم تناول فوطته بملء يده، وألقاها على المائدة، وهو يدفع بصخب كرسيّــه التي أمســك بها الخادم علــى عجل، فنهض الجميــع في أثره ومضوا نحو طاولة صغيرة صُفّت عليها أكواب من الماء الفاتر المعطّر. فتمضمضــ بها المدعوون وهــم يواصلون نقاشهم الــذي لم يكن في الحقيقة، يهمّ أحداً.

سألت «ميسي» نيكليودوف بعد أن أكّدت أن لا شيء يكشف عن طباع الناس مثل اللعب:

– ألستُ مُحقّة في ذلك؟

وسرعان ما لمحت على وجهه ذلك التعبير المنكمش والصارم الذي أقلقها مراراً فيه:

أجاب نيكليودوف:

– في الحقيقة، لا علم لي بذلك. وأنا لم أفكر قط في هذه المسألة.

واقترحت عليه الفتاة:

– أتريد أن نصعد إلى غرفة امي؟

قال وهو يشعل لفّافة:

– بالتأكيد، بكل رضا.

علــى أن لهجة جوابه كانت تشــير إلى رغبته في الاستعفاء من هذه السخرة.

نظـرت إليــه ميسي نظـرة مُسْتفهمــة، دون أن تقول شيئــاً، فقال نيكليــودوف في نفسه: «أقسمُ أنني ما جئت إلى هذا المكان إلا لأشيع الضجر من حولي!» لكنه بــذل وسعه ليكون ألطف، فرأى من واجبه أن يضيــف بضــع كلمــات عما يلقاه من ســرور حين يقــدّم تحياته إلى الأميرة، إذا لم تزعجها تلك الزيارة.

– علــى العكــس، ستكون أمي سعيدة. تستطيــع أن تدخّن عندها كما تدخّن هنا. ولاشك أن ايفان ايفانوفتش قد صعد.

كانت ربة البيت، الأميرة صوفيا فاسيليفنا تقضي حياتها مضطجعة علــى كرسيّهــا الهزازة. لم تكــن تطيب لها الإقامــة إلا في غرفتها بين المخمــل والمذهّبــات والبرونز والمبرنقــات والزهــور. لم تكن تخرج قــط. لم تكن تُــرى، كما كانت تحب أن تقول، ســوى أصدقائها، أي الأشخاص الذيــن يتميّزون، لسبب أو لآخر، عــن سائر البشر. وكان نيكليــودوف من بين هؤلاء الأصدقــاء، لأنه كان يُعَدُّ شاباً ذكياً، ولأن أمه كانت لها علاقات بآل كورتشاغين، ولاسيما لأن صوفيا فاسيليفنا كانت ترغب في تزويجه ابنتها.

كانت غرفة الأميرة تأتي بعد قاعتي الاستقبال الكبرى والصغرى. عندما بلغت ميسي، وكانت تمشي أمام نيكليودوف، القاعة الكبرى، وقفت فجأة، وقبضت بحركة عصبية على مسند أحد المقاعد، ورفعت عينيها نحوه.

كانــت ميســي ترغــب رغبــة عظيمــة في الــزواج، وكانت ترى نيكليودوف زوجاً مناسباً. وفضلاً عن ذلك، فإنه كان يعجبها، ثم إنها

تعوّدت فكرة أن يكون لها، لا أن تكون له، بل أن يكون لها. وكانت تتابع هذه الغاية بمكر غير واع، لكنه مكر عنيد. قالت لنيكليودوف حينئذ بغتة، وهي تحدّق في عينيه، لتجبره على مكاشفتها بصراحة:

– أرى أن شيئاً ما وقع لك. قل لي ما هو؟

تذكر نيكليودوف الحادثة الغريبة التي وقعت له في محكمة الجنايات. فقطّب بين حاجبيه واحمرّ. واعترف، لأنه لم يشأ أن يكذب:

– نعم، وقع لي شيء، شيء غريب وغير متوقع، شيء خطير.

– ألا تريد أن تقول لي ما هو؟

– لا يمكنني الآن. اعذريني! وقع لي شيء أنا بحاجة إلى التفكير فيه.

– وهكذا فأنت لا تريد أن تُطلعني عليه؟

اختلجت عضلة في وجهها، فدفعت عنها مسند الكرسي الذي استندت إليه.

أجاب نيكليودوف، وهو يحسّ أنه، بجوابه هذا، يُشدّد، حتى إزاء نفسه، على الخطورة الهائلة لما وقع له:

– ليكن! هيا إلى غرفة أمي.

هزت رأسها، كأنها تريد أن تطرد فكرة مزعجة، واستأنفت سيرها

بخطـوات أسرع. وخُيِّل إلى نيكليودوف أنه رآها تتحامل على نفسها لكــي لا تبكي. فخجل ولام نفسه لأنــه أحزنها. على أنه كان يعلم أن أقل ضعف سيضيعه، أي سيربطه بها إلى الأبد، كان أشد ما يخشاه، في هذا المساء، أن يرتبط. فلزم الصمت إذن، وبلغ مع الفتاة غرفة الأميرة.

× × ×

-٢٧-

كانت الأميرة صوفيـا فاسيليفنا قد فرغت من طعامها الشهي جداً والوافر جـداً، الذي كانت تتناوله وحدها، حتـى لا يراها أحد وهي تقـوم بهذه المهمة المبتذلة. فعلى منضدة صغيرة، بالقرب من مقعدها، صُبّـت لها قهوتهـا؛ كانت تشربهـا بجرعات صغـيرة، وهي تدخّن لفائف معطّرة. كانت شديدة السمرة، شديدة الهزال، شديدة الطول، وكانت لها أسنان ضخمـة وعينان سوداوان واسعتان. ولم يكن سنُها يمنعهـا من أن تصطنع لنفسها مظهر الفتـاة. وقد راجت إشاعات عن علاقتهـا بطبيبهـا، ولم يستطـع نيكليودوف الـذي لم يلتفت إلى هذه الأقاويـل مـن قبـل، أن يمنع نفسه مـن تذكّرها، عندما دخـل الغرفة، وشاهد الطبيب الجسيم، جالساً قربها، بلحيته التي قُصّت وفقاً للبدعة الشائعـة. وأثار فيه منظرها إحساساً بالاشمئزاز الذي لا يُغلَب. وكان كولوسوف جالساً عند قائمة الكرسي، على مقعد صغير بدون مسند، كان يحـرّك قهوته، وأمامه كأس صغيرة من الشـراب موضوعة أمامه على منضدة.

لم تمكث ميسي التي دخلت الغرفة مع نيكليودوف، سوى لحظة.

قالــت لكولوسوف ولنيكليــودوف وهي تبتسم لــه بفرح، وكأن شيئاً لم يكن بينهما:

– إذا تعبت أمي وأخرجتكما، فتعالا إلي، أليس كذلك؟

ثم خرجت بعد ذلك، وهي تنسلّ بخفة على السجادة الناعمة.

تظارفت الأميرة صوفيا ايفانوفنا قائلة، وعلى فمها ابتسامة متكلّفة، متصنعة، لكنه تكلّف الصدق وتصنعه:

– نهارك سعيد يا صديقي العزيز! اجلس هنا وحدّثنا. كنا نتحدث عنك بالذات.

وأضافت بالفرنسية:

– كان هؤلاء السادة يقولون عنك إنك عدت من محكمة الجنايات مغتمّــاً. مثل هذه الجلسات لابــد أن تكون شاقة علــى ذوي القلوب الرقيقة.

فأقر نيكليودوف:

– نعم، بالتأكيــد. فهناك يشعر المرء، في الأغلب، بحق... عنيتُ: أن المرء يشعر أن ليس له الحق في الحكم على أخطاء الآخرين.

فهتفت بالفرنسيــة أيضاً، وبلهجة ترمي إلى إظهار إعجابها بصحة تفكير نيكليودوف، وكان من عادتها الثناء على محدّثيها:

– ما أصدق كلامك!

وأردفت:

– ولوحتك، أين صرت فيها؟ إنها تثير اهتمامي كثيراً! لو كنت أقوى لذهبت إلى بيتك لأراها.

أجاب نيكليودوف بجفاء، وقد انكشف ما في إطرائها من نفاق، في هذا المساء، بقدر ما انكشفت شيخوختها التي ستّرتها بعناية. عبثاً بذل جهده كي يكون لطيفاً؛ لقد ذهبت جهوده أدراج الرياح.

قال:

– لقد هجرت تلك اللوحة كلياً.

قالت وهي تلتفت نحو كولوسوف وتشير له إلى نيكليودوف:

– إنها لجريمة! أتعلم أن ريبين[١٢] نفسه قال لي أن صديقنا يملك موهبة حقة؟

وفكّر نيكليودوف في نفسه:

«كيف لا تخجل من أن تكذب هكذا!»

على أن صوفيا فاسيليفنا، حين شاهدت أن نيكليودوف لم يكن

---

١٢. ريبين: إيفان ايفانوفتش ريبين (١٨٤١ – ١٩٣٠) رسام واقعي ورسام أشخاص كانت لوحاته مستحسنة في ذلك الزمان. مؤلف لوحات ممتازة عن تولستوي.

في وضـع حسـن، وأنه لا أمل في جرّه إلى حديـث شائق، ارتدّت إلى كولوسوف. فسألته رأيه في مسرحية جديدة مُثّلت حديثاً. وكأن رأي كولوسوف، من لهجة السؤال، هي التي ستقمع فوراً جميع الشكوك، وكأن لكل كلمة من كلماته قيمة المعجزة.

كان كولوسـوف قاسيـاً علـى المسرحية الجديدة، وقـد انتهز هذه الفرصـة ليَعْرضَ جميع أفكاره عـن الفن. وبدت الأمـيرة، كعادتها دائمـاً، مذعـورة من صحـة ملاحظاتـه؛ وإذا ما أقدمـت؛ في بعض الأحيـان، علـى الدفـاع عـن المسرحية، فمـا كان ذلـك إلا لتعترف بهزيمتهـا في اللحظة التاليـة، أو لتجد حداً وسطـاً. كان نيكليودوف يلاحـظ ويستمع؛ وكل مـا رآه وما استمع إليه مختلف عما كان يجري أمامه. تأكد أولاً أن هذين الشخصين لا يعبآن بالمسرحية التي يتحدثان عنها، مثلما لا يعبأ أحدهما بالآخر؛ كان الغرض الوحيد من حديثهما هو إشبـاع حاجـة جسدية، هي تنشيـط الهضـم بتحريك عضلات اللسـان والحنجرة. وكان كولوسوف قد ثمـل قليلاً بعد أن شرب من الفـودكا والنبيذ والخمور الحلوة. ثملاً لا علـى نحو ما يثمل الذين لم يتعـوّدوا الشرب، بل مثل الذين يشربون بانتظـام. لم يشرد في حديثه، ولم يـرو الحماقات، لكنه كان في حالة غير عاديـة من التهيّج والرضا عـن الذات. وأخـيراً لاحظ نيكليودوف أن الأمـيرة، لا تنِ تلقي، في غمرة الحديث، نظرات قلقة نحو النافذة، التي أخذ يدخل منها شعاع مائل من الشمس الغاربة يوشك أن يكشف بوضوح مفرط عن تجاعيد وجهها.

أجابت على ملاحظة من كولوسوف وهي تضغط على الجرس:

– كل الحق معك!

نهض الطبيب، وخرج من الغرفة، دون أن يقول شيئاً، خرج أحد المترددين على المنزل. رأى نيكليودوف أن صوفيا فاسيليفنا تبعته بعينيها، وهي تواصل الحديث.

وأمرت الخادم المهيب الذي خفّ عند قرع الجرس:

– فيليب، هلّا أسدلتَ هذا الستار!

تابعت حديثها مخاطبة كولوسوف، في حين كانت عيناها ترصدان حركات الخادم المشغول بإسدال الستار:

– نعم، الحق معك، الصوفيّة تنقصه، ولا شعر بدون صوفية، الصوفية والشعر، أليسا ضروريين أحدهما للآخر؟ الصوفية بدون شعر، إنما هي خرافة؛ والشعر بدون صوفية، إنما هو نثر!

لكنها توقفت في بحثها فجأة:

– ما بك، يا فيليب! ليس هذا هو الستار الذي ينبغي إسداله، بل ستار النافذة الكبرى!

تهالكت على مقعدها، كأنما أعياها الجهد الذي بذلته في سبيل هذه الكلمات. ولكي تهدئ نفسها، أشعلت سيجارة معطرة، وأمسكتها بعناية، بين أصابعها المُثقلة بالخواتم.

حنى الخادم القوي والأنيق رأسه انحناءة خفيفة كأنه يريد أن

يعتــذر. وخُيّــل إلى نيكليودوف أنه لمــح في عينيه بريقــاً لم يدم سوى ثانيــة، وكان يعني: «ليأخــذك الشيطان، أيتها العجــوز الحمقاء، أنت وعجرفاتك!» لكن فيليب أخذ ينفّذ باحترام أوامر الأميرة المتضعضعة الأثيرية، المتصنعة.

استأنف حينئذ كولوسوف كلامه وهو يتململ على منضدته:

– أما داروين فأنا أعترف أن في نظريته الكثير من الحق، لكنه يبالغ كثيراً في بعض الأحيان، لاشك في ذلك.

سألت الأميرة نيكليودوف الذي شق عليها سكوته:

– وأنت، هل تؤمن بالوراثة؟

فأرسل نيكليودوف الجواب بلا ترو:

– الوراثة؟ لا، لا أؤمن بها!

لم يستطــع أن يتخلص مــن الصور التي حملها إليــه خياله. فأخلد إلى الصمــت مــرة أخــرى. وإلى جانــب فيليــب الجميــل ذي القامة العملاقة، التي تصلح، كما بدا له، أن تكون نموذجاً، خُيِّل إليه أنه يرى كولوسوف عارياً ببطنــه المفلطح، ورأسه الأصلع، وذراعيه الرخوتين الشبيهتــين بسوطين، ورأى أيضاً في خياله الموبــوء ما ينبغي أن تكون عليــه في الواقع كتفــا صوفيا فاسيليفنــا المغطاتان بالحريــر والمخمل: صورة بشعة جداً إلى حد أنه طردها من خياله.

نظرت إليه الأميرة من فوق إلى تحت. وقالت:

– لابـد أن ماري تنتظرك. اذهب إليها، فإن في نيتها أن تعزف لك مقطوعة جديدة لغريغ... سترى، إنها مقطوعة جد شائقة!

فكّر نيكليودوف وهو ينهض: «ليس في نيتها أن تعزف لي شيئاً! كل ذلك أكاذيب تختلقها لسبب لا أدري ما هو». ووضع شفتيه على اليد البيضاء، المعروقة، المغطاة بالخواتم، يد صوفيا فاسيليفنا.

في قاعـة الاستقبال لقي كاترين الكسيفنا التي استوقفته في الطريق وقالت له بالفرنسية كعادتها.

– بالرغم من كل شيء، أرى أن وظيفة المحلّف موهنة لقواك.

أجاب نيكليودوف:

– أعذرينـي، لا أشعـر أني في وضع حسن، هـذا المساء، وليس لي الحق في أن أنقل متاعبي إلى الآخرين.

– ولِمَ لم تكن في وضع حسن، يا ترى!؟

– أما هذا، فأستأذنُك بكتمانه.

– هل نسيت ما أعلنته ذات مساء أننا يجب أن نقول الحقيقة أبداً؟ وأنـك انتهزت تلك المناسبة لتطلع علينـا جميعاً بحقائق قاسية فكيف تأبى أن تصرّح بالحقيقة اليوم.

وأضافت وهي تلتف إلى الفتاة الداخلة:

– تذكرين ذلك، يا ميسي، أليس كذلك؟

فأكّد نيكليودوف بلهجة جادة:

– في ذلـك المسـاء، كنا نمزح. والشيء ممكـن ونحن نمزح. أما في

الواقـع، فنحن بائسون... أو، على الأقل، أنا بائس جداً... بحيث لا أجد ما يدعو إلى التفكير في البوح بالحقيقة.

استأنفت كاترين الكسيفنــا كلامها بمرح، دون أن يبدو عليها أنها لاحظت جديّة نيكليودوف.

– أنت مخطئ في استدراكك؛ الأوْلى أن تقول: إننا جميعاً بائسون.

قاطعتها ميسي:

– لا شــيء أسوأ من اعتراف المرء لنفسه بأنه ليس في وضع حسن. أنــا، لا أعــترف لنفســي بذلك، ولذلــك أجد نفسي دائمــاً في وضع حسن. هيا، تعال معي، سنحاول أن نزيل اغتمامك.

أحســ نيكليودوف إحساساً شبيهاً بما قد تحس به الجياد وهي على وشــك أن تُلْجم وتُربــط. لم يخف قط من أن يُربَــط مثل خوفه الآن. وانتهى بأن اعتذر محتجاً بأنه يجب أن يعود إلى منزله.

وعندما مدّ يده لميسي مستأذناً استَبْقت يده في يدها زمناً أطول من المعتاد. وقالت:

– لا تنسَــ أن ما هــو هام عندك، هام أيضاً عنــد أصدقائك، أتأتي غداً؟

أجاب نيكليودوف:

– أرجو أن أتمكن من المجيء.

أحسّ بالخجل، ولم يَدْرِ إن كان خجلاً عن نفسه أو عنها. وسارع إلى الخروج ليخفي خجله.

تعجبت كاترين الكسيفنا عندما غادر القاعة:

– ما معنى ذلك؟... مــا أكثر ما يحيّرني! لقد تغيّر كلياً لعلها قضية من قضايا حب الذات! فعزيزنا ميتيا، شديد الحساسية!

قالت ميسي:

– قضية من قضايا حب الذات! بل قضية حب...

وأرادت أن تضيــف «قــذر». لكنها أمسكت عــن ذلك. وحمل وجهها تعبيراً مختلفاً كل الاختلاف عن الذي واجهت به نيكليودوف. وفيما بينها وبين نفسها، كانت تقول: «على شرط ألا يتملّص مني هذا أيضاً! سيكون ذلك سيئاً منه، بعد كل ما جرى بيننا!».

ولو أن ميسي سُئلت ماذا تعني بهذه الكلمات: «كل ما جرى بيننا» لما لقيت شيئــاً محدداً تجيب به. ومع ذلك فقد كانــت تحس إحساساً واضحاً أن نيكليودوف لم يوقــظ فيها الآمال فحسب، بل إنه وعدها بالزواج أيضاً. ما جرى بينهما لم يكن كلمات محددة، بل كان نظرات وابتسامــات، وتلميحــات ولحظات صمت. كان ذلــك كافياً لتعتبره كأنه ملك لها. وكانت فكرة فقدانها له قاسية عليها.

× × ×

-٢٨-

كان نيكليـودوف يحدّث نفسه، وهو عائد إلى منزله، على قدميه، سالـكاً الطريق التي طالما سلكهـا: «يا للعار ويللتقـزز!» فالإحساس المـوئ لم الذي ابتعثه فيه حديثه مع ميسي لم يشأ أن يتبدّد. كان يحس أنه حرٌّ تجاه الفتاة، من حيث الشكل، إن صح التعبير. فهو لم يكاشفها قط بحبه مكاشفة صريحة، و لم يلتـزم قط، لكنه في الواقع، ملتزم تجاهها. ومع ذلك، فقـد كان يشعر، هذا المساء، أن من المستحيل عليه الزواج بها.

كان يردد في نفسه: «يا للعار ويا للتقزز»، وهو يفكّر لا في علاقاته بميسـي فحسب، بـل في حياته كلها وفي حيـاة الآخرين. كانت هذه الكلمـات تعاوده، كأنها لازمـة؛ وكان يرددها على نفسه في اللحظة التي دخل فيها منزله.

قال لخادمه «كورني» الذي أقبل عليه وتهيّأ لخدمته:

– لن أتعشى، انصرف!

أجاب كورني:

- أنا بأمرك.

لكنه لم ينصرف، وأخذ يرفع عن الطاولة ما كان عليها من صحاف.

لم يستطع نيكليودوف أن يمنع نفسه من التفكير في أن الخادم يفعل ذلك ليغيظه. كان يود لو تركه الجميع وشأنه، وها إنهم جميعاً يصرون على مضايقته، وكأنهم يقصدون إلى ذلك قصداً!

وأخيراً، خرج الخادم. اقترب نيكليودوف من السماور ليُعِد الشاي، لكنه عندما سمع، في البهو، خطوات اغرافنا بيتروفنا الوئيدة، هرب مسرعاً، خوفاً من أن يراها. انتقل إلى قاعة الاستقبال وأغلق الباب خلفه بالمفتاح.

في هذه القاعة، تُوفيت أمه قبل ثلاثة أشهر. وكان يضيء القاعة الفسيحة مصباحان لهما مرآتان عاكستان، ينيران الصورتين المعلقتين على الجدار، صورتي أبيه وأمه. وحين رأى هاتين اللوحتين، تذكّر سلوكه نحو أمه في الآونة الأخيرة، وهنا أيضاً لم يجد سوى العار والتقزز، أمام زيفه هو نفسه. فلقد تمنى موتها في نهاية الأمر، لكي يرى المسكينة وقد تخلصت من أوجاعها. على أن ما يبدو له الآن أنه تمنى موتها ليتخلص هو نفسه من مرأى أوجاعها.

ولكي يُفلت من محاصرة هذه الذكريات، اقترب من الصورة، وهي عمل فنان مجهول، دُفع له قديماً خمسة آلاف روبل ثمناً لها. صُوِّرت الأميرة فيها بفستان من المخمل الأسود، وهي مكشوفة العنق. وكان واضحاً أن الفنان عُني بتصوير ابتداء الثديين، والفاصل الذي يفصل

بينهمـــا، والكتفــين اللتـــين كانتا جميلتين جــداً. ومرة أخــرى انتاب نيكليودوف إحساســ من العار والتقزز. لقد روّعه ما في طريقة تمثيل أمــه بمظهر حسناء نصف عاريــة من إيذاء للعين. آلمه هــذا الأمر إيلاماً شديــداً، ولاسيما أن هذه المرأة نفسها قد تمددت على أريكة، في هذه الغرفــة نفسها، قبل ثلاثة أشهر، متيبّسة كالمومياء، ناشرة في البيت كله رائحة أفسدته. وتذكّــر نيكليودوف أنها أمسكت، عشية موتها، يده في يديهــا المسكينتين الناحلتين، ونظرت إليه في عينيه، وقالت له: «لا تحكــم علي، يا ميتيــا، إن كانت قد أخطــأت!»، وأن الدمع فاض من عينيها المرتعبتين.

قـــال في نفســه وهو يتأمل الصــورة التي عرضت فيهـــا أمه كتفيها وذراعيها المرمرية، البديعة، وابتسامتها المتعالية: «يا للعار!» لقد ذكّره عــري هذا الصــدر بامرأة أخــرى، رآها قبل بعضــ الوقت، مكشوفة الصــدر بالطريقة نفسها. كانت ميســي؛ إذ دعته ذات مساء إلى حفلة راقصــة ليراهـــا في فستانهـــا الجديد. وتذكّــر نيكليــودوف باشمئزاز حقيقــي الســرور الذي أحس بــه وهو يتملّــى كتفي الفتـــاة البديعتين وذراعيهـــا الجميلتين. وكان والدا الفتـــاة حاضرين، حضرا هذا المشهد ذلك الأب الفظ والشهواني، مع ما في ماضيه من وحشية، وتلك الأم، تلك «الظريفة»، ذات السمعة المشبوهة! كل ذلك كان منفّراً ومخجلاً.

قـــال في نفسه: «لا، لا، لا يمكن أن يستمر هـــذا. يجب أن أتحرر، يجـــب أن أقطـــع علاقاتـــي الكاذبة بـــآل كورتشاغين هـــؤلاء، وبماريا فاسيليفنـــا، ومَنْ سواهـــم!... ينبغي أن أهرب، أن أتنفســ الهواء! أن أسافر إلى الخارج، إلى روما، أن أكمل لوحتي...».

وعادت إليه، على التو، ذكرى شكوكه في موهبته الفنية.

«ياه! ما أهمية ذلك ! الشيء الأساسي هو أن أستنشق الهواء بسلام. سأذهب أولاً إلى القسطنطينية، ثم إلى روما. سأسافر حالما أنتهي من محكمة الجنايات وأسوي القضية مع المحامي».

ومرة أخرى انتصبت أمامه صورة السجينة حية، بعينيها السوداوين المائلتين إلى الحول. كم بكت عند الكلمات الأخيرة التي نطقت بها! رمى نيكليودوف، بحركة مباغتة، اللفافة التي أشعلها قبل قليل، وأشعل أخرى، وأخذ يمشي جيئة وذهاباً في القاعة. رأى بعين الخيال الدقائق التي قضاها مع كاتيوشا، دقيقة فدقيقة. وعاش من جديد مشهد الغرفة الصغيرة، والهوى الشهواني الذي جرَفه، وانقشاع الأوهام حالما أشبع أهواءه. رأى من جديد الفستان الأبيض والربطة الحمراء، وقدّاس الليل. «نعم لقد أحببتها، لقد أحببتها حقاً حباً عظيماً وخالصاً في تلك الليلة؛ وأحببتها أيضاً قبل هذه الليلة! وكم أحببتها وأنا أحضّر رسالتي عند عمتي!».

رأى نيكليودوف نفسه كما كان إذ ذاك. وأحس بنفسه يجتاحها عطر النداوة والشباب والحياة المليئة والحرة. فاشتد الحزن الذي كان يرهقه.

وبدا له عظيماً الفرق بين الرجل الذي كانه آنذاك والرجل كما هو الآن: عظَمَ الفرق -إن لم يكن أكبر- بين كاتيوشا الكنيسة، في ليلة الفصح، وكاتيوشا البغي، عشيقة التاجر السيبيري التي كان عليه أن يقضي في أمرها قبل حين. كان إذ ذاك رجلاً شجاعاً وحراً، تنفتح

أمامه إمكانات لا حد لها؛ أما الآن، فهو يرى نفسه مشدوداً بأربطة حياة بلهاء، لا جدوى منها، حياة لا يلمح لها مخرجاً، أو بالأحرى، لا يقوى على الخروج منها. وتذكر كم كان، إذ ذاك، فخوراً بصراحته، وكيف اتخذ لنفسه مبدأ هو أن يقول الحقيقة، وكيف كان يقولها، فعلاً. أما الآن فهو يرى نفسه غارقاً في الكذب، في كذب غريب تعس بتظاهر الذين حوله باعتباره هو الحقيقة. ولم يكن يجد مخرجاً من هذا الكذب لأنه كان غارقاً فيه، متعوّداً له، متشبّعاً به.

كيف يتخلّص من علاقاته بماريا فاسيليفنا؟ كيف يستطيع أن ينظر مرة أخرى في وجه زوج هذه المرأة، وأولادها؟ كيف يلغي التزامه إزاء ميسي؟ كيف يفصل في التناقض القائم، في نظرة، بين إعلانه عما في ملكية الأرض من ظلم، واستغلاله لأملاكه، وهو استغلال لابد له من عائداته لكي يعيش؟ كيف يمحو الخطأ الذي ارتكبه نحو كاتيوشا؟ ومع ذلك، فالأشياء لا يمكن أن تبقى حيث كانت. قال في نفسه: «لا أستطيع أن أتخلّى عن امرأة أحببتها، مكتفياً بدفع أتعاب المحامي لأنتزعها من الأشغال الشاقة التي لا تستحقها، على كل حال! إن رغبتي في محو خطيئتي بالمال، هو عودة إلى الخطأ الذي ارتكبته عندما أردت أن أبرّئ ذمتي تجاه كاتيوشا بإعطائها مائة روبل.

رأى من جديد تلك اللحظة، في ممر منزل عمتيه، اللحظة التي دسّ فيها المال لها قبل أن يلوذ بالفرار. وحدّث نفسه بمزيج من الرعب والخجل خامراه آنذاك: «آه! هذا المال! الشقي وحده يمكن أن يتصرّف على هذا النحو! لكن، أمن الممكن أن أكون شريراً؟

وأجاب نفسه بنفسه: «لاشك أنك كذلك. فعلاقاتك بماريا

فاسيليفنـا، وصداقتـك لزوجهـا، أليس كل هذا من فعـل الأشقياء؟ وموقفـك من تركة أمـك؟ والطريقة التي تستغل بها ثـروة تعلن أنت عنها أنها غير أخلاقية؟ وكل هذه الحياة الفارغة والقذرة؟ وفوق ذلك كله، سلـوكك إزاء كاتيوشا؟ إنما أنت شقـي! أما رأي الآخرين فيك، فهـو قليل الأهمية؛ تستطيـع أن تخدع الناس، لكنـك لا تستطيع أن تخدع نفسك!».

أدرك نيكليـودوف أن النفـور الذي حسب نفسـه يحسّ به، منذ بعض الوقت، وفي هذا المساء، على الخصوص، من الناس، من الأمير العجـوز، من صوفيـا فاسيليفنا، مـن ميسي، من مربيتـه وخادمه، لم يكـن، في الواقع، سوى نفور من ذاتـه. ومن غرائب الأمور أن إقراره هذا بحقارته ترك فيه أثراً مهدّئاً ومعزّياً.

باشر نيكليودوف في حياته من قبل، عدة مرات، ما وصفه بـ «تنقية الضمـير». وكان يطلق هذه التسمية عل الأزمات الأخلاقية التي كان يشعر فيها بتباطؤ حياته الداخليـة، وأحياناً بتوقف هذه الحياة، فيعمد إلى كنس هذه النفايات التي كانت تدنّس نفسه.

وكان نيكليودوف، عند خروجه من هذه الأزمات، لا يني يفرض على نفسه قواعد للسلـوك يُقسم أمام نفسه على أتباعها دائماً. وكان يحرر مذكّراته الحميمة، فيذهب إلى أنه سيبدأ حياةً جديدة، «سيقلب صفحة» على حد تعبيره. لكن الاتصال بالمجتمع كان يجرفه، في كل مـرة، فيعود، على نحو غير محسوس، إلى النقطـة نفسها، أو إلى نقطة أدنى مما كان عليه قبل الأزمة.

لقـد شرع، لأول مرة، بمثـل هذه «التنقيـة» في الصيف الذي جاء فيـه ليقضي عطلته عند عمتيه. كانت الأزمـة إذ ذاك حادة جداً، أزمة حماسـة الشبـاب، وقد دامـت آثارها زمنـاً طويلاً. ووقعـت الأزمة الثانية، أثناء الحرب ضد الأتراك، حين حلم بالتضحية بحياته، وطلب أن يُرسـل إلى ميدان الحرب. لكن آثار الأزمـة، في هذه المرة، تبدّدت بسرعة. وأخيراً، وقعت الأزمة الثالثة، عندما ترك الجيش لينصرف كلياً إلى الرسم.

ومنـذ ذلك الوقت، لم يعمد قط إلى «تنقية» ضميره: ومن هنا جاء أن الفرق بين ما يأمره به ضميره، والحياة التي يحياها، لم يبلغ قط مثل هذا الاتساع. فارتاع حين شاهد ذلك. كانت الهوة من العمق بحيث بدا له، في مبتدأ الأمر، أن ردمها مستحيل.

كان يصرخ فيه صوت خفي: «لقد حاولت، أكثر من مرة أن تصلح نفسـك وأن تغدو أفضـل. فما جدوى الشروع بمحاولة جديدة؟ ثم إنك لست وحدك في هذه الحالة، كل الناس مثلك!»

لكن الكائن الأخلاقي، الكائن الحر، الفعال، الحي، الكائن الحقيقي الوحيـد، الموجود في كل منا، هذا الكائن قـد أعلن عن ذاته، في هذه اللحظـة. كان يصغي إليه، لم يكن يستطيع أن يمتنـع من الإصغاء إليه، مـن الإيمان به. هذا الكائن الداخلـي كان يؤكّد له أن كل شيء مايزال ممكناً، مهما يكن البون شاسعاً بين ما هو عليه وما تمنى أن يكون عليه.

وقـرر: «سأقطّـع روابـط الكـذب التـي قيدتنـي، مهمـا كلفني تقطيعهـا. سأعترف بـكل شيء، سأقول الحقيقـة، سأتصرف بموجب

الحقيقـة! سأصارح ميسـي بالحقيقة، سأقول لها إننـي متهتك، وأنني لا أستطيـع الزواج بهـا؛ سأطلب صفحها عن تكديـري لها! سأقول لماريـا فاسيليفنا... أو بالأحرى لا، لن أقول لها شيئاً، لكني سأصارح زوجهـا بأننـي حقير، غير جديـر بصداقته. وسأصارحهـا هي أيضاً، كاتيوشـا، سأقول لها إنني حقير، وأنني أجرمـتُ بحقها. سأفعل كل شـيء للتهويـن من مصيرهـا. نعم، سأراهـا، وسأطلـب صفحها... سأطلب صفحها كما يفعل الأطفال...»

توقف لحظة ثم استأنف: «سأتزوج بها، إذا لزم الأمر»

وتوقـف مرة أخرى. كانت حماسته الداخلية تتعاظم من دقيقة إلى دقيقة. وفجأة ضم يديه، كما كان يفعل في طفولته.

ورفع عينيه وتمتم: يا ربي أنجدني، وعلّمني، وانفذ إلي لتطهرني!

كان نيكليودوف يصلي. كان يسأل الله أن ينفذ إليه ليطهره، مع أن المعجزة التي طلبها في صلاته قد تمّت. فالله الذي كان يحيا فيه استولى على ضمـيره مرة أخـرى. لم يكن نيكليـودوف يشعر فقـط بالحرية والصـلاح، والفرح بالحياة، لكنه كان يشعـر أيضاً أن الخير قادر على كل شـيء. كان يشعـر أنه قـادر على إتمام كل ما يستطيـع الإنسان أن يفعله من خير.

تسابقت الدمـوع إلى عينيه الآن، وهي دموع خيّرة وشريرة في آن واحد. خيّرة لأنها كانت دموع السعادة التي تبتعثها يقظة ذلك الكائن الداخلـي الذي كان غافياً فيه سنين طوالاً، وشريرة لأنها كانت دموع الكبرياء والإعجاب بذاته وبسموه الأخلاقي.

كاد يَختنــق، تقــدّم نحو النافــذة وفتحها. كان الليــل ينبسط على الحديقة ندياً، مقمراً، صامتاً. دوّى صوت عجلات على البعد، ثم عاد كل شــيء إلى الصمــت. وتحت النافذة، ارتسم علــى رمل الممر وعلى العشب ظل صفصافة ماتزال عارية. وإلى اليسار، بدا سقف المستودع ناصع البياضــ تحت أشعة القمر. كان نيكليودوف يتأمل الحديقة التي غمرهــا نور فضي خفيف برز فيه ظل الصفصافة؛ كان يستنشق نسمة الليل المنعشة. وتمتم:

– ما أجمل ذلك، يا إلهي! ما أجمل ذلك!

وإنما كان يتكلم على جمال ما قد وُلِدَ فيه.

× × ×

-٢٩-

لم تُعـد ماسلوفا إلى السجـن إلا في نحو الساعة السادسة. أحسّت أنها منهوكة القوى. فقسوة الحكم الذي صدر ضدها، وهي قسوة لم تتوقعها، قد حطّمتها؛ والطريق الطويلة التي كان عليها أن تقطعها عبر شـوارع المدينة السيئة البلاط، أتت على مـا تبقي فيها من قوّة. كانت تموت مـن الجوع. ففي أثناء أحـد توقّفات الجلسة، تنـاول حارساها طعامهمـا، من الخبز والبيض المسلوق، على مـرأى منها. فامتلأ فمُها باللعاب وتبيّنت أنها جائعة؛ لكنها، بسبب إحساسها بكرامتها، أبت أن تسـأل الحرّاس شيئاً. ثم استؤنفت الجلسـة لتستمر أكثر من ثلاث ساعات، بحيـث أنها سَهَتْ عن جوعها لفَرط تعبها وتبلّد مشاعرها. في هذا الوضع، سمعت تلاوة الحكم.

في البـدء، خُيِّل إليها أنها تحلم؛ وبـدا لها ذلك كابوساً سوف تُفيق منه بين لحظة وأخرى. لكنها أدركت، من الطريقة الطبيعية التي استقبل بها القضاة والمحامون والشهود والقاعة بأسرها تلاوة الإدانة، أدركت أن كل ذلـك واقعـي حقاً. وتولاّهـا هياج عاطفـي وصرخت، بكل قواهـا، أنها بريئة. ثم لاحظت أن صراخهـا، هو أيضاً، يُستقبل وكأنه

شيء طبيعي، مُتوقع، عاجز عن تبديل أي شيء في وضعها. فانفجرت باكية، مذعنة كل الإذعان لأن تتحمل، منذ الآن، وحتى النهاية، ذلك الظلم الغريب والفادح الذي أثقل به ظهرَها قدرُها الغاشم.

هناك شيء كان يُدهشها، على الخصوص: وهو أن مثل هذا الحكم القاسي قد حكم به رجال –رجال في أوج الشباب، وليسوا شيوخاً– رجال تفرّسوا فيها، طوال الجلسة، بعيون ملاطفة. وفيما عدا وكيل النيابة الذي بدت لها نظراته، طوال الوقت، مليئة باللؤم، لم يبق أحد إلا سرّه النظر إليها. وإذا هؤلاء الرجال أنفسهم الذين ألقوا عليها نظرات متودّدة يصدرون حكمهم عليها بالأشغال الشاقة، مع أنها كانت بريئة من الجرم الذي نسبوه إليها! ولقد بكت حتى جفّت مآقيها من البكاء. وفي النهاية، كفّت دموعها عن الانهمار؛ وعندما اقتيدت، بعد المحاكمة، وحُبِست في حبس منفرد في قصر العدل، ريثما تُنقل إلى السجن، لم تفكر إلا في شيئين: في التدخين وفي الشراب.

كانت وحدها في الحبس، منذ بعض الوقت، عندما شقّ عليها الباب الدركي الموكّل بحراستها، وسلّمها ثلاث روبلات.

– هيا، خذي! هذه النقود بعثت بها سيدة لك.

– أية سيدة؟

– هيا، خذي! ليس من واجبي أنا أناقشك!

هذا المال أرسلته السيدة كيتايف، مديرة دار البغاء. لقد سألت هذه السيدة الحاجب، عند خروجها من الجلسة، إن كانت تستطيع

أن تعطـي المحكومة شيئـاً من المال. ولما ردّ عليهـا بالإيجاب خلعت بحـذر القفّاز ذا الأزرار الثلاثـة الذي يغطي يدها اليسرى، ثم تناولت من جيب تنورتها الحريرية كيس نقود مملوءاً بالأوراق النقدية وبالقطع النقدية الصغيرة. وسلّمت الحاجب ورقة بروبلين ونصف مضيفة إليها خمسـين كوبيكاً مـن النحاس فسلّمها الحاجب على الفـور، بمرأى منها، إلى الدركي الذي أوصته قائلة:

– لا تنسَ أن تعطيها كل هذا.

اغتاظ الدركي من هذه التوصية؛ ومن هنا تبرّمه بماسلوفا.

ولقد ابتهجـت ماسلوفا عندما رأت هذه النقود التي ستتيح لها أن تحقـق رغبتيها. وقالت في نفسها: «علـى شرط أن أتمكن من الحصول علـى السجائر بسرعة، ثـم أستلقي!» كانت أفكارهـا جميعاً متركّزة على هذه الأمنية الوحيـدة. كانت تشتهي التدخين بقوة حملتها على أن تتنسّم بلذة رائحة التبغ الذي كانت نفحاته تنفذ إلى غرفتها.

علـى أنها انتظرت طويلاً قبل أن تحقق هذه الرغبة، إذ نسيها كاتب المحكمـة الذي كان معنيّـاً بإعادتها إلى السجن. فقـد تأخر ليحادث قاضياً بديناً ومحامياً في شـؤون السياسة. وأخيراً جيء بها، في الساعة الخامسـة، بعد نقـل كارتنكين وبوتشكوفـا، وسُلّمـت إلى الجنديين اللذيـن اقتاداها، في هذا الصباح. وفي الطريـق أعطت أحد الجنديين الخمسين كوبيكاً ورجته أن يشتري لها رغيفين وسجائر.

أخذ الجندي يضحك، وقال:

– طيب، سأشتري لك ذلك!

وبالفعل فقد ذهب لشراء السجائر والرغيفين، مُرجعاً بأمانه ما بقي من النقود. أكلت ماسلوفا الخبز، وهي سائرة، لكن كأن ذلك لم يزدها إلا خواء.

لم تبلغ السجن إلا بعد مغيب الشمس. وأخّروها طويلاً، في البهو، لأن الحراس أدخلوا السجن. في الوقت نفسه، قافلة من مائة سجين أُرسلوا من مدينة مجاورة.

كان بين هؤلاء الملتحون والحليقون، والشيوخ والشبان، والروس والدخلاء. كان بينهم من حُلق نصف رأسه وقُيّدت رجلاه بالحديد. وعندما مروا أمام ماسلوفا، نظروا إليها جميعاً بشهوة. وكثيرون منهم ابتسموا لها، وقد ألهبت الشهوة وجوههم، ودنوا منها، وقرصوها. قال أحدهم:

– هيه، هيه! يا لها من فتاة جميلة!

– وقال آخر وهو يغمز بعينه:

– تحياتي يا حلوتي!

ومن بينهم رجل أسمر، ذو شاربين كبيرين، حُلق أعلى رأسه، قد بالغ في تبذّله حتى قبّلها. وقال لها عندما صدّته عنها:

– ما بكِ، ألم تعرفيني، أنا صديقك الحميم؟ لا تتصنعي كل هذا التصنّع!

صرخ نائب المدير الذي كان يخر في اللحظة نفسها من مكتب السجن:

– هيه! أنتَ، أيها الحيوان، ماذا تفعل؟

وعلى الفور، تراجع السجين، وهو يرتعد بكل فرائضه.

التفت نائب المدير إلى ماسلوفا:

– وأنتِ، ماذا جئتِ تفعلين هنا؟

أرادت ماسلوفا أن توضح له أنها عائدة من محكمة الجنايات، لكنها كانت مجهدة جداً بحيث خانتها قدرتُها على الكلام.

أجاب أحد الجنديين وهو يرفع يده إلى قبعته:

– إنها عائدة من المحكمة، يا سيدي.

– يجب أن تأخذوها إلى رئيس الحرس. هيا، أسرعوا! هذه فضيحة!

– أمرك، يا سيدي.

زعق نائب المدير:

– سوكولوف! خذها!

تقدّم رئيس الحرس، ودفع بحنق ماسلوفا من كتفها، واقتادها، وهو يومئ إليها برأسه، إلى الممر، إلى قسم النساء.

وعندما بلغت الممر، فُتشت تفتيشاً دقيقاً، ولما لم يجدوا شيئاً – كانت السجائر مخبأة في الرغيف – دفعوا بها إلى المهجع الذي تركته هذا الصباح.

× × ×

-٣٠-

كانــت القاعة التي اقتيــدت ماسلوفا إليها غرفة كبــيرة طولها ستة أمتــار ونصف، وعرضها خمسة أمتار، ولهــا نافذتان. وكانت خالية من الأثــاث إلا من مدفأة قديمة زال عنها أكثر غطائها الكلسي، وأسرّة من الألــواح الخشبية المفككة، تشغل ثلثي المهجــع. وقد عُلِّقت على الجــدار، في مواجهة الباب، أيقونة سوداء مــن الوسخ، تشتعل أمامها شمعــة، وبجنبها باقة من زهور الخالدة المغــبرة المتدلية تحت الأيقونة. ووراء البــاب، إلى اليســار، وضع حوض القمامــة، حيث كان البلاط أوســخ شــيء. كان قد جرى تفقّــد المساء وأُغلق المهجــع على مَن فيه وكان فيه خمسة عشر شخصاً: اثنتا عشرة امرأة وثلاثة أطفال.

كانــت الرؤية ماتزال واضحــة. امرأتان فقط كانتــا مضطجعتين. إحداهما بلهــاء، حُبست بسبب تشرّدها، كانت تنــام ورأسها مغطّى بمعطفهــا، طوال اليوم. أمــا الأخرى التي حُكم عليهــا بجرم السرقة، فكانت مُصابة بالسل الرئوي. لم تكن تنام، بل كانت مستلقية مفتوحة العينــين، وقد أسندت رأسها إلى معطلها الذي طُوي على شكل مخدة. ولكي لا تسعــل، كانت تحبس في فمها دفعات التفــل التي تصعد إلى شفتيها.

وأمـا النسـاء الأخريات وكـن، في معظمهن، يلبسـن قمصاناً من نسيـج غليـظ، فبعضهن كـن جالسات علـى الأسرّة الحقـيرة يخطن ثيابهـن، وبعضهن كن واقفات أمـام النوافذ يشاهـدن قافلة السجناء وهي تمـرّ في فناء السجن. وبـين النساء اللواتي كـن يَخطن، العجوز كورابليوفا، التي كلّمت ماسلوفا، في الصباح، من كوة الباب. كانت مخلوقـة متجهّمة السحنة، لها حاجبان كثيفـان مقطّبان، وغضون في الجلد تتـدلّى من تحت ذقنها، وشعر متفرق على الصدغين، أحمر دبّ فيـه الشيب، وتؤلول مغطّى بالشعـر، في وسط خدها. وكانت طويلة القامـة، شديدة، متينة البنيـة. وقد حُكم على هـذه العجوز بالسجن لأنهـا قتلت بضربة فأس زوجها الـذي وجدته ذات يوم يفجرُ بابنتها. كانـت كورابليوفا سيدة القاعة، ولها امتياز بيع الخمر. كانت في هذه اللحظة تخيط، وهي جالسة قرب النافذة، ممسكة بالإبرة، على الطريقة الفلاّحية بثلاث أصابع من أصابع يدها القوية، السوداء. وكان بجنبها امـرأة مشغولة بالخياطة أيضاً، امرأة قصيرة، سوداء، خنساء، لها عينان صغيرتـان، وديعتان، سوداوان، دائمتا الحركـة. وكانت هذه حارسة علـى حاجز السكـة الحديدية. وقـد حُكم عليها بالسجـن لمدة ثلاثة أشهـر، لأنها غفلت، ذات ليلة، عـن تحريك الراية لدى مرور القطار، مما سبب اصطداماً.

المـرأة الثالثة التي كانـت تتحدث هي فيدوسيـا، أو فينيتشكا كما كانـت تدعوها رفيقاتها. كانت في ريعان الشبـاب، متورّدة، بيضاء، لهـا عينـان زرقـاوان، صافيتـان كعيني طفـل، وضفيرتـان طويلتان كستنائيتـان، ملفوفتان حول رأسهـا. وإنما حُكم عليها بالسجن لأنها حاولـت أن تدسّ السم لزوجها. كان ذلـك في ليلة عرسها، وعمرها

نحـو ستة عشر عاماً، وكان الرجل الذي زُوجت به بغيضاً على قلبها، لكنها انتهت بأن أُغرمت به، أثناء الأشهر الثمانية التي سبقت إدانتها، بحيـث أنها كانت على أتمّ وفاق معه في اللحظة التي حُكم عليها فيها بالسجـن. على أن هـذه التفاصيل لم تمنع المحكمة مـن الحكم عليها بالأشغـال الشاقة في سيبيريا، بالرغم من توسلات زوجها وأهله الذين رقّوا لها أصدق رقـة. إن فيدوسيا هذه، الطيبة المرحة، المستعدة دائماً للابتسام، كانت جارة ماسلوفا في السرير. ولم تلبث أن تعلقت بها فلم تدع مظهراً من مظاهر العناية والرعاية إلا أحاطتها به:

وغير بعيد عنها، جلست امرأتان على سرير. إحداهما عمرها نحو أربعين سنـة، هزيلة وشاحبة، وإن احتفظـت بمسحة من جمالٍ قديم؛ كانـت تحمل بين ذراعيها طفلاً أعطتـه ثديها. وكانت فلاحة أُودعت السجن بجرم التمرد على السلطة. فقد جاءت الشرطة يوماً إلى قريتها لسـوق أحد أبناء إخوتهـا إلى الخدمة العسكريـة، فتصدى الفلاحون الذين اعتبروا هذا التدبير غير شرعي، لمفوض الشرطة وخلّصوا الشاب. وكانـت هذه المرأة أول من ارتمى على رأس الجواد الذي أركبوا عليه ابن أخيها.

وكانـت المـرأة الأخـرى الجالسة بقربهـا، عجوزاً قصـيرة، محنية الظهـر، بيضاء الشعر. وكانت تتظاهر بأنهـا ستقبض على طفل بدين ابـن أربعة أعوام، متورد الوجنتين، ممتلـئ الوجه، كان يركض حولها وهو يقهقه. وكان لا يكف عن ضحكه إلا ليقول:

– لن تمسكي بي!

لقد حُكم على هذه العجوز بتهمة الاشتراك مع ابنها في محاولة إضرام حريق. وكانت تتحمل سجنها مذعنةً، لا يشغل بالها سوى ابنها وزوجها الذي لا يجد أحداً غيرها ينظفه ويخلّصه من قمله.

وكانت أربع نساء أخريات يقفن أمام النافذة المفتوحة، وقد أسندن رؤوسهن إلى قضبان النوافذ. كن يحدّثن السجناء الذين يمرون في الفناء، وهم أنفسهم الذين لقيتهم، قبل لحظة، ماسلوفا في ممر مدخل السجن. كانت إحداهن امرأة محكومة بجرم السرقة، حمراء الشعر، طويلة، رخوة الجسم، ذات وجه أصفر مغطى بالنمش. وكانت تصرخ بصوتها المبحوح، من النافذة، بكل ما في جعبتها من ألفاظ بذيئة. وبجانبها وقفت سمراء صغيرة كأنها طفلة ابنة عشرة أعوام بقامتها الطويلة وساقيها القصيرتين، كان وجهها أحمر مليئاً بالنمش وعيناها سوداوين واسعتين، وشفتاها ضخمتين مشمّرتين تكشفان عن صف من الأسنان البيضاء، الناتئة. وكانت تضحك ضحكاً متقطّعاً وهي تستمع إلى الحوار الجاري بين جارتها وسجناء الفناء. كانت تُدعى «الحسناء» بسبب ما تبديه من أناقة. وخلفها وقفت امرأة، هزيلة، معروقة العظام، سحنتُها تدعو إلى الرثاء، بائسة حُكم عليها بالسجن لإخفائها أشياء مسروقة. كانت لا تقول شيئاً، مكتفية أحياناً بالابتسام، وكأنها تستحسن ما تسمعه من كلام بذيء. أما السجينة الرابعة فكانت محكومة بالسجن لبيعها الخمور المهرّبة. وهي أم الصبي الذي كان يلعب مع المرأة الحدباء، وأم لطفلة في السابعة من عمرها، سُمح لها بالعيش في السجن أيضاً، إذ لم تجد من تعهد بها إليه. وكانت الطفلة تقف بجانب أمها وتصيخ السمع إلى الأحاديث الماجنة التي يتبادلها السجناء من النافذة. كانت رقيقة، ناعمة، بعينيها الزرقاوين

الساحرتين، وبضفيرتيها الساقطتين على ظهرها، والبيضاوين تقريباً.

المـرأة الثانية عشرة، أخيراً، كانت ابنـة شماس متهمة بجرم إغراق وليدهـا في بئر. كانت فتاة طويلة، قوية، شقراء، شعثاء الشعر، مدوّرة العينين، جامدة النظرة، كانت هذه لا تنفك عن المشي جيئة وذهاباً في الحيز الخالي بين الأسرّة، غير عابئة أحد، ولا مكلّمة أحداً، مرسلة ضرباً من الدمدمة التي لا تُفهم، وكلما بلغت الجدار استدارت راجعة.

× × ×

-٣١-

عندمـا انفتح الباب لتمر منه ماسلوفـا، توقفت ابنة الشماس لحظة عن تمشّيها في القاعة، ورفعت حاجبيها لتتأمل القادمة الجديدة. وبعد ذلك، استأنفت مشيتها بخطوات واثقة، دون أن تقول شيئاً. وغرزت كورابليوفـا إبرتها في الكيس الذي كانـت تخيطه، ونظرت من فوق نظارتها إلى ماسلوفا نظرة مستفهمة. وهتفت بصوت خفيض:

– ها هي ذا! لقد عادتَ عجباً! كنتُ أحسب أنهم سيبرئونها!

ورفعت نظارتها عن عينيها ووضعتها مع شغلها على السرير.

وتعجبت حارسة الخط الحديدي بصوتها الرخيم:

– وأنـا وجارتي كنا نقول أنهم ربما أطلقوا سراحها على الفور! بل إنهم قد يعطون الإنسان شيئاً من المال، أحياناً!

وسألـت فيدوسيا وهي ترفع عينيها الصافيتـين، الطفوليتين، نحو ماسلوفا بخجل:

– وإذن، فقد حكموا عليك!

اكفهرّ وجهها الفتيّ، وهمّت بالبكاء. لكن ماسلوفا لم تجب بشيء واقتربت من سريرها، بجانب سرير كورابليوفا، وتهالكت عليه.

وأعلنت فيدوسيا وهي تجلس بجنبها:

– ما كنتُ أتوقع ذلك أبداً!

بعد أن ظلّت ماسلوفا جامدة، بضع لحظات، نهضت من جديد، ووضعت رغيفها الباقي على حافة الجدار، وخلعت سترتها، البيضاء من الغبار، وحلّت المنديل الذي يغطي شعرها الأسود الجعد، وتهالكت مرة أخرى على سريرها.

دنت بدورها العجوز المقوّسة الظهر التي كانت تلاعب الصبي في الطرف الآخر من القاعة وقالت بلهجة شاكية وهي تهزّ رأسها:

– يا إلهي، يا إلهي!

أسرع وراءها الصبي الصغير، ووقف أمام الرغيف الذي حملته ماسلوفا، فاغراً فاه، محملقاً بعينيه.

ولما رأت ماسلوفا جميع هذه الوجوه الحفيّة بها، اشتهت، على الفور أن تبكي. ومع ذلك فقد استطاعت أن تتمالك نفسها إلى أن وصلت العجوز والصبي الصغير إلى جنبها. إلا أنها عندما سمعت صرخة العجوز الآسفة، ولاسيما عندما التقت عيناها عيني الطفل الذي انتقلت نظرته الجادة إليها، لم تستطيع أن تتمالك نفسها أكثر من ذلك، فارتعشت قسماتُها وانفجرت باكية.

لامتها كورابليوفا قائلة:

– لقد نصحتك أن تختاري لنفسك محامياً قديراً. بمَ حكموا عليكِ، بالنفي؟

أرادت ماسلوفا أن تجيب، لكن دموعها حالت بينها وبين الكلام. فأخرجت من الرغيف علبة اللفائف التي صُوِّرت على غلافها امرأة متوردّة، لها عقيصة عالية وثديان مكشوفان. نظرت كورابليوفا إلى الصورة، وهزّت رأسها هزّة الاستنكار، كأنها تريد أن تلوم ماسلوفا على إنفاقها مالها بغباء شديد. ثم أخرجت سيجارة من العلبة وأشعلتها من شمعة الأيقونة، وعبّت منها نفساً، وأعادتها إلى ماسلوفا الذي أخذت تدخّن بشوق دون أن تكف عن البكاء.

وأخيراً قالت بين شهقتين:

– حُكمَ علي بالأشغال الشاقة!

فصاحت كورابليوفا:

– هؤلاء الجلادون الغاشمون، لا يخافون الله إذن! إنها لم تفعل شيئاً؟ لَمَ يحكمون عليها؟

في اللحظة نفسها، أخذت النساء اللواتي كن قرب النافذة، يضحكن ضحكاً عالياً. وأخذت الطفلة تضحك أيضاً، وسُمعت ضحكتها الصغيرة، الغضة، الممتزجة بقهقهات النساء الخشنة. ولاشك أن إحدى السجينات قد بدرت منها حركة أثارت اشتداد هذا المرح البذيء.

انفجرت المرأة الشقراء قائلة، وقد أخذ جسمها الرخو يرتعش:

– هيه! أيها الكلب الأجرب! هل رأيتِ ما فعل؟

وعلّقت كورابليوفا وهي تشير إلى المرأة الشقراء:

– اسكتي، أيتها الطبلة! ماذا يُضحكك!

ثم التفتت إلى ماسلوفا واستخبرت:

– بكم سنة حُكمتِ؟

أجابت ماسلوفا:

– بأربع سنوات!

وقد تضاعفت دموعها إلى حد أن حارسة الخط الحديدي رأت من واجبها أن تتدخل مرة أخرى لتسرّي عنها:

– لاشك أنهم قُطّاع طرق! كنا واثقات من أنهم سيطلقون سراحك! كانت ماتفيليفنا تقول: «سيطلقون سراحها!» وكنتُ أنا، أجيبها: «في قلبي هاجس بأنهم لن يتركوها» وها إنني كنت محقة، مع الأسف!

وبينما كانت تتابع نحوها، بصوتها الرخيم، متكلمة بأناة ورضا عن الذات، كان السجناء قد انتهوا من عبور الفناء. وبعد مرورهم، على الفور، تنحّت عن النافذة النسوة اللواتي بادلتهم الأحاديث الماجنة واقتربن هن أيضاً، من ماسلوفا.

سألت مهرّبة المشروبات الروحية التي كانت تمسك ابنتها بيدها:

– ماذا! هل كانوا قساة عليك؟

فردّت كورابليوفا:

– كانوا قساة لأنها لا تملك مالاً. لو كان معها مال لاستأجرت محامياً مقتدراً، ماكراً، ولبرّأها. هناك واحد، لا أدري كيف يسمّونه، ثعلب لا مثيل له: حقاً أقول، إن هذا يسحبك من قلب الماء من غير أن تبتلي! مثل هذا كان يجب اختياره!

تدخّلت الحسناء الجالسة قريباً منهن والتي كانت تُري كل أسنانها:

– كيف يمكنها أن تختار مثله إن هذا لا يبصق في وجهك بأقل من ألف روبل!

علّقت العجوز المتهمة بالمشاركة في إضرام حريق:

– من الواضح أن القدر شاء ذلك. أتظنين، مثلاً، أنه ليس رهيباً أن يفصلوا بين الشيخ وبين زوجته وابنه، ليُترك دون أن يجد أحداً يعتني به؟ وأنا، في مثل سني، أُسجن؟ كُتِبَ علينا السجن أو البؤس! هذا أو ذاك.

– جلستْ المهرّبة على سريرها، في مواجهة ماسلوفا، وقد وضعت طفلتها على ركبتيها، وهي تفلّيها من القمل. وقالت:

– الأمـــر دائماً هكذا مع هؤلاء القضـــاة الأنجاس! «لماذا تاجرتِ بالخمور؟» – «وبماذا أطعم أولادي؟».

هـــذه الكلمـــات ردّت ماسلوفـــا إلى الإحساســـ بالواقع، فقالت لكورابليوفا وهي تمسح دموعها بكمّ قميصها:

– أود لو أشرب كأساً!

هدأ انفعالها الشديد وكفّت عن النحيب.

أجابت كورابليوفا:

– ولَمَ لا؟ هيا، هاتي نقودك، وستنعمين بالشراب!

× × ×

-٣٢-

تناولـت ماسلوفا مـن الرغيف الورقـة المالية التي بعثـت بها إليها السيـدة كيتايـف، وناولتهـا كورابليوفـا. ومع أن هـذه كانت تجهل القـراءة، إلا أنها أدركت من الصورة أن الورقة بروبلين ونصف. ومن أجـل المزيد من التأكد أرتْ الحسناء المشهـورة بأنها تعرف كل شيء، تلـك الورقة. وبعد ذلـك جرّت نفسها حتى بلغـت المدفأة، وفتحت بابها وأخرجت منها زجاجة كانت مخبّأة فيها. في هذه الأثناء، نهضت ماسلوفا، ونفضت الغبار عن سترتها ومنديلها، وأخذت تأكل رغيفها. قالت لها فيدوسيا:

– احتفظت لكِ بشيء من الشاي، لكنه الآن بارد.

ونهضت فتناولت من على لوح مسمّر فوق سريرها، غلّاية الشاي وطاساً من الصفيح ملفوفاً في جوربيها.

كان الشـاي، في الواقع، بارداً، وطعمـه أقرب إلى الصفيح منه إلى الشـاي، لكن ماسلوفا ملأت الطاس الذي بلّـت فيه خبزها ثم نادت الصبـي الصغـير، وقسمـت الرغيـف إلى نصفـين، وأعطـت الصبي أحدهما:

– خذ، يا فيناشكا، هذا لكَ!

في غضون ذلك، ابتعدت النساء اللواتي أسرتُهنّ في الطرف الآخر من القاعة. وما أن أمسكت ماسلوفا بالزجاجة حتى ملأت كأسها وشربته، ثم قدّمت الشراب لكورابليوفا وللحسناء، وكانتا تؤلّفان معها ارستقراطية هذا المكان، لأنهن وحدهن كنّ يملكن المال أحياناً.

بعد بضع دقائق، أحسّت أن نشاطها عاد إليها. فروت لرفيقتيها بكثير من المرح، كل ما جرى لها منذ الصباح، مقلّدة أصوات الرئيس ووكيل النيابة والمحامين وحركاتهم. وحكَت لهما عن دهشتها الكبيرة من مبادرة الناس إلى «ملاحقتها». ففي المحكمة كان الجميع يرمقونها، بل إنهم جاؤوا ينظرون إليها، بعد الحكم، في الحجرة التي حُبستْ فيها.

روت ذلك، وهي تبتسم، بمزيج من الدهشة والغرور... وأعلنت حارسة السكة الحديدية التي دنت مرة أخرى:

– الأمر هكذا؟

وبدأت تخطب من جديد، بصوتها الرخيم. فالناس، برأيها، يزدحمون على النساء كما يزدحم الذباب على السكر.

قاطعتها ماسلوفا، وهي تبتسم:

– حتى ها هنا، حتى ها هنا، وقع لي ذلك. ففي اللحظة التي كنتُ أعود فيها إلى السجن، إذا بجماعة من السجناء القادمين من المحطة،

تسدّ علي الطريق، وإذا بهم يعمدون إلى ملاحقتي بكثير من اللجاجة حتى توجستُ خيفة منهم. ولحسن الحظ أن نائب المدير جاء لينقذني. وكان بين السجناء سجين مسعور: وقد لقيت مشقة في الخلاص منه.

سألتها الحسناء:

– وكيف كان؟

– كان شديد السواد، حليق الرأس، ذا شاربين كبيرين.

– لاشك أنه هو!

– مَنْ هذا؟

– شتيغلوف! لقد مرّ بالفناء قبل قليل.

– ومَنْ شتيغلوف؟

– كيف، لا تعرفين شتيغلفوف؟ هرب من السجن مرتين. وقد قبضوا عليه الآن. لكنه سيهرب أيضاً. الحرّاس أنفسهم يخافونه!

كانت الحسناء هي التي تكتب للسجناء رسائلهم وتنقلها إلى المكتب. ومن ثمَّ فقد كانت تطلّع على أصغر الحوادث في السجن.

قالت كورابليوفا:

– ربما هرب، لكن من المؤكد أنه لن يأخذنا معه!

ثم التفتت إلى ماسلوفا وتابعت كلامها:

– اروي لنا، بدلاً من ذلك، ما قله لك المحامي بشأن النقض. الآن يجب أن توقعي طلَب النقض».

فـردّت ماسلوفـا بأنها لم تسمع عن ذلـك في قصر العدل. في هذه الآونـة اقتربت المـرأة الشقراء مـن النساء الثلاث اللواتـي كن يرشفن شرابهـن، وهي تدسّ يدها في شعرها الكثيـف، وتحكّ رأسها بكل ما في أظافرها من قوة، وقالت لماسلوفا:

– سأقـول لـك، أنا، ما يجـب أن تفعليه. يجـب أن تتقدمي أولاً بالتماسٍ إلى القضاة، ثم إلى النائب العام بعد ذلك.

فسألتها كورابليوفا بصوت غاضب:

– بمَ جئـت تهذرين هنا؟ أترين؟ شمّت رائحة الخمر، وها هي ذي تأتـي لتعلّمنـا أشياء هي نفسهـا لا تعلمها! نحن أعلـم منكِ بما يجب فعلُه؛ انصرفي، فلسنا بحاجة إليكِ!

– لم أكلّمك أنتِ! لم تحشرين نفسك؟

– الخمر هي التي دفعتك إلى المجيء، أليس كذلك؟

قالت ماسلوفا المستعدة أبداً لإشراك غيرها فيما معها:

– هيا! صبّي لها كأساً.

– انتظري قليلاً! سترين ماذا سأصبّ لها...

أجابت المرأة الشقراء وهي تتقدم نحو كورابليوفا:

– ماذا! ماذا! أنا لا أخاف منك!

– أترين إلى هذه العاجزة، الرخوة!

فاستشاطت الشقراء:

– أنا عاجزة، رخوة! أتتجاسرين على شتمي، يا طريدة السجون القذرة!

صاحت كورابليوفا:

– هيا، امضي، قلتُ لكِ انصرفي!

لكن المرأة الشقراء لم تنثن عن سيرها، فضربتها كورابليوفا بجمع يدها على صدرها العاري. وكأنما كانت الشقراء تتوقّع هذا التحدّي، فانقضت فجأة بإحدى قبضتيها على خاصرتي خصمها، بينما حاولت أن تصيبها في وجهها باليد الأخرى. وجهدت ماسلوفا والحسناء أن تصدّاها، لكنها كانت قد قبضت بقوة على شعر العجوز، فلم تجدا وسيلة لحملها على إرخائه. كانت كورابليوفا تلطم جسد خصمها، على غير هدى، وهي محنية الرأس، محاولة أيضاً أن تعضها في ذراعها. أما النساء الأخريات فقد تجمعن حولهما وهن يضطربن ويصرخن. حتى المسلولة نهضت لتتفرج على المعركة، مازجة نباح سعالها بصراخ رفيقاتها. وبكى الأطفال، وهم يتراصون، وبلغت الجلبة حداً دفع برئيسة قسم النساء إلى أن تهرع إليهن.

فُصل بين المرأتين. وحلّت كورابليوفا ضفيرتها الرمادية لتنفض

الشعـر الذي انتزعته خصمهـا بقبضتها. وردّت هـذه، على صدرها الأصفـر، مزقاً من ثوبهـا الممزق. وكلتاهما أخـذت تزعق بشكواها وبتبريرها لنفسها.

قالت المشرفة:

– أعرف، أعرف. كل هذا فهو من أثر الخمر. سأخبر المدير بذلك، غداً صباحاً؛ وستريان كيف يدبّر أمريكما. هيا، إلى النوم حالاً!. وإلا، حذار! لتأوِ كل واحدة إلى فراشها، ولتلزم الصمت!

لكن، لم يكـن سهلاً إحلال الصمت. وظلـت النسوة زمناً طويلاً يتشاجـرن؛ وتـروي كل واحدة منهـن، على طريقتهـا، كيف بدأت الأمور. وأخيراً خرجت المشرفـة، وتهيأت النساء للنوم ليلاً. وجاءت العجوز المحدودبة، ووقفت أمام الأيقونة وأخذت تتلو صلواتها.

وفجـأة أعلنت المرأة الشقراء، وهي ترفع صوتها لتسمعها ماسلوفا وكورابليوفا اللتان كان سريراهما في الطرف الآخر من القاعة:

– هل يُصـدَّق هذا! مجرمتان تريـدان أن تعلّمانا الأخلاق! فردّت كورابليوفا:

– حذار من أن أفقأ لك عينك، في هذا المساء.

ثم سكتت كلتاهما، مرة أخرى. لكن، من لحظة إلى أخرى، كانت مبادلة التهديدات والشتائم تعود لتقطع الصمت في القاعة النائمة.

نامت النساء جميعاً، وأخذ بعضهن يشخر، ماعدا العجوز المقوّسة الظهر وابنة الشماس، فقد ظلتا واقفتين. كانت العجوز التي من عادتها

أن تطيـل صلاتها، ماتزال جاثية أمام الأيقونة. ونهضت إبنة الشّمّاس من فراشها، حالما ذهبت المشرفة، لتستأنف روحاتها وجيئاتها، خلال الغرفة.

لم تستطـع ماسلوفا أن تنام. كانت لا تنـي تفكّر في أنها أصبحت «طريدة السجون». ففي هـذه الساعات القلائل، عُيِّرت بهذا اللقب مرتـين؛ بوتشكوفا، في قصر العـدل، والمرأة الشقـراء، قبل هنيهة! لم يمكنها أن تألف هذه الفكرة.

كانت كورابليوفا التي أدارت لها ظهرها لتنام، قد استدارت فجأة، فهمست ماسلوفا إليها:

– أُحكَمُ وأنـا لم أفعل شيئاً! غيري يُجرم ولا يُحاسَب، وأنا أهلك دون أن أفعل شيئاً.

أجابتها كورابليوفا لتعزّيها:

– لا تعذّبـي نفسك، يا بنتي! في سيبيريا أيضاً، الناس يعيشون! لن تهلكي هناك!

– أعلم جيـداً أنني لن أموت، لكن العار... ما كنت أتوقع لنفسي هذا المصير! أنا التي تعوّدت أن تحيا حياة الترف!

تنهّدت كورابليوفا وقالت:

– لا مردّ لمشيئة الرب.

– أعلم ذلك، لكن ذلك قاسٍ، مع ذلك!

وصمتتا. المرأة الشقراء لم تكن نائمة أيضاً.

استأنفت كورابليوفا كلامها مشيرة لجارتها إلى صوت غريب آتٍ إليهما من آخر القاعة:

– إصغِ، هذا صوت تلك القذرة؟

كان ذلك صوت المرأة الشقراء وهي تبكي في سريرها. كانت تبكي لأنها شُتمت وضُربت و لم تنل شيئاً من الخمر الذي كانت تشتهيه كثيراً. وكانت تبكي أيضاً لكونها لم تجد من حولها، طوال حياتها، سوى الشتائم، والسخرية والمذلّة والضرب. ولكي تعزّي نفسها، أرادت أن تتذكّر حبّها الأول، علاقاتها بعامل شاب. لكنها تذكرت، في الوقت نفسه، كيف انتهى ذلك الحب. رأت من جديد تلك الليلة الرهيبة التي قذفها فيها حبيبها بالزاج، مازحاً بعد أن ثمل، واستمتع، بعد ذلك، مع رفاقه،بمرآها وهي تتلوّى من الألم. استولى عليها حزن عظيم لدى استحضارها هذه الذكرى. وأخذت تبكي، وهي تحسب أن لن يسمعها أحد، كما يبكي الأطفال، شاهقة، مخفيةً دموعها المالحة. قالت ماسلوفا:

– هذا يثير الشفقة!

فردت العجوز:

– لاشك أنه يثير الشفقة، لكن عليها ألا تضايقنا.

× × ×

-٣٣-

عندمـا استيقظ نيكليـودوف، في صباح اليوم التـالي، شعر، على الفـور، شعـوراً غامضاً بـأن شيئاً ما قد وقـع له عشية البارحـة، شيئاً جميلاً جداً وهاماً جداً. ثم اتّضحت ذكرياته بدقة. «كاتيوشا، محكمة الجنايـات!» نعم، والقرار الذي اتخذتُه بالإقلاع عن الكذب، وبقول الحقيقة كاملة، منذ الآن.

ومن المصادفات المدهشة أنه وجد بين رسائله، وهو ينهض، رسالة طالمـا انتظرها من ماريا فاسيليفنا، المرأة المتزوجة التي كان عشيقاً لها، تـردُّ له فيها حريته وتُعْتقه مـن التزامه، وتتمنى له السعادة والتوفيق في زواجه المقبل.

قال في نفسه وهو يبتسم: «زواجي! ما أبعده!».

تذكّـر المشروع الذي وضعه، عشيـة البارحة، وهو أن يقول لزوج عشيقته كل شيء، أن يسأله الصفح، وأن يضع نفسه بين يديه من أجل الترضيـة التي قد يطلبها منه. لكن هذا المشروع لم يبد له، في الصباح، سهـل التنفيذ كما بدا له عشيـة البارحة. ثم لماذا يُشقي إنساناً بإطلاعه

علـى حقيقة ستؤلمه بكل تأكيد؟. «إذا سألني عن ذلك اعترفت له بكل شيء. أما أن أذهب بنفسي لأعترف فلا، ليس ذلك ضرورياً».

كمـا أن مشروع مصارحته لميسي بكل شيء، بدا له، عند التفكير، أقـل قابلية للتحقيق، ها هنا أيضاً لم يجد حاجة إلى الكلام: الكلام هنا مذلة لا جدوى منهـا. الأفضل أن يقتصر معها على التلميح. وقرر في نهاية الأمر أنه لن يـزور آل كورتشاغين بعد الآن، إلا لكي يشرح لهم الدافع، إذا شاؤوا أن يعلموه.

أما بالنسبة إلى علاقاته بكاتيوشا فقد رأى بالمقابل أن لا داعي للتكتّم. «سأذهب إليها في السجـن، وسأصارحها بكل شيء، وسأطلب إليها أن تصفح عني. وإذا لزم الأمر... إذا لزم الأمر، فسوف أتزوّجها!».

إن فكـرة التضحيـة بكل شـيء إرضـاء للضمير، وفكـرة الزواج بكاتيوشا، إذا لزم الأمر، ماتزال تروق له.

وأخـيراً، بالنسبة إلى قضية المال فقد عقـد العزم على أن يطابق بين سلوكه والمبادئ التي أعلنها عمّا في الملكية العقارية من ظلم. وإذا كان لا يقوى على الاستغناء عـن ثروته كلها، فقد وعد نفسه، على الأقل، ألا يحتفـظ بغير جزء منها، وأن يبـذل وسعه ليكون صادقاً نحو نفسه ونحو الآخرين.

منـذ زمن طويل، لم يبدأ يومه بمثل هذا النشاط. ولما جاءت أغرافينا بيتروفنـا لتلقّـي أوامره، في قاعـة الطعام، أعلن لها علـى الفور بحزم دهشـ هو نفسه منـه، أنه سيغير مسكنـه، وأنه مضطـر إلى الاستغناء

عــن خدماتها. فمنذ وفــاة أمه، لم يُوضح قط للمربية ما ينوي أن يفعله بالبيــت، وهو بيت مفرط الاتساع والفخامــة بالنسبة إلى عزب مثله. كان شيئــاً متّفقاً عليه، ضمنياً، أنه سيظــل يسكنه، لأنه على وشك أن يتــزوج. وإذًا فمشروعه بترك البيــت له معنى خاص أدركته أغرافينا بيتروفنا على الفور. فألقت عليه نظرة مندهشة.

أعلن لها:

– أشكرك كثيراً على رعايتك لي. لن أحتاج بعد اليوم إلى منزل بهذا الكبر ولا إلى خدم بهذه الكثرة. وإذا مازلتِ ترغبين في مساعدتي فأنا أطلب إليك أن تتكرّمي بتهيئة كل شيء من أجل انتقالي، وبحزم جميع الأمتعــة التي لا نفع فيها، في هذه الأثنــاء وعندما تأتي أختي سترى ما الذي يليق فعله.

هزّت رأسها وتعجبت قائلة:

– كيف؟ ما يليق فعله؟ لكنك ستحتاج إلى ذلكِ كله فيما بعد.

فأجاب نيكليودوف راداً على نيتها التي استشفّها تحت الكلمات، وعلى لهجتها:

– لا، لــن أحتــاج إلى شيء مــن ذلك. ثم إني أرجــوك أن تتكرمي بإخبار «كورني» أنني سأدفع له أجرة شهرين سلفاً، وأنه يستطيع، منذ اليوم، البحث عن عمل خارج بيتي.

– أنــت مخطئ إذ تتصرف هكذا، يا دميــتري ايفانوفيتش. حتى لو

كنت تنوي السفر إلى الخارج، فلابد لك من مكان تودع فيه أمتعتك.

قال نيكليودوف وهو يبتسم:

– ليس الأمر كما قدرت، يا أغرافينا بيتروفنا. فلن أسافر إلى الخارج، أو إذا سافرت ففي رحلة مختلفة.

أحسّ بالخجل، عند هذه الكلمات، وقال في نفسه: «هيا، يجب أن أقول لها كل شيء، لا داعي إلى الكتمان، يجب أن أسرع في قول الحقيقة!»

واستأنف:

– وقعتْ لي البارحة حادثة غريبة جداً وخطيرة جداً. أتذكرين كاتيوشا التي كانت تخدم عمتي ماريا ايفانوفنا؟

– طبعاً! أنا علّمتُها الخياطة...؟

– حسناً! لقد حُكم عليها أمس في محكمة الجنايات التي أنا محلّف فيها.

فهتفت أغرافينا بيتروفنا متعجبة:

– آه! يا ربي، هذا لا يُطاق! وما الجريمة التي من أجلها حُكم عليها؟

– جريمة القتل... وأنا الذي فعلتُ كل شيء!

دهشت أغرافينا بيتروفنا:

– كيف يمكنك أن تفعل كل شيء! هذه حقاً طريقة غريبة في الكلام!

استضاءت عينا العجوز المتعبتان، فقد كانت تعرف قصة كاتيوشا.

– نعم، أنا سبب كل شـــيء، وهذا الحادث قد قلب جميع خططي رأساً على عقب.

سألته أغرافينا بيتروفنا وهي تمسك ابتسامتها:

– لكن، بأية طريقة يمكن لذلك أن يغيّر مشاريعك؟

– ذلك أنها سلكت هذا الطريق بسببي، وعلي أنا أن أفعل كل شيء لإنقاذها...

– إني أتبـين هنـا طيبة قلبك، يا دميتري ايفانوفتش! لكن المسألة، في ذلـك كله، ليست مسألة خطيئتك. فالحـادث نفسه يقع للجميع، وإذا كان الشخص حسـن المحاكمة فـإن ذلك يُسـوّى، ويُنسى كل شيء. وتتابع الحياة مجراها. صدقني إن من الجنون أن تجعل من نفسك مسـؤولاً عن ذلك! لقد قيل لي منذ زمن بعيد. إن هذه المخلوقة شذت عـن الطريـق المستقيم. دع عنـك هذا، هـي أرادت ذلـك! الخطيئة خطيئتها وحدها!

– لا، لا، الخطيئة خطيئتي! وعليّ أن أتداركها.

– سيكون ذلك عسيراً...

– سـأرى ذلك، هـذا يخصّني. أما إذا كنـت قلقة على نفسك، يا أغرافينا بيتروفنا، فأنا أبادر إلى القول: إن أمي كانت ترغب في...

– لسـتُ أفكر في نفسي. فالمرحومة الأميرة أغدقت علي كثيراً من نعمها حتى أني لا أحتاج إلى شيء. لي قريبة تدعوني إلى الإقامة عندها، سأذهب إذا أيقنت أنني عاجزة عن خدمتك. لكن ينبغي أن أنبّهك إلى

أنــك مخطئ عندما تحاسب نفسك على هذه القضية كلها. قلّما تحدث هذه الأمور لأحد!

– لا أرى رأيــك في هــذا الموضــوع. وأنا أكرر رجائــي أن تقبلي بتحضــير كل شيء من أجل ذهابي من هنا. لا تغضبي علي، وأنا شاكر لك على كل شيء.

إنه لشيء مدهش أن نيكليودوف، منذ أن أدرك أنه هو نفسه أحمق وحقير، قد كــفّ عن احتقار الآخرين وكرههــم. على العكس، كان يستشعر أعظم عواطف الحب لأغرافينا بيتروفنا ولكورني خادمه. وقد تملكتــه الرغبة في أن تضــع أمام هذا الخادم، كما فعل أمام المربية، لكن كورني كان شديد التذلّل حتى إن نيكليودوف لم يقو على ذلك.

عندما قصــد نيكليودوف إلى قصر العدل الــذي سيكون فيه محلّفاً مــرة أخرى، ركــب العربة التي ركبها البارحة، ومرّ بالشوارع نفسها. وقــد دهش من التغير العظيم الذي تمّ فيه، أثنــاء هذه الأربع والعشرين ساعة. تبيّن أنه صار رجلاً آخر.

إن زواجــه بميســي الذي بدا لــه أمس قريباً. بدا لــه الآن غير ممكن أبــداً. كان عشية البارحة مقتنعاً أنــه سيُسعد الفتاة حين يقترن بها، أما الآن فصــار لا يرى نفسها غير أهل للاقــتران بها فحسب بل غير أهل للــتردد عليها أيضاً. «لــو كانت تعلم مَنْ أنا، لما رضيــتْ أن تستقبلني أبــداً! وأنا الذي كنتُ أمضي بقلّة الوجدان إلى حد لومها على غنجها مــع الآخرين! حتى لو كنــت متزوّجاً بها، أيمكننــي أن أجد لحظة من سعادة، أو من راحة على الأقل، وأنا أعلم أن تلك البائسة في السجن، وأنهــا ستذهب غداً أو بعد غد، على مراحل، إلى الأشغال الشاقة؟ في

غضــون هذا الوقت، أتلقّى، أنا، تهــاني أصدقائي، وأقوم بزياراتي مع عروسي! أو أجلســ في جمعية النبلاء بجنب صديق خدعته بحقارة، وأعــدّ الأصوات حول القانون المدرسي الجديــد، ريثما أذهب لألقى سـراً زوجة هــذا الصديق نفسه! أو أظل أكــدّ نفسي في رسم لوحتي، تلــك اللوحة اللعينة التي لن أكملها أبداً، لأننــي أرى أنني لا ينبغي أن أشغــل نفســي بمثل تلك الحماقات... لا، لا شــيء من ذلك كله ممكن بالنسبة إلي». وبهذا اختتم تفكيره وهو مبتهج من التغير الداخلي الذي طرأ عليه.

وقال في نفسه أيضاً: «قبل كل شيء، يجب أن ألقى المحامي لأطلع علــى نتيجة تحقيقه. وبعد ذلك... بعد ذلك، يجب أن أذهب لأراها، هي، ولأقول لها كل شيء».

وعندما خطر له أنه سيلقاهــا، وسيعترف لها بكل شيء، وسيبسط أمامهــا إقــراره بخطيئته، وسيُعــرب لها عن رغبته في إعــادة الاعتبار لنفســه مهما يكن الثمن، حتى ولو تزوّج بهــا، عند ذاك أحس بنفسه محمولاً على جناح الشوق، وتصاعدت العبرات إلى عينيه.

× × ×

-٣٤-

في رواق قصر العدل، لقـي نيكليودوف حاجب محكمة الجنايات فسألـه أين يُوضع المحكومون، بعد الحكـم عليهم، ومَنْ الذي يجب التوجّـه إليـه للحصـول علـى الأذن برؤيتهـم. أجـاب الحاجب أن المحكومين موزّعون في عدة مواضع، وأن النائب العام وحده يستطيع أن يمنح الإذن برؤيتهم.

- سآتـي لآخذك، بعد الجلسة، وسأوصلك، أنا نفسي، إلى النائب العام. أرجوك أن تدخل القاعة، فستبدأ الجلسة.

شكـر نيكليـودوف الحاجب الذي رثـى له الآن بعدمـا رأى من احترامـه لـه. وعنـد دخوله قاعـة المحلّفـين، رأى أن هـؤلاء يهمّون بالانتقال إلى قاعة المحكمة. كان التاجر مرحاً، كما كان أمس، وكان واضحـاً أنه قد شرب وأكل بوفرة، مرة أخرى، قبل أن يأتي. واستقبل نيكليودوف كما يستقبل صديقاً قديماً. ثم إن بطرس غيراسيموفتش لم يترك في نفس نيكليودوف أثراً مزعجاً، كما كان من قبل.

تساءل نيكليودوف إن كان ينبغي له أن يُطلع المحلفين على علاقاته بمحكمـة الأمس. وحـدّث نفسـه «كان ينبغي أن أنهضـ، منذ نهار

أمس، أثناء تلاوة الحكم، وأن أعترف أمام الناس بخطيئتي». لكنه عندما رأى إجراءات الأمس تتكرر، في قاعة المحكمة: صعود القضاة إلى المنصة بثيابهم الرسمية، تفقّد المحلّفين، الدرك، صورة القيصر، الكاهن العجوز، انتابه شعور بأنه، مهما يؤت من إرادة، فلن يقوى على الإخلال بنظام هذه الهيئة المهيبة.

القضية التي نُظِر فيها، هذا اليوم، كانت سرقة بطريق الكسر. وكان المتهم فتى ابن عشرين، ضيق المنكبين، هزيلاً، أصفر، يرتدي سترة رمادية، ويجلس على مقعد المتهمين بين دركيين، ساعلاً دون انقطاع. وقد قام مع صديق له حداد، بخلع باب مستودع للاستيلاء على مكانس قديمة قيمتها ثلاثة روبلات ونصف. وينصّ صك الإتّهام أن المذنبين أُوقفا على يد أحد الشرطة عندما كانا يهربان حاملين المسروقات على ظهريهما. وقد اعترفا مباشرة، وأُودعا السجن حيث مات الحداد. وبذلك مَثُلَ الفتى الآخر وحده أمام المحكمة. وكانت المسروقات موضوعة على الطاولة المخصصة لأدلة الإثبات.

سارت الدعوى بالطريقة التي سارت عليها دعوى ماسلوفا، مع نفس نسق الاستجوابات والشهادات والخبرات المضادة.

وكان الشرطي الذي أوْقف المتهم يجيب عن أسئلة الرئيس ووكيل النيابة والمحامي بـ «تماماً»، أو «لا أدري». ومن خلال هذه الأجوبة الآنية، ومن خلال احترامه للنظام، يستشفّ السامع أنه كان يرثي للمتهم وأنه ليس فخوراً بغنيمته.

كانت الجهة المتضررة عجوزاً سقيماً، هو صاحب البيت الذي

ارتُكبت فيه السرقة، وقد تردد في التعرف على المسروقات عن نيّة سيئة واضحة، ولما سأله وكيل النيابة إن كانت هذه المسروقات ذات نفع كبير، أجاب بلهجة غاضبة: «لعنها الله! فما فائدتها؟ إنني أدفع ثلاثة أضعاف ثمنها لأتخلص من الهموم التي سببتها لي هذه القضية. على العربات وحدها أنفقت ضعف قيمتها! أنا، المريض! منذ سبع سنوات وأنا أتألم من الأمراض العصبية ومن الفتق.

أما المتهم فقد أعترف بكل شيء، راوياً الأشياء كما جرت. وكان يتكلم بصوت تقطعه نوبات السعال، ويلتفت في كل الاتجاهات، شارد النظر مثل حيوان وقع في الفخ.

كان وكيل النيابة يتفنّن، كما فعل أمس. في طرح الأسئلة الدقيقة التي ترمي إلى إحباط ألاعيب المتهم وإلى إفحامه. وفي مرافعته، أثبت أن السرقة ارتُكبت عن سابق عمد وتصميم، ومن ثم، ينبغي أن تُفرض عليه أقسى العقوبات.

أما المحامي الذي عينته المحكمة للدفاع عنه، فقد أثبت أن السرقة ارتُكبت دون سابق عمد وتصميم، وأنها لم تكن مصحوبة بالكسر. وأن المتهم، بالرغم من فداحة خطيئته، لم يكن خطراً على المجتمع كما يؤكد ذلك وكيل النيابة.

وأخيراً، أوضح الرئيس بكثير من الحياد، كما كان أمس، أوضح بالتفصيل للمحلفين ما كانوا يعلمونه من قبل، وما لا يجوز أن يجهلوه. وعُلّقت الجلسة مثلما علّقت أمس، ودخّن المحلّفون، وأعلن الحاجب: «محكمة!» ووقف الدركيان اللذان يحرسان المتهم، وسيفاهما مشهران، وبذلا جهدهما كي لا يغفوا.

أظهرت المناقشات أن المتهم قد أدخله أبوه، وهو ابن خمسة عشر عاماً، في مصنع للتبغ، مكث فيه خمس سنوات. وفي شهر كانون الثاني، صُرف من العمل بسبب نزاع بين المدير والعمال. فغدا حينذاك بلا عمل، يتسكع في الشوارع، على غير هدى، وتعرّف بعامل حداد فقد هو أيضاً عمله، وكان يسرف في الشراب؛ وفي ذات ليلة ثملا فيها، خلعا معاً باب مستودع، واستوليا على ما وقع في أيديهما من مكانس قديمة. ومات الحداد في السجن، وأُحيل شريكه على المحكمة باعتباره كائناً خطراً يجب أن يحال بينه وبين إيذاء المجتمع.

فكّر نيكليودوف وهو يستعرض تفاصيل الدعوى: «كائن خطر مثل محكومة الأمس! كلاهما كائن خطر! لابأس! لكن ماذا يُقال عنا، نحن، نحن الذي نحاكمهما؟ أنا، مثلاً، أنا الفاسق، الكاذب، المحتال! نحن، لا خطر منا، إذن؟ ثم، لو سلّمنا أن هذا الفتى البائس هو وحده الكائن الخطر في هذه القاعة، فماذا ستفعل به، الآن وقد قُبض عليه؟ من البديهي أن هذا الفتى ليس مجرماً محترفاً، وليس شريراً خارجاً على المألوف! إنما ينتمي، على العكس، إلى نوع عادي جداً. الجميع يعلمون ذلك ويحسون به، كما يعلمون ويحسون أنه أصبح كذلك نتيجة لظروف الحياة التي أحاطت به. كان حتماً عليه أن يصل إلى ما وصل إليه. من الجلي إذن، لكل ذي عقل سليم، أننا، لكي نحول دون هلاك هذه الكائنات، لابد، قبل كل شيء، من السعي إلى إلغاء الظروف التي تُفضي حتماً إلى ضياعهم. وعندما أفكر أنه كان يكفي أن يوجد من يشفق على هذا البائس حين أرسله أبوه، تحت ضغط الفقر، ليكون عاملاً، أو فيما بعد، حين كان هذا المنكود الحظ يذهب مع رفاقه، بعد ساعات عمله الاثنتي عشرة، ليبحث عن شيء

مـن اللهو في الحانات! حينذاك لو قال لـه أحد الناس: «لا تذهب إلى هناك، يا فانيا، فليس هذا المكان بالمكان الصالح». لكفّ عن الذهاب ولما أصابه الانحراف، ولما ارتكب الشر الذي ارتكبه. لكنه لم يجد مَن يعطف عليه طوال الوقـت الذي قضاه، وهو يعيش مثل حيوان صغير في مصنعه. علـى العكس، لقد علّمه الجميع مـن رؤسائه إلى زملائه، خلال خمس سنوات، أن الحكمة، بالنسبة إلى فتى في سنه، تنحصر في الكذب والشرب والبـذاءة والضرب وملاحقة البنات. وعندما ينهكه ويفسـده، بعد ذلك، العمل غير الصحي، والسكر والدعارة، وعندما تسوقه قدماه، بعد أن يتسّكع في الشوارع على غير هدى، إلى دخول مستـودع يسرق منه مكانس لا نفع فيها، عند ذاك، نجتمع نحن، نحن الذين لا ينقصنا شيء، نحن الأغنياء والمتعلمين، نجتمع في قاعة مهيبة، ونحاكم هذا البائس الذي هو أخونا والذي أسهمنا في ضياعه!».

هكـذا كان يفكر نيكليودوف، دون أن ينتبه لما كان يجري حوله. وتسـاءل كيف جاز لـه ألاّ يفطن لحالة الأشياء هـذه، قبل الآن وكيف جاز للآخرين ألا يفطنوا لها بعد.

× × ×

-٣٥-

عندما انسحب المحلّفون، بعد خلاصة الرئيس، إلى قاعة المداولات ليجيبوا عن الأسئلة المطروحة، انسلّ نيكليودوف إلى الرواق بدلاً من أن يتبع زملاءه. فقد عقد العزم فجأة ألا يكترث لهذه الدعوى؛ ليفعلوا بــه ما يشاؤون، فقد كان عاجزاً عن الانخــراط، مرة أخرى، في هذه المهزلة.

ســأل الحارســ أن يدلّه على مكتــب النائب العام، واتجــه إليه على الفــور. رفض الحاجــب أولاً أن يأذن له بالدخــول، مؤكداً أن النائب العــام مشغــول، لكن نيكليــودوف لم يصــغ إليه، وفتح بــاب البهو، ودنــا من المستخــدم الذي ظل جالســاً، ورجاه أن ينبــئ رأساً النائب العــام بقدومه لأمــر عاجل. وأدخل لقب الإمــارة وأناقة ملبسه الهيبة على نفســ المستخدم الذي ألح على النائب العــام فأذن له على الفور بالدخــول؛ واستقبلــه واقفاً، وقد بــدا عليه الاستياء مــن إصراره على الدخول. وسأله بلهجة قاسية:

– فيمَ أستطيع أن أخدمك؟

أجاب نيكليودوف بنفس واحد وهو يحمرّ خجلاً:

– أنا محلّف، واسمـــي نيكليودوف، وأنا بحاجة إلى أن أقابل امرأة في السجن، هي ماسلوفا.

كان يحســ أنه يُقدِم هنا على خطوة سيكون لها تأثيرها الحاسم في حياته بأسرها.

كان النائـــب العـــام رجلاً قصيراً، هزيلاً، جافــاً، ذا شعر قصير دبّ فيه الشيب، وعينين مليئتين بالحيوية، ولحية قصيرة مثلثة الشكل، فوق ذقن بارزة.

– ماسلوفــا؟ نعم، عرفتهــا. المتهمة بالتسميـــم، أليس كذلك؟ و لمَ تريد مقابلتها؟

ثم قال بلهجة أكثر تودداً:

– اعــذر ســؤالي، فأنا لا أستطيع أن أمنحــك الإذن بمقابلتها، دون معرفة الدافع الذي يحملك على طلب الإذن.

فردد نيكليودوف وقد زاد احمراراً:

– لابد لي من مقابلة هذه المرأة؛ إن ذلك في أعلى درجات الأهمية، بالنسبة إلي.

قــال النائب العــام، وهو يرفع عينيه، ويحــدج نيكليودوف بنظرة ثاقبة:

– آه! حقاً! هذه المرأة حوكمت أمس، أليس كذلك؟

– حُكمت بأربع سنوات من الأشغال الشاقة ظلماً. وهي بريئة!

استأنـف النائب العـام، دون أن يأبه لما قالـه نيكليودوف في براءة ماسلوفا:

– أمسـ؟ بمـا أنها لم تُحاكم إلا أمس، فيجـب أن تكون موقوفة في السجـن الاحتياطي. ولا يمكن مقابلة السجنـاء إلا في أيام محددة وأنا أدعوك أن تتوجّه إلى هناك.

قال نيكليودوف:

– ذلك أني بحاجة إلى مقابلتها، في الحال.

ارتجفت شفتاه وأحس باقتراب الدقيقة الحاسمة.

استخبر النائب العام، وقد قطّب حاجبيه، وبدا عليه شيء من القلق:

– ولم تحتاج إلى مقابلتها؟

فهتف نيكليودوف بصوت مرتعش:

– أحتاج إلى مقابلتها لأنها بريئة وقد حُكم عليها بالأشغال الشاقة. أنا المذنب، لا هي!

– وكيف ذلك؟

– أنـا أغويتهـا وأوصلتُها إلى الحالة التي هي فيهـا. لو لم أُغوها لما تعرّضت للتهمة التي وُجَّهت إليها أمس.

– كل هذا لا يُنبئ بالدافع الذي يدفعك إلى مقابلتها.

أعلن نيكليودوف:

– دافعي هو أنني أريد أن أتدارك خطيئتي و... وأن أتزوج بها؟

وبينما كان يقول هذه الكلمات، صعدت الدموع إلى عينيه.

فانفجر النائب العام:

– حقاً! هذه حالة مثيرة جداً. ألستَ أنتَ بالذات العضو في جمعية كراستوبلورسك؟

تساءل النائب العام إن كان نيكليودوف هذا الذي يعرض عليه هذا المشروع الغريب هو نفسه الذي يذكر أنه سمعه يتكلم.

فثار نيكليودوف:

– عفواً لا أرى أية صلة يمكن أن تكون بين طلبي وما تسأل عنه.

أجاب النائب العام،وهو يحمل نفسه على الابتسام حملاً، ودون أن يضطرب.

– لاشك أن المشروع الذي تطلعني عليه مشروع شديد الغرابة، شديد البعد عن الأشكال المعتادة...

– هل أستطيع، في النهاية، أن أحصل على ذلك الأذن؟

– الإذن؟ بالتأكيد، سأسلّمك إياه، في الحال. هلاّ جلست. ومضى إلى مكتبه، وجلس، وأخذ يكتب.

– اجلسْ، أرجوك!

ظـل نيكليودوف واقفـاً. وعندما انتهى النائب العـام من الكتابة، نهض، ومدّ الورقة إلى نيكليودوف، وهو يراقبه بفضول.

وأردف نيكليودوف:

- هناك شيء ينبغي أن أقوله لك أيضاً. سيكون من المستحيل عليّ، بعد الآن، المشاركة في مداولات المحلّفين.

- عليـك، كمـا تعلم، أن تطلـب إعفاءك من المحكمـة، بعد بيان الأسباب التي دفعتك.

السبـب هو أننـي أعتبر جميع أحـكام المحكمة غـير نافعة، وغير أخلاقية.

هتف النائب العام، وهو يبتسم الإبتسامة الساخرة نفسها، مُشعراً أن مثـل هذه المبادئ معروفة عنده، وأن هـذه المرة ليست المرة الأولى التي يتلهّى بسماعها:

- عجباً! يا أميري العزيز، أنت تدرك، دون جهد، أنني لا أستطيع، بصفتـي نائباً عاماً، أن أشاطرك رأيـك حول هذه النقطة. لكن اذهب وأوضـح ذلك كلـه للمحكمـة! والمحكمة ستقـدّر قيمـة أعذارك، وستقبلهـا أو ترفضها، وفي حالة الرفض ستفرض عليك غرامة. توجّه إلى المحكمة!

أجاب نيكليودوف بجفاف:

- كما قلت لك، أنا مصمم على عدم العودة إليها!

حينــذاك قال القاضي، وهو بادي اللهفــة للخلاص من هذا الزائر الغريب:

– لك تحياتي!

سأله قاضٍ دخل مكتبه عند خروج نيكليودوف:

– من هذا الذي استقبلته؟

– هــذا نيكليودوف، وهو الذي لفــت الإنتباه إليه، كما تعلم، في جمعيــة كراستوبلورسك، بما قــدّم من ضروب الاقتراحــات الغربية. تصــوّر أنــه وجد، بصفتــه محلفاً، على مقعــد المتهمين، بغيــا يزعم أنه أغواها فيما مضى، وهو الآن، يريد الزواج بها.

– أممكن هذا؟

– هــو الــذي أخبرني بذلك منــذ هنيهة. وليتك تعلــم بأية حماسة جنونية؟

– في الحقيقة، كأن هناك شيئاً غريباً يجري في عقول شباب اليوم!

– لكنه لم يعد شاباً...

– لــو تدري كــم ضايقنا صاحبُــك الشهــير «إيفاشنكوف»! لقد أقسم هذا الحيوان أن يهلكنا؛ إنه يتكلم، ويتكلم إلى ما لا نهاية!

– يجــب أن توقفه عــن الكلام بــكل بساطة! الــكلام، على هذا النحو، عرقلة للعمل.

× × ×

-٣٦-

قصد نيكليودوف رأساً، فور خروجه من عند النائب العام، إلى السجن الاحتياطي. فلم يجد ماسلوفا، وقال له المدير إنها لابد أن تكون في السجون القديمة المخصصة للسجناء الذين سيُبعدون بعد قليل. فتوجّه إلى هناك وبالفعل، كانت ماسلوفا فيها.

وبما أن المسافة عظيمة بين السجن الاحتياطي والسجن القديم، فإن نيكليودوف لم يصل إلا عند هبوط الليل. وفي الوقت الذي كان يهمّ فيه بالدخول، منعه الخفير من التقدم، وقرع الجرس، فجاءه حارس آخر أراه نيكليودوف الإذن بالدخول. قرأ الحارس الوثيقة، وأعاد قراءتها، وانتهى إلى القول إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً دون إذن المدير.

وسُمح لنيكليودوف بمقابلة المدير على الأقل. وعلى الدرج الذي يؤدي إلى شقة هذا الموظف، سمع أصواتاً مخنوقة لقطعة موسيقية تُعزَف على البيانو. وما أن فتحت له باب الشقة خادمة كالحة الوجه، على عينيها عصابة، حتى انهالت على مسمعيه أنغام البيانو، وكأنها تنطلق من غرفة مجاورة. كانت مقطوعة من أكثر مقطوعات «ليست» تداولاً، وكان عزفها رائعاً، مع هذه الخاصية وهي أن الشخص الذي

كان يعـزف لم يكـن يتجاوز مقطعـاً معيناً. كان كلمـا وصل إلى هذا الموضع من المقطوعة يتوقف فجأة ليبدأ المقطوعة من جديد.

سأل نيكليودوف الخادمة إن كان المدير في بيته.

– لا، ليس في بيته.

– ومتى يعود؟

– سأسأل عن ذلك.

دخلت الخادمة الشقة وتركت نيكليودوف واقفاً في البهو.

بعد لحظة توقفت الموسيقى قبل أن تصل إلى الموضع المقدّر. وسمع نيكليودوف، في الغرفة المجاورة صوت امرأة تقول:

– قـولي له: إنه ليس هنا، وأنه لـن يأتي اليوم، وأنه يقوم بالتفتيش، لَم يأتون لإزعاجنا؟

وفي الحـال، استؤنفت الموسيقى لكنها توقّفت بعد عدة إيقاعات، وسمع نيكليـودوف صوت كرسي يتحرك. ومـن الواضح أن عازفة البيانـو قد قررت أن تأتـي بذاتها لتصرف ثقيل الظل الذي اباح لنفسه أن يعكّر صفوها.

شقّـت الباب الذي يُطل علـى غرفة الانتظار فتـاة شاحبة، محلولة الشعر. لها عينان كئيبتان تحيط بهما دائرتان زرقاوان، وأعلنت بلهجة غاضبة:

– أبي خرج من البيت.

وعندما شاهدت رجلاً مايزال شاباً، أنيق اللباس، غيّرت لهجتها.

– تفضل وادخل؟ أتريد أن تسأل أبي شيئاً؟...

– أحب أن أرى سجينة.

– في قسم السجينات السياسات، لاشك؟

– لا، ليست في ذلك القسم. مع إذنٌ مكتوب من النائب العام.

– لا أدري... أبي خرج. لكن ادخل، أرجوك...

وبما ان نيكليودوف همّ بالخروج، أردفت:

– تستطيع أن تخاطب نائب المدير. لاشك أنه في مكتبه. ما اسمك؟

قال نيكليودوف دون أن يجيب عن سؤالها:

– أشكرك كثيراً.

وبينما كان يهبط الدرج، تعالت مرة أخرى أنغام الموسيقى الصاخبة وكانت هذه الموسيقى قليلة الانسجام مع المكان الذي تنبعث منه، مثلما كانت قليلة الانسجام مع تلك الهيئة الزريّة، هيئة تلك المخلوقة المسكينة التي تبعثها.

في الفناء التقى ضابطاً ذا شاربين مشمّعين، فسأله أين يستطيع أن يجد نائب المدير. لقد كان هذا الضابط الشاب هو بعينه نائب المدير المطلوب. تناول الضابط الأذن وألقى عليه نظرة خاطفة، وأعلن أن هذه الورقة لا تذكر سوى السجن الاحتياطي، ولا يستطيع أن يأخذ على عاتقه مسؤولية اعتبارها صالحة لدخول هذا السجن.

– ثم إن أوان الزيارة قد فات. عُدْ غداً، غداً صباحاً، الساعة العاشرة، يُسمح للجميع بزيارة السجناء. سيكون المدير هنا. وبوسعك أن ترى المرأة ماسلوفا في غرفة استقبال النساء، أو في المكتب، إذا رضي المدير بذلك.

بعد أن خاب أمل نيكليودوف في مقابلة كاتيوشا، عاد أدراجه إلى البيت. كان يسير في الشوارع، وهو يرتعش من الإنفعال؛ وأخذت تفاصيل النهار تعود إلى ذاكرته. لقد حاول أن يقابل كاتيوشا، وسأل عنها في سجنين، وحدَّث النائب العام عن نيته في الاتضاع أمامها. وضاعف من حماسته إحساسه بأنه فعل ذلك كله. وعندما بلغ المنزل، تناول من درج دفتراً كان يدوّن فيه أفعاله وأفكاره اليومية. وبعد أن أعاد قراءة بعض المقاطع، أضاف بحرارة وبالقلم، الأسطر التالية:

«لم أكتب شيئاً، منذ سنتين، في هذا الدفتر، وكنت أعتقد أنني لن أعكف بعد الآن على هذه الصَبْيَنة. لكن ذلك لم يكن، في الواقع، صبينة، بل إنه كان، على العكس، حديثاً مع النفس، حديثاً مع الأنا الحقيقية والمقدسة. هذه الأنا كانت غافية في أعماق قلبي، منذ سنتين، بحيث لم أجد مَنْ أحدّثه. وإذا بها تستيقظ أمس، في ٢٨ نيسان، على

أثـر الحادث غير العادي الذي جرى في محكمة الجنايات، حيث كنتُ محلفاً. فعلى مقعد المتهمين شاهــدت كاتيوشا التي أغويتها فيما مضى ثم هجرتها. ولقد أدّى سوء فهم فريد من نوعه، كان بوسعي أن أحول دونه، إلى الحكم على تلـك البائسة بالأشغال الشاقة. ذهبتُ اليوم إلى النائـب العام وإلى السجن. لم يُسمـح لي برؤيتها، لكني عازم على أن أفعل كل شيء لأراهـا، ولأتّضع أمامها، ولأتدارك خطيئتي، ولو كان ذلك بالزواج بها. يـا ربي، أعنّي! لم أشعر قط بمثل هذا الهدوء وذلك الفرح في قلبي».

× × ×

-٣٧-

لم تتمكــن ماسلوفا من النوم، في الليلة التي تلــت إدانتها، مع أنها كانت محطّمة من التعب. ظلت مستلقية على سريرها، مفتوحة العينين، محدّقــة في الباب الــذي كانت تخفيه إبنة الشّمّاسـ، بين وقت وآخر، بروحاتهــا وجيئاتها. كانت تحدّث نفسها بأنها لن تقبل على الإطلاق الزواج بأحد المحكوم عليهم، ولو كانت في جزيرة سخالين، أو مهما يكن المكان الــذي ستُبعَد إليه. سوف تتدبّر أمرها على نحو آخر، ربما مع أحد مديري السجون، أو مع كاتب محكمة، أو حارس أو مشرف. وقالــت في نفسها: «هؤلاء جميعاً مولعــون بلذات الحب. على شرط واحد هو ألا يدركني الهزال، لأنني سأفقد كل شيء حينئذ.

تذكّــرت كيف تفرّس فيها المحامون ورئيس المحكمة والمحلّفون. وعنــد مرورها خلال المدينة نظر إليهــا الناس نظرات ملأى بالشهوة. تذكّــرت أن بيرتا زارتها في السجن وروت لها أن أحد الطلاب، وهو زبونهــا المفضــل، قد جزع لأنــه لم يجدها في بيت السيــدة كيتايف. فكّــرت في الشجار مع الشقراء التي رثت لها، وفي الخباز الذي أرسل إليهــا رغيفــاً إضافيــاً. فكّرت في كثير مــن الأشياء، أمــا نيكليودوف

فلـم تفكّـر فيه، كمـا لم تفكّر في سنـي شبابها. كانـت ذكرى حبها لنيكليودوف مؤلمة أشـد الألم، ولذلك دفنته في زاوية من زوايا قلبها، لكي لا تمسّه أبداً. حتى في الحلم، لم تر نيكليودوف قط. وإذا كانت لم تعرفه في محكمة الجنايات، فليس مبعث ذلك فقط أن السنّ قد غيّرته، ولأنـه غدا ذا لحيـة، أو لأن شعره تساقط: كانـت ستعرفه بالرغم من ذلـك، لولا أنها تعـوّدت ألا تفكر فيه. وهذه العادة بـدأت منذ تلك الليلـة المظلمة والرهيبة التـي عاد فيها نيكليودوف مـن الحرب، ومرّ قريباً من منزل عمتيه دون أن يعرّج عليه.

كانـت كاتيوشا تعلم، حينئذ، أنها حامل لكـن فكرة الوليد الذي سيولـد لم تكن تحزنها، بل إنهـا كانت فرحة بذلك الوليد متحننة عليه مادامت ترجو لقاء نيكليودوف.

وعندما علمـت العمتان بأن نيكليودوف سيمرّ قريباً من منزلهما، رجتـاه أن يتوقف عندهمـا. فأجابهما برقياً أن ذلـك مستحيل عليه. إذ لابـد له أن يذهـب إلى بطرسبرج في أسرع وقـت ممكن. وما لبثت كاتيوشا أن عزمت على الذهاب إلى المحطة لتراه أثناء مروره بها.

كان موعـد مـرور القطـار، في الساعـة الثانية صباحـاً. وبعد أن أعانـت كاتيوشـا سيدتيها على الذهـاب إلى السريـر، احتذت جزمة قديمـة، وغطت رأسها بشال، ومضـت إلى المحطة مصطحبة ماشكا، إبنة الطاهية.

كانـت الليلة خريفيـة، سـوداء وبـاردة. وكان المطـر يهطل تارة بقطـرات متسارعة، وتـارة أخرى يتوقف. وكان مـن الممكن أن يميّز

السائر طريقه أمامه، عبر الحقول، أما في الغابات فكان الظلام دامساً، حتى إن كاتيوشا أوشكت أن تضلّ طريقها، مع علمها الجيد بها، ولم تصل المحطة الصغيرة إلا بعد وصول القطار. فاندفعت إلى الرصيف، وسرعان ما لمحت نيكليودوف جالساً قرب النافذة في عربة الدرجة الأولى. كانت العربة مضاءة جيداً: وكان هناك ضابطان يجلس كل منهما قبالة الآخر على مقعد مخملي، ويلعبان بالورق، وكان هو يلتفت إليهما، وهو يبتسم.

ما إن لمحته المرأة حتى حاولت أن تصعد سلم العربة لتناديه. لكن الصافرة أعلنت تحرّك القطار، في اللحظة نفسها، وأخذت العربات تهتز ببطء. وعمد سائق القطار إلى إنزال كاتيوشا قبل أن يصعد هو نفسه على العربة، وعندما عادت إلى الرصيف، كانت عربة الدرجة الأولى قد تجاوزتها، فطفقت تركض لتلحق بها. لكن بدون جدوى؛ كان القطار أسرع منها، فرأت عربات الدرجة الثانية تمر، ثم عربات الدرجة الثالثة، ورأت أخيراً آخر العربات بمصباحها الأحمر. عندما بلغت نهاية الرصيف، ظلّت تركض إلى آخر الخط. وأسقطت الريح التي كانت تهب بين الحين والحين، شالها الذي غطّت به رأسها. كانت تركض مشعّثة الشعر، غارقة، لدى كل خطوة، في نقاع الطين.

صاحت بها الطفلة التي كانت تركض خلفها:

– يا خالة ميخايلوفنا! شالك سقط.

وقفت كاتيوشا، وغطت وجهها بيديها، وقد ارتدّ رأسها إلى الخلف، وأخذت تنتحب. وصرخت:

– لقد ذهب.

وفكّـرت: «وهكذا فهو هنا، في هـذه العربة المدفّأة جيداً، يجلس علـى مقعد مخملي، هو يلهو ويبتسم وأنا هنا، وحيدة، في الليل، تحت المطر والريح!».

جلسـت على الأرض وأمعنت في نحيبهـا العنيف حتى إن الطفلة المذعورة لم تدر ما تقوله تعزيةً لها. فتوسّلت إليها قائلة:

– لننصرف، يا خالة ميخايلوفنا. لنعد بسرعة.

لكـن كاتيوشا ظلـت جالسة، تحت المطـر والريـح. سيمر قطار، وسأتمـدد على السكـة، وسينتهي كل شيء». كانـت تتهيأ لتنفيذ هذا المشـروع، عندما اختلج فجأة الجنين الـذي في أحشائها. وسرعان ما تلاشـى يأسُها وإذا بـكل ما ملأها، قبل لحظة، بالجـزع، وبإحساسها أن الحياة مستحيلـة، وبكرهها لنيكليودوف، ورغبتها في الإنتقام منه بانتحارها. إذا بكل هذه الأفكار الشريرة تمّحي، فتنهض، وتُعيد شالها إلى رأسها، وترجع إلى البيت.

في هذه الليلة، طرأ انقلاب كامل في نفسها، بدأت كاتيوشا تصبح مـا صارت إليه، منذ ذلـك اليوم. أقلعت عن الايمـان بالله. لقد آمنت بـالله من قبل، حسب إيمان الناس، لكنها منذ تلك اللحظة اقتنعت بأنه مـا من أحد يؤمن بـه، وأنّ كل ما يُروى عـن الله وشريعته ليس سوى خديعـة وظلم. فهـذا الرجل الـذي أحبّهـا وأحبته، والـذي أغواها وهجرهـا، كان أفضل مَنْ عرفت من الناس: الآخرون أسوأ منه. ولقد

رسّـخ هذه القناعة فيها كل ما وقع لهـا فيما بعد. فعمّتا نيكليودوف، هاتـان السيدتـان العجوزان المغرقتـان في تقواهمـا، طردتاها يوم أن غـدت عاجزة عن العمل كما كانت في الماضي. أمّا الأشخاص الذين اتصلـت بهم فيما بعد، فكان بعضهـم -النسـاء بخاصة- لا يرى فيها سوى وسيلة للربح، وبعضهم الآخر -الرجال، من مفوّض الشرطة إلى حراس السجن- لم يروا فيها سوى وسيلة لإشباع غرائزهم الجنسية. ليس في العالم أحد يهتم بشيء غير إشباع هذه الغرائز. هذا ما استطاع أن يُفهمهـا إياه الأديب العجوز الـذي كانت خليلة له في السنة الثانية مـن حياتها المستقلة: لقد أعلن لها بصراحـة أن إشباع الغرائز الجنسية هو الحكمة الوحيدة- وكان يدعو ذلك «الشعر وجمالية الحياة».

الناس جميعاً لا يعيشون إلا لأنفسهـم، لملذاتهم الخاصة، وكل ما كان يقـال عن الله وعن الخير لم يكن سوى خدعـة! وإذا ما واجهها، عرضـاً، هذا السؤال وهو: لم كان كل شيء على الأرض مختلّ النظام، لم لا يني الناس يعذّب بعضهم بعضاً بدلاً من أن يستمتعوا بالحياة على رسلهـم، سارعـت إلى دفع هذا السـؤال المتعب عنهـا. لا شيء يطرد المتاعب مثل سيجارة أو كأس، وأفضل منهما الرجل... فتسير الأمور سيراً أحسن.

× × ×

-٣٨-

كان اليوم التالي يوم أحد. وفي الساعة الخامسة صباحاً، حالما دوّى في رواق السجن صوت صفّارة الحارس، أيقظت كورابليوفا جارتها التي لم تستطع النوم إلا في الفجر.

قالت ماسلوفا في نفسها بذعر، وهي تفرك عينيها، وتستنشق، بالرغم منها، نتن القاعة الموبوء: «الأشغال الشاقة». كانت تشتهي أن تعود إلى النوم لتلوذ، مرة أخرى، باللاشعور؛ لكن العادة والخوف طردا النعاس، فنهضت، وجلست على سريرها مدلية قدميها، وأخذت تنظر فيمن حولها. كانت جميع النساء مستيقظات، وظل الصبي والطفلة نائمين. وكانت الأم تسحب بحذر سترتها التي ناما عليها. ونشرت المرأة المحكومة بسبب عصيانها خرقاً بالية أمام المدفأة هي لفافات الوليد، بينما كان هذا يضطرب على ذراعي فيدوسيا، ويبكي، ويرسل صراخاً لم تُفْلح في تهدئته ملاطفات الشابة. وأخذت المسلولة التي احتقن وجهها بالدم، وأمسكت صدرها بكلتا يديها، تسعل سعال الصباح، وتطلق، بين كل نوبة ونوبة، زفرات عميقة كأنها شهقات النحيب. وظلّت الشقراء مستلقية على ظهرها، مادة

على السرير ساقيها الضخمتين، العاريتين. وهي تقص، بصوتها الرنان والمرح، حُلماً رأته. وكانت المرأة العجوز المحدودية، واقفة أمام الأيقونة، تردد بلا كلل الكلمات نفسها وهي ترسم علامة الصليب وتسجد. وجلست ابنة الشماس على فراشها، ناظرة إلى الفراغ بعينيها الزجاجيتين الواسعتين. وكانت الحسناء تملّس بأصابعها شعرها الأسود الدهني والوسخ.

سُمعت خطوات ثقيلة يخطوها رجال في الرواق، وفُتح الباب. دخل سجينان، رجلان عابسان، يلبسان سترتين من قماش رمادي، وبنطالين رماديين مرفوعين إلى ما فوق الركبة، فرفعا الحوض النتن وحملاه على كتفيهما. وخرجت النساء الواحدة تلو الأخرى ليغتسلن على الحنفية. ووقع شجار بين الشقراء التي كانت تنتظر دورها، وامرأة أخرى خرجت من قاعة مجاورة، وتبادلتا الشتائم والصرخات والشكاوى مرة أخرى.

صاح الحارس الذي اقترب من الشقراء، ولطمها على ظهرها لطمة قوية دوّت في أنحاء الرواق:

– هل أقسمتِ ألا تغادري السجن... إياك أن أسمع صوتك بعد الآن!

فقالت الشقراء دون أن تضطرب:

– حقاً! مايزال العجوز قوي اللكمة!

فأردف الحاجب:

– أسرعنَ! حان وقت القداس.

لم تنتـه ماسلوفا من إصلاح شعرها حتى أقبـل نائب المدير، وبيده سجل.

صاح الحارس:

– إلزَمْنَ أماكنكن للتفقد.

ومـن القاعـات الأخـرى خرجـت نسـاء أخريـات، واصطفت السجينتـان في صفين، على طـول الرواق. وكان علـى نساء الصف الثـاني أن يلقين أيديهن على أكتاف النسـوة أمامهن. عدّهن الضابط، وتفقدهن بأسمائهن، وابتعد هو وسجلّه.

جاءت المشرفة، بعد لحظـات، لتصطحب السجينات إلى القداس. كانت ماسلوفا وفيدوسيا في وسط الرتل المؤلف من أكثر من مائة امرأة يرتديـن لباس السجن الأبيض، مع منديل أبيض على الرأس. لكن كان بينهـن فلاحات يرتدين لباسهن القـروي: هؤلاء كن نساء المحكومين بالأشغال الشاقة، وقد سُمح لهن بمشاركة أزواجهن مصيرهم.

كان الرتـل الطويل يملأ درجات السلم. وكان يُسمع وقع الأحذية علـى البـلاط، وهمسـ الأصـوات، والضحكات بين حـين وآخر. وعند أحد المنعطفـات شاهدت ماسلوفا وجـه عدوّتها الكريه، وجه بوتشكوفـا، وهي تسير علـى رأس الرتل. فنبهتهـا فيدوسيا وأشارت إليها.

في أدنى السلم، صمتت النساء ودخلن الكنيسة التي ماتزال فارغة، والمتلألئة بالمذهبات، وهن يرسمن علامة الصليب ويسجدن. كان موضع النساء في اليمين، فجلسن هناك. وبعد برهة دخل المحكومون بالنفي، بسترهم الرمادية. وكانوا ينتظرون نقلهم إلى المنفى الذي فرضه عليهم المجتمع، وتجمعوا في يسار الكنيسة وفي وسطها، وهم يسعلون سعالاً صاخباً. وفي الأعلى، في المنصة، وقفت فصيلة من المحكومين بالأشغال الشاقة حُلقت أنصاف رؤوسهم. وقد نمّت على وجودهم قعقعة السلاسل. وكان هناك منصة أخرى تضم السجناء الذين لم يُفصل في دعواهم: هؤلاء لم تقص شعورهم، ولم يقيّدوا بالسلاسل.

كانت كنيسة السجن حديثة البناء، هبة تاجر ثري أنفق لهذا الغرض عشرات آلاف الروبلات، كانت تتلألأ بالمذهبات وبالألوان الوهّاجة.

ظلت الكنيسة صامتة، لا يُسمع فيها سوى أصوات السعال والامتخاط والسلاسل المتحركة. لكن السجناء الذين وقفوا في الوسط، ما لبثوا أن تنحّوا جانباً وتركوا ممراً حراً، وعلى هذا الممر تقدم مدير السجن، بمهابة، إلى الصف الأول.

× × ×

- ٣٩ [١٣] -

بدأ القداس.

كان القداس يُقام على النحو التالي: كان الكاهن الذي ارتدى ثوباً من البروكار، خاصاً، غريباً، ضيقاً، يكسر رغيف الخبز إلى قطع صغيرة ويضعها على طبق، ثم يغمسها في كأس مملوءة بالخمر، وهو يتمتم ببعض الأسماء والدعوات. في هذه الأثناء، لم يتوقف الشماس عن القراءة أولاً، ثم عن الترتيل، بالتناوب مع جوقة السجناء، ترتيل دعوات شتّى بالسلافية، غير مفهومة بذاتها، لكنها تغدو أعصى على الفهم بسبب سرعة القراءة والترتيل. وكان موضوع هذه الدعوات، بشكل رئيسي، تمنّي السعادة للامبراطور وأسرته. وكانت تُردد مع دعوات أخرى، أو وحدها، والناس ركوع. ثم يقرأ الشماس بعد ذلك فصولاً من أعمال الرسل بصوت شديد الغرابة والتصنع، لا يفهم منه السامع شيئاً. وكان الكاهن، على العكس، يقرأ بوضوح شديد فصلاً من إنجيل مرقس، الفصل الذي يقول إن المسيح بعد أن قام، وقبل أن يصعد إلى السماء، ويجلس عن يمين الآب، ظهر أولاً لمريم المجدلية

١٣. حذفت الرقابة هذا الفصل والفصل الذي يليه من ١٨٩٩ حتى ١٩١٧.

التـي طرد منها سبع شياطـين، ثم ظهر للتلاميذ الأحـد عشر وأمرهم أن يكـرزوا بالإنجيـل للخليقة كلها معلنين أن مـن لا يؤمن يهلك، أما من آمـن واعتمد فسوف يخلُص، وسوف يكـون بوسعه فوق ذلك، أن يُخرج الشياطـين، وأن يَضع يده على المرضى فيبرؤون، وأن ينطق بألسنـة جديدة، وأن يأخذ الحيّـات بيديه، وأن يشرب السم القاتل فلا يضرّه.

وكان القداس يقوم على افتراض أن قطعة الخبز التي كسرها الكاهن وغمسهـا في الخمر تتحـوّل بفضل بعض الصلـوات والمعالجات، إلى جسـد الرب ودمه. وقـوام هذه المعالجات أن الكاهـن كان يرفع يديه بحركـة منتظمـة، مـع أن ثوب الـبروكار كان يعيق حركتـه، ثم يثني ركبتيـه، ويُقبّل المائدة وكل مـا عليها. وكان أهم فعل فعله الكاهن هو أنه أمسك منشفة بيديه، وأخذ يحرّكها بحركات متساوية، فوق الطبق والكأسـ الذهبيـة. فمن المفترض، في هذه اللحظـة، أن الخبز والخمر كانا يتحولا إلى جسد ودم. ولذلك كان هذا القسم من القداس محاطاً بجلال خاص.

«لنُصـلِّ للكليـة القداسة والطهـارة، والطوباوية مـريم العذراء». كذلك صـاح الكاهن مـن وراء الحاجز، فرتّلت الجوقـة بفخامة أنه: حسـن أن نمجد تلك التي وَلدت يسوع، بغير دنس، مريم العذراء التي هـي، بسبب ذلك، أرفع من الملائكة. وكان من المسلّم، بعد ذلك، أن يكون تحوّل القربان والخمر إلى جسد الرب ودمه قد تم؛ فرفع الكاهن المنشفـة التي تغطي الطبق وكسر قطعة الخبـز التي في الوسط إلى أربعة أقسام، وغمسهـا أولاً في الخمر، ثم وضعها في فمه. واعتبر نفسه أنه

قد أكل قطعة من جسد المسيح وشرب جرعة من دمه. ثم أزاح الكاهن ستاراً، وفتح باباً في الوسط، بعد أن حمل بيديه كأساً مذهبة، ليدعو المؤمنين إلى أن يأكلوا مثله من جسد المسيح وأن يشربوا مثله من دمه، وهما موجودان في الكأس.

اقترب بعض الأطفال فقط.

بعد أن سألهم الكاهن عن أسمائهم، تناول بعناية قطعاً من الخبز المغموسة في الخمر، بملعقة صغيرة، وأدخلها بعمق في فم كل من الأطفال. وبعد أن مسح لهم الشماس شفاههم، رتّل معهم بفرح ترتيلة تقول، إن هؤلاء الأطفال أكلوا جسد الرب وشربوا دمه. وبعد ذلك حمل الكاهن الكأس إلى ما وراء الحاجز، وهناك شرب كل الدم الذي في الكأس وأكل القطع الباقية من جسد الرب؛ ثم مسح شاربيه بشفتيه، متأنياً في ذلك، ونشّف فمه والكأس، وخرج مرة أخرى، فرحاً، بخطوات ثابتة، مطقطقاً بنعل حذائه الرقيق.

هنا انتهى الجزء الأساسي من القداس المسيحي. لكن الكاهن، حرصاً منه على تعزية السجناء البائسين، أتبع القداس العادي بطقس ديني خاص. فوقف أمام صورة الإله التي اسودّ منها الوجه واليدان، صورة هذا الإله الذي زعم أنه أكل جسده وشرب دمه، والتي أضاءتها ست شمعات، وبدأ يتلو الكلمات التالية ويرتّلها، بصوت غريب مصطنع: «يا يسوعي الوديع، مجد الرسل، يا يسوع، يا تسبيحة الشهداء، أيها الرب الكلي القدرة، خلّصني! يا يسوعي الفائق الجمال، يا مخلّصي، أنا لاجئ إليك! خلّصني! ارحمني، يا يسوع

بشفاعة ولادتك، يا يسوع، وبشافعة جميع القديسين والأنبياء، خلّصني! امنحني نعيم الجنة، يا يسوع، أنت، يا من يحب البشر!»

هنا توقف الكاهن، ورسم علامة الصليب، وسجد على الأرض؛ ففعل الجميع مثله. وانحنى المدير والمشرفون والسجناء جميعاً، ومن أعلى جناح في الكنيسة، اشتدت قعقعة السلاسل. وتابع الكاهن: «يا خالق الملائكة، يا سيد القوات، يا يسوع العجيب، يا انذهال الملائكة، يا يسوع الكلي القدرة، يا مخلّص الأجداد، يا يسوع الوديع، يا عظمة الشيوخ الأولين؛ يا يسوع المجيد، يا قوة الملوك؛ يا يسوع السعيد، يا مشيئة الأنبياء؛ يا يسوع الفائق البهاء، يا ثبات الشهداء، يا يسوع المذعن، يا فرح الرهبان؛ يا يسوع الرحيم، يا لطف الكهنة؛ يا يسوع الكريم، يا تقشف الصائمين؛ يا يسوع الفائق اللطف، يا هناءة القديسين؛ يا يسوع النقي، يا عفاف العذارى؛ يا يسوع الأبدي، يا خلاص الخطأة؛ يا يسوع يا بن الله، ارحمنا». وهنا توقف وهو يلفظ كلمة يسوع بصوت صافر؛ عند ذاك رفع الكاهن جبّته المبطّنة بالحرير، وانحنى حتى الأرض، بينما كانت الجوقة تُرتّل الكلمات الأخيرة: «يا يسوع ارحنا!»، وكان السجناء بدورهم يركعون وينهضون، فيضطرب النصف الباقي من شعرهم، وتتعالى قعقعة السلاسل التي كانت تؤذي أرجلهم المهزولة.

ودام ذلك طويلاً. كان هناك أولاً المدائح التي تنتهي بـ»ارحمنا!»، ثم المدائح الأخرى التي تنتهي بـ»أُلوليا». وفي البداية، كان السجناء يرسمون علامة الصليب ويسجدون، لدى كل توقف، ثم صاروا لا ينحنون إلا لدى كل توقفين، ثم لدى كل ثلاثة توقفات، وسروا

كثيراً عندما انتهى ذلك كله. وتنهّد الجميع تنهّد الارتياح، ثم تناول الكاهن كتاب الصلوات وابتعد إلى ما وراء الحاجز. لقد بقي الفصل الأخير. أخذ الكاهن عن الطاولة صليباً مذهباً مزيناً برسوم نافرة من الميناء، وتقدم إلى وسط الكنيسة. وأخذ الجميع يمرون من أمامه ويقبّلون الصليب: المدير أولاً، ثم المشرفون، ثم السجناء وهم يتدافعون ويتشاتمون بصوت خفيض. كان الكاهن يمدّ الصليب واليد، وهو يحادث المدير، إلى أفواه السجناء أو إلى أنوفهم. وكان السجناء يجهدون في أن يقبّلوا الصليب واليد. كذلك انتهى القداس المسيحي، المقام من أجل تعزية الإخوة الضالين، وتعليمهم.

× × ×

-٤٠-

لم يفكّر أحد من الحضور، بدءاً من الكاهن والمدير إلى ماسلوفا، لحظة واحدة أن هذا المسيح نفسه الذي ردّد الكاهن مرات اسمه صافراً فيه، والذي رُتّلت مدائحه في عبارات شديدة الغرابة، أن هذا المدعو يسوع قد منع بالضبط ما يُفعَل هنا؛ وأنه لم يمنع فقط هذا الهذر الذي لا حياة فيه، وتلك الشعوذة التجديفية التي يُجريها كاهن الرعية على الخبز والخمر، بل إنه حرّم على الناس بأصرح مقال أن يَدْعوا الآخرين أسياداً لهم؛ حرّم الصلوات في المعابد، آمراً كل واحد أن يصلي في عزلته؛ حرّم المعابد ذاتها قائلاً إنه جاء ليهدمها وأن الصلاة يجب ألا تتم في المعابد بل في الروح وفي الحقيقة؛ ولم يحرّم فقط الحكم على الناس، وسجنهم واضطهادهم وإذلالهم، وإذاقتهم فنون العذاب، كما يُفعل هنا، بل إنه حرّم، على الخصوص، جميع أنواع العنف قائلاً إنه جاء ليُعتق السجناء.

لم يفكّر أحد من الحاضرين أن ما كان يُرتكب هنا كان أكبر تجديف على هذا المسيح نفسه، وكان سخرية من المسيح الذي باسمه كان يُرتكب ذلك كله. لم يفكر أحد أن الصليب المذهب ذا الرسوم النافرة

المطلية بالميناء، هو صورة للخشبة التي عُذّب عليها يسوع، لأنه، على وجه التحديد، قد حرّم هذه الأفعال نفسها التي كانت تُرتكب باسمه. لم يفكر أحد أن الكهنة الذين يتصوّرون أنهم يأكلون جسد المسيح ويشربون دمه بهيئة قطع الخبز الصغيرة، والخمر، إنما يأكلون، المسيح ويشربون دمه، بالفعل. وذلك، لا بهيئة قطع الخبز الصغيرة، والخمر، لكن لأنهم لا يُضلّون البسطاء الذين اتّحد بهم المسيح فحسب، بل وأيضاً لأنهم يُفقدونهم أعظم الخيرات، ويلقون بهم في أقسى الآلام حين يخفون عنهم إعلان الحقيقة التي حملها إليهم.

كان الكاهن يقوم بالاحتفال الديني وهو مرتاح الضمير، لأنه لُقِّن، منذ الطفولة، أن هذه هي العقيدة الحقيقية والوحيدة التي جهر بها القدّيسون، وقبلتها اليوم جميع السلطات الروحية والزمنية. لم يكن يؤمن بتحول الخبز إلى جسد، ولا بأن المصطلح الكنسي نافع للروح، ولا بأنه أكل جُزيئة من الإله –كان من المستحيل عليه أن يؤمن بهذا– لكنه كان يؤمن أنه يجب أن يؤمن بذلك. والذي ثبّته بصورة أساسية، في هذه الفكرة أنه قد جنى، منذ ثمانية عشر عاماً، أرباحاً من ممارسة الكهنوت، وأنه قد أمّن حياة أسرته، فأرسل ابنه إلى المعهد وابنته إلى مدرسة دينية داخلية. وكان إيمان الشماس مماثلاً بل كان أصلب، لأنه نسي تماماً جوهر عقائد دينه، وكان يعلم فقط أن الصلاة من أجل الموتى، وساعات الصلوات، والصلوات المتلوّة والصلوات المرتّلة، كان يعلم أن جميع هذه الخدمات الكنسية لها سعر محدد يدفعه، عن رضاً المسيحيون الحقيقيون؛ كذلك كان يصيح «ارحمني، ارحمني»، ولذلك كان يقرأ ويرتّل كل ما يتطلّبه القداس، بالثقة المطمئنة التي يبيع بها التاجر الخشب والطحين والبطاطا. أما مدير السجن والمشرفون

فمـع أن الشك لم يخامر قلوبهم، ومع أنهم لم يسعوا إلى معرفة: علامَ تقـوم عقائد هذا الإيمان، أو ماذا تعني هـذه الطقوس الدينية، إلا أنهم كانـوا يعدّون هذا الإيمان ضروريـاً، لأن السلطة العليا، والقيصر نفسه يؤمنـون بـه. وفضلاً عن ذلك فقـد كانوا يحسّون إحساسـاً غامضاً، دون أن يتمكنـوا من تفسير هذا الإحساس، أن هذا الإيمان يبرّر ما في وظائفهـم من قسوة. فبدون هذا الدين، يصعـب عليهم، بل يستحيل عليهـم أن يستخدموا قواهـم لتعذيب الناس، وهـم مطمئنو الضمير كل الاطمئنان كما يستخدمونهـا الآن. إن مدير السجن رجل صالح في أعماقـه، وما كان يستطيع أن يحيـا على هذا النحو، لو لم يجد في الدين سنـداً له. ولقد ظل جامـداً، ممتنعاً على التأثـر، وانحنى مرات عديـدة ورسم علامة الصليب مرات عديدة، وحاول أن يتحنن عندما رُتلـت ترنيمة «الملائكة»، وأثناء التناول تقدّم ليُنهض بنفسه صبياً كان يتناول، وليسنده بيديه.

وأمـا السجناء، ما عدا بعضاً منهم رأوا الخدعة بوضوح، وسخروا في أعمـاق نفوسهـم من الديـن، فقـد كان معظمهم يعتقـد أن هذه الأيقونات المذهبـة، وهذه الشموع، وهـذه الكؤوس، وهذه الحلل، وهذه الصلبـان، وهذه الصلوات التي لا تُفهم: «يـا يسوع الوديع»، و«ارحمني»، تخفـي عقيدة خفية الأسرار، بفضلها يستطيع الناس أن يحصلوا على خيرات عظيمة على هذه الأرض، وفي الحياة الآتية. ومع أن معظمهـم جرّبوا، مراراً وبدون جدوى، الحصول على هذه الخيرات الأرضية، عن طريق الكهنة والصلـوات والشموع، وأن صلواتهم لم تُستجَـب، إلا أن كل واحـد منهم كان مقتنعاً اقتناعـاً راسخاً بأن هذا الإخفـاق إنما يعود إلى المصادفة، وبأن هذه المؤسسة التي أقرّها العلماء

والمطارنة مؤسسة جادة، مهمة، نافعة، إن لم يكن في هذه الحياة، فعلى الأقل في الحياة الأخرى.

كذلك كانت ماسلوفا تؤمن. كانت، كالآخرين، تشعر، أثناء القداس، بشعور من الخشوع والضجر معاً. كانت واقفة بين جمهور السجينات، وراء الحاجز، فلم تستطع أن ترى أحداً سوى رفيقاتها؛ ولكن عندما تقدّمت اللواتي سيتناولن، تقدمت هي أيضاً مع فيدوسيا، وأبصرت المدير والمشرفين ورجلاً ذا لحية وشعر أشقر -كان هذا هو زوج فيدوسيا الذي ثبّت عينيه في امرأته بحنان- حينذاك استغرقت ماسلوفا في حديثها مع فيدوسيا وفي تأمل زوجها، دون أن تكفّ، مع ذلك، عن الصلاة ورسم علامة الصليب والانحناء كالآخرين.

صرخ الحارس أثناء خروج النساء من الكنيسة:

– ماسلوفا! إلى غرفة الاستقبال!

× × ×

-٤١-

خرج نيكليودوف من بيته مبكراً، كان الشارع خالياً إلا من فلاح مع عربته، وهو يصرخ بصوت غريب:

– حليب! حليب! حليب!

كانت قد هطلت، عشية البارحة، أول أمطار الربيع الدافئة. وبدأت الأعشاب تخضرّ، حيثما لم يخنقها بلاط الشارع. وازدانت أشجار البتولة بزغب أخضر؛ ومدّت أشجار الكرز البري وأشجار الصفصاف أوراقها الطويلة العطرة. ورُفعت النوافذ في البيوت والدكاكين من أجل تنظيفها. لكن سوق الرَّثاث الذي يمر طريقه به، كان قد تجمهر فيه الناس. كان الرجال والنساء يزدحمون، وجزماتهم في أقدامهم، على الخيام المرتّبة في صفوف، وهم يجسّون الستر والصدرات والبناطيل، ويقيسونها، ويساومون عليها.

في الحانات أيضاً ازدحم الجمهور. كان العمال يدخلونها بسترهم النظيفة وجزماتهم الملمعة، والسعادة بادية عليهم، لأنهم استطاعوا أن يفلتوا من متاعب المصنع يوماً واحداً. واصطحب الكثير منهم

زوجاتهم بمناديلهن الحريرية الزاهية الألوان، وسترهن المزدانة بالخرز. ووقف رجال الشرطة الذين ارتدوا لباس الحفلات الرسمي وعلقوا غدارتهم بشرائط صفراء على زنانيرهم، جامدين في زوايا الشارع، يترقّبون الفوضى التي ستّذهب عنهم سآمتهم. وأخذ الأطفال والكلاب يتراكضون ويلعبون في ممرات الشوارع، وعلى عشب المروج الذي مايزال رطباً، بينما انصرفت المربيات الجالسات على المقاعد في جماعات، إلى الثرثرة والقهقهة. ومن كل جانب من الشوارع، دوّى صوت الأجراس وصداه، داعياً الجمهور إلى حضور قداس إلهي شبيه بالقداس الذي أقيم في كنيسة السجن، وهو صوت امتزج بضجيج العربات على بلاط الشارع. واتجه بعض المارة، وهم في ثياب الأحد، إلى كنيستهم.

كان السجن مايزال مُغلقاً عندما بلغه نيكليودوف. وفي ساحة صغيرة، على نحو مائة خطوة من الباب، وقفت جماعة من الرجال والنساء يحمل معظمهم رزماً في أيديهم. إلى يمين الساحة يمتد بناء واطئ، من الخشب؛ إلى اليسار يقوم بناء بطابقين، وعليه لافتة. وفي الصدر، ظهر مدخل السجن الحجري، الضخم الذي يقف عنده جندي يتنكب بندقيته ويحول دون الاقتراب منه.

أمام شباك التخشيبة جلس حارس يرتدي بزة رسمية عليها شرائط، ويضع على ركبتيه سجلاً. وكان الزوار يخاطبونه ليسجّلوا أسماء السجناء الذين يرغبون في مقابلتهم.

دنا منه نيكليودوف وسمّى كاترين ماسلوفا، ثم سأل:

- لم لا يُسمح بالدخول.

أجاب الحارس:

- السجناء في القداس، فمتى انتهى القداس دخلتم.

اقترب نيكليودوف من جمهور الزوار. وفي اللحظة نفسها، طلع من الجمهور رجل رثّ الثياب، حافي القدمين، مخدد الوجه بالحمرة، وانسل إلى باب السجن.

فصاح به الجندي وهو يرفع يده إلى بندقيته.

- هيه! أنت، إلى أين تذهب؟

أجابه الرجل وهو يعود أدراجه ببطء دون أن يتأثر أدنى تأثر بصراخ الجندي:

- وأنت، مالك تزعق هكذا؟ لا تريد أن تدعني أدخل؟ طيب، سأنتظر! ما رأينا أحداً يزعق مثلك، لكأنك جنرال!

استقُبلت هذه المزحة بضحك الاستحسان. وكان معظم الزوار من المساكين الذين يرتدون ثياباً زرية؛ وكان بعضهم رث الثياب، لكن كان بينهم من هو آنق لباساً. فبجانب نيكليودوف وقف رجل بسترة رسمية، قد حلق ذقنه بعناية، رجل «سمين» متورّد الوجه، يحمل في يده رزمة ثقيلة كأنها تحتوي على ثياب داخلية. سأله نيكليودوف إن كانت هذه هي المرة الأولى التي يأتي فيها إلى السجن. لا، بل لقد جاء كثيراً؛ كان يأتي كل أحد، وقصّ على نيكليودوف قصته كاملة. إنه

حاجب في مصرف، والسجين الـذي جاء لمقابلته أخوه، وهو محكوم بجرم التزوير.

في اللحظـة التـي همّ فيهـا ذلك الرجـل الطيب أن يسـأل بدوره نيكليـودوف، استرعـى انتباههمـا وصـول عربة أجـرة، خرج منها طالـب شاب وسيـدة في فستان فاتح اللـون. كان الطالب يحمل بيده صـرّة ضخمة. تقـدّم نحـو نيكليـودوف وسألـه إن كان يعتقد أنهم سيسمحـون له بتوزيع هذه الكمية من الخبـز الأبيض الذي في الصرة على السجناءْ وأوضح:

– خطيبتي هي صاحبة هذه الفكرة. هذه الفتاة خطيبتي. وقد أذن لنا أهلها بأن نحمل هذا الخبز إلى السجناء.

أجـاب نيكليودوف وهو يشـير إلى الحارس ذي الشرائط، الجالس أمام سجله:

– هـذه أول مرة آتي فيها إلى هنا، وأنـا أجهل الأصول المتبعة هنا. وأظن من المستحسن أن تتوجه بالسؤال إلى ذلك الحارس.

وفجأة، انفتح باب السجـن الحديدي، وخرج منه ضابط باللباس الرسمي، يصحبه حارس أعلـن، بعد أن بادل رئيسه بعض الكلمات، أن الدخول مسموح للزوار.

تنحّـى الحارس جانباً، وهُرع النـاس إلى الباب، كأنهم يخافون أن يتأخروا.

وقـف وراء الباب حارس كان يعدّ الزوار بصوت عال، كلما مرّوا أمامـه، وعلى خطوات منـه، في صدر الـرواق الأول، وقف حارس آخـر، يلمس بيـده ذراع كل مـن الزوار قبـل أن يجتاز بابـاً صغيراً، ويعدّهـم مرة أخرى، وذلك حتى يتأكد، عنـد خروج الزوار، من أنه لم يبـق في السجن أحد. و لم يخـرج منه أحد، هذا الحارس الذي كان مشغولاً بعد الزوار عن رؤية وجوههم، هزّ بشدة كتف نيكليودوف، أثناء مروره، مما أثار فيه شيئاً من السخط، بالرغم من حسن نيّاته.

كان البـاب الصغـير يُطل على غرفـة واسعة، معقـودة القبّة، فيها قضبـان على النوافـذ. عبر نيكليـودوف الباب بخطىً بطيئـة، تاركاً سيـل الزوار المستعجلين يمر أمامه. كان يحسّ في آن واحد بالاشمئزاز مـن المسيئين المحبوسـين في هذا السجن، مع مزيـج من العطف على الأبرياء، من أمثال متّهم الأمس، وأمثال كاتيوشا، المحبوسين معهم، ومن الإحساس بالخجل والإنفعال حين يتصور اللقاء القريب.

في الطـرف الآخـر من القاعـة الواسعة، كان الحارسـ يقول شيئاً للزوار الذين يمرون أمامه. لكن نيكليودوف كان مستغرقاً في أفكاره، فلـم يسمعه وتابـع سيره خلف الجماعة التي كانـت تمشي أمامه. وإذا بـه يصل إلى القاعة المخصصة لمقابلـة الرجال، بينما كان قصده القاعة المخصصة لمقابلة النساء.

عندمـا دخـل القاعـة، آخر النـاس، دهش قبل كل شـيء من هذه الضوضاء المنبعثة من أصوات عديدة تصرخ في الوقت نفسه. لم يُدرك نيكليـودوف سبب هـذا الضجيج! إلا عندما بلـغ وسط القاعة حيث

وقـف جمهور الزوار أمام شبكة من القضبـان الحديدية، كما تزدحم جماعة من الذباب على قطعة سكر.

كانت القاعة مقسومة إلى نصفين بشبكة مزدوجة نازلة من السقف إلى الأرض. وبين الشبكتين مسافة تُقدَّر بنحو ثلاثة أمتار يتمشّى فيها الجنـود جيئةً وذهابـاً. كان السجناء يقفون في أحـد الجانبين والزوار في الجانب الآخـر، وتفصل بينهما الشبكتان والجنود، بحيث لم يكن مستحيـلاً فقط أن يعطـي الزوار السجناء شيئاً، أيّـاً كان ذلك الشيء، بـل كان مـن الصعب عليهـم أن يروهم وأصعب مـن ذلك التحدث من جماعـة إلى أخرى، إذ كان على المـرء أن يصرخ بكل قواه ليكون مسموعـاً. وبمـا أن كل واحد كان يحرص علـى أن يكون مسموعاً، وأن الأصـوات كان يغطّي بعضها بعضاً، اضطُر كل واحد إلى أن يزيد من صراخه. ومن هنا جاءت هذه الضوضاء التي أذهلت نيكليودوف، وهو يدخل القاعة.

أمـا تمييز ما كان يقال، فذلك ما لم يكـن يخطر على بال. كان من الممكـن فقط، بفضل تعابـير الوجوه، التنبـؤ بالموضوعات التي يدور الحديث حولها، وبالعلاقات القائمة بين السجناء وزوارهم.

علـى مقربة مـن نيكليودوف، وقفـت امرأة عجـوز، على رأسها منديـل وقـد لصقت بحديد الحاجـز، وأخذت تصـرخ بشيء لشاب محكـوم بالأشغال الشاقة، لأن نصف رأسه كان حليقاً، شاب قطّب ما بـين حاجبيه، وبدا عليه أنه يصغي بانتباه زائد. ويأتي بعدها الرجل ذو الثياب الرثة الذي أضحك الناس، قبل قليل، أمام الباب؛ كان يحادث

صديقـــاً، ويلوّح بيديه، ويصرخ ويضحك. ورأى نيكليودوف بجانبه امــرأة نظيفة الملابس، تجلس أرضاً، وتحمل طفلاً على ذراعيها. كانت تبكي وتنتحب، دون أن تقوى على رفع عينيها إلى المحكوم بالأشغال الشاقة الواقــف إزاءها، في الجانب الآخر من الحاجــز، حليق الرأس، مقيّد القدمين.

عندمــا أدرك نيكليودوف أن عليه هو أيضـــاً. أن يحادث كاتيوشا في الشروط نفسها، استــولى عليه حقد على الناس الذين استطاعوا أن يخترعــوا مثل هذا العــذاب وأن يسمحوا به. ودهش حين فكر في أن مؤسســة بهــذه الفظاعة، وإهانة بهذه القسوة لأقدسـ المشاعر، لم تُثر سخط الناس، من قبلــه. واغتاظ حين رأى الجنود والحارس والسجناء أنفسهم يرتاحون إلى هــذه الطريقة في المحادثة، وكأنها شيء طبيعي، لا مناص منه.

ظل نيكليــودوف هكذا بلا حراك، بضع دقائــق، يرهقه إحساس غريــب مــن الحزن العاجــز، إحساس يمتــزج به التقزّز مــن كل شيء، والشعور بضعفه الخاص.

× × ×

-٤٢-

قــال نيكليودوف في نفسه: «ومع ذلــك، يجب أن أفعل ما جئت من أجله! لكن إلى من أتوجه؟

فتّش ببصره عن المشرف علــى القاعة فرآه مختلطاً بالجمهور، رجلاً قصــيراً، ضامراً، يرتدي بزة رسميــة عليها كتفيّتــا الضابط. تقدم منه نيكليودوف وسأله باحترام مُقْتَسَر:

– عفــواً، يا سيدي، أيمكنك أن تدلني علــى قسم النساء، وإلى من أتوجه من أجل مقابلتهن؟

– تريد أن تذهب إلى قاعة مقابلة النساء؟

– نعم. أريد أن أرى امرأة مسجونة هنا.

– لِمَ لم تقــل ذلك قبــل قليل، في القاعــة الأولى، عندما سُئلتَ عن ذلك؟ مَنْ تريد أن ترى؟

– كاترين ماسلوفا.

– سجينة سياسية؟

– لا، هي مجرد...

– هي ماذا؟ متّهمة؟ محكومة؟

أجـاب نيكليودوف بهدوء، وهو يخشـى أن يدمّر، بكلمة مسرفة الحدة، ما لمسه لدى نائب المدير هذا من لطف وإيناس:

– محكومة منذ يومين.

قال نائب المدير:

– سأقودك إلى قاعة النساء.

وإذ رأى، مـن المظهـر الخارجي لنيكليودوف، أنه بـإزاء شخصية جديرة بالاحترام، صاح بحارس مشورب ومغطى بالأوسمة:

– سيدوروف! خذ السيد إلى قاعة مقابلة النساء!

فتـح الحارسـ البـاب، وكان البـاب مغلقـاً بالقفـل، وطلب إلى نيكليودوف أن يخرج إلى الرواق، وعاد به إلى القاعة الواسعة المعقودة القبة، ثم قاده عبر رواق آخر إلى قاعة مقابلة النساء.

كانت هـذه القاعة، كالقاعـة الأخرى، مقسومـة إلى ثلاثة أقسام بشبكتـين من القضبان. ومع أنها أصغر، على نحو محسوس، من قاعة الرجـال، وأن عـدد الزوار أقل، فقـد كان الصراخ يصـم الآذان فيها كمـا كان في قاعة الرجال، وربما أكثر. وبـين الشبكتين، كانت تقف السلطـة، هنـا أيضاً، تمثّلها، هـذه المرة، مشرفة ببزة رسميـة أيضاً، لها شرائط على الكم، وثنايا زرقاء، وزنار من اللون نفسه. وكان الأمر هنا كما كان في القاعة الأخرى، ففي أحد الجانبين كان الزائرون يتشبثون بالشبكة، وهم في ملابس شتّى؛ وفي الجانب الآخر وقفت السجينات،

ومعظمهن في ثيـاب بيضاء، وعلى رؤوسهـن مناديل بيضاء. وكانت الزحمـة في جانـب الرجال من الشدة بحيث أن كثـيراً من النساء كن مضطـرات إلى أن ينتصبن علـى رؤوس أصابعهـن ليصرخن من فوق رؤوس الأشخاص الموجودين أمامها.

عندمـا تعوّد نيكليودوف هذه الجلبة بعض الشيء، استرعى انتباهه وجه غجرية نحيـل وطويل؛ وكانت الغجريـة في وسط الشبكة، من جهة السجينات، توضح أمـراً ما، بحركات سريعة وبصوت صارخ، لزائـر يرتدي سترة زرقاء، غجري هو أيضاً، واقف في الجهة الأخرى. وقرب الرجل، وقـف فلاح شاب ذو لحية شقراء، بدا عليه أنه يحاول جهـده أن يمسك دموعه، وقد اصطبغ بحمرة الخجل. كان يصغي إلى مـا كانت تقوله سجينة جميلة قبالته، وكانت هذه تتأمله بحنان، وهي تتكلّم؛ تتأمله بعينيها الزرقاوين. كان هذان فيدوسيا وزوجها.

تفرّس نيكليودوف في وجـوه السجينات المستندات إلى الشبكة، وجهاً بعد وجه: لم تكن ماسلوفا في عدادهن. لكن نيكليودوف رأى امـرأة واقفة وراء الصف الأمامي، محتجبة به، فقدّر أنها هي. وسرعان ما أحسّ بنفسه يتوقّف، وبخفقات قلبه تتضاعف. لقد أزفت اللحظة الحاسمة.

تقـدّم نحو الشبكة، وأفلح، بعد جهـد، في أن يجد لنفسه مكاناً، وثبّـت نظـرة في ماسلوفـا. كانت تقـف وراء الفلاحـة ذات العينين الزرقاويـن، وبـدا عليها أنهـا تصغي، وهـي تبتسـم، إلى حديثها مع زوجها. كانت ثيابها كلها بيضاء، بدلاً من السترة الرمادية التي كانت

ترتديها أول البارحة. وتحت منديلها ظهرت خصلات شعرها الأسود.

حـدّث نيكليودوف نفسه: «هيـا، يجب أن تتخـذ قرارك! لكن كيف أدعوها؟ ليتها تراني وتأتي إلي!»

لكنهـا لم تدن منه. كانت تنتظر صديقتها كلارا، و لم يخطر لها أن هذا السيد قد جاء من أجلها.

سألته المشرفة التي كانت تتجول بين الشبكتين:

– مَنْ تحبّ أن ترى؟

أجاب نيكليودوف، وهو يُكدّ نفسه:

– كاترين ماسلوفا

فصرخت المشرفة:

– هيه! ماسلوفا! في الزوار مَنْ يسأل عنكِ.

التفتت ماسلوفـا فجأة، ورفعت رأسها، ودنـت من الشبكة، بعد أن انسلت بين سجينتين، بارزة الصدر، بادية التلطّف الذي عرفه فيها نيكليودوف قديمـاً. أخذت تنظر إلى نيكليـودوف بمزيج من الدهشة والاستفهـام. لم تعرفه، لكنها قدّرتهـا، من هيئته، أنه ثري. فابتسمت لـه، وألصقـت بالشبكة عينيهـا الباسمتين اللتـين كان فيهما شيء من الحول. سألت:

– أنت آتٍ من أجلي!

– نعم، أردتُ...

توقّف نيكليودوف، وهو لا يدري إن كان ينبغي أن يخاطبها بضمير الجمع أو بضمير المفرد. فقرّر أن يستخدم ضمير الجمع:

– أردتُ أن أراك... أنا.

صاح بقربه الزائر ذو الثياب الرثة:

– أنت تزعجني بقصصك؟ أأخذته أم لم تأخذه؟

فصرخ صوت من الجانب الآخر:

– مرضها يشتد يوماً بعد يوم! إنها تحتضر!

لم تستطيع ماسلوفا أن تميّز شيئاً مما كان يقوله لها نيكليودوف. لكنها تعرّفته، من تعبير وجهه أثناء كلامه. أو بالأحرى ظنت أنها تعرّفته، لأنها حدّثت نفسها بعد لحظة أنها كانت مخطئة. ومع ذلك فقد اختفت البسمة من شفتيها، وتغضن جبينها بغضون الألم.

صرخت وهي تغمز بعينيها، بينما كان جبينها يزداد تغضناً:

– لا أسمع ما تقوله!

– جئتُ...

وفكّر نيكليودوف:

- نعم، أنا أقوم بواجبي... أنا أكفّر عن ذنبي.

ما إن خطـرت له هذه الخاطرة حتى ملأت الدموع عينيه، وتشنّج حلقـه، وصمت، وأصابعه متشبّثة بقضبان الحديد. أحس أنه سينفجر باكياً عند أول كلمة.

صرخت سجينة من صدر القاعة.

- الحقيقة أنني لا أعلم شيئاً عن ذلك؟

أسبـغ الإنفعال علـى وجه نيكليـودوف تعبيراً سرعـان ما عرفته ماسلوفا. فتلاشت جميع شكوكها.

على أنها رأت من واجبها أن تقول، دون أن ترفع عينيها:

- لستُ واثقة من معرفتك.

وغمرت الحمرة المفاجئة خديها، واكفهرت ملامح وجهها.

صرخ بصوت قوي، لكنه غير معبّر، وكأنه يتلو درساً حفظه:

- جئتُ أسألك الصفح!

استـولى عليه الخجل، ونظـر حوله. لكنه فكّـر في أن هذا الخجل حسن، إذ مـن واجبه أن يُعرّض نفسها لهذا الخجل، على هذا النحو. فصرخ بأعلى صوته:

- اغفري لي! أنا مذنب أفدح الذنب نحوكِ...

كانت تقف خلــف الشبكة، جامدة، لا ترفــع بصرها عنه و لم يقوَ على إنهاء جملته، وغالب نفسه ليحبس عبراته التي كانت تهز صدره.

لم يغــادر القاعة الحارس الذي اصطحبه، ولاشك أنه قد تابع بعينيه تفاصيــل هــذا المشهــد. وعندمــا رأى نيكليودوف يبتعــد عن شبكة الحديــد، تقدّم نحوه وسأله لماذا لا يتابع حديثــه مع المرأة التي جاء من أجلها. امتخط نيكليودوف، وبذل وسعه كي يتمالك نفسه وقال:

– لا سبيل على الكلام عبر هذه الشبكة! لا يسمع أحدٌ أحداً.

فكّر الحارس لحظة، وأردف:

– اسمــعْ، أعتقد، من الممكن، بالنسبة إليك، أن تأتي بالسجينة إلى هنا! لكن انتظر دقيقة فقط!

وصاح بالمشرفة:

– ماريا كارلوفنا! إئتي بماسلوفا إلى هنا.

× × ×

-٤٣-

دخلت ماسلوفا، بعد قليل، من باب جانبي؛ ودنت من نيكليودوف بهدوء، فأخذت تنظر إليه دون أن ترفع رأسها إليه، ومع أن لون وجهها لم يكن يُنبئ بالسلامة، ومع أنه كان متورّماً، فاقداً دمه، إلا أنه كان مايزال يسرّ الناظر، وكان يبدو هادئاً أعظم الهدوء، لكن العينين السوداوين تحت الجفنين المنتفخين، كانتا تلتمعان ببريق لا عهد لنيكليودوف به.

قال الحارس:

- يمكنكما أن تتحدّثا هنا.

وبعد ذلك، ابتعد الحارس بوجهه الرزين.

ذهب نيكليودوف وجلس على مقعد مثبت في الجدار. نظرت ماسلوفا أولاً إلى الحارس نظرة مستفهمة، ثم هزّت كتفيها، كالمندهشة، وعزمت على أن تلحق بنيكليودوف، وجلست بجانبه على المقعد، وهي ترفع تنورتها.

بدأ نيكليودوف كلامه قائلاً:

– أعرف أن من الصعب عليك الصفح عني.

وتوقف، مرة أخرى، كأنه يريد أن يستردّ شجاعته. وتابع:

– لكن إذا كان متعذّراً إصلاح الماضي، فأنا، على الأقل، مصمّم أن أفعل الآن كل ما بوسعي أن أفعله. قولي لي...

سألته دون أن تجيب عن سؤاله، وهي تثبت فيه نظرة عينيها الملتمعتين تارة، وتردّها إلى الأرض تارة أخرى:

– كيف عرفت أنني هنا؟

قال نيكليودوف في نفسه، وقد ذُعر من تعبير وجهها الذي تغيّر واكفهرّ:

«يا إلهي! أعنّي! علّمني ما ينبغي أن أفعله!»

وهمس مجيباً:

– كان ذلك أول البارحة، في محكمة الجنايات، عندما حوكمتِ.. كنتُ محلّفاً... ألم تعرفيني؟

فأجابت:

– لا، على الإطلاق. كيف كان يمكنني أن أعرفك، ثم إنني لم أنظر إلى أحد.

سألها وهو يحس بحمرة الخجل:

– وهكذا، كان هناك ولد؟

فأجابت بإيجاز، وهي كالحة الوجه، وقد حوّلت عينيها:

– مات من فوره، والحمد لله!

– لكن بم مات، وكيف؟

قالت دون أن ترفع بصرها:

– كنتُ، أنا نفسي، مريضة، وأشرفت على الموت.

– وهل طردتكِ عمّتاي؟

– وهل يحتفظ الناس بخادمة على وشك الوضع؟ ما إن شاهدتا أنني حامل حتى صرفتاني... لكن ما جدوى الكلام على ذلك كله؟ لم أعدْ أذكر شيئاً، نسيتُ كل شيء! كل ذلك قد انتهى.

– لا، إن ذلك لم ينته. لا أقبل أن ينتهي ذلك! أريد أن أكفّر عن خطيئتي.

– ليس هناك ما يُكفّر عنه: قد كان ما كان، وكل ذلك من الماضي.

ردّدت هذه الكلمة، وهي ترفع فجأة عينيها على نيكليودوف، وتبتسم ابتسامة متحدّية، مثيرة للشفقة.

لم تكن ماسلوفا تتوقع أن تلقى نيكليودوف أبداً، ولاسيما في هذه اللحظة، وفي هذا المكان. ومن هنا جاء أن منظره قد جرحها، في بادئ الأمر، وأعـاد إلى ذاكرتها أموراً كانت عازمة على ألا تفكّر فيها أبداً. تذكّـرت، وهي تراه مـرة أخرى، ذلك العـالم العجيب من العواطف والأحلام الذي كشفه لها قديماً حبّها الأول؛ تذكّرت كيف أحبّها هذا الرجل، وكيف أحبّته، وتذكرت أيضاً قسوة هجرانه، وتلك السلسلة الطويلـة من المـذلات والآلام التي تلت لحظات السعـادة تلك. آلمتها هـذه الذكريـات جميعاً. لكنهـا لم تقوَ على الوقـوف طويلاً عندها، فلجـأت مرة أخرى، إلى طريقتها المعتـادة: لقد كبتت هذه الذكريات المؤلمة في ظلمات حياتها الفاسدة. عندما رأت نيكليودوف، وحّدت، في البدايـة، بينه وبين الشاب الذي أحبته قديمـاً. فلما شقّ عليها ذلك التوحيد، عدلت عنه، بعد لحظة. ومنذ هذه اللحظة، لم يعد هذا السيد الأنيق اللباس، بلحيته الجميلة، الحسنة الشكل، في نظرها، سوى أحد أولئـك «الزبونات» الذين يستخدمون مخلوقات مثلهـا إذا ما أحسّوا بالحاجة إليهن، والذين يجب عليهن أن تستخدمنّهم جهد المستطاع. ومن هنا جاءت ابتسامة التحـدي التي ابتسمتها. كانت صامتة تفكر في الطريقة التي يمكنها بها أن تستغله إلى أبعد غاية فأردفت:

- تلك قصة انتهت. وها أنذا قد حُكم علي بالأشغال الشاقة!

ارتعشت شفتاه وهي تلفظ هذه الكلمات الرهيبة.

فهتف نيكليودوف:

- كنتُ أعلم، أنك غير مذنبة، كنتُ على يقين من ذلك.

– بالتأكيد، أنا بريئة، أنا، سارقة أو قاتلة؟ يُقال إن كل شيء يتوقف علـى المحامي. وإننـي يجب أن أقدم طعناً. لكن يقـال إن هذا يكلّف غالياً...

فرد نيكليودوف:

– نعم، لاشك. وقد استشرت محامياً.

– لكن ينبغي أن يكون محامياً مقتدراً.. محامياً يكلف كثيراً...

– سأفعل كل ما هو ممكن.

ســاد الصمــت، مرة أخــرى، ثــم ابتسمــت ابتسامــة أخرى من ابتساماتها، وهي تُتمتم فجأة:

– أود أن أسألــك... شيئاً من المــال، إن كان ذلك لا يضايقك. لا أريــد كثيراً... عشرة روبلات! بشرط ألا يضايقك ذلك. لا أحتاج إلى أكثر من عشرة روبلات!

أجاب نيكليودوف مرتبكاً، وهو يخرج محفظته:

– بالتأكيد، بالتأكيد...

ألقــت ماسلوفا نظرة خاطفة على الحارس الذي كان يتجول ذهاباً وإياباً في صدر القاعة.

– انتظر حتى يدير ظهره، وإلا أخذوا مني المال!

تناول نيكليودوف من محفظته ورقة بعشرة روبلات، لكن الحارس استدار في اللحظة التي كان سيناولها إياها فيها. فخبأ الورقة في راحة يده.

فكّر نيكليودوف وهو يتأمل ذلك الوجه الشاحب والمنتفخ الذي كان يترصد تباعاً حركات الحارس وحركات اليد التي تمسك الروبلات العشرة:

«إنما هذه امرأة ضائعة!» وخامره اليأس لحظة: ذلك أن المُغوي الذي كلّمه في ليلة أول البارحة، رفع صوته فيه، مرة أخرى. كان يسعى إلى صرفه عن التفكير في واجبه، مظهراً له العواقب.

كان ذلك الصوت يقول: لن تصلح هذه المرأة لشيء بعد الآن! لن تنجح إلا في أن تُعلّق حجراً بعنقك سيغرقك وسيمنعك من نفع الآخرين! أعطها المال، ذاك الشيء حسن! كل ما في محفظتك من مال! ثم ودّعها وانتهِ منها!».

لكن نيكليودوف ما لبث أن أحسّ، في هذه الدقيقة ذاتها، أن أزمة حاسمة تتم فيه، وأن نفسه تقع فيما يشبه مفترق طريقين. وإذا اختارت أحدهما، فلن تستطيع أن تعود أبداً إلى الآخر. في هذه اللحظة ذاتها، كان عليه أن يبذل المجهود الذي ستتوقف عليه حياته كلها. هذا المجهود قد أدّاه بعد أن استعان بالله الذي أحسّ إحساساً شديد الوضوح بحضوره في قلبه، ليلة أول البارحة.

صمّم أن يقول كل شيء لماسلوفا، في الحال.

فهتف، مخاطباً إياها بضمير المفرد فجأة:

– كاتيوشـا! جئتُ إليك أطلب صفحك! و لم تجيبيني، لم تقولي لي إن كنتِ صفحتِ، وإن كنتِ عازمة ألا تصفحي أبداً!

لم تكـن تصغي إليه، وظلّـت تراقب الروبلات العشـرة والحارس تباعـاً. وفي اللحظـة التي انقلب فيهـا الحارس راجعاً، مـدّت يدها، واختفت الورقة، بحركة سريعة، وخبّأتها في زنارها.

وأردفت بابتسامة بدت لنيكليودوف كأنها تنمّ على الاحتقار:

– غريب ما تقوله!

خُيِّـل إليـه أن تحت هـذه الإبتسامة نوعـاً من العداء يمنـع كاتيوشا أن تظهـر له على نحو آخـر، ويمنعه هو من التأثير فيهـا. لكنه لم يكن يُعرض عنهـا، دون أن يدري كيف. كان يحسّ أن من واجبه إيقاظ هـذه النفس، بالرغم من كل شـيء. كانت المهمة بالغة الصعوبة، لكن هذه الصعوبة زادت المهمة إغراءً. كان يحسب إزاء ماسلوفا بشعور لم يخالجه مـن قبل؛ لم يكن يرغب في شيء لنفسـه، وكان كل مبتغاه أن تكفَّ عن أن تكون كما تبدو الآن، لتعود كما كانت من قبل.

– كاتيوشـا، لمَ تكلمينـني هكـذا؟ أنـت تعلمين مع ذلـك، أنني أعرفك؛ إني أذكر كيف كنتِ قديماً، في بانوفا...

فثارت بجفاف:

– ما الفائدة من استذكار الماضي؟

فأكد نيكليودوف:

– إنما أستذكر ذلك كله لأُصلح خطيئتي، لأكفر عنها!

أوشك أن يقول لها إنه مستعد للزواج بها، لكنه التفت إلى عينيها، فقرأ في نظرتها شيئاً دنيئاً جداً، منفّراً جداً، فلم يقوَ على متابعة كلامه.

أخذ الزوار يخرجون. دنا الحارس من نيكليودوف وقال له إن الوقت قد حان لإنهاء الحديث. نهضت ماسلوفا منتظرة بخضوع أن يُسمح لها بالذهاب.

قال نيكليودوف وهو يمد إليها يده:

– إلى اللقاء، مايزال عندي أشياء كثيرة أود أن أقولها لك. لكن ذلك مستحيل، في الوقت الحاضر، كما ترين، وسأعود.

– يبدو لي أنك قلتَ كل شيء...

فرد نيكليودوف:

– لا، سأتدبر الأمر لألقاك في مكان أستطيع أن أكلمك فيه، وحينئذ سأقول لك شيئاً عظيم الأهمية.

فقالت وهي تبتسم بالطريقة التي اعتادت فيها أن تبتسم للرجال الذين تبغي أن تفتنهم:

– طيّب، عُد.

وقال نيكليودوف أيضاً:

- أنت أقرب إلي من أختي!

فقالت، وهي تهزّ رأسها قبل أن تمر إلى ما وراء الشبكة الحديدية:

- ما أغرب ذلك!

× × ×

-٤٤-

تصــوَّر نيكليودوف أن كاتيوشا، إذا رأتـه واكتشفت ندامته ونيته في مــد يد العون إليها، ابتهجت ورقّــت وعادت، في الحال، كاتيوشا القديمة.لكنــه شاهــد أن كاتيوشــا لم تعد موجــودة، وأن ماسلوفا هي وحدهــا الموجودة منــذ الآن. وهــذه المشاهدة ملأتـه بالدهشة. وما أدهشــه بخاصــة أن كاتيوشا لم تكن خجلة مــن وضعها. من وضعها كبغيّ، بالطبع، لأنها كانت تشعر بخجل ظاهر من وضعها كسجينة. أما وضعها كبغي، فكانت تبدو راضية عنه، فخورة به.

والواقع أنه لم يكن في ذلك ما يدهش. فنحن جميعاً، بما نحن عليه، نحتــاج، لكي نحسن العمــل، إلى اعتبار نمط نشاطنــا مهماً وجميلاً؛ وينتــج عن ذلــك أن الوضــع الذي يكون فيــه الكائــن الإنساني قليل الأهميــة، فهو يشكل لنفسه بالضــرورة تصوراً عن الحياة يبدو فيه نمط نشاطــه رفيع القيمة والمنزلة. نحن نتصور بسهولة أن السارق والخائن والقاتــل والبغي يخجلون مــن المهنة التي يحترفونهــا، أو على الأقل، يعدّونهــا خسيسة. ولا أثر لذلك، في الواقــع. فالناس الذي وضعتهم أقدارهــم أو أخطاؤهم في وضع محــدد، مهما يكن ذلك الوضع منافياً

للأخلاق، يتدبرون أمورهم ليكوّنوا لأنفسهم تصوّراً عاماً عن الحياة يمكن أن يبدو فيه وضعهم الخاص شرعياً ورفيعاً. ولكي يثبّتوا في أنفسهم هذا الشذوذ، يستندون غريزياً إلى أناس آخرين في وضعهم نفسه وقد تصوروا بالطريقة نفسها الحياة، على العموم، وموقعهم في هذه الحياة، على الخصوص.

وإننا لندهش حين نرى لصوصاً يفخرون بمهارتهم، وبغايا بفجورهن، وقتلة بوحشيتهم. لكننا لا ندهش منهم إلا لأن نوع هؤلاء الأفراد محدود جداً، ولأن محيطهم وجوّهم خارج محيطنا وجوّنا. فنحن لا ندهش، مثلاً، حين نرى الأغنياء يتباهون بثرواتهم، أي بسرقتهم أو بإخفاء مسروقاتهم، أو حين نرى الأقوياء يعتزّون بقوتهم، أي بعنفهم ووحشيتهم. ونحن لا نفطن للطريقة التي يشوّه ويُفسد هؤلاء الأشخاص تصوّرهم الطبيعي للحياة والأخلاق، لكي يبرّروا أنفسهم، لا نفطن لذلك كله لأن عددهم كبير، ولأننا نحن جزء منهم.

لقد كوّنت ماسلوفا لنفسها تصوراً من هذا النوع عن الحياة على العموم، وعن دورها هي على الخصوص. كانت بغياً في أدنى الدرجات، محكومة بالأشغال الشاقة، ومع ذلك فلم تكن تتوانى عن تبرير سلوكها، وحتى عن الافتخار بوضعها أمام الآخرين. كان ذلك التصور يرتكز على هذه الفكرة هي أن سعادة الرجال الرئيسية، بدون استثناء، الشيوخ و الشباب، الأغنياء والفقراء، المتعلمين والأميين تقوم على امتلاك المرأة جسدياً، كانت تسلّم كشيء مؤكد أن جميع الرجال ليس لهم سوى هذه الفكرة في رؤوسهم، وإن زعموا أن لهم اهتمامات أخرى. وإذ كانت تعلم أنها امرأة جذابة، بوسعها

أن تُشبع أو لا تشبـع، بحسب مشيئتها، شهواتِ الرجال، فقد كانت تعتبر نفسها في الوقت نفســه، شخصية مهمة وضرورية. كذلك كان تصورها للوجود. وكان تجربتها الشخصية، الماضية والحاضرة، كانت مصداقاً لذلك التصور.

فمنـذ عشر سنـوات، وحيثما كانت، رأت الرجـال تملؤهم شهوة امتلاكها. وربما مـر في طريقها رجال لم يشعروا بهذه الشهوة، لكنها لم تنتبـه لوجودهم. وهكـذا كان العالم كله يبدو لهـا كمجموعة من الذكور مشغوفـين بجسدها، لا يتعبون من اشتهائه، ويبذلون وسعهم لامتلاكه، بكل وسيلة، أيـاً كانت، بالإغراء والعنف والحيلة، أو بالمال ثمناً.

كانـت ماسلوفا متعلّقـة بهذا التصـور تعلقاً شديـداً ولاسيما أنها كانـت تشعـر جيداً أنهـا إذا فقدته فقـدت أمام نفسهـا الأهمية التي تعزوها إلى نفسها. ومن ثم فقد كانت شديدة التعلق بالذين يتصوّرون الحياة بالطريقة نفسهـا. ومن هنا جاء حرصها على أن تطرد من قلبها ذكريات شبابها الأول التي لا تنسجم مع هذا التصور للحياة. ولاشك أنهـا لم تُفلح في طرد هذه الذكريات طرداً كاملاً، لكنها بذلت أقصى جهدها لتسـدّ عليها المنافذ، في زاوية قلبها التـي كبتتها فيها. وهكذا يسـد النحل مدخـل أعشاش بعض الحشـرات التي قد تأتـي لتدمير خليتها. ولذلك أبت أن ترى في نيكليودوف الذي لقيته، ذلك الرجل الذي أحبته فيما مضـى، حباً طاهراً وعفيفاً. لم تشأ أن ترى فيه سوى «زبـون» غني، سوى رجل من حقها ومن واجبها أن تستغلّه، وعليها أن تقيم معه علاقات من النوع الذي تقيمه مع الآخرين.

حدّث نيكليودوف نفسه، وهو يخرج من قاعة المقابلة مع جمهور الزوار: «لا، لم أستطع أن أقول لها الشيء الأساسي، لكنني سأقول لها كل شيء، في المرة القادمة.

في القاعة الكبرى، كان الحراس يحصون المارة، مرة أخرى، حتى لا يخرج سجين ولا يبقى زائر في السجن. ومرة أخرى، تخاشن أحد الحراس على نيكليودوف فلطمه على كتفه. لكنه لم ينتبه لذلك...

× × ×

-٤٥-

كان نيكليودوف قد انتوى تغيير نمط حياته. كان قد عزم على أن يؤجر مسكنه الواسع، وأن يصرف خدمه، وأن يذهب ليعيش في غرفة مؤثثة كأحد الطلاب. لكن أغرافينا بيتروفنا برهنت له أن من الجنون تغيير نمط حياته، قبل الشتاء. فلن يعمَد أحد في الصيف، إلى استئجار المنزل، ولا إلى شراء الأثاث الذي يجب إيداعه في مكان ما حتى حلول فصل الشتاء. وهكذا فإن جهود نيكليودوف حول هذه النقطة وقراراته الجميلة ذهبت سدىً.

ظل كل شيء، في البيت، إذن يسير سيرته الأولى. وأقبل الخدم على الأثاث والفراء والملابس وفرش الأسرة يفكونها ويحصونها وينفّضون الغبار عنها، وهو عمل اشترك فيه البواب ومساعده والطاهية وكورني. رآهم نيكليودوف يخرجون من الخزن ثم يعلّقون على الحبال كميات من الألبسة، ومن بناطيل البزات الرسمية، ومن معاطف الفراء، كميات لن يستخدمها أحد بعد الآن. رآهم يحلون السجاد، وينقلون الأثاث من غرفة إلى أخرى. اضطر أن يحضر ما لا يحصى من التنظيفات وأن يتحمل رائحة النفتالين التي انتشرت في جميع الغرف. ودهش إذ

اكتشف هذه الكميــة الهائلة من الأشياء التي لا نفع فيها والتي مايزال يحتفظ بها. وحــدّث نفسه: «علة وجود ذلك كله، والغرض الوحيد منه هو إتاحة الفرصة لأغرافينــا بيتروفنا والبواب ومساعده والطاهية لكي يقتلوا وقتهم!».

واختتم حديثه لنفسه: «الحقيقة أني لا أستطيع التفكير في تغيير نمط حياتــي ما لم يتحدد مصير ماسلوفا. كل شــيء سيتوقف على مصيرها حسبما تُعاد إليها حريتها أو تُنفى إلى سيبيريا. وفي هذه الحالة سأذهب معها.

توجّــه نيكليودوف، في اليوم المحــدد، إلى منزل المحامي فانارين. كانت هذه الشخصية تسكن منزلاً فسيحاً وفخماً، تزيّنه نباتات نادرة، وعلــى نوافذه ستائــر بديعة، وفيــه أثاث باهظ الثمــن، ينم على ذوق فاســد، ولا يــرى مثله إلا في بيوت الذين أثــروا بسرعة مفرطة، بدون جهــد، وبوسائل حقيرة. وجــد نيكليودوف في قاعــة الانتظار نحو عشرة مراجعين ينتظــرون دورهم، كأنهم عند طبيــب الأسنان، وهم جالسون بكآبة حــول طاولة، مكرهين علــى مطالعة بعض الصحف القديمة المصوّرة، طلباً لشيء من التسلية. لكن أمين سر المحامي، الذي كان يجلــس في صدر الغرفة، أمام مكتب مهيب، عرف نيكليودوف على الفور، وسار نحوه، وقال له أنه سيخبر رئيسه بوصول الأمير.

في اللحظة نفسها، فُتح باب مكتب فانارين، وخرج منه المحامي، وهو يواصل نقاشاً حاداً، كأشد ما تكون الحدة، مع شاب ربعة، أحمر الوجــه، يرتدي بذلــة جميلة وجديدة وقد عــبرت قسمات وجهيهما

ذلك التعبير الخاص الذي نراه على وجوه الناس عندما ينتهون من عقد صفقة مربحة. صفقة غير نظيفة تماماً، لكنها مربحة تماماً.

كان فانارين يقول:

– هذه غلطتك، يا سيدي العزيز.

– أنا في شوق إلى السماء، لكن خطاياي تأبى أن تُفلتني!

– حلوة، حلوة، هذا معروف!

وأخذا يضحكان ضحكاً زائف الرنين.

هتف فانارين وهو يلمح نيكليودوف:

– آه! يا أمير، تفضل بالدخول.

وأدخله، على الفور، مكتبه الذي كان، على عكس قاعة الانتظار، بسيطاً في زينته.

تابع المحامي كلامه وهو يجلس في مواجهة نيكليودوف، ويسعى جهده ليخفي الإبتسامة التي ابتعثتها فيه فكرة الصفقة المربحة التي عقدها قبل حين:

– لا تُزعج نفسك، أرجوك، دخّنْ على هواك.

أجاب نيكليودوف:

– شكراً! جئتُ من أجل دعوى ماسلوفا...

– نعــم، نعم، بالطبع! آه! لكــن ما أنذل هؤلاء الأثرياء! أرأيت هذا الرجل الشديد الذي خرج قبل قليل؟ تصور أنه يملك اثني عشر مليوناً، ولو استطاع أن يستخلص منك ورقة بخمسة وعشرين روبلاً لانتزعها منك بأسنانه بدلاً من أن يتركها لك.

ألقــى المحامي هذا الــكلام بلهجة أليفــة وممتعة ليشــير إلى أنه هو ونيكليــودوف من رأي واحد. بينما لا جامع يجمعه بالزائر، السابق، ولا بهؤلاء الذين يقاسون البرد انتظاراً له في القاعة.

وأردف فانارين ليعتذر عن استطراده:

– عفواً، لكن هذا الحيوان قد ضايقني حقاً! كنت بحاجة إلى قليل من البوح. ولننتقل الآن إلى قضيتنا. لقد درست الإضبارة بعناية. كان ذلــك المحامي الخامــل، اللعــين دون القضية! فأضاع جميــع أسباب النقض.

– إذن ماذا قررت؟

– سأعود إليك بعد دقيقة.

وأعلن لأمين سره الذي دخل عليه وسلّمه بطاقة:

– أخبره أن الأمر كما قلت له! وإذا كان يملك الوسائل فهذا حسن. وإلا فلن أحرّك ساكناً!

– لكنـــه يزعـم أنـــه لا يستطيع أن يرضى بشروطك، يـــا أستاذ. فرد فانارين:

– إذن، لن أحرك ساكناً!

وغــدا وجهه، في لحظة من الزمن، متجهّمــاً وعدوانياً بعد أن كان فرحاً ولطيفاً.

واستأنــف وهــو يلتفــت إلى نيكليــودوف وعلى وجهــه ابتسامة ملاطفة:

– يُقــال إن المحامــين يربحون المــال دون أن يفعلــوا شيئاً. تصور أنني توصلت علــى تخليص دائن لئيم من دعوى كان سيخسرها على الأرجح. وإذا بكل أمثاله يتّجهون إلي! ليتك تعلم مدى العذاب الذي يسبّبــه لي ذلك. ومــع ذلك. فلابد لي من كسب مــا يُقيم الأود! لكن لنعــد إلى قضيتــك أو بالأحرى إلى القضية التــي تهمك. لقد عولجت كما قلــت لك، أسوأ معالجــة. فلم أجد أسباباً موجبــة للنقض. لكنني سأحــاول العثور على مثل هذه الأسبــاب. دونك مسودة النقض التي أعددتها لك.

وتنــاول عن الطاولــة ورقة وأخــذ يقرأ عاليــاً، مــاراً بسرعة على العبارات القانونية المألوفة، مشدداً، بالعكس على مقاطع أخرى:

«الطعــن أمام محكمة التمييــز الجنائية لمجلس الشيــوخ، الخ. على حكــم محكمــة الجنايات، الــخ، القاضي بالحكــم على المــرأة كاترين ماسلوفــا بعقوبــة، الخ، الأشغــال الشاقة بجريمة القتــل المرتكبة بحق الشخص، الخ. بمقتضى المادة ١٤٥٤ من قانون الجزاء، الخ».

هنــا توقّف المحامي ورفع عينيه إلى نيكليــودوف ولاشك أنه كان يطرب لسماع هذا المستند الجميل الذي أبدعه، بالرغم من ألفته لهذه الأشياء.

واستأنــف القراءة: «ويبدو لنــا أن هذا الحكم قــد سبقته مخالفات قانونيــة لأصول المحاكمــة، وأخطاء فادحة لا يجــوز التغاضي عنها. أولاً: إن تلاوة محضر تشريح جثــة التاجر سميكلوف قوطعت من قبل الرئيس قبل النهاية.

فهتف نيكليودوف مدهوشاً:

– لكن النيابة العامة هي التي طلبت هذه التلاوة!

– أوه، لا أهميــة لذلــك! يستطيع الدفاع أيضــاً أن يستند إلى هذه الوثيقة.

– هذه الوثيقة لا يمكن أن يستخدمها أحد.

– مهما تكن فهي سبب موجب للتمييز! ولنتابع: ثانياً قوطع محامي الدفــاع عن المرأة ماسلوفا من قبل رئيســ المحكمة، عندما أراد محامي الدفــاع أن يوضح سمات شخصية المتهمــة في مرافعته، فأخذ يعرض الأسباب الصميمــة لسقوطها وهو ما أعلن الرئيس عنه أنه خارج عن القضيــة. مع أن التحديــد البسيكولوجي للطبــع ذو أهمية عظيمة في القضايا الجنائية، لتقدير درجة الإجرام. كما أثبت ذلك مجلس الشيوخ حديثاً. هذا ثانياً.

قال المحامي ذلك وهو يرفع عينيه مرة أخرى، على نيكليودوف.

فلاحظ نيكليودوف:

– ذلك المحامي أساء التعبير فلم نفهم شيئاً مما قال.

– أُقدّر ذلك! فهو غبي صغير ليس بوسعه أن يقول غير الحماقات. لكننا يمكن أن نجدها هنا سبباً للتمييز. والآن استمع إلى التتمة:

«ثالثاً: إن الرئيس، في تلخيصه، لم يوضح للمحلفين، خلافاً للمادة ٨٠١، الفقرة الأولى. من أصول المحاكمات الجنائية، أن بوسعهم أن يعلنوا أن المرأة ماسلوفا لم تنوِ قتل التاجر سميلكون وهي تسكب له السم. ومن هنا أمكن أن يجيء حكم المحلفين بينما لو نبههم الرئيس إلى إمكان مثل هذا التقييد، لعولج الفعل الذي ارتكبته المرأة ماسلوفا، على الأرجح، وكأنه قتل عن طريق السهو لا عن طريق العمد». هذا مهم جداً.

– لكن كان باستطاعتنا أن نفهم، نحن، ذلك، دون أن يوضح لنا الرئيس ذلك! نحن وحدنا مسؤولون عن الخطأ المرتكب!

«وأخيراً، ورابعاً. لقد حُرِّر جواب المحلفين بشكل يتضمن تناقضاً. ذلك أن المحلفين سلّموا بأن المرأة ماسلوفا غير مذنبة باغتصاب أموال التاجر، بينما اعتبروها، من جهة أخرى، مذنبة بدس السم له. ومن هنا ينتج أن المتهمة، في تصوّر المحلفين، قد قتلت التاجر سميلكوف، دون نية القتل، لأن الرغبة في السرقة هي التي يمكنها وحدها أن تفسّر مثل هذه النية عندها. وعليه فإن جواب المحلفين هذا يقع تحت طائلة

المادتين ٨٠٨ و٨١٦ من أصول المحاكمات. وكان يتعين على الرئيس أن ينبه المحلفين إلى الخطأ المرتكب وأن يردهم إلى قاعة المداولات ليحصل منهم على جواب جديد».

– لكن لِمَ لم يفعل الرئيس ذلك؟

فأجاب فانارين ممزاحاً:

– آه! هذا من شأنه، مثلاً!

– أتظن أن مجلس الشيوخ سيتدارك الخطأ؟

– هذا يتوقف على الشيوخ الذين سيقع بين أيديهم الالتماس. لكنه استمع إلى الطلبات الختامية.

وقرأ المحامي لنيكليودوف أيضاً مقطعاً طويلاً يطلب فيه، بالاستناد إلى مواد كثيرة في القانون وإلى سوابق شتّى، نقض الحكم وإرسال القضية إلى محكمة جديدة.

وقال المحامي منهياً كلامه:

– هذا هو الالتماس! لقد فعلتُ كل ما يمكن فعله. لكن يجب أن أقول لك فكرتي بصراحة: فرصُنا في النّجاح قليلة، فكلّ شيء يتوقّف على أعضاء مجلس الشيوخ الذين سيعقدون جلستهم في محكمة التمييز. وإذا كنت تملك الوسيلة فاسعَ إلى التعجيل بالقضية من هذه الجهة.

– نعم، إن لي بعض المعارف في مجلس الشيوخ.

– أسرع إذن، لأن هؤلاء القضاة المحترمين لن يلبثوا أن يذهبوا لعلاج بواسيرهم، وحينئذ سيتعيّن عليك الانتظار ثلاثة أشهر... وفي حالة الفشل فإن أمامنا فرصة طلب العفو. وهنا يتوقف حقاً كل شيء على العمل وراء الستار! ولا حاجة بي إلى القول: إنني مستعد لخدمتك، في هذه الحالة أيضاً، سواء أكان ذلك بالمناورة وراء الستار أم في تحرير التماس العفو.

– أشكرك غاية الشكر... وبالنسبة إلى الأجور...

– سيسلمك أمين سري صورة عن الطلب مع جميع التعليمات عن الخطوات الواجب اتباعها.

– هناك أيضاً شيء أحب أن أسألك عنه. أعطاني النائب العام إذناً مكتوباً لرؤية المحكومة في سجنها. لكني أرغب في الحديث معها خارج أيام الزيارة، وفي مكان آخر غير قاعة المقابلات العامة. فإلى من أتوجه للحصول على الترخيص؟

– إلى الحاكم. لكنه غائب في الوقت الحاضر، ونائب الحاكم هو الذي يقوم مقامه. وهو أبله لا نظير له في البلاهة، وأنا أشك في إمكان حصولك على شيء منه!

وأعلن نيكليودوف، وهو ينهض ليستأذن:

– ماسلينيكوف، أليس كذلك؟ إني أعرفه!

في اللحظة نفسها، دخلت الغرفة كالعاصفة، امرأة قصيرة بالغة

البشاعة صفراء الوجه، معروقة العظام، فطساء الأنف. كانت هذه زوجة فانارين. لم تيأس بسبب قبحها، ولم تتوان عن ارتداء أفخم الملابس. كانت مغطاة بالحرير والمخمل والدنتيلا، وكان شعرها ملفوفاً بطريقة مسرفة التصنع. اندفعت إلى المكتب، يتبعها رجل نحيل، لونه بلون التراب، يرتدي معطفاً رسمياً ثناياه من الحرير. كان هذا كاتباً. وكان نيكليودوف يعرفه بالوجه.

صاحت السيدة بزوجها:

– أناتول! ها هو ذا سيميون ايفاتوفتش! وعدني أن يتلو علينا أشعاره، ويجب حتماً أن تقرأ لنا بحثك عن غارشين(١٤). سننتظرك في قاعة الاستقبال الصغرى.

أراد نيكليودوف أن يستأذن، لكن السيدة التفتت إليه وقالت بغنج:

– الأمير نيكليودوف، أليس كذلك؟ أعرفك من سمعتك. أسْعدْنا بحضور هذه الصبيحة الأدبية! سيكون ذلك ممتعاً! فأناتول يتقن التلاوة.

قال له أناتول وهو يبتسم مشيراً إلى زوجته بحركة تعني أنه لا يجوز له أن يرفض شيئاً لشخص في مثل هذه الفتنة.

– أنت ترى مدى تنوّع مشاغلي!

لكن نيكليودوف شكر السيدة فانارين، بأدب جمّ، وإن كان هذا

---

١٤. غارشين ١٨٥٥ –١٨٨٨ كاتب عليل انتحر شاباً، في نوبة جنون.

الأدب نابعــاً عن وجه فيــه شيء من البرودة، على الدعــوة التي شرّفته بها، وقال إنه لا يستطيع، مع عظيم أسفه، أن يقبل الدعوة.

وما إن خرج حتى علّقت السيدة قائلة:

– يا له من منافق!

في غرفة الانتظار، سلّم أمين السر إلى نيكليودوف صورة عن الطعن بالنقض. وعندما سأله الأمير عن الأجور، أجاب بأن أناتول بيتروفتش حدّدها بألف روبل. وسارع فأضاف، على سبيل التوضيح، أن أناتول بيتروفتشــ لا يقبل أبداً الاضطــلاع بقضايا من هذا النوع وأنه لم يقبل الاضطلاع بها إلا إكراماً له.

سأله نيكليودوف:

– ومن الذي ينبغي له أن يوقع هذا الطلب؟

– المتهمــة، إن كانــت قــادرة على ذلــك، وإلا وقّع عنهــا أناتول بيتروفتش.

هتف نيكليودوف، وقد أسعده أن يجد عذراً لزيارتها، منذ صباح اليوم التالي، وذلك ليبرر سلوكه مرة أخرى أمام كاتيوشا:

لا، سآخذ الطلب إلى السجينة، وسأطلب إليها أن توقّع عليه.

× × ×

-٤٦-

دوّت صفـارات الحراسـ، في أروقة السجـن، في الساعة المعتادة انفتحـت أبواب القاعات الحديدية، وتعـالى ضجيج الخُطا، وامتلأت الأروقـة بنتن الأحواضـ المحمولـة إلى المجارير. وارتـدى السجناء والسيجينات ملابسهم، واستُعرْضوا، ثم جلسوا على أسرتهم ليشربوا شايهم.

في جميـع الغرف، نشطت المحادثات نشاطـاً خاصاً، هذا اليوم: كانـت تدور علـى حدث اليـوم، على الجَلـد الذي سينـال اثنين من السجناء.

كان أحـد السجينين شاباً ذكياً ومتعلماً، يُدعى فاسيلييف، محكوماً بتهمـة قتل عشيقته في فَورة غيرته. كان جميع رفاقه في غرفته يحبّونه لمرحـه وسخائه، ولطريقتـه في معارضة السجّانـين، لأنه كان يعرف النظـم معرفـة عميقـة ولا يقبـل أن يتجاوزها أحـد. ولذلك لم يكن الحراس والمشرفون يطيقونه.

وقبـل ثلاثة أسابيع، ضـرب حارس سجيناً كـبّ الحساء على بزته

الجديـدة، أثناء مـروره، فتدخـل فاسيلييف، مـن أجل رفيقـه، قائلاً إن النظـام يمنع ضـرب السجناء. فـردّ عليه الحارس: «أنـا، سأعلمك النظـام». وأخذ يشتم فاسيلييف. فجاوبـه فاسيلييف باللهجة نفسها. وأراد الحارسـ أن يضربه، لكن فاسيلييف أمسك بيديه الاثنتين قبل أن يدفعه إلى خارج القاعة. اشتكى الحارس، فحكم المدير على فاسيلييف بالحبس الإنفرادي.

كانت الحبوسـ الإنفرادية عبارة عن صف من الزنزانات السوداء، المغلقة مـن الخارج بقفل مزدوج. لم يكن في هـذه الزنزانات المظلمة والبـاردة، سرير ولا طاولـة ولا كرسي، بحيث يتحتـم على السجين أن يجلسـ وينام على الأرض القذرة. ومن حولـه، بل وعليه، كانت تتراكضـ الفئران التـي بلغت كثرتهـا وجرأتها حداً يتعـذّر معه على السجين أن يحتفظ بقطعة الخبز دون أن تخطفها منه.

أعلن فاسيلييف أنه لن يذهب إلى الحبس الإنفرادي لأنه غير مذنب. فاقتيـد بالقوة. وتخبّط بين أيدي الحراسـ وعاونه اثنان من رفاقه على الإفـلات منهم. حينذاك طلـب الحرّاس التعزيـزات واستدعوا، على الخصوصـ، شخصاً مشهـوراً بقوتـه، يُدعى بيـتروف. وقُبض على العُصـاة الثلاثـة ووضعوا في الحبس الإنفـرادي... وفي التقرير الذي قُـدم على الفور للحاكـم، عُرضتْ القضية وكأنهـا بداية تمرّد.. ورداً على ذلك، صدر أمر من قصر الحاكم، يحكم على المذنبين الأساسيين، فاسيلييـف ومشرّد اسمـه «نيبونياك» بثلاثين جلـدة، على أن يجري الجلد، في هذا الصباح، وفي قاعة مقابلة النساء.

كان السجن كله على علم بالنبأ، منذ عشية البارحة. و لم يكن للقاعات من حديث، سوى هذا الحديث. كانت كورابليوفا والحسناء وفيدوسيا وماسلوفا جالسات، في ركنهن المفضل، يثرثرن، وقد احمرت وجوههن جميعاً وانتعشْن.بما شربنه من الخمر التي لم تكف عن التدفق عليهن، بفضل نقود ماسلوفا...

كانت كورابليوفا تحتجّ وهي تُعضعض بأسنانها الصلبة قطعة من السكر:

– وكأنه قد تمرّد! كل ما فعله أنه دافع عن رفيقه! ليس لهم الحق، اليوم، أن يضربوا السجناء، من أجل ذلك!

أضافت فيدوسيا وهي تتابع مراقبة غلاّية الشاي:

– يُقال إنه شاب وباسل جداً.

قالت حارسة السكة الحديدية لماسلوفا:

– ينبغي لك أن تكلّميه بشأن هذا الفتى المسكين، يا ميخايلوفنا!

قصدت الحارسة أن ماسلوفا يجب أن تكلّم نيكليودوف.

فأكدت ماسلوفا وعلى فمها ابتسامة تنمّ على الغرور:

– لاشك أني سأكلّمه. إنه مستعد لأن يفعل كل شيء من أجلي.

تنهدت فيدوسيا:

– لكن مَنْ يعلم متى يأتي. يبدو أنهم ذهبوا ليأتوا بفاسيلييف. هذا فظيع!

– أنا رأيت، ذات يوم، شخصاً يُضرب في القرية. أرسلوني إلى منزل الوكيل، وعند عودتي، رأيتْ...

وبدأت حارسة السكة قصة طويلة، انقطعت فجأة بضوضاء الخطوات والأصوات، في رواق الطابق العلوي. سكتت النساء وأرهفن السمع.

هتفت الحسناء ساخطة:

– جاء به هؤلاء الأبالسة! سيقتلونه! ثم إن الحراس ساخطون عليه لأنه يمنعهم من أن يتصرفوا كما يشاؤون.

عاد كل شيء إلى الصمت. في الطابق العلوي. واستأنفت حارسة السكة الحديدية قصتها، فروت كيف أن فلاحاً جُلِدَ حتى الموت أمامها، في سقيفة، وكيف أن أحشاءها ارتعشت في صدرها، لهذا المنظر.

وروت الحسناء كيف أنهم ضربوا شيخلوف دون أن تبدر منه شكوى. ثم رفعت فدوسيا كؤوس الشاي؛ واستأنفت كورابليوفا وحارسة السكة خياطتهما، وتمدّدت ماسلوفا على سريرها، رافعة ركبتيها. كانت تهم بالنوم، فراراً من السآمة عندما دخلت المشرفة لتطلب إليها أن تذهب إلى المكتب. لأن هناك زيارة لها.

صاحت العجوز التقيّة بماسلوفا التي كانت ترتّب شعرها أمام مرآة تكاد تكون باهتة:

– لا تنسي أن تكلّميه عنا! قولي له: إننا لم نشعل النار، إنما أشعلها صاحب الحانة نفسه، هذا اللص. رآه عامل! قولي له أن يستدعي دميتري! سيشرح له كل شيء، بوضوح كصفاء ماء النبع. نحن نُسجَن، و لم نفعل شيئاً، بينما هو، اللص، يعيش كالقيصر في حانته، مع امرأة أخرى! وزوجي الذي لا يجد مَنْ يخلّصه من قمله!

فوعدت ماسلوفا:

– سأنبئه بذلك، لا محالة، سأنبئه بذلك! هيا لنشرب أيضاً جرعة تزيد من ثقتنا بأنفسنا.

صبت كورابليوفا كأساً من الخمر فشربتها ماسلوفا دفعة واحدة، ومسحت شفتيها، ولحقت بالمشرفة التي كانت تنتظرها في الرواق، وعلى فمها نفس الإبتسامة التي طلب معها أن تشرب كأساً من الخمر لتزيد من ثقتها بنفسها.

× × ×

-٤٧-

كان نيكليــودوف في السجن منذ زمن طويل. لقد وصل في ساعة مبكّرة وأبرز إذن النائب العام للخفير، ثم لأحد الحراس.

فأعلن الحارس:

- مستحيل في هذا الوقت، فالمدير مشغول.

سأله نيكليودوف:

- في المكتب؟

فرد الحارس في شيء من الحرج:

- لا، هنا، في قاعة المقابلات.

- هل هذا اليوم يوم زيارة للسجناء؟

- أوه، لا. هو مشغول بقضية أخرى.

- وكيف أفعل لأرى المدير؟

- ما عليكَ إلا الانتظار هنا. ومتى مرّ، بعد قليل، رأيته.

بعــد دقائــق رأى نيكليودوف ضابــط صف شاباً قــد علّق شرائط برّاقة، أنيقاً، مرفوع الشاربين يدخل القاعة التي كان فيها، فلما شاهده التفت إلى الحارس بقسوة، وقال له:

– لَم أدخلتَ الناس هنا. كان يجب أن ترسله إلى المكتب.

فأوضــح نيكليودوف، وقد أدهشــه أن يكتشف على وجه ضابط الصف نفس أمارات الارتباك التي استرعت انتباهه لدى الحارس:

– قيل لي إن المدير سيمرّ من هنا، وأنا بحاجة إلى مواجهته.

في هذه اللحظة، فُتح الباب الذي دخل منه ضابط الصف، ودخل منه مرة أخرى، حارس، عملاق محتدم، يتصبّب وجهه عرقاً. كان هذا هو بيتروف الشهير.

قال مخاطباً ضابط الصف:

– سوف يتذكّرها، هذه!

لكــن ضابــط الصف نبهّــه، بإيماءة مــن رأسه، إلى وجــود شخص غريب، فخرج بيتروف من باب آخر، دون أن يضيف كلمة.

سأل نيكليودوف نفسه: «مَنْ هذا الذي سيتذكّر ذلك الشيء؟ ولَمَ بدا عليهم جميعاً ضيقُ النفس؟».

قال له ضابط الصف:

– ليس هذا مكان الانتظار. تفضّل إلى المكتب.

كان نيكليودوف يهمّ بالخروج، عندما رأى مدير السجن يدخل من الباب الذي يدخل منه الآخران. كان هذا يبدو أصغر سناً من مرؤوسيه. وكان وجهه متشنّجاً من الإنفعال . اقترب منه نيكليودوف وأبرز له إذن النائب العام.

صاح المدير على الفور، بأحد الحراس:

– فيدوتوف! اذهب على الفور إلى القاعة الخامسة، قسم النساء، وأحضرْ ماسلوفا إلى غرفة مقابلة المحامين!

ثم التفت إلى نيكليودوف:

– أتسمح لي باصطحابك؟

صعدا سلماً حلزونياً، ودخلا غرفة صغيرة فيها طاولة وبعض الكراسي. جلس المدير، وتنهّد، في حين كان يُخرج سيجارة ضخمة من علبته:

– ما أقصى هذه المهنة!

سأله نيكليودوف:

– تبدو متعباً؟

– أنا متعب من خدمتي. هي، في الحقيقة، التزامات شديدة القسوة! نود لو نخفف من شقاء هؤلاء المساكين، لكن كل ما نفعله يُفضي إلى ما هو أسوأ. ليتني، على الأقل، أجد وسيلة للانتقال من هنا! ما أقسى هذه المهنة!

كان نيكليــودوف يجهل فيم تنحصر صعوبات وظيفة المدير، لكن خُيّل إليه أنه أحسّ فيه، وإن لم يعرفه، بألم مبرّح، أحسّ بحالته النفسية الشديدة الحزن والقنوط.

قال له نيكليودوف:

– لا أجــد مشقة في الاعتقاد بأن هذه المهنة قاسية. لكن إذا كانت تؤدي بك إلى هذه الحالة، فلماذا لا تتخلّى عنها؟

– نقص الثروة، الأسرة...

تردّد المدير لحظة، ثم أردف:

– وليســ هذا كل شيء. إنني أبــذل كل ما في وسعي، وفي حدود قــواي، لتخفيف من شقاء هــؤلاء المساكين، وأنا أتوصل إلى ذلك، في بعض النقاط. ولو كان غيري مكاني هنا، لعاملهم معاملة أخرى. أتظن أن من السهــل إدارة ألفي شخص، مخلوقات من هذا النوع؟ يجب أن نعرف كيــف نحتال للتعامل معهــم. إنهم بشــر، ولا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الرثاء لهم. لكن إذا تراخينا معهم، ضاع كل شيء.

وهنــا أخذ المديــر يروي حادثة غريبة، حديثــة العهد، وهي شجار وقــع بين سجينــين انتهى بموت أحدهمــا. قطع قصتــه عندما دخلت ماسلوفا بصحبة أحــد الحراس. رآها نيكليودوف عند عتبة الباب قبل أن تحسّ بوجــود المدير. كانت تمشي بعجلــة وراء الحارس، ووجهُها أحمــر، ملتهب، دون أن تكف عن الابتسام وعــن هزّ الرأس. وحين شاهــدت المدير، توقفت لحظة أمامه، وقد بدا عليها الخوف. لكنها ما لبثت أن التفتت بفرح نحو نيكليودوف.

قالت له مبتهجة:

– صباح الخير!

وشــدّت على يده بقــوة، بدلاً مــن أن تلامس يــده ملامسة، كما فعلت في المرة الماضية.

أعلن لها نيكليودوف، وقد دهش أن يراها منتعشة إلى هذا الحد:

– جئتــكِ بطلب النقض لتوقّعي عليــه. المحامي هو الذي كتبه. ما عليك إلا أن توقّعيه، ثم نرسله إلى بطرسبرج.

– طيّب! سأوقّعه! لا شيء أسهل من هذا.

ظلت تبتسم، ومالت إحدى عينيها إلى الحَوَل أكثر من المعتاد.

أخرج نيكليــودوف من جيبه الورقة واقترب مــن الطاولة. وسأل المدير:

– أيمكن توقيعها.

فأمر المدير ماسلوفا:

– هيــا، اجلسي هنــا. هذه هي الريشــة وهذا هو الحــبر، أتعرفين الكتابة.

أجابت وهي تبتسم لنيكليودوف:

– عرفتُها فيما مضى!

ثــم أخذت الريشة بيدها الصغيرة، بقوة، والتفتت إلى نيكليودوف

وعلى وجهها ابتسامة جديدة، وسألته عما ينبغي أن تفعله، فأوضح لها أين يجب أن توقع، وبأي الأسماء.

سألتْ عندما انتهت من التوقيع، وهي تنقّل نظرها بين نيكليودوف والمدير:

– وهذا كل شيء؟

– أجاب نيكليودوف وهو يرفع الريشة من يدها:

– بل إن عندي شيئاً آخر سأقوله لك!

– طيّب! قلْ!

وفجأة غدا وجهها رصيناً، كأن حلماً من أحلام اليقظة مرّ بذهنها، أو كأنما أحسّت بالنعاس يستولي عليها. نهض المدير وخرج من الغرفة. وبقي نيكليودوف وماسلوفا منفردين.

× × ×

-٤٨-

وأخـيراً، أزفت اللحظـة الحاسمة، بالنسبـة إلى نيكليودوف. كان مايـزال يلـوم نفسه لأنـه لم يجـرؤ على مصارحـة ماسلوفـا بالشيء الأساسـيّ، منذ لقائهما الأول. لكنـه سيقول كل شيء، في هذه المرة، مهما يكن من أمر!

وعزم علـى ذلك، مرة أخرى، عندما جلس في مواجهة السجينة، في الجانب الآخر من الطاولة. كانت الغرفة التي يجلسان فيها مضيئة. واستطـاع نيكليودوف أن يلاحظ بأنـاة وجه السجينة. رأى الغضون حول عينيها وفمها، رأى تورّم الجفون، رأى المظهر العام للبلاء المبكّر وللتقهقر. فأحسّ بالحزن يتغلغل فيه، واشتدت شفقته عليها.

جلس نيكليودوف أمـام الطاولة بحيث لا يراه الحارس الذي جاء بماسلوفا والذي جلس على حافة النافذة، في الطرف الآخر من الغرفة، وانحنى على البائسة وقال لها:

– إذا لم ينجح الطعن بالنقض فسوف نلتمس العفو من الامبراطور. سنفعل كل ما يمكن فعله.

– مـن سوء الحـظ أنك لم تلقني قبل المحاكمـة! إذن لكنتَ دبّرت محاميـاً مقتدراً: في حين أن المحامـي الذي دافع عني، ذلك الغبي، هو سبب كل شيء.

وأضافت وهي تضحك:

– الجميـع يهنئونني بصددك. آه! لو علموا، يوم الحكم علي، أنك تعرفني، لسارت الأمور علـى نحو مختلف. بينما بدون ذلك... قالوا جميعاً في نفوسهم «آه! ما هذه إلا سارقة!»

فكّر نيكليودوف في نفسه:

– ما أغربها، اليوم!

أوشك أن يتصـدّى للموضوع الكبير، لولا أنها استأنفت الكلام، مرة أخرى:

– إصـغ إلى ما سأقوله لك... في قاعتنا امرأة عجوز، لا يراها أحد إلا تعجّـب منها. عجوز قصيرة، غير عاديـة، لم يُرَ مثلها! حُكم عليها هي وابنها، أعلم لماذا. الجميع يعلمون أنهما بريئان هي وابنها، لكنهما متهمان بإضرام النار! وعندما سمعتْ بأنني أعرفك، قالت لي: «اطلبي إليـه، أرجوك، أن يكلّم ابني، فسيوضح لـه كل شيء». لو كنتَ تعلم أية عجوز غريبة هي! مـن النظرة الأولى يتضح أنها غير مذنبة! ستهتم بها، أليس كذلك؟

قالت ذلك، وهي تنظر إليه، في أعماق عينيه، وتبتسم.

وعدها نيكليودوف، وقد دهش إذ وجدها منفتحة إلى هذا الحد:

– طيب! سأهتم بذلك، وسأستخبر عن أمرها! لكني أود أن أحادثك في قضية شخصية. أتذكرين ما قلته لكِ، في ذلك اليوم؟

فهتفت:

– قلتَ لي أشياء كثيرة، في ذلك اليوم! ماذا قلتَ لي؟

لم تكفّ عن الابتسام له، وهي مائلة الرأس إلى هذه الجهة تارة، وإلى تلك تارة أخرى.

تمتم نيكليودوف:

– قلت لكِ إنني جئت أرجوك أن تصفحي عني.

– أن أصفح.. أن أصفح... لا فائدة من ذلك! الأجدر بك أن...
وتابع نيكليودوف.

– علي أن أقول لك أيضاً، أنني أريد إصلاح خطيئتي، إصلاحها بالأفعال لا بالأقوال.... قررتُ أن أتزوج بك!

عند هذه الكلمات، عبّر وجه ماسلوفا عن الرعب، وكفت عيناها عن الحول، وحدّقتا في عيني نيكليودوف، بنظرة غائمة لا ترى.

فقالت بلهجة مستاءة:

– ما كان ينقصنا سوى هذا!

– أشعر أنني يجب أن أفعل ذلك، أمام الله!

– مايـزال يتحـدث عن الله، بعـد كل ما جـرى! الله! أي الله كان الأجدر بك أن تفكر في الله قديماً، في اليوم الذي...

توقّفت عن الكلام وهي فاغرة فاها. وحينذاك اشتمّ نيكليودوف، لأول مـرة، رائحـة الخمر القوية التـي تفوح من فمها. فـأدرك سبب انتعاشها. وقال لها:

– إهدئي!

فأجابت بنَفَس واحد، بينما كان دمها كله يصعد إلى وجهها:

– لا حاجـة بـي إلى الهدوء. أنت تظـن أنني سكرانـة؟ أعلمْ أنني سكرانـة، لكننـي أدركُ ما أقول! أنا بغي، ومحكومـة بالسجن، وأنت سيد نبيل، أمير، فلا شغلَ لك معي. إمضِ والْحقْ بأميراتك!

أكّد نيكليودوف، بصوت خافت، وهو يرتعد:

– مهما قسـوتِ في كلامك، فكلامك ليس شيئاً بجنب ما أحسّه أنا نفسي. ليس بوسعك أن تتصوري مدى شعوري بخطئيتي نحوكِ.

فانفجرت وهي تضحك ضحكاً كريهاً:

– الشعور بخطيئتك! أين كان هذا الشعور عندما دسسَت لي مائة الروبل!

– أعلـمُ، أعلـمُ، لكـن، مـا العمل، الآن؟ لقـد أقسمـتُ الآن ألا أتركَكِ. و ما قلتُه سأفعله.

– وأنا، أقول لك إنك لن تفعله!

قال نيكليودوف وهو يحاول أن يمسك بيدها:

– كاتيوشا!

فصرخت وقد جُنّت من الغضب، وسحبت يدها:

– لا تلمسنـي! أنا محكومة بسجن الأشغال الشاقة وأنت أمير، فلا شغل لك هنا.

وانفجرت:

– اذهـب مـن هنا. أنـا أكرهـك! كل ما فيـك يثـير اشمئزازي. نظارتـك، ووجهك القذر الممتلئ بالدهن! اذهب من هنا! اذهب من هنا!

ووثبت على قدميها بحركة سريعة. فدنا الحارس:

– ما هذه الفضيحة التي تُقدمين عليها؟ إنه لعمل مُخزٍ...

فتدخل نيكليودوف:

– دعها، أرجوك.

فأردف الحارس:

– سأعلّمك أنا، كيف تتمادين هكذا.

– أرجوك، انتظر دقيقة بعد!

ابتعـد الحارس، وجلـس في مكانه قرب النافذة. عـادت ماسلوفا إلى الجلوس، خفضت عينيها، وأخذت تعبـث كالمحمومة بأصابعها المطويّـة، أصابع يديهـا الصغيرتين. وظل نيكليـودوف واقفاً قربها لا يدري ماذا يفعل. سألها:

– ألا تصدقينني؟

– ما الذي لا أصدّقه؟ أنك تريد الزواج بي؟ كلا، كلا، لن يتم ذلك أبداً! أفضل أن أشنق نفسي! فهمت!

– لن أكفّ مع ذلك، عن خدمتك!

فصرخت:

– هـذا شأنك! لكـن ليس لي بك أيـة حاجة. هذه هـي الحقيقة! وأضافت:

– لَم لمْ أمتْ في ذلك الزمان!

انفجـرت باكية. أراد نيكليودوف أن يكلمهـا، فلم يستطع: كان مـرأى هـذه الدموع يمـزّق قلبه. وفي ظـرف لحظة، رفعـت عينيها،

وألقت نظرة خاطفة عليه كالمدهوشة، وأخذت تمسح بمنديلها دموعها التي سالت على خديها.

دنا الحارس مرة أخرى، وأعلن أنه قد حان الوقت للعودة بها.

قال نيكليودوف:

– أنت مضطربة أشد اضطراب. سأعود غداً، إن أمكن فكّري، في هذه الأثناء.

لم تجب، وخرجت مع الحارس، دون أن تنظر إليه. عندما دخلت الغرفة، سألتها كورابليوفا:

– ماذا! ستتخلصين من مأزقك، يا صغيرتي! إنه قادر على إخراجك من هنا! الأغنياء، لا يعجزون عن شيء.

فأكّدت حارسة السكة بصوتها الرخيم:

– هذا صحيح! الغني، ما عليه إلا أن يتمنى، حتى يحدث كل شيء كما يشاء. كان عندنا غني...

سألتها العجوز:

– هل حدّثته عني؟

لكن ماسلوفا تمدّدت على سريرها، دون أن تجيب، وظلت مستلقية إلى المساء، وعيناها محدقتان أمامها. فما قاله لها نيكليودوف أيقظ

فيهـا رؤيا عالم تأملت فيـه وخرجت منه. هذا العالم، كانت قد أخذت تكرهـه، وتظنّ أنها نسيتـه. والآن تبدّد هـذا النسيان،وغدت ذكرى الماضـي الواضحـة لا تُطاق. عند المساء، اشترت مـرة أخرى، نصف زجاجة خمر، وشربتها مع رفيقاتها.

× × ×

-٤٩-

«هذه هي عاقبة الأمور!». كذلك كان نيكليودوف يردد آلياً، بينه وبين نفسه، وهو يسير في أروقة السجن الطويلة. لقد أدرك الآن فقط مدى خطيئته. ولو لم يحاول التكفير عن ذنبه، وإصلاح ما بدر منه، لما أحس بفداحة ذلك الذنب، ولما أحسّت كاتيوشا أيضاً بجسامة الشر الذي ألحقه بها! لأول مرة ظهر ذلك كله للنور. كان نيكليودوف، حتى هذا الوقت، يتحنّن على نفسه. كان تكفيره عن ذنبه يبدو له لعباً، أما الآن فهو يشعر بذعر حقيقي. أصبح من المستحيل عليه، بعد الآن، هجران تلك المرأة. أما ما الذي سينتج عن علاقاته بها. فهو ما لم يُفلح في تصوّره.

أمام باب السجن، رأى حارساً، رجلاً ماكر السحنة، كريه الوجه، من النموذج اليهودي البارز، يقترب منه ويدسّ سراً في يده، ورقة، ويهمس:

– هذه لسيادتك، من أحد الأشخاص... من أي شخص؟

قال الحارس بلهجة منافقة:

– لتتفضّل سيادتك بقراءتها وسترى! سجينة في القسم السياسي. أنا الحارس هناك. جاءت ورَجَتني... هذا ممنوع، لكن بدافع الإنسانية....

تناول نيكليودوف الورقة، ووضعها في جيبه، وقد انتابه شيء من الدهشة حين رأى مشرفاً يقوم بمثل هذه المهمّة، وما إن خرج من السجن حتى سارع إلى قراءتها. لقد خُطّت عليها، بقلم الرصاص، وعلى عجل، الكلمات التالية:

«لما علمتُ أنك تأتي إلى السجن وأنك تهتم بأمر سجينة في القسم الجنائي، تمنيت بحرارة أن أتحدث معك. اطلب الأذن برؤيتي. سوف تُمنح هذا الإذن، وسوف أنبئك بكثير من الأشياء الخطيرة المتصلة بمحميّتك أو بجماعتنا المتمنة: فيرا بوغودو كوفسكايا[١٥] تساءل نيكليودوف وهو مايزال مضطرباً من ذكرى حديثه مع كاتيوشا: «بوغودو كفسكايا»! أين سمعتُ هذا الاسم؟ آه! نعم، تذكرت! ابنة الكاهن، أثناء صيد الدب!».

كانت فيرا بوغودو كفسكايا معلمةً في قرية من مقاطعة نوفغورورد، عندما جاء نيكليودوف، إلى هذه القرية، مع أصدقاء له، لصيد الدب. وطلبت المعلمة من الشاب مبلغاً من المال لتتمكن من مغادرة مدرستها، والذهاب للدراسة في الجامعة، أعطاها نيكليودوف المبلغ الذي طلبته، لكنه لم يسمع عنها شيئاً، منذ ذلك الزمن. وها هي

---

١٥. بوغودو كفسكايا: هذا الاسم المكون من «بوغ» الله و«دوك» الروح، يدل على شخص مولود في بيئة دينية.

ذا الآن تظهر بمظهر سجينة سياسية، وتعده بأنها ستكشف له عن أشياء هامة حول ماسلوفا!

كـم كان كل شـيء بسيطـاً وخفيفاً فيمـا مضى، وكم غـدا ثقيلاً ومعقـداً الآن! لقد سرى الهمّ حقاً عن نيكليودوف تذكّرهُ بذلك اليوم الذي لقي فيه بوغـدود كفسكايا. كان ذلك في عشية عيد المَرْفع، في قريـة نائية، على ستين فرسخاً مـن السكة الحديدية. كان الصيد موفقاً جـداً. فقد قتـل الصيادون دبـين، وأكلوا بنهم، ثم أخـذوا يستعدون للعودة، عندما جاء صاحب النزل الصغير يقول إن ابنة الكاهن تطلب مقابلة الأمير نيكليودوف.

سأل أحد الصيادين:

– أهي حلوة؟

أجاب نيكليودوف:

– هذا ما سنراه.

عادت إلى وجهه رصانته، ونهض عن المائدة، ومسح فمه، وخرج، وهـو حائر فيما قد تريده منه ابنة كاهـن. وفي الغرفة المجاورة وقفت فتـاة نحيلة، بادية العظـام، لها وجه طويل لا حُسْـنَ فيه، لولا العينان اللتـان كانتا على حظ من الجمال، تحـت الحاجبين المقوّسين؛ وكانت ترتدي معطفـاً غليظاً من معاطف الفلاحات، لكنها كانت تضع على رأسها قبعة من اللِبد.

أعلنَ صاحب النزل، قبل أن يتركهما وحدهما في الغرفة:

– هذا هو الأمير، يا فيرا ايفرايموفنا!

سأل نيكليودوف:

– فيمَ أستطيع أن أنفعك؟

قالت الفتاة وهي مرتبكة أشدّ ارتباك:

– أنــا... أنــا كما تــرى، أنتَ ثــري، وأنتَ تُنفق مــال في اللهو والصيد! أنا مطّلعة على ذلك. أنا، أنا، لا أرغب إلا في شيء واحد: أن أغــدو نافعة للآخرين. لكنني لا أستطيــع أن أفعل شيئاً من ذلك، لأنني لا أعلم شيئاً!

عكســت عيناها الصراحة والطيبة، وعبّر وجهها كله عن مزيج من العــزم والحياء الشديديــن حتى أن نيكليودوف تصــوّر نفسه مكانها، كما يقول له ذلك على الأغلب، ففهمها وأشفق عليها.

وأردفت الفتاة قائلة:

– أنا معلمة هنا، وأود أن أذهب إلى الجامعة، ولا يُسمح لي بالذهاب إليها. أو على الأصح، لابد لي من المال، لأجل ذلك. أتريد أن تعطيني مبلغــاً من المال؟ سأعيده إليك متى انتهيت مــن دراستي. إني أقول في نفسي دائماً: «الأغنياء يصيــدون الدببة، ويُسكرون الفلاحين، وهذا كلــه شر. فلمَ لا يفعلون الخير؟» لا أحتــاج إلا إلى ثمانين روبلاً. إذا لم تشأ أن تعطي فلابأس!

– علــى العكــس، إني ممتن لك علــى المناسبة التي هيأتهــا لي. وأنا ذاهب لآتيك بالمال، على الفور.

عــاد نيكليــودوف إلى قاعة الطعام. ومضــى إلى محفظته، دون يرد على ممازحات رفاقه، وأخرج أربع ورقات من ذوات العشرين روبلاً. وحملها إلى المعلمة.

وكرّر قوله:

– أرجوك، لا تشكريني، أنا المدين لك بالشكر.

سُرّ نيكليودوف الآن سـروراً عظيماً وهو يستحضر هذه الذكرى. سُرّ إذ تذكّر كيف أوشك أن يختصم هو وأحد رفاقه لأنه أراد أن يقلب الحادثــة إلى مــزاح، وناصره رفيق آخــر، وهكذا كانــت رحلة الصيد موفقــة ومرحــة. وكم أحس بالفــرح، وهو يعود مــن القرية إلى محطة القطــار الصغيرة! كانت الزحافات التي يجـر الواحدة منها جوادان، تنزلــق بلا ضوضاء، علــى طول الطريق، بين أشجــار الصنوبر المغطاة بالثلــج. كانت السجائر المشعلة تلمــع في الظلمة بنور أحمر، جميل، وكان خفــير الصيد «أوسيب» يركض من زحافة إلى أخرى، غارقاً في الثلج إلى ركبتيه؛ وكان يحدّث الصيادين عن الظباء التي كانت شاردة في الغابــات، في هذا الفصل، تتغذى من قشر الحور. وكان يحدّثهم أيضاً عن الدببة التي كانت تنام، في هذه الساعة، مستدفئة، في كهوفها العميقة.

تذكّــر نيكليودوف ذلك كله، لكنه تذكّــر، على وجه الخصوص،

تلـك الإحساسات العذبة التي طبعتهـا في نفسها صحة العافية وخلوّ البال.

«معطـف من الفرو دافئ، الهواء البارد والجاف، الثلج الذي يلسع الوجـه.... دفء الجسد، بـرودة البارد والجاف، الثلـج الذي يلسع الوجـوه... دفء الجسد، برودة الوجـه، والقلب لا هم فيه، ولا ندم ولا خـوف ولا رغبة! مـا كان أهنأ ذلك كله! أما الآن... يا إلهي، كم أصبح كل شيء صعباً وشاقاً!

لاشـك أن فـيرا ايفريموفنـا أصبحت ثوريـة. وساقـت نفسها إلى السجن بسبب آرائها. قـرر نيكليودوف أن يطلب رؤيتها. ربما قالت له، بالفعل، شيئاً ذا بال عن الوسائل الكفيلة بتخفيف شقاء ماسلوفا.

× × ×

-٥٠-

عندمـا استيقـظ نيكليودوف، في صبـاح اليوم التـالي، رأى دفعة واحـدة كل ما حـدث له عشيـة البارحـة. فاستولى عليـه الذعر مرة أخرى. لكن ذلك لم يوهن من عزيمته، فقد أحس أنه أكثر تصميماً من أي وقت مضى، على مواصلة العمل الذي بدأه، مهما تكن نتائجه.

وفي الساعـة التاسعـة، خـرج من بيتـه متوجهاً علـى منزل نائب الحاكم ماسلينيكوف. كان يريد أن يسأله إذناً بالحديث لا مع ماسلوفا وحدهـا، بـل وأيضاً مع ابن العجـوز التي حدثتـه كاتيوشا عنها. ثم، هناك أيضاً بوغودو كوفسكايا، ويجب أن يحاول أيضاً الحصول على الإذن بمقابلتها.

كان نيكليـودوف يعـرف ماسلينيكوف منذ زمـن بعيد. عرفه في الفـوج حيث كان نائب الحاكـم المقبل أميناً للصنـدوق. كان إذ ذاك ضابطـاً نزيهـاً، حيّ الضمير، لا يـرى ولا يريد أن يـرى سوى فَوْجه والعائلـة الإمبراطوريـة. ثـم ترك الجيشـ إلى الإدارة بنـاءً على إلحاح امرأته، وكانـت امرأة عظيمة الثراء والبراعة تحلـم لزوجها بتقدّم أكثر تألقاً، في الحياة المدنية.

كانت تهزأ منه وتُدَلِّله في الوقت نفسه، فتعامله كما يُعامَل الكلب الأليف. وكان نيكليودوف قد زاره في الشتاء المنصرم، لكنه رآه مجردّاً مما يستحق الإهتمام إلى حد بعيد حتى إنه لم يعد إليه قط بعد ذلك.

وجد ماسلينيكوف شبيهاً كل الشبه بما كان عليه دائماً. الوجه السمين الفارغ نفسه، البدانة نفسها، اللباس المسرف الأناقة نفسه. كان ماسلينيكوف، في الفوج، يرتدي بزة فائقة النظافة، مفصّلة بحسب آخر طراز، تلفّ صدره وظهره لفّاً. وهو الآن يرتدي بزة مدنية فائقة النظافة، مفصلة بحسب آخر طراز، تشد جسده السمين شداً وتُبرز صدره العريض.

بدا مرأى نيكليودوف كأنما قد ملأه فرحاً، فقال وهو يرفع عنقه بسرور عجز عن إخفائه:

– ها قد جئتَ أخيراً! جميلٌ منك أن تأتي! سأصطحبك للسلام على زوجتي. ما أروع هذه المصادفة، فمازال عندي عشر دقائق قبل الجلسة. رئيسي غائب، وأنا أقوم بوظيفة الحاكم.

– ذلك أني... أتيتك في قضية.

دهش ماسلينيكوف، وفجأة غدت سحنته ولهجة صوته أشد قسوة:

– ماذا؟

– القضية... أن في سجن الحكومة القديم امرأة يهمّني أمرها

كثيراً، (عند كلمة سجن ازداد وجه ماسلينيكوف عبوساً) وأود لو أحصل على الإذن بالحديث معها خارج قاعة الزيارات العامة، وخارج أوقات الزيارة. قيل لي إن هذا منوطٌ بك.

أجاب الرجل الضخم وهو يتكئ بيديه على ركبتي نيكليودوف، وكأنه يريد أن يُريه تنازله:

– طبعاً! غني عن القول، يا عزيزي، إنني لا أرفض لك طلباً وما تطلبه لا يتضمن شيئاً مستحيلاً، لأنني الحاكم في الوقت الحاضر، كما ترى!

– وهكذا فأنت تستطيع أن تعطيني ورقة تسمح لي برؤيتها في كل ساعة؟

– أهي امرأة؟

– نعم.

– ولِمَ حُكم عليها؟

– بجرم التسميم، وهو خطأ قضائي.

قال ماسلينيكوف، وقد وجد ذريعة يتذرع بها للكلام بالفرنسية:

– هؤلاء... هم المحلّفون... لا يفعلون شيئاً سوى الأخطاء.

وأردف:

– أعلـم أننا لسنا متفقين حول هذا الموضوع؛ لكن ما العمل، هذا هو رأيي الراسخ! في حين أنك أنت، ماتزال تحررياً، بلاشك؟

تساءل نيكليـودوف مرة أخرى عن الصلة التي قد تكون بين رأي سياسي مثـل التحررية والمطالبة لمتهم بحق الدفاع عـن نفسه، أو بينه وبين عدم القبول بأن يكون لأحد الحق في تعذيب المجرمين وضربهم، أو بينـه وبـين تفضيل هذا النمط مـن المحاكمة على غـيره. وردّ على ماسلينيكوف:

– لا أدري إن كنتُ تحررياً أم لا ولكنني أعلم أن القضاء، في الوقت الحاضر، مع أخطائه كلها، أفضل من القضاء فيما مضى.

– هل استشرت محامياً؟

– نعم، استشرتُ فانارين.

كشّر ماسلينيكوف عند سماعه هذا الإسم. وهتف.

– يـا لها من فكرة مؤسفـة تلك التي حملتك علـى استشارة هذا الرجل!

لم ينسَ نائب الحاكـم أن فانارين أجبره، في السنـة السابقة، على المثـول، في دعوى، بصفته شاهـداً، وأنه أضحك القاعـة بأدبٍ منه، طوال نصف ساعة.

– لو سألتني لما نصحتك باستشارته، فهو رجل به عاهة.

واصل نيكليودوف كلامه وكأنه لم يسمعه.

– وعندي شيء آخر أود أن أطلبه منك. عرفتُ فيما مضى فتاة، معلمة... هذه البائسة في السجن أيضاً، وقد أعلمتني أنها ترغب في مقابلتي. أيمكنك أن تعطيني إذناً بذلك أيضاً؟

بدا ماسلينيكوف كمن يفكّر، ورأسه مائل ميلاً خفيفاً. واستخبر:

– وفي أي قسم، معلمتك؟

– قيل لي إنها في القسم السياسي.

– الحقُّ في زيارة السجناء السياسيين لا يُعطى إلا للأهل! لكن إسمع، سأعطيك ترخيصاً عاماً. وأنا واثق من أنك لن تسء استعماله وكيف هي، محميّتك؟ جميلة؟

– بشعة.

هزّ ماسلينيكوف رأسه استنكاراً؛ وعاد إلى مكتبه وتناول ورقة بعنوان، وأخذ يكتب. ثم قال له:

– سوف ترى النظام البديع الذي يسود السجن! ليس سهلاً المحافظة على الانضباط فيه، ولاسيما الآن بعد أن غصّت القاعات بالسجناء. عندنا العديد من المحكومين بالأشغال الشاقة! وأنا ساهر بصراحة على كل شيء، فالأمر يهمني كثيراً. سوف ترى كيف رُتب كل شيء على أحسن وجه، وكيف أن الناس جميعاً مسرورون فيه! الشيء الأساسي بالنسبة إلى هؤلاء الناس هو أن نحسن التأتّي لهم.

وهكـذا، ففي هذه الأوقـات الأخيرة، حدث حـادث صغير مزعج: حالـة خـروج على النظـام. لو كان غـيري لاعتبر ذلك تمـرّداً، ولجرّ المصائب. لكن الأمور معي تمتّ بسلام.

وقـال متبجحاً، و هو يمدّ من ردن قميصه ذي الأزرار المذهبة، يده الربلة التي التمعَ فيها حجرُ الخاتم الأزرق:

– مايلـزم هـو التسامح والسلطـة! نعم، التسامـح والسلطة، هذا جوهر الأمر.

أجاب نيكليودوف:

– لا خـبرة لي بذلك كله. لم أذهـب إلى السجن سوى مرتين، وأنا أعترف أن الانطباع الذي خرجتُ به انطباع مؤلم تماماً.

– أتعلـم؟ يجب أن ترى الكونتيسة «باسيك». ستتفاهمان تفاهماً تامـاً. لقد كرّست نفسها لهذا النوع من الأعمـال الخيرية. إنها كثيرة الإحسـان. وبفضلها –وأيضاً بفضلي، وأنا أستطيع أن أعترف بذلك، دون أن أتكلّـف التواضـع الكاذب –تبدّل نظـام سجوننا كله. لم يبق فيه شيء من فظائع العهـد السابق، وغدا السجناء، الآن، سعداء حقاً. سـترى ذلـك... لكن كيف خطـر ببالـك أن تستشـير فانارين هذا! لسـتُ أعرفه شخصياً؛ فأحوالنا الاجتماعية ليس من شأنها أن تتيح لنا إنشـاء علاقات بيننا، لكنني أعلم من مصدر موثوق أنه أحمق.هذا إذا غضضنا النظر عن أنه يقول، في المحكمة، أشياء...

قاطعه نيكليودوف وهو يأخذ الورق التي كتبها:

– أشكرك أعظم الشكر على جميلك!

– ألن تمرّ على زوجتي؟

– اعذرني، فليس لدي الوقت.

فاحتج ماسلينيكوف:

– لن تغفر لي أني تركتك تذهب!

قال ذلك وهو يودّع رفيقه القديم إلى درجات السلم، وذلك شرف لا يخص به زوّاره من ذوي المكانة الأولى –لأنه كان يودّع هؤلاء إلى أدنى السلم –بل الزوار الذين يأتون بعد هؤلاء مباشرة، من حيث المكانة.

وألحّ عليه:

– هيا، قم بهذه البادرة اللطيفة! لدقيقة واحدة فقط!

لكن نيكليودوف لم ينثن عن عزمه. وعندما رآه ماسلينيكوف يصل إلى آخر درجات السلم حيث سارع إليه خادمان يقدّمان له معطفه وعصاه، ناداه بدالة:

– طيب! لا تنسَ إذن أن تأتي نهار الخميس! فهو يوم الاستقبال، عند زوجتي. سأنبئها بمجيئك.

× × ×

-٥١-

مضـى نيكليـودوف رأسـاً إلى السجـن، بعـد خروجـه من عند ماسلينيكـوف. قـال للحراس إنه يريـد أن يكلّم المديـر، وبالفعل، ما إن دخـل حتى اتجـه إلى شقة ذلك الموظف. فسمع مـرة أخرى، وهو يقـترب، ما سمعـه في المرة الأولى، أنغام بيانـو رديء. كانت المعزوفة التـي تُعزف مقطوعة «كليمنتـي»[١٦] لا لـ«ليسـت»، وكان العزف، كالمرة الأولى، مُسرف الشدة، محافظاً على الدقة الآلية، مُفرط السرعة.

قالـت الخادمة التي فتحـت لنيكليـودوف: إن النقيب في البيت. وأدخلتـه قاعة استقبال صغيرة مؤثثة بأريكة، وطاولة، وثلاثة كراسي، ومصباح ضخم له كمة من الكرتون الوردي. وبعد لحظة، دخل المدير نفسه، متعب الوجه، محزونة، فسأله وهو يُنهي تزرير سترة البزة:

– تحياتي، أيها الامير. فيمَ أستطيع أن أؤدي لك خدمة؟

أجاب نيكليودوف:

---

١٦. كليمنتـي (١٧٥٢ – ١٨٣٢) موسيقي وعازف بيانو شهير، مؤلف مقطوعات للتدرب على السرعة.

– ذهبت إلى نائب الحاكم، فأعطاني هذا الإذن. وأود أن أقابل ماسلوفا.

سأله المدير الذي منعته الموسيقى من سماع الاسم:

– ماسلوفا؟

– ماسلوفا.

– آه! نعم، أعلم.

ونهض، فاتجه إلى الباب الذي كانت تنبعث منه مقاطع كلمنتي البارعة، وصاح بصوت يدل بوضوح على أن هذه الموسيقى هي المصيبة في حياته:

– ارحميني، يا ماروسيا وتوقفي دقيقة، على الأقل. فنحن عاجزان عن التفاهم!

سكت البيانو، وتحركت كراسي حركة تنم على الامتعاض، وفتح الباب شخص ليلقي نظرة على الغرفة. ارتاح المدير ارتياحاً ظاهراً إلى توقف الموسيقى، فأخرج لفافة ضخمة من علبته، وقدّم أخرى لنيكليودوف. اعتذر نيكليودوف عن قبولها، وسأل:

– أيمكنني أن أرى ماسلوفا؟

سأل المدير طفلة ابنة خمس سنوات أو ست انسلت إلى الغرفة، وجهدت في أن تتسلّق ركبتي والدها، دون أن تحوّل بصرها عن نيكليودوف.

– وأنتِ ماذا جئتِ تفعلين هنا؟

وتابع بابتسامة متغاضية عن مناورة الطفلة:

– احترسي، فسوف تقعين!

فألح نيكليودوف:

– أرجوك أن تأمر بإحضار ماسلوفا. إن كان ذلك ممكناً.

أجاب المدير بابتسامة خفيفة.

– ماسلوفا! من سوء الحظ، أنك لا تستطيع أن تراها اليوم! يا أمير، صدقني، لا تعطها مالاً بعد الآن. سلّمني المال لها، إذا شئت سأحتفظ به كله لها، لكن... لاشك أنك أعطيتها مالاً، أمس، فحصلت على الخمر! لا يمكننا استئصال هذا الداء! لقد وجدت اليوم سكرانة كلياً، وأثارت الشغب!

– ثم ماذا؟

– ثم اضطررنا إلى معاقبتها. نُقلت إلى قاعة أخرى. في الأوقات العادية، هي سجينة هادئة. أرجوك، لا تسلّمها المال يداً بيد! ليتك تعرف مثلي هذا النوع...

رأى نيكليودوف بفكره من جديد، مشهد البارحة فعاد إليه رعبُه. وسأله بعد صمت.

و«بوغودوكومسكايا»، في قسم السّياسيين، أيمكنني أن أراها ؟

– بالتأكيد!

أخـذ المديـر بيديـه طفلته التـي ظلـت تتفرّس في نيكليودوف، وأخرجهـا مـن بـين ركبتيه، ونهض ليصطحـب نيكليـودوف إلى السجـن. لم يكـد ينتهي من ارتـداء معطفه، حتى تعالـت من جديد، مقاطع كليمنتي البارعة، موقّعة بجفاف.

علّق المدير وهو ينزل السلم.

– كانـت في المعهد الموسيقي، لكن حدثـت اضطرابات وصُرِف الطـلاب. إن لهـا الكثير مـن المواهب، وتود أن تعـزف في الحفلات الموسيقية.

قصد نيكليودوف والمدير إلى المكتـب. انفتحت جميع الأبواب، في طرفـة عين، لـدى مرورهما. في الـرواق، لقيهمـا أربع محكومين بالأشغال الشاقة، يحملون أسطـلاً. رآهم نيكليودوف يرتجفون وهم يشاهدون المدير. خفض واحد منهم، على الخصوص، رأسه، وخبثَ وجهه، واشتعلت عيناه السوداوان فجأة.

تنهد المدير دون أن يأبه لسجنائه.

– لاشـك أن الموهبة يجب أن تُشجّع، وليس من حقّنا أن نضع في وجههـا العراقيل، لكن هـذا البيانو الذي لا يتوقّـف، في شقة صغيرة كشقتنا، كثيراً ما يؤذي.

قــاد نيكليــودوف إلى القاعة الكــبرى وهو يجرّ قدميــه المتعبتين. وعندما وصلا إليها سأل:

– ما اسم السجينة التي تريد أن تراها؟

– بوغودو كوفسكايا.

– هي في البنــاء الآخر، عند السجناء السياسيين. يجب أن تتفضّل بالانتظار قليلاً. سأرسل مَنْ يُحضرها.

– ألا يمكننــي في هذه الأثناء، أن أرى السجين منشوف، المحكوم بإضرام النار؟

– هذا في الزنزانة. أتريد أن تذهب لتراه؟

– بالتأكيد سيكون ذلك مدعاةً لاهتمامي.

– أوه! سترى، ليس هناك ما يدعو إلى الإهتمام!

في اللحظة نفسها، دخل القاعة نائب المدير الأنيق. قال رئيسه:

– أَوْصل الأمير على زنزانة منشوف. ثم أعده إلى المكتب.

فعرضــ عليه نائب المديــر بإبستامة لطيفة: وسأرســل أنا؛ في هذه الأثناء، من يحضر بوغودو كفسكايا.

– هلا تفضّلتَ بمرافقتي. إنك تهتم بمؤسستنا؟

– إننــي أهتم بأمر منشوف. فهو بريء، على ما قيل لي، من الجريمة التي نُسبت إليه.

فهزّ الشاب الأشقر كتفيه، وقال بهدوء، بعد أن توقّف، تأدّباً، ليدع نيكليودوف يدخل قبله، في رواق عريض يسوده نتن موبوء.

– قد يقع ذلك! لكنهم يكذبون، في الغالب... أرجوك، بعدكَ!

كانت أبواب الغرف مفتوحة، وكان الكثير من السجناء في الرواق. وكان نائب المدير يرد على تحيات الحراس بتهاون، ولا يكلّف نفسه الرد على تحيات السجناء الذين انسل بعضهم إلى غرفهم، حين رأوه، بينما وقف آخرون، بلا حراك، وباحترام، وأيديهم على دّرْزة البنطال.

سار نائب المدير بنيكليودوف الرواق الكبير كله، ثم دخل به من باب حديدي رواقاً ثانياً أضيق، وأشد ظلمة، وأفظع نتانة، على أبعد حد ممكن. على هذا الرواق، كانت تُطلّ، من الجانبين، أبواب مقفلة ثُقبت فيها كوى صغيرة. كان هذا الرواق خالياً، إلا من حارس يتجول فيه جيئة وذهاباً، عجوز ذي وجه حزين ومتجهم.

– منشوف؟ في أية زنزانة؟

– الثامنة إلى اليسار.

استخبرَ نيكليودوف:

– هل هذه الزنزانات مشغولة كلها؟

– كلها، إلا واحدة.

× × ×

-٥٢-

سأل نيكليودوف:

– أأستطيع أن ألقي نظرة؟

أجاب نائب المدير بابتسامة لطيفة:

– افعل ما يحلو لك.

والتفت إلى الحارس ليطرح عليه سؤالاً.

نظر نيكليودوف من خلال الكوة. لقد حُبس في الزنزانة شاب طويل القامة. كان يمشي جيئة وذهاباً، بخطا سريعة، مرتدياً قميصاً وبنطالاً فقط. وعندما سمع ضجة، ألقى على الباب نظرة خاطفة، وقطّب بين حاجبيه، واستأنف مشيه.

توقف نيكليودوف أمام زنزانة أخرى. التقت نظرته نظرة غريبة ومُثيرة للقلق، والعين الناظرة كانت عيناً واسعة، سوداء، ملتصقة بالكوة من الجانب الآخر. فسارع الأمير إلى الابتعاد. في الزنزانة الثالثة، رأى رجلاً قصيراً ينام على مفرشه، طاوياً ساقيه، مغطياً رأسه

بمعطفه. في الزنزانة التالية، كان السجين جالساً، خافض الرأس، متكّئاً بمرفقيه على ركبتيه. وعندما سمع الكوة تنفتح، رفع رأسه؛ كان وجهه الشاحب كله، ولاسيما عينيه الغائرتين، يُظهر بوضوح أنه قلما يهتم بمعرفة مَنْ يراقبه، كان جلياً أنه لا يتوقّع خيراً من أحد.

انتاب نيكليودوف إحساس من الذعر. فأحجم عن رؤية الزنزانات الأخرى، وذهب رأساً إلى زنزانة منشوف. فتح الحارس الباب المقفل، فشاهد نيكليودوف شاباً متين العضلات، طويل العنق، له لحية صغيرة في ذقنه، وعينان وديعتان مدوّرتان. كان واقفاً قرب مخدعه، يرتدي سترته على عجل، وقد بدا عليه الرعب. وطوّفت عيناه الوديعتان، المدهوشتان، القلقتان من نيكليودوف إلى نائب المدير، ومن هذا إلى ذاك.

أبلغه نائب المدير:

– هوذا سيد يريد أن يسألك عن قصتك!

قال نيكليودوف وهو يتقدّم في الزنزانة، ويقف قرب النافذة المسيّجة بالحديد:

– لقد حُدِّثتُ عنك، وأود أن أسمع من فمك رواية ما جرى لك:

اقترب منشوف، هو أيضاً، من النافذة تكلّم أول الأمر بخجل، وهو يرشق نائب المدير بنظرات قلقة. لكنه تشجّع شيئاً فشيئاً، وعندما خرج نائب المدير من الزنزانة ليلحق بالحارس في الرواق، اختفى خجله كلياً.

كانــت لغته وتصرّفاته لغة فلاح بسيط وشريف، وتصرفاته، وأحسّ نيكليودوف بإحساس غريب إذ لقي هذا الفلاح الصغير والطيب، في لباسن السجن، في هذه الزنزانة المظلمة. وأخذ يتأمل، وهو يصغي إليه فراش القماش ولحاف القش، والشباك القذر بشبكته الحديدية الثقيلة، والجــدران المبقّعة بالرطوبــة، وهذا الوجه البائســ، والملامح المهزولة لهــذا الرجــل الذي مــن الواضح أنه ولــد لحياة كلها عمــل في الهواء الطلــق. كان حزن نيكليودوف لا ينــي يتعاظم. لقد أبى أن يصدّق أن مــا يرويه هذا البائس صحيح. أكان مــن الممكن حقاً انتزاع رجل من حياته العادية، بلا داع، وتجليله بسترة السجين، وحبسُه في هذا المكان الموحشــ؟ ومن جهة أخرى، فقــد كان يحسّ بهول أعظم وهو يفكر أن هذه الحكاية الساذجة التي تُروى بصوت بسيط وصريح، قد تكون اختلاقاً أو خدعة.

روى لــه السجين أن صاحب الحانة في قريته اختطف منه زوجته، بعد زواجهما فوراً. فلجأ إلى جميع الجهات المعنية ليحصل على حقه. لكن بدون جدوى، لأن صاحب الحانة قد رشا السلطات.

وذات يوم، أرجــع منشوف زوجته إلى البيت، بالقوة: فهربت في اليوم التالي. حينذاك عاد إلى صاحب الحانة، وطالب بزوجته. فأجابه صاحب الحانة أنها ليست عنده، وأمره أن يخرج. وبما أنه رفض، فقد ضربــه صاحب الحانة، بمساعدة عامل، حتــى أدماه. وفي اليوم التالي، احــترق مخزن صاحب الحانة. لكن منشــوف لم يكن هو الذي أحرق المخزن: كان، في ذلك اليوم في منزل صديق له.

– أحقاً، أنك لم تحرقه؟

– بـل إن ذلـك لم يخطر لي على بال، يا سيـدي. هو نفسه اللص، بالتأكيد! قيل إنه كان قد أمّن على مخزنه! وها إننا، أمي وأنا، نُتّهم بأننا هدّدنا بإحراق منزله. الحق أني، في هذا اليوم، ذهبتُ أطالبه بزوجتي. وقـد شتمتـه، وهددته، أما بإضـرام النار فلا! لم أكن هنـا عند اشتعال النار. هو الذي أشعل النار عمداً، واتهمنا بعد ذلك!

– أحقاً ما تقول؟

– هو حق، كما أن الله حق، يا صاحب السيادة!

وواصـل كلامه وهو يرتمي على قدمي نيكليودوف الذي جهد في أن يمنعه من ذلك:

– كنْ لي أباً. اشفق علي، أنا هالك، بلا داع...

أخـذ يبكي، وشفتـاه ترتجفان. كانت سترته مشمّـرة، وهو يمسح عينيه بكم قميصه الوسخ.

سأله نائب المدير:

– انتهيت؟

أجاب نيكليودوف:

– نعم.

ثم التفت إلى منشوف، قبل أن يخرج، ونصحه:

- لا تيأس. سنفعل كل ما هو ممكن.

وقف منشوف إزاء الباب، حتى إن الحارس اضطر أن يدفعه إلى الداخل، وهو يغلق الباب. وأبى البائس إلا أن يتطلّع من خلال الكوة، إلى أن انتهى الحارس من إقفال الباب.

× × ×

-٥٣-

عــاد نائب المديــر بنيكليودوف، مــرة أخرى، من خــلال الرواق الكبــير. كان الوقت وقت العشاء، وجميــع أبواب القاعات مفتوحة. عندمــا رأى نيكليــودوف هــذا الجمع مــن الرجال، يلبســون جميعاً بالطريقــة نفسهــا، ويتفرّسون فيــه بفضول، أحس بمزيــج غريب من العطف على هــؤلاء السجناء، ومــن الدهشة والاستفظــاع أمام هذه الفكــرة وهي أن يعمــد هؤلاء الرجــال إلى حبس أمثالهــم من البشر. كان مخجــلاً أن يشهد ذلك كله، بهدوء. وعند مروره، خرج كثير من السجناء من إحدى القاعات، واعترضوا طريقه، وهم يحيونه بإجلال قائلين:

- نتوسّل إليك، إعمل على أن يقرروا شيئاً بشأننا.

- لستُ من الإدارة، أنتم مخطئون، ليس بوسعي أن أفعل شيئاً لكم.

فاعترض صوت مستاء:

- لا أهمية لذلك. تستطيع أن تحدّث أحداً في الإدارة بشأننا.

نحن لم نفعل شيئاً، وها قد مضى شهران علينا هنا!

استفهم نيكليودوف:

– كيف؟ لماذا؟

– لقد زُج بنا في السجن. نحن هنا منذ شهرين، ونحن أنفسنا لا نعلم لماذا؟!

أكد نائب المدير:

– هذا صحيح، لكن الأمر غير مقصود بتاتاً. لقد أوقف هؤلاء الناس لأنهم كانوا يحملون جوازات انقضت مدّتُها، وكانوا سيرسلون إلى ولايتهم. ولكن السجن، في ولايتهم احترق، فرجونا ألا نرسلهم. جميع سجناء الولايات الأخرى أُرسلوا إليها، أما هؤلاء فنحن مضطرون إلى الاحتفاظ بهم.

دهش نيكليودوف، فدنا من الباب وألقى نظرة خاطفة على القاعة:

– أممكن هذا؟

أحاط جمع من نحو أربعين رجلاً بنيكليودوف ونائب المدير، وكلهم بثياب السجن. ورفع كثير منهم أصواتهم في آن واحد. إلا أن واحداً منهم، وهو فلاح قوي البنية قد دب إليه الشب، أخذ على عاتقه أن يتكلّم باسم رفاقه. فأوضح أنهم سُجنوا لأنهم لا يحملون جوازات سفر، مع أن جوازاتهم كانت معهم، في الحقيقة، لكن مدّتها

انقضت قبل خمسة عشر يوماً. كان ذلك يقع كل عام، دون أن يقول لهم أحد شيئاً، لكنهم أُوقفوا جميعاً هذه المرة، وهم منذ شهرين في السجن كالمجرمين.

نحن جميعاً عمال في مقالع الأحجار، ومن فريق واحد. وقد جئنا معاً لنعمل هنا. يُقال إن السجن احترق في ولايتنا. لكننا لسنا السبب في ذلك، فلسنا نحن الذين أحرقناه. بالله عليك، افعل شيئاً من أجلنا!

كان نيكليودوف يصغي إلى هذا الكلام في شيء من الشرود. لقد استرعى انتباهه، بالرغم منه، مرأى قملة ضخمة، رمادية، خرجت من راس عامل المقلع الطيب ودبّت على خده.

سأل نيكليودوف نائب المدير وهو يشيح بوجهه:

– أممكن هذا؟ ومن أجل هذا السبب الزهيد؟

– ما العمل؟ القانون يأمر بإرسالهم إلى ولاياتهم ليُحاكموا فيها.

ما كاد نائب المدير يفرغ من كلامه، حتى طلع من الجماعة رجل قصير القامة، وشرع بدوره في الكلام، متشكياً من الطريقة التي يعذّبهم بها الحراس، بلا داعٍ:

صرّح:

– إنهم يعاملوننا أسوأ مما يعاملون الكلاب...

فقال نائب المدير بحسم:

– دعنـا من هذا، دعنا! يجـب ألا تستغل تسامحنـا! أسْكت وإلا، فأنت تعلم...

فردّ عليه الرجل بلهجة المغتاظ:

– وما الذي سأعلمه؟ هل نستحق أن نوضعَ هنا؟

صاح حارس:

– اسكت!

فسكت الرجل.

قـال نيكليودوف في نفسه وهـو يتابع طريقه، في الـرواق، بينما كانت ترصده مئات العيون:

– هذا لا يُصدّق!

وقال لدليله عندما خرجا من الرواق:

– ينبغي ألا يُسمح بالإبقاء على الأبرياء في السجن.

– ما الحيلة في ذلك؟ أنت تعلم أن هؤلاء الرجال يكذبون كثيراً... إذا سمعتهم حسبتهم جميعاً أبرياء.

– لكن هؤلاء، على الأقل، أبرياء؟

– لنسلّـم بأن هؤلاء أبريـاء. لكن هذا الجنس مـن الناس فاسد إلى

أقصى حدود الفساد. وبدون القسوة لا يمكن أن ينجع فيهم شيء. لأن عندنا ها هنا أوغاداً رهيبين لا يرغبون إلا في الانقضاض علينا. وهكذا اضطررنا أمس إلى معاقبة اثنين منهم.

– كيف، معاقبتهم؟

– جَلْدهم بالسياط، بأمر عال.

– كنت أظن أن العقوبات الجسدية ملغاة؟

– هي غير ملغاة بالنسبة على السجناء المحرومين من حقوقهم المدنية.

تذكّر نيكليودوف حينئذ المشهد الذي حضره عشية أمس، في القاعة الكبرى. وأدرك أن الحراس كانوا قد باشروا هذه «المعاقبة» في أثناء انتظاره للمدير. فأحس إحساساً أشد من أي وقت مضى بهذا المزيج من الفضول والحزن والدهشة والخجل والاشمئزاز الذي يصل إلى حد الغثيان. وجرى إلى المكتب، دون أن يصغي إلى نائب المدير، ودون أن ينظر حوله. وجد المدير هناك، لكنه كان مشغولاً جداً، فنسي أن يستدعي بوغودو كفسكايا. ولم يذكر وعده إلا عندما رأى نيكليودوف يدخل المكتب. فهتف.

– ألف معذرة! سأستدعيها في الحال. تفضل واجلس ريثما تأتي.

× × ×

-٥٤-

كان المكتــب مكوّنــاً من غرفتــين. في الغرفة الأولى التــي تضيئها نافذتان، وتزيّنها مدفأة مغطاة بالوسخ، يرى الناظر على أحد الجدران مسطرة ســوداء لقياس قامة السجناء، وعلى جــدار آخر صورة كبيرة للمسيــح على الصليب، وكأنهم كانوا يلهون بوضع صورته في أمكنة التعذيــب، استهزاء بمذهب المخلّص. كانت هــذه القاعة الأولى فارغة تقريباً إلا من بعض الحراس فيها.

وكانت الغرفة الثانية، وهي أكبر من تلك، تحتوي على نحو عشرين شخصــاً من الجنســين، يجلسون في جماعات منفصلــة، على مقاعد بحذاء الجــدار. كانوا يتحدّثون بصوت خافت. وفي ركن من الغرفة، قرب إحدى النافذتين، وضعت طاولة كان يجلس إليها المدير، عندما دخــل نيكليودوف. وبعــد أن أجلسه المدير قــرب الطاولة. ذهب إلى الغرفــة المجاورة ليأمر باستدعاء بوغودو كفسكايا فأتيح لنيكليودوف أن يلاحظ، من موقعه، ما يجري حوله.

استرعــى انتباهه، قبل كل شيء، مرأى شاب بسترة قصيرة، جذّاب الطلعــة، يقف بين شخصين جالسين، فتاة وسجين. كان يقص عليهما

شيئـاً بإيمائيـة شديدة الحركة. وأبعـد منهم، رأى نيكليـودوف شيخاً بنظارتـين سوداوين كان يصغي بشوق إلى ما تقوله فتاة سجينة أمسك بيدها. وبقرب الشيخ، وقف صبي بان على وجهه التفكّر والهلع، و لم يحـوّل نظره عنه. وفي زاوية مـن الغرفة، خلف هؤلاء، عاشقان أخذا يتهامسان بفرح. كانت الشابة الأنيقة اللباس، شقراء، جميلة، متميّزة الشكل. أمـا عشيقها فكان سجيناً، جميل الوجـه، قوي القسمات؛ وكان يرتـدي سـترة مشمعة مكسـوة بالمطاط. وعلـى خطوات من الطاولـة، بحذاء الجدار الآخر، رأى نيكليودوف امرأة رمادية الشعر، ترتدي ثياباً سوداء، أماً من غير شك: كانت تلتهم بعينها شاباً مسلولاً، وتحـاول أن تكلّمه. بدأت كلمـة، وخنقتْها عبراتُهـا، فتوقّفت، على الفـور. وأخذ الشاب الذي تضايق يطوي ويفرك بحركة آلية ورقة في يـده. وكان هو أيضاً يرتدي سترة مكسـوة بالمطاط. وبجنبهما، رأى نيكليـودوف فتاة ساحـرة في فستان رمادي، وعلـى كتفيها وشاح، تجلس ملاصقة لأمهـا التي تبكي، وتحاول جهدهـا أن تخفف عنها، مداعبـة بهدوء ذراعهـا. كل شيء في هـذه الفتـاة كان ينبئ بالجمال الخالص: يداها الطويلتان والبيضاوان، شعرها المتموج والقصير، أنفها المستقيـم، فمها الصغير؛ لكن السحـر الرئيسي لوجهها الخلاّب كان يأتـي من عينيها النجلاوين البارزتـين، السمراوين، من عينين يفيضان عذوبة وصراحة وطيبة.

بينمـا كان نيكليـودوف يتأمل بفضول هذه الجماعـات المتنوعة. وهو جالس قرب المدير، اقترب الصبي منه، وسأله بصوت نحيف:

– وأنت، مَنْ تنتظر؟

دهش نيكليودوف، في بادئ الأمر، من السؤال، لكن وجه الصبي المتفكّر، وعيناه اليقظتان، الحركتان، كل ذلك أثّر فيه. فأجابه بأرصن جواب أنه كان ينتظر امراة يعرفها.

استعلم الصبي:

– أهي أختك؟

– لا، ليست أختي، لكن أنت، مع مَنْ أنت هنا؟

أجاب الصبي باعتزازٍ ظاهر:

– أنا، مع أمي! هي في قسم السياسيين!

صاح المدير الذي رأى، من غير شك، في حديث الصبي مع نيكليودوف مخالفة للنظام:

– ماريا بافلوفنا، خذي «كوليا»!

نهضت ماريا بافلوفنا، الفتاة الجميلة الجالسة على خطوتين من نيكليودوف، وتقدّمت نحوهما، وهي تبتسم، وتنظر على نيكليودوف في وجهه، بعينيها البارزتين:

– لاشك أنه سألك مَنْ أنت؟

كانت ابتسامتها ونظرتُها ونبرتُها بسيطة جداً بحيث يرى المرء على الفور أنها تحس بحريتها دائماً، مع الجميع، وأنها لاتحمل للجميع إلا عواطف المودة والإخاء.

واستأنفت:

– إنه يريد دائماً أن يعرف كل شيء!

وابتسمت للصبي ابتسامة عذبة جداً وحنونة جداً حتى أن الصغير، مثله مثل نيكليودوف نفسه، ابتسما لها راداً على ابتسامتها، على نحو غير إرادي.

– نعم، سألني عمّن جئتُ من أجله.

تدخّل المدير:

– ماريا بافلوفنا، ليس لك الحق أن تكلّمي الغرباء، تعلمين ذلك!

– طيّب، طيّب!

وابتسمت وعادت إلى جانب أم المسلول، وهي تمسك بيدها الطويلة والبيضاء يد كوليا.

سأل نيكليودوف المدير:

– إبن مَنْ هو؟

أجاب المدير بشيء من الرضا، وكأنه كان يلتذّذ بأن يلفت الأنظار إلى إحدى نوادر مؤسسته.

– ابن سجينة سياسية، وقد وُلد في السجن.

- حقاً!

- نعم، وسيذهب الآن إلى سيبيريا، مع أمه.

- وهذه الفتاة؟

فأعلن المدير:

- عفواً، ليس لي الحق أن أجيبك عن ذلك كله. على كل حال هذه هي «بوغودو كفسكايا».

× × ×

-٥٥-

ومـن بـاب الصدر، دخلـت بخطواتهـا الرشيقة، فـيرا ايفريموفنا القصـيرة، المهزولـة، الصفراء، القصـيرة الشعر، التـي تعكس عيناها الواسعتان الطيبة.

قالت وهي تمد يدها إلى نيكليودوف.

- أشكرك على مجيئك. أما تزال تذكرني؟ تعال نجلس.

- ما كنتُ أتوقع أن أراك هكذا.

فأكّـدت فـيرا ايفريموفنـا، وهـي تثبّـت في نيكليـودوف عينيها المدورتـين، ولا تفتـأ تدوّر عنقهـا الطويل والنحيل الـذي برز من قبة سترتها الوسخة والمدعوكة، في كل الاتجاهات.

- أوه! أنا في حالة حسنة هنا، حتى أني لا أتمنى خيراً مما أنا فيه.

وعندما سألها نيكليودوف لماذا وُضعتْ في السجن، بدأت، بكثير من الحماسة، قصة مفصّلة أدق تفصيل تحتل فيها مغامراتُها مكاناً أدنى بمـا لا يُقاس من منظّمـة «حزبها» ومشاريعه. وكانـت قصتها مزدانة

بألفـاظ غريبة. كانت تتحدث عن «الدعاية» و»المنظمة» و»الجماعة» و»الأقسـام» و»فـروع الأقسـام»، وتستخـدم تعابير مـن المفردات الثوريـة. لقد كانت، مـن غير شك، مقتنعة بأن جميـع الناس يعرفون هـذه التعابير، لكن نيكليودوف كان يسمعها لأول مرة. كانت تروي له ذلك كله وهي على يقين من أنه سيجد أعظم السرور، وسيهتم أقصى اهتمام بمعرفة هذه المنظمة في جميع تفاصيلها. كان نيكليودوف يسأل نفسه، وهو ينظر إلى هذا العنق النحيل، وهذا الشعر القليل والأشعث، وهاتين العينين المدوّرتين، لماذا كانت تحدّثه عن ذلك كله، ولماذا كانت هـي نفسها معنيّة به. كان يرثي لحالهـا، ولكن بطريقة مختلفة عن التي كان بهـا يرثي لحال الفلاح منشوف بوجهه المتقع ويديه الشاحبتين، والمحبوس في زنزانتـه الموبوءة، بـدون داع. لم يكن يرثـي لها على هـذا المصير الذي قادت نفسها إليه، لكـن على الفوضى المهيمنة على رأسهـا. كان واضحاً أن البائسة ترى نفسها بطلة، وتتصنع أمامه دور البطلة، وعلى هذا كان يرثي لها قبل كل شيء.

أما القضية التـي أرادت فيرا ايفريموفنا ان تحدّث عنها نيكليودوف فكانـت معقّـدة بالرغـم مـن كل شـيء. ذلـك أن رفيقة لهـا تُدعى شوستـوف أُوقِفت في الوقـت الذي أُوقِفت فيه، قبـل خمسة أشهر. وسُجنتْ في حصن «بطرس وبولس»، مع أنها لم تكن في عداد أعضاء أي فرع. لقد عُثر عندها فقط على وثائق وكتب أودعها عندها رفاقها. اعتـبرت فيرا ايفريموفنا نفسها مسؤولة جزئياً عن حبسها. ورغبت أن ترجو نيكليودوف «الذي له معـارف» أن يبذل وسعه لإطلاق سراح شوستوفا.

وأمـا قصتهـا هي نفسهـا، فقد روت كيـف أنها، بعـد أن أنهت دراستهـا كقابلـة، انتسبت إلى قسـم «محرري الشعـب». لقد قرأت «رأس المال» لكارل ماركس، وعزمـتْ على أن تكرّس نفسها كاملة من أجل تقدّم الثورة. وفي بادئ الأمر. سار كل شيء على مايُرام. فقد كتبتْ المنشـورات، وقامت بالدعاية في المناجـم. لكن أحد الأعضاء أُوقِـف ذات يوم، ووضعت الشرطة يدها على بعض المستندات، فُزجّ بالقسم كله في السجن.

سألهـا نيكليودوف مَـنْ تكون تلـك الفتاة الجميلـة. فروت فيرا ايفريموفنـا أنها ابنة جـنرال. وأنها انتسبت منذ زمـن بعيد إلى الحزب الثـوري، واعترفت بإطلاق النـار من مسدّس علـى دركي. ذلك أن الشرطة عندما داهمت الشقـة التي كان يستخدمها الحزب لمداولاته. سـد الأعضـاء الذين كانـوا فيها الأبـواب، حتى يتسنّى لهـم إحراق المستندات المعرّضة للشبهـة. أو إخفاؤها. لكن الشرطة انقضت على المتآمرين بعد أن خلعت الأبواب. فأطلق أحدهم طلقة مسدس أصابت دركيـاً إصابة قاتلـة. وفُتح التحقيق علـى الفور لاكتشـاف الفاعل، فادّعت الفتاة مسؤولية ما جرى، مع أنها لم تمسك بيدها مسدساً قط. واضطر التحقيق إلى اعتبار اعترافها صحيحاً، وحُكم عليها بالأشغال الشاقة، وهي الآن على وشك الذهاب إلى سيبيريا.

واختتمت فيرا ايفريموفنا كلامها:

– شخصية لها شأنها، غيريّة إلى أبعد الحدود.

القضيـة الثالثـة التـي أرادت أن تحـدّث نيكليـودوف عنها تتعلق

بماسلوفا. كانت هذه الشابة تعــرف قصتها، كما يعرفها السجن كله، وكانــت تعرف اهتمام نيكليودوف بها. وقد أرادت أن تُشير عليه بأن يعمل علــى نقل محميّته إلى مصلحة التمريضـ حيث كانوا بحاجة إلى مساعدات إضافيــات. فشكرها نيكليودوف على نصيحتها ووعدها بأن يبذل جهده بهذا الشأن.

× × ×

-٥٦-

قطع حديثهما المدير الذي أعلن، وهو ينهض، أن الوقت المخصص للزيارات قد انتهى. فاستأذن نيكليودوف فيرا ايفريموفنا وهمّ بالخروج؛ لكنه وقف عند عتبة الباب، وهو يتوق إلى حضور وداع الزوار الآخرين.

لم يكن لتنبيه المدير من أثر سوى أنه جعل المحادثات أشد سرعة ونشاطاً، دون أن تبدو على أحد الرغبة في الانصراف. جماعتان أو ثلاث فقط نهض أفرادها وأخذوا يتحدثون وهم وقوف. وأقبل بعضهم على الوداع بالنحيب والدموع. أم الشاب المسلول بخاصة بدت مزعزعة. ظل ابنها يدعك بين أصابعه الورقة. ورأى نيكليودوف وجهه يتخذ تعبيراً كريهاً، فيما يبذل من جهد ليقاوم عدوى اليأس لدى أمه. وأسندت هذه رأسها على كتف الشاب، وأخذت تذرف الدموع الغزار، كأنها طفل. ووقفت الفتاة الجميلة – كان نظر نيكليودوف يعود إليها في كل لحظة عفوياً – أمام الأم المفجوعة وهي لا تني تفيض عليها من مؤاساتها. وظل الشيخ ذو النظارة محتفظاً بيد الطفلة في يديه، هازاً رأسه لكل ما تقوله. ونهض الحبيبان ووقفا بلا حراك، متواجهين، وعينا كل منهما في عيني حبيبه.

قــال الشاب ذو الســترة القصيرة لنيكليودوف، وهــو يشير إليهما بأصبعه:

– هــذان علــى الأقل، سعيــدان. سوف يتزوجان هــذا المساء، في السجن، وستلحق به إلى سيبيريا.

– وهو، من هو؟

– محكومٌ بالأشغال الشاقة.

وأردف الشــاب وهــو ينبّه نيكليــودوف على نحيــب أم المسلول المؤثر.

– هذان فرحان، على الأقل. أما هذا النحيب فما أفظع سماعه!

صاح المدير، وهو يردد كلا من جمله عدة مرات:

– هيا، يا سادة، أرجوكم، لا تضطروني على استخدام القسوة.

وتابع بصوت خافت متردد:

– هيا، هيا! ما معنى ذلك؟ وقت الزيارة انتهى منذ زمن بعيد! هذا مستحيل! أقول ذلك للمرة الأخيرة!

كان ينهضـ ويعـود إلى الجلوسـ، ويسحب نفساً مــن سيجارته، ويدعُهـا تنطفــئ، ويشعلها مرة أخـرى. كان واضحــاً أنه مهما تكن متأصلــة في المديـر، تلك الحجج المموّهة التي تُبيــح لإنسان أن يُعذب الآخريـن دون أن يحسب نفسه مسؤولاً عن آلامهم، فلم يكن بوسعه الامتناع عن الشعور بأنه أحد فاعلي هذا الكرب المرعب الذي يهيمن

على هذه الأمكنة. كان واضحاً أنه يتألم هو أيضاً، وأن عبئاً مؤلماً يثقل قلبه.

وأخيراً أخذ السجناء والزوار يفترقون. اتجه بعضهم إلى الباب الذي في الصدر، واتجه آخرون إلى البـاب الذي يطلّ على الغرفة المجاورة. ومن الباب الذي في الصدر، رأى نيكليودوف ابنة الشيخ ذي النظارة السوداء، والمسلـول والمليحة ماريا بافلوفنا أيضـاً، وهي تمسك بيدها الصبي الـذي وُلِد في السجن، رآهم يخرجـون: ثم جاء دور الزوار، فخرج نيكليودوف معهم.

قـال له، على السلم، الشـاب ذو السترة القصيرة الذي كان يحب الحديث، فيما يبدو:

– هذه الاجتماعات غريبة. من حسن الحظ أن النقيب رجل طيب لا يتمسك بالأنظمة أكثر من اللازم. حسن أن يُسِرَّ المرء عن قلبه.

عندمـا بلغ نيكليودوف البهو، وهو يحـدّث ميدنتسيف. –هكذا قدّم الشاب المهذار له نفسه– لحق به المدير، وقد بدا منهوكاً:

– إذا شئت أن ترى ماسلوفا، فتعال غداً، يا أمير.

قـدّر نيكليـودوف أن المدير كان تواقـاً إلى أن يكـون لطيفاً معه. فأجابه نيكليودوف، وهو يسرع في الخروج:

– شكراً حزيلاً.

وخالجه إحساس بالاشمئـزاز والرعب أقوى من الإحساس الذي خالجـه في الأحـد الماضـي، عندما دخـل لأول مرة أروقـة السجن.

مرعبة كانت تبدو لـه آلام منشوف، الذي حُكم عليه ظلماً. لا الآلام الجسدية فقط، بل ذلك الشك، تلك الريبة إزاء الله والخير التي ساورت الفلاح البائس وهو يرى وحشية الذين تحاملوا عليه، بلا داع. مرعب أيضاً سجن عمال المقالع الذين لم يرتكبوا خطيئة، ومرعب العذاب الذي يعانونه. لقد ألزموا السجن لمجرد أن أوراقهم غير نظامية. مرعب أيضاً جنون هؤلاء الحراس الذي لا شغل لهم سوى تعذيب أناس آخرين، متصوّرين أنهم يؤدون عملاً نافعاً وصالحاً. وأشد إثارة للرعب والاشمئزاز والشفقة مابدا لنيكليودوف من دور هذا المدير العجوز الذي كان عليه أن يُفرق بين الأم وابنها، والأخ وأخته، وأن ينكّل بأمثاله وأمثال أولاده، من البشر، وأن يفعل ذلك مُذعناً بالرغم من تعبه وكبر سنه، وبالرغم من طيبة قلبه الطبيعية.

تساءل نيكليودوف:

- لمَ كل ذلك؟

لم يتوصل أبداً إلى فهم هذا السؤال، إلى العثور على جواب عنه.

× × ×

-٥٧-

في اليـوم التـالي قصـد نيكليودوف إلى منـزل المحامـي فانارين، وعرضَ له حالة منشـوف، ورجاه أن يتـولى قضيته بنفســه. فأجابه المحامـي بأنه سيفحص إضبارته، وإذا كانت الأمـور قد وقعت حقاً كمـا روى منشوف، فإنه لن يرضى فقط بتـولي القضية، لكنه سيقوم بأعبائهـا مجاناً. سيغتبط جـداً بهذه المناسبة التي تتيح له أن يكشف عن ضلال القضاء.

ثـم حدّثـه نيكليـودوف بعد ذلك عـن المائة والثلاثـين عاملاً من بائسي المقالـع الذين أُودعوا السجن لأنهم أبـرزوا جوازات انقضت مدتُهـا. أراد أن يعلم بمن تتعلق المسألة وعلى من تعود المسؤولية. فكّر فانارين وكأنه يتعب نفسه للعثور على جواب دقيق. ثم قال أخيراً:

- على من تعـود المسؤولية؟ لا تعود على أحد. اسأل النائب العام فسيُلقي التبعة كلها على الحاكم. واسأل الحاكم فسيؤكد لك أن النائب العام وحده هو المسؤول. وفي النهاية لن تجد مخطئاً!

- سأذهب في الحال إلى ماسلينيكوف لأطلعه على القضية.

- ستضيع وقتك! فهو -لكن عفواً، إنه ليس قريباً ولا صديقاً لك، أليس كذلك- فهو، اسمحْ لي بهذه الكلمة، غبي ونذل، في منتهى الغباء والنذالة!...

تذكّر نيكليودوف بأي الألفاظ حدّثه ماسلينيكوف عن فانارين. فاستأذن، دون أن يرد عليه، ومضى إلى نائب الحاكم. وعزم أن يطلب منه شيئين: أولاً السماح لماسلوفا بالانتقال إلى مصلحة التمريض. ثم إطلاق سراح عمال المقالع المسجونين دون داع، إن أمكن. ومهما يكن نفوره من التماس هذا الطلب من رجل كان يحترمه فقد قال لنفسه: إن هذا هو السبيل الوحيد لبلوغ مأربه.

عندما اقترب نيكليودوف من منزل ماسلينيكوف، رأى أمام المدخل صفاً من العربات المجهّزة للسير، العربات المقفلة، العربات التي يجرها جوادان، العربات الفاخرة التي تجرها أربعة جياد، وتذكّر أن هذا اليوم هو يوم الإستقبال عند السيدة ماسلينيكوف، يوم الاستقال الذي دعاه زوجها إليه بإلحاح. ومن عربة فخمة، واقفة أمام مدخل الدرج، عمد الخادم المكلّف بإدخال المدعوين، وهو خادم بهي الطلعة، عليه وشاح من الفرو، وفي قبعته زينة من ريش، إلى مساعدة سيدة على النزول، وقد رفعت السيدة ذيل ثوبها فأرت ساقها الهزيلة المغطاة بجورب حريري أسود. وبين العربات التي كانت تنتظر في الفناء، تعرّف نيكليودوف عربة كورتشاغين. وعندما شاهده حوذيها العجوز، السمين والأحمر الوجه، رفع قبعته، وابتسم له ابتسامة يمتزج فيها الاحترام والدالة العائلية.

لم يكد نيكليـودوف يسأل البـواب إن كان ميشيل ايفانوفتش في منزلـه. حتى ظهر هـذا بشخصه في أعلـى السلم. كان يـودّع ضيفاً لابـد أن يكون شخصية ذات أهمية كبـيرة، ذلك أنه كرّمه بمرافقته إلى أدنى الدرج والواقع أن نيكليودوف تعرّف فيه أحد كبار الموظفين في الدّولة، كان يحدّث ماسلينيكـوف بالفرنسية، وهو ينزل السلم، عن اللوحات الحية التي يُنوي إقامتُها لمصلحة أحد أعمال البر والإحسان. وأبدى رأيه في أن هذه هي المشاغل الممتازة اللائقة بالسّيّدات، فهتف قائلاً:

– هنّ يتسلين والمال ينهمر عليهن! فَلْيتسلّين وليباركهن الله.

لكنه توقّف فجأة عن متابعة أفكاره الأخلاقية، وهتف:

– عجباً! هوذا نيكليـودوف الطيب! كم طال غيابك عنا! إذهب بسرعة وقدّم واجباتك للسيدة. فآل كورتشاغين صاروا فوق!

وأضـاف وهـو يمدّ ظهـره العريض للخـادم الذي قـدّم له معطفه باحترام:

– ونادين بوكسهوفـدن أيضـاً! وجميع جميـلات المدينة... إلى اللقاء، يا عزيزي.

وشد لآخر مرة على يد ماسلينيكوف الذي التفت إلى نيكليودوف حالما انصرف الزائر المهم:

– لنصعد إلى قاعة الاستقبال بسرعة. ما أعظم سروري برؤيتك!

بـدا مهتاجـاً. أمسـك نيكليـودوف مـن ذراعه، وجـرى بخفة الشبـاب، على الرغم من بدانته، وجـرّه إلى السلم هذا الهياج الفَرح، كان سببـه الرئيسـي، كما شاهـد نيكليودوف بوضـوح، هو سروره بمظاهر الاحـترام التي أبداها نحوه الموظف الكبـير. إن اللطف الذي عامله بـه هذا الموظف الكبير، ولد فيه حماسـة شبيهة بالتي تُلاحظها عنـد صغار الـكلاب المنزلية عندمـا يداعبها صاحبهـا، أو يهزّها، أو يقبض على أذنها. فتُحرِك هذه الكلاب ذيلها، وتتلوّى أو ترقص دائرة على نفسها، دون أي سبب. كل هذا، كان ماسيلنيكوف مستعداً لأن يفعله. لم يلاحظ ملامح وجه نيكليودوف الرصينة، فجرّه بفرح نحو القاعـة، من غير أن يصغي إليه. كان من المستحيل مقاومته أو الإعتذار منـه. وكان لزامـاً على نيكليـودوف أن يتبعه: وقال وهـو يقوده عَبْرَ البهو:

– سـوف نتحدث في الأعمال، بعـد قليل! ثم إنك تعلم أن كل ما تطلبه سأفعله!

وأمر الخادم قائلاً:

– انبئ الجنرالة أن الأمير نيكليودوف هنا.

ثم التفت إلى نيكليودوف وقال ممازحاً:

– ما عليك إلا أن تأمر فأطيعك! لكن يجب أن ترى زوجتي أولاً، لابد من ذلك. كفاني ما لقيتُه من عقاب، في ذلك اليوم، لأنني تركتك تنصرف دون أن آخذك للسلام عليها.

عندمـا دخلا قاعة الاستقبال، أرسلت لـه آنا اغناتفنا، زوجة نائب الحاكـم، أو «الجنرالـة» كما كانـت تُدعى، غمزة خفيفـة من عينيها، غمـزة لا ألطف منها، من فوق حلقة الرؤوس التي أحاطت بأريكتها. وفي الطـرف الآخر من القاعة، حول مائدة الشاي، جلست سيدات، يتحدثـن مع رجـال واقفين أمامهـن. كان يُسمـع دوي لا ينقطع من الأصوات الخفيضة أو الزامرة.

– جئت أخيراً! مالك تُعرض عنا؟ أغاضب أنت؟ وماذا فعلنا لك؟

مع هـذه الكلمات التي توهـم بأن بين نيكليـودوف وبينها مودة صميميـة، في حـين أنـه لم يكن بينهما شـيء من ذلـك، استقبلت آنا اغناتفنا الوافد الجديد.

– بينكم معرفة، أليس كذلك؟ السيدة بيلافسكي، ميشيل ايفانتش شيرنـوف... هيا، اجلس هنـا، إذن مني! ميسي، تعـالي إلى مائدتنا، سيُحمل إليك شايُك...

وتابعـت مخاطبة الضابط الذي كان يحـدّث ميسي، والذي اتضح انها نسيت اسمه:

– تعال إلى هنا، أرجوك، أيها الأمير. أتريد شاياً؟

قال صوت امرأة:

– لن تُقنعوني بذلك. لم تكن تحبه. هذا كل ما في الأمر.

– لكنها كانت تحب الحلوى الصغيرة.

فتدخلت سيـدة أخرى عظيمة القبعة، متوهّجـة بالحرير والذهب والحجارة الكريمة:

– أنت لا تتركين أبداً هذه النكت الحمقاء.

– ممتاز هذا البسكويت، وخفيف جداً. أعطني أيضاً واحدة منه.

– أتسافرين قريباً إلى الريف.

– نعـم، غـداً. من أجـل ذلك جئنا اليـوم. ما أجمل هـذا الربيع! سيكون الجو بديعاً، تحت الشجر!...

كانت ميسي جميلة جداً. لقد وضعت على رأسها قبعة، وارتدت فستانـاً من نسيج مخطـط أبرز إبـرازاً رائعاً قامتهـا النحيفة. احمرّت عندما لمحت نيكليودوف. وقالت له:

– ظننتُك سافرت.

أجاب نيكليودوف:

– أنـا على وشك السفـر. إن أعمالي تستهلك وقتي كله، حتى إلى هنا، ما جئتُ إلا لعمل.

– أرجـوك أن تأتي لـترى أمي قبل سفرك. فهـي بحاجة ماسة إلى رؤيتك.

قالت ذلـك واحمرت خجـلاً لشعورها أنها تكـذب، وازدادت حمرة لشعورها أنه يعلم ذلك.

أجاب نيكليودوف بلهجة حرصَ على أن يجعلها لا مبالية:

– أخشى ألا أجد الوقت!

هـزّت ميسي كتفيها هزاً خفيفاً، وهـي مقطّبة الحاجبين، والتفتت إلى الضابـط المتأنـق الـذي كانت تحادثـه عندما دخـل نيكليودوف، فسارع إليها ليأخذ من يديها فنجانها الفارغ، وصدم الكراسي بسيفه وهو يمرّ..

– ... وأنتِ أيضاً، ينبغي أن تضحّي بنفسك في سبيل ملجئنا...

– لكنـي لا أرفض ذلك! أريد فقط أن أحتفـظ بمواردي للوحات الحية! سترين كيف سأكون في المستوى المناسب.

قال صوت بنبرة مرائية واضحة، وهو يضحك:

– سوف ترين ذلك.

كان يوم استقبال آنا اغناتفنا من أكثر الأيام تألقاً، وكانت ربة البيت في نشوة خالصة.

قالت لنيكليودوف:

– قال لي «ميكا» إنك تهتم بسجوننا. وأنا أفهمك أحسن فَهْم. قد تكون لميكا (ميكا هو زوجها الضخم ماسلينيكوف) أخطاؤه، لكنك تعلم كم هو طيب! جميع هؤلاء السجناء البائسين، هم أولاده، قال لي ذلك هو نفسه. إنه لذو طيبة...

وتوقفــت لأنها لم تعثر على كلمة معبّرة، علــى نحو كاف لتعرّف «طيبة» زوجها. وفجأة، التفتت، وهي تبتسم، إلى سيدة عجوز عابسة الوجه، سيدة غارقة في شرائطها الليلكية، دخلت قبل هنيهة.

بعد أن بادلها نيكليودوف بعض الكلمات التافهة، كما تأمر بذلك المواضعات، نهض ليلحق بماسلينيكوف.

– أيمكنك أن تمنحني لحظة؟

– بدون شك! ما الأمر؟ لندخل من هنا.

أدخله ماسلينيكوف مكتباً يابانياً ملاصقاً لقاعة الاستقبال. وجلس كلاهما قرب النافذة.

× × ×

-٥٨-

– حسنـــاً أنا في خدمتك. أتحب أن تدخن؟ لكن انتظر ثانية. سآتي بمنفضة قبل أن نتسبب بحادثة.. أنا مصغ إليك!

– أود أن أطلب منك معروفين.

اكفهــرّ وجه ماسلينيكوف. لم يبق فيه أثر من الهياج الفرح، هياج الكلب الصغير الذي أنعم عليه صاحبه بالمداعبة. ومن قاعة الاستقبال وافَــت ضوضاء أصوات، صوت امرأة تقــول: أبداً، أبداً، لن أصدّقه! وأبعــد منــه صوت رجل يــروي قصة تــردد فيها، بلا انقطــا ع، اسم الكونتيســة فورونتسوف واسم فيكتــور ابراكسين. وترافق ذلك كله بهمســ مختلط وبقهقهات، حتى إن ماسيلنيكــوف كان يصغي بأذن، ويعير إيضاحات نيكليودوف أذناً أخرى شاردة.

بدأ نيكليودوف كلامه قائلاً:

– أولاً، أودّ أن أطلب منك مرة أخرى، شيئاً لهذه المرأة التي...

– آه! نعم، تلك التي حُكم عليها ظلماً، أعلم، أعلم!

– أود أن أرجوك نقلها إلى المشفى. قيل لي إن ذلك ممكن.

فكّر ماسلينيكوف لحظـة، وشفتاه مزمومتان، وتردّد وهو يتكلّف الوقار وقال:

– لا أعرف حقاً إن كان ذلك ممكناً. سأستخبر عن ذلك. وسأُبرق لك غداً.

– قيل لي إن هناك كثيراً من المرضى، وأن هناك حاجة إلى ممرّضات إضافيات.

– سنرى، سنرى. على كل حال، سأُبرق لك بالجواب.

أكد نيكليودوف:

– سأكون شاكراً لك أعظم الشكر.

ومـن قاعـة الاستقبـال، تناهـت فجـأة قهقهـة صاخبـة: فقـال ماسلينيكوف وهو يبتسم:

– اراهن أنـه أيضاً هذا المهرّج فكتور... لا تستطيع أن تتصوّر كم يمكنه أن يكون مضحكاً!

واستأنف نيكليودوف:

– أمـا الموضوع الآخر الذي أودّ أن أحدّثك عنه، هو أن في سجن الولاية فريقاً من مائة وثلاثة عاملين حُبسوا لمجرد أن جوازاتهم مضت مدتُها. وهم في السجن منذ أكثر من شهر.

وعَرضَ تفاصيل القضية، فسأله ماسلينيكوف الذي عكس وجهه شيءٌ من القلق ممتزجٌ باستياء كبير:

– وكيف عرفت كل هذا، يا ترى؟

– كنت ذاهباً لرؤية سجين، وبما أني كنت أمر في الرواق، استوقفني هؤلاء البؤساء ليرجوني...

– ومن ذلك السجين الذي ذهبت لرؤيته؟

– فلاح اتُّهِم زوراً بإضرام النار، واهتممتُ بأن أجد محامياً يدافع عنه. لكن ذلك لا علاقة له بموضوع زيارتي. ما أود معرفته منك هو إن كان هؤلاء العمال لم يرتكبوا، بالفعل خطيئة غير كون جوازاتهم مخالفة للنظام، وفي هذه الحالة...

قاطعه ماسلينيكوف بلهجة حانقة:

– هذا من اختصاص النائب العام. آه! مِن هؤلاء القضاة! قل عنهم ماشئت! فعلى النائب العام أن يزور السجون، وأن يرى إذا كانت الاعتقالات قانونية. أجورهم تُدفع لهم من أجل ذلك، وهو لا يفعل شيئاً؛ إنه يلعب الهويست.

سأله نيكليودوف، وقد تذكّر أن المحامي حذّره من أن الحاكم والنائب العام سيلقي كل منهما المسؤولية على الآخر:

– بمعنى أنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً؟

– كيـف، لا أستطيـع أن أفعل شيئاً؟ بلى، سآمـر بالتحقيق. هتف صوت امرأة في قاعة الاستقبال:

– هذه غلطتها! إنها كبش الفداء!

وتعالت، مرة أخرى، القهقهة العامة.

اختتـم ماسلينيكـوف كلامه، وهو يطفـئ سيجارته بـين أصابعه الغليظة، أصابع يده البيضاء التي برزت فيها فيروزة، فقال:

– اتفقنـا، يا عزيزي، سأفعل ما هو ضـروري. والآن، ما رأيك لو عُدنا إلى أولئك السيدات؟

لكن نيكليودوف أوقفه عند عتبة القاعة:

– قيـل لي إن سجينـين عوقبا بالجلـد، في يوم غير بعيـد، هل هذا صحيح؟

غدا ماسلينيكوف قرمزياً.

– آه! قيل لـك ذلك؟ لكن، يا عزيزي، يجب حتماً ألا يُسمح لك بـأن تدسّ أنفك في كل مـكان! تريد أن تعرف كل شـيء! هيا، هيا، فآنيت تنادينا.

وأخـذ نيكليودوف من ذراعه مُظهـراً الحماسة ذاتها التي أظهرها عند زيـارة الشخصية الرفيعة المنزلة، لكـن حماسته، في هذه المرة، لم تكـن تأتي من الفـرح بل من القلق. تخلّص نيكليـودوف من قبضته.

واجتــاز القاعة، دون أن يحيّي أحداً، ودون أن يفوه بكلمة، ومرّ أمام الخدم الذيــن وثبوا ناهضين عند مرآه، ثم مــر بغرفة الانتظار، وخرج إلى الشارع.

سألت آنيت زوجها:

– ماله؟ هل أزعجته بشيء؟

قال أحدهم:

– ذهاب على الطريقة الفرنسية...

– كيف على الطريقة الفرنسية! على طريقة الزولو...

– لقد كان دائماً هكذا.

نهض شخص ليخــرج، ودخل آخر، واستؤنفــت الثرثرة أشد من ذي قبــل. استغل الجميــع فصل نيكليودوف باعتبــاره موضوعاً ممتازاً للحديث، في يوم محدد من أيام الاستقبال.

في اليــوم التالي، تلقّى نيكليودوف من نائب الحاكم رسالة مكتوبة علــى ورق صقيــل، ومزينــة في أعلاهــا بشعــار بديع. وفيهــا يذكر ماسلينيكوف أنه استخبر عن إمــكان نقل المرأة ماسلوف إلى المشفى، فوجــد أن الأمــر ممكــن على الأرجــح. وفــوق التوقيع الــذي ازدان بالأحرف الأولى مكتوبة على نحو شديد التعقيد، كتب ماسلينيكوف «رفيقك القديم».

فلم يستطع نيكليودوف أن يمتنع عن الهتاف.

– الغبي!

لقد أذهلته كلمة «رفيق»، لأنه رأى فيها تنازلاً من جانب ماسلينيكوف. كان ماسلينيكوف يعتبر نفسه شخصية عظيمة الأهمية، وهو يشغل منصباً من أحقر المناصب... لقد اعتقد، وهو يكتب: «رفيقك»، أنه إن لم يرضِ غروره، فهو، على الأقل، يُثبت حرصه على أن ينسى عظمته الخاصة إزاء «رفيقه».

× × ×

-٥٩-

من بين أكثر الأحكام المسبقة تأصلاً وشيوعاً، حكم مسبق يقوم على الاعتقاد بأن لكل إنسان، في ذاته، بعض الصفات المحددة؛ فهو صالح أو شرير، ذكي أو غبي، نشيط أو خامل، وهكذا دواليك. ولا أساس لذلك، في الواقع. يمكننا أن نقول عن إنسان إن الصلاح أغلب عليه من الشر، والذكاء أغلب من الغباء، والنشاط أغلب من الخمول، أو العكس. أما ذلك الحكم المسبق ففيه تجاهل للسمة الحقيقية في الطبيعة البشرية، وهو خطأ نرتكبه يومياً. الناس كالأنهار، كلها من ماء واحد، لكن الواحد منها يكون عريضاً تارة، وضيقاً تارة أخرى، بطيئاً تارة وسريعاً تارة أخرى، دافئاً تارة وجليدياً تارة أخرى. والناس أيضاً يحملون في أنفسهم بذرة جميع الصفات الإنسانية. فهم يُظهرون هذه الصفة أحياناً، وتلك الصفة أحياناً أخرى، ويَبدون في الغالب مختلفين عن أنفسهم، أي مختلفين عما يبدون عليه في العادة. هذه التبدلات أندرُ عند البعض، وتحتاج إلى وقت أكبر لتتم، بينما هي أسرع عند آخرين وهي تتالى بتواتر أشد.

كان نيكليودوف ينتمي إلى الفئة الثانية. فقد كانت تحدثُ فيه

باستمـرار تبـدلات كاملة، مفاجئـة، بتأثير أسباب شتّـى، جسدية أو أخلاقية. وفي هذا الوقت بالذات حدث أحد هذه التحولات.

إن الإحساس بالحماسـة الفرحـة الذي لاح له أنـه سيجدد كيانه كله، بعد جلسة محكمة الجنايات، وبعد حديثه الأول مع كاتيوشا، كل ذلك قد اختفى. فلقد حوّل لقاؤه الأخير لكاتيوشا كل شيء إلى رعب عميق أخذ يمتزج به، أكثر فأكثر، إحساس بالاستفظاع بل وبالاشمئزاز إزاءها. على أنه كان قد صمم على ألا يتركها، وعلى أن يتزوجها، عند الضرورة، إذا وافقت هي على ذلك، وتراجعت عن حركتها العاطفية الأولى. لكـن هذا الاحتمال بدأ يبدو له الآن شيئاً فشيئاً، كأنه تضحية قاسية ومؤلمة.

في اليـوم الـذي تلا زيارتـه لماسلينيكوف، عـاد إلى السجن ليرى كاتيوشـا. فأذن له المديـر برؤيتها، لكن في قاعـة مقابلة النساء، لا في مكتبـه، ولا في قاعة المحامين الصغرى، حيث كانت مقابلته الأخيرة. وكان للمديـر، في هـذا اليوم، تجـاه نيكليودوف، لهجـة وتصرفات مختلفـة تماماً عن الأيام السابقة، بالرغم من طيبتـه الطّبيعيّة ، فلقد كان من نتائجزيارته لماسلينيكوف أمرَ موظفي السجن بموقف أكثر تحفظاً، نحو زائر غير متحفّظ كهذا الزائر. قال له المدير:

– تستطيع أن تكلّمهـا، لكنني أرجوك أن تتذكر ما قلتُه لك بصدد النقـود... أما من حيث نقلهـا إلى المشفى، فإن نائـب الحاكم شرّفني بالكتابـة إلي في هـذا الموضـوع... الأمر ممكن، وقـد وافق الطبيب. لكن هي التي لا تريد! قالت إنها «ليست بحاجة إلى أن تذهب لتُفرغ

«مبولة الجُرب». آه! يا أمير، من الواضح أنك لا تعرف هذه الفئة الحقيرة!

لم يجب نيكليودوف بشيء. واتجه إلى قاعة مقابلة النساء، في حين أمر المدير حارساً بإحضار ماسلوفا، كانت القاعة خالية عندما دخلها نيكليودوف. لكنه لم يكد يمكث فيها بضع دقائق حتى انفتح باب الصدر، وتقدّمت ماسلوفا نحوه، صامتة وخجلة. شدّت على يده، وجلست قربه، وتمتمت، دون أن تنظر إليه:

– اصفح عني، يا دمتري ايفانوفتش! لقد أسأت الكلام معك منذ ثلاثة أيام.

فبدأ نيكليودوف:

– ليس من حقي أن أصفح عنكِ...

وأردفت، وفي عينيها اللتين كانتا تميلان إلى الحَوَل أكثر من عادتهما، تعبير بدا لنيكليودوف عدائياً ومتوتراً:

– ومع ذلك فيجب أن تتركني.

– لماذا يجب أن أتركك؟

– لابد من ذلك، هذا كل ما في الأمر!

– كيف، هذا كل ما في الأمر؟

لم تجب، ورفعت إليه نظرة خبيثة، وقالت أخيراً:

– حسناً! يجب أن تتركني، كُف عن الإهتمام بي، أقول لك ذلك بصدق، كما أفكر فيه! ليس بوسعي أن أتحمل ذلك! إفهم هذا جيّداً.

وكررت. وشفتاها ترتجفان:

– أفضّل أن أشنق نفسي!

أحس نيكليودوف أن هــذا المَنْع ينطوي على قسط من البغض له، ومــن استحالة الصفح عن إهانة ليس بوسعها أن تنساها، لكنه ينطوي أيضاً علــى شيء نبيل وجميل. وقد كان من أثــر هذه الطريقة الحازمة والهادئة التي جدّدت بها المرأة الشابة منعَها له من الإهتمام بها، تدمير جميع شكوك نيكليودوف. فألقى نفسه مرة أخرى في تلك الحالة من الحماسة والتأثر التي ألّمت به سابقاً.

أكد لها بصوت خافت وحازم:

– كاتيوشــا، ما قلته لــكِ، أنا مصر عليه. أرجــوكِ أن توافقي على الــزواج بي. وإذا رفضــتِ ذلك، ومهما يطلْ رفضــك، فسوف أظل بجنبك، وسوف أتبعك، وسوف أذهب إلى حيث يقتادونك.

فأجابت، وارتجفت شفتاها مرة أخرى:

– هذا شأنك، وليس عندي شيء آخر أقوله لك.

أخلد نيكليودوف إلى الصمت، إذ أحسّ أنه لا يقوى على الكلام. ثم تجرّأ أخيراً وقال:

– كاتيوشا، سأذهب الآن إلى الريف لتسوية بعض الأعمال. وبعد

ذلك سأذهب إلى بطرسبرج حيث سأهتم بقضيتك، بقضيتنا. وإذا شاء الله فسوف أنقض حكمك.

– سواء علي،نُقض أم لم ينقض. وستظل النتيجة واحدة إن وقع لي هذا الأمر أو ذاك...

توقفت وخُيِّل إلى نيكليودوف أنها تجاهد نفسها لكي تحبس عبراتها. وقالت بعد صمت طويل، متكلّمة بسرعة شديدة، كأنها تريد أن تخفي اضطرابها:

– طيب! هل رأيت منشوف؟ أليس هؤلاء الناس أبرياء؟ أليس كذلك؟ هذا بديهي! وأنا أقسم على صحة ما أقول!

– نعم، أنا واثق أنهم أبرياء.

– ليتك تعلم أية عجوز رائعة هي!

فروى لها بالتفصيل كل ما علمه بصدد منشوف. ثم عاد إليها فسألها إن لم تكن بحاجة إلى شيء.

فأكّدت:

– لا، لست بحاجة إلى شيء، على الإطلاق!

ثم كان الصمت، مرة أخرى...

واردفت وهي تحدجه بنظرة من عينيها المائلتين إلى الحول:

– آه! بالنسبة إلى المشفى، سأذهب إليه، إن كنتَ ترغب في ذلك. أما الخمر فسوف أحاول ألا أشربها بعد الآن!...

نظر نيكليودوف إليها في عينيها، دون أن يقول شيئاً، فرأى أن عينيها تبتسمان. ثم قال:

– هذا حسن، حسن جداً.

ولم يقوَ على أن يقول أكثر من ذلك. وفكّر في نفسه: «نعم، يمكنها أن تتغيّر!» وأحسّ الآن، بعد شكوك الأيام السابقة، بشعور جديد عليه، شعور الايمان بقدرة الحب الكلية.

عندما عادت ماسلوفا إلى غرفتها، بعد عودتها من هذه الزيارة خلعت سترتها، وجلست على سريرها ويداها مستندتان إلى ركبتيها.

كانت الغرفة خالية، إلا من المسلولة، والمرأة التي كانت تُرضع ابنها، والعجوز منشوفا، وحارسة السكة الحديدية. أما ابنة الكاهن فقد تبيّن أنها مجنونة، ونُقلت أمس إلى المشفى. وأما النساء الأخريات فكنّ في المَغْسِل.

كانت العجوز تنام، مستلقية على سريرها، والأولاد يلعبون في الرواق. وقد علت ضحكاتهم وصرخاتهم. تقدّمت حارسة السكة نحو ماسلوفا، دون أن تنقطع عن سَرد الجورب الذي أمسكته بيدها، وسألتها:

– حسناً! هل رأيتِه؟

لم تردّ عليها ماسلوفا. كانت جالسة على سريرها، تحرك ساقيها المتدليتين بحركة آلية.

فأعادت الحارسة الكرّة:

– ماذا تجترين؟ الشيء الجوهري ألا تيأسي. كاتيوشا! تكلّمي!

ظلت كاتيوشا على صمتها.

– الأخريات ذهبن إلى المغسل. يُقال إن كمية الغسيل ضخمة اليوم.

في الوقت نفسه، سُمعت في الرواق ضوضاء أقدام وأصوات. وظهرت المُقيمات في الغرفة على العتبة، حافيات، وكل منهن تحمل رغيفاً تحت ذراعها. فهرعت فيدوسيا إلى ماسلوفا، واستخبرت، وهي ترفع إليها عينيها الزرقاوين الصافيتين كعيني الطفل:

– ماذا جرى، هل حدث لك ما يسوءُك؟ انتظري، سأعمل لنا شاياً...

وسألتها كورابليوفا:

– ترى هل غيّر رأيه؟ هل تخلّى عن الزواج بك؟

– لا لم يغيّر رأيه. أنا التي لا تريد ذلك. لقد أعلنت له أنني لا أريد ذلك.

فقالت كورابليوفا بصوتها الجهير:

– أما إنك لحمقاء!

فعلّقت فيدوسيا:

– كل الحق معها. ما فائدة الزواج، إذا لم يستطيعا أن يعيشا معاً؟

فسألتها حارسة السكة:

لكن أنتِ نفسك، ألا يذهب زوجك إلى السجن معك؟

– زوجي، شيء آخر. كنا متزوجين عندما قُبض علي، والقانون يجمعنا، أما هو فما فائدة الزواج به إذا لم يعش معها؟

– اسكتي، يا بلهاء! ما الفائدة؟ إذا تزوج بها غمرها بالذهب!

قالت ماسلوفا:

– قال لي: «سأذهب معك، أينما أرسلوك». وسيذهب بالتأكيد! لكني لا أبالي كثيراً، أجاء أم لم يجئ. ولست أنا، على كل حال، التي طلبت منه المجيء. هو ذاهب الآن إلى بطرسبرج ليهتم بقضيتي. إنه قريب كل الوزراء، هناك. لكني لستُ بحاجة إليه.

وافقتها كورابليوفا فجأة وهي تفتح حقيبتها، والظاهر أنها كانت تفكر في شيء آخر:

– أعلم ذلك! ما قولكِ لو شربنا شيئاً من الفودكا؟

رفضت ماسلوفا:

– أما أنا فلا! إشربن بدوني.

× × ×

القسم الثاني

-١-

عندما علم نيكليودوف أن مجلس الشيوخ سينظر، بدون شك، في طَعن ماسلوفا على الحكم، خلال خمسة عشر يوماً، عزم على الذهاب إلى بطرسبرج، في هذه الفترة، ليقوم هناك بالمساعي الضرورية. ونوى أن يتقدم بالتماس للعفو، في حال رد الطعن، كما أشار عليه المحامي. وقد كرر له المحامي أن نجاح هذين الإلتماسين: الطعن والعفو، يبدو بعيد الإحتمال، نظراً لقلّة وجاهة الأسباب التي استندا إليها. ومن المحتمل جداً، أن ماسلوفا ستنضم إلى قافلة المحكومين بالأشغال الشاقة التي ستغادر السجن منذ الأيام الأولى من حزيران. وبما أن نيكليودوف ظل مصرّاً على نيّته في اللحاق بها حيثما ذهبت، حتى إلى سيبيريا، فقد قرر أن يستغل الخمسة عشر يوماً من الإنتظار لزيارة أملاكه المتعددة واحداً بعد الآخر بغية تنظيم أعماله نهائياً.

قصد، أول الأمر، إلى «كوزمنسكوي». وكانت أقرب أملاكه وأكبرها وأكثرها مردوداً عليه. ولقد عاش فيها أثناء شبابه، وعاد إليها مرات. وذات يوم، جاءها، بناء على طلب أمه،.بمدير أعمال ألماني مايزال يديرها حتى الآن. وبما أن نيكليودوف نظّم معه جرداً للملكية

فيهـا، فقد كان يعـرف معرفـة عميقة وَضْـعَ الفلاحـين، وعلاقاتهم «بالمكتب» أي بإدارة الأمـلاك. وهي علاقات تؤول، على الإجمال، إلى تبعيـة الفلاحين المطلقة إزاء «المكتـب» المذكور. كان نيكليودوف يعـرف ذاك كله منـذ أن كان في الجامعة يعتنـق مذهب هنري جورج ويُعلنـه على المـلأ. ومعرفته بظروف كوزمنسكوي هـي بالضبط التي حملتـه على أن يهـب الفلاحـين ملكية أبيـه الصغيرة، وهـي الملكية الوحيـدة التي كان يملكها حينذاك. وفيما بعد، في الحقيقة، عندما أخذ ينفق لدى خروجه مـن الجيش، عشرين ألف روبل في العام، أصبحت معرفتـه بمصـدر ثروته عبئاً عليـه، وبذل جهده لا ليكـفّ عن التفكير فيهـا فحسب، بل لينساها أيضاً كان يأخـذ المال وينفقه، دون أن يهتم بمعرفـة مِنْ أين يأتيـه. لكن موت أمه، وتصفيـة تركتها، وضرورة تبنّي نظام جديد لإدارة أملاكـه، كل هذا أيقظ فيه مسألة حقوقه وواجبات المالـك. كان منذ شهـر منهمكاً في هذه المسألـة؛ وكان يُقرّ، من جهة أخـرى، أنه لـن يقوى أبداً على تغيير نظام الأشيـاء الراسخ، لأنه، على كل حال، ليس هو الـذي يدير أملاكه، ولأنه يعيش بعيداً عن أراضيه، وما عليه إلا أن يقبض ريعها بهدوء.

علـى أن لقاءه ماسلوفا هداه فجأة إلى مشاعر جديدة، في هذه النقطة وفي كثـير مـن النقاط غيرهـا. لم يكن يخفي عـن نفسه، أنـه إذا شاء أن يصحـب ماسلوفا إلى سيبيريـا، فسوف يُضطـر إلى الإبقاء على علاقات معقّـدة وصعبة بعالم من الموظفين. وسيكون مهمـاً جداً أن يحافظ على وضـع اجتماعي رفيـع إزاءهم، وأن يمتلك المال، علـى وجه الخصوص. لكنـه لم يكـن أقل شعـوراً بأن من المستحيـل عليه، تجاه نفسـه، أن يقبل بالحفـاظ على وضع يـراه منافياً للأخـلاق. فتوصّـل إذن إلى ضرب من

التسويــة. لقد قرر أن يتخلّص من أملاكه، لا بــأن يهبها للفلاحين، لكن بــأن يؤجرهم إياهــا بثمن بخس. ولاشك أن هذا الحــل ليس الحل الذي كان يــراه للمشكلة، نظرياً، لكنه كان، على الأقل، خطوةً إلى الأمام على طريــق ذلك الحل، وانتقالاً من شكل فظ من أشكال الاضطهاد إلى شكل أكــثر رحمــة. وعلى كل حــال، كان هذا التدبير هو وحــده ما تسمح له الظروف باتخاذه.

وصل إلى كوزمنسكوي حوالي الظهر. لقد بُسِّطَ مفهومه للحياة، بلا علــم منه، تبسيطاً شديد العمق، حتى أنه لم يخطر له أن يبرق لمدير أعماله كي يعلن عن زيارته. وعند نزوله من القطار، استأجر عربة عادية لتقله إلى بيتــه. كان الحوذي فلاحاً شاباً يرتدي قميصاً قطنياً، ويجلس على مقعده جلسة جانبية، مما ييسر له الحديث مع «النبيل». وزاده إقبالاً على الحديث أن جواديــه القويــين والفارهين كانــا يجريان على طــول الطريق بنشاط محموم، بحيث لم يكن مــن حاجة إلى حثّهما. أخذ الحوذي يتحدّث عن مدير أعمال كوزمنسكوي، دون أن يمرّ بباله أنه يتحدث إلى مالك القرية.

قال وهو يدور على مقعده، ويعبث بسوطه الطويل:

– هــذا المحتال الألماني شديد التأنــق في لباسه. وقد ابتاع عربة فخمة تجرها جياد رائعة: وهو يتنــزّه فيها مع بورجوازيته حيثما يحلو له التنزّه! وفي هــذا الشتــاء، في عيــد الميــلاد، كان في بيته شجــرة صنوبر جميلة، مزينــة بشكل لا تجد له مثيلاً في الولاية كلها. آه! كم جمع من المال، هذا المستهتر! ولِمَ لا؟ بوسعه أن يفعل ما يشاء! يقال إنه اشترى ملكية منذ زمن قريب.

لم يكن نيكليودوف يبالي بأن يعلم كيف يدير مدير أملاكه، لكن حكاية الحوذي تركت فيه، مع ذلك، أثرًا مزعجا، فقد كان يتمتّع بجمال النهار، وبحركة الغيوم الرمادية التي تغطي وجه الشمس لحظة، لتنقشع عنها بعد ذلك، على الفور، ويتأمل بإعجاب منظر الحقول التي كانت تحوِّم فوقها رفوف القبّرات، ومنظر الغابات التي ارتدت حلّتها الخضراء الندية، ومشهد المروج حيث أُطلقت الخيول والأبقار. لكنه لم يكن يتمتع بذلك التمتع الكامل الذي يريده: كان هناك شيء يضايقه. وعندما تساءل ما الذي كان ينكّد عليه مُتعته، عادت إلى ذاكرته كلمات الحوذي. ولم يمح هذا الانطباع من نفسه إلا عندما وصل إلى كوزمنسكاي وأخذ ينشغل بتصفية أعماله.

إن فحص سجلات «المكتب» وإيضاحات وكيله الذي كان يعرض، بسذاجة، المنافع التي تعود على الملكية من امتلاك الفلاحين للقليل القليل من الأراضي المحصورة ضمن الأراضي الإقطاعية، إن ذلك كله زاده إصراراً على قراره بالتخلي عن استغلاله أملاكه لحسابه الخاص. وقد أثبت له فحص السجلات وإيضاحات الوكيل أن ثلثي حقوله يزرعها اليوم مزارعوه، كما كانوا يزرعونها في الماضي، بأدوات متقنة الصنع، بينما يزرع الفلاحون الثلث الباقي؛ ويعطى هؤلاء أجرة خمسة روبلات عن كل خمسة آلاف متر. وبعبارة أخرى، كان الفلاح يتعهّد، مقابل خمسة روبلات، أن يفلح ويبذر خمسة آلاف متر، ثم يحصدها، ويجمعها ويدرسها وينقلها إلى مخزن الغلال، أي إنه يقوم بعمل يأبى أن ينفذه عامل بأقل من عشرة روبلات. وفضلاً عن ذلك، كان الفلاحون يدفعون ثمن

ما يقدّمه لهــم المكتب بأسعار مرتفعة جداً. أي أنهم كانوا يعملون ليدفعــوا ثمن العلف والحطب والبطاطــا. وكل ما كانوا يحتاجون إليه ليعيشوا، كانوا يشترونه من المكتب، بحيث أن أجرتهم لم تكن أقل بمرتين فقط، لكن بنحو أربع مرات.

لا شــيء من ذلك كله كان جديداً على نيكليودوف، لكن ذلك بــدا له جديداً، ودُهِش لأنه بقي هــذا الزمن الطويل دون أن يدرك ما في مثل هذا الوضع من شذوذ. وأخذ مدير الأعمال، من جهته، يدلّل لــه بكثير من المجاملــة على مساوئ المشــروع الذي تصوّره وأخطــاره. وقال له إنهم سيضطــرون على بيع جميع مواد المزرعة بثمن بخس، إذ لن يدفع فيها أحد ربع قيمتها. وأكّد له أن الفلاحين سيُفســدون الأرض، دون أن ينتفعــوا هم أو ينفعوا غيرهم. غير أن نيكليــودوف ظل مقتنعاً، مع ذلــك، بجمال الفعل الــذي سيُقدم عليــه بإعطائه أرضــه للفلاحين، وبحرمانه نفسه مــن الجزء الأكبر مــن عائداتــه. ولذلك قرر أن يُنهــي القضية مباشرة قبــل أن يعود. فعهــد إلى مدير الأعمال ببيع البــذار والمواشي وجميع المواد وأمره أن يخــبره بذلك تباعاً، ورجاه أن يجمــع، في اليوم التالي، فلاحي كوزمنسكــوي والقرى المجاورة، لكي يُطلعهم بنفسه على قراره، ولكي يتّفق معهم على بدل الإيجار الجديد.

خــرج نيكليودوف من المكتب ليتنزّه حول البيت، وهو مفتون بالقوة التي تصدّى بها لحجج المدير، وبتفانيه في التضحية من أجل مصلحــة الفلاحين. وسار بحــذاء الرياض التي كفَّ أهل الدار عن تعهّــد ورودها؛ واجتاز ملعب كرة المضــرب الذي اجتاحه الشوك

والهندباء البرية؛ ودلف إلى ممر الزيزفون حيث اعتاد أن يدخّن سيجاره، وحيث بدأ مشروع حبه العابر مع السيدة كيريموف الجميلة التي كانت تزور أمه. وعندما صمم خطة الخطبة التي كان ينوي أن يوجهها في اليوم التالي إلى الفلاحين، رجع إلى البيت، وتناول الشاي مع مديره، وانتهى معه من تسوية تجهيزات تصفية ملكيته، وصعد لينام في الغرفة التي أُعدت له، وهي غرفة مخصّصة للضيوف العابرين، وهو هادئ الضمير، راضٍ عن نفسه، فخور بها.

كانت غرفة صغيرة مثالية النظافة، عُلِّقت على جدرانها مناظر من فينيسيا، وقامت بين نافذتيها مرآة، ووُضع على طاولة، في زاوية منها، قرب السرير ذي النوابض، إبريق ماء وكأس وشمعة وكبريتة ومطفأة. وعلى الطاولة الكبرى، أمام المرآة، مُدّت حقيبة نيكليودوف التي يحتوي أحد جيوبها، إلى جانب أدوات الزينة، على نحو اثني عشر كتاباً، في الحقوق وعلم الإجرام، روسياً وألمانياً وإيطالياً، ورواية إنكليزية. وقد آلى نيكليودوف على نفسه أن يقرأ هذه الكتب في فترات الفراغ التي يتركها له فحص أملاكه. لكنه عندما رآها، وهو يدخل الغرفة أحسّ أنه على ألف فرسخ من هذه المؤلفات ومن المسائل التي تعالجها. كان رأسه مشغولاً بشيء آخر، وكان الوقت متأخراً. فآثر أن ينام استعداداً لمواجهة النقاش مع الفلاحين، في الصباح.

كان في زاوية من الغرفة مقعد عتيق من الأكاجو المرصّع كان دائماً في غرفة أمه. وقد شعر نيكليودوف، لدى رؤيته، بانفعال لم

يكـن يتوقعه. فكّر بأسف في البيت الـذي سيلحق به الدمار، وفي الحديقـة التي لن يتعهدها أحد بالعنايـة، وفي الغابات التي سيكون مصيرهـا القطـع، وفي جميع هـذه الملحقات، هـذه الاسطبلات والمرابـط، هذه المخازن، وهذه الخيول وهـذه الأبقار، وهي، وإن لم يُعنَ بها، قد كلّفت الآخرين كثيراً من الجهد، وهي تشكّل كمية عظيمـة من العمل. قبل لحظة، خُيِّـل إليه أن من السهل التخلّي عن ذلـك كله؛ أمـا الآن فإنه أخذ يأسف على هـذه الأشياء، كما أخذ بأسـف على أراضيـه، وعلى هـذا الدخل الذي قـد يصبح عظيم القيمـة عنده. شيئـاً فشيئاً تعالت فيه ضروب الحجـج التي مؤدّاها أن مـن الجنون الذي لا يفيد منه أحد تنازلـه عن أراضيه للفلاحين وتركه إدارة أملاكه.

سمـع صوتاً في داخل يقـول: «هذه الأراضـي، لا أستطيع أن أزرعهـا بنفسي، وإذن فليس بوسعـي أن أستمرّ في استغلالها كما أفعـل الآن. ثم إني سأذهـب إلى سيبيريا، بدون شك. فلن يكون لي حاجة إلى البيت ولا إلى الأراضي.

فأجابـه صوت داخل آخـر: «كل هذا حسن، لكنـك أولاً لن تقضي حياتك كلها في سيبيريا. وإذا تزوّجت فسيكون لك أولاد. أنـت تسلمت أمـلاكك وهي في أحسن حـال، ويجب أن تتركها كما تسلّمتها. إن علينا التزامات نحو الأرض. التنازل والتخريب، كل ذلـك سهل جداً؛ أمـا البناء فذلك صعب جـداً. ينبغي لك أن تفكّـر مليّاً في المستقبـل، وأن تقرّر ما ستفعلـه وتسوّي، على هذا الأساس، مسألة أمـلاكك. وينبغي لك أيضـاً أن تتساءل إن كنت

تتصرف هكذا إرضاء لضميرك حقاً، أم بالأحرى إرضاء للآخرين، لكي تتمكن من التفاخر، ولتعتقد أنك أرفع منزلة من الآخرين.

كان نيكليودوف مُكرَهاً على الإعتراف بأن آراء الآخرين، وتفكيره فيما سيقوله الناس عنه، قد أثّر تأثيراً كبيراً في قراراته. وكلما أعمل فكره ازداد عدد المسائل التي تنكشف له، وازداد عناؤه في العثور على أجوبة عن هذه الأسئلة.

ولكي يُفلت من هذه الأفكار، اضطجع بين الأغطية الباردة وحاول أن ينام، وهو يقول في نفسه إنه سيحلّ هذه المشكلات التي لم يتوصل إلى العثور على حل لها الآن، في اليوم التالي، ورأسه مرتاح. وطال انتظاره للنوم. ومن النافذتين المفتوحتين، مع هواء الليل البليل وأشعة القمر، وافاه نقيق الضفادع، وشدو العنادل الشاكي، بعيداً في الحديقة. بل لقد كان هناك عندليب، يشدو على مقربة منه، تحت النافذتين، في أيكة ليلكٍ مزهرة فذكّره غناء الطير والضفادع بموسيقا ابنة مدير السجن، ومن مدير السجن انتقل فكره إلى ماسلوفا. ورأى من جديد الطريقة التي ارتجفت بها شفتاها في اللحظة التي قالت له فيها: «يجب أن تتركني وشأني، كُفَّ عن الإهتمام بي...» وفجأة أحس أن مديره الألماني سقط في بركة الضفادع، وأحس أن من واجبه إنقاذه. لكن بدلاً من ذلك تحوّل الألماني فجأة، أصبح ماسلوفا التي كانت تناديه: «أنا محكومة بالأشغال الشاقة وأنت أمير!».

حدّث نيكليودوف نفسه، وهو يهزّ رأسه ويرفعه: «لا، لن

أستسلـــم!» ثـم تساءل: «أخيراً ام شـرّاً ما أفعله؟ لا أدري... سأعلم ذلك غداً...»

ثـم أخذ هو نفسه يغوص في البركة التي كان فيها مدير الأعمال وماسلوفا، وانتهى كل شيء عنده بالنوم.

× × ×

-٢-

لم يستيقـظ نيكليـودوف، في صبـاح اليوم التـالي، إلا في الساعة التاسعة، فحمـل له الوكيل الشاب الذي أوكلـت خدمته إليه، حذاءه ملمّعاً كما لم يُلمّع من قبل، ووضع قرب سرير إبريقاً من ماء النبع البارد والصافي، وأبلغه أن الفلاحين بدؤوا يتجمّعون. وثب نيكليودوف عن سريره، وعادت إليه ذكرى حوادث البارحة. لقد اختفت مرة أخرى، مشاعـر الأسف التي خالجته عنـد تفكيره بأنه سيتنـازل عن أراضيه، ولم تـترك وراءها أثراً. بل لقد ألفى نفسه مدهوشاً أشد الدهشة من أن تخالجه هذه المشاعر. وفـرح، وهو يرتدي ثيابه، بالعمل الذي سيُقبل عليه، وامتزج فرحُه، على الرغم منه، بشيء من الكبرياء.

رأى مـن نافذته حلبة كرة المضرب وقد اجتاحتهـا الهندباء البرية. وعلى هذه الحلبة كان يجتمع الفلاحون، بناء على أمر مدير الأعمال. لم تنـقّ الضفـادع عشية البارحـة عبثاً. فقد تساقط منـذ الصباح، من دون أن تهـب الريـح، مطـر دقيق ودافـئ، علقت قطراتـه بالأوراق والأعشـاب. وكان الهواء الذي ينفذ إلى الغرفة مشبعاً برائحة الخضرة ورائحة الأرض المبلّلة. رأى نيكليودوف الفلاحون يفدون إلى الحلبة.

كانــوا يصلــون، بعضهــم وراء بعضـ، ويسلّــم بعضهم علــى بعض، ويتحلّقــون في حلقات، ويتحدثون، وهــم يتوكّؤون على هراواتهم. ودخــل الغرفة المدير، وهو رجل ضخــم، قصير وسمين، يرتدي سترة رسميــة قصيرة. خضراء الياقة، ضخمــة الأزرار. أبلغ نيكليودوف أن الجميع حضروا، لكــن يمكنهم الانتظار حتى يتناول فطوره؛ وسأله إن كان يفضّل الشاي أو القهوة.

أجاب نيكليودوف:

– شكراً، لا. الأولى أن نذهب لإنجاز هذه القضية.

ســاوره إحساس كان أقل توقعاً لــه منه للإحساس الذي ساوره في المســاء السابق: إحساس بالتهيّب والخجــل أمام احتمالات حديثه مــع الفلّاحين ، فقد كان يستعدّ لهم عن جميــع أراضي القرية، بسعر زهيــد، وتلــك حسنة ثمينة، ومــع ذلك فقد أحــس بالضيق، دون أن يعرف لماذا؟ وعندما دنا من الفلاحين، ورآهم يكشفون عن رؤوسهم الشقراء والسوداء والرمادية، والمجعّدة والصلعاء، تزايد اضطرابه حتى أُرتج عليه زمنــاً طويلاً. ظل المطر يهطل، مبلــلاً برفق الشعور واللحى ووبر القفطانات. لكن الفلاحين لم يأبهوا للمطر، وشخصوا بعيونهم إلى «النبيــل»، منتظرين ما سيقوله لهم. وهــو واقف في وسطهم، بلا حراك، مرتبكاً، عاجزاً عن التفوّه بكلمة.

وأخيراً قطــع مدير الأعمال الصمــت الشاق، وكان رجــلاً ألمانياً واثقاً من نفسه، يحسن الروسية، ويعتبر نفسه خبيراً ممتازاً بالفلاحين. لقــد كان هذا الرجل الضخم، الظاهــر النعمة، ونيكليودوف الواقف

بجانبه، يشكّلان تضاداً مثيراً مع الوجوه المتغضنة والأجسام المهزولة لسائر الحضور.

قال المدير:

– اصغوا! هوذا الأمير يريد أن يُحسن إليكم! يريد أن يتنازل عن الأراضي، مع أنكم لا تستحقونها!

فرد عليه فلاح قصير، أصهب، جذّاب الحديث:

– وكيف لا نستحقها، يا فاسيلي كارليتش؟ كنا مسرورين جداً من الأميرة المرحومة –ليمنحها الله ملكوت السموات– والأمير الشاب لن يتركنا، على ما نرى.

واستأنف آخر، وهو رجل ذو وجه مدهوش، طويل اللحية.

– نحن ممتلئون احتراماً لأسيادنا، لكن الحياة قاسية.

فتدخّل نيكليودوف:

– دعوتكم لأُعلمَكم أني أتنازل لكم عن جميع أراضيّ، إذا أردتم.

لاذ الفلاحون بالصمت، وكأنهم لم يفهموا كلام النبيل، أو كأنهم لم يستطيعوا أن يحملوا أنفسهم على تصديقها. وأخيراً تجاسر واحدٌ منهم وسأل:

– وبأية طريقة، من فضلك، ستتنازل عن الأراضي؟

– أود أن أؤجرّكم إياها بسعر زهيد، لتتمكنوا من الإنتفاع بها.

فعلّق شيخ:

– تجارة رابحة!

وأضاف آخر:

– على شرط أن تكون الأسعار ضمن قدراتنا!

– ولماذا لا نقبل الأرض؟

– هذه مهنتنا! فالأرض هي التي تُطعمنا!

وطلع صوت من الجماعة:

– من السهل أن نقول ذلك كله، لكن لابد لنا من المال لندفع.

فلاحظ الألماني:

– الغلطة غلطتك إذا لم تجد المال! ما كان عليك إلا أن تعمل وتحتفظ بمالك.

فاعترض فلاح نحيل، مستدقّ الأنف:

– ليس من حقك أن تتهمنا، يا فاسيلي كارليتش! تسألنا لماذا؟ «أنت تقول لنا: لماذا تركتَ حصانك يدخل حقل القمح؟» لكن لم يتركه أحد يدخل! أنا، عندما تكون الأيام طويلة، ويبدو كل يوم كأنه

أطـول من سنة، أنا أشغِّل منجلي! وإذا وقع لي، أن نمتُ أثناء الليل، في المرعى، وأفلت الحصان إلى حقل الشوفان، سلختَ جلدي عني.

– عليكم أن تكونوا أكثر محافظة على النظام.

– مـن السهـل التحدّث عـن النظام، لكننـا لا نستطيـع أن نفعل المستحيل.

– قلتُ لكم دائماً أن اعملوا أسيجة حول حقولكم.

فقاطعه رجل قصير، ضامر، توارى خلف جماعة:

– حسـن... أعطنا خشباً إذن. في الصيف الماضي أردتُ أن أعمل حظـيرة. وقطعت شجـرة، فأرسلتني إلى السجـن ليأكلني القمل فيه، طوال ثلاثة أشهر، هذه هي أسيجتك...

استفسر نيكليودوف:

– ماذا يقول؟

فأجابه المدير بالألمانية:

– هذا أول لص في القرية. في كل سنة، يقطّع لنا أشجارنا!

ثم التفت إلى الفلاح وقال:

– هذا لتتعلّم كيف تحترم ملك الآخرين!

فثار فلاح:

– أترانـا مع كل هذا لا نحترمـك! نحن مُكرهون على احترامك، نحن بين يديك، وأنت تنتزع منا أحشاءنا!

– اسكت. يا صاحبي، لم يُهنك أحد، فلا تُهن الآخرين.

– كيـف لم يُهنّي؟ لقـد أوسعني ضرباً، في السنـة الماضية، وظلّت الأمور هنا! الغنيُّ لا يُحاسَب، هذا معروف!

– ما عليك إلا أن تعيش وفقاً للقانون.

هكذا استمـرت المباراة الكلامية، وكانت مبـاراة غير متوقّعة ولا مجدية، يتكلم فيها كل واحد، في الفراغ، دون أن يعرف لماذا.

فحـاول نيكليـودوف، وقد نفـذ صبره، أن يعـود بالحديث إلى الموضوع الذي يَعنيه:

– طيّـب! ماذا قررتم بشأن هذا التنازل عن أراضي؟ هل توافقون؟ ما السعر الذي تدفعونه أجرة لها؟

– أنت المالك، وأنت تحدد السعر.

ذكّـر نيكليودوف رقماً، أقل بكثير من الذي كان يُدفع عادة، لكن الفلاحـين أخذوا يساومونـه مع ذلك، بصورة طبيعيـة، ويستكثرون الرقـم. كان نيكليـودوف يتوقـع أن يُستقبل اقتراحُـه بحماسة، لكنه كان مخطئـاً. إذ لم يُظهـر الفلاحون رضاهم، إن كانـوا راضين. كانوا

راضين، من غير شك، وقد استطاع نيكليودوف أن يستشفّ، من إحدى الدلائل، أن اقتراحه كان بالنسبة إلى الفلاحين، نعمة لم يتوقعوها. ذلك أن النقاش عندما تطرّق إلى مسألة معرفة مَن سيستأجر الأراضي، مجموع الفلاحين أو جماعة منهم فقط، نشب خلاف بين الفلاحين، وكادوا يتقاتلون لولا قليل. فقد أراد بعضهم أن يُقصي الفلاحين المعوزين، حتى يكونوا أقل عدداً حين يتقاسمون الأرباح. أما الآخرون الذين أُريد إقصاؤهم، فقد أخذوا يحتجّون ويتجادلون. وأخيراً، حُدِّد السعر، بفضل تدخّل المدير. واتُفق على مواعيد الدفع، وتفرّق الفلاحون وهم يُكثرون من الصراخ والحركات، ورجع نيكليودوف إلى المكتب ليحرّر مع الألماني مشروع العقد.

سُوِّي إذن كل شيء كما كان يرغب ويأمل نيكليودوف، سيأخذ الفلاحون الأرض بسعر أقل بثلاثين بالمائة مما يدفعونه عادة، وإذا كان دخل نيكليودوف قد نقص إلى النصف، فقد ظل كبيراً جداً، ولاسيما مع الإضافة التي سيحملها بيع الغابات والمزرعة وأدوات الزراعة، كان كل شيء يبدو كاملاً، ومع ذلك كان نيكليودوف يشعر شعوراً متزايداً بالضجر والحزن والضيق. خُيِّل إليه أن الفلاحين، بالرغم من كلمات الشكر التي وجّهها إليه بعضهم، لم يكونوا راضين كما كان يأمل. فكأنهم كانوا ينتظرون شيئاً أكثر من ذلك. وقال في نفسه: إن حَرمَ نفسه، في نهاية المطاف. من فائدة عظيمة دون أن يقدّم للفلاحين حسنة تعادل تلك الفائدة التي حُرم منها.

في صباح اليوم التالي، وبعد أن سوّى نيكليودوف كل شيء مع المدير ورجع إلى المحطة، في عربة الألماني التي حدّثه عنها الحوذي

قبل يومـين بعبارات صريحة، حيّاه الفلاحون وهـم يهزّون رؤوسهم وقد بدت عليهم الحيرة؛ وكأنما كانوا يتخاصمون فيما بينهم، وكأنهم كانـوا مستائين. وكذلك كان نيكليودوف مستـاءً من نفسه، دون أن يعلم لماذا؛ خُيِّل إليه أنه فشل في مشروعه وأحس بنفسه حزيناً، خجلاً على الرغم منه.

× × ×

-٣-

ومن كومنسكوي قصد نيكليودوف إلى الملكية التي جاءته من عمّتيه، وهي نفسها التي عرف فيها كاتيوشا قديماً. وهنا أيضاً، أراد أن يتفاهم مع الفلاحين على التنازل عن أراضيه. وكان ينوي، بالمناسبة نفسها. أن يجمع كل المعلومات التي يمكنه الحصول عليها بصدد كاتيوشا وابنها. وهل مات ابنها حقاً، وفي أي الظروف؟

وصل إلى بانوفو في الصباح الباكر، وأذهله أن يرى، وهو يدخل الفناء، مافي المباني جميعها من خراب، ولاسيما في البيت الإقطاعي القديم. فسقف الحديد الذي طُلي قديماً باللون الأخضر، احمرّ بتأثير الصدأ. ورفَعَه الهواء في مواضع عدة. وسُرقتْ الألواح التي تغطّي الجدران في نقاط عدّة، في الأجزاء التي يسهل اقتلاعها منها. وبرزت من الجدران مسامير ضخمة مغطّاة بالصدأ. وتلفَت درجات الخشب وأفاريز درج المدخل وتحطّمت؛ واستُبدلت الألواح بكثير من زجاج النوافذ؛ وفي الداخل، كان كل شيء وسخاً ورطباً، بدءاً من الجناح الذي كان يُقيم فيه الوكيل حتى المطابخ والاسطبلات. الحديقة وحدها لم يُصبها الدمار؛ على العكس، لقد نمت نماءً حراً وتغطّت بالزهور.

وخلف السياج، رأى نيكليودوف أغصان الكرز والتفاح والدراق المزهرة، تنبسط كأنها غيوم ضخمة، بيضاء. وكانت أيكة الليلك مزهرة، كما كانت قبل اثنتي عشرة سنة، حينما لعب مع كاتيوشا لعبة الـ«غوريلكي»[١٧]، وسقط قرب هذه الأيكة، ووخزه شوك القرّاص. وغدت الأرزية التي غرستها قرب البيت صوفيا ايفانوفنا، والتي رآها نيكليودوف تكبر، شجرة مغطاة بطحلب مُجنزر، لطيف النعومة. وكان النهر يجري حراً، مزبداً وصاخباً عند سد الطاحونة. وعلى الضفة الأخرى، كان قطيع القرية يرعى، في المرج.

تقدّم الوكيل، وهو طالب مدرسة دينية فاشل، لاستقبال نيكليودوف، وهو يبتسم، ودعاه إلى الدخول، والإبتسامة لا تفارقه، وأجلسه في المكتب. وكأنما أراد، بابتسامته، أن يعبّر عن شيء خاص. رجع الحوذي الذي أوصل نيكليودوف بعد أن تسلّم حلوانه. وأطبق على البيت صمت عظيم. مرّت أمام النافذة، بسرعة، فتاة تركض، حافية القدمين، مرتدية قميصاً مطرّزاً وتنورة فلاحية. وكان يجري خلفها فلاح يحتذي جزمة ضخمة مسمّرة ترن مساميرها على الدرب المطروق.

كان نيكليودوف ينظر بصمت إلى الحديقة، وهو جالس إلى النافذة. وكانت أنفاس الربيع البليلة ترد شعره عن جبينه المندّى بالعرق، وتحمل إليه رائحة ذكية من الأرض المقلوبة حديثاً. ومن النهر وافاه قَرع المخابط المنتظم على الغسيل، ممتزجاً بتكسّر المياه في مجرى الطاحونة.

١٧- غوريلكي، لعبة شعبية روسية.

تذكّر نيكليودوف كيف أنه كان يحب قديماً، عندما لم يكن سوى فتىً ساذج وبـريء، أن يصغي إلى قرع المخابط علـى الغسيل المبلل بالماء، وإلى تكسّر المياه على سد الطاحونة، وكيف كان نسيم الربيع يردّ شعره عـن جبينه. لم ير في ذهنه ذلك الفتى الذي كانه فحسب، بل خُيِّل إليه أنه يستعيد نداوة الثمانية عشر عاماً ونقاؤها وحماستها الكريمة. وكان يعلم. في الوقـت نفسه، كما يقع لنا في الحلم، أن ذلك وهمٌ؛ فلم يعد ذلك الفتى موجوداً. فانتاب قلبه حزن عظيم.

سأله الوكيل بابتسامته التي لا تفارقه:

– في أية ساعة تأمر أن يُقدَّم لك الغداء؟

– متى شئتَ، لكنني لست جائعاً. سأقوم بجولة في القرية.

– ألا تود أن تدخل منزلي أولاً. كل ما فيه حسن النظام. واعذرني، إذا كان خارجُه...

– فيمـا بعـد، لا الآن... لكـن، أتعلـم إن كان هنا امـرأة اسمها ماتريونا كارينا.

كان هذا اسم خالة كاتيوشا التي وضعت كاتيوشا عندها. فأوضح لـه الوكيل، من خـلال ابتسامته الدائمة التي تعبر عـن شيئين معاً؛ عن رغبتـه في أن يكون لطيفاً مع سيده، وعن يقينه بأن هذا السيد سيكون من رأيه، في كل شيء:

– كارينـا؟ بالطبـع، هي هنـا! هي التي تُديـر الحانـة. إني أؤنّبها،

وأهدّدها بالطرد إذا لم تدفع لي، لكن الشفقة تغلبني. فأرثي لها. العجوز المسكينة، عليها أن تعيل صغارها!

– أين تسكن؟ أود أن أراها.

– في آخر القرية، في الجانب الآخر،البيت الثالث قبل الأخير. ستجد على يسارك بيتاً من القرميد، بعده مباشرة، ستجد الحانة. لكن الأفضل أن أرافقك...

– لا، شكراً، سأعثر عليه. في أثناء هذا الوقت، أرجوك أن تجمع الفلاحين أمام البيت. عليّ أن أتفق معهم بشأن الأراضي.

× × ×

-٤-

علـى الدرب الذي يمرّ بالمرج وراء الحاجز، لقي نيكليودوف الفتاة الفلاحـة التي رآها تركض أمام البيـت. كانت عائدة من القرية، وهي ماتزال تجري مسرعة بقدميها الكبيرتين الحافيتين. كانت يدها اليسرى تُسايـر جريها بحركتهـا المتُسقة، في حين شـدّت إلى صدرها، بيدها اليمنـى، ديـكاً أحمـر كان يُرقّص عُرفـه الأرجـواني ويحتفظ بمظهر الهـدوء الكامل، وهو يبسط ويقبض ساقيه السوداوين، عندما اقتربت الفتاة من النبيل تمهّلت، وعندما مر بقربها وقفت، وحيته باحترام، قبل أن تستأنف جريها.

قُرب البئـر، تجاوز عجوزاً تمشي حانية الظهـر، وهي تحمل سطلاً ضخماً مـن الماء. ومـا إن رأته العجوز، حتى حطـت سطلها بحذر، وحيّتـه هي أيضـاً باحترام شديد. كانـت القرية تبـدأ وراء البئر. كان النهـار صحواً وحاراً، بل مسرف الحـرارة بالنسبة إلى الفصل. كانت السحـب تتراكم لتغطّي السماء فترة من الزمن. وكان الشارع الصاعد الـذي يشكّل القرية مفعماً برائحة الزبـل، وهي رائحة حادة، لاذعة، لكنهـا ليسـت كريهـة، تنبعث مـن العربات التـي تصعـد الشارع،

ومن أكوام الزبل المجموعة في الأفنية المفتوحة الأبواب. وكان الفلاحون الذين يسيرون خلف العربات، حفاة الأقدام، قد تلطّخت قمصانهم وبناطيلهم بالزبل، ينظرون نظرات فضولية إلى هذا النبيل الطويل، القوي البنية بقبعة اللبد الرمادية المزدانة بشريط حريري يلتمع في الشمس، والذي كان يضرب الأرض، لدى كل خطوتين، بعصاه الكثيرة العقد، الفضية المقبض. وأخذت النساء يخرجن من البيوت ليتطلعن إليه، مشيرات إليه الواحدة للأخرى، وهن يلاحقنه بنظراتهن. وأمام إحدى البوابات، استوقفت نيكليودوف عربة كبيرة، أثناء مرورها، محملة إلى أعلاها بالزبل المكوّوم. وانهمك فلاح شاب يحتذي خفّاً غليظاً من لحاء الخشب، طويل الساقين، بإخراج الجياد من الشارع. وعبر البوابة مهر رمادي مائل إلى الزرقة، وعندما رأى نيكليودوف أجفل، وارتمى على أمه، واضطرب وصهل. كل ذلك على مرأى فلاح عجوز، نحيل وضامر، حافي القدمين هو أيضاً، يرتدي بنطالاً مخططاً، وقميصاً خارجياً طويلاً ارتسمت عليه العظام المستدقة للسلسلة الظهرية. فلما بلغت هذه العربة الشارع، تقدّم الشيخ إلى العتبة وانحنى أمام نيكليودوف:

– لعلك ابن أخ سيدتينا المرحومتين؟

– نعم، بالضبط.

فاستفهم الرجل الذي بدا محباً للكلام.

– طاب مَقْدمُك! أئت لترانا؟

– نعم...

ثم سأله نيكليودوف، وقد حار فيما يقول:

– وأنتم، كيف حال حياتكم؟

فأجاب الشيخ وقد ظهر عليه السرور بهذه المناسبة التي أتاحت له الحديث:

– كيف حال حياتنا؟ واأسفاه! بائسة أشد البؤس...

فدهش نيكليودوف وهو يدنو من البوابة:

– بائسة، لماذا؟

فردّ الشيخ:

– أتسمّي حياتنا حياة؟ انظر، إن في بيتي اثني عشر شخصاً، علي أن أُطعمهم!

وأشار بإصبعه إلى امرأتين شمّرت كل منهما عن كمّي قميصها، ورفعت تنورتها إلى ما فوق الركبة، ووقفت والمذراة بيدها، على ما بقي من كومة الزبل:

– يلزمني أن أشتري، في كل شهر، ستة أمداد من الطحين، فمن أين آتي بها؟

– لكن، أليس عندك طحينك؟

فهتف الشيخ بابتسامة مستخفّة:

– طحينــي أنا؟ ما أملك من أرضــ يكفي ثلاثة أشخاص بالضبط! في عيد الميلاد، تنفذ المؤونة كلها.

– وكيف تفعل، حينئذ؟

– لا بــد لنــا من تدبّر أمورنــا! وأُنظر كيف: احــد أبنائي يخدم في الجيش، ثم إننا نستقرض من عند سيادتكم. وليتنا، على الأقل، نجد ما نسدد به الضرائب!

– وما مقدار الضرائب؟

– سبعــة عشر روبــلاً، علينا وحدنا فقط! آه! يــا إلهي إني لأتساءل كيف أستطيع التخلص من هذه الورطة!

سألــه نيكليودوف، وهو يتقدّم في الفنــاء، بحذاء كومة الزبل التي ملأت أنفه برائحتها القوية.

– أأستطيع دخول بيتك؟

فأجاب الشيخ:

– وكيف لا!

وسار أمام نيكليودوف بحركة سريعة من قدميه الحافيتين، وفتح له باب المنزل، فأخذت المرأتان، وهمــا تصلحان خماريهما وتخفضان تنورتيهمــا، تنظران بشــيء من الخوف إلى هذا النبيــل النظيف بأزرار كمّيه المذهبة، والذي بدا كمن يريد أن يدخل منزلهما.

في المنزل، عبَر نيكليودوف رواقاً صغيراً. ومن الكوخ الخشبي الذي في الصدر، خرجت طفلتان بقميصهما. دخل نيكليودوف، وهو ينحني ويرفع قبعته عن رأسه، الغرفة الضيقة والوسخة التي انتشرت فيها رائحة المطبخ اللاذعة والتي سد الطريق فيها نولان كبيران. وقرب المدفأة جلست عجوز كشف كمّاها المشمّران عن ذراعين نحيلين، ويدين سوداوين برزت عروقهما.

قال لها الشيخ:

– هوذا نبيلنا، وقد دخل لزيارتنا.

حيّته المرأة وانحنت، وقالت:

– أهلاً بك.

وردّت كمّي قميصها على ذراعيها.

أعلن نيكليودوف:

– أردتُ أن أعلم بنفسي كيف تعيشون.

أجابت الفلاحة العجوز بجرأة وهي تهزّ رأسها بحركة ساخرة:

– تستطيع أن ترى كيف نعيش! الكوخ الخشبي يُنذر بالانهيار؛ ولاشك أن ذلك سيقتل أحداً، ذات يوم. لكن الشيخ يرى أنه حسن هكذا. نعيش كأننا القيصر. أنت ترى، أنا منهمكة بإعداد الغداء لنا وللعمال.

– وماذا ستأكلون؟

– مـاذا سنـأكل؟ أوه! سنـأكل ما لـذّ وطاب! الطبـق الأول خبز وكفاس[١٨]؛ والطبق الثاني كفاس وخبز.

وأخذت العجوز تضحك فاتحة فماً ذهبت أسنانه.

فأصرّ نيكليودوف:

– لا، بل أرني بلا مزاح، ما ستأكلونه اليوم!

أمرها الشيخ:

– حسناً! أريه ذلك، أيتها الأم.

هزّت المرأة رأسها:

– ها! ها! أحببتَ أن ترى طعام الفلاحين! آه إنك لنبيل مُضحك، لم أر مثلـك قط! يريد أن يعـرف كل شيء! الواقع أننـا سنتناول الخبز والكفاس، ثم حساء الملفوف، ثم البطاطا.

– هذا كل شيء؟

أجابت العجـوز وهي تبتسم ابتسامة ماكـرة وعيناها ملتفتتان إلى الباب:

– وماذا تريد فوق ذلك؟ سنشرب جرعة من حليب بعد ذلك.

١٨– كفاس: شراب مخمّر ليس فيه كحول. وهو يصنع من الطحين والشيلم وحبوب منتشة أخرى.

رأى نيكليودوف، من الباب الذي ظل مفتوحاً، أن الرواق يغصّ بالناس، كان بينهم صبيان وبنات، ونساء مع أطفالهن على أذرعهن. كل هذا الجمهور المزدحم على الباب، كان يتأمل ذلك النبيل الغريب الذي جاء يسأل عن طعام الفلاحين. ومن هنا جاءت، بلاشك، ابتسامة العجوز الماكرة؛ وكان واضحاً أنها كانت فخورة بالطريقة التي استطاعت أن تتصرّف بها مع السيد النبيل.

أردف الشيخ:

نعم، يمكن القول إن حياتنا حياة كئيبة.

ثم التفت إلى الفضوليين الذين هموا بالدخول:

– هيه! قولوا لي، ماذا جئتم تفعلون هنا؟

قال نيكليودوف وقد أحسّ بمزيج من الضيق والخجل الذي لم يشأ أن يتعمّق في أسبابه:

– طيب! الوداع!

قال الشيخ:

– نشكرك بكل احترام لمجيئك.

في الرواق، تنحى الجمهور بعجلة، ليفسحوا الطريق لنيكليودوف. وبينما كان يتابع طوافه، في الشارع، شاهد صبيين حافيين يتبعانه، ارتدى أكبرهما قميصاً وسخاً لاشك أنه كان أبيض من قبل، وارتدى الآخر قميصاً وردياً مرقّعاً. التفت نيكليودوف إليهما.

سأله الصبي ذو القميص الأبيض:

– والآن، إلى أين تذهب؟

أجاب نيكليودوف:

إلى منزل ماتريونا كارينا! أتعرفانها؟

أخذ الصبي الصغير ذو القميص الوردي يضحك. وأجاب الصبي الأكبر:

– أية ماتريونا؟ العجوز؟

– نعم، هي عجوز.

– إذن هي سيميونيكا، وهي في الطرف الآخر من القرية. سنوصلك إليها. هيا، يا فييدكا، لنرافقه!

– والجياد؟

– لا أهمية لذلك!

وافق فييدكا وصعد الثلاثة شارع القرية الطويل.

× × ×

-٥-

أحسَّ نيكليودوف براحة أكبر مع هذين الصبيين اللذين سلّياه بثرثرتهما، طوال الطريق. كفّ أصغرهما، ذاك الذي يرتدي قميصاً وردياً، عن الضحك، وأخذ يتكلم بذكاء وجدّية مثل رفيقه.

سأل نيكليودوف:

– طيب! مَنْ أفقر الناس في القرية؟

– أفقر الناس؟ ميخائيل فقير، ثم سيميون ماكاروف، ومارفا أيضاً...

– لكن آنيسيا أفقر الجميع، حتى أنها لا تملك بقرة، إنها تتسوّل!

فاعترض الصغير فيديا:

– لا تملك بقرة، لكن أسرتها مؤلفة من ثلاثة أشخاص، أما أسرة مارفا فهي من خمسة أشخاص.

– نعم، لكن آنيسيا أرملة!

– هذا صحيح، لكن مارفا كالأرملة أيضاً، فزوجها ليس معها.

استفهم نيكليودوف:

– وأين زوجها؟

أجاب أكبر الصبيين، مستخدماً التعبير الشائع:

– يأكله القمل في السجن...

قاطعه الأصغر:

– قَطَعَ شجرتي بتولة، في السنة الماضية؛ فزُجّ حينئذ في السجن. مضى على ذلك أكثر من ستة أشهر، وقد أخذت امرأته تتسول. لها ثلاثة أولاد، ثم أمها التي يجب أن تعولها.

– وأين تسكن؟

قال الصبي وهو يشير بإصبعه إلى ساحة صغيرة، فيها صبي صغير، أبيض الرأس، يجر ساقيه المقوستين جراً.

– ها هو ذا بيتها؟!

صرخت من المنزل امرأة ماتزال شابة، ترتدي قميصاً وتنورة وسخين جداً حتى كأنّهما غُطِّيا بالرماد:

– فاسكا، يا عفريت، هلا رجعت فوراً!

واندفعــت في الشــارع كالمذعورة، وأمسكــت بابنها وحملته إلى الداخل، وكأنها تخاف أن يؤذيه نيكليودوف.

كانــت هذه المرأة هي نفسها التي سُجن زوجها لأن قطع شجرتين من غابات نيكليودوف.

سأل نيكليودوف، بينما كانوا يقتربون من نهاية القرية:

– وماتريونا، هل هي فقيرة أيضاً؟

أجاب الصبي ذو القميص الوردي بلهجة واثقة:

– كيف تكون فقيرة؟ إنها تبيع الشراب!

ودّع نيكليــودوف رفيقيه، عند بــاب ماتريونا. كان منزل العجوز صغـيراً لا يحتوي إلا على غرفة واحدة. وعندما دخلها نيكليودوف، كانت ماتريونا ترتّبها بمساعدة كبرى حفيداتها. وخرج طفلان آخران من الزاوية عندما شاهدا الوافــد الجديد. وجاءا إلى الباب ووقفا أمامه واتّكأا على حافة الباب، وقد بدا عليهما الخوف والفضول

سألــت العجــوز بصوت حــاد، وقد ساءهــا أن يدخــل عليها مَنْ يُزعجها في عملها.

– ماذا يلزمك؟

ذلــك أنها كانــت، بصفتها صاحبــة حانة، متمسكــة بالحذر من الوجوه الغريبة.

– أنا مالك القرية، أود أن أكلّمك...

فحصته العجـوز بعينيها الصغيرتين، دون أن تجيب، وفجأة انقلب تعبير وجهها:

– آه! أهـذا أنـت، يا حَمَلـي! وأنا العجوز الغبيـة التي لم تعرفك! كنـت أقول في نفسي: هـذا عابر سبيل، من غير شـك، وهو يريد أن يسألني شيئاً. اغفر لي، بجاه يسوع!

كانت تتكلّم بصوت عذب ومنغّم:

سألها نيكليودوف، وهو يشير بعينيه إلى الباب الذي ظل مفتوحاً، حيـث وقف الأولاد، وحيث ما لبثـت أن ظهرت امرأة شابة، نحيلة، تحمل طفلاً يلبس أطمـاراً مرقّعة، كائناً صغيراً، بائساً، شاحباً وعليلاً، لكنه يحتفظ مع ذلك بالابتسامة على شفتيه:

– ألا أستطيع أن أقول لك بضع كلمات، على حدة.

صرخت ماتريونا وهي تستدير إلى الباب:

– عـلام تتفرّجون هنا؟ انتظروا قليلاً حتـى آتي بعصاي! اخرجوا بسرعة وأغلقوا الباب!

هرب الأولاد الثلاثة. وابتعدت المرأة الشابة، مغلقة الباب خلفها.

– وأنا التي كانت تتسـاءل مَنْ عساه يكون! وإذا بك أنت نفسك يا سيدي، يا عصفوري الذهبي، يا جوهرتي التي لا أملّ من رؤيتها.

ودعتْه إلى الجلوس بعد أن مسحت بعناية مقعداً أشارت إليه:

- اجلس، يا صاحب السيادة، اجلس على هذا المقعد. وأنا التي كنت أظن أن الشيطان قد جاء ليعذبني، وإذا به نبيلي، والمحسن إلي، ومُعيلنا! اغفر لي! السن هو الذي أعماني.

جلس نيكليودوف. وظلت العجوز واقفة أمامه، ممسكة ذقنها بيدها اليمنى، وساندة بيدها اليسرى مرفق يدها اليمنى. وواصلت كلامها بصوتها العذب، المنغّم:

- كم كبرتَ، يا صاحب السيادة! كنتَ، فيما مضى، جميلاً مثل لِفْتةٍ، أما الآن، فمن الواضح أن لك همومك، أنت أيضاً.

- طيب... جئتُ أسألك بعض المعلومات. أمازلتِ تتذكرين كاتيوشا؟

- كاترين التي كانت في القصر؟ وكيف تسألني، إذا كنت أذكرها؟ هي ابنة أختي؟ كيف لا أذكرها؟ آه! كم ذرفت الدموع من أجلها! ذلك أني أعرف كل ما جرى. يا سيدي، من ذا الذي لم يُخطئ بحق الله والقيصر؟ الشباب هو سبب كل شيء. ما العمل؟ ثم إن كثيرين غيرك، لو كانوا في مكانك لتركوها، أما أنت فكم كافأتها! مائة روبل، أعطيتها! وهي، ماذا فعلت؟ من المستحيل أن تقبل العودة إلى جادة الصواب! آه! لو أصغت إلي لكانت سعيدة! يجب أن أقول، وإن كانت ابنة أختي، إنها فتاة لا عقل لها. كان باستطاعتها ان تستمرّ في عمل مناسب أنا نفسي دبّرته لها! لكن لا، لم ترضَ أن تتواضع

فأهانــت سيدها. أمن حقّنا، نحن، أن نُهــين أسيادنا؟ وبطبيعة الحال، طردها سيدهــا حينئذ. وفي عمل آخر حصلــت عليه بعد ذلك، لدى حارس للأحراج، عمل مناسب أيضاً، لم تشأ أن تبقى أيضاً.

– أود أن أسألــكِ إذا كنتِ تعرفين أين ابنها. لقد وُلد عندكِ، أليس كذلك؟ أين هو؟

– بالنسبة إلى الطفل، خطرت لي أيضاً فكرة ممتازة. كانت كاتيوشا في حالة سيئة، وفقدنــا الأمل في إنقاذها، فعمّدتُ الطفل وأرسلته إلى الملجأ. وكيف، إذاً؟ لا يمكننا أن ندع ملاكاً يتألم، إذا ماتت الأم، أليس كذلــك؟ بعضهم يتصرّفون تصرفاً مختلفــاً، فيحتفظون بالطفل دون أن يطعمــوه، ويذهب الطفل إلى العالم الآخر. أمــا أنا، فقلتُ في نفسي: «لم أفعــل كذلك؟ الأفضــل أن أكلّــف نفسي قليــلاً وأن أبعث به إلى الملجأ. وبما أنه كان معنا شيء من المال، فقد بعثنا به إلى هناك.

– أتعرفين الرقم الذي سُجِّل به؟

– نعــم، كان هناك رقــم، بالتأكيد. لكن المــلاك الصغير، المسكين مــات رأساً عند وصولــه. لقد قالت لي: «ما كــدتُ أصل الملجأ حتى مات!».

– مَنْ التي قالت لكِ؟

– المــرأة التي حملت الصبي! إنها تسكن في «سكورودنو»، وهي امــرأة كانت تقوم بجميع أنواع المهمات التي من هذا النوع، واسمها «مالانيــا» وقد ماتت. كانت امرأة عظيمة الذكاء! هكذا كانت تفعل:

عندمــا كان يُحمل إليها الطفل كانت تحتفظ به في منزلها، بدلاً من أن تأخــذه إلى الملجأ، وتطعمه، ثم يُحمل إليهــا طفل ثان فتحتفظ به فإذا صــار عندها ثلاثة أو أربعة أخذتهم جميعاً إلى الملجأ. لكن ابن كاترين لم تحتفظ به أسبوعين، لأنه بدأ يذبل.

سألها نيكليودوف بصوت مرتجف:

– وكيف كان؟ طفلاً جميلاً؟

فأكّدت العجوز وهي تغمز بعينيها المتعبتين:

– أوه! كان أجمل من أن يعيش. كان صورة تامة عنك!

– ممَّ مات؟ من سوء التغذية، بلاشك؟

– وكيــف عساها تُحســن تغذيته؟ لم يكن الطفــل طفل «مالانيا». كان المهم عندها أن توصله حياً إلى الملجأ. ثم إنها جاءت بالشهادات. وكانت كلها حسب الأصول. لقد كانت امرأة بارعة الذكاء!

على ذلك اقتصر ما استطاع نيكليودوف أن يعلمه بصدد ابنه.

× × ×

-٦-

عندما خرج نيكليودوف من عند العجوز ماتريونا، بعد أن ودّعها، أبصـر الصبيين، الأبيض القذر والـوردي، ينتظرانه في الشارع. وجاء صبيـة آخرون فانضمـوا إليهم، وكذلك بعض النسـوة اللواتي عرف بينهـن تلك المخلوقـة البائسة التي تحمل على ذراعهـا طفلها الصغير، الشاحـب، الذي يرتدي أسمالاً مرقّعة. لم يكفّ الصبي عن الابتسام، عـن ابتسامة غريبـة تكشف عن قسماتـه الشائخة قبـل أوانها. سأل نيكليودوف مَنْ تكون هذه المرأة.

فأوضح أحد الصبيين:

- هذه آنيسيا التي حدّثتُك عنها! ذهبتُ فجئتُ بها لتراها.

التفت نيكليودوف إلى المرأة وسألها:

- كيف تعيشين، ومم؟

أجابت آنيسيا وقد انهمرت دموعها:

- ممَّ أعيش؟ من الصَدَقة.

وظل الطفل الشائخ القسمات يبتسم، وهو يحرّك ساقيه الصغيرتين، المهزولتين مثل قضيبين. أخرج نيكليودوف محفظته من جيبه وأعطى الأم عشرة روبلات. و لم يخط عشر خطوات حتى أقبلت عليه امرأة، وولدُها على صدرها، ثم عجوز ثم عجوز أخرى. كلهن تحدثن عن بؤسهن وسألنْه المعونة. فوزّع نيكليودوف بينهن نحو خمسين روبلاً كانت معه. وقفل راجعاً إلى مكتب الوكيل، وهو في حزن عميق.

بادر الوكيل إلى لقائه بابتسامته الدائمة. وأنبأه أنّ الفلّاحين سيجتمعون في آخر النهار. في هذه الأثناء، راح نيكليودوف يتنزه في الحديقة، على الدروب القديمة التي اجتاحها العشب والتي انتشرت عليها أزهار التفاح البيضاء والوردية. وكان يمشي فتتبدّى أمام عينيه صور ما قد رأى. وفكّر بحزن: «هؤلاء البؤساء يَهْلكون لأنهم لا يملكون الأرض التي يمكنها أن تطعمهم، هذه الأرض التي يزرعونها ليبيع الآخرون محصولها إلى الأجنبي، وليشتروا بها الفراء والعربات والجواهر، وأشياء أُخر. عندما تُحبس الخيل في مرجٍ وترى كل ما فيه من عشب، فإنها تهزل وتهلك من الجوع إذا لم تمكنها من الانتفاع بالعشب الذي في المرج المجاور. وكذلك حال هؤلاء البؤساء. إنهم يهلكون دون أن يتبيّنوا ذلك لفرط ما ألِفوا هذا النظام الذي يهدف، على وجه التحديد، إلى إهلاكهم: وهو نظام يُعدُّ قتل الأطفال، وإنهاك النساء، وتجويع الشباب والشيوخ، من عناصره الرئيسية. وهكذا تنتهي بهم الأمور، شيئاً فشيئاً، إلى أن ينسوا تماماً الشر الذي يُثقل كواهلهم. وحينئذ تنتهي بنا الأمور، نحن فاعلي هذا الشر، إلى اعتباره طبيعياً وضرورياً. ونحن، في كلياتنا وفي إدارتنا وفي صحفنا، نبحث في أسباب بؤس الفلاحين وفي مختلف الوسائل لمعالجة هذا البؤس،

مـا استطعنا إلى البحث سبيـلاً، بينما نُبقي على السبـب الوحيد لهذا الشقـاء، دون أن نلمّـح إليه أبداً، مستمرّيـن في حرمان الفلاحين من الأرض التي يحتاجون إليها».

كل ذلــك غدا واضحاً جداً بالنسبة إلى نيكليودوف، حتى أنه أخذ يدهشـ، أكثر فأكثر، من أنـه لم يستطع إدراكه هذا الزمن الطويل. لقد أخـذ يدرك أن العلاج الوحيد لبؤس الفلاحين هو أن نردّ لهم الأرض ليأكلوا من خيرهـا. كان الأولاد يموتون بسبب حاجتهم إلى الحليب؛ وكانـوا يحتاجـون إلى الحليـب لأن ذويهـم لا يملكـون المراعي التي يرعـون فيها بقراتهم. وتذكّر فجـأة نظريات هنري جورج والحماسة التي راودته بهذا الصدد. ودُهش كيف أمكنه أن ينسى ذلك كله: «لا يجوز أن تكـون الأرض غرضاً للملكية الخاصـة؛ لا يجوز أن تكون غرضاً للبيع والشـراء، مثلها مثل الماء والهـواء وأشعة الشمس. جميع الناس لهم حق متساوٍ في الأرض وفي جميع الخيرات التي تُنتجها».

حينئـذ أدرك نيكليـودوف من أين جاءه الخجـل الذي خالجه عند ذكرى الترتيبات التي اتخذهـا في كوزمنسكوي. لقد أراد أن يخدع نفسه. فمـع علمه أن الإنسان لا يملك الحق في امتلاك الأرض، إلا أنه اعترف لنفسه بهذا الحق وتنازل للفلاحين عن جزء من ملك يعلم، في أعماق نفسه، أنه لا يملك الحق في امتلاكه.

حـدّث نفسه: «سأفعـل اليوم شيئاً مختلفـاً، وسأنقض بعد ذلك ما فعلتـه في كوزمنسكـوي». وسرعان مـا وضع مشروعـاً جديداً يقوم علـى تأجير أراضيه للفلاحين، لكن بحيـث لا يعود بدل الأجرة عليه

بل على الفلاحين أنفسهم. وسوف يستخدمون هذا البدل لتسديد ضرائبهم وللقيام بالنفقات ذات النفع العام. لم يكن هذا المشروع هو المثل الأعلى الذي حلم به، لكنه لم يكن يرى، في الظروف الراهنة، حلاً آخر أقرب إلى ذلك المثل الأعلى.

عندما عاد إلى مسكن الوكيل، أنبأه هذا، بابتسامة معبّرة عن عظيم حفاوته، أن الغداء جاهز. وهو يخشى فقط أن يكون قد شاط قليلاً، بالرغم من عناية امرأته بإعداده، بمساعدة فتاة تقوم بشؤون المنزل.

كانت الطاولة مغطاة بغطاء غليظ. ومن صفحة الحساء العتيقة -آخر أثر من ترف القصر القديم- تصاعد بخار حساء البطاطا، المعمول بلحم الديك الذي رآه نيكليودوف قبل ساعات يمد ساقيه السوداوين، هذه تارة وتلك تارة أخرى. كان الآن مقطعاً، وقد رأى نيكليودوف الساقين نفسيهما يسبحان في الحساء. بعد الحساء، ظهر الديك أيضاً على المائدة، مقطّعاً إلى قطع مايزال عليها بقايا من الزغب المحمّر. وبعد ذلك قدمت الحلوى بالجبن الأبيض مع كثير من الزبدة والسكر. ومع أن الطعام كان متواضعاً، فقد أكل نيكليودوف بشهية. لم يكد ينتبه لما كان يأكل، إذ انصرف بكل فكره إلى مشروعه الجديد الذي ذهب بضجره وبتكدّره. وكانت زوجة الوكيل، تتابع بعينيها، من فتحة الباب، طريقة الفتاة في خدمة نيكليودوف. وأخذ الوكيل المزهو بمواهب زوجته المطبخية، يبتسم ابتسامة يتعاظم انشراحها شيئاً فشيئاً.

بعد الغداء، أجبر نيكليودوف الوكيل على الجلوس إلى الطاولة.

كان يشعر بالحاجة إلى الكلام، إلى أن يكاشف أحد الناس، أياً كان، بالأفكار العظيمة التي تحركه. فعرض مشروعه بترك الأرض للفلاحين، ثم سأل الوكيل عن رأيه فيه. فابتسم الوكيل ابتسامة تُوهم أنه هو نفسه يشاركه هذا الرأي منذ زمن بعيد، وأنه مرتاح لسماعه. والواقع أنه لم يفقه شيئاً مما قيل أمامه، لا لأن نيكليودوف لم يحسن التعبير، لكن المشروع كان ينطلق من رغبة نيكليودوف في التخلي عن منفعته الشخصية لمصلحة الآخرين؛ وكان الوكيل مقتنعاً بعمق من أنه يستحيل على أي إنسان أن يُعنى بشيء آخر غير منفعته الخاصة. وبالتالي، فقد خُيِّل إليه أنه لم يسمع نيكليودوف جيداً عندما أنبأه بعزمه على تخصيص دخل أراضيه لإنشاء رأس مال مشترك من أجل الفلاحين. وأجاب:

– ممتاز! وهكذا فأنت تريد أن تؤجر أراضيك وتقبض ريعها؟

– أبداً، لا! افهمني جيداً. أريد أن أهبَ الفلاحين أراضيّ، كلياً.

فهتف الوكيل الذي كفّ عن الابتسام:

– لكنك لن تقبض العائدات حينئذ.

– طبعاً لا، فأنا أتخلى عنها.

تنهّد الوكيل بعمق، لكنه ما لبث أن عاد إلى الابتسام بعد لحظة. الآن فهم: إن بنيكليودوف شيئاً من الجنون. فلم يفكر بعد ذلك إلا في شيء واحد: في الوسيلة التي يجني بها فائدة شخصية منه. لكنه عندما اكتشف، في مدى لحظة، أن مشروع نيكليودوف لا يمكن أن

يعود عليه بشيء، ساءت نيته. ومع ذلك ظل يبتسم ليرضي سيده. وحين رأى نيكليودوف أن الوكيل لا يفهمه، تركه ومضى إلى المكتب حيث دوّن خطة مشروعه على طاولة قديمة، ملطّخة بالحبر، ومفرّضة بضربات المبراة:

في غضون ذلك، غابت الشمس، وأتم القمر طلوعه. واجتاحت الغرفة سحابة من البعوض، وأخذت تدور وتطنّ حول رأس نيكليودوف، محاولة أن تلسعه. وكان يسمع من الناحية المفتوحة، وهو يكتب، صوت القطعان الآيبة، وصرير البوابات تُفتح في الفناء، ولغط الفلاحين، وهم يتُجهون إلى المكتب، فسارع إلى الانتهاء مما يكتب، ونادى الوكيل، وأعلن له أنه لا يريد أن يستقبل الزوار هنا، بل إنه سيذهب إلى القرية ليحدّثهم فيها، في المكان الذي يلائمهم. وبعد أن تجرّع فنجان الشاي الذي قدّمه له الوكيل، دفعة واحدة، مضى في طريقه إلى القرية.

× × ×

-٧-

تجمهر الفلاحون في فناء شيخ القرية، وأخذوا يتحدثون بصخب. وما أن أبصروا نيكليودوف حتى أخلدوا إلى الصمت، ورفعوا قبعاتهم مثل فلاحي كوزمنسكوي. كان هؤلاء الفلاحون أقل تمدّناً من فلاحي كوزمنسكوي. وكانوا جميعاً، تقريباً، يرتدون قفطانات خاطتها نساؤهم، ويحتذون في أقدامهم صنادل من لحاء الخشب. بل إن بعضهم كانوا حفاة؛ وبعضهم كانوا بالقميص وحده الذي عادوا به لتوهم من الحقول.

تحامل نيكليودوف على نفسه ليتغلب على حيائه، وأعلن لهم أنه عقد العزم على أن يتخلى لهم عن أراضيه. أصغى الفلاحون بصمت، دون أن يبدوَ على وجوههم أي انفعال.

وتابع نيكليودوف وهو يحمرّ:

- أنا أقدّر بالفعل. أن لكل إنسان حق الانتفاع بالأرض.

فقالت بعض الأصوات:

– هذا حق! هذه هي الحقيقة بعينها!

وواصل نيكليودوف كلامه، فقال لهم: إن دخل الأرض يجب أن يُوزَّع على الجميع، وبالتالي فهو ينوي أن يتنازل لهم عن أراضيه مقابل إيراد يحددونه هم أنفسهم، ويُستخدَم لتكوين رأس مال جماعي، مخصص للنفع المشترك. ومرة أخرى، تعالت بعض كلمات الاستحسان، لكن وجوه الفلاحين الوقورة تزايد ما بها من هم، وانخفضت نظراتهم إلى الأرض، وكانت، أول الأمر، مثبتة في النبيل. فكأنهم خافوا أن يُخجلوا نيكليودوف لو أرَوْه أنهم كشفوا حيلته، وأن أحداً منهم لن يكون ضُحكة له.

كان نيكليودوف يتكلم، مع ذلك، بكل ما يستطيع من الوضوح، وهيهات أن يكون الفلاحون عديمي الذكاء. إلا أنهم لم يكونوا يفهمونه، ولا كان بوسعهم أن يفهموه، للسبب نفسه الذي حال دون فهم الوكيل. كانوا مقتنعين أن لكل إنسان هماً وحيداً هو أن يبحث عن منفعته الخاصة. أما مديرو الأعمال، بخاصة، فقد كان الفلاحون يعلمون بتجربتهم، منذ أجيال، أنهم جميعاً يبحثون عن منفعتهم على حساب الآخرين. ومن ثم، فعندما كان الوكيل يجمعهم ليعرض عليهم اقتراحاً جديداً، كانوا يعلمون مقدّماً أن ذلك يهدف إلى شيء واحد وهو أن يخدعهم بإحدى حيله الجديدة.

سأل نيكليودوف:

– طيب! ما السعر الذي تضعونه بدلاً للأرض؟

أجابت بعض الأصوات:

– كيف يمكننا أن نضع سعراً؟ الأرض لك، وأنت الآمر.

– لكنـــي أقول لكم إنكم أنتم الذين ستستفيدون من هذا المال، من الآن فصاعداً، فحاجاتكم المشتركة.

– مستحيل. الجماعة شيء وهذا شيء آخر.

صاح الوكيل الذي جاء ووقف خلف نيكليودوف، الذي ظن من واجبه أن يتدخل ليسهّل القضية:

– حاولـوا أن تفهموا. ألم تسمعـوا أن الأمير يعرض عليكم تأجير الأرضـ مقابل مال، لكن هذا المال سيكون لكم، وسيكوّن رأس مال تنتفعون به جميعاً؟

أكــد شيخ قصير، أدرد، مقطّب الوجه دون أن يرفع بصره: وعلينا، في هــذه الأثناء، أن ندفـع عند الاستحقاق. وهذا مــا لا نريده. كفانا مــا نلقــى من مشقة للتخلص مــن مآزقنا، بدون ذلــك! في هذه المرة، ستَخْرب بيوتنا!

صاحت أصوات مستاءة بل غاضبة:

– الحق معه! هذا أكيد! نفضل أن نظل على ما نحن عليه!

وتعاظم الاستياء، كمــا تعاظمت المقاومة، عندما قال نيكليودوف إنــه سيترك في مكتــب الوكيل عقداً موقعاً منــه وأن على الفلاحين أن يوقّعوه هم أيضاً.

صاح صوت:

– نوقّع؟ لماذا نوقّع؟ كما نشتغل الآن، سنظل نشتغل! ما فائدة ذلك كله؟ نحن ناس جاهلون. لا نستطيع أن نوافق على ذلك، لأننا لم نتعوّد هذا النوع من الأعمال! الأفضل أن تبقى الأشياء كما كانت، هذا ما نطلبه. ليبدّلوا لنا البذار فقط.

«تبديل البذار» يعني أن على الفلاحين، حتى الآن، أن يقدموا البذار للأرض التي يعملون فيها، وهم يطلبون الآن أن يقدم مالك الأرض هذا البذار.

فتعجّب نيكليودوف، وهو يخاطب فلاحاً شاباً، متألّق الوجه، يرتدي قفطاناً مرقّعاً، حافي القدمين، يمسك بيده اليسرى قبعته الممزقة، كما يمسك الجنود قبعاتهم عندما يأمرهم رؤساؤهم برفعها:

– وهكذا فانتم ترفضون؟ أنتم لا تريدون أن أتخلى لكم عن أراضيّ؟ أجاب الفلاح الذي لم يفقد عادة الانضباط العسكري بعد.

– نحن بأوامرك.

ودهش نيكليودوف:

– معنى هذا أن لديكم ما يكفي من الأرض؟

فأجاب الجندي القديم بلهجة تودد مُقتصرة:

– أية أراضي؟ ليس لنا أراض!

فاستشاط نيكليودوف، مذهولاً:

– لابأس، فكّروا فيما قلته لكم.

وأعاد عليهم، مرة أخرى، عرْضَه.

فأعلن الشيخ الأدرد، وهو كالح الوجه أبداً:

– جاوبْنا بعد تفكّر. ولن يتغير جوابُنا.

– سأبقى هنا حتى نهار الغد، وإذا بدّلتم رأيكم فأعلموني.

لم يجب الفلاحون. وعاد نيكليودوف حزيناً إلى القصر، وهو مقتنع أنه لن يحصل على شيء، في هذا المساء.

قال له الوكيل بابتسامته المجاملة:

– أتعلم، يا أمير، أنك لن تتمكن من التفاهم معهم أبداً. هذا الجنس من الناس عنيد كالبغال. إذا وضعوا شيئاً في رؤوسهم، فلا شيء في العالم يمكن أن يخرجه منها. إنهم يخافون دائماً كل شيء. ومع ذلك، فهم ليسوا بأغبياء. بل إن بينهم من هم أذكياء جداً، بالنسبة إليهم كفلاحين، مثلاً هذا الشيخ الذي كان يصرخ عالياً، والذي كان أشدهم احتداماً لرفض عروضك. عندما يأتي إلى المكتب وأدعوه إلى تناول الشاي، يفهم كل شيء، ويتحدّث عن كل شيء، والحديث معه ممتع. لكنه، بين جماعة الفلاحين، يغدو، كما رأيته رجلاً آخر. ومن المستحيل إدخال فكرة على رأسه.

فاقترح عليه نيكليودوف:

– ألا تستطيع أن تأتي ببعضهم إلى هنا، بأذكاهم! سأشرح لهم القضية.

أجاب الوكيل:

– يمكن أن نفعل ذلك بسهولة.

– طيب! أحضرهم غداً صباحاً، أرجوك.

قال الوكيل من خلال ابتسامته المشرقة أشد إشراق:

– لا شيء أيسر من ذلك، سيكونون هنا، غداً صباحاً.

قال فلاح أسود الشعر، ذو لحية شعثاء لم تُمشط قط، يتهادى بلين على صهوة فرس فارهة:

– أرأيت هذا الماكر الكبير؟

كان يحدّث فلاحاً آخر، عجوزاً، شديد التحول، يرتدي قفطاناً ممزقاً، ويخبّ بجنبه وسط القعقعة المعدنية لعدة مطيّته. كانا يسوقان مواشيهما إلى المراعي الليلة، بحذاء الطريق على زعمهما، لكن الواقع أنهما كان يرعيان بها، سراً في غابة الملاك.

همهم العجوز قبل أن يُنادي مهراً ابتعد، باسمه:

– «سأعطيك الأرض بلا مقابل، وما عليك إلا أن توقع»، هكذا قال! كأنه لم يكفه تحكمُه بنا! هو مجنون، أيها الأخ. نحن، منذ اليوم، قادرون على الفهم أيضاً.

أوقـف جواده ليلقي نظـرة إلى الوراء. لكن المهر ظـل خافياً عنه، والظاهر أنه انطلق إلى المرج الذي يحاذي الطريق.

لاحظ الفلاح ذو اللحية السوداء، الكثّة:

– أرأيت؟ هذا المهر القذر استلذ مراعي النبيل.

سمع العنب البري يتقصّف تحت حافري المهر الذي كان يجري في الحقول المغمورة بالندى والتي انبعثت منها رائحة المستنقعات.

قال العجوز ذو القفطان الممزق:

– إسمـع، إن الحقول قد طغى عليها العنب البري؛ يجب أن نرسل النساء إليها، ذات يوم من أيام العطل، لانتزاع الأعشاب الغريبة منها. وإلا تَلفْت مناجلُنا.

واستأنـف الفلاح الأشعث كلامه الذي واصـل فيه انتقاده لكلام نيكليودوف:

– «يقول: وقِّع!» وقّع، وهو يبتلعك نيئاً، غير مطبوخ!

فوافق الآخر:

– هذا مؤكد وثابت.

لم يضـف أحد منهما كلمة فوق ذلـك. لم يكن يُسمع سوى طَرْق حوافر الخيل على الطريق الترابية المتصلّبة.

× × ×

-٨-

عندمـا عاد نيكليودوف إلى المكتب، وجد فيـه سريراً كبيراً مغطى بلحـاف من الريش، ومخدتين، وغطاء أحمـر بنفسجي مزدان بتطريز شديد اليبوسة، ولاشك أنه جاء من جهاز عرس زوجة الوكيل. وسأله الوكيـل إن كان لا يرغـب في تنـاول ما بقـي من الغداء، قبـل النوم. فشكـره نيكليودوف وتركه الوكيل وحده معتذراً عن الطريقة الفقيرة التي استقبله بها.

إن الرفض الذي قابل به الفلاحون نيكليودوف والذي أحزنه برهة مـن الزمن، لم يعد يثير شجونه. على العكـس، فمع أن الفلاحين، في كوزمنسكـوي، شكروه في نهاية الأمر، بينما أبدوا له هنا الاستياء بل العداء، إلا أنه كان يحس بنفسه مطمئناً ومسروراً على نحو غريب.

وإذ وجد جو المكتب المليء بالغبار، خانقاً، خرج إلى الفناء، وبنيّته أن يطـوف في الحديقة. حينئذ تذكّر تلك الليلة القديمة، ونافذة وغرفة الخدمة المضاءة، وسطح الدرج خلف البيت، فأحس أنه لا يقوى على رؤيـة هذه الأماكن المُفعمـة بالذكريات. فجلس علـى مطلع الدرج، يتنشق الشذى المُسكر الآتي مـن براعم البتولة الفتية، والذي تشبّع به

هــواء الليل الدافئ، ويطيل النظر في بقع الأشجار المعتمة، ويصغي إلى جعجعــة الطاحونة، وإلى شَــدْو عصور يصفر، في دَغْــلٍ، على مقربة منــه. أُطفئت الأنوار في نوافذ الوكيل؛ وعــاد الهلال إلى الظهور، في المشــرق، خلف مخازن الحبوب، بعــد أن حجبته الغيوم. ومن حين إلى حــين كانت يروق الحرارة تنير الحديقة المزهــرة. وتناهى إلى الأسماع دوي الرعــد البعيــد، واكتسحت كتلة سوداء زاوية مــن السماء، شيئاً فشيئاً. فسكتَ العصفور. واختلط بتكسر الماء المزبد في سد الطاحونة صــراخ البط المذعــور، وسرعان ما تعالى في القريــة، وفي الفناء صياح الديكة، صياحها الذي اعتادته قبل الفجر بكثير، في ليالي العاصفة.

هنــاك مثل يذهــب إلى أن الديوك تصيح مبكّــرة في الليالي مرِحة؛ وفَرِحــة كانت هذه الليلة، عند نيكليودوف، بل أكثر من ذلك، كانت مــلأى بالسعادة. لقد أحيا فيه خياله الانطباعات التي أحس بها قديماً، طــوال ذلك الصيف الفاتن الذي قضاه في هــذا الموضع نفسه، عندما كان شابــاً وبريئاً. أحس بنفسه يعود كما كان إذ ذاك، أثناء ذلك الجزء السعيــد والجميــل من حياتــه، عندمــا كان، في مطلع شبابــه، يصلّي ليكشــف له الله عن الحقيقة، أو عندما كان يبكــي على ركبتي أمه، إذ يُضطــر إلى فراقها، مقسماً لها أنه سيظل عاقلاً أبداً، وأنه لن يُقدم على مــا يؤلمها. رأى نفسه مــع صديقه «نيقولا ارتنييــف»، في اليوم الذي عزما فيه على التعاون في طريق الخير، وعلى تكريس حياتهما في سبيل سعادة البشر.

تذكّــر بعد ذلك كيف راودته رغبة شريرة في كوزمنسكوي، دفعته علــى الأسف على بيته وغاباتــه ومزرعته وأراضيــه. وتساءل إن كان

مايزال يحتفظ الآن، في أعماق قلبه، بشيء من الأسف. لا، لم يكن يحتفظ بشيء من ذلك، بل إنه لم يعد يفهم كيف استطاع أن يأسف على ذلك كله.

وما لبث أن رأى بخياله ما لاحظه في القرية، وهو ذاهب إلى منزل ماتريونا: المرأة الشابة التي سُجِنَ رجُلها لأنه قطع شجرة من غابة السيد الملاك؛ ماتريونا الفظيعة التي لم تتوانَ عن التلميح إلى أن واجب فتيات طبقتها أن يستسلمن لغرام أسيادهن. تذكّر أن العجوز روت له الطريقة التي يُحمل بها الأطفال إلى الملجأ، ومثل أمام عينيه الولد الشائخ قبل أوانه، بابتسامته المثيرة للشفقة، وساقيه اللتين لم يبق منهما سوى العظام. ومن هذا الولد، انتقل بفكره إلى السجن، والرؤوس المحلوقة، والزنزانات، ونتن الأروقة، والسلاسل. وإزاء جميع مظاهر البؤس هذه، رأى الترف البليد في حياته الخاصة، وفي حياة المدن.

في هذه الأثناء، برز الهلال مرة أخرى، وراء مخازن الحبوب، وتطاولت الظلال السوداء، في الفناء، والتمعت حدائد السطوح برفق. وكأن العصفور الذي في الدغل لم يستطع أن يمتنع عن تحية النور، فعاد إلى الصفير، مع لقلقة منقاره.

تذكّر نيكليودوف كيف كد نفسه، في كومنسكوي، في تأمّل حياته، والتفكير فيما سيؤول إليه. وقد طرح على نفسه أسئلة لم يستطع حلها، لفرط ما وجد من بواعث التأييد والرفض، ولفرط ما بدت له الحياة معقدة وصعبة. وطرح على نفسه الأسئلة نفسها، مرة أخرى، فوجدها جد بسيطة. وإنما أصبحت بسيطة عنده لأنه كفّ عن التفكير وحتى عن الإهتمام فيما سيقع له، ليفكّر فقط فيما يجب

عليـه فعله. ومما يُدهش أنه بمقدار ما شق عليه من قبل أن يقرر ما ينبغي فعله لنفسه، أخذ الآن يرى بوضوح ما ينبغي فعله للآخرين. يجب أن يعطـي أراضيه للفلاحـين، لأن هؤلاء بحاجة إليهـا ولأنه هو نفسه لا حق له في حيازتهـا. ورأى بوضوح أيضاً أن من واجبه ألا يتخلى عن كاتيوشـا، وأنه ينبغي أن يساعدها على الاستمرار في الحالة التي تركها فيهـا، آخر مرة. لقد اقترف بحقها خطيئـة يجب أن يكفّر عنها شيئاً، لكنـه يعلم أن واجبه المطلـق أن يتصرّف هكذا. هـذه القناعة العميقة ملأته فرحاً.

اكتسحـت الكتلة السوداء، فجأة، السمـاء بأسرها؛ وتلت البروق الحقيقيـة بروق الحـرارة، فأنارت الفناء والبيـت الخَرب. ودوّى هزيم الرعـد فـوق الحديقة؛ وصمتـت العصافـير، لكـن أوراق الأشجار، بالمقابـل، أخذت ترتعش، وهبّ هواء بارد حـرّك شعر نيكليودوف. وسقطـت قطرة مـن المطر تحطّمـت على السطـح المعـدني، وتبعتها قطرة أخـرى. ثم هدأت الريـح فجأة، وخيم صمـت عظيم، وسمع نيكليـودوف فوق رأسه هزيماً متصـلاً من قصف جديد للرعد. فرجع إلى البيت من غير أن يفارقه سروره.

وفكّـر في نفسه: «نعم، نعـم، إني لا أدرك الفائدة من حياتنا، ولا الهدف الأسمى الذي من أجله نحن موجودون في هذا العالم، وليس بوسعي إدراكهما. لماذا عاشت عمتاي؟ لماذا مات نيكولنكا ارتنييف، بينما أنا على قيد الحياة؟ لماذا التقيت كاتيوشا؟ لماذا كنتُ أعمى ومجنوناً هـذا الزمن الطويل؟ لست أعلم شيئًا من ذلك، فليس بمقدوري إدراك عمل المعلم. أما إتمام مشيئته، كما هي مدوّنة في قلبي، فهذا ما أستطيع وما يجب أن أفعله. ولا راحة لي إلا إذا أتممتها».

كان المطر يهطل مدراراً، مطقطقاً على السطح، سائلاً على طول الزجاج. ومن دقيقة إلى دقيقة، كانت البروق تنير الفناء. عاد نيكليودوف إلى المكتب، وخلع ملابسه، واستلقى على فراشه، وبه شيء من القلق بصدد البق، لأن ورق الجدران الوسخ والممزق شككه في وجوده، من أول نظرة.

وفكر في نفسه: «أحب أن أشعر أنني خادم، ولست معلماً» فملأته هذه الفكرة فرحاً.

على أن مخاوفه تحققت. فما كاد يطفئ المصباح حتى أخذت الحشرات تدبّ على جسمه.

«سأعطي أراضيّ، وسأذهب إلى سيبيريا... البق، البراغيث القذارة! ليكن! سأتحمل ذلك، بما أنني يجب أن أتحمله».

لكنه لم يتحمل ذلك، بالرغم من نياته الطيبة. فنهض من فراشه، وجلس قرب النافذة المفتوحة، وظل طويلاً ينظر إلى السحب السوداء التي كانت تنقشع، وإلى الهلال الطالع من بين تلك السحب.

× × ×

-٩-

لم ينـــم نيكليـــودوف إلا عند الصبح، ولذا استيقــظ متأخراً. وعند الظهــر، وصل الفلاحون السبعة الذيــن اختارهم الوكيل إلى البستان، حيث وُضعــت، تحت أشجار التفــاح، طاولة ومقعــدان من الألواح الخشبية المثبّتة على أوتاد. وقد تعب نيكليودوف كثيراً ليحمل المندوبين السبعــة على أن يضعوا قبعاتهم على رؤوسهم ويجلسوا على المقاعد. وأصــر الجندي القديم، بخاصة، على البقاء واقفاً، ممسكاً بقبعته المرقّعة أمامه، كما يمسك بها الجنود أثناء الدفن العسكري.

لكــن عندمــا عمد أكــبر الجماعة سنــاً، وهو شيخ طويــل، مهيب الطلعــة، ذو لحية طويلة، رماديــة. جعدة، شبيهة بلحيــة موسى الذي نحتــه «ميكيل آنجــل»، وشعر كثيف، رمــادي، يجلل جبهــة صفراء لوّحتها الشمس، إلى وضع قبعتــه العريضة على رأسه، وتزرير قفطانه الجديــد، والجلوس على أحد المقعدين، لم يتردد أحد منهم، بعد ذلك، في أن يحذو حذوه.

بعــد أن انتهت هــذه الشكليات، جلس نيكليــودوف في مواجهة الفلاحــين. أخذ ورقة دوّن عليها مشروعه، وبدأ يقرؤها ويشرحها. لم

يشعر نيكليودوف بأي ارتباك، إما لأن عدد المستمعين كان قليلاً، وإما لأن التفكير في مشروعه حال بينه وبين التفكير في نفسه. وكان يوجّه، تلقائيـاً، بحديثه إلى الشيخ ذي اللحية الجعـدة، قبل غيره، وكأنه كان ينتظـر منه، قبل غيره، الموافقة أو الاستنكار. لكن الفكرة السامية التي كوّنهـا عن هذا الشيـخ كانت، مع الأسف، وهمـاً. لقد كان يخفض رأسه الجميـل، رأس شيخ القبيلة، تارة، كالموافـق، وتارة أخرى يهزّه دلالة علـى الريبة والحذر، حسبما يرى جيرانه يتصرّفون. والحقيقة أنه كان يجـد مشقة قصوى، لا في فهم فكـرة نيكليودوف فحسب، بل حتى في فهم معاني الألفاظ التي يستخدمها.

كان جـاره أفضـل فهماً منـه. كان شيخـاً قصيراً أعـور وأعرج، يرتـدي سترة قطنية مرفـوءةً. ويحتـذي جزمة قديمـة. وكانت مهنته صناعـة المواقد، كما أنبأ نيكليودوف أثناء حديثه. كان يحرك حاجبيه باستمـرار، وكأنه يحـاول جاهداً فهم مـا يُقال ويترجـم تباعاً، على طريقتـه، وبصوت عال، مـا يسمعه. وبجنبه جلس شيـخ آخر قصير وسمـين، قوي العضلات، أبيض اللحية لامع العينين. كان هذا الشيخ يستغل جميع المناسبات ليعلق تعليقات ساخرة أو ظريفة. والظاهر أنه كان ظريـف القرية. وبدا على الجنـدي القديم كأنه يفهم ما يدور عليه الحديـث، لكن أفكاره انحصرت في بعضـ الصيغ المحفوظة التي جاء بها من الخدمة العسكرية. وربما كان أكثرهـم جدية، شيخ طويل القامة، طويـل الأنف، قصير اللحيـة، يرتدي سترة نظيفـة، وفي قدميه حذاء خشبي جديد. كان يفهم كل شيء ولا يتكلم إلا إذا كان لديه ما يقوله.

أمـا الشخصان الآخران فـكان أحدهما ذلـك الأدرد الذي بدا،

عشيــة البارحة، أشد الناس معارضــة لاقتراحات نيكليودوف. وكان الآخــر رجلاً طويــل القامة، أبيضــ الشعر، وديع العينـين. وقد أُخْلِد كلاهما، في هذا اليوم، إلى الصمــت، واكتفيا بالإستماع، مع الإنتباه الشديد.

بدأ نيكليــودوف بعرض أفــكاره الشخصية عــن ملكية الأرض، فقال:

– أرى أنــه لا حق لنا في بيع الأرض وشرائهــا، لأننا لو ملكنا هذا الحــق لاشترى الذيــن يملكون المال كل الأرضــ، ولانتزعوا بذلك من الآخرين سبيل الانتفاع بها.

فعلّق الرجل ذو الأنف الطويل، بصوته الخفيض، قائلاً:

– هذا صحيح تماماً!

وأعلن الجندي القديم:

– بأمرك

وأفاد الأعرج الطيب القلب:

– أخذت عجوزي شيئاً من العشب لبقرتنا فقبضوا عليها واقتادوها إلى السجن.

وأضاف الشيخ الأدرد متجهّماً:

– حقلـي على خمسـة فراسخ من القرية، أمـا استئجار حقل آخر فغير ممكن، لأن الأسعار مرتفعة.

وأيّده آخر:

– إنهـم يسلخوننا كما يُسلخ العجل. الحـال أسوأ بكثير من عهد الآنستين العانسين.

فأكّد نيكليودوف:

– إني أرى رأيكـم في ذلـك كله. وأعتبر امتـلاك الأرض خطيئة. ولذلك عزمتُ على أن أتخلّى عنها.

ولاحـظ الشيخ الذي له لحية موسى والذي تصوّر أن نيكليودوف يريد أن يؤجّر أرضه:

– لا خلاف في ذلك، الفكرة حسنة.

– مـن أجل ذلك جئتُ، لا أريد أن أكون بعد الآن مالكاً للأرض. لكن يجب أن نتفق على طريقة توزيع الأراضي.

فصاح العجوز المشاكس:

– ما عليك إلا أن تهبها للفلاحين، هذا كل ما في الأمر!

اضطرب نيكليـودوف لحظة، إذ أحس أن في هذه الكلمات شكاً في صـدق نياته. لكنـه ما لبث أن تمالك نفسـه، وتذكر عزمه على أن يقول آراءه حتى النهاية، واستأنف:

– سأهبكم أراضيَّ، راضياً، مختاراً. لكن لِمَنْ أهبها، وكيف؟

فلم يجب أحد إلا الجندي القديم الذي سُمِعت منه كلمة «تماماً».

وواصل نيكليودوف:

– أصغوا إليّ. ماذا كنتم ستفعلون، لو كنتم مكاني؟

– ماذا كنا نفعل؟ الأمر بسيط: تقسم الأرض بين الفلاحين.

أعطى الجميع موافقتهم على هذا الجواب الذي بدا لهم شافياً كلياً.

فأعاد نيكليودوف السؤال:

– لكن، كيف نُجري هذه القسمة؟ أيجب أيضاً أن نهب الأرض لخدم المزارع، للذين لا يزرعونها؟

فأعلن الجندي القديم الذي حاول استخدام تعبير قوي:

– أبداً، كلا.

لكن الفلاح الطويل الذي كان أصحّهم محاكمة، لم يوافق، فقال بصوته الخفيض. بعد أن فكّر برهة:

– يجب أن توزّع بالتساوي بين الجميع.

اعترض نيكليودوف:

– لا، هذا غير ممكن، لو وزعتها بالتساوي بين الجميع، لأخذ الذين

لا يشتغلون لأنفسهم، الذي لا يزرعون، حصتهم ليبيعوا الأغنياء هذه الحصة. فتتجمّع الأرض مرة أخرى بين أيدي الأقوياء. أما الذين يزرعونها فإن أرضهم ستُجزأ، لأن أسرهم تتكاثر. ومرة أخرى يشدد الأغنياء سلطانهم على الذين يحتاجون إلى الأرض ليعيشوا.

فبادر الجندي القديم إلى القول:

– هذا صحيح جداً.

فعلّق صانع المدافئ، وهو يُلقي حوله نظرة غضب:

– ليُمنع بيع الأرض، إذن؛ ليُجبَر كل واحد على زراعتها بنفسه.

كان نيكليودوف قد توقع هذا الإعتراض. فأجاب بأن من المتعذر التحقق إن كان هذا الفلاح يزرع لحسابه أو لحساب الآخرين. ومن جهة أخرى فإن القسمة المتساوية مستحيلة.

عندئذ اقترح الفلاح الطويل القامة، الطويل الأنف، وهو أذكى السبعة، أن تُسوّى الأمور بحيث يزرع الفلاحون الأرض جماعياً.

وقال بصوته الثابت، الخفيض:

– مَن زَرع نال حصته، ومن لم يزرع لم ينل شيئاً.

فأجاب نيكليودوف بأنه فكّر في هذا أيضاً. لكن هذا المشروع لن يكون صالحاً للتنفيذ، إلا إذا كان الجميع يملكون المحاريث نفسها والجياد نفسها. يجب أن تكون جميع أدوات الزراعة مشتركة بين

الجميـع. وأضـاف أنه للوصـول إلى ذلك، لابد أن يتّفـق الجميع فيما بينهم.

ورأى العجوز القصير، ذو السحنة الكالحة:

– لن يتّفق النـاس عندنا على ذلك أبداً. ستنشب المعارك بينهم في الوقت نفسه! النساء أنفسهن سيقاتلن!

قال نيكليودوف وهو يبتسم:

– أنتم ترون أن الأمر ليس بسيطا كما بدا لأول وهلة. ولسنا وحدنا من يفكر في هذه القضايا. فهناك أمريكي يدعى جورج. أصغوا إلى ما ابتكره، ورأيي كرأيه في هذا الموضوع.

صرّح الشيخ الأدرد:

– أنـت السيد، تستطيع أن تفعل ما تشاء. نحن مُجبرون على العمل بما يرضيك.

شقّت هـذه المقاطعة على نيكليـودوف، بيد أنـه اكتشف، برضا شديد، أنه لم ينقم عليها وحده.

قال الرجل الحليم في الجماعة بصوته الخفيض:

– انتظر، يا عم سيميون، دعه ينهي كلامه.

أخـذ نيكليـودوف، وقد هـدأت نفسه، يشرح لهـم نظرية هنري جورج. قال:

- الأرض ليست لأحد، الأرض لله وحده.

فأعلنت عدة أصوات:

- هذه هي الحقيقة، تماماً.

- يجب أن تكون الأرض كلها ملكاً مشتركاً بين الجميع. ولهم جميعهم فيها حقوق متساوية. بيد أن هناك أرضاً جيدة وأرضاً أقل جودة. كل واحد يتمنى أن تكون له الأرض الجيدة، بطبيعة الحال. فكيف نسوّي بين الحصص؟ يجب على من يستثمر الأرض الجيدة أن يقتسم الفائض مع مَن يستثمر أرضاً أقل جودة. وبما أنه من الصعب تحديد الذين يجب أن يدفعوا والذين يجب أن يُدفع لهم، وبما أن المال لا غنى عنه، في حياتنا الراهنة، فإن أحكم الحلول هو أن يدفع كل من يستثمر أرضاً، للجماعة، ومن أجل الحاجات المشتركة، مبلغاً يتناسب مع ما تساويه أرضه من قيمة. وبهذه الطريقة تحصل المساواة. فإذا شاء أحد أن يستثمر أرضاً دفع عن الأرض الجيدة مبلغاً أكبر مما يدفعه عن الأرض التي هي أقل جودة. وإذا أبى أن يستثمر أرضاً لم يدفع شيئاً. والذين يزرعون الأرض هم الذين يدفعون عنه الضريبة الضرورية للحاجات المشتركة.

فصاح الشيخ المهيب ذو اللحية الجعدة:

- أما إنه لرجل عظيم العقل، جورج هذا!

وأبدى الرجل ذو الصوت الخفيض رأيه، بعد أن فهم:

– بشرط أن يكون الأجر ضمن إمكاناتنا.

– أمـا السعر فيجب أن يُحسب بحيث لا يكون مسرف الارتفاع ولا مسرف الانخفاض. فإذا كان مسرف الارتفاع لم يدفع الفلاحون، وحصلت الخسائر، وإذا كان مسرف الانخفاض أخذ الجميع يتاعون الأراضـي من الفلاحين، وبدأت تجـارة الأرض، مرة أخرى. ها أنا ذا قـد شرحت لكم نظام جورج. وعلى هذه المبادئ أود أن أنظم شؤوني معكم.

أجاب الفلاحون:

– إنه عادل جداً! ونحن نريده هكذا!

فردد الشيخ الذي يشبه موسى:

– أمـا إنه لعقل عظيم! جورج! ومـن العجب أنه ابتكر ذلك كله!

وسأل الوكيل وهو يبتسم:

– وإذا أردت أنا أن أحصل على الأرض.

فأجابه نيكليودوف:

– إن بقي منها بقية فخذها وازرعها.

ضحك الظريف هازئاً:

– ما حاجتك إلى الأرض؟ أنت في غاية السمنة بدونها!

هكذا انتهى النقاش. واستعرض نيكليودوف مرة أخرى مشروعه، وأضاف أنه لا يطلب جواباً مباشراً، لكنه يشير على المندوبين أن يتّفقوا مع الفلاحين الآخرين. ومتى قاموا بذلك حملوا إليه الجواب.

تعهد السبعة بذلك، ثم نهضوا، وعادوا إلى القرية. وظل نيكليودوف يسمع، زمناً طويلاً، رنين أصواتهم على الطريق. وتناهت إليه، حتى المساء، أصداء بعيدة لصيحات ومناقشات، محمولة على ماء النهر.

لم يشتغل الفلاحون، في اليوم التالي. وقضوا نهارهم في مناقشة اقتراح النبيل. وهي مناقشة لم تُفضِ إلى نتيجة، لأن الجماعة انقسمت إلى معسكرين. إذ اعتبر بعضهم اقتراحات الملاك مفيدة، ولا خطر منها؛ وأصر الآخرون على ألا يروا فيها سوى خديعة لا يستطيعون ان يدركوا مرماها، مما يزيدها خطراً، في أعينهم.

بيد أنهم اتفقوا، في اليوم الثالث، على قبول شروط نيكليودوف. وعاد السبعة لاطلاعه على قرار الجماعة. أما ما لم يقولوه لنيكليودوف فهو أنهم، هم أنفسهم، حملوا الفلاحين على الموافقة، وأفلحوا على طرد تخوّفهم من الخدعة: ذلك أن هؤلاء الطيبين اكتشفوا، و لم يتوانوا عن إعلان ما اكتشفوه، أن النبيل كان يتصرف على هذا النحو من أجل خلاص روحه، لأنه نوى أن يكفّر عن خطاياه.

قَبِلَ الفلاحون هذا التفسير بسهولة، ولاسيما أنهم كانوا شهوداً على كرم نيكليودوف، منذ قدومه، على أيِّ محتاج ، فلقد وزّع كثيراً من المال ، وكانت هذه أول مرة يتاح له فيها أن يرى، عن كثبٍ، بؤس

الفلاحين، والصعوبة القصوى التي يكابدونها ليعيشوا، في الظروف التي هم فيها. ومع علمه أن تخلّيه عن ماله ضرب من التهوّر، إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من العطاء؛ فعلى الأقل، قبض، في كوزمنسكوي، مبلغاً كبيراً من المال، جاءه من بيع غابة ومن متأخر دخله.

ما إن شاع أن النبيل يهب المال لكل من يسأله المال، حتى بدأ يفد عليه جمهور من المساكين، ولاسيما النساء، يتوسلون إليه أن يمد يد العون إليهم. كان نيكليودوف مُحرجاً. لأنه خشي ألا يستطيع العطاء إلى ما لا نهاية. ومن جهة أخرى، فهو لم يكن يملك الوسيلة التي يقرر بها من الذي يجب أن يعطيه، ومن الذي يجب أن يمنع عنه عطاءه، ولذلك فقد أحس بعجزه عن رفض طلب من كانوا يسألونه ويَبْدون في أمس الحاجة إلى المال. أخذ مالُه ينفذ وظل السائلون يتوافدون. فكانت الوسيلة الوحيدة المتوفرة له للخروج من هذا الوضع هو أن يسافر. ولذلك عزم على الذهاب بأسرع ما يمكن.

في آخر يوم من إقامته، صعد إلى شقتي عمتيه، ليستعرض الأشياء الباقية فيهما. وفي آخر درج من خزانة صغيرة مزدانة بزخارف مطبّقة عليها. وبحلقٍ من البرونز مُدخلة في رؤوس الأسود، عثر على رزمة من الرسائل القديمة بينها صورة: لصوفيا ايفانوفنا، وماريا ايفانوفنا، وهو نفسه بلباس الطالب، وكاتيوشا نظيفة، نقية، غضة الإهاب، تفيض عافية. لم يأخذ نيكليودوف سوى الرسائل وهذه الصورة، من بين جميع الأشياء التي يحتويها المنزل. أما سائر المنزل فقد تركه للطحان الذي اشترى بالجملة منزل «باتوفو» وأثاثه.

وحـين تذكّر، مـن جديـد، الشعـور بالأسف الذي ســاوره، في كوزمنسكــوي، لعزمــه التخلــي عــن أملاكــه، تساءل مـرة أخرى، بذهول، كيف استطــاع أن يشعر بمثل هذا الشعور. أما الآن فليس في نفســه إلا الإحساس بالخلاص الذي امتزج به سحر الجِدّة. كان شبيهاً بالإحساســ الذي لعل المكتشف يحسّ به، وهــو يلمح أرضاً جديدة عند خروجه من محنٍ قاسية.

-١٠-

عندمـا عاد نيكليـودوف من الريـف، تركت فيه المدينـة أثراً جد كريـه. وصل إليها في المساء، وقصد رأساً إلى بيته. كانت الغرف كلها مشبعة برائحة النفتالـين القوية؛ وقد بدا التعب والإستياء في آن واحد علـى «اغرافنا بيتروفنا» و»كورني». بل إنهمـا تخاصما، بعد الظهر، بصدد عملهما الذي يقوم فقط، على نشر البسط والثياب، وتنشيفها، ثم إعادتها إلى مواضعها.

لم تمتـد الفوضى كثـيراً إلى غرفة نوم نيكليـودوف. على أن الخدم أهملـوا إعدادهـا للنـوم، وقـد وُضعت أمـام البـاب صناديق عاقت المرور. والظاهر أن نيكليودوف بعودته المفاجئة، شوّش هذا المشروع العجيـب. مشروع التنظيف الذي يستمـر في البيت، منذ أسابيع ببطء خارق للعادة. كل ذلك بدا لنيكليودوف سخيفاً جداً، مضحكاً جداً، بالقياس إلى بؤس الفلاحين الذي كان شاهداً عليه، حتى أنه عزم على الرحيل عن بيته في صبيحة اليوم التالي ليسكن في غرفة مفروشة، تاركاً لأغرافنا بيتروفنا مهمة العناية بترتيب أثاث المنزل، كما يحلو لها.

وبالفعـل، فقد خرج، في اليوم التالي مبكّراً، واختار لنفسه غرفتين

صغيرتـين، مظهرهما متواضع أشد التواضـع، في أول فندق مفروش لقيـه على طريق السجـن. وبعد أن أمر بأن يُنقـل إليها صندوقه الذي أعدّه منذ العشية، مضى قاصداً منزل المحامي.

كانت الصبيحة شديدة الـبرودة. وتلا العواصف والأمطار صقيع لا يقـع، عـادة، إلا في بداية الربيـع. كان البرد قارساً، جـداً، والريح لاسعة جـداً، حتى أن نيكليودوف الذي كان يرتـدي معطفاً خفيفاً، أخذ يرتعد، ويحثّ الخطى ليتدفّأ.

لم يـبرح ذاكرته مـا رآه في القرية: رأى مرة أخـرى هؤلاء النسوة والأطفـال والشيوخ، وذلك البؤس والتعب الذي اكتشفه لأول مرة. رأى، بخاصـة، هـذا الطفل البائسـ المهزول، الذي ابتسـم له، وهو بين ذراعـي أمه ابتسامة مؤلمة، محـركاً أبداً ساقيـه اللتين ذهب عنهما لحمهـا. وأخذ نيكليودوف، تلقائياً، يـوازن بين هذه الذكريات وما يـراه من حوله. وعندما مـرّ أمام دكاكين البقالـين واللحامين وبائعي السمـك والملابسـ الجاهـزة، ذهل من هـذه السِحـن المتخمة لمعظم هـؤلاء البرجوازيين الصغار، وهي سحن تتناقض مع سحن الفلاحين. ممتلئين أيضاً بدا له حوذيّو العربات الفخمة بأوراكهم الضخمة المدّثرة بدثارات فضفاضة، مغلقة عند الظهر بأزرار نحاسية ضخمة، وكذلك كان البوابـون بخلعهم المزينة بشرائط، والخادمـات بمآزرهن البيضاء، وشعورهن المجعـدة؛ وحتى سائقي العربـات المسترخين على مساند عرباتهـم، العاكفـين على التفرّسـ في المارة، وهم شـاردو اللب. إن نيكليـودوف رأى فيهم النموذج ذاته الذي رآه في الريف، بالرغم من مظهـر الرخاء هذا. لقد طُرد هؤلاء مـن قراهم، لأنهم لم يملكوا أرضاً

يستثمرونهـا. واستطاعوا أن يتلاءموا وظـروف الحياة في المدينة. لقد غدوا برجوازيين يتمتعون بوضعهـم الذي أخذوا يفخرون به. لكن، علـى جانب هؤلاء. مـا أكثر الذين طُردوا من قراهـم، للسبب نفسه، فلـم يواتهم الحظ كمـا واتى أولئك، وألْفَـوا أنفسهم في ظروف أشد بؤسـاً بما لا يُقاس من الظروف التي لم يستطيعوا احتمالها في قريتهم! مـن مثل هـؤلاء السكّافين الذيـن كان نيكليـودوف يراهم منهمكين في تطريـق الجلد أمام نوافذ القبـو؛ ومثل هؤلاء الغاسلات الهزيلات، الشاحبـات، المشعّثات الشّعر، المشغولات بكـيّ الغسيل أمام النوافذ المفتوحـة التـي ينبعـث منهـا بخـار الصابـون الخانق؛ ومثـل هذين الدهّانـين اللذين لقيهما في الشارع. وكانـا يمشيان حافيين، ملطّخين مـن رأسيهما إلى قدميهما، مشمريـن أكمامهما حتى المرافق، حاملين سطـلاً مملوءاً بالدهـان. لا يكفان عن تبادل الشتائـم. كان وجهاهما يعبران عن مزيـج من الإعياء والاغتمام. وهذا التعبـير نفسه كان يُقرأ على وجـوه سائقي العجلات الذيـن كانوا يمرون، سـوداً من الغبار، فـوق عجلاتهم المرتّجة؛ وعلـى وجوه الرجال والنسـاء والأطفال في الأطمار البالية، وهم يتسوّلون في زوايا الشوارع، وعلى الوجوه التي لمحها نيكليودوف من خـلال نوافذ حانة مفتوحة. فحول الطاولات القذرة، التي تراكمت عليها الزجاجات والأقداح، جلست جماعات مـن الرجال يصرخون ويغنون، وقد نضحت وجوههم عرقاً والتهبت خدودهم. وأمام إحدى النوافذ رأى نيكليودوف أحد هؤلاء البائسين مقطّب الحاجبين، فاغر الفم، يحـدّق أمامه، كأنه يبذل جهده ليتذكّر شيئاً ما.

تساءل نيكليـودوف، بينما كان يستنشق، مع نداوة الهواء، رائحة

منفّرة للكلس بالزيت، آتية من البيوت التي تم بناؤها منذ أمد قريب:

- «لماذا لجؤوا جميعاً إلى المدينة؟»

في أحـد الشوارع صادف سائقي عربـات محملة بقضبان الحديد؛ كان بلاط الشارع يرتجف مع قعقعة الحديد. فأوجعت هذه الضوضاء رأسه، وجرى ليسبق العربة عندما سمع فجأة نداء اسمه مختلطاً بقعقعة قضبان الحديد.

- نيكليودوف! هذا أنت!

فوقف وشاهد أمامه رجلاً بديناً، أنيق الملبس، متألق الوجه، مفتول الشاربـين، جالسـاً في عربة، يشير إليـه بيده إشارة ودّيـة، ويبتسم له كاشفاً عن أسنان ناصعة البياض.

كان انطباع نيكليودوف الأول انطباع المسرة. فهتف بفرح:

- عجباً، شونبوك؟

لكنه أدرك بعد لحظة، أنه ليس في ذلك ما يدعو إلى الابتهاج. كان شونبـوك هذا هو نفسه الـذي لحق به إلى منزل عمتيـه في اليوم التالي لليـوم الذي أغوى فيه كاتيوشا. لم يره نيكليودوف منذ زمن بعيد، ثم قيل له إن شونبوك ترك الجيش، هو أيضاً. وقد قيل له كذلك أنه مايزال يعيشـ في مجتمع الأثريـاء، دون أن يعلم أحد كيف، بالرغم من ذهاب ثروتـه، ومن ديونه. إن أناقة ملبسـه، وما تنطق به ملامحه من رضاً، إن ذلك أثبت لنيكليودوف أنه لم يُخدع وأن ما قيل له صحيح.

قال الضابط القديم ممازحاً، وهو ينزل من عربته، ويقوّم كتفيه:

– مـا أعظم حظي بلقائك! أقسم أنه لم يبـق أحد في المدينة! آه، يا عزيزي، لقد كـبرت! تصوّر أني لم أعرفك إلا مـن مشيتك. سنتغدّى معاً، أليس كذلك؟ أين يمكننا أن نتغدّى غداءً لائقاً في هذا البلد؟

أجـاب نيكليودوف وهو لا يفكـر إلا في العثور على العذر ليترك رفيقه القديم:

– أخشى ألا أستطيع القبول.

ثم سأله:

– وأنت، ماذا تفعل هنا؟

– أنا، يا عزيزي، جئت من أجل قضية، قضية الوصاية. أتعلم أنني وصي؟ وأننـي أدير أملاك سامانون الثري الكبـير؟ تصور أنه ضعيف العقل! أربعة وخمسون ألف هكتار من الأرض!

وقد أوضح ذلـك بأقصى ما يمكن من الرضا عن الذات حتى كأنه هو صانع هذه الثروة. وأردف:

– كان ذلـك كلـه في فوضـى مروّعة. إذ استـولى الفلاحون على الأرضـ، وكفوا عن دفع العائدات، وغدا العجـز هائلاً، فبلغ المتأخر أكـثر من ثمانين ألف روبل. لكنني أعـدتُ الوضع إلى حالته الطبيعية، في سنة وصايـة. ودفعت لمجلس الوصاية مبلغاً أكبر بسبعين في المائة. فما قولك؟

تذكّـر نيكليـودوف أن هذه القصة قد رُويت لـه بالفعل. ذلك أن شونبـوك الذي بدد ثروته كلها، وغـرق في الدين حتى أذنيه، قد عُيِّن ليُدير، بصفته وصياً، ثروة مليونير أُصيب بالخرف.

وفكّـر نيكليودوف وهو يتأمـل هذا الوجه المتألـق والمنتفخ الذي برز فيه شاربـان بديعان. لامعان من دُهن التجميل: «كيف يمكنني أن أستأذنه دون أن أجرحه؟».

– حسناً! أين نتغدّى؟

فأعلن نيكليودوف، وهو يخرج ساعته:

– هذا مستحيل اليوم، حقاً.

– أحقـاً ما تقـول؟ إذن اسمع، في هذا المساء سبـاق للخيل، فهل تأتي؟

– لا، مستحيل.

– بـل، يجب أن تأتي. لم يبق لدي خيـل، أنا، لكن غريشا أعارني أحـد جياده. أتعلـم أن عنده اسطبـلاً رائعاً؟ وهكذا، اتفقنـا، ستأتي وسنتناول العشاء معاً.

فأجاب نيكليودوف وهو يبتسم:

– وهذا أيضاً، لا أستطيع أن أعدك به.

– ما بك، إلى أين أنت ذاهب الآن؟ أتريد أن أوصلك؟

– شكراً، أنا ذاهب إلى منزل محام، قريب من هنا.

فانفجر شونبوك ضاحكاً.

– آه! نعم، يبدو أنك تقضي حياتك في السجون، الآن. إنك تحمل إلى السجناء حاجاتهم، آل كورتشاغين قالوا لي ذلك. أتعلم أنهم سافروا؟ حدّثني قليلاً عن هذه القضية؟

فأقرّ نيكليودوف:

– هذا كله صحيح، لكن هذه القضية معقدة جداً، ولا يمكن أن أروي لك شيئاً منها في الطريق.

– آه! يا صاحبي، ستبقى إذن أبداً ذلك الرجل الغريب الأطوار؟ مهما يكن، أنا أنتظرك هذا المساء، بعد السباق.

– مستحيل لا أستطيع، ولا أريد حقاً. لن تحقد علي، على الأقل؟

– لن ينقصنا سوى هذا! وأين تُقيم؟

وغدا وجهه جاداً، على حين غرة، ونظرة عينيه جامدة، كأنه يحاول أن يتذكّر شيئاً ما. وأبصر نيكليودوف التعبير المتبلّد ذاته الذي لاحظه عند الرجل المقطّب الحاجبين، الفاغر الفم، في نافذة الحانة فسأله:

– الجو بارد، أليس كذلك؟

– نعم، نعم...

وسأل شونبوك سائق العربة فجأة:

– مُشترياتي، معك؟

ثم قال، وهو يشدّ بقوة على يد نيكليودوف:

– طيب، إلى اللقاء إذن؟ سُررت جداً بلقائك؟

ووثب إلى العربة، ولوّح، أمام وجهه المتألق، بيده اللابسة قفّازاً من الجلد الفاخر، وابتسم ابتسامة تقليدية كشفت عن أسنانه الناصعة البياض.

سأل نيكليودوف نفسه، وهو يتابع طريقه إلى منزل المحامي:

«أمن الممكن أنني كنت هكذا، أنا أيضاً؟ واأسفي! لقد فعلت كل شيء لأغدو هكذا، ظناً مني أن حياتي ينبغي أن تكون كذلك».

× × ×

-١١-

كان المحامــي في منزله، وقد بــادر إلى استقبــال نيكليودوف قبل المراجعين الآخريــن. حدّثه، على الفور، عن قضية منشوف. ذلك أنه درس الإضبارة فوجد أن التهمة، بالفعل، غير ثابتة. وأكّد قائلاً:

– القضية، مــع ذلك، بالغة التعقيد. والأرجــح أن صاحب الحانة هو الذي أضرم النــار في مخزنه، ليحصل على تعويض التأمين. الحقيقة أن ليســ هناك أدنــى أثر للأدلة المادية. وقد نتــج الحكم فقط عن فرط حماســة قاضي التحقيق وإهمال وكيــل النائب العام. لكن الشر وقع، ومــن الصعب تغيير الأمور. لا قيمة لذلك. ليتنا نستطيع فقط الحصول علــى إعادة النظر في القضيــة، وفي المحكمة هنــا، إذن لضمنت ربح القضيــة، ولرافعت دون أجرة. ثم إني اهتممــت أيضاً بقضية فيدوسيا بيريوكوف التي حدثتني عنها؛ خّذْ، هوذا التماس العفو لها، إذا ذهبتَ إلى بطرسبرج من أجل ماسلوفا، فخذ هذا الإلتماس معك واسعَ إلى أن توصــي بها. وإلا فإن الطلب سيُدفــن في أدراج المكاتب؛ إذا ما تركنا الأمــر لــلإدارة، وسنُضيع وقتنا ســدىً. إبذل وسعك، بمــا أن القضية تَعْنيــك، لتصل إلى الأشخاص الذين لهــم تأثيرهم في لجنة العفو. هذا كل ما عندي. أيمكنني أن أخدمك في أي شيء آخر.

– الواقع، نعم... قيل لي...

فقال المحامي وهو يقهقه ضاحكاً:

– ها! ها! لقد أصبحت، فيما أرى، البوق الذي يُعلن عن مطالب السجن! لكني أحذّرك، فلن تُفلح أبداً في أن تتلقاها جميعاً، فهناك فيض منها.

فأكّد له نيكليودوف:

– لا، لكن هذه القضية فظيعة حقاً.

وردد على مسمع فانارين قصة رُويت له. وهي أن فلاحاً متعلماً أخذ يقرأ الإنجيل بصوت عال ويشرحه لرفاقه. فوشى به الكاهن لأنه رأى في ذلك جرماً. وجرى التحقيق وأصدر وكيل النائب العام صك الإتّهام الذي صدّقته محكمة الجنح.

ثم سأله نيكليودوف:

– أليس هذا فظيعاً؟

– ما الذي أدهشك إلى هذا الحد؟

– كل شيء! أو بالأحرى لا، فأنا أفهم سلوك الكاهن وموظفي الشرطة. إذ أن هؤلاء لم يفعلوا إلا ما أُمروا به. لكن هذا الوكيل الذي أصدر صك الإتّهام، كان حراً في أن يستنتج شيئاً آخر، ثم إنه، رجل مثقف، في نهاية الأمر!

– عجباً! كأنك لا تعرفهم! إن الناس يتصوّرون عادة أن النواب العامين، والوكلاء، والقضاة، على العموم، من ذوي النباهة والثقافة

والعواطف المتحررة. كان الأمر كذلك فيما مضى، أما اليوم فإن الأمور تغيرت. القضاة اليوم معنيون فقط بترفيعهم، إنهم يقبضون مرتّباً، ويتمنون مرتّباً أعلى؛ ومبادئهم لا تتعدّى هذه الحدود. وهم مستعدون، بعد ذلك، ليتّهموا ويحكموا ويدينوا مَنْ تشاء.

– لكن هناك قوانين! ليس لهم الحق في أن ينفوا رجلاً لمجرّد أنه قرأ الإنجيل مع أصدقائه.

– ليس لهم الحق في إبعاده فحسب، بل وفي إرساله أيضاً إلى الأشغال الشاقة إذا ما عنّ لهم أن يُعلنوا أن هذا الرجل قد ابتعد، في شرحه للإنجيل، عن الشرح المفروض. فهو بهذا يكون قد أهان الكنيسة جهاراً. إهانة الديانة الأرثوذكسية: الأشغال الشاقة! المادة ١٩٦.

– أممكن هذا؟

– الأمر كما قلت لك. وأنا أكرر دائماً للقضاة أني لا أستطيع أن أراهم دون الإحساس بأن قلبي ممتلئ بعرفان جميلهم، نظراً لأني، إن لم أكن في السجن، وإن لم تكن أنت في السجن، وإن لم يكن الناس جميعاً في السجن، فذلك نتيجة لتكرّمهم علينا.

– لكن إذا كان كل شيء يتوقف على تعسّف النائب العام وتعسف أشخاص آخرين يستطيعون أن يفسّروا القانون على هواهم، فلماذا وُجدت المحاكم؟

استقبل فانارين هذا السؤال بضحك فرحٍ:

– ما أغرب أسئلتك، أنت! لكن ذلك كله، يا عزيزي، من الفلسفة. على كل حال، لماذا لا نناقش ذلك؟ تعال إذاً إلى منزلي،

في يــوم السبت، وستلتقي علماء وأدباء وفنانــين. وبوسعنا أن نناقش، بحرية، هذه القضايا الاجتماعية.

قال المحامي ذلك، وشدد بتهكّــم على هاتين الكلمتين: «القضايا الاجتماعية». وأضاف:

– أتعرف زوجتي؟ سنكون سعداء باستقبالك.

– بالتأكيد، سأبذل وسعي...

كذلك أجاب فانارين، وهو يحس أنه يكذب، وأنه سيبذل وسعه، علــى العكســ، لكي لا يأتــي إلى استقبال فانارين، لأنــه لا يشتهي أن يعرف هذه الحلقة من العلماء والأدباء والفنانين.

إن ضحك فانارين، جوابا عن سؤاله، واللهجة الساخرة التي لفظ بها كلمتي «قضايا اجتماعية»، أفهماه أخيراً إلى أي حد تختلف طريقته في التفكير والإحساس عن طريقة المحامي، وعن طريقة أصدقائه، من غــير شك. وعلى الرغم من التبدّل الذي طرأ على نفس نيكليودوف، فقد خُيِّل إليه أن شونبــوك سيظل أبداً أقل بعداً عنــه من فانارين ومن جميع المثقفين الذين هم حوله.

× × ×

-١٢-

كان السجــن بعيداً والوقــت متأخراً. فأوقــف نيكليودوف عربة وأمــر أن تُقلّه إلى السجن. وأثنــاء الطريق، التفت الحوذي، وهو رجل متوســط السن، ذكي الطلعة، وديع الوجه، نحو نيكليودوف ليشير له بإصبعــه إلى عمارة كبــيرة في طور البناء، قال باعتــزاز، كأن جزءاً من الفضل في هذا البناء يعود إليه:

– أُنظر إلى هذا البناء!

كان في الواقــع، بنــاء ضخماً، مصممــاً بأسلوب شديــد التعقيد، والغرابة، يحيط به حباكٌ متين من جسور الصنوبر الضخمة التي ثبتت بقضيب من الحديد، وانفصلت عــن الشارع بحاجز. وكان البناؤون يتحركون على الصقالات، وهم مغطّون بالكلس، كما يتحرك النمل. فبعضهــم كان يبني، وبعضهــم الآخر يقطع الحجــارة. وكان آخرون يصعدون بالسطول والنقالات ملأى بمــواد البناء لينزلوا بها بعد ذلك فارغة.

كان يقف عند أدنى الصقالة سيد بدين، أنيق اللباس، لعله المهندس، وكان يكلّــم رئيس العمــال الذي أخذ يصغي إليــه باحترام، وهو يريه شيئاً فــوق. ومن البوابة، كانــت العربات الفارغة تخــرج والعربات الملأى تدخل، مارة أمام الرجلين.

حدَّث نيكليودوف نفسه وهو يلاحظ البناية: «العجب أن هؤلاء الناس مقتنعون بأنهم يقومون بعمل نافع، سواء منهم مَنْ يعمل أم من يأمر. أثناء هذا الوقت، تُضني نساؤهم أنفسَهن بالعمل، في الريف، ويُحكم على أولادهم في المهد، أن يموتوا جوعاً، وهم يبتسمون كأنهم شيوخ صغار، وأن يحركوا سوقهم التي زال عنها لحمها. هم يظنون أنهم يقومون بواجبهم، وهم يبنون هذا القصر التافه، الذي لا نفع فيه، لثري غبي لا نفع فيه. وقرر، بصوت عال:

– في الحقيقة، إنه منزل سخيف.

فغضب الحوذي:

– كيف، سخيف؟ بل شكراً له، إنه يُشغّل كثيراً من الناس...

– لكنه عمل لا نفع فيه!

فردّ الحوذي:

– لو كان ذلك لما أقدموا عليه. إنه يُطعم كثيراً من الجائعين.

صمت نيكليودوف، ولاسيما لأن ضجيج العربات على بلاط الطريق جعل الحديث عسيراً. وغير بعيد من السجن، انتقل الحوذي من الشارع إلى طريق ترابية مطروقة، فغدا الحديث أيسر. والتفت نحو نيكليودوف وهو يقول:

– ما أكثر هؤلاء الناس الذي يَفدون على المدينة! هذا رهيب!

واستدار على مقعـده، وأرى نيكليودوف جماعة من العمال آتين من الريـف، يحملـون المناشير والفؤوسـ والحزم التـي رفعوها على أكتافهم المغطّاة بمعاطف قصيرة من الفرو.

استفهم نيكليودوف:

– أهُمْ أكثر عدداً من السنين السابقة؟

– لاشك! نكبة حقيقية... أرباب العمل يتداولونهم، وقد غصّت المدينة بهم، في كل مكان.

– لكن لماذا؟

– إنهم أكثر من اللازم، ولا عمل لهم.

– إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يبقون في الريف؟

– وهناك لا يجدون عملاً، لا أرض لهم.

أحس نيكليـودوف كأنه يتلقى ضربة، يبـدو أن الناس يستسيغون صـدم الجانب الحساس فيه، دون عمد. ففكّر: «أمن الممكن أن تكون القصة هي نفسها إلى الأبد؟». وسأل الحوذي ما مقدار الأراضي التي في قريته، وكم زرع هو نفسه، ولماذا جاء إلى المدينة.

– لنا من الأرض، يا سيدي، هكتار لكل نفس. عندنا أرض لثلاثة أشخاصـ. في البيـت أبي وأخـي. أخي الآخر جندي. هـم يدبّرون أنفسهـم، لكن الأرض لا تكفـي... يريد أخي أن يأتي هـو أيضاً إلى موسكو.

– لا تستطيعون أن تستأجروا حقولاً أخرى.

وأين نجدهـا؟ أسيادْنا القدماء تخلصوا مـن أراضيهم، فانتهت إلى أيدي التجار. وهؤلاء لا يؤجرونهـا، بل يزرعونها لحسابهم الخاص. في قريتنا فرنسي اشترى كل ما لدى النبيل القديم من أرض. وهو يأبى أن يؤجرها.

– من هو هذا الفرنسي؟

– اسمه «دوفـار»، ولعلك سمعت به. هو بائع الشعر المستعار في المسرح. هذه مهنـة مربحة حقاً... اغتنى منها! لقد اشترى كل أملاك سيدتنـا. وغدا هو السيد الآن وهو يعاملنا كمـا يحلو له. ومن حسن الحـظ أنه رجل طيب، بينما امرأته...! هي روسية لم يُرَ لها مثيل! إنها تستغـل أهـل قريتها! يا للعار! لكـن هوذا السجن. هـل أوصلك إلى البوابة؟ أعتقد أنهم لن يسمحوا لك بالدخول.

× × ×

-١٣-

قــرع نيكليــودوف البــاب الرئيسي، وهــو منقبض القلب. كان يتســاءل برعــب في أية حالــة سيجــد ماسلوفا، وكان يرعبــه أكثر من ذلــك هذا السر الخفي الــذي أحسه فيها، والذي بدا له أن السجن كله ممتلــئ به. عندما فُتِحَ الباب لــه، طلب أن يرى ماسلوفا. فبادر الحارس الذي عرفه، إلى إدخاله، وقــال له إن ماسلوفا نُقلت إلى المشفى. فاتجه نيكليــودوف إلى هذا القسم، ووجد حارساً طيباً، قديماً، أدخله رأساً، وقاده هو نفسه إلى قسم الأطفال حيث تعمل ماسلوفا.

خرج إلى لقــاء نيكليودوف طبيب متمرّن تنبعــث منه رائحة قوية مــن حامض الفينيــك، وسأله، بلهجة قاسية، عــن الغرض من زيارته. كان هذا الطبيب شديد المجاملــة للمرضى، مما عرضه دائماً لتنبيهات موظفــي السجن ورئيســه، رئيس الأطباء. لقد خشــي أن يلتمس منه نيكليودوف طلباً غير مقبول، ولعله أراد أن يُظهر أنه لا يستثني أحداً، فحمل نفسه على الظهور بأقسى مظهر ممكن. ودمدم قائلاً:

– ليس ها هنا نساء، هذا قسم الأطفال.

– أعلم ذلك، لكن قيل لي أن ها هنا سجينة نُقلت حديثاً بصفتها ممرضة.

– عندنا اثنتان، في الوقع. فماذا تريد بالضبط؟

أوضح نيكليودوف:

– إني أهتم بإحداهما، المرأة ماسلوفا، وهي التي أود أن أراها. سأذهب غداً إلى بطرسبرج لنقض الحكم.

وأضاف وهو يخرج من جيبه مغلفاً:

– ثم إني أريد أن أعطيها هذا المغلف. ليس فيه سوى صورة. قال الطبيب الشاب بعد أن عاد إليه هدوءه:

– حسن، سأدعوها.

والتفت إلى ممرضة عجوز تضع وزرة بيضاء، فرجاها أن تأتي بالمرأة ماسلوفا.

– ألا تريد أن تجلس، أو تنتقل إلى قاعة انتظار الممرضات.

أجاب نيكليودوف:

– شكراً.

وانتهز تغيّر موقف الطبيب ليسأله إن كان مسروراً من عمل ماسلوفا.

فقال الطبيب:

– بـدون شك، لابأس بعملها، ولاسيما إذا فكّرنا في المكان الذي جاءت منه. ها هي ذي؟

دخلت ماسلوفـا البهو تقودها الممرضة العجوز. كانت، هي أيضاً ترتـدي وزرة بيضـاء فوق فستـان من القماش المخطـط، وتضع على رأسهـا منديلاً أخفى شعرها. وعندمـا شاهدت نيكليودوف انذهلت لحظـة من الزمن: قطّبت حاجبيها، وغضّـت بصرها، وتقدّمت نحوه بخطـوات سريعـة وهي تحمـر. لم تشـأ، أول الأمر، أن تمـدّ يدها، ثم انتهت بـأن مدتّها، وهي تـزداد احمراراً. لم يكن قـد رآها منذ ذلك اليوم الذي اعتذرت فيه عن غضبها عليه. كان يتوقع أن يجدها محافظة على عواطفها نفسها. غير أنها بدت، هذه المرة، مختلفة تماماً، متحفظة منغلقة على نفسها، وبدت، فيما قدّر، معادية له.

كرر عليها ما قاله للطبيب الشاب: إنه سيذهب إلى بطرسبرج، وأنه حرص على رؤيتها قبل سفره، وأنه حمل إليها شيئاً. وسلّمها الصورة، قائلاً:

– خذي، عثرت عليها في «باتوتو»، إنها صورة قديمة، ربما سررتِ بالنظر إليها. خذيها.

رفعـت حاجبيهـا الأسوديـن، ونظـرت عيناها اللتـان بهما شيء مـن الحول إلى نيكليـودوف وهما تعبّران عن الدهشـة وكأنها كانت تتساءل:

«لَمَ يُعطيني هذه الصورة؟» ثم قَبِلت المغلف، وخبّأته تحت وزرتها، دون أن تفوه بكلمة.

أضاف نيكليودوف:

– رأيت خالتك في القرية.

فقالت بصوت غير مبال:

– آه!

– وكيف تجدين نفسك هنا!

– حسنة جداً، لست أشكو شيئاً.

– والعمل، أليس مرهقاً؟

– لا، لكنني لم أتعوّده بعد؟

– أنا مسرور لك. فهذا أفضل لكِ من هناك.

فهتفت. والدم يتدفّق من وجنتيها:

– «هناك» أين؟

فسارع نيكليودوف إلى الإيضاح:

– في السجن.

– ولَمِ كان هنا أفضل؟

– أتصوّر أن الناس هنا أفضل، هنا أنواع أخرى من الناس. فردّت ماسلوفا بلهجة جافة:

– وهناك أيضاً كثير من الناس الطيبين!

– بالمناسبة، لقد بحثتُ في قضية منشوف، وآمل كثيراً أن يُطلق سراحُهم.

فأعلنت مرددة تعريفها للعجوز السجينة:

– ليحفظها الله! إنها عجوز غير عادية!

استضاء وجهه بابتسامة خفيفة:

– كما آمل أن ينظر في قضيتك، قريباً في بطرسبرج، وأن يُنْقَضَ الحكم.

– سواء علي نُقض أم لم ينقض، لست أبالي بشيء، الآن.

– لماذا تقولين «الآن»؟

أجابته، وهي تنظر إليه خلسة نظرة مُستفهمة:

– هكذا...

تصوّر نيكليودوف أنها تريد أن تعلم إن كان باقياً على عزمه، أو إن كان قد قبل الرفض الذي قابلته به.

– لا أفهم لماذا لا تبالين بذلك. بالنسبة إلي لم يتغير شيء. فمهما يحدث لك، سأكون مستعداً أبداً للقيام بما قلته لكِ.

رفعت إليه مرة أخرى عينيها المائلتين إلى الحول. وعلى الرغم منها، كان الفرح العميق يُقرأ فيهما بوضوح؛ لكنها لم تَصُغْ هذا الفرح الذي نمّت عليه عيناها، في كلمات، وأكّدت:

– أنت تضيع وقتك في الحديث معي هكذا.

– إني أحدّثك هكذا لكي تعرفي ما هو كائن.

أعلنت له، وفي صوتها آثار من الجهد:

– قد قيل ما قيل، وليس لدي ما أضيفه.

في هذه اللحظة، تناهت إليهما ضوضاء في الغرفة المجاورة، تبعها صراخ طفل. قالت ماسلوفا وهي تلقي حولها نظرة قلقة:

– أعتقد أنهم ينادونني.

– طيب! إلى اللقاء، إذن.

تظاهرت بأنها لم تر اليد التي مدّها إليها، وولّت هاربة دون أن تلتفت إلى الوراء، محاولة أن تخفي فرحها.

تساءل نيكليودوف: «ماذا يجري فيها؟ فيمَ تفكر وبماذا تحسّ؟ أتريد فقط أن تمتحنني. أم أنها لا تستطيع أن تصفح عني؟ أهي تكنُّ لي الودّ أم الكره؟ عبثاً جهد في الجواب عن هذه الأسئلة. شيء واحد بدا له بوضوح: إن تبدلاً عظيماً أخذ يعتمل فيها، وبهذا التبدل غدا، هو نفسه، أقرب إليها وإلى الذي باسمه تصرّف. إن فكرة هذا التقارب ملأته بفرح ممتزج بالتأثر.

في هذه الأثناء، عادت ماسلوفا إلى القاعة التي كانت تعمل فيها، وكانت قاعة صغيرة، لا تحتوي إلا على ثماني أَسرَّة للأطفال. أخذت ماسلوفا ترتب الأَسِرَّة، بناء على أمر الراهبة، وفجأة، زلّت قدمُها، بعد أن رفعت ذراعها وانحنت إلى الوراء، أكثر مما ينبغي، وكادت تسقط. فإذا بطفل ناقه، معصوب الرأس، جالس على أحد الأسِرَّة، ينفجر

ضاحكاً. وإذا بماسلوفا تعجز عن أن تتمالك نفسها، فتنطلق هي أيضاً بضحك فَرِح، جدّ مُعْدٍ حتى إن جميع الأطفال ضمّوا إليه ضحكهم.

ظنت الراهبة من واجبها أن تغضب، فاحتدّت:

– مالكِ تضحكين هكذا؟ أتظنين أنك مازلت هناك، حيث كنتِ؟ اذهبي رأساً إلى المطبخ وهاتي حصصهم من الطعام.

كفت ماسلوفا عن الضحك، ومضتْ إلى حيث أُرسِلت. لكن الكلمات القاسية التي قالتها الراهبة لم تستطع أن تكبح جماح فرَحها. ولقد أخرجت من المغلف الصورة التي حملها إليها نيكليودوف، عدة مرات، أثناء النهار، وهي وحدها، لتلقي عليها نظرة عجلى. وعندما استطاعت أخيراً أن تأوي إلى الغرفة التي تسكنها مع ممرضة أخرى، بعد تفقّد المساء، تأملت ملياً الصورة، متوقفة عند أدق تفاصيل الوجوه والملابس والدرج. كانت تجد في هذه الصورة الذابلة والصفراء سحراً خارقاً. وكانت تستمتع، على الخصوص، بأن تعثر على نفسها فيها، وبأن ترى صورتها آنذاك، تلك الصورة الفتية والنضرة، بخصل شعرها المتدلية على جبينها. كانت مستغرقة بعمق في تأملها حتى أنها لم تفطن إلى اللحظة التي دخلت فيها رفيقتُها إلى الغرفة. فقالت وهي تنحني فوق كتفها:

– إلامَ تنظرين هنا؟ «هو» الذي أعطاكِ هذا؟ عجباً، كأنها صورتُكِ!

قالت ماسلوفا، وهي تبتسم من السرور:

– حقاً، أيمكن تعرّفي؟

– وهذا، أهو «هو»؟ وهذه ، أهي أمه؟

– لا ، هذه عمته؟ لكن، أحقاً، يمكن تعرّفي؟

– الواقع أنكِ تغيرتِ كثيراً؟ فلم يعد لك الوجه نفسه! ومن الواضح أنه قد مرّت أعوام عديدة، منذ ذلك الوقت!

فتنهّدت ماسلوفا:

– ليست الأعوام هي التي غيرتني، بل شيء آخر.

وفي اللحظة نفسها خَبَتْ بهجتُها، واكفهرّ وجهُها، وارتسمت تجعيدة على جبينها.

– ماذلك الشيء الآخر؟ حياتك لم تكن، مع ذلك، شاقة جداً!

أجابت ماسلوفا وهي تدير رأسها:

– لا ، لم تكن شاقة جداً. لكن السجن، مع ذلك، خيرٌ منها.

– ماذا تقولين؟

– هكذا. من الثامنة مساء إلى الرابعة صباحاً، وذلك في كل يوم...

– كان بإمكانك أن تهجري تلك الحياة.

فتحسّرت قائلة:

– أردتُ أن أهجرها غير مرة، فلم أستطع قط. لكن ما جدوى الكلام على ذلك كله؟

نهضت وجرت تخبئ الصورة في أعماق درجها، قبل أن تخرج من الغرفة، وهي تجهد في حَبْس دموع الغضب. لقد ظنت نفسها تعود كما كانت قديماً، عندما تأملت الصورة: فكّرت في السعادة التي

عرفتها والتي كان يمكن أن تعرفها أيضاً. لكن كلمات زميلتها ذكرتها بما آلت إليه. ورأت من جديد بشاعة هذه الحياة التي أحست دائماً نحوها بخجل مبهم، دون أن تجسر على الإعتراف بذلك أمام نفسها.

وانتصبت أمامها، بخاصة، ذكرى إحدى ليالي عيد المرفع. كانت ماسلوفا ترتدي فستاناً من الحرير الأحمر، مفتوحاً عند الصدر والظهر، وملطّخاً ببقع الخمر، وفي شعرها المشعّث شريطة حمراء. جاءت وجلست لحظة بجنب عازفة البيانو، قبل أن تعود إلى الرقص، وبعد أن ودّعت زائراً، في الساعة الثانية صباحاً، وهي متعبة، مخبولة، نصف سكرانة. وكانت عازفة البيانو نحيلة، هزيلة، تغطي جسمها الدمامل. وفجأة أحست ماسلوفا بالغم يُثقل قلبها، فاعترفت لها بأن الحياة التي تحياها شاقة عليها، وأنها لم تعد تَقوى على احتمالها أكثر من ذلك. وأجابتها العازفة بأنها هي نفسها أيضاً متعبة من هذه الحياة. واقتربت كلارا منها فضمت شكواها إلى شكواهما، واتفقن أن ينصرفن ويغيرن حياتهن عندما يستطعن ذلك. وكانت ماسلوفا على وشك أن تغادر قاعة الاستقبال، وتصعد إلى غرفتها، بعد أن عدلت عن الرقص، عندما علتْ في البهو أصوات الوافدين المخمورة. فبدأت عازفة الكمان لحناً موسيقياً، وأسرعت عازفة البيانو إلى مصاحبتها. ودخل رجل قصير سكران، في ثياب سوداء وربطة بيضاء، فأمسك بماسلوفا من خصرها، في حين احتضن كلارا رجل ضخم ملتح. فرقصوا وغنّوا وشربوا وصرخوا طويلاً. وهكذا مرت سنة، ثم سنَة أخرى. فكيف تُغيِّر حياتها؟

والسبب الوحيد لذلك كله كان نيكليودوف. وأحست بالكره يستيقظ فيها أقوى من أي وقت مضى. وودت لو أمكنها، أن تهينه

وتضربـه، وندمت لأنها، في هـذا اليوم نفسه، ضيّعـت الفرصة التي تُبلغه فيها أنها تعرفه حق المعرفة، وأنها لن تنقاد له، وأنها لن تسمح له بإغوائهـا، مرة ثانية. لقد كان انفعالها شديداً، وأحسّت بألمها يتفاقم، وبغضبهـا يحتدم، فتملكتها رغبة في الشـراب لتهدأ وتنسى. وكانت ستشـرب لـو أمكنها الحصـول على الخمـر، بالرغم مـن اليمين التي قطعتـه على نفسها بأنها لـن تقرِّب الخمر. لكن الخمـر كانت بعهدة رئيسـ المرضين، وكانـت ماسلوفا تخاف هـذا الرجل: كانت تعلم أنـه يشتهيها. وظلت زمناً جالسة على مقعد في البهو، فلما عادت إلى غرفتهـا، أبـت أن ترد على كلام زميلتها، وبكـت طويلاً على حياتها الضائعة.

× × ×

-١٤-

فضلاً عن طعن ماسلوفا بالنقض، وهو الغرض الرئيسي من زيارة نيكليودوف لموسكو، فقد كان عليه أن يهتمّ بثلاث قضايا أخرى، اثنتان منهما أشارت بهما عليه «فيرا بوغودو كفسكايا». كان عليه أن يحاول حمل لجنة العفو على قبول التماس فيدوسيا بيريوكوفا، المرأة الشابة المحكومة لأنها أرادت قتل زوجها الذي صفح عنها منذ ذلك الوقت. وكان عليه أن يطلب من رئيس الدرك أو من الفرع الثالث[١٩] إطلاق سراح الطالبة «شستوف». وأخيراً كان يريد أن يحصل على الأذن باستدعاء المتعصبين الأشقياء الذين قرؤوا الإنجيل وفسّروه، من القوقاز حيث نُفوا بعيداً عن أُسَرِهم.

كان نيكليودوف يحس، منذ زيارته الأخيرة لماسلينيكوف وإقامته في الريف، بنفور عميق يتغلغل إليه من المجتمع الذي هو جزء منه. لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من التفكير في أن ملايين البشر يتألمون من أجل رفاهية المجتمع المذكور ومتعته. ولقد عميَ بصر هذا المجتمع عن رؤية آلام تلك الملايين، كما عمي، في الوقت نفسه، عن رؤية ما

١٩- الفرع الثالث: الشرطة السياسية التي أنشئت في عهد نيقولا الاول.

فيه من حقــارة وإجرام. لكن معارف نيكليــودوف كانوا، مع ذلك، من هذا المجتمــع؛ وفي هذا المجتمع أقرباؤه وأصدقــاؤه، فكان لزاماً عليــه، حين فكّر في مساعدة ماسلوفا والبائســين الآخرين الذين أخذ على نفسه الدفاع عن قضيتهم، أن يلتمس سند هذا المجتمع ومساعدة أفــراده، مهما يكــن النفور الذي يحسّ به نحو هــذا المجتمع، على العموم، ونحو أولئك الأفراد على وجه الخصوص.

هذا الاعتبار الأخير هــو الذي حداه، لدى وصوله إلى بطرسبرج، على النزول عنــد خالته، الكونتيسة تشارسكــي، زوجة أحد الوزراء السابقين. كان يعلم أنه سيغرق في قلب هذا العالم الأرستقراطيّ الذي غــدا غريباً عنه. أحزنته هــذه الفكرة، لكنه لم يكــن يجهل أنه سيهين خالتــه إذا لم يذهب إلى بيتها، وأنه سيَحرْم نفسه حينئذ من عون يمكن أن يكون عظيم القيمة بالنسبة لمشاريعه.

هتفت الكونتيسة كاتريــن ايفالوفنا، صبيحة وصوله، وهي عاكفة على تقديم فنجان من القهوة له:

– لقد رُويت لي أشياء كثيرة عنك! إنك تتشبّه بهيوارد[٢٠] وتطرح نفســك نموذجاً للمصلــح الإنساني الــذي يساعد المجرمــين، ويزور السجناء! وهكذا فأنت تقوم بتحقيقات؟

– الواقع لا، ولا يخطر ذلك ببالي.

٢٠– مصلــح إنساني إنكليزي وقــف حياته على زيارة السجــون وعلى النضال في سبيل إصلاحها. مات في القرم.

– آه! هــذا أفضل! إذن لابد أن هناك مغامــرة غرامية؟ هيا، إروها لي.

روى نيكليودوف قصة صِلاته بماسلوفا، بدقة كما وقعت له:

– نعــم، نعم، تذكّرت الآن! المسكينــة أمك حدثتني عن ذلك كله حديثــاً غير واضح، بعد إقامتك عند العانســين، ألم يجل بخيالهما أن يزوجاك ربيبتهما القاصرة!

لقــد نظرت الكونتيســة كاترين ايفانوفنا دائمــاً باحتقار إلى عمتي نيكليودوف؛ وتابعت:

– هي إذن مدار اهتمامك. أما تزال جميلة؟

كانت الكونتيسة كاترين ايفانوفنا في نحو الستين، موفورة العافية، مرحــة، قوية، ثرثــارة، طويلة القامــة، بدينة جداً، لها شــارب أسود، نحيــف، مرســوم بدقة على شفتهــا العليــا. وكان نيكليودوف يحب خالته كثيراً. فمنذ الطفولة تعوَّد أن يأتيها ليستقي منها القوة والمرح.

– لا، يا خالتي، كل ذلك انتهى. ولستُ أرغب إلا في مد يد العون إليهــا. لقد حُكم عليها ظلماً، وأنا المذنــب المسؤول عن شقاءها كله. أشعر أني ملزم بأن أفعل لها كل ما في استطاعتي أن أفعله.

– تصوّر أنه قيل لي: إنك كنت تريد الزواج بها.

– نعم، أردت ذلك ومازلت أريده؛ هي التي لا تريده.

عاد إلى كاترين ايفانوفنا التي كانت تنظر إلى ابن أختها بوجه حزين،

عاد إليها هدوءها عند هذه الكلمات الأخيرة، وهتفت متعجبة:

– إيــه! إنها أعقل منك! يا ولدي المسكــين، أي مغفل أنت! أحقاً تريد الزواج بها؟

– بدون أدنى شك.

– بعد كل ما كان منها؟

– لاسيمــا بعد ذلك، ألستُ أنا السبب في كل ما أصابها؟ فأعلنت الخالة وهي ماتزال تبتسم:

– اصــغ، أنت مغفل حقيقي. مغفل كبــير. لكني أحبك مع ذلك. يا لك من مغفل!

كانت تكــرر هذه الكلمة بإصــرار، وكأنها كانــت مسرورة لأنها عــثرت على اللفظة التي تحدد تحديداً تامــاً الفكرة التي كوّنتها عن ابن أختها. وتابعت:

– في الواقع، ما أروع هذه المصادفة ذلك أن «آلين» افتتحت ملجأ المجدليــات التائبات! وقد ذهبت منذ وقــت قريب. يا للفظاعة! لكن آلــين مخلصة لملجئها، جسداً وروحاً. إعهد إليها بمحميّتك. إن كان في العالم إنسان يمكن أن يردّها إلى الطريق المستقيم فهو «آلين»

– إن... إيــه... تلــك البائسة في السجن، ريثمــا تُرسل إلى سجن الأشغــال الشاقة. وقد جئتُ بالضبط إلى هنا من أجل العمل على تمييز الحكم. هــذه قضية من جملــة قضايا سأكون بحاجــة إلى مساعدتك فيها.

– بمن تتعلق قضيتك؟

– بمجلس الشيوخ!

– مجلس الشيوخ؟ لكن ابن عمي «ليوفوشكا» في مجلس الشيوخ. في الواقع، كدتُ أنسى أنه في «دائرة الشعارات»[٢١]. ولا أعرف شخصاً غيره في مجلس الشيوخ. فلسنا نجد فيه سوى أشخاص لا يعلم إلا الله من أين جاؤوا، أو هم ألمان[٢٢]. أناس من عالم آخر! لكن لا قيمة لذلك، سأحدّث زوجي في الأمر. هو يعرف الجميع؛ سأحدّثه في ذلك، لكن يجب أن تشرح له القضية أنت بنفسك، فهو لا يفهمني أبداً. ومهما أقل له يجبني بأنه لا يفهم. وهذا رأي جاهز منه، كل الناس يفهمونني ماعداه.

قوطعت الكونتيسة عن مسارتها بدخول خادم يرتدي البذلة الرسمية ويحمل رسالة على طبق من فضة.

– رسالة جاءت في وقتها! هي من آلين. تستطيع أيضاً أن تستمع على «كيسويتر»[٢٣]!

– ومَنْ كيسويتر؟

٢١– دائرة الشعارات، كان في مجلس الشيوخ، إضافة إلى دائرة التمييز. دائرة للشعارات تهتم بألقاب النبالة.

٢٢– كان في دوائر الدولة وفي الجيش عدد من الألمان، في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر.

٢٣– كيسويتر: شخصية خيالية أخذ تولستوي اسمه من اسم عازف كمان نصف مجنون في قصة ألبرت.

– كيسويـتر؟ تعال هذا المساء إلى بيتنا، وسترى مَنْ هو. إنه يُحسن الـكلام حتـى إن أشدّ المجرمين فساداً يرتمون عنـد قدميه ويبكون من الندم.

كانت الكونتيسـة كاترين ايفانوفنا مشايعـة متحمِّسة للنظرة التي تقول إن جوهر المسيحية يقوم على الفداء، مع أن هذه المشايعة لا تتفق وطبعَهـا. وكانت تـتردد على الاجتماعات التي يدعـون فيها إلى هذا المذهب الذي شاع في هذا الوقت، كما كانت تدعو أتباعه إلى منزلها.

وبالرغـم من أن هذا المذهب لا يقبـل بالطقوس، ولا بالأيقونات، ولا بالأسرار، إلا أن جميع غرف منزل الكونتيسة كانت ملأى بالصور المقدسة؛ وكان بعضها فوق سريرهـا نفسه. كانت تتبع جميع التعاليم الدينية دون أن تتبيّن هذا التناقض.

وأردفت:

– آه! لـو أن مجدليّتـك سمعـت «كيسويتر» هـذا، لاهتدت على الفـور! لكن تعال أنـت، هذا المساء، لا تتخلّـف؛ واسمعه. هو رجل مدهش!

– هذه الأشياء، يا خالتي، لا تهمني كثيراً...

– بلـى، قلتُ لـك إنها ستهمك. تعـال، إني أريد ذلـك، أستمع؟ والآن قل لي ما الذي تطلبه مني أيضاً. هيا، أفرغ جعبتك.

– علي أيضاً أن أُعنى بقضية شاب سجين في القلعة.

– في القلعة! أوه! يمكنني أن أعطيك رسالة إلى البارون كريغسموت إنــه رجل طيب جداً؛ ثم إنك تعرفه معرفــة حسنة. كان رفيقاً لأبيك. وهــو يؤمن باستحضــار الأرواح إيماناً بليداً، لكــن لا قيمة لهذا، فهو رجل طيب مع ذلك. ماذا تريد منه؟

– أن يــأذن لأم الشــاب بأن ترى ابنها. ثم إن معــي طلباً يجب أن أقدّمه لشرفيانسكي، وهو أمر يضايقني كثيراً.

– شرفيانسكــي لا يُعجبنــي، لكنه زوج مارييــت. يمكن أن أطلب ذلك منها، وستفعل ذلك حتماً من أجلي. إنها لطيفة جداً.

– أود أيضــاً أن أطلــب إطلاق سراح فتاة، طالبــة، في السجن منذ عدة شهور، دون أن يعلم السبب أحد.

– أوه! هي نفسها يجب أن تعرف السبب! هؤلاء النساء القصيرات الشعر لا يُسجن إلا لأنهن جديرات بالسجن.

– لا أدري إن كــن جديــرات بالسجــن أم لا، لكنــي أدري أنهن يتألمن، كمــا نتألم نحن لو كنا مكانهن. كيف يمكنــك، أنتِ المسيحية التي تؤمنين بالإنجيل، أن تكوني هكذا بلا شفقة؟

– مــاذا تقول؟ لا معنى لهذا الــكلام؟ فالإنجيل هو الإنجيل أما الشر فهــو شر. أتريد أن أتباهى بحب العَدَميــين، ولاسيما النساء العدميات بشعرهن القصير، في حين أني لا أستطيع، في الواقع، أن أطيقهن؟

– ولِمَ لا تستطيعين أن تطيقيهن؟

– تسألني عن ذلك، بعد أول آذار[٢٤].

– لكنهن لم يشاركن جميعاً في أول آذار، يا خالتي.

– سيّان، لماذا يتدخّلن فيما ليس من شأنهن؟

– لكن، لنأخذ «ماربيت» مثلاً: أنت نفسك تسلّمين بأن لها الحق في الإهتمام بشؤون زوجها؟

– ماربيت شيء آخر. أما أن تتصدّى ابنة كاهن، لا يُعرَف ما هي، لتُملي علينا سلوكنا...

– لا تريد أن تُملي علينا سلوكنا، بل تريد أن تخدم الشعب.

– لا حاجة بنا إليها لمعرفة حاجات الشعب!

سألها نيكليودوف الذي ساقته ملاطفة خالته إلى أن يطلعها على أفكاره:

– أنتِ، يا خالتي، مخطئة. إن حاجات الشعب تتزايد، والحقيقة أننا لا نعرفها. أدركتُ ذلك بنفسي، لأنني عائد من الريف. أترين من العدل أن يكدح الفلاحون فوق قواهم، ولا يجدون بعد ذلك ما يسدّون به جوعهم، بينما نعيش نحن في الفراغ والتّرف.

– ما الذي تتمنّاه إذًا؟ أن أعمل وأُحرَم الطعام؟

٢٤– أول آذار: مقتل الاسكندر الثاني، في أول آذار ١٨٨١.

أجاب نيكليودوف وهو يبتسم ابتسامة عفوية:

– لا، لا أريـد أن تظلي بلا طعـام. أود أن تعملي وأن يجد الجميع ما يأكلونه.

حدّدت خالته النظر إليه.. وأكدت له:

– أنتَ ستنتهي، يا عزيزي، نهاية سيئة.

– ولماذا؟

في هـذه الأثناء، دخـل الغرفة شيخ فارع القامـة، متين البنية. كان هذا زوج الكونتيسة تشارسكي، الوزير السابق.

فهتف وهو يمد صفحة وجهه التي حُلقت منذ برهة:

– آه! دميتري، مرحباً! متى وصلتَ؟

ثم قبّل زوجته في جبينها، دون أن يفوه بكلمة. فقالت له:

– لا، إنه مضحك، يريد أن أذهب إلى النهر لأغسل غسيلي هناك. وأن أتغـذّى بالبطاطا. لا تتصوّر أي مغفـل هو! لكنك تُحسن صنيعاً، مع ذلك، لو حققتَ له ما يطلبه. بالمناسبة، أتعلم أن السيدة كامنسكي ميئوس منها حتى ليُخشى على حياتها؟ ينبغي لك أن تعودها.

أجاب الزوج:

– نعم، هذا فظيع؟

– والآن اذهبـا وتحدّثا في شؤونكمـا، في قاعة التدخين. فعلي أن أكتب بعض الرسائل.

مــا كاد نيكليودوف يخرج من قاعة الطعام حتى صاحت به طالبةِ عودته إليها:

– أتريد أن أكتب إلى مارييت؟

– نعم، إذا شئتِ، يا خالتي.

– لكنــي سأترك بياضاً مــكان ما ستطلبه من زوجهــا بشأن الفتاة العدميــة. وهــي ستأمر زوجها بتنفيــذ ما ستطلبــه. وسينفّذه. لكن لا تظــن أني بلا شفقة. جميــع محميّاتك مزعجات، بيــد أني لا أريد بهن ســوءاً. ليحفظهن الله! والآن، إلى اللقــاء في هذا المساء. هذا المساء، لا تتخلّف، ستبقى في البيــت، وستستمع إلى كيسويتر. سنصلّي معاً، إذا لم تُبــدِ معارضة، سيفيدك ذلك كثيراً. أنــا أعلم أنك أنت وأمك كنتما مترفّعين عن ذلك كله. إلى هذا المساء، أليس كذلك.

× × ×

-١٥-

كان الكونت إيفان ميخايلوفتش تشارسكي، الوزير السابق، رجلاً له قناعاته الراسخة. فمنذ شبابه كان مقتنعاً بأنه يجب أن يكون كالعصفور؛ فكما أن العصفور يتغذى بالديدان، ويتغطّى بالريش، ويطير في الفضاء، على نحو طبيعي، فكذلك هو، يجب أن يتغذى بأفخر المآكل، وأن يرتدي آنق الملابس، وأن يستخدم أغنى العربات المربوطة بأسرع الجياد. كل هذا، كان الكونت إيفان ميخايلوفتش يعتبره من حقه، وكأن من الواجب أن يكون أبداً في حوزته. كانت له أيضاً قناعة أخرى، وهي أنه كلما ازداد ما يقبضه من خزانة الدولة، وكلما ازدادت أوسمتُه وألقابه، وكلما ازدادت مخالطته لذوي المراتب العليا، كان ذلك أفضل له وللعالم بأسره.

أمام هذه العقائد الأساسية، كان كل ما سواها يبدو باطلاً، لا غناء فيه. أما أن يسير العالم على هذا النحو أو ذاك، فذلك ما لم يكن يبالي به كثيراً. ولقد راعى الكونت إيفان ميخايلوفتش، في بطرسبرج، هذه المبادئ بأمانة، طوال أربعين سنة، قبل أن يوضَع على رأس الوزارة.

ويعود الفضل في هذا المنصب للصفات التالية: أولاً، كان يُحسن

فهـم معنى الأنظمة والقرارات الرسمية، وكان هو نفسه يحسن تحرير مثل تلك القـرارات، دون أن يضع فيها، في الحقيقة، فكراً أو أسلوباً، لكـن دون أن يرتكب فيها أغلاطاً إملائيـة. وثانياً، كان رجلاً مهيب الجانـب إلى أعلى حـد، يستطيـع في آن واحد، وتبعـاً للظروف، أن يوحي بالعـزّة والتعالي والإمتنـاع، وبالملاطفة والتذلّـل. وثالثاً، كان يمتاز بتحرره مـن جميع المبادئ الغربية عن وظائفه، سواء أكانت تلك المبادئ سياسية أم أخلاقية، وهو الأمر الذي كان يتيح له أن يوافق على كل شـيء عندما تكون الموافقـة مناسبة، وأن يرفض كل شيء عندما يكون الرفض مناسباً.

ومـن الملائـم أن يُضـاف إلى ذلك أيضـاً أنه عندمـا كان يغيّر رأيه بحسـب مجرى المناسبـات، فإنه يتدبر أمره بحيـث لا يبدو في تناقض ظاهـر مع ذاته. وذلك لأنـه، في جميع آرائه، لم يكـن يُعنى إلا برغبة رؤسائه، دون أن يهتم بمصلحة روسيا أو الإنسانية.

حين وُضـع على رأس الـوزارة، أيقن جميـع مرؤوسيه وكثير من الناس الذين كانوا يعرفونه، وهو نفسه أيضاً قبل غيره؛ أنه سيبدو رجلاً سياسياً مرموقاً جداً. لكن، الناس وجدوا بعد بعض الوقت، أنه لم يغير شيئاً، ولم يُصلح شيئاً، وأن رجالاً آخرين يحسنون مثله فهم القرارات الرسمية وتحريرها، أخذوا يزاحمونه، كما تقضي بذلك قوانين الصراع من أجل الحياة، ويهيئون أنفسهم للحلول محله. وأجمع الناس على أنه كان من أكثر الرجال قصر نظر بالرغم من غروره، وأبعدهم عن الذكاء المتفـرّد. وتبينوا أنه لا يملـك ما يميّزه عن الكائنـات الأخرى الخاملة، المغـرورة، المحدودة، التي تطمح إلى الحلول محله. أما هو فقد احتفظ،

بعـد تعيينه بقناعته التـي كانت له قبل تعيينه وهـي، أنّ من حقه قبض مرتّبـات أعلى، من سنة إلى سنة، والحصول على أوسمة وألقاب أكثر، وتحسين وضعـه الاجتماعي. وكانت هذه القناعة من الرسوخ بحيث لم يجسـر أحد على مناوأتها. والواقـع أن الكونت إيفان ميخايلوفتش كان يقبض، مـن سنة إلى سنة، مرتبـاً أكبر، بصفته عضـواً في مجالس وهيئـات ولجان مختلفة. وكان له الحق، على سبيل المكافأة عن خدماته الماضيـة أن تخاط الأشرطة الجديـدة في ثيابه، وأن تعلق عليها الصلبان الجديـدة ونجوم الميناء الجديـدة. لم يكن لأحد، في بطرسبرج، ماله من علاقات بهذا الاتساع.

أصغـى إلى إيضاحات نيكليودوف بنفس الوقـار والإنتباه اللذين كان يُصغي بهما قديماً إلى تقارير رؤساء مكتبه، ولما انتهى من سماعها قـال له إنه سيعطيـه رسالتي توصيـة. إحدى الرسالتـين لعضو مجلس الشيوخ «وولف»، في قسم التمييز.

وأضاف إيفان ميخايلوفتش:

– يَنْسـب الناس إليـه كثيراً من الأشياء، لكنـه على كل حال رجل حسن اللياقة. لي عليه فضل سابق وسيبذل وسعه.

والرسالـة الأخـرى لعضو متنفّـذ في لجنة العفو التـي سيُقدَّم إليها التماس فيدوسيا بيريوكوفا. ويبدو أن قصتها، كما رواها نيكليودوف، قد أثارت اهتمام الوزير السابق.

– إذا شرفتّنـي صاحبة الجلالة الدعوة إلى أحد اجتماعات الخميس

المقبلـة، إلى اجتماع مُصغّر، فربما وجـدتُ الفرصة السانحة لأهمس إليها بكلمة حول هذه القضية.

وبعـد أن حصـل نيكليـودوف مـن خالتـه علـى بطاقـة لماريت شيرفيانسكي، مضى من فوره ليبدأ مساعيه.

قصـد، أول الأمـر، إلى منـزل ماريـت. لقـد عرفها وهـي فتاة، وكان يعلم أنها تزوجت، بعـد طفولتها المُدقعة، موظفاً عظيم النشاط والطموح، استطاع أن يبني لنفسه وضعاً رفيعاً. وكان يعلم، فضلاً عن ذلك، أن لزوجها سمعة مشبوهة، ويجد حرجاً بالغاً في التماس العَوْن مـن رجل يحتقره. وتضاعف هذا الحرج بشعور شخصي. لقد خشي أن تعـود إليه، لدى احتكاكه بهـذا العالم الذي عزم على الخروج منه، استساغتُـه لتلك الحياة السهلة والسطحية، أو على الأقل، أن تعود إليه ألفتُـه لها، وهو شعور أحسّ به لدى وصولـه إلى منزل خالته. وتذكّر كيـف أنه أقدم أثناء حديثه معها، على معالجة أخطر المسائل، بأسلوب ساخر، مازح.

وفـوق ذلك، فقد تركت فيه بطرسـبرج، على العموم، مرة أخرى انطباعـاً موهناً للعزم، مُثملاً، وهـو انطباع أحسّ به من قبل. كان كل شـيء فيهـا مريحاً جـداً، نظيفاً جـداً، وكان المرء يحسـ فيها بغياب الهواجس الفكرية والأخلاقية، بحيث تبدو الحياة فيها أخف منها في أي مكان آخر.

قاده حـوذي أنيق المظهر، في عربة لا تقل عنـه أناقة ونظافة، على بلاط صقيل، عبر شوارع حسنة النظام، إلى القصر الخاص الذي تقيم فيه

ماريـيــت. أمام درج المدخل، رأى جوادين إنكليزيين مربوطين بعربة، جلسـ على مقعدها حوذي وقــور، رصين، شبيه بأحــد الإنكليز، له سالفان ينزلان إلى منتصف وجنتيه. فتح الباب حاجبٌ في بذلة رسمية برّاقة: شاهــد نيكليودوف خادماً واقفاً عنــد أول الدرج، يرتدي هو أيضاً ثياباً فخمة، ولــه نفس السالفين. ظل بلا حراك، وكأنه لم يلحظ وصول نيكليودوف، وإذا بخادم آخر يتقدم ليعلن بلهجة ارتسامية:

– الجنرال لا يستقبل. والجنرالة لا تستقبل أيضاً. وقد أمرت الجنرالة بالإستعداد للخروج.

أخرج نيكليــودوف من محفظته بطاقة زيارة، واقترب من منضدة، في غرفــة الإنتظار، وتهيّأ لكتابة بعض الكلمــات بالقلم، وإذا بالخادم يتحــرك، وبالحاجــب يُهــرع إلى درج المدخل، وهو يصيــح: «قدّموا العربة!». ثم جمد الخادم، ويــداه على درزة بنطاله، وهو يتابع ببصره امرأة رقيقة، قصيرة القامة، تنزل السلم بخطوات سريعة، دون أن يبدو عليها أنها تكترث كثــيراً لمتطلبات مكانتها. كانت ماريـيت تضع على رأسها قبعــة كبيرة سوداء، تزينها ريشة ســوداء؛ كانت ترتدي وشاحاً أسود على فستان أسود، وتُنهي، وهي تمشي، تزرير قفّازيها الأسودين. وعندما شاهدت نيكليودوف رفعت غلالتها، وأسفرت عن وجه فاتن بعينين كبيرتين، ملتمعتين، وهتفت بصوت مُؤنسٍ، مرح:

– آه! الأمير دميتري ايفانوفتش!

– كيف، أما زلت تتذكّرين إسمي؟

فردّت مازحة:

– أنسيــتَ أننا، أنا وأختي، وقعنــا في حبك طوال الصيف؟ لكن، كم تغيّرت! ما أشد أسفي لأني مُضطرة إلى الخروج!

وقالت بلهجة متردّدة:

– يمكننا مع ذلك أن نجلس قليلاً في القاعة الصغرى

ثــم رفعت بصرهــا إلى الساعة المعلّقــة في غرفة الإنتظــار، وقالت بأسف:

– مع الأسف! لا، ذلك مستحيل. إني ذاهبة إلى منزل آل كامنسكي، لحضور الجنّاز. ما أفظع هذه القصة، أليس كذلك؟

– وماذا وقع لآل كامنسكي هؤلاء؟

– كيــف، ألا تعــرف؟ لقــد قُتل ابنهمــا في مبــارزة. تخاصم هو و «بــوزن». هو وحيد أبويه، هذا فظيــع! الأم مجنونة من شدة الأسى. لا، يستحيل علي أن أبقى هنا؛ تعال غداً، أو هذا المساء.

قال نيكليودوف وهو يتقدم معها على درج المدخل:

– لا أستطيــع أن آتي هذا المساء، لسوء الحــظ. لكن، انظري، لقد جئتك من أجل قضية.

– من أجل قضية؟ ما القضية؟

– دونك هذه الرسالة من خالتي بهذا الصدد.

ومدّ إليها نيكليودوف المغلف الصغير المختوم بخاتم ضخم.

– نعـم، أعلـم، أن الكونتيسة كاترين إيفانوفنـا تتخيّل أن لي تأثيراً في زوجـي. وهي مخطئة! لستُ أقدر على شيء ولا أريد أن أتدخل في شؤونـه. لكن، بالطبع، من أجل الكونتيسة ومـن أجلك، أنا مستعدة للتخلّي عن مبادئي. ما الموضوع؟

– الموضـوع يتعلق بفتاة سجينة في القلعة. لقد أُوقفتْ خطأً، وهي مريضة.

– ما اسمُها؟

– شوستوف، ليديا شوستوف. تجدين جميع المعلومات في المذكرة المرفقة بالرسالة.

فوعدته مارييت بينما كانت تضع قدمها على مرفأة العربة الأنيقة، الجديدة، التي كان طلاؤها يتلألأ في الشمس:

– هيا، سأحاول الإهتمام بذلك.

جلست وفتحـت المظلة الكبيرة. وصعد الخـادم المرافق إلى المقعد وأمر الحـوذي بالمسير. وتحرّكـت العربة، لكن مارييـت، في اللحظة نفسها، لمست ظهر الحوذي، برأس مظلتها التي أُغلقت فجأة. وبعد أن رفـع الجوادان رأسيهما من جراء شد اللجـام، توقّفا وهما يضربان الأرض بسوقهما النحيفـة. وقالت لنيكليودوف وهي تبتسم إبتسامة هي أدرى بقوتها:

– عُدْ إلى زيارتي، ولتكن، هذه المرة، زيارة مجرّدة من المصلحة.

وبعد ذلـك فتحت مظلّتهـا، وأسدلـت غلالتها، كأنهـا رأت أن التمثيلية قد انتهت، وأمرت الحوذي بالمسير.

رفـع نيكليـودوف قُبَّعَتَهُ بتـأَدُّبٍ ليستأذن. ضربـت الجياد البلاط بحوافرهـا العصبيـة، ونـأت العربة بسرعـة، منسابـة، خفيفة، على عجلاتها الصامتة.

× × ×

-١٦-

عندمـا تذكّـر نيكليودوف الإبتسامـة التي بادلهـا مارييت، أسلم نفسه لضروب التأملات الداخلية. حدّث نفسه: «لم تكد تدير رأسك حتى استولت عليك الحياة كلياً!».

وفكّر في الصعوبـات والمخاطر التي تنطـوي عليها مساعيه لدى أشخاص من عالم لا يمكن أن يكون عالمه بعد الآن.

عندمـا خرج من عنـد مارييت توجـه، قبل كل شـيء، إلى مجلس الشيوخ. فأُدْخِلَ غرفة كبيرة فيها جمهور من الموظفين في غاية الأناقة والتهذيـب. أنبأه هـؤلاء أن التماس ماسلوفا أُحيـل للدراسة إلى عضو مجلس الشيوخ «وولف»، وهو نفسه الذي يحمل إليه رسالة من زوج خالته.

قيل له:

– ستُعقـد الجلسـة هـذا الأسبوع. لكـن جدول الأعمـال مليء بالقضايـا ولاشك أن قضية ماسلوفا ستؤجّل إلى الجلسة التي تليها. بيد أنك تستطيع أن تطلب تقديم موعد النقاش.

في مكتب مجلس الشيوخ هذا، وبينما كان نيكليودوف ينتظر بعض المعلومات، سمع الموظفين يتحدثون عن تلك المبارزة المؤسفة التي سقط فيها الشاب كامنسكي. هنا فقط، عرف، لأول مرة، تفاصيل تلك القصة التي كانت تشغل المدينة آنذاك. بدأت القصة في مطعم يختلف إليه الضباط ليتذوقوا المحار وهم يشربون كميات كبيرة من الخمر، على عادتهم. وبدرت من أحدهم بعض الأحكام الجائرة بحق الفوج الذي يخدم فيه كامنسكي، فوصفه هذا بأنه كاذب. فصفعه الضابط، ووقعت المبارزة، في اليوم التالي. أصيب كامنسكي برصاصة في صدره، ومات بعد ساعتين. وقد أوقف خصمه والشهود واحتُجزوا في مركز الحراسة، لكن كل الناس يعلمون أنهم سيُخلى سبيلهم قبل مضي أسبوعين.

ومن مجلس الشيوخ، انتقل نيكليودوف إلى لجنة العفو، حيث كان يأمل أن يقابل موظفاً كبيراً، هو البارون «فوروبييف»، الذي حمل إليه رسالة من زوج خالته. لكن البواب أفهمه بلهجة قاسية أنه لا يمكن مقابلة البارون إلا في بعض الأيام المعينة. فترك نيكليودوف الرسالة الموجُهة إليه، وقصد إلى منزل عضو مجلس الشيوخ «وولف».

كان وولف قد فرغ من طعامه قبل هنيهة؛ وكان، على عادته، يُنشّط هضمه بتدخين السيجار وبالتمشي جيئة وذهاباً في مكتبه.

كان فلاديمير فاسيلييفتش وولف بالفعل رجلاً حسن اللياقة؛ وكان يضع صفة اللياقة فوق جميع الصفات الأخرى، وهو مدين لها دون غيرها بمركزه اللامع وبتحقيق مطامحه. فهي التي أتاحت له هذا الزواج

الثري، وهـو زواج أكسبه، بدوره، عضوية مجلس الشيوخ، ومنصباً يَـدرُّ ثمانية عشر ألـف روبل. بيد أنه لم يكن مسروراً من كونه رجلاً «حسـن اللياقة»، بل كان يعتبر نفسه مثـال الإستقامة الفروسية. لكن هـذه الإستقامـة لم تكن تقـوم، برأيه، علـى عدم ابتزاز الأفـراد سراً. و لم يكـن يعتقـد أنه يُخـلّ بالإستقامة عندما يقبل، بـل عندما يطلب، أصناف الهدايا والعمولات والرشوات. لم يكن يعتقد أنه يخرج على الإستقامـة عندما يخدع امرأته التي تزوجها من أجل مالها والتي يعلم أنهـا مشغوفة بـه. و لم يفخر أحد فخره بالتنظيـم الحكيم لحياة أسرته. وكانت أسرته مؤلفة من زوجته، ومن أخت زوجته التي وضع يده على ثروتها بحجة إدارتها، ومـن ابنة قليلة الحلاوة، شديدة الحياء، ناعمة، تعيش حياة منعزلة وحزينة، لا متعة لها إلا حضور الاجتماعات التقيّة في منزل «آلين» أو في منزل الكونتيسة العجوز تشارسكي.

كان لـه أيضاً ولد، فتى متـين البنية، نبتت لحيتـه وهو في الخامسة عشـرة، وبـدأ، في هذا السن يشـرب ويطارد البنـات. وفي العشرين، طـرده أبـوه من عنده، لأنه لم يستطع إنهـاء دراسته، ولأن ما شاع من سـوء سلوكه شوّه سمعة أبيه. وبعد ذلـك، وفى أبوه عنده دَيْناً مقداره مائتان وثلاثـون روبلاً، ودفع عنه، مرة ثانية، سـت مائة روبل، لكنه حـذّره هذه المرة، بأن هـذه ستكون آخر مرة. لكن الابن، بدلاً من أن يُصلح سيرته، استدان أيضاً ألف روبل. فأعلمه أبوه آنذاك أنه لن يعتبره ابنـاً له بعد الآن. وهو يعيش، منـذ ذلك الوقت، وكأنه لا ولد له، ولا يجرؤ أحد في البيت أن يفاتحه بشأنه.

استقبل وولـف نيكليودوف بابتسامة لطيفـة فيها شيء من الهزء،

وهــي طريقته المعتادة في التعبير عن مشاعــره كرجل «حسن اللياقة»، تجــاه سائــر الإنسانيــة. وقال لــه بعــد أن قــرأ رسالة الكونــت إيفان ميخايلوفتش:

– أرجوك، تفضّــل بالجلوس. وأستأذنك بمتابعــة المشي. أنا سعيد جداً بمعرفتك؛ ويسرني، طبعاً، أن أرضي الكونت إيفان ميخايلوفتش.

نفــث عموداً كثيفــاً من الدخــان الأزرق، وهو يحرص على أن يمسك بسيجاره جيداً، لكي لا يسقط الرماد على السجادة.

قال نيكليودوف:

أود أن أرجــوك استعجال دراسة الإلتماس، وذلك لكي يتم سفر السجينة إلى سيبريا، في أسرع وقت ممكن، إذا كان لابد من سفرها.

فأعلن وولف بابتسامته الدائمة، كرجل يعرف مسبقاً كل ما يمكن أن يُقال له:

– نعم، نعم، بأولى البواخر الذاهبة على «نيجني نوفغورود». نعم، أعلم ذلك! قلتَ إن المحكومة اسمها...؟

– كاترين ماسلوفا.

اقترب وولف من مكتبه، وفتح علبة كرتون مملوءة بالأوراق.

– ماسلوفا، صحيح. تماماً. سأحدث زملائي عنها، نهار الأربعاء.

– أيمكنني أن أُبرق لمحاميّ؟

– كيف، وكّلتَ محامياً في هذه القضية؟ لا فائدة من ذلك. لكن، على كل حال، يمكنك أن تُبرق إليه.

قال نيكليودوف متردداً:

– أخشى أن تكون مسوّغات النقض غير كافية. لكن محضر المناقشات يؤكد أن الحكم كان نتيجة لسوء الفهم.

أجاب وولف بلهجة قاسية، وهو يراقب رماد سيجاره:

– نعم، نعم، هذا ممكن، لكن مجلس الشيوخ ليس من شأنه أن يُعنى بجوهر القضية. مجلس الشيوخ يجب أن يقتصر على النظر في قانونية الإجراءات.

– لكن يبدو لي أن الحالة هنا حالة استثنائية جداً...

– بلاشك، بلاشك، جميع الحالات استثنائية. على كل حال، سنرى ما يمكن فعله. هذا كل ما يمكنني أن أقوله لك.

كان الرماد مايزال عالقاً بالسيجار، لكنه أخذ يضطرب في نهايتها.

وواصل كلامه وهو ذاهب لينفض رماد السيجار في المنفضة:

– أنت لا تأتي بطرسبرج إلا نادراً؟

وأضاف، وهو يكرر ما كانت تقوله المدينة بأسرها، كلمة كلمة:

- ما أفظع مـوت هذا الشاب كامنسكـي! كان فتى رائعاً! وحيد أبويه! الأم مجنونة من الأسى!

وتحـدّث أيضاً عن الكونتيسـة كاترين إيفانوفنـا وحماستها للتيار الدينـي الجديـد الذي لم يكن يستنكـره ولا يُقرّه، لكنـه كان، بصفته رجلاً «حسن اللياقة» يعتبره بوضوح شيئاً لا طائل تحته.

وقُـرع الجرس فنهض نيكليودوف ليستأذنه. اقـترح عليه وولف وهو يمد يده:

- تعال للغداء معي، في أحد الأيام المقبلة، إن ناسبك ذلك.

كان الوقت متأخراً جداً حتى إن نيكليودوف أجّل لليوم التالي بقية مساعيه، وعاد إلى بيته، أي إلى بيت خالته.

× × ×

-١٧-

كان على مائـدة الكونتيسـة كاتريـن إيفانوفنا، هذا المسـاء، ستة أشخاص: الكونـت والكونتيسـة وابنهمـا -وهو شـاب ضابط في الحرس، عبوس يأكل وهو متكئ بمرفقيه على المائدة -ونيكليودوف، والقارئة الفرنسية، ووكيل الكونت.

كان مـن الطبيعـي أن يـدور الحديث رأسـاً حول مـوت الشاب كامنسكي.

تحدثـوا عن الطريقـة التي استقبل بهـا الإمبراطور النبـأ، وبما أنهم كانـوا يعلمون أن الامبراطور أشفق علـى الأم شفقة عظيمة، فقد رثى لهـا الجميع. لكن بما أنهـم كانوا يعلمون أن الإمبراطـور. وإن شارك في هـذا الحِـداد، إلا أنه لم يشـأ، أن يبدو مُفرط القسـوة على القاتل، لأنـه دافع عن شرف البزة العسكرية، فقد بـدوا جميعاً متسامحين معه للسبـب نفسه، إلا الكونتيسـة كاترين إيفانوفنا، فإنهـا دانت القاتل، بطريقة حكمها السطحية والمستقلة. وقررت:

- لن أقبل أبداً أن يُباح السكر لمرء. كي يقتل بعد ذلك فتى طيباً.

فاعترض زوجُها:

– لست أفهم ما الذي تعنينه بذلك.

فردّت الكونتيسة:

– أعلم جيداً أنك لا تفهم أبداً ما أقول.

ثم استدارت نحو نيكليودوف وأضافت:

– جميع الناس يفهمونني ماعدا زوجي. قلتُ أني أشفق على الأم المسكينة، ولا أقبل أن يفرح القاتل بما صنعت يداه.

تدخّل في النقاش ابن الكونتيسة الذي لم يقل كلمة حتى هذه اللحظة، ليدافع عن القاتل، وردّ في شيء من الأدب على أمه، محاولاً أن يبرهن لها على أن الضابط لا يمكنه أن يتصرّف تصرفاً آخر، وإلا طرده من الفوج مجلس رؤسائه.

كان نيكليودوف يصغي دون أن يشارك في النقاش. لقد كان يفهم، بصفته ضابطاً قديماً، تأكيدات الشاب تشارسكي، ويجدها طبيعية أكثر مما يجرؤ على الإعتراف به. ومن جهة أخرى، لم يستطع، أمام حالة هذا الضابط الذي قتل رفيقاً له، أن يمنع نفسه من التفكير في ذلك الشاب الذي رآه في السجن، محكوماً بالأشغال الشاقة، بسبب جريمة قتل ارتكبها أثناء الشجار. كان السبب الأولي للجريمة في كلتا الحالتين هو السكر. لقد أقدم الفلاح الشاب على القتل بتأثير التهيّج غير الطبيعي، فعوقب على ما فعل بأن قُيِّدت رجلاه، وحُلِق نصف

رأســه؛ وهو يوشــك أن يُرسَل إلى الأشغال الشاقــة. أما الضابط الذي ارتكــب الجريمــة نفسها، في ظـروف مشابهة، فهو محتجـز في غرفة جميلــة، وهو يتناول وجبـات لذيذة، ويشرب خمـوراً لذيذة، ويقرأ جميـع الكتب التي يـود قراءتها، وسيُخلى سبيله قريبـاً جداً. وحينئذ يستطيع أن يستأنف حياته القديمة، وقد يلقى من الاحترام أكثر مما لقي في الماضي.

لم يقـاوم نيكليودوف الرغبة في الإفصاح عمـا فكّر فيه. بدا على الكونتيســة، في بادئ الأمر، أنها توافقه على ما يقول، لكنها صمتت بعد لحظــة، كما صمت سائـر المدعوين، وخُيِّـل إلى نيكليودوف أنه ارتكب حماقة حين تكلّم على هذا النحو.

بعـد الغداء، انتقل الضيوف إلى القاعة الكبرى التي نُظِّمت بشكل قاعــة محاضـرات. فصُفّت صفـوف الكراسـي والمقاعـد، ونُصِبَ، في صــدر القاعة، مـا يُشبه المنصــة، وعليها كرسـي وطاولة مخصصة للمحاضـر. وأخذ المدعـوون يتوافدون بعدد كبير، وقـد أسعدهم أن يتمكنوا من سماع كيسويتر الشهير.

امتلأ الشارع أمام البيت بالعربات الفخمة. كانت السيدات يدخلن القاعة الفخمــة الزينة، مرتديات الحرير والمخمـل والدنتيلا والشعور المستعارة، منحّفات بالصنعة خصورهن. ومع النساء كان يصل رجال عسكريّـون ومدنيّون بالثّياب الرّسميــة. ورأى نيكليودوف بذهول، بين هـؤلاء الحضور المتألّقـين، خمسة رجال مـن الشعب: خادمين، وصاحب دكان، وصانعاً وحوذياً.

صعد «كيسويتر»، وهو رجل قصير وسمين دبَّ فيه الشيب، إلى المنصة، وبدأ خطبته. كان يتحدّث بالإنكليزية، فتُتَرْجَمُ أقواله تباعاً فتاة نحيلة، تضع على عينيها نظارة.

يقول الخطيب إن خطايانا عظيمة، وأن من المستحيل أن نعيش بطمأنينة في انتظار العقاب المحتّم.

أيتها الأخوات العزيزات، أيها الأخوة الأعزاء، لنفكِّر الآن في أنفسنا، في حياتنا، في طريقة تصرّفنا التي تثير غضب الرب والتي تزيد من آلام المسيح، ولسوف نُدركُ أن لا غفران لنا، ولا مخرج، ولا خلاص، وأننا، لا محالة، هالكون.

وتابع بصوت متهدّج:

لقد كُتب علينا الهلاك الرهيب والعذاب الأبدي. فكيف ننجو بأنفسنا؟ كيف ننجو بأنفسنا، أيها الأخوة، في هذا الحريق المرعب؟ لقد أتت نار هذا الحريق على بيوتنا، وسدّت علينا المخارج!

ثم سكت، وسالت الدموع، الدموع الحقيقية على طول خدّيه.

كان هذا دأبه منذ ثماني سنوات، فكلما كان يصل إلى هذا المقطع من خطبته الذي كان يُعجبه أكثر من غيره، كان يحسّ بالإختناق في حنجرته، وبالدموع تنساب على خدّيه. وعلا النحيب في القاعة وهزّت كتفي الكونتيسة السمينتين رعشة متقطّعة. وكان الحوذي يتأمل الخطيب بمزيج من الدهشة والرعب، كما يتأمل رجلاً دَهَست

جياده أحد المارة عرضاً. وسارعت ابنة وولف التي كانت ترتدي ثياباً مسرفة الفخامة فارتمت على ركبتيها وأخفت وجهها في يديها.

بيد أن الخطيب رفع رأسه من جديد، وافترّت شفتاه عن ابتسامة شبيهة بالإبتسامة التي يستخدمها الممثلون ليعبّروا عن عودة الأمل. واستأنف بصوت متذلّل وعذب:

– لكن الخلاص موجود، يا إخوتي. وهو في متناولنا، أكيد، سهل، مفرح. هذا الخلاص هو دم ابن الله الذي سُفح من أجلنا. إن عذابه، ودمه المسفوح من الهلاك. يا إخوتي ويا أخواتي، لنشكرِ الربَ الذي تكرّم وضحى بابنه الوحيد لافتداء خطايا البشر! تباركَ دمه ثلاث مرات...

أثناء هذه الخطبة، أصبح ضيق نيكليودوف لا يُطاق حتى انتهز، في هذه اللحظة. الإنفعال العام، فخرج على رؤوس أصابعه وصعد إلى غرفته.

× × ×

-١٨-

لم يكـد نيكليـودوف يفرغ من ارتـداء ملابسـه، في صبيحة اليوم التـالي، حتى دخـل عليه الخادم حامـلاً بطاقة المحامـي فانارين. وكان فانارين قد اتجه إلى بطرسبرج فور تلقّيه البرقية.

سـأل نيكليودوف، حين دخـل، عن أسماء أعضـاء مجلس الشيوخ الذين ستُحال القضية إليهم. فلما علم بهم ضحك هازئاً، وقال:

– كأنمـا اختـيروا، في الحقيقـة، عمـداً ليمثّلوا مختلـف الأنماط بين أعضـاء مجلـس الشيـوخ. فـ»ولـف« هـو الموظـف البطرسبرجـي، و»سكوفورودنيكـوف« هو القانوني العـالم؛ و»بيه« هو العملي، وهو لذلـك أنفع من الآخريـن. وعليه قبل غيره يمكننـا أن نعتمد. وماذا عن لجنة العفو؟

– كنتُ ذاهبـاً بالضبط إلى البارون فوروبييف[٢٥]. لم أنجح أمس في مقابلته.

٢٥– البـارون فوروبييف اسم خيالي، لكن القصة مبنية على واقعة حقيقية: ذلك أن الامبراطـور الغريب الأطـوار بولس الأول منح في عـام ١٧٩٧ الجنرال آراكتشيف لقـب بارون كما منح حلاقـه هذا اللقب، ثم منحهما لقب كونت في السنة التالية.. وعلى العموم قلما يقترن هذا اللقب بالكني الروسية.

سألــه المحامي رداً على النبرة الساخرة التــي لفظ بها نيكليودوف لقب «بارون» الأجنبي المقترن بكنية روسية الأصل:

– أتعلم لماذا كان فوروبييف باروناً؟ إن الامبراطور بولس هو الذي منــح جده هــذا اللقب، وكان وصيفــاً له، فيما أعتقــد. لقد أدى هذا الوصيــف بعض الخدمات له فسمّــاه الامبراطور باروناً، لأنه لم يجرؤ أن يمنحــه لقبــاً روسياً، وهو أمر قد يبعث علــى الشكوى. ومنذ ذلك الوقــت ونحن نجد بيننــا بارونات «فوروبييف» ومــا أشد اعتزاز هذا الرجل المستهتر بلقبه! على كل حال، إنه نصّاب لا مثيل له! معي على الباب، عربة، أتريد أن أوصلك؟

على درج المدخل، سلّم الحاجب نيكليودوف بطاقة حملها خادم له. كانت البطاقة من مارييت، وقد كتبت بالفرنسية:

«تصرفــتُ ضد مبادئي تمامــاً، إكراماً لك، وتوسّطت مع زوجــي من أجل محميّتك، وربمــا أُخلي سبيلُهــا فوراً. لقد كتــبَ زوجي إلى الآمــر. تعال إذن الآن لتــزورني زيارة «مجرّدة من المصلحة» أنا في انتظارك».

استشاط نيكليودوف:

– كيــف، هذه امــرأة تُسجن وتُمنــع من مخالطة غيرهــا، منذ سبعة أشهــر، ثم يُكتشَف الآن أنهــا لم تفعل شيئاً! كلمة واحدة كانت كافية لإخلاء سبيلها؟

قال المحامي مبتسماً:

– ليس في ذلك ما يدهش. الأجدر بك أن تفرح لأنك نجحت في هذا المسعى.

– لا، لـن يفرحني ذلك، بل إن هـذا النجاح يملؤني مرارة. أمن الممكن أن تجري الأشياء على هذا النحو؟ لَمَ كانوا يحتفظون بها في السجن؟

– إذا أردت أن تتعمّق في الأشياء فلن تصل إلا إلى زيادة آلامك.

كان البارون «فوروبييف» يستقبل، هذه المرة. وفي الغرفة الأولى التي دخلها نيكليودوف، وقف مساعد شاب باللباس العادي، له رقبة مسرفة الطول، وجوزة عنق شديدة البروز. سأل نيكليودوف:

– اسمك؟

سمّى نيكليودوف نفسه.

– آه! ممتاز. لقد كلّمني البارون عنك قبل هنيهة. سيستقبلك في الحال.

دخل المساعد الغرفة التي في الصدر، وخرج منها بعد لحظة، تصحبه عجوز ترتدي ثياب الحِداد، ولا تكفّ عن البكاء.

قال المساعد لنيكليودوف، وهو يدلّه على باب مكتب البارون:

– تفضّل بالدخول!

كان البارون ربعة، نحيلاً، قـويّ العضلات، أبيض الشعر قصيره. كان جالسـاً في مقعـده، أمـام مكتب ضخم، ينظـر أمامه وهو بادي الرِضـا. وعندما شاهـد نيكليودوف استنار وجهـه الدموي بابتسامة ملاطفة:

– أنـا سعيـد برؤيتك. كنتُ أنـا وأمك صديقين ممتازيـن. رأيتك وأنـت طفل، ثم وأنـت ضابط. هيا، اجلسْ، وقلْ لي فيـمَ أستطيع أن أؤدي لك خدمة.

روى له نيكليودوف قصة فيدوسيا بيريوكوفا.

فهتف البارون:

– جيد جـداً، جيداً جداً، فهمتُ ما تقول! الواقع أنها قصة مؤثّرة هل كتبَ طلب العفو؟

فأجاب نيكليودوف وهو يخرج مستنداً من جيبه:

– أعددتُ واحداً. لكني حرصتُ على مقابلتك لكي تتكرم وتمنح القضية. انتباهاً خاصاً.

فأكّد البارون وهو مايزال متهلّل الوجه:

– وأحسنـت صنعاً، سأهتم أنا نفسي بذلـك. القصة مؤثّرة حقاً. فهمتُ القضية. هذه البائسة كانـت طفلاً، فأرعبها زوجُها بفظاظته، ثمّ ندم كلاهمـا وشُغف أحدُهما بالآخر. نعم، سأهتم أنا نفسي بهذه القضية.

– وقـد وعدني الكونت إيفـان ميخايلوفتش، علـى كل حال، أن يكلّم الامبراطورة...

لم يكـد نيكليـودوف يلفظ هـذه الكلمات حتـى تبدلت ملامح البارون، فأعلن ببرودة:

– على كل حال، قدّم التماس العفو إلى المكتب المختص، وسأفعل ما بوسعي!

في هذه اللحظة دخل المساعد بمشيته المتعالية؛ وأعلن:

– هذه السيدة تود أن تقول لك كلمتين أيضاً.

– طيّـب! ادخلْها. آه! يا عزيزتـي، كم من دموع أراها تسيل على كُره مني! ليتنا فقط نستطيع أن نكفكفها كلها! إننا نبذل وسعنا...

دخلت السيدة وقالت للبارون:

– نسيتُ أن أرجوك ألا تعطيه ابنته، وإلا أَقْدمَ على كل شيء..

فقاطعها البارون:

– لكني قلتُ لك إني سأفعل ذلك.

– الحمد لله، يا بارون، إنك تُنقذ أماً...

أمسكت بيد فوروبييف وغطّتها بالقبل.

عندما خرجت المرأة، نهض نيكليودوف ليستأذن. فكرّر البارون:

– سنبذل وسعنا. سنتّصل بوزارة العدل. وحالما يصل الجواب سنرى ما يمكننا فعلُه.

خرج نيكليودوف وقصد الدائرة التي يُقدَّم فيها الطلب، فرأى هنا أيضاً كما رأى في مجلس الشيوخ جمهوراً من الموظفين والمستخدمين والحجاب، وكلهم نظيفون، مهذّبون، بشكل يلفت النظر.

تساءل نيكليودوف وهو يتأملهم: «ما أكثر عددهم، وما أوْضحَ النعمة على وجوههم، وما أحسنَ ما فيهم من بريق وتلميع وطلاء! لكن، ماذا يمكن أن يفعل هؤلاء جميعاً؟».

× × ×

-١٩-

إن الرجل الذي وُضع بين يديه مصيرُ السجناء المحبوسين في القلعة، كان جنرالاً قديماً، بارونا بلطيقياً، قيل إن به شيئاً من الخبل، لكن ماضيه حافل، مع ذلك، بأجلّ الخدمات كان يملك عدداً لا يُحصى من الأوسمة يأبى أن يضع شاراتها، ماعدا صليباً أبيض صغيراً[٢٦] معلقاً في عروة سترته. وقد نال هذا الصليب في القفقاز[٢٧] لأنه أجبر الفلاحين الشبان الروس الذين كانوا بأمرته على قتل الآلاف من أبناء تلك البلاد الذين كانوا يدافعون عن حريتهم وبيوتهم وأسرهم. ثم خدم في بولونيا[٢٨]، بعد ذلك، حيث أجبر الفلاحين الشباب الروس مرة أخرى، على ارتكاب الأعمال نفسها، فاستحقّ على ذلك أمجاداً جديدة. ثم خدم أيضاً في مكان آخر امتاز فيه أيضاً بالطريقة نفسها. وكان يشغل الآن، بعد أن شاخ وتعب، منصب مفتش القلعة، ويؤدي

٢٦- صليباً أبيض صغيراً: وسام القديس جورج على البسالة العسكرية.

٢٧- في القفقاز: لم يخضع سكان الجبال في الفقفاز خضوعاً نهائياً إلا في سنة ١٨٦٤ بعد أن ناضلوا الروس مدة نصف قرن.

٢٨- في بولونيا: أثناء عصيان ١٨٦٣.

واجبات الوظيفة بصرامة لا تعرف اللين، معتبراً هذه الواجبات أقدس ما في العالم.

كانت هذه الواجبات تنحصر في إبقاء السجناء السياسيين من الجنسين، في زنزانات مظلمة، بعيدين عن الإتّصال بالناس، وفي الإحتفاظ بهم فيها بحيث يموت نصفهم حتماً بعد عشر سنوات. وكان بعضهم يفقد عقله، وبعضهم يُصاب بالسل، وكان كثيرون منهم ينتحرون إما بتجويع أنفسهم حتى الموت، أو بفتح الشرايين بكسرة زجاج، وإما بشنق أنفسهم في قضبان النوافذ.

كان الجنرال العجوز يعلم ذلك كله، لأن ذلك كان يجري أمام عينيه. لكن هذه الحوادث لم تكن تهزّه أكثر مما تهزّه الحوادث التي تُحدثها الصاعقة والفيضانات أو أية ظاهرة طبيعية أخرى. الشيء الوحيد الذي كان يهمّه هو الخضوع للنظام المفروض عليه والذي يجب أن يُنفّذ قبل كل شيء؛ ولا أهمية، بعد ذلك، للنتائج التي تنتج عن هذا التنفيذ. وكان يطوف على جميع الزنزانات، مرة في الأسبوع، تقيداً منه بالنظام، ويسأل السجناء إن كان لديهم طلبات يتقدمون بها إليه. وكان السجناء يتقدمون إليه بطلباتهم في الغالب، فيصغي إليها بهدوء، دون أن يجيب، ثم لا يلتفت إليها أبداً بعد ذلك، لأنه يعلم أنها جميعها تطلب أشياء مخالفة للأنظمة.

في الوقت الذي اقترب فيه نيكليودوف من مسكن الجنرال العجوز، أخذت مجموعة أجراس البرج تدق لحن: «ليتمجد الله»، قبل أن تدق الساعة الثانية. وعندما سمع نيكليودوف الأجراس، تذكّر أنه قرأ في

كتابـات الديسميريين[٢٩] كيف أن هذه الموسيقى العذبة، المتكررة كل ساعة، تمتد أصداؤها في قلوب المحكومين بالسجن المؤبّد.

حـين قدّم نيكليودوف نفسه في منزل الجنرال، كان هذا جالساً في قاعـة استقبال صغيرة أُسدلت الستائر على جميع نوافذها حتى غدت في ظلام دامس. وكان منهمكاً في تدوير صحن على صفحة من ورق بصحبـة رسام شاب، هـو أخ لأحد مرؤوسيه. وقـد اختلطت أصابع الفنـان الناعمة والنحيلة بأصابـع الجنرال الغليظـة، المغضّنة، والملأى بالعقد. كان الصحن يجيب عن سؤال هو معرفة ما إذا كانت الأرواح يعرف بعضها بعضاً بعد الموت.

في هـذا اليـوم، كانت روح جـان دارك هي التي تتكلـم بواسطة الصحن. ولقد أجابـت: «إن الأرواح يعرف بعضها بعضاً»، وبدأت بإمـلاء الكلمة التالية، وإذا بهـا تقف فجأة. لم تُمل مـن الكلمة التالية سوى الأحرف الثلاثـة الأولى: ب، و، س. ثم توقفت، لأن الجنرال، في الواقـع، أراد أن يكون الحرف التالي «لامـاً»، بينما أراد الرسام أن يكون حرف «ف». أراد الجنرال أن تقول «جان دارك»، إن الأرواح تعـرف بعضها بعضاً بعـد تطهّرها (بوسْلِيـي)؛ وأراد الرسام أن تقول «جـان دارك»، إن الأرواح يعـرف بعضها بعضـاً بالنور الذي ينبعث منها (بوسفييتو).

أخذ الجنرال يحـدّد النظر في يديه، وهو يقطب حاجبيه الكثيفين،

٢٩– الديسميريـين...: تولستـوي غير دقيـق هنا؛ فالديسميريـون لم يقضوا سوى نصف سنة في هذه القلعة، قبل أن يُنفوا إلى سيبيريا.

الأبيضين بعبوس، آملاً أن يقر قرار الصحن على إملاء حرف اللام؛ ولوى الرسام وجهه نحو زاوية الغرفة وهو يطبع بصورة آلية على شفتيه الحركة الضرورية للفظ حرف «ف». في هذه الأثناء، دخل الجندي الذي كان حاجباً للجنرال العجوز، وسلّمه بطاقة نيكليودوف فزاد الجنرال من تقطيب حاجبيه، وقد انزعج كثيراً من هذه المضايقة. وبعد دقيقة صمت، وضع نظارته على أنفه، وقرأ البطاقة وهو يمسكها في آخر يده الممدودة، ونهض بجهد جاهد، وفرك أصابعه المتصلّبة ببطء، وقال:

– أدخلْه إلى مكتبي!

فاقترح الرسام:

– لا تقلق، يا صاحب السيادة، سأكمل وحدي. أحس بالسائل يعود.

فوافق الجنرال بلهجته الجافة والحازمة:

– وهو كذلك، أكملْ وحدك.

ومضى إلى مكتبه، وهو يجرّ بجهد ساقيه المنتفختين، الشائختين.

قال لنيكليودوف وهو يشير إلى كرسي قرب مكتبه:

– أنا سعيد برؤيتك! أأنت في بطرسبرج منذ زمن طويل؟

أجاب نيكليودوف بأنه وصل منذ فترة قريبة.

– والأميرة والدتك، أهي بخير؟

– أمي تُوفِّيت، يا صاحب السيادة.

– سامحنـــي، أنا آسف لذلك. أتعلم أني خدمتُ مع المرحوم والدك؟ كنا صديقين كالأخوين. وأنت، هل أنت في الخدمة؟

– لا، أيها الجنرال.

فهز سيادتُه رأسه دلالةً على استنكاره.

وأردف نيكليودوف:

– إن لي رجاء أود أن أتوجّه به إليك، يا صاحب السيادة.

– آه! حسن جداً. فيمَ أستطيع أن أنفعَك؟

بـين المعتقلـين السياسيـين الموكولـين إليـك، معتقـل يُدعـى «غوركييفتش». إن أمه تطلب الإذن برؤيته، وإذا كان ذلك غير ممكن، فهي تلتمس السماح لها، على الأقل، بإرسال الكتب إليه.

استمـع الجنرال إلى هـذا الطلب دون أن تبـدو عليه أدنى علامات الرضـا أو الاستيـاء. واكتفى بأن حني رأسه واتخـذ وضعية مَنْ يفكّر في الأمـر. والواقـع أنـه لم يكـن يفكّـر البتـة، و لم يكن يهتـم بكلام نيكليـودوف، لعلمه المسبق بأن الأنظمـة تمنعه من أن يُقيم وزناً لذلك الكلام. لم يكن يصغي إلا تأدّباً.

وأجاب الجنرال:

– الواقـع أن ذلـك كله لا يتعلّق بي. فبالنسبـة إلى الزيارات، هناك مرسـوم امبراطوري ينظـم شروطها. أمـا الكتب فعندنا هنـا مكتبة. وللسجناء الحق، عند الاقتضاء، أن يأخذوا منها الكتب.

– نعـم، أيها السيد الجنرال، لكن غركييفتش هذا يجب أن يحصل على الكتب العلمية. يريد أن يشغل وقته بدراستها.

– لا تصـدق ذلك! إنه لا يريد أن يشغل وقته بدراستها بل إن ذلك من جراء القلق، هذا كل شيء.

قال نيكليودوف متردداً:

– بيـد أن هؤلاء البائسـين يرغبون في أن يشغلـوا وقتهم، في مثل وضعهم المحزن...

فتذمّر الجنرال:

– هم يَشكون دائماً! إننا نعرفهم جيداً، دَعْكَ منهم!

كان يتحدث عنهم جماعياً، وكأن الكلام يدور على عرق خاص، أدنى من سائر البشر، وأكّد:

– الحقيقة أنهم يجدون هنا من سهولة العيش ما لن تجده في سجون أخرى.

ثم أخذ يصف بالتفصيل تلك السهولة، وكأن الغرض الرئيسي من اعتقال هؤلاء السجناء في القلعة هو تأمين إقامة ممتعة لهم.

– صحيح أنهم كانوا يُعامَلون فيما مضى معاملة صارمة، أما الآن فهم في أحسن حالة ممكنة. إذ تُقدَّم لهم ثلاثة ألوان من الطعام، أحدها من اللحم: من الضلعة أو من اللحم المفروم. وفي يوم الأحد يُقدّم لهم لون رابع، تحلية بالسكر عسى أن يتغذى كل روسي، ذات يوم، مثلهم.

وأوضح:

– أما الكتب فنحن نضع بين أيديهم مؤلّفات دينية وصحفاً قديمة. وفضلاً عن ذلك، فإن لدينا مكتبة غنية بالكتب، لكنهم قلّما يقرؤون. فهم يتظاهرون، في بادئ الأمر، أنهم يهتمون بالقراءة، لكنهم لا يلبثون أن يردوا الكتب دون أن يفتحوها. وهم يستطيعون أيضاً أن يكتبوا. ونحن نعطيهم ألواحاً اردوازية لكي يتسلوا بالكتابة عليها، ثم يمحوها والكتابة عليها من جديد. لكنهم لا يفعلون ذلك أيضاً. لا، إنهم لا يحلمون بشغل فراغهم إلا في الأوقات الأولى؛ وفيما بعد يسمنون ويزدادون خمولاً شيئاً فشيئاً.

كان نيكليودوف يصغي إلى هذا الصوت الأجش، ويتأمل هذه الأعضاء الخدرة، وهاتين العينين بجفونها المنتفخة تحت هذين الحاجبين الكثيفين، وهذه الجمجمة التي تساقط شعرها، وذلك الصليب الأبيض في عروة سترته. وكان يكتشف، في كل لحظة، عدم جدوى محاولته إيضاح الحقائق لمثل هذا الرجل. ومع ذلك، فقد تحامل

علـى نفسه، ونفّـذ المهمة الأخرى التـي تعهّد بها، فسألـه عن أخبار المعتقلة شوستوف التي علم أنها سيُطلق سراحها:

فقال الجنرال شاكياً:

– شوستـوف... شوستوف... إني لا أذكر جميـع أسمائهم فهم كثيرو العدد.

كان المفهوم من كلامه أنـه يحقد عليهم، من أجلِ هذه الكثرة دق الجرس وأمـر باستدعاء أمين سره؛ وفي هذه الأثناء، حثّ نيكليودوف على العودة إلى الخدمة:

– إن النبلاء والشرفاء ضروريون، أكثر من ذي قبل، للامبراطور.

قـال ذلك بتبجّـح، وهو يوحـي بأنه يَعـدُّ نفسه في عـداد النبلاء والشرفاء. وأضاف وهو يقصد بوضوح إلى تزيين جملته:

– وللوطن، أنا، مثلاً، عجوز، لكنني ما أزال أخدم الوطن، وسأظل أخدمه ما سمحتْ لي قواي بذلك.

جـاء أمين السر، وهو رجـل ضامر، ملوَّح، قلـق العينين ذكيّهما، ليقول إن شوستوفا في قلعة بعيدة، وأنه لم يصل أيُّ مُستند يتعلّق بها.

أعلـن الجنرال، وهو يرسم ابتسامة مازحة تحوّلت إلى تكشيرة على وجهه العجوز، المتعب:

– سنخلـي سبيلهـا في اليـوم نفسه الـذي يصل فيه الأمـر. فلسنا

نحرص على احتجازهم أكثر مما هو ضروري، لسنا نحرص على ذلك.

نهض نيكليودوف، وهو يجد مشقة كبيرة في إخفاء هذا المزيج من النفور والشفقة الذي أوحى به هذا الشيخ الفظيع. ولم يكن الشيخ، من جهته، غاضباً إذ استطاع أن يؤنّب قليلاً ابن رفيقه القديم. وقال له:

– الوداع، يا بني. لا تحمل كلامي على محمل سيئ. فأنا لا أقوله إلا من باب الصداقة الخالصة: لا تتدخل في شؤون سجنائي! ولا تتصوّرْ أن بينهم أبرياء! فكلّهم، بدون تفريق، أشقياء. نحن نعرفهم حق المعرفة، ونعرف أقدارهم... ثم، صدّقني وعدْ إلى الخدمة! فالقيصر بحاجة إلى جميع الرجال ذوي البسالة... والوطن أيضاً. فكّر قليلاً فيما سيحصل، لو أنني أنا، لو أن جميع الناس الذين هم من نوعي، لو أننا لم نخدم؟

زفر نيكليودوف زفرة، وانحنى كثيراً، وشدّ على اليد الهزيلة وخرج من الغرفة. فرك الجنرال خاصرتيه، بعد أن بقي وحده، وهزّ رأسه، ثم جرّ نفسه جراً إلى القاعة الصغرى حيث كتب الشاب الجواب الذي أمْلته روح جان دارك، أثناء غيابه. لقد قرأ الجنرال من خلال نظارته: «تَعرفُ الروح روحاً أخرى بالنور الذي ينبعث من أجرامها النَجْمية».

– آه! كيف يمكنها أن تعرف بعضها بعضاً إذا كان النور متساوياً بالنسبة إليها جميعاً؟

ثم جلس قرب المنضدة، وتشابكت، مرة أخرى، أصابعه وأصابع الرسام،

نادى نيكليــودوف حوذيّه أمام درج المدخــل، فأعلن هذا الرجل الطيب:

– كم يضجر المرء هنا، أيّها النبيل. كدتُ أذهبُ وأتركك.

فأجابه نيكليودوف وهو يتنهّد:

– نعم، حقاً إن المرء ليضجر هنا.

لقد حاول، وهو جالس في العربة أن يسرّي عن نفسه بمراقبة حركة الغيــوم الرمادية في السماء، وتأمّل مياه «النيفــا» المتلألئة التي تمخرها سفن بخارية.

× × ×

-٢٠-

كان اليــوم التــالي، الأربعاء، هو اليــوم الذي سيُنظــر فيه في قضية ماسلوفا. وصل نيكليودوف مبكراً إلى مجلس الشيوخ. وأمام المدخل، لقي المحامي الذي وصل أيضاً لتوّه. فصعدا معاً السلم الضخم، الفخم، الــذي يُفضي إلى الطابــق الأول. وفي القاعة الأولى التي دخلاها، قال لهمــا الحاجب، وهو يخلّصهما من عصويهما ومعطفيهما، إن أعضاء المجلس قد حضــروا، وأن آخرهم وصل قبلهمــا بدقيقة. ظل فانارين بالثــوب الرسمي والربطة البيضاء، واقتاد نيكليودوف إلى قاعة مجاورة صُفّــت قرب جدرانها خزائن كبيرة لها شــكل غير معهود. وكان في الغرفة شيخ مهيب الطلعــة، طويل الشعر، أبيضُه، أسلم نفسه لخادمين يخلعــان عنه معطفه، ثم اتجه بعــد ذلك إلى إحدى الخزائن وغاب فيها فجأة.

في غضــون ذلك، شاهد فانارين أحد زملائه، بالثوب الرسمي هو أيضــاً، فهُرع إليه، تاركاً لنيكليــودوف الحرية في تفحّص الأشخاص الحاضريــن. كان في القاعة نحو خمسة عشر رجلاً وسيّدتان إحداهما شابة تضع نظّارة، والأخرى قد دبّ الشيب إليها. كان مقرراً أن يُنظر،

هــذا اليوم، في قضية قَذْفٍ بطريق الصحافة: ومن هنا جاء هذا الحشد مــن الناس الذيــن لم يكونوا يزعجــون أنفسهم، في العــادة ليحضروا جلسات دائرة التمييز.

اقــترب الحاجب، وهــو رجل وسيــم، أحمر الوجــه، يرتدي بزة فخمــة، من فانارين ليسألــه في أية قضية سيُرافــع. وبينما كان يسجل علــى ورقة جــواب المحامي، فُتح بــاب الخزانــة، ورأى نيكليودوف الشيخ المهيب يخرج منها، لا بالسترة والبنطال الرماديين اللذين دخل بهمــا؛ بل إنه استبدل بهذه الثياب العادية بزّة رسمية مزركشة أسبغت عليــه هيئة عصفور هائل. ولعله كان هــو نفسه متضايقاً من هذا الزي المضحك، لأنه خرج من القاعة وهو يكاد يركض.

أوضح المحامي لنيكليودوف:

– هذا هــو «بي» وهو من أكــثر الرجال جــدارة بالاحترام وأخذ يشرح القضية التي سيحكمون بها.

بيــد أن الجلســة لم تلبث أن افتُتحــت. ودخل نيكليــودوف قاعة المحكمــة مع سائر الحضــور، وكانت القاعة أصغــر، وأبسط زينة من محكمة الجنايــات التي جلس فيهــا نيكليودوف، لكنهــا كانت مرتبة بنفســ الطريقة: الحواجــز نفسها بين الجمهــور والقضاة، واللوحات نفسها على الجدران. وعندما أعلن الحاجب؛ «محكمة»! نهض الجميع ليحيــوا أعضاء مجلس الشيوخ وهم بلباسهــم الرسمي. وجلس هؤلاء إلى طاولة وهــم يبذلون وسعهم ليظهروا بمظهر جــاد ورسمي. كانوا أربعة: الذي يقوم بمهام الرئيس أولاً، نيكتين، وهو رجل طويل، أمرد،

ذو وجـه ناعم، وعينين فولاذيتين؛ ثم وولـف، وهو حليق الوجه منذ برهـة وجزية وكان يتصفح مستندات بيديـه البيضاوين الجميلتين؛ ثم سكوفورودنيكـوف، وهو شيخ قصير، ضخـم، الجثة ثقيلها، مجدور الوجه؛ وأخـيراً «بي» الشيخ ذو الوجه المهيـب. ووراء أعضاء مجلس الشيـوخ، مرّ على المنصـة كاتب المحكمة ووكيـل النيابة، وكان هذا شابـاً نحيـلاً، ضامـراً، داكـن السحنـة، وفي عينيـه أمـارات الحزن العميـق. وبالرغم من اللباس الغريـب الذي كان يرتديه، فقد اكتشف نيكليودوف أنه أحد أفضل أصدقائه في الجامعة.

سـأل محاميه الـذي جـاء ليجلس بجنبه علـى المقاعـد المخصصة للجمهور:

– وكيل النيابة هذا، ألا يُدعى سيلينين؟

– نعم، لماذا؟

– إني أعرفه جيداً، وهو رجل عظيم القيمة.

فكان رأي المحامي:

– وهـو وكيـل نيابة مرموق، عظيـم النشاط والنفـوذ. وإليه كان ينبغي أن تتوجّه.

وكان تقديـر نيكليودوف، وقـد تذكّر صفات زميلـه الرفيعة من الإستقامة والنبل والشرف:

– على كل حال، إن هذا لن يتصرف إلا بوحي ضميره.

فأجاب فانارين:

– غير أن الأوان قد فات الآن.

وبعد ذلك أخذ يصيخ السمع بورعٍ إلى نقاش القضية.

اجتهد نيكليودوف في الإصغاء. لكنه كان عاجزاً عن الفهم، هذه المرة أيضاً، لأن النقاش تناول الأعراض الثانوية بدلاً من أن ينصبّ على جوهر الدعوى. لقد كان سبب الدعوى مقالة في صحيفة شهّرت باختلاسات مدير شركة مساهمة. وكان ينبغي أن يكون الشيء الهام، حسب ما يقضي به العدل، معرفة ما إذا كان هذا الرئيس قد سرق حقاً موكّليه، وفي هذه الحالة، كيف يمكن أن يوضع حد لسرقاته. لكن لم تُقَل كلمة واحدة من ذلك كله في المناقشة. وإنما دار النقاش فقط حول مسألة ما إذا كان لمدير الصحيفة الحق، بناء على فقرة في القانون، في طبع المقالة، أو إذا كان لا يملك هذا الحق. فيكون قد ارتكب بنشرها قذفاً أو افتراءً، أو قذفاً مع الافتراء.

شيئان أدهشا نيكليودوف: لقد لاحظ أولاً أن وولف الذي أعلن له، قبل بضعة أيام، أن مجلس الشيوخ لا يهتم أبداً إلا بعيوب الإجراءات، قد نشط كثيراً، على العكس، لإلغاء الحكم الذي يُبرّئ مدير الصحيفة. ومن جهة أخرى، فإن سيلينين كان متناقضاً تماماً مع طبعه الشديد التحفظ، فنشط نشاطاً مشابهاً للدفاع عن قضية نقيضة. وخُيّل إلى نيكليودوف أنه لاحظ في ذلك شيئاً من العداء لوولف الذي لاشك أنه أحس بانطباع مماثل، لأنه احمر، بعد جواب من سيلينين، وارتعش، وبدرت منه حركة غيظ، و لم يضف شيئاً.

إن حدة سيلينين الذي يعرف نيكليودوف طبيعته المتحفّظة، جاءت

من كونه يعرف رئيس جمعية المساهمين باعتباره رجلاً قليل النزاهة في أعمالـه. ولقد عرف عرضاً، من خلال المعلومات المتوافرة، أن وولف شـارك في وليمة عند رجـل الأعمال موضوع البحـث، عشية نقاش طلـب التمييز تقريباً. وعندما عبّر وولف إذن بكثير من الحذر عن رأي مُشبـع بالتحيّز، غضب سيلينين، وعبّر عـن رأيه بطريقة مسرفة الحدة، لا يتناسـب إسرافها مـع السبب المتعلّق بالإدارة فقـط. فجُرح وولف واحمرّ واضطـرب، وبدرت منه حركات صامتـة تنم على الدهشة، وبدا كمن أُهينت كرامته، فانسحب هو وزملاؤه إلى قاعة المداولات.

لم يكـد المستشارون ينسحبـون حتى سأل الحاجـب فانارين مرة أخرى:

– ما دعواك بالضبط؟

أجاب المحامي:

– قلتُ لك إنها دعوى ماسلوفا.

– ممتاز. سيناقشونها اليوم. لكن...

فدهش فانارين:

– لكن ماذا؟

لقـد ظنوا أن الأطراف المتنازعة في هـذه الدعوى لن تتدخل. وأنا أشـك أن يعود أعضاء المجلس إلى الجلوسـ بعد إصدار الحكم. لكني سأنبئهم...

- ماذا تعني بذلك؟

قال الحاجب وهو يتصفّح مستنداته:

- سأنبئهم، سأنبئهم...

في الواقع، قرر أعضاء المجلس أنهم إذا ما أصدروا حكمهم في هذه القضيـة، فسوف يناقشون التماسات العفو الأخرى، بما فيها التماس ماسلوفا، في قاعة المداولات المذكورة. بين فنجان قهوة وسيجارة.

× × ×

-٢١-

ما إن جلس أعضاء المجلس الأربعة في قاعة مداولاتهم، حتى أخذ وولف يَعْرض، بكثير من الحماسة، الأسباب الموجبة لنقض الحكم الذي يُبرّئ مدير الصحيفة. وكان الرئيس، وهو رجل قليل الدماثة على العموم، سيء المزاج على نحو خاص، في هذا اليوم. ولقد اتّخذ قراره في هذه القضية، وهم يناقشونها في الجلسة العامة، واستغرق الآن في أفكاره، دون أن يصغي إلى وولف.

كان يفكّر ويعيد التفكير في أنه كتب، عشية البارحة، في مذكراته، عن الطريقة التي عُيَّن بها «فيليانوف»، لا هو، «نيكيتين» في منصب طالما طمع به. كان نيكيتين مقتنعاً، في الواقع اقتناعاً صميمياً أن رأيه في مختلف كبار الموظفين الذين أتيح له معرفته، ترفد التاريخ بوثيقة من أهم الوثائق. وفي الفصل الذي كتبه، عشية البارحة، قوّم بقسوة قصوى سلوك بعض كبار الموظفين الذين منعوه، حسب تعبيره، من أن ينقذ روسيا من الخراب. وذلك يعني ببساطة أنهم منعوه من أن يتقاضى مرتباً أعلى. وهو الآن يسأل نفسه إن كان قد شرح ما شرح بوضوح يمكّن الأجيال من أن ترى ذلك كله، بفضله، مُضاءً بضوء جديد.

كان يجيب وولف إذا بدا أنه يخاطبه:

- بلاشك، بلاشك.

لكنه لم يكن يسمع كلمة واحدة مما يقول.

«بي» أيضاً لم يكن يسمع شيئاً مما يقوله وولف. كان يرسم أشكالاً زخرفيـة علـى ورقة أمامـه، وهو بـادي الإستغـراق. كان «بي» هذا ليبيراليا من الحرس القـديم، يحافظ بورع على تقاليد مدرسة سنوات ١٨٦٠[٣٠]؛ وآراؤه التحررية وحدهـا كانت تستطيـع ان تَحرفه عن حياده، فلم يَرَ في قضية القذف إلا اعتداءً على حرية الصحافة. وعندما فرغ وولف من كلامه، رفع «بي» رأسه لحظة وأوضح وجهة نظره في كلمـات قليلة شديدة الوضوح، ثم خفض رأسه الأبيض مرة أخرى، واستأنف رسم الأشكال الزخرفية.

أمـا سكوفورودنيكوف الذي كان جالساً أمام وولف يقضي وقته بأن يضع في فمه شعر شاربيه ولحيته، فقد توقف برهة عن هذه العملية ليعلن، بصوت قوي وحاد، أن الحكم لا يجوز أن يُنقض، لعدم وجود عيب من الإجراءات. أخذ الرّئيس بهذا الرأي واعتُبر الحكم صحيحاً.

هـاج هياج وولف، ولاسيمـا أنه أحس بالشـك في نزاهته، لدى زملائه ولدى وكيل النيابة، من خلال تلميحات شتّى. لكنه استطاع، بصفتـه رجلاً «حسن اللياقة»، أن يخفـي ببراعة امتعاضه. وتناول في

٣٠- تقاليـد مدرسة سنوات ١٨٦٠: أي جيل الحقوقيـين التحرريين الذين ساندوا الإصلاحات الكبرى في السنوات ١٨٦١ -١٨٦٤.

الحال إضبارة أخرى، وأخذ يقرأ أوراق قضية ماسلوفا. وشرع زملاؤه الثلاثــة، بعد أن قرعوا الجرس ليطلبــوا الشاي، في حديث، استأثر مع مبــارزة كامنسكي باهتمام بطرسبرج بأسرها. ذلك أن موظفاً من أهم الموظفــين، رئيس دائرة في وزارة، أوقفَ بجرم انتهاك الحرمات الذي نصّت عليه المادة ٩٩٥.

قال «بي» بلهجة الإشمئزاز:

– يا للفظاعة!

سأله سكوفورودنيكوف بعد أن بلل بلسانه ورقة سيجارة لفّها:

– مــا الفظيــع في ذلك؟ لقد قرأت، في هذه الأيــام، دراسة لمؤلف ألماني يطلب أن يُعتبر الاقتراب بين الرجال مشروعاً.

فهتف «بي» متعجباً:

– غير ممكن!

– سآتيك بالمقالة، في المرة القادمة.

وذكر، دون تردد، العنوان والتاريخ ومكان الطبع.

صرّح نيكيتين:

– يقال إنه سيُرسَل إلى مكان ما في أعماق سيبيريا، بصفته حاكماً!

فضحك سكوفوردنيكوف هازئاً:

- ممتاز! وكأني بالأسقف يخرج للقائه ومعه كهنته والصليب!

وبعد أن سحب أنفاساً من سيجارته، أخذ يلوك من جديد شعر لحيته وشاربيه.

في اللحظة نفسها، دخل الحاجب قاعة المداولات، ليقول لأعضاء المجلس إن المحامي فانارين يرغب في حضور مناقشتهم لالتماس ماسلوفا.

شرع وولف يقول:

- إليكم حقيقة قضية ماسلوفا؛ إنها قصة كاملة.

وقصّ على زملائه ما يعرفه من علاقات نيكليودوف بالسجينة.

كانوا جميعاً يتعجلّون الإنصراف، ويفضّلون كثيراً أن يفصلوا في القضية بلمح البصر، وفيما بينهم. بيد أن طلب المحامي لا يمكن أن يُرد بأدب، فقبلوا إذن بمغادرة قاعة المداولات ليعودوا إلى جلستهم العامة.

وولف أيضاً هو الذي بَسطَ، بصوته النحيف، البواعث الموجبة لنقض حكم ماسلوفا. ومرة أخرى، فعل ذلك بتحيّز ظاهراً للعيان، مُبدياً رغبته في نقض الحكم.

سأل الرئيس وهو يلتفت نحو فانارين:

- ألديك ما تضيفه؟

نهض المحامي، وبعد أن أصلح مقدمة قميصه المنشّاة، أخذ يبرهن، نقطة نقطة، بدقة ووضوح بارزين، أن مناقشات محكمة الجنايات تنطوي على ست نقاط مخالفة للقانون. ثم أجاز لنفسه أن يمسّ جوهر القضية. في بضع كلمات، ليثبت تهافت حكم محكمة الجنايات، والظلم الواضح فيه. على أثر هذه الخطبة التي أُلقيتْ بلهجة تنمّ على الاحترام والصلابة في آن واحد، بدا نقض الحكم محتّماً وقد وثق نيكليودوف بربح الدعوى ولاسيما أن المحامي تطّلع إليه أثناء كلامه، وابتسم له ابتسامة الرضا. ولو ألقى نظرة على أعضاء المجلس لأظهرت له أن فانارين وحده يبتسم. بدا عليهم جميعاً هم ووكيل النيابة الضجر من أولئك الذين يرونهم يضيعون وقتهم، وكأنهم كانوا جميعاً يقولون للمحامي: «تكلّم كما تشاء! لقد سمعنا كثيراً من أمثالك!».

حالما انتهى فانارين من مرافعته، جعل الرئيس الكلام لوكيل النيابة فأعلن أن البواعث الموجبة للنقض التي استند إليها المحامي لم تكن مقنعة، وأن الحكم يجب أن يبقى. وهنا نهض الأعضاء وانتقلوا إلى قاعة المداولات.

وهنا انقسمت الآراء، مرة أخرى. أصر وولف على النقض. وأصرّ «بي» على الاتجاه نفسه، وهو وحده الذي أدرك مليّاً حقيقة القضية، وقدّم لزملائه لوحة حية عن غفلة المحكّمين وإهمال القضاة. وكان نيكتين، كعادته، نصيراً للمحافظة الصارمة على القانون، فعارض النقض. كان كل شيء إذن يتوقّف على صوت سكوفورد نيكوف. ولقد أعلن معارضته للنقض، وذلك لمجرد أن

قرار نيكليودوف الإقتران بها، على سبيل الواجب، صدمه إلى أعلى حدود الصدم.

كان سكوفورودنيكوف مادياً، داروينياً. وكان كل مظهر من مظاهر الشعور بالواجب، بل والشعور الديني فوق ذلك، لا يقع منه موقع السخف المثير فحسب، وإنما موقع ما يشبه الإهانة الشخصية أيضاً. فكل هذا الصخب من أجل عاهرة، وحضور محام شهير إلى هذا المكان للدفاع عنها، وحضور نيكليودوف أيضاً، كل ذلك أثار نفوره إلى أبعد حد، فمن أجل ذلك أعلن، دون أن يكف عن حشو لحيته بين أسنانه، أنه لم ير في القضية غير قانونية الحكم، وقصور البواعث الموجبة للنقض.

فرُدّ طلب ماسلوفا إذن.

× × ×

-٢٢-

هتف نيكليودوف وهو يتقدّم نحو المحامي بعد تلاوة القرار:

– لكــن هذا فظيع! الظلم صارخ في هذا الحكــم! وها هم يثبتونه بحجة أنه لا يحتوي على عيب في الشكل؟

أجاب فانارين:

– ذلك حكم مسبق عندهم.

وكرر نيكليودوف:

– وسيلنين أيضاً، يعارض النقض! هذا فظيع! ما العمل، الآن؟

– التقدّم إلى الإمبراطور بالتماس العفو. قدّمه أنت بنفسك مادمتَ هنا. سأكتبه لك.

في هــذه اللحظة دخل القاعة عضو مجلــس الشيوخ وولف، ومعه كل أوسمته علــى بزته، فدنا من نيكليودوف، وقال له وهو يهز كتفيه الضيقتين:

– مــا حيلتنا في ذلك، أيها الأمير العزيــز؟ كانت البواعث الموجبة للنقض ناقصة!

ثم ما لبث أن دخل إحدى الخزائن ليبدّل ثيابه.

بعد وولف وصل سيلينين؛ وسرعان ما عرف صديقه القديم.

قال لـه سيلينين، وهو يبتسم لـه من شفتيه، بينما احتفظت عيناه بأمارات الحزن:

– ما كنتُ أتوقع أن ألقاك هنا.

– ما كنت أعلم أنك نائب عام!

فصحح سيلينين:

– وكيل النائب العام. وماذا تفعل هنا!

– جئت على أمل أن ألقى هنا العدل والشفقة نحو امرأة بائسة حُكمَ عليها ظلماً.

– أية امرأة؟

– تلك التي ثبّتم الحكم عليها.

فتذكّر سيلينين:

– آه! نعم، ماسلوفا. إن طلب النقض لم يقم على أساس.

– ليست القضية قضية طلب النقض، بل قضيتها هي نفسها. إنها بريئة، وقد عوقبت بدون سبب...

تنهّد سيلينين:

– هذا ممكن جداً، لكن...

– ليس هذا ممكناً فحسب، بل إنه مؤكّد تماماً.

– كيف عرفت ذلك؟

– كنتُ في عداد المحلّفين الذين حكموا عليها. وأنا أعلم أننا ارتكبنا خطأً في حكمنا.

فكر سيلينين لحظة، وأردف:

– كان ينبغي أن تشير إلى الخطأ في الحال.

– أشرت إليه.

– كان ينبغي أن يُدوّن في المحضر. فهو سبب موجب للنقض. ولفت نيكليودوف انتباهه:

– لكن فحص القضية كان يكفي ليظهر أن حكم المحلفين متهافت.

أجاب سيلينين، وهو يفكّر في وولف وفي القضية التي بُتَّ فيها آنفاً:

– أوه! ليس لمجلس الشيوخ أن يُعنى بذلك! لو أجاز لنفسه أن ينقض حكماً باسم العدالة لما زاد فقط من نصيب الظلم بل لفقدت قرارات المحلفين علة وجودها كلها.

– كل ما أعلمه هو أن هذه المرأة بريئة، وأنها فقدت الآن كل أمل بالإفلات من هذا العقاب الفظيع. إن العدالة العليا قد ثبّتت الظلم.

فاحتج سيلينين، وفي صوته شيء من نفاذ الصبر:

– كلا، إنها لم تثبّته، لأنه لم تكن لتُعنى به.

ثم حرص حرصاً واضحاً على تغيير الموضوع، فأردف:

– قيل لي البارحة إنك كنت هنا. لقد دعتني الكونتيسة كاترين «إيفانوفا»، في ذلك المساء، إلى زيارتها للاستماع إلى النبي الجديد. ولو قدّرت أنك ستكون هناك لذهبت.

– كنت هناك، بالفعل، لكنني انصرفتُ مشمئزاً.

– ولِمَ الإشمئزاز؟ كان ذلك، على كل حال، إظهاراً للشعور الديني، مهما يكن ذلك الإظهار وحيد الجانب، وطائفياً.

فاحتج نيكليودوف:

– دعك من هذا! كان جنوناً فظيعاً!

فأعلن سيلينين بلهجة مرتبكة إذ تذكّر أنه أبدى قديماً أمام نيكليودوف أفكاراً مختلفة كل الإختلاف:

– كلا، كلا. الشيء الوحيد الغريب والمزعج هو أننا نجهل تعاليم الكنيسة جهلاً فاضحاً حتى أننا نعتبر ما هو مجرد عرض لأركان عقيدتنا الأساسية جدةً.

تأمّله نيكليودوف بانتباه مشوب بالدهشة. فصمد سيلينين لنظرته. وخيِّل إلى نيكليودوف أنه يحسّ، في أعماق عينيه الحزينتين، بنزعة عدوانية. فسأله:

– أوَتؤمن بعقائد الكنيسة؟

أجاب سيلينين وهو يوجه إلى نيكليودوف نظرة فاقدة للحياة:

– إني أومن بها من دون شك.

تنهّد نيكليودوف، وقال:

– هذا مدهش.

أضاف سيلينين بعد أن أفهمه بالإشارة أنه يرغب في الكلام إليه:

– سنتحدّث عن ذلك مـرة أخرى. لأننا سنتلاقى. لابد أن نتلاقى حتمـاً. لكن أين ألقاك؟ أما أنا فأنـت واجدني دائماً، في البيت، ساعة العشاء.

ودل نيكليـودوف على عنوانه، وشدّ على يده بمودة، وأضاف قبل أن يبتعد:

– كم مرّ من وقت منذ حديثنا الأخير؟

أجاب نيكليودوف:

– نعم، سآتي لأراك، إن استطعت!

لكنـه أحسّ في أعماق نفسه أن هـذا اللقاء القصير جعلَ رجلاً من أعـز النـاس عليه، وأعظمهـم مكانة في نفسه، غريباً عنـه، إن لم يكن عدوّاً له.

× × ×

-٢٣-

عندما عرف نيكليودوف سيلينين، في الوقت الذي كانا فيه طالبين، كان هذا فتى ممتازاً، باراً بوالديه، ورفيقاً مخلصاً، ورجل مجتمع، مثقفاً، مليئاً بالذوق، جميلاً، أنيقاً، أميناً وشريفاً. وكان مبرّزاً في دراسته، دون جهد ودون أدنى تبجج، وكان ينال الأوسمة الذهبية[٣١] واحداً بعد الآخر، مكافأة له على أعماله. وقد أخذ على نفسه أن يُساعد الناس لا بالأقوال وحدها، بل بالأفعال. وإذ أنه لم يكن يعلم كيف يجسّد هذه المساعدة عن غير سبيل الوظيفة العامة، فقد استعرض بدقة جميع ضروب النشاط التي يمكن أن يكرّس قواه لها، وبما أن الدائرة الثانية في وزارة العدل الإمبراطورية حيث كانت تُعدّ المراسيم القانونية، بدت له أعظم الوظائف ملاءمة لمطامحه، فقد عُيِّن فيها.

وبالرغم من الضمير المدقّق الذي تزوّد به للقيام بشؤون هذه الوظيفة، فإنه لم يجد فيها ما يُشبع حاجته إلى نفع الناس. وبعد أن اصطدم برئيسه المباشر، وكان رجلاً حقيراً ومغروراً، ازداد استياؤه إلى الحد الذي قدّم فيه استقالته لينتقل إلى محكمة التمييز.

٣١- الأوسمة الذهبية...: كانت الأوسمة الذهبية تُمنح لأفضل الطلاب الثانويين، وكذلك للطلاب الجامعيين الذين كتبوا موضوعاً ممتازاً.

وهنـا حَسُنـتْ حالتـه، لكنـه لم يكـن راضيـاً بعد. وقـد لازمته الفكـرة التالية: وهي أنه لن يجد هنـا أيضاً ما كان يرجوه. في غضون ذلـك، أمكن لأسرتـه أن تحصل على تعيينه في غرفـة صاحب الجلالة الإمبراطوريـة. وكان لابد له أن يطـوف، ببزّاته الرسمية المطرّزة ذات البنطالات البيضـاء، على بيوت الذين لهم الفضل بتعيينه، لكي يؤدي لهم واجبـات الشكر. لم يكن يرى أي معنـى في وظيفة الخادم هذه، وازداد قناعـة بأنـه لم يبلغ مـا كان ينشده، لكنـه وإن كان عاجزاً عن رفض التعيين، خوفاً من إهانة الذين ظنوا أنهم يكرّمونه تكريماً عظيماً حـين يحصلون له عليه، إلا أن هـذا التعيين كان يداعب أحط غرائزه. كان يعجبـه أن يتأمـل نفسه في المـرآة وهو مرتدٍ هذه البـزّة المزركشة بالذهب، ويستمتع بالاحترام الذي يُبديه له كثير من الناس.

وكذلك كان زواجه. فمن وجهـة النظر الإجتماعيّة، كان الزواج التقليـدي الذي دُبر له أنجح ما يكون ، فلم يجرؤ أن يرفض، خوفاً من إهانة الخطيبة التي كانت ترغب في هذا الزواج، وخوفاً من أن يجرح هؤلاء الذين رتّبوا هذا الـزواج. ومن جهة أخرى. كان الاقتران بفتاة حلوة، من أسرة نبيلة، يرضي أنانيته، ويسرّه.

لكـن سرعان ما أقرّ في أعمـاق نفسه أن لا زواجـه، ولا وظيفته، ولا مهمته في البلاط، هي ما كان ينشده. وبعد ولادة الولد الأول، لم تشأ زوجته أن تنجب غيره. وأخذت تحيا حياة اجتماعية مُترفة، فكان لزاماً على الزوج أن يسير على آثارها.

لم تكـن متميّزة الجمال، وظلّت أمينة لـه. لم تكن تجني شيئاً، على

المستوى الشخصي، من هذه الحياة التي تحياها سوى الكثير من المتاعب والسخرات، وسوى أنها سمّمت حياة زوجها. ومع ذلك فقد نذرت نفسها لها روحاً وجسداً. وكانت كل محاولة من سيلينين لتغيير هذا الوضع، تصطدم دائماً بجدار من الحجر، لأن زوجته، وذويه، وأصدقاءه كانوا على يقين مطلق بأن هذه هي الحياة التي تليق به أن يحياها.

أما ابنته الصغيرة ذات الخصلات الطويلة الشقراء، والساقين العاريتين، فظلّت غريبة عنه، ذلك لأنها تربّتْ في عالم معارضٍ لرغباته.

وشيئاً فشيئاً، قام بين الزوجين اللذين فقدا الرغبة في التفاهم، التنافر المعتاد. وجعل الصراع الخفي، الصامت الذي ستراه عن الغرباء، والذي لطّفته المواضعات الاجتماعية، جعل حياة سيلينين العائلية شاقة.

وأشدّ من كل شيء، أن طريقته في النظر إلى الدين لم تكن ما «يَنْشده». فقد قَطَعَ، دون أدنى جهد، صلاته بالأحكام الدينية المسبقة التي تربّى عليها، والتي لم يعد يذكرها، شأنه شأن جميع مثقّفي طبقته الاجتماعية وزمنه. وعندما كان يختلف إلى الجامعة، وعندما كان صديقاً لنيكليودوف، لم يحاول قط أن يخفي عن أحدٍ انعتاقه من خرافات الديانة الرسمية، لفرط ما كان عليه من جد واستقامة إبّان شبابه الأول.

لكن استقلاله الروحي أخذ يُقلقه كلما تقدّم في السن وفي الوظيفة،

وعلـى الخصوص بسبب الردّة المحافظة التي دبّت في الجميع. ففضلاً عــن واجبات الأسرة، ولاسيمــا فيما يتعلق بصلــوات الذكرى المُقامة بعــد موت أبيــه، وفضلاً عن رغبــة أمه التي كانت تريد منــه أن يتقدّم إلى التنــاول، كما تقضي بذلك اللياقة، كانــت وظيفته تُجبره باستمرار على حضور تسبيحــة الشكر، والتبريكات وصلوات الشكر. ونادرة كانــت الفرص التي استطاع فيهــا أن يُفلت من هذه الإلتزامات. وهو بحضــوره هذه الصلــوات كان يجد نفسه بين أمريــن: فإما أن يتصنّع الإيمــان وهو أمر تأباه استقامتــه، وإما أن يعتبر هذه الأشكال الخارجية كاذبــة، فينظّــم حياته علــى نحوٍ لا يحضــر معه أبداً هــذه الصلوات. لكنــه إن شاء أن يُقدِم على هــذا الشيء القليل الأهمية في ظاهر الأمر، وُجِب عليــه أن يدخل في صراع مكشوف مع أسرتــه كلها، وأن يغيّر جذرياً حياته، ويترك الخدمة، ويتخلّى عن خدمة القريب، وهي خدمة كان سيلينــين يظــن أنه يؤديهــا بفضل وظيفته. ومــن أجل ذلك، كان لابــد له من اليقــين المطلق بأنه علــى حق. وهذا اليقين قــد بلغه، كما يبلغُــه، في أيامنا كل ذي عقل سليم قرأ شيئــاً من التاريخ، وبحث عن أصول الديــن، على العموم، وعن أصول انحطاط الكنيسة المسيحية، علــى الخصوص. لقــد قبل هذا الرجل المستقيــم الكذب غير المميت، مستسلمــاً أمام متاعب الصعوبات اليومية. وقــال في نفسه: إنه لكي نُثبــت بشكل قاطــع ان الشيء مناف للعقل، فيجــب أن نفحص أولاً قــوام اللامعقولية هذه. وهكذا يسوقه الكذب غير المميت إلى الكذب المميت الذي كان غارقاً فيه الآن.

وعندمــا طُرِحــت عليه مشكلــة مــا إذا كان صحيحاً هــذا الدين

الأرثوذكسي الذي تربّى عليه، هذا الدين الذي كان يتطلّبه منه محيطه، والـذي كان ضرورياً لـه لكي يمارس نشاطه من أجـل مصلحة قريبه، كانت المشكلة محلولة.

ولتوضيـح هـذه المسألـة، لم يلجـأ لا إلى «فولتـير»، ولا إلى «شوبنهاور»، ولا إلى «سبنسـر» أو «كانت»، لكنه رجع إلى «هيغل» وإلى مؤلفات «فينيه» و«كومياكوف». اللاهوتية؛ فوجد فيها، بطبيعة الحـال، ما يبحث عنه: وجد فيها ما أدخل الطمأنينة على نفسه، ووجد تسويغـاً لذلك المذهب الـذي تربّى فيه. هذا الجـواب، أبتْ محاكمته العقليـة عليه قبوله، زمناً طويلاً، لكنـه كان ضرورياً له، ليتفادى عدداً مـن المُزعجات. وتعلّق بجميع السفسطـات المتداولة. وهي أن العقل الفردي لا يتجلّى للناس إلا من حيث هم جماعة؛ وأن السبيل الوحيد لمعرفـة الحقيقة هو الوحي الذي خُصّت به الكنيسة، وهلم جراً. ومنذ هذا الوقت، استطاع سيلينين، أن يحضر الخدمات الدينية، وأن يتناول، ويرسـم إشـارة الصليب أمام الصـور المقدّسة، وهـو مطمئن النفس، ودون أن يخطر ببالـه أن ذلك كذبٌ. واستطاع، على الخصوص، أن يبـذل نشاطه كموظف، وهـو نشاط كان يوهمه بأنـه سيكون نافعاً، الأمر الـذي يوفّر له سنداً عظيماً في حياته العائلية الخالية من الأفراح. كان يتصـور أنه مؤمن، وإن كان في أعماق نفسه مقتنعاً أن إيمانه ليس ذلك الشيء «الذي ينشده»، على الإطلاق.

لذلك كانت نظرته مغشّاة بالحزن. وحين التقى نيكليودوف الذي عرفـه عندما كانت جميـع هذه الأكاذيب غريبة عنـه، رأى نفسه من جديـد كما كان من قبل. وبعـد أن سارع فدلّ صديقه الذي لقيه على

توجّهه الدينـي الجديد، أحس بشدة أكبر مــن ذي قبل، أن ذلك ليس «ما ينشده» أيضاً فشعر بالمرارة العميقة تجتاحه.

وأحســ نيكليــودوف بالإحساس نفســه، بعــد أن انقضى فرحه بلقاء رفيقــه القديم. ولقد تواعدا اللقاء، لكن أحداً منهما لم يفعل شيئاً ليجعــل ذلك اللقاء ممكناً. فلم يلتقيــا قط، طوال إقامة نيكليودوف في بطرسبرج.

× × ×

-٢٤-

سـار نيكليودوف وفانارين معاً على الرصيف،عند خروجهما من مجلس الشيوخ. فروى المحامي لنيكليودوف مغامرة هذا الموظف الكبير الذي فوجئ متلبّساً بالجريمة التي تحدّث عنها أعضاء المجلس فيما بينهم. وأخبره كيف أنه وُضع على رأس حكومة في سيبيريا، بدلاً من أن يُرسَل إلى السجن، كما كان ينبغي، بناء على القانون. ثم أوضح فانارين لنيكليودوف، أثناء مرورهما في ساحة، كيف أن اكتتاباً افتُتح لإقامة نصب على هذه الساحة نفسها، فلم يُقم النصب لأن الشخصيات الرفيعة التي أشرفت على الاكتتاب قد وضعت المال المجموع في جيوبها. وأضاف بصدد إحدى هذه الشخصيات أن عشيقته ربحت ملايين الروبلات في المضارب المالية. كما روى المحامي أن رجلاً باع امرأته بمبلغ كبير من المال، وأن اختلاسات لا عدّ لها ارتكبها أناس مايزالون يشغلون مناصب مرموقة، بدلاً من أن يكونوا في السجن. لقد بدت هذه القصص التي لا ينضب معينُها كأنها توفّر لفانارين الرضا الشخصي: كانت تتيح له، في الواقع، أن يعتقد وأن يحمل الآخرين على الاعتقاد أن الوسائل التي يستخدمها لكسب المال مشروعة وبريئة، إذا قورنت بالوسائل التي يستخدمها

أعلــى ممثّلي السلطــات العامة. ولذلك بلغت دهشتُــه أقصاها، عندما رأى نيكليــودوف يستأذنه، دون أن يصغي على نهاية إحدى قصصه، ويثب إلى عربة ليعود إلى منزل خالته.

كان نيكليــودوف محزوناً جداً، جاء حزنــه، قبل كل شيء من قرار مجلــس الشيوخ الذي ثبّت العقوبة الفظيعة التي نزلت بماسلوفا. وفكّر بحــزن في أن هذا القــرار المثبّت جعل تحقيق الجمع بين مصيره ومصير ماسلوفــا أشد قسوة. ثــم إن هذه القصص التــي رواها المحامي بكثير مــن الرضا عن ذاته قد ملأته أيضــاً بالأسى، إذ أظهرت له انتصار الشر في كل مــكان. هذا إضافة إلى أنه ظل يتذكّر، بالرغم منه، تلك النظرة الباردة والعدوانية التي رماه بها سيلينين، وكان من قبل عظيم الصراحة والود والنبل.

عندمــا بلغ منزل خالتــه، سلّمه البواب بشيء مــن الإحتقار رسالة حملتها «امرأة» إليه، على حــد قوله. كانت الرسالة من أم شوستوفا. وكانت تشكر بعبارات متأثّرة «المحســن»، منقذ ابنتها، وتتوسل إليه ألا يغادر بطرسبرج دون أن يزورها. وأضافت أن ذلك هو في مصلحة فيرا ايفريموفنا.

فضــلاً عن هــذه الرسالة، وجــد بطاقة مــن أحد رفاقــه، المساعد العسكــري لصاحــب الجلالــة، «بوغاتيريــوف» الــذي طلــب إليــه نيكليــودوف أن يسلّم الامبراطــور شخصياً الطلب الــذي هيّأه باسم المتعصّبين.

كتــب بوغاتيريوف بخطه العريض والقــوي، إنه سيضع الإلتماس

مباشـرة بين يدي الامبراطور، حسب وعده، بيد أن فكرة خطرت له: أليس من الأفضل أن يتوجّه أولاً إلى الشخص الذي أُنيطت القضية به؟

بعـد الانطباعات التي تلقاها نيكليودوف، أثناء هذه الأيام الأخيرة في بطرسـبرج، فقد كل أمـل بالنجاح. فالمشاريـع التي خطط لها في موسكـو بدت له غير ممكنة التحقيق، وأحلام شباب تتحطم لدى أول احتـكاك بالواقع. لكن، بما أنه كان في بطرسبرج، فقد رأى من واجبه أن ينهي برنامجه كله بنجاح. وسيذهب في اليوم التالي إلى بوغاتيريوف ومـن عنده، سيذهب، بناء على نصيحتـه، إلى الشخص الذي أُوكلتْ إليه قضية المتعصبين.

عندمـا عاد إلى غرفته، أخرج مـن محفظته التماس المتعصبين، ليعيد قراءته في هذه اللحظة، دخل أحـد الخدم وأنبأه أن الكونتيسة كاترين ايفانوفنا ترجوه أن ينزل إلى قاعة الاستقبال لتناول الشاي.

أعاد نيكليـودوف أوراقه على محفظته ونـزل إلى قاعة الاستقبال. ومـن نافذة السلم، أبصر، في طريقـه، عربة ماريبت واقفة أمام المنزل. وفجأة، أحسّ بأن قلبه يبتهج. استولت عليه الرغبة في أن يكون شاباً وأن يبتسم.

كانت ماريبت تضع علـى رأسها، قبعة لونُها فاتح، وترتدي فستاناً مشجّـراً، وتجلس على كرسي قرب مقعـد الكونتيسة، وبيدها فنجان الشاي. كانت تتحدث بصوت هامس، وقد تألق وجهها ببريق عينيها الجميلتـين، الضاحكتـين. وفي الوقـت الذي دخل فيـه نيكليودوف القاعة، كانت قد قالت شيئاً مضحكاً، لكنه ضحك غير محتشم —عرف

نيكليودوف ذلك مـن طبيعة ضحكتها- حتى أن الكونتيسة الفاضلة تملّكهـا فرح مجنون هزّ جسدها الثقيل من رأسها إلى قدميها. وفي أثناء ذلك، كانت ماريت تلاحظها، وعلى وجهها الفاتن الذي يجمع بين القـوة والخفّة، تعبيراً عذبـاً. بحيث مالت قليلاً علـى جانبها. وأدرك نيكليودوف، من خلال بعض الكلمات أنهما تتحدثان عن النبأ الثاني في بطرسـبرج، عن مغامـرة حاكم سيبيريا الجديد الـذي أطلقت عليه ماريـت جملة شديدة الفحش حتـى أن الكونتيسة لم تتمالك نفسها من الضحك.

قالت الكونتيسة العجوز بين قهقهتين:

- ستموّتيني من الضحك!

جلس نيكليودوف بجنب السيدتين، بعد أن حيّاهما. وسرعان ما عمدت ماريت، إذ لاحظت تعبير قسماته الجاد، ورغبت في إرضائه، -وهي رغبـة راودتها، دون أن تعرف سببها، منذ اللحظة الأولى التي رأتـه فيهـا- لا إلى تغيـير مظهرهـا الخارجـي فحسب، بـل إلى تغيير حالة مزاجهـا. وإذا بها تبدو رصينة، كئيبة، مستـاءة من الحياة، مليئة بالأشـواق المبهمة؛ كل ذلك بصدق، دون أي رياء أو جهد. ذلك أنها انغمست، بغريزتها، وإرضاء لنيكليودوف، في الجو الذي أحست أنه يعيشـ فيه، في هـذه اللحظة. سألته عن نتيجة مساعيـه. فأنبأها كيف أن جهـوده فشلت في مجلس الشيـوخ، وذكر، بهذه المناسبة، لقاءه مع سيلنين.

هتفــت السيدتــان، وقــد ارتاحتــا إلى استخــدام صفـة قبلت بها بطرسبرج جهاراً، للدلالة على وكيل النيابة الجديد:

– آه! يا للروح النقيّة! هذا حقاً فارس لا يناله الخوف ولا اللوم!

سأل نيكليودوف:

– أهو متزوج: كيف امرأته!؟

انفعلت مارييت، وقالت برأفة صادقة:

– امرأته؟ أوه! هي... لكن ينبغي ألا نحكم على أحد. المصيبة أنها لا تفهــم زوجها... وهكذا كان هو أيضاً مع رفض الطلب؟ لكن هذا فظيع! كم أرثي لتلك البائسة!

صعّــدت زفرة مــن أعماق قلبها. وسارع نيكليــودوف الذي تأثّر بحزنهــا، علــى تغيير الحديــث. فحــدّث مارييت عــن شوستوفا التي خرجــت، بفضل وساطتها، من السجن. وبعــد أن شكرها على هذه الوساطــة وتهيــأ للكلام على مــدى الفظاعة في أن هــذه المسكينة قد تألمــت هي وأسرتها زمناً طويلاً، وذلك لمجــرد أن أحداً لم يرفع صوته مــن أجلهم، لم تمهله مارييت حتى يتابع كلامه، فعبّرت هي نفسها عن سخطها بعبارات شبيهة بالتي كان سيستخدمها.

لاحظــت الكونتيســة كاترين ايفانوفنــا، على الفــور، أن مارييت تتصنّــع الغُنْــجَ مع ابن أختها. وهــو شيء كان يسرها كثــيراً، على كل حال.

قالت لنيكليودوف:

– أتعلم ماذا؟ تعال معنا غداً مساءً إلى منزل آلين. فسوف يكون كيسويتر هناك.

وأضافت وهي تلتفت إلى مارييت:

– وأنتِ أيضاً، لا تتخلّفي عن المجيء.

ثم وجهت الكلام إلى ابن أختها وقالت:

– لقد لاحظَك. وقال لي إن جميع الأفكار التي عرضتها لي والتي أطلعته عليها، كانت في نظره علامة خير، وأنك لن تتأخر، من دون أي شك، عن المجيء إلى المسيح. إني أتكل عليك من أجل غدٍ مساء. قولي له، يا مارييت، أنك تتكلين، أنت أيضاً، عليه.

أجابت مارييت وهي ترمي نيكليودوف بنظرة تعني أنها على اتفاق تام معه حول الأفكار الإنجيلية التي تتمسك بها السيدة العجوز، الفاضلة:

– أولاً، دعيني أقل لكِ، أيتها الكونتيسة العزيزة، أنني لا أملك الحق في إسداء النصائح إلى دميتري ايفانوفتش. ثم إني، لا أحب كثيراً، كما تعلمين...

– نعم، أعلم، أنت دائماً مختلفة عن الآخرين، إذ أن لك طريقتك الخاصة بك في التفكير، بصدد كل شيء.

قالت، وهي تبتسم:

- كيف، طريقتي الخاصة بي؟ لكن إيماني هو أبسط أنواع الإيمان وأكثرها ابتذالاً، هو إيمان أجهل الفلاحات. إلا أني مكرهة على الذهاب غداً، بخاصة، إلى المسرح الفرنسي.

سألت الكونتيسة نيكليودوف:

- آه! وأنت، بالمناسبة، أتعرف هذه الذائعة الصيت... ما اسمها؟

فهمست لها ماريت باسم مغنّية فرنسية مشهورة.

- يجب حتماً أن تذهب لتراها. إنها مدهشة؟

فقال نيكليودوف وهو يبتسم:

- من ينبغي أن أراه أولاً، برأيكِ، يا خالتي، الممثلة أمْ النبي.

- أنتَ خبيث إذ تفسّر أقوالي هذا التفسير السيء.

فردّ نيكليودوف مازحاً:

- أعتقد أن الأفضل أن يذهب المرء أولاً، ليرى النبي، وبعد ذلك يرى الممثلة، خوفاً من أن يفقد مذاق النبوات.

فقالت ماريت:

- لا، الأفضل أن يبدأ المرء بالمسرح الفرنسي، ثم يتوب بعد ذلك.

– اضحــكا، اهــزأا! فلــن تغرياني بتغيــير رأيــي... الواعظ شيء، والمســرح شــيءآخر. ولكي نبلــغ خلاصنا، لا حاجة بنــا إلى أن نغتمّ ونبكــي أبداً. يكفينا أن نؤمن، وعنــد ذاك نصبح أقدر على الإستماع بالحياة.

لكنك، يا خالتي، أبلغُ وعظاً من خير الواعظين.

وأوحت مارييت:

– وأنــتِ، أتعلمــين ماذا ينبغي لــك أن تفعلي؟ ينبغــي أن تأتي إلى مقصورتي، غداً مساءً.

– أخشى ألا أجد الوقت...

انقطع الحديث بدخول خادم، جاء يُنبئ الكونتيسة بزيارة أمين سر أحد الأعمال الخيرية الذي كانت رئيسة له.

– اوه! هــذا أثقــل الناســ! سأستقبلــه لحظــة في قاعــة الاستقبال الصغــرى، وسأعود على الفــور. صبّي له الشاي، يــا مارييت، ريثما أعود.

وبعد ذلك، خرجت الكونتيسة بخطوات سريعة وموزونة.

نزعت مارييــت أحد قفازيها، فعرّت يداً صغــيرة، قوية، مسطّحة قليلاً، بَنصرها مثقلًا بالخواتم.

سألت نيكليودوف وهي ترفع غلايّة الشاي الفضية:

- أيمكنني أن اقدّم لك الشاي.

واتخذ وجهها مظهراً أكثر رصانة وحزناً. وقالت له:

- سأعـترف لك هذا الإعتراف. لا شـيء في العا لم يشق علي كما يشق علي التفكير في أن أشخاصاً أكنُّ لهم التقدير يخلطون بيني وبين الموقع الذي أراني مكرهة على العيش فيه.

ولولا قليل لبكت، وهي تلفظ هذه الكلمات. ومع أن هذه الكلمات لا تحمـل سوى معنى شديد الغموض، لو تأمّـل فيها نيكليودوف عن كثـب، إلا أنها بدت له بالغة العمـق والصراحة والطيبة، لفرط ما كان للنظرة التـي رافقتها من سلطان عليه. كان ينظر إلى هذه المرأة الشابة، الجميلة، الغضة والأنيقة، دون أن يجيبها، ودون أن يستطيع رفع بصره عن وجهها.

- ربمـا ظننـت أنني لا أفهمـك، وأنني لا أعرف مـا الذي يجري فيك؟ لستُ أجهل، طبعاً، ما حصل لك: هذا سر لا يخفى على أحد، هنا. لكن، ليس يفهمك أحد سواي. إنني أوافقك، وأُعجَبُ بك.

- في الواقع، لا مجال للإعجاب بي، فلم أفعل شيئاً بعد.

- لا قيمة لذلك، إني أفهم عواطفك وعواطف تلك المرأة.

ثـم قطعت كلامهـا إذ خُيّل إليهـا أنها قرأت شيئاً مـن الاستياء في ملامح نيكليودوف:

- طيب، طيب، لن أحدّثك عن ذلك بعد الآن!

ثم استأنفت كلامها تحفزها فكرة واحدة هي أن تستولي على قلب الأمير:

– ومـا أفهمه أيضاً هـو أنك بعد أن رأيت ما في حياة السجون من أهوال وآلام، رغبتَ في مدّ يد العون إلى هؤلاء البائسين، ضحايا أنانية البشـر وعدم مبالاتهم... وأنا أفهم أنك نويـتَ بذل حياتك في سبيل هـؤلاء البؤساء. أنا نفسي، كنتُ سأبذلك حياتي، طائعة، مختارة. لكن لكل قدرُه!

– الستِ إذاً راضية عن قدرك؟

فهتفت كالمشدوهة من إمكان طرح هذا السؤال عليها:

– أنـا؟ نعم، إن من واجبي أن أكون راضية عنه، وأنا راضية. لكن في داخلي دائماً دودة ناخرة، أنا مكرهة على تَغطيتها بالتراب.

هتف نيكليودوف وقد استكان كلياً:

– يجـب ألا تغطّيها! يجـب أن تؤمني بذلك الصوت الذي يتكلّم فيك!

كثيراً ما تذكّر نيكليودوف، فيما بعد، هذا الحديث بخجل؛ وكثيراً مـا تألم، وهو يتذكر ما بدا على ماريـيـت من انتباه مصطبغ بالاحترام، حين أصغـت إليه، وهو يقص عليها زياراته للسجون وانطباعاته لدى احتكاكه بالسجناء.

عندمـا عادت الكونتيسة إلى القاعـة، كان نيكليودوف و ماريت

يتحدثــان كما يتحــدث الصديقان الحميمــان اللذان يفهــم أحدهما الآخــر، دون سائر الناس، وسط جمهور غريب ومعادٍ. كانا يتحدثان عــن ظلم الأقوياء. وآلام الضعفاء، وبؤس الشعب. والواقع أن عينيهما لم يكفّا عن الكلام على موضــوع آخر. تحت همس الكلمات كانت عينا مارييت تقولان: «أتستطيع أن تحبّني؟»، فتجيب عينا نيكليودوف «أستطيــع ذلــك!» لقد كانــت الشهوة الجنسية تجــذب أحدهما على الآخر طوال الوقت الذي عبّرت فيه شفاههما عن الأفكار النبيلة.

قبل أن تنصرف مارييت، قالــت لنيكليودوف أيضاً كيف يسعدها أبداً أن تكون نافعة له في مشاريعه. وطلبت إليه ألا يتخلف عن المجيء إلى مقصورتهــا، في المســرح، غداً مساءً، مؤكّدة لــه أنها ستحدّثه عن «قضية من أخطر القضايا».

ثـم تنهّدت، وقد خفضت عينيها على يدها المغطاة بالخواتم:

– ومَنْ يعلم، بعد ذلــك، متى سنلتقي. اتفقنا، أليس كذلك، تعال غداً؟

وعدها نيكليودوف بالمجيء.

في هــذه الليلــة، مكث طويــلاً قبــل أن يستطيع النــوم. كان كلما تذكّــر ماسلوفــا، ورَفْض طلب النقضــ، ونيته اللحاق بهــذه البائسة أينمــا ذهبت، والطريقة التي تخلّى بها عن أراضيه، رأى وجه مارييت الناعــم، العــذب، ينتصب أمامــه، وكأنه الجواب عــن تلك الخواطر. كان يسمعــه وهو يقول لــه متنهداً: «الله أعلم متــى سنلتقي»، وتذكّر

ابتسامتها بوضــوح شديد، وبقوة شديدة، حتى لقــد فاجأ نفسه، في الليــل، وهو يبتسم. وتساءل بالرغم منه، إن كان على حق في أن يلتزم الذهاب إلى سيبيريا، وإن كان على حق في أن يتخلّى عن ثروته.

إن الأجوبــة التــي خطــرت لــه، في هذه الليلــة المقمرة مــن ليالي بطرسبرج، كانت غامضة، مشوّشة، على نحو غريب ، فلقد اختلطت اختلطــت الأشياء جميعــاً في رأسه. كان يستحضــر في ذهنه عواطف قديمــة، ويبتعث أمام نفسه أفكاره القديمة، لكن تلك العواطف، وهذه الأفكار فقدت سلطانها القديم عليه.

وفكّر في نفسه: «لقد صنعتُ لنفسي أحلاماً لا أستطيع معايشتها!» وإذ أحســ بالأسئلــة تُلحّ عليــه، وهو عاجز عن الــرّد عليها ، فخامره إحساسٌ قــوي بالحــزن ووهن العزيمــة لم يشعر بمثله منــذ زمن بعيد. وعندما غفا، أخيراً، في الفجــر، كان نومه ثقيلاً، مغماً، كما كان ينام قديماً بعد ليال يقضيها وهو يخسر في القمار.

× × ×

-٢٥-

كان أول شعـور شعر بـه نيكليودوف، عندمـا استيقظ في صباح اليوم التالي، انطباعاً غامضاً بأنه ارتكب عملاً حقيراً. وجمّع ذكرياته: لا، إنه لم يرتكب عملاً حقيراً، وإنما راودته أفكار حقيرة، وهو ما كان أسوأ في عينيه. وتساءل نيكليودوف برعب كيف استطاع، ولو لبضع لحظـات أن، يُعير مثـل هذه الأفكار أذناً صاغيـة. ومهما يكن جديداً وشاقـاً ما عقد العزم عليه، فقـد كان يعلم أن الحياة التي تنتج عن ذلك هي وحدها الحياة الممكنة منذ اليوم. ومهما تكن سهلة عليه العودة إلى حياتـه القديمة، فقد كان يعلم أن ذلك سيكـون انتهاء للحياة، بالنسبة إليـه. كان تـردد البارحـة عديم الأثـر، مثله مثل آخر حـركات كسل الإنسـان الذي يتثـاءب في فراشه، ويُغرق نفسـه في لحافه من جديد، بعـد أن يستيقظ، مـع علمه أن اللحظة التي يجـب أن ينهض فيها من أجل أمر عظيم النفع والمتعة قد حانت. ونهض على عجلة، وقصد إلى الحي الذي تسكنه أم شوسنوفا في جزيرة فاسيلييفسكي.

كان مسكـن آل شوستـوف في الطابق الأول، حسـب إرشادات البـواب. اجتـاز نيكليـودوف ممـرات مظلمة، وتسلـق سلّمـاً متعباً

ومعتمــاً، وولج مطبخاً شديــد الحماوة، تملؤه رائحة لا تطاق من دهن رديء. كانت تقــف فيه، قرب الفرن، امرأة عجوز، مشمّرة الكمّين، بمئزرها، وعلى أنفها نظارة ضخمة. كانت تحرك شيئاً في القدر.

سألته بصوت حذر، وهي تنظر من فوق نظارتها.

– فيمَ ترغب؟

لم يفــرغ نيكليــودوف مــن ذكر اسمــه حتى علت وجــه العجوز أمارات السرور المشوبة بشيء من التّهيُّب.

هتفت وهي تنشّف يديها بمئزرها:

– آه! يــا أمير! يا خجلتي لأنني كلفتــك صعود هذا السلم المظلم! أنت، المحسن إلينا! أنا أمها! وأنت منقذنا!

وتابعــت وهي تحاول جاهدة أن تقرّب شفتيها من يد نيكليودوف التي أمسكت بها بين يديها.

– لقــد أجزت لنفســي أن أذهب لزيارتك أمســ. أختي هي التي ألحّــت علــي في أن أفعــل ذلك. ابنتي هنــا! من هنا، من هنــا. تفضل واتبعني!

اقتادت نيكليودوف، من باب ضيق، في ممر سيء الإضاءة. وكانت لا تنفك تحاول إصلاح شعرها المحلول، وما في ثيابها من اضطراب.

وغمغمت:

– أختي كورنيلوفا... فلاشك أنك سمعت عنها. لقد أُقحمت في قضية... هي امرأة عظيمة الذكاء...

وفتحت باباً يطل على الممر، فأدخلت نيكليودوف غرفة صغيرة، جلست فيها، إلى طاولة، على أريكة فتاة قصيرة وسمينة، ترتدي سترة من الهندي المخطط، لها شعر أشقر، مجعد قليلاً، يحيط بوجه مدوّر، في غاية الشحوب. وفي مواجهتها جلس شاب طرّ شارباه، يلبس قميصاً روسياً مطرّز الحواشي. طوى الشاب نفسه على كرسيه وأخذ يتكلم بكثير من الاحتداد حتى أنه لم يفطن هو و لم تفطن هي، في أول الأمر، إلى دخول نيكليودوف.

– ليديا! هذا هو الأمير نيكليودوف، وهو نفسه الذي...

ارتعشت الفتاة الشاحبة ارتعاشة عصبية. وردّت بحركة آلية، خصلة من شعرها الأشقر إلى ماوراء أذنها، وثبّتت بخوف عينيها الرماديتين في الزائر.

قال نيكليودوف وهو يبتسم ويمد إليها يده.:

– أنتِ إذاً تلك المرأة الخطرة التي أوصتني بها فيرا ايفريموفنا؟

أجابت ليديا وهي تكشف عن صفين من الأسنان البديعة، من خلال ابتسامتها اللطيفة.

– نعم، أنا هي. خالتي كانت تتمنى بحرارة أن تراك.

وصرخت من الباب بصوت ذي نبرة محبّبة ورقيقة:

- يا خالتي!

قال نيكليودوف:

- تألمت فيرا ايفريموفنا كثيراً بصدد إيقافك.

قاطعتــه ليديا وهي تشير بإصبعهــا إلى كرسي من القش نهض عنها قبل هنيهة الشاب:

- هنا، الأفضل أن تجلس هنا.

وقدّمت الشاب رداً على النظرة التي رمى بها نيكليودوف رفيقها:

- ابن عمي زاخاروف.

هزّ هذا يد القادم بنفس الإبتسامة التي أنارت وجه ليديا، ثم جلس قــرب النافذة حيث انضــم إليه طالب أشقر الشعــر، يبلغ خمسة عشر عاماً أو ستة عشر.

أوضحت ليديا:

- فيرا ايفريموفنا صديقة مخلصة لخالتي، أما أنا فلا أكاد أعرفها.

في هذه اللحظة، خرجت مــن الغرفة المجاورة امرأة في الأربعين، ذات وجــه لطيف وذكي. وهتفت، وهي تجلســ على الأريكة، قرب ابنة أختها:

- ما أكرم نفسك إذ أتيت! حسناً! وفيروتشكا؟ هل رأيتها؟ كيف احتمالها لوضعها؟

أكّد نيكليودوف

– إنها لا تشكو أبداً.

– آه! هـي كما عرفتها! ما أعظم نفسهـا! كل شيء للآخرين، ولا شيء لنفسها!

– الواقع أنها لم تطلب شيئاً لنفسها؛ لم تهتم بغير ابنة أختك.

كانت تأسف، بخاصة، كما قالت لي، على هذا الظلم الفادح في إيقافها.

– إنه ظلم فادح، بالفعل. ولقد تألمت المسكينة عني.

فهتفت ليديا:

– كلا، يا خالتي. كنت سآخذ أوراقها، بدونك.

فأكّدت الخالة:

– اسمحي لي أن أكون أعلم منك بحقيقة الأمور!

وقالت لنيكليودوف:

– كل ذلك جاء من أن شخصاً طلب مني أن أحتفظ له بأوراقه. ولما لم يكـن لي سكن. فقد تركتها عند ابنة أختي. وفي هذه الليلة بالذات، كبسـت الشرطة البيت وأخذت الوثائق، كمـا أخذت ليديا أيضاً التي ظلـت في السجن حتـى الآن، لأنها أبت أن تقول ممّـن تسلّمت هذه الأوراق.

فأعلنــت ليديا بحدّة وهي ترفع يدها إلى خصلة من شعرها، وإن لم تضايقها:

– لم أصرّح باسمه قط.

فاعترضت الخالة:

– لكني لم أقل هذا!

وأردفت الفتاة، وهي تحمرّ، وتُدير حولها نظرة قلقة:

– وإذا كانوا قد قبضوا على ميتين، فليس ذلك بسببي.

تدخلت الأم:

– لا حاجة بك إلى أن تقولي لنا ذلك، يا ليدوتشكا.

فأكّدت ليديا التي كفّت عن الابتسام:

– ولِمَ لا؟ على العكس، إني أريد أن أتكلم!

ازدادت حمرتُها وأخذت تلف شعرها حول إصبعها، وهي ماتزال تلقي نظرات قلقة حواليها. وأردفت:

– لم أذكر اسمه، واكتفيت بالسكوت! وعندما سألوني عن خالتي وعن مينين، لم أجب بشيء، وأعلنت أني لن أجيب بشيء. حينئذ أخذ هذا... بيتروف...

فأوضحت الخالة لنيكليودوف:

– بيتروف هذا، دركي.

وأردفت ليديا وهي تتنهد وقد بدا عليها الإضطراب:

– حينئذ أخذ يقنعني. قال لي: «كل الناس واثقون من أنك ستتكلمين. ولن يؤذي ذلك أحداً. على العكس، إذا تكلمتِ أنقذتِ أبرياء سيتعرضون، بدون ذلك، إلى التألم ظلماً؟» لكنني أنا، بالرغم من ذلك، لم أقل شيئاً. حينئذ قال لي: طيب! ليكن! لا تقولي شيئاً، لكن، لا تنكري شيئاً مما سأقوله، على الأقل!».

وأخذ يسرد الأسماء ومن بينها اسم ميتين. تصور أني علمت، في اليوم التالي، باعتقال ميتين! وقلت في نفسي «أنا التي سلّمته»، هذه الفكرة عذّبتني كثيراً حتى ظننت أنني سأصاب بالجنون.

قالت الخالة:

– لكن بما أنه قد ثبت أن لا يد لك في اعتقاله!

صاحت ليديا وقد اشتدت عصبيتها، وظلت تلف خصلة من شعرها الأشقر حول إصبعها ثم تحلّها:

– نعم، لكني لم أكن أعلم ذلك. كنت أحدّث نفسي طوال الوقت: «أنا سلّمته!». كنت أسير في الزنزانة جيئة وذهاباً، وأنا أفكّر في ذلك. كنت أنام وأغطي رأسي، فيصرخ صوت في أذني: «لقد سلّمته، لقد سلّمتِ ميتين!» عبثاً كنت أعلم أن ذلك من صنع الخيال، لقد كان من المستحيل ألا أصغي إلى ذلك الصوت.

فكررت أمها وهي تمسّ ذراعها:

– ليدوتشكا، إهدئي!

لكن ليديا لم تتمكن من الهدوء. وبدأت كلامها وهي تصعّد تنهيدة:

– أفظع ما في الأمر...

ونهضت عن الأريكة دون أن تتم جملتها ولاذت بالفرار إلى خارج الغرفة. فتبعتها أمها.

فهتف الطالب الجالس قرب النافذة:

– يجب أن نشنق كل هؤلاء الوحوش!

سألته خالته:

– مالك ولهذا!؟

اضطرب الطالب وقال:

– أنا، لا شيء... بالتأكيد...

وتناول سيجارة ملقاة على الطاولة، وأخذ يدخّن.

× × ×

-٢٦-

أعلنت الخالة وهي تشعل أيضاً سيجارة:

– هذا السجن الإنفرادي شيء رهيب، بالنسبة إلى الشباب.

فلاحظ نيكليودوف:

– بالنسبة إلى جميع الناس، على ما أتصور؟

– لا، إنه ليس كذلك بالنسبة إلى الجميع. لقد قال لي كثيرون: إنه، على العكس، راحة وأمان بالنسبة إلى الثوريين الحقيقيين. فهؤلاء البؤساء يعيشون في القلق والحرمان والرعب، خائفين على أنفسهم، وعلى غيرهم، وعلى الحزب. ثم إذا بهم يُعتقلون ذات يوم، وإذا بكل شيء ينتهي، وإذا بمسؤوليتهم تتوقف. ولا يَبْقى عليهم بعد ذلك إلا أن يتمددوا ويستريحوا. إني أعرف بعضاً من هؤلاء شعروا بفرح حقيقي، عندما أُلقي القبض عليهم. أما بالنسبة إلى الشباب، مثل ليدوتشكا، ولاسيما بالنسبة إلى الأبرياء، فإن الصدمة الأولى رهيبة. وما يتلو ذلك ليس شيئاً بالقياس إلى هذه الصدمة. فالحرمان من الحرية، والمعاملات الفظّة، ونقصان الهواء والغذاء، كل ذلك يغدو بلا أهمية ويسهل

احتماله لـولا تلك الصدمة المعنويـة التي يحس بها المـرء عندما يُلفي نفسه سجيناً للمرة الأولى.

فأثارت اهتمام نيكليودوف:

– أشعرتِ بها، تلك الصدمة؟

أكّدت الخالة بابتسامة حزينة ورقيقة:

– أنا؟ دخلتُ السجن مرتين. وعندما أوقفوني أول مرة، بلا سبب طبعـاً، كان عمـري إحدى وعشرين سنـة. كان لي طفل وكنت أنتظر طفـلاً آخر. ومع أن حرماني من حريتـي، وفراقي لابني وزوجي، مع أن ذلـك كان قاسيـاً، فإنـه لم يكن شيئاً إذا قورن بمـا شعرت به عندما تبيّنـتُ أني لم أعد مخلوقـاً بشرياً لأغدو... أوه... لأغـدو شيئاً. كنت أريد أن أقبّل ابنتي، وكانوا يأمرونني بالمسير وبدخول عربة المساجين. سألتُ بماذا يتهمونني، فلم يجبني أحد. بعد الاستجواب، خلعوا عني ملابسي، ثم ألبسوني ثيـاب السجن، وقد سُجِّل عليها رقم. حبسوني وانصرفوا وبقيتُ هناك وحدي مع الحارس مسلحاً ببندقيته. وهو يذرع الممـر بصمت. ومن وقت إلى آخر، كان يُلقي نظرة خاطفة من الفتحة المصنوعـة في الباب. خالجنـي إحساس حقيقي بالقلـق. لقد أذهلني أكـثر من أي شـيء آخر، –مازلت أذكر ذلـك– موقف ضابط الدرك الذي عَرض عليّ سيجارة. كان هذا الرجل يعلم إذن كم يحب الناس التدخين. كان يعلم بالتأكيد كم يحب الناس جميعاً الحرية والنور، كم تحب الأمهات أولادهن، وكم يحب الأولاد أمهم. لكن كيف واتتهم الشجاعة في أن ينتزعوني من أعزّما عندي، وأن يحبسوني كأني حيوان

مفترس؟ ليس ممكناً أن يحتمل المرء مثل هذه الصدمة وأن ينجو من عواقبها الوخيمة.. فمَنْ كان يؤمن، قبل ذلك، بالله وبالناس وبالإخاء البشري، كفّ عن إيمانه.

واختتمت باسمة:

– ومنذ ذلك الحين كففتُ عن الإيمان بالإنسانية، وأصبحتُ شريرة.

دخلت أم ليديا الغرفة، وأعلنت أن ابنتها مريضة، واضطرت إلى لزوم الفراش.

ثارت الخالة:

– لقد دمّروا هذه الحياة الفتية، دون أي سبب. وأنا أتألم، بخاصة. حين أفكّر أني كنت، بالرغم مني، سبب هذا الشقاء المرعب.

– عسى أن يردّ إليها هواء الريف شيئاً من عافيتها. سنرسلها إلى أبيها.

وأردفت الخالة وهي تلتفت إلى نيكليودوف:

– من المؤكد أن ذلك كان سينتهي نهاية سيئة لولاك. نحن مدينون لك بالشكر الجزيل. لكني كنتُ بحاجة إلى أن أراك لكي أسلمك هذه الرسالة لفيرا ايفريموفنا. الرسالة مفتوحة، وتستطيع أن تقرأها وتمزقها إذا كانت آراؤك لا تسمح لك بالموافقة على مضمونها. لكني لم أكتب فيها ما يعرّض للخطر.

تنــاول نيكليودوف الرسالة، وخرج بعــد أن ودّع السيدتين. وفي الشارع، أغلق المغلّف، قبل أن يضعه في محفظته، مصمماً على ان يقوم بالمهمة التي كلّفته إياها خالة ليديا شوستوف.

-٢٧-

كان علـى نيكليـودوف أن يسـوّي آخـر قضيـة، قبـل مغادرتـه بطرسـبرج: وهـي طلب العفـو عن المتعصبـين الـذي أراد أن يوصله إلى الامبراطـور بواسطـة رفيـق الجندية القـديم، المساعـد العسكري بوغاتيريوف. فتوجّه إلى منزلـه في الصباح الباكر، ووجده فيه يتناول فطوره. كان بوغاتيريوف ذا قامة أقرب إلى الصغر، كان ربعة وسميناً، قـد أوتي قوة هائلة –كان قـادراً على أن يلوي حذوة الحصان– وكان طيباً، شريفاً، مستقيماً متحـرراً في أفكاره. وبالرغم من هذه الخاصية الأخيرة، فقد كان مقبولاً في البلاد. وبسبب من إخلاصه للامبراطور وللعائلـة الإمبراطورية، فإنه كان يملك قـدرة مذهلة على ألا يرى غير الجوانب الحسنة في هـذا العالم الذي يتحرّك فيه، دون أن يشترك البتة في الأعمال اللئيمة. لم يكن ينتقد البتة لا الرجال ولا المؤسسات. كان يسكتُ، ويقول بصراحة وبصوت عال ما يريد أن يقول، مع قهقهات مدويّة. كان يجهل كل انتهازية، فيبدو أمام الجميع كما هو.

صاح بفرح عندما رأى نيكليودوف:

– أحسنت إذ جئت! أتريد أن تفطر معي؟ إجلس. الشريحة ممتازة! إني أبدأ وأنتهي دائماً بشيء مُغذٍّ، ها! ها! ها!.

وأضاف وهو يُريه إبريق النبيذ الأحمر:

– هيا، إشرب كأساً من النبيذ. تصور أني كنت أفكر فيك بالضبط. سيُقدَّم التماسك، سيُقدَّم رأساً إلى القيصر. تستطيع أن تعتمد علي في ذلك. لكن خطرت لي فكرة وهي أنه ربما كان من المناسب أن تذهب أولاً وتقابل توبوروف[٣٢].

قطّب نيكليودوف حاجبيه عندما سمع هذا الاسم.

أردف بوغاتيريوف:

– كل شيء يتوقّف عليه. على كل حال سيُسأل عن رأيه في ذلك. مَنْ يدري، لعله يستقبلك بالترحيب.

– إن كنت تُشير علي بذلك، فسأذهب إليه.

فرد بوغاتيريوف هادراً:

– ممتاز! قل لي، كيف ترى بطرسبرج، ما الأثر الذي تركته فيك بعد عودتك إليها؟، تكلّم!

– أحسُّ كأني مُنوَّمٌ مغناطيسياً.

٣٢– توبوروف: ركيزة الرجعية الشهير، وكيل المجمع المقدس، إيفان بوبييدو نوستوف (١٨٣٥–١٨٠٩) الذي مثل هنا بهذا الاسم، توبور (فأس).

فكرر بوغاتيريوف وهو يضحك بملء فمه:

– منوَّم؟ ألا تريد أن تشرب شيئاً؟

ومسح شاربه وهو مُذعن.

– طيب.. إفعل ما تشاء. إذن ستذهب إليه؟ إذا لم تحصل على شيء، فاحمل لي الإلتماس، وسأقدّمه غداً بنفسي.

نهض عن المائدة، بعد أن رسم إشارة كبيرة للصليب، بنفس الحركة الآلية التي مسح بها شاربه، وعلّق سيفه بنطاقه:

– إلى اللقاء، يا عزيزي. يجب أن أستأذنك...

اقترح نيكليودوف، وهو يشد على يد بوغاتيريوف العريضة والقوية بسرور، وهو إحساس يوفّره له دائماً احتكاكه بكائن سليم، عفوي ونضر:

– لنخرج معاً.

عندما وصلا إلى عتبة باب المدخل افترقا.

مع أن نيكليودوف لم يكن يعلّل نفسه بالآمال العريضة. بصدد نتيجة زيارته. إلا أنه قصد، بحسب نصيحة صديقه، على منزل توبوروف الذي أُنيطَ به مصير طائفة المتعصبين.

إن المنصب الذي كان يشغله توبوروف يتضمّن في ذاته تناقضاً لا

يمكن أن يخفى على أحد، إلا عن رجل بليد، خالٍ من الحس الأخلاقي. وكان تبوبوروف يملك، في الواقع، هاتين الصفتين السلبيتين. كان هدف منصبه المحافظة على الكنيسة، والدفاع عنها بكل الوسائل، ومن ضمنها العنف؛ هذه الكنيسة التي أسسها الله، بحسب القرارات العقائدية، والتي لا تنال من سلطانها قوة الجحيم ولا قوة البشر. ومع ذلك فإن هذه المؤسسة الأبدية والإلهية، كان لابد لها من أن تسندها وتحميها مؤسسة بشرية يديرها توبوروف ومرؤوسوه. وبالطبع، لم يكن توبوروف يتبيّن، أو كان يأبى أن يتبين هذا التناقض. كان يكافح لكي يرد كل كاهن كاثوليكي، أو قس بروتستانتي، أو متشيّع، متعصب، عن هدم هذه الكنيسة التي عجز الجحيم عن هدمها. كان توبوروف، شأنه شأن جميع المخلوقات المحرومة من الشعور الديني الحقيقي، ومن حسّ المساواة والإخاء البشري، مقتنعاً اقتناعاً صميمياً أن العالم لم يتألف من أناس مختلفين عنه في كل شيء. وبرأيه أن الشعب يحتاج إلى ما استغنى عنه هو نفسه استغناءاً تاماً. أما في أعماقه، فلم يكن يؤمن بشيء على الإطلاق. الأمر الذي كان يبدو له مريحاً ومستساغاً؛ ولكن بما أنه كان يخشى أن يشاطره الآخرون آراءه، فقد كان يرى واجباً مقدّساً عليه، على حد تعبيره ذاته، أن ينقذهم من الخطر.

كما يردُ في كتب الطبخ أن السرطان يطلبُ أن يغطّس في الماء الحار، كذلك كان توبوروف على اقتناع بأن الناس يطلبون –لا بالمعنى الوارد في كتب الطبخ– أن يتعلقوا بالخرافات.

كان ينظر إلى الدين الذي ينبغي له أن يدافع عنه، كما ينظر مربي

الدواجن إلى النفاية التـي يُغذّي بها فراخه: إن رائحة العفن تفوح من هــذا الغذاء، ولكن بما أن الفراخ تُقبل عليه فلابد من تقديمه لها. كانت عبــادة عذراء ايفيريا، وعــذراء قازان، وعــذراء سمولنسك شكلاً من أشـكال عبادة الأصنام، لكن الشعـب كان يتمسك ويؤمن بها. وإذن فقـد كان من الملائـم تشجيع هـذه الخرافات، لهذا السبـب الوجيه، وهـو أن الرجـال الأقوياء من نمط توبوروف قـد استخدموا ذكاءهم، في الماضـي وفي الحاضر على حـد سواء، ليدعّموا جهـل الشعب، لا ليبدّدوا الظلمات.

في اللحظـة التـي أُدخِل فيها نيكليودوف إلى قاعـة الإنتظار، كان توبوروف يناقش رئيسة دير، وهي أرستقراطيّة مفعمة بالنشاط، كانت تنشـر وتدعم الديانة الأرثوذكسية في المناطق الغربية، بين البابويين(٣٣) الذين أُجبروا على الإرتداد إلى الأرثوذكسية، على كُرهٍ منهم.

في غرفـة الإنتظار، سأل المستخدم نيكليودوف عما يريد. وعندما علم أن الأمير ينوي أن يتقدّم باسترحام إلى القيصر، رجاه أن يُريه إياه. ومـا أن تسلّم الوثيقة حتى حملها إلى توبوروف. خرجت الراهبة من المكتب، ورأسها مغطّـى بقلنسوة معطفها الواسعة، وخمارها يتموج وراءهــا، وكذلك ذيـل ثوبها الأسـود. كانت تُصلّب علـى صدرها يديهــا البيضاوين بأظفارهما المقلّمة، وتمسك بسبحة من الزبرجد بين

٣٣- بـين البابويين: أُجبر أرثوذكسيو الدولة البولونية الليتوانية في عام ١٥٩٦ على الإعـتراف بسلطة البابا، باعتبارهم «بابويـين». لكن حكومة نيقولا الأول أكرهتهم في عام ١٨٣٩ على ترك «البابوية». وفي ١٨٧٦ أُجبر آخر البابويين أيضاً (في مملكة بولونيا) على الرجوع عن البابوية، لكن كان بينهم كثير من المتمردين.

أصابعهـا. ومع انها انصرفت، إلا أن نيكليودوف لم يُدع إلى الدخول مباشرة. كان توبوروف يقرأ الإسترحام، وهو يهزّ رأسه مستنكراً أمام وضوح العَرض في الطلب.

فكّر في نفسه أثناء القراءة: "عن وقَع هذا بين يدي الامبراطور، فإنه قد يثير مسائل غـير مستحبة، ويخلق ضروباً من سوء التفاهم". وضع الورقة على الطاولة، وأمر بإدخال نيكليودوف.

تذكـر تماماً قضيــة هؤلاء المتعصبــين، الذي تلقّـى استرحامهم من قبل. كانــوا مسيحيين ارتدوا عن العقيــدة الأرثوذكسية. وقد أسيئَت معاملتهم أولاً، ثم أُحيلوا إلى المحاكم، فبرّأت المحاكم ساحتهم. حينئذ قرر الأسقف والحاكم أن يفصلوا بين الأزواج، وبين النساء والأولاد، بحجــة أن الزواج لم يكن شرعيــاً، وأن ينفوهم إلى أماكن مختلفة. وهم الآن يطلبــون، آبــاء وأمهات، ألا يُفصل بينهــم. تذكّر توبوروف المرة الأولى التي وقعت فيها هذه القضية بين يديه. لقد تردد في القرار الذي يجــب أن يتّخذه، لكنه انتهى إلى أنه لا خطر مــن تصديقه الأمر بنفي العائــلات، بينما لو سُمح لهم بالبقاء في قراهــم لاستطاعوا أن يؤثّروا في الفلاحــين، ولانفصل هؤلاء أيضاً عن الديانة الأرثوذكسية. وبما أن المطران أبدى هذا القدر من الحميّة، فإن توبوروف آثر أن يترك القضية تتبع مجراها.

علــى أن القضية حين تجد مدافعاً مثل نيكليــودوف، له معارفه في بطرسبرج، قد تُعرض علــى الامبراطور باعتبارها تدبيراً وحشياً، وقد تبلغ أسماع الصحافة الأجنبية.

اتخذ توبوروف قراراً مفاجئاً.

– طاب يومك.

وتصدى للقضية مباشرة فقال وهو يهز الطلب بيده:

– إني أعرف مضمونه. وعندما قرأته، تذكّرت هذه القصة المحزنة، وأنا أشكرك لأنك ذكّرتني بها. إن السلطات المحلية تبدي دائماً حميّة مفرطة...

كان نيكليودوف الذي لزم الصّمت، ينظر بكره إلى هذا القناع المتقع الذي لا يناله التأثر.

– .... وسأتخذ مباشرة التدابير الضرورية لإلغاء ذلك القرار. حينئذ يستطيع هؤلاء الناس أن يعودوا إلى بيوتهم.

سأله نيكليودوف:

– ومن ثمَّ، فلا جدوى من تقديم الطلب؟

فأجاب:

– بالطبع، لأنني أنا أعدك بذلك.

وشدد على كلمة «أنا»، وهو ظاهر الإقتناع بأن نزاهته ووعده هما أفضل الضمانات، وأضاف:

– وسأكتب في ذلك، على الفور. إجلس، أرجوك...

أخذت يكتب، وهو جالس إلى مكتبه. ظل نيكليودوف واقفاً، يراقب من علٍ هذه الجمجمة الضيقة والصلعاء، وتلك اليد ذات العروق الزرقاء والتي تُجري الريشة على الورق. وتساءل ما الدافع الذي من أجله بادر رجل لا يبالي بشيء مثل توبوروف إلى إرضائه. لماذا؟...

قال توبوروف وهو يغلق المغلف:

– الرسالة جاهزة.

وأضاف مازحاً وهو يزم شفتيه في ابتسامة مُقتْسرة:

– أخبر «زُبُنَكَ» بذلك.

سأل نيكليودوف وهو يتناول المغلف:

– لماذا كان على هؤلاء البائسين أن يتألموا هذا الألم؟

رفع توبوروف رأسه وهو يبتسم، كأن هذا السؤال أدخل السرور إلى نفسه.

– أنا عاجز حقاً على الجواب. لنقل فقط إن مصالح الشعب الذي نحن المدافعون الغُيُر عنه لها أهمية عظمى بحيث أن الحمية الزائدة عن حدّها في المسائل المتعلقة بالعقيدة أقل خطراً من اللامبالاة الدينية المفرطة التي أخذت تزداد.

– لكن كيف يجوز أن تُنْقَض، باسم الدين، الأسس الأولية للحب العائلي، وذلك بتشتيت شمل العائلات.

ابتسم توبوروف من جديد بتسامح، كان واضحاً أنه يجد كلام نيكليودوف باعثاً على السرور. فمهما يقل نيكليودوف يجده توبوروف من أعلى مركزه الحكومي الذي يشغله، باعثاً على السرور:

– من وجهة نظر فرد ما، يمكن أن يبدو الأمر كما ذكرتَ، لكن من وجهة نظر الحكومة، المسألة مختلفة. احتراماتي، أيها الأمير!

بذلك أنهى توبوروف كلامه وهو يمد يده ويحني رأسه.

شدّ نيكليودوف يده، دون أن يجيب، وخرج مسرعاً، خجلاً من هذه المصافحة.

وفكّر وهو يخرج من بيته: «مصالح الشعب! الأولى أن تقول: مصالحك أنت، ولاشيء غير ذلك!».

ورأى بفكره صور هؤلاء الموظفين الكبار الذين يحكمون على امرأة مسكينة لأنها باعت خمراً مهرّباً، وعلى صبي سرق، وعلى متشرّد، ومضرم لحريق، ومصرفي. ولا ننسَ ليديا المسكينة لكونها شاهداً مزعجاً؛ ولا هؤلاء الفلاحين لأنهم اعتدوا على الديانة الأرثوذكسية، ولا غوركييفتش لأنه رغب في الدستور، كل ذلك من أجل تطبيق العدالة، وإنقاذ العقيدة، وتربية الشعب!

لقد أدرك بصفاء ذهني بالغ أن هؤلاء الناس قد زُجَّ بهم في السجون ونُفوا، لا لأنهم ارتكبوا جرائم في حق العدالة أو القانون، بل لأنهم كانوا يريدون أن يمنعوا الموظفين والأغنياء من التمتّع بالخيرات التي انتزعوها من الشعب.

كانوا يعدّون هذه المرأة التي تبيع خمراً مُهربة، وهذا السارق الذي يتسكع في شوارع المدينة، وليديا وتصريحاتها، وهؤلاء المتشيعين الذين يحاربون الخرافات، وغوركييفتش ودستوره، كانوا يعدّون هؤلاء جميعاً عقبات في طريقهم. وبدا واضحاً لنيكليودوف أنْ لا أحد من بين جميع الموظفين، بدءاً من زوج خالته، ومستشاري النقض،

وتوبوروف، حتى صغار الموظفين الشديدي النظافة، الجالسين وراء طاولاتهم في الوزارات لا أحد منهم يهتم بالأبرياء الذين يتألمون. ما كان لهم من همّ إلا استئصال الأفراد الخطرين.

لم يكونوا ينتهكون فقط المبدأ القاضي بالصَفْح عن عشرة مجرمين لكي لا يُحكم بريء[٣٤]، لكنهم كانوا يقطعون اللّحم الحي لكي ينظّفوا الجرح، وذلك بالحكم على عشرة أبرياء لاستئصال فرد واحد خطر حقاً.

بدا هذا التفسير لنيكليودوف بسيطاً جداً وواضحاً جداً حتى أنه تردد في قبوله. ذلك أن أحداثاً بهذا التعقيد لا يمكن أن تقبل تفسيراً بهذا التبسيط. فكل هذا الكلام عن العدالة والخير والقانون والدين والله وهلم جراً لا يمكن مع ذلك ألا يكون سوى ألفاظ فارغة تخفي أحطّ جشع وأبشع وحشية.

× × ×

٣٤- الصفح عن عشرة... هذا المبدأ أعلنه بطرس الأكبر في نظامه العسكري سنة ١٧١٤، وكررته كاترين في تعليماتها سنة ١٧٦٩. لكنه لسوء الحظ لم يطبق إلا نادراً.

-٢٨-

كان بـود نيكليودوف أن يغادر بطرسبرج هـذا المساء، لكنه وعد ماريـيـت أن يذهب ليلقاها في المسرح. ومع أنه أدرك أن واجبه يقتضيه عدم الذهـاب، إلا أنه كان يكذب على نفسه قائلاً لها: إنه مُضطر إلى الوفاء بوعده. وكان يقول لنفسه، فضلاً عن ذلك، إن هذه آخر مناسبة تُتاح له لكي يرى مرة أخرى هذا العالم الذي كان عالمه من قبل والذي سيغـدو غريباً عليه منذ اليوم. وفكّر: «سأجابه مغرياته للمرة الأخيرة، سأنظـر إليه وجهاً لوجه للمرة الأخـيرة!». فكّر في ذلك مع إحساسه بأن هذه الفكرة لم تكن صادقة تماماً.

نهض عن الطاولة، حالما انتهى العشاء. فلبس ثيابه الرسمية وتوجّه إلى المسرح الذي وصل إليه بعد رفع الستار بزمن طويل. كانت «غادة الكاميليـا» الخالـدة تُمثّل، وكانـت الممثلة الفرنسية الشهـيرة(٣٥) تُري الجمهور الطريقة التي ينبغي أن تموت بها النساء المسلولات.

إستقبـل المراقبون نيكليودوف، عنـد باب المسرح، باحترام خاص

٣٥- الممثلة الفرنسية الشهيرة: لعلها ساره برنار.

عندمـا علمـوا مَنْ الشخصية الرفيعـة التي دعته. فبـادروا إلى مرافقته حتى مقصـورة ماريـت وكان وصيفها واقفاً، أمـام مقصورتها، في بزّة الإحتفـالات الساهرة، فحيّا نيكليودوف تحيـة الشاكر للجميل، وأدخله المقصورة.

كانت جميع الأنظار في القاعة محدّقة في ممثلة بارزة العظام، قبيحة الشـكل، مسنّـة، ترتدي الحريـر والدنتيلا، تُلقـي مونولوجاً بصوت متقطع متصنع. وعندما دخـل نيكليودوف المقصورة ولفحت وجهه نسمتان من الهواء إحداهما باردة والأخرى حارة، التفت أحد النظارة نحوه، ولفظ: «شوت» بسخـط، احتجاجاً على ضوضاء الباب التي عكّـرت صَفْوَ تأمله. كان في المقصورة قرب ماريت رجلان وسيدة، سيدة بدينة بفستان أحمر، وعقيصة ضخمة. وكان أحد الرجلين زوج ماريـت، ولم يره نيكليودوف من قبـل. كان طويلاً، حسن الهيئة، له صدر محدّب، ووجه بارد وقاس، وأنف معقوف. وكان الرجل الآخر قصيراً، أشقر، سميناً، له شاربـان رماديان بين سالفيه. كانت ماريت جالسـة في مقدمة مقصورتها، مليحة، ناعمة، أنيقة، في فستان عاري الظهـر والصدر، يكشف كثيراً عن كتفيهـا المدورتين والممتلئتين، مع شامـة سوداء عند أول العنق. استـدارت هي أيضاً على صوت الباب. ابتسمـت لنيكليودوف، وهي تشير له إلى كرسـي موضوعة وراءها، ابتسامـة أنيسة بدت له مثقلة بالمعاني. حيّا زوجها القادم الجديد بإيماءة مـن رأسه، فعل ذلـك بالهدوء الذي يعالج بـه كل أعماله، وبعد ذلك ألقى على زوجته نظرة راضية، نظرة المالك لامرأة جميلة وأنيقة.

عندمـا انتهى المونولـوج ضجت القاعة بالتصفيـق. وعلى الفور،

نهضت ماربيت ومضت إلى صدر المقصورة، وهي تمسك طرف فستانها بيد، لكي تقدّم نيكليودوف لزوجها. فمدّ هذا يده إلى المدعو، دون أن يكف عن الإبتسام بعينيه لامرأته وقال له بهدوء: إنه سعيد بالتعرف إليه، وتلك كانت نهاية الحديث بينهما.

قال نيكليودوف وهو يلتفت نحو المرأة الشابة:

– كان ينبغي أن أسافر هذا المساء، ولولا الوعد الذي وعدتك به لسافرت!

فأعلنت ماريت التي استشفّت، مرة أخرى، فكرة نيكليودوف:

– إذا كان لا يسرّك أن تراني، فَلْتُسر، على الأقل، بأن ترى وتسمع ممثلة عظيمة.

والتفتت إلى زوجها، وسألته:

– كم كانت جميلة، أليس كذلك، في هذا المشهد الأخير؟

اكتفى الزوج بأن حنى رأسه.

فصرّح نيكليودوف:

– أعترف لكِ بأن ذلك كله لا يهزني كثيراً. لقد رأيتُ اليوم كثيراً من البؤس الحقيقي حتى...

– هيا، اجلس هنا وحدّثني عن كل شيء!

كان الـزوج يصغـي بشـرود إلى الحديـث، وهو يبتسـم بسخرية متزايدة.

– ذهبـت إلى منزل تلك البائسة التـي أُطلق سراحُها أخيراً، بعد أن احتفظوا بها في السجن زمناً طويلاً. مخلوقة مُحطّمة إلى الأبد!

فأوضحت ماريت لزوجها:

هذه هي المرأة التي حدّثتك بشأنها.

أجـاب الزوج، وهـو ينهض ليذهـب ويدخن سيجـارة في صالة التدخين:

– آه! نعم، كنت سعيداً جداً بأني استطعت إخلاء سبيلها.

ظل نيكليودوف جالساً ينتظر أن تقص عليه ماريت ما وعدت أن تقصه عليه. لكنها لم تقل شيئاً، وأخذت تمزح: كانت تناقش المسرحية التي لابد، في اعتقادها من أن تثير اهتمامه الشديد.

وسرعـان ما أدرك أن ليس عندها ما تقولـه له، وأنها ترغب، بكل بساطة، في أن تظهر أمامه بكل ما في زينتها المسائية من بهاء، بكتفيها العاريتـين وشامتها عند بداية العنق. ولقد أوحـى هذا الإكتشاف إلى نيكليـودوف بمزيج من السـرور والنفور. كان السـرور آتياً من سحر ماريت الخارجي، لكنه شاهد، في الوقت نفسه ما كان مخبّأ تحت هذا السحـر، فأثار ذلك نفـوره. كان يستمتع بمـرأى ماريت، لكنه كان يقول في نفسه: إن هذه المرأة الجميلة كاذبة، وأنها راضية أعظم الرضا

بعيشتهــا مع هذا الزوج النــذل. وكل ما قالته له البارحــة كان مزيّفاً، ولم يكــن لها من هــم إلا أن تَحْمله علــى الشغف بهــا. كان هذا أيضاً كريهــاً ومستساغاً في الوقت نفسه. وقد نهض عدة مرات عن كرسيه ليستأذن ثم جلس. لكن عندما عاد الزوج أخيراً إلى المقصورة، ورائحة التبغ تفوح من شاربيه الكثيفين، وعندما ألقى على نيكليودوف نظرته الساخــرة، لم يستطع الأمــير أن يقاوم، فانتهز انفتــاح باب المقصورة واندفع إلى الرواق.

عندمــا كان يمر في شارع نيفسكي، ليعــود إلى منزل خالته، شاهد أمامــه امرأة طويلة القامــة، حسنة الهيئة، واضحــة الأناقة في لباسها. جميــع المارة كانوا يلتفتون لينظروا إليهــا. فحثّ نيكليودوف خطاه، وأدركهــا لينظر إليها بــدوره. كانت امرأة مخضّبــة بالمساحيق، لكنها كانت جميلة القسمات. ابتسمــت لنيكليودوف بعينيها الضاحكتين وعلى الفــور تذكّر ماربيت: إن مرأى هذه المخلوقة ترك في نفسه الأثر نفســه الذي استشعره في مقصورة المســرح الفرنسي: الإغراء الممتزج بالاشمئــزاز. فــولّى هارباً، ثائــراً على نفســه، وجــرى راكضاً حتى «مورسكايا» حيث أخذ يتمشى طولاً وعرضاً، مما أثار دهشة الحرّاس.

وحــدّث نفسه: «هاتان الابتسامتان تحملان معنى واحداً. والفرق الوحيــد هــي أن هذه المــرأة تتكلم بصراحــة، وعلانيــة، بينما تتظاهر الأخرى بأنها تشعر بمشاعر أكثر إرهافاً. اللبّ واحد، لكن هذه تقول الحقيقة، بينما تكذب تلك».

تذكّر نيكليودوف علاقاته مع امرأة صديقه، وتوافدت على ذاكرته

طائفة من الذكريات المخجلة. وقال في نفسه: «رهيب استمرار الوحش في الإنسان! وحين نعرفه على حقيقته، نبقى كما كنا قبل معرفته، سواء انقذْنا له أم قاومناه. وحين تختبئ هذه الحيوانية خلف مظاهر شعرية مزعومة، وحين تطمح إلى أن توحي إليك بالاحترام، بدلاً من أن تظهر لك بكل حقارتها، حينذاك يُقضى علينا.. الوحش فينا إذ ذاك يُلغي الإنسان، ونحن عاجزون إذ ذاك عن تمييز الخير من الشر. عن هذا أفظع من كل ما سواه!

كان نيكليودوف يرى ذلك الآن بالوضوح الذي يرى فيه أمامه القصر والقلعة والنهر والمراكب والعربات. وكما أن الظلمات لم تغط المدينة، في هذه الليلة، وإنما كان كل شيء مضيئاً بنور كئيب وشاحب، كذلك أحس نيكليودوف بأن جميع ظلمات اللاشعور قد تبدّدت فيه، وحل محلها نور باهت وكئيب. وكل ما كان يُعدُّ هاماً وصالحاً لم يكن في الحقيقة سوى باطل وعار. وكل ما في الحياة الحديثة من بريق أو ترف كان يغطي عيوباً قديمة قِدمَ العالم، عيوباً تنبع من أشد أعماق الحياة البشرية حيوانية.

تمنى نيكليودوف لو ينسى هذا الإكتشاف، لو يغيب هذا الإكتشاف عن نظره، لكنه لم يكن قادراً على ذلك. فلقد تولّد فيه شعور جديد يترافق فيه فرح اليقين والتخوّف المؤلم.

× × ×

-٢٩-

مــا إن عاد نيكليودوف إلى موسكو حتى توجّه إلى مشفى السجن ليُعلن لماسلوفا أن طلبها رُدَّ، وأن عليها أن تستعد للسفر إلى سيبيريا.

وكان في جيبه التماس العفو الذي سيوقعه منها. لكنه لم يكن يعوّل كثيراً على هذا العفو، بل الغريب أنه لم يعد يرغب فيه. لقد ألف تفكيره فكــرة الذهــاب إلى سيبيريا، والحياة بين المحكومــين بالأشغال الشاقة والمُبعديــن؛ وكان يجد مشقة في تصور ما سيصنع بنفسه وبماسلوفا لو قُبل التماس العفو. وتذكّر جملة للمؤلف الأمريكي تورو[٣٦]، في فترة الرقّ في الولايات المتحــدة، تقول: إن المكان الوحيد المناسب للرجل الشريــف، في بلد يسوده الرق، هو السجن. وكل ما رآه في بطرسبرج كان من شأنه أن يُعيد هذه الجملة إلى ذاكرته.

أقبــل عليه حارس المشفى الذي عرفــه لينبئه بأن ماسلوفا نُقلت من المشفى.

– وأين هي!؟

٣٦– تورو: هنري تورو (١٨١٧ –١٨٦٢) دعا إلى إلغاء الرق.

- عادت على قسم النساء.

- و لِمَ أُعيدت؟

أجاب الحارس بابتسامة احتقار:

- يا صاحب السيادة، هذا جنس حقير من الناس! لقد ارتكبت حماقة مع الممرض، فطردها رئيس الأطباء.

ما كان نيكليودوف ليصدّق أن ماسلوفا وعواطفها الخاصة بها تَعنيه إلى هذا الحد. لقد كانت أقوال الحارس بالنسبة إليه مثل ضربة دبوس. ساوره شعور شبيه بالذي يساورنا حين نتلقى نبأ فاجعة كبيرة حدثت على حين غرة. فاستولى عليه ألم مبرح انتزع منه كل تفكيره. وعندما استعاد وعيه، شيئاً فشيئاً، أدرك أن ما سيطر عليه كان الخجل. خجل من الفرح الذي كان قد أحس به من قبل حين ظن أن ماسلوفا تغيّرت. ذلك أن كل الأقوال الجميلة التي قالتها له لترفض تضحيته، وأن لومها كله ودموعها كلها، أن ذلك كله لم يكن سوى تمثيلية مثّلتها حقيرة أرادت أن تخدعه وأن تُبرز مزاياها.

خُيل إليه الآن أنه لاحظ فيها، منذ آخر حديث بينهما، أمارات هذا الفساد الذي لا سبيل إلى الشك فيه، بعد الآن.

تساءل: «ماذا ينبغي أن أفعل في الوقت الحاضر؟ أما أزال مرتبطاً بها، أم أن سلوكها خلّصني من كل رابط؟».

وما كاد يطرح هذا السؤال على نفسه حتى أدرك أنه حين يهجر ماسلوفا مرة أخرى، فإنما يعاقب نفسه. فأرعبته هذه الفكرة.

«لا، إن ما وقع لا يمكن أن يُعدّل قراري، ولا يمكن أن يكون له من أثر سوى تدعيم ذلك القرار. إن هذه المرأة، حين تصرفت على هذا النحو فإنما تمتثل لطبعها الذي منحتها إياه ظروف الحياة. أما أن «ترتكب حماقات» مع ممرض، فذلك شأنها! وعلي أن أتمم ما يتطلبه مني ضميري. وضميري يتطلب أن أضحي بحريتي للتكفير عن إساءتي!» كان يكرر هذا الكلام بعناد ممتزج باللؤم، وهو يمشي بخطاً واسعة عبر الممرات. وعندما بلغ باب الصالة الكبرى رجا الحارس أن يخبر المدير بأنه يرغب في مقابلة ماسلوفا. فأنبأه الحارس الذي كلّمه عدة مرات من قبل، بنبأ كبير: لقد أُحيلَ النقيب على التقاعد وحلّ محله مدير آخر، أشد صرامة منه، بما لا يقاس. وأضاف وهو ذاهب ليخطر المدير الجديد:

– ستغدو الحياة أقسى، الآن

لم يلبث المدير الجديد أن جاء. كان رجلاً طويلاً، نحيلاً، عابس الوجه، بارز الوجنتين. وأكّد دون أن ينظر إلى نيكليودوف.

– لا تجوز مقابلة السجناء خارج أوقات الزيارة النظامية!

– ذلك لأني أحب أن توقع لي على التماس للعفو.

– ما عليك إلا أن تسلّمني إياه.

– أنا بحاجة ماسة إلى أن أرى السجينة ماسلوفا لحظة. كانوا حتى الآن يسمحون لي بذلك.

فحسم المدير الجدال دون أن يرفع بصره إلى الزائر:

– إن كثيراً من الأشياء التي كانت تُعمل حتى الآن لن تُعمل بعد الآن.

فأصر نيكليودوف الذي أخرج محفظته:

– إن معي إذناً من الحاكم.

قال المدير حينئذ:

– اسمح لي به.

تناول الورقة بيديه الطويلتين المعروقتين وقرأها ببطء، وقال:

– تفضل وادخل المكتب.

كان المكتب خالياً. جلس المدير إلى طاولة وأخذ يتصفّح أوراقاً عليها. كان واضحاً أنه ينوي حضور المقابلة. ولما سأله نيكليودوف إن كان يستطيع أيضاً أن يرى سجينة سياسية، بوغودو كفسكايا، أجاب المدير بلهجة موجزة أن ذلك مستحيل. وصرح مرة أخرى، وهو مستغرق في قراءة أوراقه:

– زيارات السجناء السياسيين ممنوعة!

أحسّ نيكليودوف الذي كان يحمل رسالة إلى بوغودو كفسكايا، أنه في وضع المشتبه به: فقد يفتّشونه ويستَبْقونه في السجن.

عندما دخلت ماسلوفا المكتب، رفع المدير رأسه واكتفى بأن قال، دون أن ينظر إلى نيكليودوف:

– تستطيعان أن تتحدّثا!

ثم استغرق في أوراقه من جديد.

كانـــت ماسلوفا ترتدي ثياب السجـــن، بسترتها البيضاء وخمارها على رأسها. وإذ شاهدت ملامح وجه نيكليودوف الجافية والعدائية، احمـــرت وخفضـــت عينيهـــا، وهـــي تمســـك بثنيـــة سترتهـــا. فـــرأى نيكليـــودوف في وضعها ما يؤيّد روايـــة الحارس. بيد أنه أراد، من كل قلبـــه، أن يعاملها كما عاملهـــا، في المرّات السابقة. لكنه عندما أراد أن يمد يده إليها، استحال عليه ذلك، لفرط ما شعر بالكره لها.

قال لها بصوت هادئ، دون أن ينظر إليها:

- إني أحمل إليك نبأ سيئاً. لقد رُدّ اعتراضُكِ.

أجابت بصوت خافت:

- كنتُ أعلم ذلك مسبقاً.

كان نيكليودوف سيسألها، في أية ظروف أخرى، لماذا تقول ذلك، لكنـــه اقتصر، هذه المرة، على النظـــر إليها، فـــرأى أن عينيها طافحتان بالدموع. فأثار هذا النظر سخطه عليها، بدلاً من أن يثير عطفه.

نهض المدير وأخذ يمشي جيئة وذهاباً.

حَسِـــبَ نيكليودوف أن من واجبـــه التعبير عن أسفه لرفض طلبها، بالرغم من سخطه. فقال:

- لا تيأسي، إذ بوسعنا التعويل على التماس العفو، لأن...

فأجابت وهي تحدّق فيه بعينيها المبللتين بالدموع كالشاكية:

– اوه! ليس هذا هو ما... ذهبتَ إلى المشفى وقيل لكَ...

رد نيكليودوف بلهجة جافة. مقطباً حاجبيه:

– باه! هذا لا يخص أحداً غيركِ!

إن ذكرَها للمشفى أيقظ فيه ذلك الإحساس الحقير بكبريائه الجريحة. وأخذ ينظر إليها بعينين خبيثتين، وهو يقول في نفسه: «رجل من المجتمع الراقي مثلي، تتمنى أكثر الفتيات ارستقراطية أن تتزوج به، يتقدّم للزواج بهذه المرأة، فلا تستطيع أن تنتظر، وتعبث وتسيء السلوك مع ممرض!».

قال وهو يضع على الطاولة ورقة كبيرة أخرجها من محفظته:

– هيا، يجب أن توقّعي هذا.

مسحت ماسلوفا دموعها بطرف خمارها، وجلست إلى الطاولة، وسألته أين يجب أن توقّع. عيّن لها الموضع؛ وبينما كانت توقّع ظل واقفاً أمامها يتأمل ظهرها المنحني الذي كانت تهزّه بين لحظة وأخرى زفرات لم تُحسن كبتها.

بدد الصراع من جديد، في قلب نيكليودوف بين العواطف الخيّرة والعواطف الشريرة، بين كبريائه الجريحة وشفقته عليها. وانتهت هذه العاطفة الأخيرة بالانتصار. هل فكّر أولاً في أن يرثي لها، أم أنه تذكّر أخطاءه،وهي من نوع تلك التي لامها عليها؟ لقد أحسّ بنفسه مذنباً، فرثى لها. بيد أنها نهضت حين انتهت من الكتابة، وفركت بتنورتها أصابعها الملطّخة بالحبر، ثم نظرت إليه.

قال لها نيكليودوف:

– مهما يحدث لك، ومهما تفعلي، فلن يبدّل قراري شيء.

إن تفكيره في أنه كان يغفر لها قوّى فيه شفقته عليها. أحسّ بحاجة ماسة إلى مواساتها:

– ما قلتُه سأنفّذه. أينما ذهبت فأنا ذاهب معك.

قاطعته وقد احمرت:

– لا جدوى من ذلك.

– فكّري جيداً فيما ستحتاجين إليه في الطريق!

– لن أحتاج إلى شيء، شكراً!

اقترب المدير منهما، فاستأذن نيكليودوف ماسلوفا، وخرج دون أن ينتظر لحظة، وهو يشعر بالطمأنينة العميقة وبحب للإنسانية، وذلك شعور لم يخامره من قبل.

قال في نفسه بفخر: «من الواضح أن لا شيء مما تفعله ماسلوفا يمكنه أن يغير تعلّقي بها. لتسِئ التصرف مع الممرضين، فهذا شأنها. وعلي أن أحبها، لا من أجلي أنا، بل من أجلها هي ومن أجل الله!».

أما كيف ارتكبت ماسلوفا «حماقات» مع الممرض، فهذه هي قصتها، في حقيقة الأمر. أرسلتها الممرضة ذات يوم لتحضّر شاياً

نافعـاً للصدر من الصيدليـة، فالتقت فيها الممرضـ أوستينوف، وهو رجل طويل القامة، ممتلئ الوجه بالبثور، كان يلاحقها منذ زمن بعيد. احتضنها فدافعـت عن نفسها، وتخلّصت منه بعنـف شديد حتى أنه صـدم رفـاً جداريـاً، فتحطمت زجاجتـان كانتا عليـه. وفي اللحظة نفسهـا، كان رئيسـ الأطباء مـاراً في البهو، وسمع صـوت الزجاج المحطّم، ورأى ماسلوفا هاربة، وهي حمراء، مشعّثة الشعر فصاح:

- إسمعي، يا بنتي، إذ كنتِ قد بدأت تصخبين هنا، سوف أطردك على الفور.

وسأل الممرض، وهو ينظر إليه بصرامة من فوق نظارته:

- ما الأمر؟

بـدأ اوستينوف قصة طويلـة، وعلى وجهه ابتسامـة باهتة، وألقى الذنب كله على ماسلوفا. لم يدعه الطبيب يُنهي كلامه.

وطُردت ماسلوفا من المشفى، في المساء نفسه، بناء على طلبه.

لم يحزنها هـذا الطرد كثيراً، لكن السبب الـذي عُلِّلَ به الطرد قد هزّها ولاسيما أن التفكير بأي تماس جسدي مع أي رجل كان يُرعبها. لا شـيء كان يشعرها بالمذلة الشديدة مثل اعتقـاد الرجل، بسبب من ماضيها، أن له الحق في امتلاكها. وعندما اقتربت من نيكليودوف في المكتب، كان في نيّتها أن تُبرّئ نفسها من التهمة الظالمة، الموجّهة إليها. لكنها أحست، منذ الكلمـات الأولى التي قالتها أنه لن يصدّقها. ولن تؤدي الإعتذارات، في هذه الحالة، إلا إلى تثبيت شكوكه، فصمتت.

ظلت ماسلوفا تتصور أنها لن تصفح عن نيكليودوف، وأنها كانت تكرهــه، كما قالت له أثناء زيارته الثانية. والواقع أنها عادت إلى حبها له، منذ الزيارة الثانية. كانت تحبّه حباً بلغ من قوته أنها كانت تفعل كل شــيء، لا شعورياً، كما كانت تقدّر أنه يريد منها أن تفعله: فكفّت عن الشراب والتدخين والتفكــير في الرجال. وقبلتْ أن تخدم في المشفى إرضاءً له. وإذا كانت فخورة بالطريقة التي بها رفضت عرضه، في المرة الأولى. وهــي تجد الآن في الإصرار على موقفهــا ما يرضي كبرياءها، لكنها كانــت تحس أيضــاً أن زواجها بنيكليــودوف سيكون مصدراً للآلام بالنسبة إليه. فآلت على نفسها ألاّ تقبل تضحيته، لكن قلبها، في الوقــت نفسه، كان ينزف دماً حين تتصوّر أنه يحتقرها ويظنها مؤهّلة لأن تبقى أبداً، كما كانت، وأنه لن يتبين أبداً التغيّر الذي حدّث فيها. إن شكــه بأن قد كان لها علاقة بالممرض، هــذه الفكرة كانت تعذّبها أكثر بكثير من نبــأ رفض طلب النقض، أو من احتمال سفرها القريب إلى سيبيريا.

× × ×

-٣٠-

كان من الممكن أن تكون ماسلوفا في عداد القافلة الأولى، حتى أنه لم يكن لدى نيكليودوف وقت يضيعه، لتسوية أعماله قبل سفره، لكنه كان يحس إحساساً قوياً أنه لن يُتاح له أبداً تسوية كل شيء. ذلك أن وضعه غدا مختلفاً عما كان عليه في الماضي. كان، فيما مضى، يُتعب نفسه للعثور على ما يشغل به وقته، وكان لمشاغله كلها غرض وحيد هو دميتري ايفانوفتش نيكليودوف. وبالرغم من ذلك كانت مشاغله إذ ذاك تبدو له مضجرة ضجراً قاتلاً. أما الآن فكانت مشاغله تتجه إلى الآخرين، وتحظى باهتمامه، وتستهويه، وكان عددها لا حد له. ويمكن أن تنقسم الأعمال التي كانت تشغله في هذه الفترة إلى أربع فئات، أو على الأقل، هكذا صنّفها هو، بما فيه من هَوَسٍ بالنظام المائل إلى التحذلق، أربع فئات في أربع إضبارات مختلفة.

كانت الفئة الأولى تضمّ جميع الأعمال المتعلقة بماسلوفا. ومن هذه الناحية، كان يرى نفسه عاجزاً، بشكل مؤقت، عن العمل، إذ كان كل شيء خاضعاً للاستقبال الذي سيلقاه التماس العفو. وكانت الفئة الثانية تضم مختلف الأعمال المتعلقة بثروة نيكليودوف. ففي قرية

بانوفو التي ورثها عن عمّتيه، وهب نيكليودوف أرضه للفلاحين، من غير أن يطلب منهم شيئاً مقابل ذلك، سوى دفع دخل مخصص للحاجات العامة. أما في كوزمنسكوي فقد ترك الأشياء في الحالة التي كانت عليها عندما سافر منها: إن ريع الأرض يجب أن يدفع له هو نفسه. وبقي عليه فقط أن يحدد أجَل الدفع، وأن يقرر ما المبلغ الذي سيحتفظ به لنفسه والمبلغ الذي سيسلّمه إلى الفلاحين. وهنا أيضاً، رأى نيكليودوف نفسه مضطراً إلى أن ينتظر، لجهله كمية النفقات التي ستفرضها عليه رحلته إلى سيبيريا، وهي رحلة أخذ وقوعها يبدو أكثر احتمالاً من يوم إلى يوم، وكانت الفئة الثالثة تضم المعونات التي يقدّمها للسجناء الذين أخذوا يلتمسون عونه بأعداد لا تني تتزايد. ووجد نيكليودوف صعوبة قصوى في الإهتمام بكل سجين على حدة، لكثرة عدد السجناء. ثم إن النتائج الضحلة لمساعيه الأولى لم تكن خليقة بتشجيعه. فوجد نفسه مسوقاً، شيئاً فشيئاً، على العناية بقضية أعم أخذت تطرق ذهنه منذ دخوله السجن. هذه القضية هي معرفة: لماذا وكيف أمكن أن تُخْلَق هذه المؤسسة المدهشة التي تسمى محكمة الجنايات والتي من نتائجها السجون، والسجون الإنفرادية، والقلاع، والتضحية بآلاف المخلوقات البشرية. ومن علاقاته الشخصية بالسجناء، ومن المعلومات التي قدّمها المحامي، ومرشد السجن، وأيضاً من الإحصاءات القضائية التي رجع إليها بأناة، استخلص هذه النتيجة وهي أن مجموع السجناء الذين يسمّون مجرمين يمكن أن يُورع بين خمس مجموعات.

إلى المجموعة الأولى ينتمي السجناء الذين هم أبرياء كلياً، لأنهم ضحية أخطاء قضائية: مثل المتهم ظلماً بإضرام الحريق منشوف، ومثل

ماسلوفا وغيرها. وعدد هؤلاء، بناء على قول المرشد، محدود جداً، نحو سبعة بالمائة، لكن وضعهم، بالمقابل، جدير باهتمام خاص.

المجموعة الثانية تحتوي على الذين حُكم عليهم في ظروف خاصة، مثل الهيجان والغيرة والسكر، وبالإختصار من أجل جرائم كان من المحتمل أن يرتكبها قضاة هؤلاء الناس في الظروف نفسها. كان هؤلاء السجناء كثيري العدد، نحو نصف مجموع السجناء، وفقاً لحسابات نيكليودوف.

وفي المجموعة الثالثة السجناء الذين حُكم عليهم لأنهم قاموا بأعمال ليس لها طابع الجريمة في نظرهم، لكنها تُعتبر جرائم في نظر المكلفين بإصدار القوانين وتطبيقها. مثل السجناء المتهمين ببيع الخمور المهرّبة والممنوع بيعها، ومثل سرقة العشب والخشب من الملكيات الخاصة أو العامة.

الصنف الرابع من المجرمين كان يضم جميع الذين حُكم عليهم لمجرّد أن لهم قيمة أخلاقية أعلى من متوسط المجتمع. مثل أعضاء مختلف الشيع الدينية، ومثل البولونيين والشركس الذين حكم عليهم لأنهم دافعوا عن استقلالهم، ومثل المعتقلين السياسيين الذين حُكم عليهم لعصيانهم السلطة.

وأخيراً الزمرة الخامسة التي تضم البؤساء الذين أجرم المجتمع بحقهم أكثر بما لا يقاس مما أجرموا بحق المجتمع. كانوا مُهملين، بلّدهم الضغط المستمر، كانوا رجالاً من نوع ذلك الصبي الذي

سرق المكانس، ومائة مسكين آخر ساقتهم ظروف الحياة، على نحو منهجي إن صح التعبير، إلى ارتكاب عمل يُعتبر إجرامياً. كان في السجن كثير من اللصوص والقتلة الذين ينتسبون إلى هذه الزمرة. وكان نيكليودوف يُلحِق بهذه المجموعة هؤلاء الفاسدين بطبيعتهم وفي أعماق نفوسهم، هؤلاء الذين سمتهم المدارس الحديثة: «المجرمين بطبيعتهم»، والذين يشكّل وجودهم أقوى حجة في يد الذين يدافعون عن ضرورة القوانين والعقوبات. إن هؤلاء الممثلين «للنموذج المجرم» المزعوم كانوا، هم أيضاً، بؤساء أخطأ المجتمع بحقهم أكثر مما أخطؤوا بحقه. لكن المجتمع، بدلاً من أن يكون مذنباً بحقهم وحدهم، أذنب أيضاً بحق آبائهم وأجدادهم، مما يجعل مسؤوليته نحوهم أكثر جسامة.

لقد أتيح لنيكليودوف أن يعرف في السجن لصاً كرر سرقاته يُدعى «اوكوتين». كان ابناً غير شرعي لإحدى بنات الهوى، وقد تربى في الملاجئ، ولم يصادف حتى الثلاثين إنساناً أوتي شيئاً من المشاعر الأخلاقية، وانتهى به الأمر إلى الانضمام على عصابة من اللصوص. وأصبحت السرقة مهنته الوحيدة. وكان يملك، مع هذا، عبقرية الإضحاك التي حبّبته إلى قلوب كل الذين كانوا يلاقونه. كان يطلب معونة نيكليودوف، وهو لا ينفك يسخر من نفسه، ويهزأ من رفاقه وقضاته،ومن جميع القوانين البشرية والإلهية.

وسجين آخر يدعى فيدوروف، قتل شيخاً ودفنه في الأرض، وذلك ليسرق منه بضعة روبلات. كان أبوه فلاحاً خرّب بيته ظلماً جار غني. لقد أوتي هذا السجين طبيعة محتدمة، مشبوبة العواطف،

نهمة إلى الملذات، و لم ير قط رفاقه إلا مشغولين بمتع الحياة؛ و لم يسمع قط، ولو مرة واحدة، أن للإنسان هدفاً في هذا العالم غير اللذة.

هذان السجينان أدهشا نيكليودوف بقوة. خُيل إليه أنه كان يمكن الانتفاع بهما في سبيل الخير. وقد جاء إجرامهما من رفض المجتمع الإهتمام بهما ليس غير. وإذا كان هذان السجينان، مع ما فيهما من عيوب، قريبين من نفسه، فإن كثيرين غيرهما أثاروا اشمئزازه ببلادة حسّهم أو بوحشيتهم. لكنه لم يتوصل إلى أن يتعرّف في هؤلاء أيضاً ذلك «النموذج المجرم» الشهير الذي كانت تتحدث عنه المدرسة الإيطالية[٣٧]؛ لم ير فيهم غير مخلوقات كريهة إلى نفسه، على المستوى الشخصي، شأنهم شأن كثير من الأشخاص الآخرين الذين أتيح له أن يلقاهم، لا في السجون، بل في قاعات الاستقبال، بالثياب الرسمية، ببزات الاحتفالات الرسمية، أو بفساتين الدنتيلا.

هذه هي مختلف أنواع الناس التي يكوّن مجموعها جمهور المجرمين.

أما القضية الرابعة التي كانت تشغل نيكليودوف فهي أن يتوصل إلى معرفة: لماذا ألقي بهؤلاء الناس في السجن فعُذّبوا بشتّى السبل، بينما يظل آخرون، من أمثالهم أو ممّن هم أدنى من بعضهم، أحراراً

٣٧- المدرسة الإيطالية: هذه المدرسة هي مدرسة «علم الجريمة الوضعي» التي أنشأها لومبروزو (١٨٣٥ -١٩٠٩) والتي كانت تنزع إلى تبرئة المجرم، إذ تفسر الجريمة بعوامل مستقلة عن إرادة المجرم (مثل الوراثة والاضطرابات النفسية الخ...) من تلاميذ لومبروزو غاروفالو (١٨٥١ -١٩٣٥) والاشتراكي «فيري» (١٨٥٦ -١٩٢٩).

يُعهد إليهم بمحاكمتهم والحكم عليهم. أمل نيكليودوف، في بداية الأمر، أن يجد جواباً عن هذه الأسئلة في الكتب. فبادر إلى شراء جميع المؤلفات التي تعالج هذا الموضوع. وقرأ بكثير من الإنتباه كتابات لومبروزو، وفيري، وموديسلين وتارد[٣٨]، وزملائهم في علم الجريمة. لكن هذه القراءة لم تكن سوى مصدر لخيبة أمل مريرة. وقع له الشيء نفسه الذي يقع عادة لإنسان أكبّ على دراسة العلم، لا ليلعب دوراً بين العلماء، ولا ليتمكّن من الكتابة والنقاش والتعليم، وإنما ليجد جواباً عن بعض الأسئلة البسيطة والعملية والحيوية. وإذا بالعلم الذي كان يدرسه يجيب عن ألف سؤال وسؤال في غاية الدقة والتعقيد، لكنه لا يجيب عن السؤال الذي طرحه على نفسه. مع أن هذا السؤال أبسط الأسئلة. كان نيكليودوف يسأل نفسه: لماذا وبأي حق يَسجن بعض الناس أناساً آخرين، ويعذّبونهم، وينفونهم، ويضربونهم، ويقتلونهم، مع أنهم هم أنفسهم شبيهون بضحاياهم. وبدلاً من أن يجيب العلماء الذين رجع إلى كتاباتهم عن هذا السؤال، راح بعضهم يتساءل إن كانت الإرادة البشرية حرة أم لا، وراح غيرهم يتساءل إن كان يجوز أن يُوصم إنسان بالجريمة بناء على منظر شكل جمجمته فقط. وتساءل آخرون إن كانت غريزة التقليد لا تلعب دوراً في الميل إلى الجريمة.. وكان العلماء يتساءلون أيضاً عن ماهية السلوك الأخلاقي، والإنحلال، والمزاج، والمجتمع، الخ، كما كانوا يدرسون تأثير المناخ والتغذية والجهل والتنويم المغناطيسي والأهواء في الجريمة.

٣٨- مودسلي ودي تارد: مودسلي (١٨٣٥-١٩١٨) أستاذ الطب الشرعي، وكان يعد المجرمين مرضى؛ تارد (١٨٤٣-١٩٠٤) عالم اجتماع فرنسي مؤلف الإجرام المقارن.

هــذه المؤلفات جميعاً ذكّرت نيكليودوف بالجواب الذي أجابه به صبي عائد مــن المدرسة. سأله نيكليــودوف إن كان يُحسن التهجية، فأجاب الصبي: «طبعــاً، أحسنُها!» «إذن هجِّ لي كلمة رِجْل»، فسأله الصبــي بمكر: –»لكن أية رِجْل؟ رجل الكلــب[٣٩]؟»– بهذه الطريقة نفسهــا، كان المؤلفــون الذين رجــع إليهم نيكليــودوف يجيبون عن السؤال الوحيد الذي استأثــر باهتمامه. وظل يقرؤهم، لكنه يَئِس من الانتفــاع بهم. بيد أنــه لم يعزُ غياب الجــواب إلا إلى الطابع السطحي لعلــم الإجرام؛ و لم يكن يبيح لنفسه أن يسلّم تسليماً تاماً بجواب أكثر جذريــة أخذ، مــع ذلك، يراود فكــره، في الآونة الأخــيرة، بوضوح أعظم.

× × ×

٣٩– رجل الكلب؛ سيجارة يلفها الفلاحون أنفسهم.

-٣١-

حُـدّد يوم الخامس من تمـوز موعداً نهائياً لسفـر قافلة المحكومين بالأشغال الشاقة التي ستكون ماسلوفا في عدادها. وقرر نيكليودوف أن يسافـر في اليـوم ذاته. وأخبر بذلـك أخته التي جـاءت إلى المدينة مـع زوجها، عشية سفره. كانت أخت نيكليـودوف، ناتاليا ايفانوفنا راغوجنسكي، أكبر منه بعشر سنوات؛ وكان لها تأثير عظيم في تربيته. أحبتـه، وهو طفل، حباً جماً؛ ثم ربط بينهما تفاهم تام حتى زواجها. ولقـد عشقت نيكولنكا إرتينييف، صديـق أخيها وموضع سرّه، لكنه مات فيما بعد.

وفسـدت أخـلاق ناتاليـا ودميـتري؛ أفسدت أخلاقه هـو حياته العسكريـة والاجتماعية، وأفسد أخلاقها هـي زواجها برجل كانت تحبـه حبـاً جسدياً فقط، رجل لا يجـد أدنى ميل إلى مـا كان دميتري وأختـه يعتبرانـه فيما مضى المثـل الأعلى للخير والجمـال. وأسوأ من ذلـك أنـه كان عاجزاً عن فهم ذلـك المثل الأعلى. إن تـوق ناتاليا إلى الكمـال الأخلاقـي، ورغبتها في أن تكون نافعـة، إن كل ما كان يملأ قلبهـا، كان زوجها يؤوّله بالطريقة التـي كانت في متناوله: كان يعزو

ذلك إلى إفراط في الأنانية ينضاف إلى رغبة مَرَضية في الإدهاش وإثارة الإعجاب بها.

كان راغوجنسكي رجلاً بلا ثروة، ومن منبتٍ متواضع. ولقد أتاحت له تفاهته الطبيعية، وروح الدسيسة فيه، ولاسيما ما أوتي من قدرة على إرضاء النساء، أتاح له ذلك كله أن يشغل مركزاً لامعاً في القضاء. كان عمره نحو أربعين عاماً عندما تعرّف بنيكليودوف. وأفلح في استدراج ناتاليا إلى حبه، فتزوجها بالرغم من ممانعة الأم التي كانت ترى هذا الزواج زواجاً غير متكافئ.

كان نيكليودوف يكره صِهْرَه، مع أنه كان يحاول أن يخفي هذا الشعور. كان يكرهه لسوقيّته، وضيق فكره، وادّعائه. وأكثر من ذلك، كان يكره فيه الشيء التالي وهو أن أخته استطاعت أن تُغرَم هذا الغرام الأناني بمثل هذه الطبيعة المنحطة، وأن هذا الغرام خنق كل ما كان فيها من نبل وجمال. لم يستطع نيكليودوف قط أن يتذكّر بلا ألم أن ناتاليا قد أصبحت زوجة لهذا الدب الغزير الشعر، ذي الصلعة اللمّاعة. حتى الأولاد الذين أنجبتهم كانوا كريهين إليه.. وكان كلما علم أنها حامل، أحسّ، على الرغم منه، أن أخته أصيبت بعدوى مرض خبيث، لدى احتكاكها بهذا الرجل الذي كان يثير اشمئزازه.

في هذه المرة، جاء الزوجان راغوجنسكي إلى المدينة بدون أولادهما. وعندما استقرّا في أحسن الغرف، في أفضل فندق، خرجت ناتاليا إفانوفنا وقصدت إلى بيت أمها القديم. وإذ علمت من أغرافينا بيتروفنا أن دميتري ترك سكنى هذا البيت، فتوجّهت على الفور إلى

الشقة المؤثثة التي يقيـم فيها. فلم تجده هناك أيضاً. أنبأها خادم، زري الهيئـة، استقبلها في بهو موحش يضيئه الغاز طـوال النهار، أن الأمير ليس في غرفته. فأوضحت له ناتاليا ايفانوفنا أنها أخت نيكليودوف؛ وطلبت أن تدخـل الشقة التي يشغلها، لكي تكتب له كلمة. وقبل أن تبـدأ الكتابة، لم تستطع أن تمنع نفسها مـن النظر بفضول إلى الغرفتين الصغيرتـين اللتين يسكنهمـا أخوها. وقد دهشت ممـا في السكن من بساطة شقّت عليها، وإن عثرت فيه على النظافة والنظام الدقيق اللذين عهدتهمـا فيه قديماً. وفَتَنَها أن رأت في مكتبه، فوق رزمة من الوثائق، ثقالَةَ الورق القديمة، المرمريـة، التي يزينها كلب من البرونز، وهي من بقايا البيت الأبوي. وابتهجت حين لمحت طرفي مقطع الورق العاجي الذي أعطته أخاها قديماً، خارجين من مجلّد ضخم، أخضر الغلاف.

عندمـا فرغت من فحصها للغرفة، كتبـت بطاقة إلى نيكليودوف، ترجـوه فيها أن يأتي لرؤيتها بأسرع وقـت ممكن. ثم عادت بعد ذلك إلى عربتها وأمرت حوذيها أن يوصلها إلى فندقها.

شيئـان اثنان كانـا يهمّانها، على وجه الخصوص: كانت تريد أن تعلـم إلى أيـن وصـل بالضبط زواجـه بكاترين، بعـد أن أخذ الجميع يتحدثـون عنه، حتـى في المدينة الصغيرة التـي تسكنها. وكانت تريد بعـد ذلك أن تصل إلى معلومات صحيحة بشـأن تنازله عن الأراضي للفلاحـين، وهو تنازل لعـل كلام الناس عليه كان أكـثر أيضاً، لأنهم أحبوا أن يصوروه وكأن له طابعاً سياسياً خطيراً كأخطر ما يكون.

إن الـزواج بكاتيوشـا كان يسرّ ناتاليا ببعضـ جوانبه. لقد أكبرت

القرار الــذي اتخذه أخوها في هذه المناسبــة، إذ عثرت في هذا القرار عليه بكلّيته، كما عثرت فيه على نفسها مثلما كانا أثناء شبابهما. لكنها لم تكــن تستطيــع، من جهة ثانيــة، أن تفكّر دون رعــب في أن أخاها سيتــزوج امرأة بغيضــة إلى هذا الحد. وكانت الغلبــة، في نهاية الأمر، لهــذه العاطفة الثانية بحيث قــررت أن تبذل قصارى جهدها لتصرف أخاهــا عن مشروع الزواج هذا. و لم تكــن تخفي على نفسها أن هذه المهمة ستكون شديدة الصعوبة.

أما مسألة تسليم الأرض للفلاحين فلم تكن، في أعماقها، لتبالي به، لكــن زوجها انفعل من جراء ذلك انفعــالاً شديداً. وقد طلب إليها أن تُصرّ على نيكليودوف لتردّه عن قراره. وكان «إغنائي نيكيفوروفيتش راغوجنسكــي» يقــول: إن هــذا القرار هــو منتهى الطيشــ والغرور واللاشرعيــة. ولا يمكن أن يُفسّر ألا بهوس التفرّد، وجذب انتباه الناس إليه.

وكاد يردد:

– ما معنى أن يهب أراضيه للفلاحين، مُجبراً هؤلاء الفلاحين على أن يدفعوا الأجر لأنفسهم؟ وإذا كان دميتري يحرص حقاً على التخلص مــن أراضيه. فقد كان بوسعــه أن يبيعها بواسطة مصرف الفلاحين[٤٠] سيكون لذلك معنى، على الأقل.

---

٤٠ – مصــرف الفلاحــين: مصــرف للدولــة تأسس سنــة ١٨٨٢ لكــي يسهل شراء الأراضي على الفلاحين.

وكان يصـرّح وهو يحلم بحجْـرٍ يمنحه حق الوصايـة على أملاك نيكليودوف:

- على كل حال، إن سلوكه ينمّ على حالة ذهنية غير طبيعية.

وأوصى زوجته أن تكلم أخاها جدياً بشأن فكرته الغريبة.

× × ×

-٣٢-

وجد نيكليودوف بطاقة أخته، عند عودته. فسارع قاصداً فندقها. كانت وحدها، في غرفة كبيرة تقوم مقام قاعة الإستقبال. أما زوجها فكان يقضي قيلولته في غرفة النوم. وكانت ناتاليا ايفانوفنا ترتدي فستاناً من الحرير الأسود مشدوداً على قامتها، وقد ازدان صدره بشريطة حمراء؛ وكان شعرها الأسود مصففاً، على آخر زي. وكان من الواضح أنها تبذل كل ما في وسعها لتبدو أنضر شباباً إرضاءً لزوجها.

حين شاهدت أخاها ركضت لاستقباله، بخطوات سريعة زادت من حفيف تنورتها الحريرية. تعانق الأخوان، وهما يتبسمان، وينظر كل منهما في عيني الآخر. وفي هذا التبادل للنظرات المليء بالأسرار، انكشفت نفساهما بعريهما. بيد أن تبادل الكلمات ما لبث أن تلا، بعد لحظة، تبادل النظرات، فغابت الحقيقة فيه.

لم يكن نيكليودوف قد رأى أخته منذ موت أمهما.

قال:

– لقد سمنتِ، وصرتِ أنضر شباباً.

ارتعشت شفتا ناتاليا من السرور، وهتفت:

- أما أنت فقد نحلتْ!

استخبر نيكليودوف:

- أليس إغناتي نيكيفوروفيتش هنا؟

- إنــه يستريح قليلاً، إذ لم ينم هذه الليلــة... أتعلم أنني ذهبت إلى حيث تقيم؟

- نعم، وجــدت بطاقتك. كنتُ مضطراً إلى تــرك بيتنا. إنه مفرط الإتســاع، وكنت أشعر فيــه بالوحدة الشديــدة وبالضجر. كل ذلك الأثــاث، كل مــا في البيت، لم أعد بحاجة إليــه؛ خذي كل ذلك لك، وافعلي به ما تشائين.

- حدثني اغرافينا بيتروفينا عن ذلك، أشكرك أعظم الشكر.

لكن...

في هــذه اللحظة، حمل خادم الفندق آنية الشاي على طبق فضي. فصمت نيكليودوف وأخته حتى انصرف.

هتفت ناتاليا وهي ترفع فجأة عينيها إلى أخيها الذي لم يجبها:

- اسمع، يا دميتري! أنا أعلم كل شيء...

وتابعت:

- أتستطيع أن تأمل حقاً في رد تلك المرأة إلى الخير، بعد الحياة التي عاشتها؟

لم يفــه نيكليودوف بكلمة، وظل يفكّــر في الطريقة التي يمكن بها

أن يوضح لأخته سلوكه دون أن يزعجها. كان يحسّ قلبه مفعماً، أكثر من ذي قبل، بفرحٍ هادئ، وبرغبة العيش بسلام مع جميع البشر.

قال أخيراً:

– ليس لي أن أردّها إلى الخير، بل أن أعود إليه، أنا نفسي.

تنهدت ناتاليا ايفانوفنا، وقالت:

–لاشك، لكنك تملك، من أجل ذلك، سبلاً أخرى غير الزواج.

– معك الحق، لكني أعتقد أن هذه السبيل هي أفضل السبل، إضافة إلى أنها تتيح لي بلوغ عالم أستطيع أن أكون نافعاً فيه.

تنهدت ناتاليا:

– أنا واثقة أن هذا الزواج سيكون سبباً في شقائك.

– لستُ معنياً بسعادتي.

– نعم، فهمتُ... إنما هي. إن كان لها قلب فلا يمكن لهذا الزواج أن يُسعدها، ولا يجوز أن تتمناه.

– ولذلك هي لا تتمناه.

– لكن، على كل حال... إن الحياة..

– ما لها الحياة؟

– الحياة تتطلّب شيئاً آخر

فأكّد نيكليودوف وهو يتأمل وجه أخته الجميل الذي أخذت السنون ترسم فيه غضوناً حول العينين والفم:

– الحياة لا تتطلب شيئاً إلا أن نقوم بواجبنا.

وتنهّدت:

– لستُ أفهمك.

وفكّر نيكليودوف في نفسه: «كم تغيّرتْ، تلك الأخت العزيزة المسكينة» وعادت إلى ذهنه ذكريات الطفولة، وغمرَ قلبه فيض من الحنان.

في هذه اللحظة، رأى زوج أخته يخرج من الغرفة المجاورة، رافعاً رأسه، على عادته، مُبرزاً صدره. كان يبتسم مجاملة، ورأى نيكليودوف عدستي نظارته، وجمجمته الصلعاء ولحيته السوداء تلتمع في آن واحد. هتف بلهجة متكلّفة:

– ما أسعدني برؤيك!

في بداية الزواج، حاول الإثنان أن يتخاطبا بضمير المفرد، لكن المحاولة لم تنجح، فعادا إلى ضمير الجمع.

بعد أن شد إناتي نيكيفوروفيتش على يد نيكليودوف تهالك برفق على مقعد، وهو يسأل:

– ألم أقطع عليكما حديثكما؟

– لا، فأنا لا أخفي عن أحد ما أقوله وما أفعله...

ما إن رأى نيكليودوف هذا الوجه السوقي، وهاتين اليدين المغطاتين بالشعر، وما إن سمع لهجة صوته المدّعية، المتعالية، حتى طار شعورُه بذلك الحلم الشامل.

أوضحت ناتاليا:

– كنا نتحدث عن مشروعه. أتريد شاياً؟

– نعم، بكل سرور. أي مشروع تقصدين؟

فأعلن نيكليودوف:

– مشروع ذهابي إلى سيبيريا، بصحبة امرأة محكومة بالأشغال الشاقة، امرأة أذنبتُ بحقها.

– بل لقد سمعتُ أنك لم تكتف باصطحابها، فقررت أن تفعل شيئاً فوق ذلك.

– بكل تأكيد. أنا مستعد للزواج بها، إن قبلتْ.

– حقاً؟ إذن سأكون شاكراً لك لو أوضحتَ لي دوافع سلوكك. أعترف بأني لم أفهمها.

– الدوافع هي أن هذه المرأة... هي أن أولى خطواتها في طريق الرذيلة...

لم يعثر نيكليودوف على التعبير المناسب، فزاد ذلك من سخطه.

وقال أخيراً:

– الدافع إلى سلوكي هو أنني أنا المذنب وهي المحكوم عليها!

– اوه! إن كانت قد حُكم عليها، فالأرجح أنها ليست بريئة، هي نفسها.

– عفواً، إنها بريئة كلياً!

وأخذ نيكليودوف يروي قصة دعوى ماسلوفا برمّتها، وهو مضطرب اضطراباً لا مكان له.

فقال راغوجنسكي بتبجّح:

– فهمت القضية. كل شيء جاء من إهمال الرئيس، ومن انعدام الروية لدى المحلفين. لكن هناك مجلس الشيوخ لتدارك هذا النوع من الأخطاء.

– مجلس الشيوخ رد طلب التمييز.

قال إغناتي نيكيفوروفيتش:

– وإذاً فالأسباب الموجبة للتمييز لم تكن كافية، فليس من اختصاص مجلس الشيوخ أن ينظر في القضايا من حيث جوهرها. وإذا كان هناك خطأ قضائي، وجب تقديم التماس العفو.

– تقدّمنا به، لكن دون كبير أمل بالنجاح. ذلك أن الوزارة ستقوم بالتحقيق، وسترفعه إلى مجلس الشيوخ، وسيرد مجلس الشيوخ بالنفي، وسيظل البريء محكوماً عليه، كما هي العادة.

فاعترض إغناتي نيكيفوروفيتش بابتسامة تنم على التنازل:

– عفواً، عفواً. أولاً، إن الوزارة لا ترفع الأمر إلى مجلس الشيوخ أبداً. إنها تطلب الملف، وإذا عاينت خطأ سجّلت النتائج التي تتوصل إليها. وثانياً، ليست العادة أن يُحكم على الأبرياء. وإنما المذنبون هم الذي يُحكم عليهم.

وقد أكّد راغوجنسكي ذلك دون أن يضطرب، وهو شديد الرضا عن ذاته.

استشاط نيكليودوف، وأخذ يحتدّ شيئاً فشيئاً على صهره.

– أراني مقتنعاً بالعكس. فقد لاحظت أن نحو نصف الذين تحكم عليهم المحاكم أبرياء.

– بأي معنى تفهم براءتهم؟

– إنهم أبرياء بأدق معاني هذه الكلمة، مثل تلك المرأة البريئة من تسميم أحد التجار؛ ومثل ذلك الرجل البريء الذي رأيته في الأيام والمتهم بجريمة قتل لم يرتكبها، ومثل هذا الفتى وأمه البريئين والمتهمين بإضرام حريق كان الفاعل الوحيد له هو صاحب المستودع الذي احترق.

– لا شكّ أنّه كان وسيبقى هناك أخطاء قضائيّة ، فالعدالة البشرية لا تستطيع أن تطمح إلى العصمة.

– إن الأغلبية العظمى من المحكوم عليهم أبرياء، لم يعتبروا الأعمال التي ارتكبوها إجرامية، وذلك بسبب نشأتهم في أوساط معيّنة.

قال اغناتي نيكيفوروفيتش متهكّماً، بابتسامة أثارت حنق نيكليودوف:

– عفواً! كل سارق يعلم أن السرقة ليست عملاً صالحاً، وأنه لا ينبغي أن يسرق، وأن السرقة عمل غير أخلاقي.

– كلا، إنه لا يعلم ذلك. يُقال له: لا تسرق، لكنه يرى صاحب العمل يسرق له عمله، ويرى الموظفين يسرقون له ماله...

فقاطعه إغناتي نيكوفوروفيتش بأرصن لهجة

– أتعلم أن ما تقوله لا يعدو أن يكون فوضوية؟

فثار نيكليودوف:

– لا قيمة للتسمية التي تسمي ذلك بها، أنا أقول ما هو كائن. هذا الرجل يعلم أن الموظفين يسرقونه. وهو يعلم أننا نحن، مُلاّك الأراضي، نسرقه لنستثمر من أجل مصلحتنا ما ينبغي أن يكون ملكية عامة. وإذا أخذ هذا الرجل من غاباتنا، بعد ذلك، بضعة أغصان من الخشب اليابس ليشعل ناره، سجنّاه، وأوهمناه أنه سارق. لكنه يعلم أنه ليس بالسارق وإنما السارق من استولى على الأرض؛ وهو، إزاء ذويه؛ يرى واجباً عليه استرداد الشيء الذي اختُلس منه.

– لستُ أفهمك، أو بالأحرى، إن كنتُ قد فهمتك فأنا آسف لأني لا أستطيع أن أكون على اتفاق معك. يجب أن يملك الأرض بالضرورة صاحب واحد. وإذا أنت قسّمتها اليوم إلى أقسام متساوية، فسوف تعود غداً إلى من هم أكثر جداً وموهبة.

قال إغنات نيكيفوروفيتش ذلك، وهو على ثقة مطمئنة، لا تقبل الجدل، بأن نيكليودوف اشتراكي، وبأن المذهب الاشتراكي يقوم على التوزيع المتساوي للأرض بين الجميع، وبأن هذه النظرية يسهل دحضها، نظراً لأن مثل هذا التوزيع سخيف تماماً.

– لكن، لم يتحدث أحد أيضاً عن تقسيم الأرض إلى أقسام متساوية. الأرض لا ينبغي أن يملكها أحد، لا ينبغي أن تكون غرضاً للبيع والشراء.

– إن حقّ الملكية طبيعي في الإنسان. وبدونه لن يجد الإنسان ميلاً إلى زراعة الأرض. إلغِ حق الملكية فسوف نعود إلى عهد المتوحشين.

أكّد إغناتي نيكيفورفيتش ذلك بلهجة حاسمة، مردداً الحجة المعروفة والتي تعتبر كأنها لا تقبل الجدل، والمؤيّدة للملكية العقارية، والتي مفادها أن جشع الناس للملكية العقارية دليل على ضرورتها.

– العكس هو الصحيح. فعندما لا يكون للأرض مالك، لن يبقى فيها بور كما هي الحال في أيامنا، التي حاول فيها مالك الأرض، كالكلب في بيته، إبعاد من يستطيعون استثمار الأرض عن الأرض.

– إسمع، يا دميتري ايفانوفتش، ما تقول ضرب من الجنون. أمن

الممكن أن يُلغى حقُّ الملكية، في عصرنا؟ إني أعلم أن هذه الفكرة الأثيرة تسيطر عليك، منذ زمن بعيد، فاسمح لي أن أقول لك ذلك بصراحة.

شحب وجه إغناتي نيكيفوروفيتش، وأخذ صوته يتهدّج. ومن الواضح أن هذه المسألة، على عكس ما سبقها من مسائل، كانت وثيقة الصلة بنفسه. فأعلن:

– أنصحك، بكل صدق، أن تفكّر أيضاً في هذه القضية، قبل أن تضع أفكارك موضع التطبيق.

– أتقصد قضيتي الشخصية؟

– نعم، إني أرى أننا جميعاً نشغل وضعاً معيناً، وعلينا أن نقبل بالمسؤولية التي تنتج عن وضعنا الاجتماعي. علينا أن نحافظ على شروط الحياة التي وُلدنا فيها والتي انتقلت إلينا من أهلنا، والتي من واجبنا أن ننقلها إلى ذريّتنا.

– أعتبر أن من واجبي...

لم يسمح له راغوجنسكي بمقاطعته، وقال:

– عفواً! لا يد لمصلحتي الشخصية، ولا لمصلحة أولادي فيما أقوله لك. إن مصير أولادي مضمون، أما أنا فأرجو أن أتمكن من كسب قوتي ما حييتُ. وإذن فأنا أدعوك بدون أية فكرة مبطنة، وبشكل نظري، محض، وعن قناعة خالصة، أدعوك إلى إمعان التفكير، وإلى القراءة مثلاً...

فانفجر نيكليودوف، وقد شحب بدوره:

– رحمـاك، دعني أهتم بشـؤوني، ولا تكلّف نفسك إرشادي إلى ما ينبغي أن أقرأ.

وإذ أحسّ أن يديه صارتا باردتين، وأنه لم يعد سيد نفسه، خَلَدَ إلى الصمت، وأخذ يشرب الشاي.

× × ×

-٣٣-

سأل نيكليودوف أخته بعد أن هدأ قليلاً:

– لكن أين الأولاد؟

أجابت ناتاليا أن الأولاد بقوا مع جدتهم. وإذ سرّها أن الجدال قد توقف دون أن يترك آثاراً سيئة، أخذت تقصّ عليه كيف أن الأولاد كانوا يلعبون، أثناء السفر، بلعبهم، تماماً كما كان؛ يلعب دميتري في طفولته مع لعبتيه؛ زنجي ولعبة كان يسميها: «الفرنسية».

دهش نيكليودوف وهو يبتسم:

– أمن الممكن أنك مازلت تتذكرين ذلك؟

امّحى الإنطباع المؤلم. لكنها لم تشأ أن تتحدث، أمام زوجها، عن أشياء لا يفهمهما إلا هي وأخوها، فساقت الحديث إلى حدث بطرسبرج الكبير، المبارزة التي قُتل فيها الشاب كامنسكي. واستنكر إغناتي نيكيفوروفيتش ذلك الحكم المسبق الذي يمنع اعتبار المبارزة جريمة قتل عادية. كان هذا الاستنكار كافياً لإثارة سخط نيكليودوف، وبدأ الخصام في ميدان آخر.

كان إغناتي نيكيفوروفيتش يحسّ أن نيكليودوف يحتقره، وكان يهمه أن يبرهن له على ما في هذا الإحتقار من ظلم، أما نيكليودوف فقد اغتاظ من أن يرى صهره يتدخّل في شؤونه، معترفاً لنفسه بالحق في هذا التدخل، بصفته قريباً له. لكن الذي أحنقه على الخصوص هو هذا الإدّعاء الذي به كان صهره يسلم بمعقولية بعض المبادئ التي كانت تبدو لنيكليودوف الآن أبعد ما تكون عن العقل.

سأله نيكليودوف:

– إذاً، ما الذي كنت تتمنى أن يُفعَل؟

– أن يُحكم على قاتل كامنسكي بالأشغال الشاقة، كالقاتل العادي.

– ما الفائدة التي تجنيها من ذلك؟

– سيكون ذلك عادلاً.

قال نيكليودوف هازئاً:

– وكأن للتنظيم القضائي الحالي علاقة بالعدل.

– وما الغرض الآخر الذي تراه لهذا التنظيم؟

– إن له غرضاً وحيداً هو المحافظة على النظام القائم من أجل مصلحة طبقة اجتماعية معينة.

أجاب إغناتي نيكيفوروفيتش مبتسماً:

– ذلـك جديد بالنسبة إلي! ليست هذه هي المهمة التي تُسنَد عادة إلى العدالة.

– نظرياً، لا، لكن الأمور كذلك عملياً. تأكدتُ من ذلك بنفسي. إن محاكمنا لا غرض لها إلا المحافظة على المجتمع في حالته الراهنة. ومن هنا جاء اضطهادها ومعاقبتها لمن هم دون المستوى العام ولمن هم فوق هذا المستوى. مَنْ يحاولون أن يرفعوا المجتمع إلى مستواهم.

– لا أستطيع أن أسمح لك بالقول إن القضاة يحكمون على أناس أعلى من المستوى العام! الناس الذي نحكم عليهم هم، في معظمهم، حثالة المجتمع.

– وأنا أعرف محكومين بالأشغال الشاقة هم، بلا جدال، أعلى من قضاتهم!

لكن إغناتي نيكيفوروفيتش الذي لم يكن من عادته ترك غيره يقطع كلامه، تابع كلامه دون أن يصغي إلى نيكليودوف، مثيراً بذلك سخطه.

– ... ثم إني لا أستطيع أن أسمح لك بالقول إن غرض المحاكم هو الحفاظ على النظام الراهن. فللمحاكم غرض مزدوج، أن تُصلح أولاً...

فهتف نيكليودوف:

– جميل، هذا الإصلاح الناجم عن نظام السجون!

– وثانيـاً أن تجعل هذه المخلوقات المنحطـة، المتبلّدة الحس، والتي تهدد الحياة الاجتماعية، عاجزة عن الإيذاء.

– وأنـا أقـول لك إن المحاكـم لا تؤدي لا هـذا الغرض ولا ذاك. ولسـت أعرف من العقوبات المعقولة سوى عقوبتين، وهما وحدهما اللتان كانتا تُستخدمان قديماً: السوط والموت!

– في الحقيقة، ذلك ما لم أكن أتوقع سماعه منك.

– أجـل! لأن يُعاقب إنسان لكي يُمنـعَ من العودة إلى فعل جرّ عليه العقوبة، ذلك معقول؛ ولأن يُقطع رأس فَرد خطر على الآخرين، هذا أيضـاً لـه معنى. لكن ما معنى أن يُؤخَذ مخلـوق أفسده الكسل ورفاق السـوء ليُحبَسـ في سجن يغدو فيـه الكسل واجبـاً، ويحيط به رفاق السـوء مـن كل جانب؟ ما معنى أن يُنقل على نفقة الدولة – قيل لي إن ذلـك لا يكلّف أقل من خمسمائة روبل بالرجل –من حكومة «تولا» إلى حكومة «إركوسك»، أو إلى حكومة كورسك.

– هذا لا يمنع أن هؤلاء الناس يخافون هذه الرحلات التي تتم على نفقة الدولة؛ ولولا هذه الرحلات وتلك السجون لما كنا جالسين اليوم هنا، بطمأنينة!

– وهـذا لا يمنـع أنكـم، بسجونكـم، لا يجوز لكـم أن تطمحوا إلى حمايـة المجتمـع، لأن هـؤلاء الناس الذين تضعونهـم في السجن يخرجـون منه، عاجلاً أو آجلاً، والنظام الذي تخضعونهم له لا أثر له إلا بجعلهم أشد خطراً.

– أنت تعني أن نظام سجوننا بحاجة إلى الإصلاح؟

– كلا، فسيذهب ذلك سدىً. ذلك أننا بإصلاح السجون سننفق من المال أكثر مما ننفق اليوم على نشر التعليم العام، وسيُجبر الفقراء أيضاً على الدفع.

فسأله إغناتي نيكيفوروفيتش بابتسامة متكلّفة:

– ماذا تريد إذن أن نفعل؟ أن نقتل الجميع، أو أن نفقأ عيون المجرمين، كما اقترح حديثاً أحد رجال الدولة الرفيعي الشأن؟

– هذا وحشي، وإن كان له معنى على الأقل، بينما ما نفعله الآن وحشي ولا معنى له.

قال إغناتي نيكيفوروفتش وقد شحب:

– لكنني أنا في هذه المحاكم التي تتحدث عنها هذا الحديث.

– هذا شأنك! وأنا أقتصر على الإشارة إلى ما لم افهمه.

فردّ إغناتي نيكيفوروفيتش بصوت مرتعش:

– هناك أشياء كثيرة لا تفهمها.

– لقد رأيت في محكمة الجنايات كيف أن وكيل النيابة بذل وسعه كي يضمن الحكم على فتى بائس لا يثير سوى الشفقة عند أي رجل يملك شيئاً من الإستقامة؛ وأعرف وكيلاً آخر طلب تطبيق قانون الجزاء على متشيّع لمجرد قراءاته الإنجيل؛ وكل نشاط المحاكم لا يتضمن سوى أعمال غبية أو قاسية.

أجاب إغناتي نيكيفوروفيتش هو ينهض:

– ما كنت أمتهن هذه المهنة، لو لم أكن مقتنعاً بشرعيتها.

لمح نيكليودوف شيئاً يلمع خلف عدستي نظّارة صهره. فقال في نفسه: «يا إلهي، عسى ألا تكون دموعه». لكنها كانت دموعاً، بالفعل، دموع الغيظ والمذلة. اقترب إغناتي نيكيفوروفيتش من النافذة، وأخرج منديله، ومسح نظارته كما مسح عينيه. ثم جلس على الأريكة، وأشعل سيجاراً، ولم يقل بعد ذلك شيئاً.

أحس نيكليودوف بالحزن والخجل حين فكّر أنه قد جرح صهره وأخته إلى هذا الحد. ولاسيما أنه سيسافر غداً ولن تتاح له رؤيتهما بعد الآن. فاستأذنهما بعد بعض الكلمات المبتذلة، وعاد إلى الفندق.

قال في نفسه: «لعل ما قلتُه له صحيح، لكن، على كل حال، ما كان ينبغي لي أن أكلّمه على هذا النحو. ومن المؤكّد أن التغير الذي حدث فيّ لم يكن عميقاً جداً، ولذلك غضبتُ هذا الغضب الشديد، وأهنتُ إغناتي إلى هذا الحد، وآلمت عزيزتي المسكينة ناتاشا.

× × ×

-٣٤-

تقرّر أن تسافر قافلة المنفيين، من المحطة، في الساعة الثالثة من اليوم التـالي. فصمم نيكليودوف أن يكون أمام بـاب السجن، منذ الظهر، ليراها تخرج وليرافقها إلى محطة القطار.

وقبل أن ينام، وقعت يده، وهو يرتّب أوراقه، على مذكراته اليومية، و لم يستطـع أن يمنـع نفسه من قـراءة الجمل التاليـة: «كاتيوشا ترفض نصيحتي، لكنها تُصرّ على تضحيتها. إنها تَفتنني بهذا التبدل الداخلي الذي يلوح لي —إني خائف من الاعتقاد به— أنه يتم فيها». وكتب تحت هـذه الجملة، في المرة التالية، مايلي: «تلقيت اليوم صدمة شديدة، فقد علمـتُ أن كاتيوشا أساءت السلـوك في المشفى. وفي اللحظة نفسها، أحسســتُ بألم رهيب، ما كنت أظـن أن ذلك يمكن أن يؤلمني إلى هذا الحد. عاملتُ المسكينة بكره واشمئزاز، ثم تذكرت، كم مرة ارتكبتُ أنـا، ولو بالفكر، الغلطة التي كرهتُها مـن أجلها. ومنذ هذه اللحظة، كرهت نفسي، ورثيتُ لها وأحسست بإحساس من الراحة».

أخـذ الريشة، وأضاف، بتاريخ هذا اليـوم: «رأيت ناتاشا، وكنت قاسياً وشريراً نحوها، مـرة أخرى، من جرّاء أنانيتي، وكلمتُ زوجها كمـا لا ينبغـي لي أن أكلّمه. وأنا أحمل من ذلـك كله ثقلاً على قلبي.

لكــن ما العمل؟ غداً تبدأ، بالنسبة إلي حيــاة جديدة. وداعاً، يا حياتي القديمة وإلى الأبد!».

عندمــا استيقظ من نومه، في صباح اليوم التالي، كانت أول عاطفة انتابتــه هي عاطفة الندم على سلوكه تجاه صهره، فقال في نفسه: «من المستحيل أن أدع الأمور هكذا، سأعود إليه وسأقدّم له اعتذاري».

لكنه لم يلبث أن تبيّن أنه لن يكون لديه ما يكفي من الوقت لذلك، إذا شــاء أن يحضر خــروج القافلة. وبعــد أن انتهى من حــزم أمتعته، بسرعــة كبيرة، وكلّف خادم الفنــدق حملها إلى محطة القطار ، ووثب إلى عربة قاصداً السجن.

كان الحــر علــى أشــدّه في تمــوز. كان بــلاط الشــارع، وحجارة البيــوت، وحديد السطوح التي لم تبرد أثنــاء تلك الليلة اللاهبة، تمزج انعكاساتهــا ببريــق الشمس لتجعل الجــو خانقاً. ولا نسمــة هواء إلا هبــات مفاجئة، بين لحظة وأخرى، تقذف العيون بسحب من الغبار. كانت معظم الشــوارع مقفرة، إلا من بعض المارة هنا وهناك يسيرون بحــذاء الجدران بحثاً عن شيء من الظــل، بيد أن نيكليودوف شاهد، في شــارع، طائفة مــن العمال المُبلّطين، جالسين تحــت أشعة الشمس المحرقة، وسط الرصيف، يعملون على غرز الحجارة في الرمل الحار.

عندما وصل نيكليودوف إلى السجن، وجد الباب مايزال مغلقاً. أما في داخــل السجن فقد بدأ، منذ الساعة الرابعة صباحاً إحصاء المُبعدين الذي سيسافرون، واستعراضهم. كان ستمائة وأربعة وعشرون رجلاً وأربع وستون امرأة يقفون اثنين اثنين في وهج الشمس، في الفناء.

وفي ظـل الجدار، جلس المدير الجديـد ونائباه والطبيب والممرضة والضابط المرافق والكاتب حـول طاولة رُتِّبت عليها الوثائق وأدوات الكتابـة. كان السجناء يُدْعَون واحـداً، ويُفحصون ويُستجوبون، ثم تُسجّل أسماؤهم.

كانت الشمس تغطّي نصف الطاولة. وغـدت الحرارة لا تُطاق، وغدا الهواء خانقاً.

عِيـل صَبرُ رئيس القافلة، وكان شابـاً طويل القامة، قـوي البنية، سمينـاً وأحمـر، عالي الكتفين، قصـير الذراعين، يدخّـن بلا توقّف، طارداً الدخان من خلال شاربيه، فقال:

– ألن تنتهوا أبداً؟ إن هذا لعذاب حقيقي. هل بقي كثير منهم؟

أحصى الكاتب الأسماء، وقال:

– بقي ثمانون رجلاً، ثم النساء.

صـاح الضابط بطائفـة متراصة مـن السجناء يجـب أن يخضعوا للمراقبة:

– هيا، اقتربوا، بسرعة، ما لكم جامدين؟

في الخارج، كان الحارس يقـف أمام الشباك، وسلاحه على كتفه. وفي السـاحـة الصغـيرة، رأى نيكليودوف نحو عشريـن عربة، معدة لحمل متاع السجنـاء، وكذلك لنقل بعض السجناء من المرضى أو من ذوي العاهـات، إلى محطـة القطـار. رأى أيضاً في زاويـة، جماعة من

الفقراء والأهل والأصدقاء ينتظرون خروج السجناء كي يروهم لآخر مرة وكي يعطوهم، إن أمكن، شيئاً من الغذاء أو المال.

انضمّ نيكليودوف إلى هذه الجماعة وانتظر أمام البوابة حوالي ساعة. وأخيراً، سمع، من داخل الفناء قعقعة السلاسل، وبعض الأوامر تُلقى بصوت عالٍ، وسعالاً أبحّ، وهمساً مختلطاً من جمهور يراوح مكانه. دام ذلك خمس دقائق، كان الحراس في أثنائه يظهرون على الباب دون انقطاع ولا يلبثون أن يعودوا.

وفجأةً فتح الباب على مصراعيه، وتعاظمت قعقعة السلاسل، وأقبل فصيل من الجنود يلبسون القمصان البيضاء واصطفوا على شكل دائرة، في جانبي الساحة. ثم خرج السجناء، بعد أن أمروا بذلك، اثنين اثنين. خرج أولاً المحكومون بالأشغال الشاقة، وهم موحّدو اللباس. كانوا يرتدون قمصاناً رمادية رُسِم على ظهرها آس الديناري، ويضعون على رؤوسهم الحليقة قبعات مسطّحة، ويحمل كل واحد منهم كيساً يتدلّى على ظهره... كانوا يجرّون أرجلهم المثقلة بالحديد، ويسندون بيدٍ طرف الكيس. خرجوا وهم يحرّكون يدهم الطليقة، بخطىً قوية وثابتة؛ كأنهم يتدربون من أجل مسيرة طويلة؟ لكنهم توقّفوا بعد أن مشوا نحو عشر خطوات، ليضاعفوا صفوفهم. وفي أثرهم، جاء رجال آخرون يلبسون لباسهم، وكذلك رؤوسهم حليقة مثلهم، لكن لم يكن في أرجلهم قيود. كانوا مصفّدين بالأغلال اثنين اثنين. كان هؤلاء هم الذي حكموا عليهم بالنفي. ثم جاءت النساء بنفس الترتيب: جاءت أولاً النساء المحكومات بالأشغال الشاقة، في قمصان رمادية، وأخمرتُهن على رؤوسهن؛ جاءت ثانياً المنفيّات؛ وجاءت ثالثاً النساء اللواتي كنّ يسافرون بملء إرادتهن، ليرافقن

أزواجهن – وكنّ يرتيدن لباس الفلاحات. وكثير منهن كنّ يحملن أطفالهن على أيديهن.

وكان كثير من الأطفال يمشون. منتشرين بين الصفوف، كالمهار في قطيع الخيل.

كان الرجال يتقدمون بصمت، لا يكادون يتبادلون الحديث، من بعيد إلى بعيد. أما صفوف النساء، فكان يرتفع منها لغط أصوات لا ينقطع.

وخُيِّل إلى نيكليودوف أنه رأى ماسلوفا، وهي تخرج، لكنها لم تلبث أن غابت عن نظره، فلم يعد يرى سوى كتلة مبهمة من المخلوقات المرتدية ثياباً رمادية، مخلوقات متشابهة كلها، ومحرومة كلها من المظهر الإنساني.

لقد تمّ إحصاء المُبعدين في الفناء، لكنهم كانوا يُحصون أيضاً كلما خرجوا وضاعفوا صفوفهم. ولما انتهى الإحصاء صرخ الضابط الذي يقود القافلة بأمر. فخرج المرضى، رجالاً ونساء من الصفوف، واندفعوا إلى العربات حيث استقرّوا قرب أكياسهم. ولمح نيكليودوف، في هذه العربات خليطاً من الأمهات يرضعن أطفالهن، ومن الصبية والبنات وبعض المرضى بسنحهم الكالحة والمتجهمة.

بعض السجناء الآخرين جاؤوا، وهم مكشوفو الرؤوس، يسألون الضابط المرافق أن يأذن لهم بالصعود إلى العربات ، فتظاهر الضابط، أول الأمر، بأنه لم يسمع؛ وأشاح بوجهه، وهو يلفّ سيجارة، لكن نيكليودوف رآه ينثني فجأة نحو سجين اقترب منه، ويصيح به، ويده مرفوعة»

– سأعطيك، أنا، عربات! ستمشي الطريق على قدميك!

شيخ واحد، طويل، مرتجف، محكوم بالأشغال الشاقة، سُمح له أن يقطع الطريق في عربة. نزع قبعته، ورسم إشارة الصليب، ووضع كيسه في إحدى العربات، وحاول طويلاً أن يتسلّق إليها، فلم يستطع أن يرفع ساقيه المهزولتين، المثقلتين بالحديد. وساعدته امرأة عجوز على الصعود بأن أمسكته من يده.

عندما امتلأت العربات، كشف الضابط عن رأسه، ومسح جبينه بمنديله، ورسم إشارة الصليب. وأمر:

– إلى الأمام، سرْ!

تنكب الجنود بنادقهم؛ نزع السجناء قبعاتهم، ورسموا إشارة الصليب؛ ارتفعت صرخة من صفوف النساء، وتحرّك الموكب يحيط به الجنود بقمصانهم البيضاء، مثيراً الغبار لدى كل حركة من حركات الأرجل المقيدة. في المقدمة، وراء الجند، سار المحكومون بالأشغال الشاقة، ثم المنفيّون، ثم النساء. وخلف موكب المشاة الذين اصطفوا أربعة أربعة، سارت العربات ببطء، وفي أحداها شاهد نيكليودوف امرأة متدثّرة بالأسمال، تزعق وتنتحب دون توقّف.

× × ×

-٣٥-

كان الموكب طويلاً جداً حتى إن الصفوف الأولى انعطفت عند زاوية الشارع حين بدأت العربات تتحرك. وبعد أن انتظر نيكليودوف بضع ثوان، صعد عربته، وأمر الحوذي أن يسير ببطء بحيث يستطيع أن يعثر على ماسلوفا ويسألها إن كانت قد تسلّمت الحاجات التي بعث بها إليها. ازدادت شدة الحر. كان الهواء ساكناً، لا نسمة فيه. وكان الغبار الذي تثيره آلاف الأقدام، يلفّ السجناء السائرين في وسط الشارع. كانوا يتقدّمون بخطاً حثيثة حتى أن الجواد الذي يُقلّ نيكليودوف لم يكد يُفلح في تجاوزهم. كانت هذه المخلوقات المجهولة تمشي صفاً صفاً، غريبة السحنة، رهيبة المظهر، محركة آلاف الأقدام المحتذية أحذية واحدة، خاطرة باليد الطليقة كأنما تريد أن تتشجع. كانوا من الكثرة والتشابه، ومن خصوصية الظروف وتفرّدها، بحيث بدوا لعيني نيكليودوف كأنهم كائنات عجيبة، خاصة، مرعبة. ولم يختفِ هذا الانطباع من نفسه إلا عندما شاهد بين المحكومين بالأشغال الشاقة القاتل فيدوروف، وأيضاً بين المنفين، اوكوتين المُضحك، الذي كان يعرفه، وسجيناً آخر كان قد طلب مساعدته. كان جميع السجناء تقريباً يلقون نظرة على العربة التي تسبقهم، وعلى ذلك السيد الجالس فيها

والــذي كان يتفحّصهم. حنى فيدوروف رأسه لـيُري نيكليودوف أنه عرفـه؛ وغمزه اوكوتين بعينه. لكنهما لم يحيّيـاه، لاعتقادهما أن ذلك ممنــوع. وعندما وصل نيكليودوف إلى صفوف النساء، عرف ماسلوفا على الفور، في الصف الثاني. كانت الأولى في هذا الصف امرأة بشعة، حمــراء، ســوداء العينين، قصيرة الساقــين، قد ثبّتــت بزنارها معطفها. كانــت هذه هي «الحسناء»؛ وبعد ذلــك جاءت المرأة الحامل تجر نفسها جــراً؛ وكانــت ماسلوفا الثالثــة. كانت تحمل كيسها علــى ظهرها وقد بدا عليها الهدوء والعــزم معاً. المرأة الرابعة في هذا الصف كانت شابة، جميلة. في معطف قصير، قد غطت رأسها بخمار مربوط، تمشي بعزم. كانت هذه فيدوسيا. نزل نيكليودوف من العربة ودنا منها، لكن ضابط الصف الذي كان يسير بحذاء القافلة هرع إليه وهو يصيح:

– الإقتراب من السجناء ممنوع!

وحــين عرف نيكليودوف الــذي كان يعرفه جميع من في السجن، رفع يده إلى عمرته، وقال له بلهجة أكثر احتراماً:

– الحقيقــة، يا سيدي، أن ذلك ممنــوع قطعاً. في المحطة تستطيع أن تكلم السجناء، أما هنا فذلك مستحيل.

تنحّى نيكليودوف جانباً، وبعد أن أمر الحوذي بأن يتبعه، أخذ يمشي علــى الرصيف، بمرأى مــن القافلة. وكانت القافلــة، أينما مرت، هدفاً لانتباه ممتزج بالخوف والعطــف. وكانت الرؤوس تُطل، من العربات، لتتأمــل السجنــاء. وكان المــارة يقفون وينظرون بأعــين محملقة إلى هذا المشهد المخيف. واقترب بعضهم ليتصدق بحسنة كان يتسلّمها حراس القافلة. ولحق آخرون بالسجناء كالمنوَّمين، ما استطاعوا اللحاق بهم.

واندفـع الناسـ إلى خارج البوابـات وأبواب المداخـل، وأطلّوا من النوافذ، شاخصين بأعينهم إلى هذا الموكب الرهيب.

وفي ملتقـى للطرق، حـال الموكب دون مرور عربـة فخمة يقودها حوذي، مُتباهٍ على مقعد، ضخم وسمين، مشرق الوجه، وخِلْعتُه مزررة في الظهـر. كان في العربة سيـدة نحيلة وشاحبة، علـى رأسها قبعة من القش، وبيدها مظلة مشجّرة، وبجنبها زوجها، وهو رجل أنيق يرتدي معطفـاً فاتح اللون، ويضع علـى رأسه قبعة عالية. في مواجهة الزوجين، جلسـ ولداهما: بنت صغيرة، حسنة الملبس، نضرة مثل وردة، لها شعر أشقر طويل يغطي كتفيها، وصبي ابن ثماني سنوات له عنق طويلة دقيقة برزت فيها عظام الترقوة من طقم البحّار الذي يرتديه، وعلى رأسه قبعة بحار، لها أشرطة طويلة تخفق من حولها. أنحى الأب باللوم على الحوذي لأنه لم يتجاوز القافلة في الوقت المناسب، وكشّرت الأم من الاشمئزاز، وقد أغمضت عينيها نصـف إغماضة، مختبئة خلف جناحي قبعة القش لتحتمي من الشمس والغبار. وكان الحوذي يصغي إلى توبيخات سيده الظالمـة وهو يحاول أن يكبح جماح جيـاده الكُمت التي غطاها الزبد والتـي كانت تلوك لجمهـا. كان الحارس يود لو أوقـف القافلة وسمح لصاحب هذه العربة الفخمة بالمرور قبله. لكنه تبين على نحو غامض أن جـلال هذه القافلة القاتم لا يجوز أن يُقطع إرضاء لذلك الثري. واقتصر إذن علـى أن رفع يده إلى عمرته، دلالة علـى احترامه للغنى، ووجه إلى السجنـاء نظـرة صارمة، وكأنه يريـد أن يعد أصحـاب العربة الفاخرة بحمايتـه لهم وأن يؤكد لهم. بيد أن هـذه العربة اضطرت إلى الإنتظار حتى مرت القافلة، إلى آخر عربة ترتج، وهي محملة بالأكياس والسجناء، ومن بينهم تلك المرأة المستهترة التي عادت إلى الزعاق والنحيب، وهي

تــرى العربة الجميلة. وحينذاك استطــاع الحوذي أن يسوق الخيل، التي استأنفت طريقها، ضاربة بحوافرها حجارة الشارع، جارة العربة التي كانــت تتهادى برفق علــى عجلاتها المطاطية، في طريقهــا إلى الريف، حيث سيجد هؤلاء الأثرياء شيئاً من البرودة.

لم يشــرح الأب أو الأم شيئاً بصدد ما رأياه هنــا. واستنتجت البنت التــي كانــت تشبه أهلها، فيما بينهــا وبين نفسها، أن هــؤلاء الناس من عــالم آخر غير عالمها. ولاشــك أن هؤلاء شريرون استحقــوا أن يُعاملوا هذه المعاملة. ولم تحسّ بغير الرعب، فابتهجت عندما غابت القافلة عن نظرها.

لكــن الصبي الصغير حــل المشكلة بطريقة مختلفة: لقــد تابع القافلة بعينيه دون أن ترمشا. وكان يعلم علم اليقين الذي لا يزعزعه شيء، لأنه جاءه مباشرة من الله، أن هؤلاء الناس يشبهونه ويشبهون غيره من البشر. ولابــد أنهم ارتبكوا أفعالاً شريرة، فخالجته الشفقة وأحس بالرعب إزاء هــؤلاء الناس المصفّدين بالأغلال، الحليقــي الرؤوس، وحتى إزاء الذين عاملوهم كذلــك. وإذا أحس بشفتيه تنتفخان، فقــد حاول جاهداً ألا ينفجر باكياً، لأنه كان يعتقد أن من العار البكاء في مثل هذه المناسبة.

× × ×

-٣٦-

كان نيكليودوف يمشي بالسرعــة التي يمشي بها السجناء. ومع أنه كان يرتــدي ثياباً خفيفــة، إلا أن الحر أخذ يؤذيه أكــثر فأكثر، وأخيراً عجــز عن احتمال الحــر، بعد ربع ساعــة من السير، فعــاد إلى عربته، وصعــد إليها، وأمر الحــوذي أن يتقدم القافلة. بيد أن الحر، في العربة، بــدا له أنه لا يطاق أيضــاً. وحاول أن يفكر في حديثه مع صهره عشية البارحــة، لكن هذه الذكــرى التي هزّته هزّاً قبــل ساعات لم تُفلح في إثارة اهتمامه، فكان تفكيره كلــه مشغولاً بهذا المشهد الرهيب الذي حضره قبل لحظة. ثم إنه كان يختنق، بخاصة، من شدة الحر.

في ساحــة صغــيرة، وفي ظل الأشجــار، رأى طالبين واقفين قرب بائع مثلّجات متنقل؛ كان أحدهما قد جرع كأسه وأخذ يلحس ملعقة القــرن. وأخذ الآخر يرصد حركات التاجر المنهمك بملء الكأس التي في يده بالعصير المثلج المائل إلى الصفرة.

سأل نيكليودوف الحوذي، وقد أحس بالعطش الشديد:

- أتعرف مكاناً قريباً من هنا يمكن أن نشرب فيه شيئاً؟

أجاب الحوذي:

– على بعد خطوتين حانة ممتازة.

انعطف الحوذي عند زاوية الشارع واقتاد نيكليودوف إلى منزل تُزَيِّنُه لافتة كبيرة.

كان صاحب الحانة واقفاً قرب مكتبه، لا يرتدي سوى قميصه، ومعه خادمان يرتديان وزرتين وسختين؛ وبعد أن تفحّصوا بفضول هذا الزبون المجهول، عرضوا عليه خدماتهم. طلب نيكليودوف ماء معدنياً، وجلس في صدر القاعة، أمام منضدة عليها غطاء ملطّخ بالشحم.

وإلى طاولة مجاورة، جلس رجلان يشربان الشاي. كان أحدهما أسمر، قصيراً وسميناً، له قذال سمين مغطّى بالشعر الأسود، كقذال إغناتي نيكيفوروفيتش. هذا الشبه ذكر نيكليودوف، مرة أخرى، بحديثه، عشية البارحة، وبرغبته في لقاء صهره وأخته قبل سفره. وسأل نفسه: وماذا لو ذهبت؟ كلا، سيفوتني القطار! الأفضل أن أكتب إليهما!» وطلب ريشة حبراً وورقاً، وأخذ يفكر فيما سيكتبه، وهو يجرع بجرعات صغيرة الماء البارد والفوّار. لكن أفكاره تشوّشت، دون أن يتمكن من العثور على جملة.

وبدأ: «ناتاشا العزيزة، لا أستطيع أن أتركك وأنا مُثقل بالانطباع المؤلم الذي خلّفه حديثي أمس مع «إغناتي نيكيفوروفيتش...». لكن ماذا يقول بعد ذلك؟ أيسألها الصفح عن أقواله أمس؟ هذه الأقوال

كانـت تعبيراً عن فكرته، وقـد يعتقد صهره أنه تراجـع عنها. ثم، إن هناك، في الحقيقة، هذه الطريقة للتدخل في شؤونه! لا، يستحيل عليه أن يكتـب! وإذ أحس نيكليودوف، من جديـد، بانبعاث كرهه لهذا الغريـب العاجز عـن فهمه، وضع الرسالة التـي بدأها في جيبه، ودفع الحساب، وعاد إلى عربته ليلحق بالقافلة.

كان الحر شديداً، وكأنما كان بلاط الشارع وجدران البيوت تنفث لفحات محرقة. وحـين وضع نيكليودوف يده على حافة العربة أحس بمثل كيّ النار.

كان الجواد يجر نفسه بخطا ثقيلة على البلاط المغبر؛ ورواد النعاس الحـوذي. حتى نيكليودوف نفسه الذي أرهقه الحر، كان ينظر أمامه، دون أن يفكر في شيء. وعند منعطف الشارع، مقابل باب للعربات، شاهـد جماعة مـن الناس بينهـا جنـدي، بندقيته تحت ذراعـه. فأمر الحوذي بالوقوف.

سأل بواب المنزل:

- ماذا حدث؟

- هذا أحد السجناء!

بعد أن نـزل نيكليودوف من العربة، اقترب من الجماعة. كان ثمة رجل قصير، أحمر الوجه، أصهب اللحية، يرقد على حجارة الشارع غير المستوية، بحذاء الرصيف، وقدماه أعلى من رأسه. كان ممدداً على ظهره، وراحتـاه مفتوحتان، وهو يرفع صدره العريض رفعاً متقطعاً

عنيفاً، ناظـراً إلى السماء بعينين جامدتين، محتقنين بالدم. ومن حوله وقـف شرطي بدا لاهـم عليه، وحمّـال، وحوذي بريـد، ووكيل في دكان، وعجوز تحمل مظلة، وصبي بيده سلة فارغة.

قال الوكيل ساخطاً، وهو يلتفت إلى نيكليودوف:

– لقد أضعفوهم بالسجن، وها هم الآن يسوقونهم في وهج الحر!

وأبدت العجوز رأيها بصوت شاكٍ:

– سموت، بكل تأكيد.

صاح حوذي البريد:

– لنكشف عن صدره، بسرعة!

أخـذ الشرطي يحل الشريط الذي يشـد القميص، بأصابعه الثخينة المرتجفـة. كان منفعلاً ومنزعجاً، إلا أنه رأى مـن الضروري أن يؤنب الحضور:

– هيـا، امضوا! ماذا تفعلون هنا؟ أنتـم تمنعون الهواء من الوصول إلى هنا.

تابع الوكيل. وقد سرّه أن يظهر معرفته بالنظام:

– الطبيـب مكلّف أن يستعرضهـم جميعاً قبل مغـادرة السجن، ويجـب أن يوضـع المرضى في العربات! وها هـم يجبرونه على قطع الطريق مشياً على قدميه!

انتصب الشرطي الذي فرغ من الكشف عن صدر السجين، ونقّل عينيه حوله. وقال وهو يلتفت إلى الجندي، وكأنما كان يطلب موافقته:

– قلتُ لكم: امضوا هذا لا يهمكم، وأنتم لا تستطيعون شيئاً.

لكن الجندي ظل بعيداً عنهم، ينظر إلى حذائه، وكأنه لا يكترث لعصبية الشرطي.

صاحت من الجماعة أصوات كانت لا تني تتزايد:

– والذين يهمهم الأمر لا يقومون بواجبهم. أفي القانون أن يُترك الناس ليهلكوا؟

– هو سجين، نعم، لكنه يظل إنساناً.

فنصح نيكليودوف:

– ارفعوا رأسه واسقوه شيئاً من الماء.

أجاب الشرطي:

– أرسلتُ مَنْ يُحضر الماء.

ورفع السجين بذراعيه، واستطاع بعد جهد أن يسند رأسه على حافة الرصيف.

صرخ فجأة صوت آمر، قوي:

– ما معنى ذلك؟

وشوهد مفوّض شرطة يرتدي بزة ناصعة البياض، ويحتذي جزمة ملمّعــة تلميعاً شديداً، يُهرع وهو بــادي الغضب، ويصيح بالجمهور، وحتى قبل أن يرى ما يجري:

– امضوا من هنا، وعلى الفور!

وعندما لمح السجــين التعس، مضطجعاً على الحجارة، أومأ برأسه وكأنــه يريد أن يقــول: إنه قد رأى كثيرين غيره، ثــم خاطب الشرطي فسأله كيف وقع الحادث. فروى الشرطي أن السجين سقط أثناء مرور القافلة، وأن الضابط أمر بتركه هنا.

– حسناً! هذا كل شيء! يجب أن يُنقل إلى مركز الشرطة. أحضروا عربة!

وافق الشرطي وهو يرفع يده إلى عمرته:

– في الحال، ريثما يصل البواب!

ثم عاد الوكيل ليتحدث عن الحر.

فثار مفوّض الشرطة ورماه بنظرة صارمة أسكتته

– وما شأنك أنت؟ امض في طريقك!

ألحّ نيكليودوف:

– يجب أن يُسقى ماء.

فرماه المفوضــ أيضاً بنظرة صارمة، لكنه عندمــا رآه رجلاً حسن

المظهــر، لم يجرؤ على الاعتراض. وعندما عاد البواب بسطل ماء، أمر المفوض الشرطي رأس المسكــين وحاول جاهداً أن يسكب له الماء في فمــه، لكــن المحتضر رفض أن يبلــع الماء الذي سال علــى لحيته، مبللاً سترته وقميصه المغطى بالغبار.

أمره الضابط:

– صبّ الماء على رأسه!

نزع الشرطي قبعة السجين، وصب السطل على جمجمته الصلعاء، التي يُحيط بها شعر كثيف أصهب. توسعت عينا المسكين كالمرعوب، لكــن جسده ظل جامداً. وسال الماء الممتزج بالغبار على طول وجهه. لكــن فمه لم يكف عن إطلاق الزفرات المتوجعة، وفجأة، هزّته رعشة قوية من قدميه إلى رأسه.

صاح المفوّض وهو يشير إلى عربة نيكليودوف:

– ها هي ذي عربة، فليوضع فيها! هيه اقترب، أنت!

أجاب الحوذي:

– أنا، لست حراً.

فأوضح نيكليودوف:

– هذه عربتي!

وأضاف مخاطباً الحوذي:

– لكنك تستطيع حمله. سأدفع الأجرة كاملة.

– هيا، أسرع!

حمل الشرطي والبواب والجندي المحتضر إلى العربة، وأجلسوه على الوسائد. كان عاجزاً عن الجلوس، فانقلب رأسه إلى الخلف، وانهار جسده على المقعد.

أمر الضابط:

– مدّدوه.

فأعلن الشرطي:

– اطمئن، يا صاحب السيادة، سأرافقه بنفسي.

وجلس في العربة، وأمسك بالسجين من تحت ذراعيه، بينما كان الجندي يمدد له ساقيه.

أبصر المفوّض على بلاط الشارع قبعة السجين، فلمّها وغطى بها رأسه المبلل الذي كان لا يني يسقط من كتف إلى كتف.

أمر الضابط:

– سرْ!

ضرب الحوذي جواده بالسوط، وعاد أدراجه باتجاه مركز الشرطة، وبصحبته الجندي. كان الشرطي، في العربة، يحاول عبثاً أن يُقوّم رأس السجين. وسار نيكليودوف في أثر العربة ماشياً على قدميه.

× × ×

-٣٧-

ما إن توقفت العربــة أمام مركز الشرطة، حتى أحاط بها عدد كبير مــن رجال الشرطة، وأمسكوا بالسجين الــذي مات أثناء الطريق، من ذراعيــه وساقيه. وعندما وصل نيكليودوف، بعــد عشر دقائق، كانوا مشغولين بحمل الجثة إلى المشفى.

كان المشفــى غرفة صغيرة قذرة، فيها أربعــة أسرّة على اثنين منهما استلقى مريضان: مسلول ورجل عصب رأسه وعنقه. وُضع الميت على أحد السريرين الفارغين. فاقترب منه بسرعة رجل قصير، عيناه تلتمعان وحاجبــاه في حركة دائمة، وفحص الميت، ثــم فحص نيكليودوف، وانفجــر ضاحكاً. كان هذا الرجل مجنوناً احتُفظ به هنا ريثما يُنقل إلى المستشفى.

قال مقهقهاً:

– إنهم يريدون أن يخوّفوني، لكنهم لن يفلحوا!

بعد لحظــة، رأى نيكليــودوف مفوّضاً وممرضــاً يدخلان. اقترب الممرضــ من السرير، وتناول اليــد الشاحبة، التي ماتزال دافئة ورخوة ورفعها وتركها تسقط.

وأعلن وهو يومئ برأسه:

– لقد انتهى.

لكــن ذلــك لم يمنعه من تطبيــق النظام، فكشف عــن صدره الذي مايزال مبلــلاً، وألصق أذنه. صمت الجميــع. وانتصب الممرض وهو يومئ من جديد برأسه، وأغلق جفني الميت على عينيه الزرقاوين.

كان المجنون يكرر في هذه الأثناء، وهو يبصق على الأرض:

– لن تخوّفوني، لا، لن تخوّفون!

أعلن الممرض:

– يجب أن يُنقل إلى قاعة الموتى.

أمر الضابط:

– ليُنقل إلى معرض الجثث.

وقــال للجندي الذي ظــل واقفاً قــرب الوديعة التي عُهــدت إليه حراستُها.

– وأنتَ، اذهبْ إلى المكتب لتسجّل تقريرك.

حمــل أربعة من رجال الشرطة الميت إلى الطابق الأرضي، وأوشك نيكليودوف أن يتبعهم، عندما أوقفه المجنون:

– لستَ متواطئاً معهم، أليس كذلك؟ إذاً، أعطني سيجارة!

أعطـاه نيكليودوف سيجارة، وأخذ المجنـون يقصّ عليه، وهو لا يكف عن تحريك حاجبيه، أخبار الإضطهادات التّي أنزلوها به:

– هم جميعاً عليَّ، وهم يعذّبونني ليلاً ونهاراً، عن طريق وسطائهم!

قال نيكليودوف:

– إعذرني.

وخرج من الغرفة، دون أن ينتظر الجواب، وهو يرغب في أن يرى ما سيفعلونه بالجثة.

عـبر رجـال الشرطة الفنـاء كله، ووقفـوا أمـام باب القبـو. أراد نيكليودوف اللحاق بهم. لكن المفوّض منعه من ذلك قائلاً له:

– ماذا تطلب؟

أجاب نيكليودوف:

– لا شيء.

– حسناً! انصرف!

عاد نيكليودوف أدراجـه. وعندما وصل إلى العربة وجد الحوذي نائمـاً، فأيقظه وأمـره أن يذهـب إلى المحطة. لكنه التقـى، على مائة خطوة، عربـة أخرى يرافقها جندي من جنـود القافلة يحمل بندقية؛

وعلى هـذه العربة مُـدَّد سجين آخـر، ميت. كان يرقـد على ظهره، وقـد انزلقت قبعته حتى أنفه. وكان رأسـه الحليق، ذو اللحية الصغيرة السـوداء يهتز عند كل خطوة، مـع رجّات العربة. وكان سائق العربة، بجزمتـه الضخمـة، يقود العربـة، وهو يمشي بحـذاء الجواد. وخلف العربة كان يسير شرطي. لمس نيكليودوف كتف الحوذي.

قال الحوذي وهو يوقف جواده:

– ماذا يفعل هؤلاء يا ترى؟

نزل نيكليودوف من العربة، وتبـع سائق العربة الأخرى، ومرّ من جديـد أمام أحـد حراس الإطفاء، ودخل فنـاء القسم من جديد. كان رجـال الإطفاء قد فرغوا من تنظيف عرباتهـم. وفي مكانها بالذات، أخـذ نقيب طويل، بارز العظام، علـى عمرته شريط، ويداه في جيبيه، يفحص بإمعان جواداً ضخماً، أغبس، عريض العنق، كان أحد رجال الإطفاء يمرّره أمامه. كان الجواد يظلع من ساقه الأمامية، وكان النقيب يكلّم بامتعاض الطبيب البيطري الذي وقف بجنبه.

كان ضابط الشرطة حاضراً أيضاً. وعندما رأى الجثة الثانية، اقترب من سائق العربة، وسأله وهو يومئ برأسه إيماءة الإستياء:

– أين وجدتموه؟

أجاب الشرطي:

– في شارع غورباتوفسكايا.

سأل نقيب الإطفاء:

– أهو أحد السجناء؟

– أجاب نقيب الشرطة:

– طبعاً! ماهذا النظام! وماهذا الحر!

والتفت نقيب الإطفاء إلى الرجل الذي كاد يقود الجواد الضالع، وصرخ به:

– ضعه في الإسطبل الذي في الزاوية! سأعلمك، يا بن الكلب، كيف تعطِّل خيلاً هي أغلى ثمناً منك! أيها التافه!

وصنع بهذه الجثة مثلما صنع بالأولى، فنقلها أربعة من رجال الشرطة إلى المشفى، ولحق بهم نيكليودوف كالمنوّم.

سأله أحد رجال الشرطة:

– ماذا تبغي؟

فمضى نيكليودوف إلى حيث حملوا الميت، دون أن يجيب.

كان المجنون جالساً على سريره، يدخّن بنهم السيجارة التي أعطاها إياه نيكليودوف. وقال له:

– آه! لقد عدتَ؟

وتهلّـل فرحاً، لكنه كشّـر عندما رأى الميت، وقـال لنيكليودوف وهو يبتسم ابتسامة المستفهم:

– ميـت آخر! إنهم يضايقونـي، في نهاية الأمر! فأنا لست طفلاً، أليس كذلك؟

نظر نيكليودوف إلى الميت الذي لم يعد يُخفيه عنه شيء، والذي لم يعـدو وجهه مغطّى بالقبعة. وبقدر ما كان السجين الآخر بشعاً، كان هـذا جميل الوجه والجسم. كان رجـلاً في ذروة تفتّح قواه. وبالرغم من رأسه الحليق نصفياً، كان جبينه القوي الذي يعلو عينيه السوداوين الفاقدتـين للحيـاة الآن، جميلاً جداً، وكذلك أنفـه الصغير، الدقيق، المقوّسـ، الذي يعلو شارباً نحيفاً أسود. ولقد تغضّنت شفتاه المزرقتان في ابتسامـة؛ و لم تظلل لحيته الصغيرة سـوى الجزء الأسفل من الوجه؛ وعلى الجانب الحليق من رأسه بدت أذن صغيرة، نحيفة وصلبة. وكان تعبير وجهه هادئاً، صارماً وطيّباً. لم يكن هذا الوجه يشهد بإمكانات حيـاة أخلاقية أُهـدرت في هذا الرجل، بل إن مفاصـل يديه الناعمة، ومفاصل رجليه المثقلتين بالحديـد، وتناسق المجموع، وقوة أعضائه، كل ذلـك كان يُظهـر أي حيوان بشـري قوي وجميـل وحاذق كان هـذا الرجل، حيوان أعظم كمالاً في نوعه.بما لا يُقاس من ذلك الجواد الأغبسـ الـذي أثار جرحه بشـدة نقيب الإطفائيين. بيـد أنه قُتل و لم يأسف عليـه أحد، لا كإنسان بل كما يؤسـف على حيوان للركوب. هلـك و لم يفد منـه أحد. لم يُثر هـذا الموت لدى جميـع الناس سوى الإحساس بالغيظ الذي ولّده الارتباك من أجل إزاحة هذا الجسم الذي أخذ يُنذر بالتحلّل. دخل القاعة الطبيب، والجرّاح المساعد، ومفوض الشرطـة. كان الطبيب، رجلاً سمينـاً وقصيراً، يرتدي سترة من الحرير

الهندي وبنطالاً من القماش نفسه، ضيقاً يلفّ ساقيه القويتي العضل لفّاً. وكان مفوّض الشرطة قصيراً، ضخماً، له وجه منتفخ أحمر، يغدو أكثر تدويراً بالعادة التي تعوّدها وهي أن يملأ وجنتيه بالهواء ثم يفرغه ببطء. جلس الطبيب على حافة السرير الذي مُدِّد عليه الميت، وجس النبض كما فعل قبل قليل الجرّاح المساعد، وتسمّع إلى قلبه، ثم نهض ورفع بنطاله، وقال:

– لا يمكن أن يموت الإنسان أكثر من ذلك!

ملأ المفوض وجنتيه بالهواء ونفخه ببطء، وسأل جندي القافلة:

– من أي سجن؟

رد عليه الجندي وأبدى قلقه تجاه القيد الذي يقيد رجلي الميت.

قال المفوض وهو ينفخ وجنتيه مرة أخرى، ثم يتقدم نحو الباب وينفث الهواء ببطء:

– سآمر برفعه. الحمد لله أن لدينا حدّادين!

سأل نيكليودوف الطبيب:

– وكيف يحدث ذلك؟

– كيف؟ ماذا؟ لماذا يموت الإنسان بضربة شمس؟ الأمر بسيط جداً: إنهم يُحبَسون طوال الشتاء بلا حركة ولا ضوء، ثم يُساقون في جماعة، وعند ذاك، تأتي ضربة الشمس...

– إذاً لماذا يرسلونهم؟

– آه! اسألهم هم عن ذلك. لكن، عفواً، مَنْ أنتَ؟

– غريب.

قـال الطبيب، وهو يسحـب بنطاله بامتعاض، ويقـترب من أسرّة المرضى:

– آه! آه! تحياتي؟... ليس لدي وقت!

وسأل الرجل الشاحب، ذا الفم الملتوي والعنق المعصوبة.

– وأنتَ، كيف حالكَ؟

في هـذه الأثناء، كـفّ المجنون الجالس على سريـره عن التدخين، وأخذ يبصق باتجاه الطبيب.

هبـط نيكليـودوف إلى الفناء، وخـرج وهو يمر أمـام جياد رجال الإطفاء والدجاج والحراس بالخوذة النحاسية. وصعد إلى عربته وأيقظ حوذيه الذي أغفى من جديد، واتجه إلى المحطة.

× × ×

-٣٨-

عندما وصل نيكليودوف إلى المحطة، كان جميع السجناء قد استقروا في عربات القطار التي أُغلقت نوافذُها بشبكات حديدية. وعلى الرصيف وقف نحو عشرون شخصاً جاؤوا يودعون ذويهم أو أصدقاءهم؛ وكانوا ينتظرون السماح لهم بالإقتراب من العربات.

كان حُرّاس القافلة يركضون في كل الإتجاهات، وقد بدا عليهم الإنهماك، ففي الطريق عبر المدينة، مات خمسة سجناء من شدة الحرب: هلك ثلاثة في الطريق، والآخران في المحطة[٤١]. لكن انهماك الحراس كان لشيء آخر؛ لقد انشغلوا بإجراء الشكليات التي تقتضيها الأنظمة في مثل هذا الظرف. كان يجب تسليم هؤلاء الموتى إلى السلطات المختصة، وعزل الأشياء التي تخصّهم، ومَحْوِ أسمائهم من جداول السجناء المسوقين إلى "نيجني نوفغورود" لقد سبّب لهم ذلك كثيراً من الارتباك الذي زاد من شدته الحر القاتل. ولذلك كانوا

٤١- مات خمسة سجناء، في موسكو، في بداية سنوات ١٨٨٠، من شدة الحر، أثناء طريقهم من سجن «بوتيجرسك» إلى محطة «نيجني نوفغورود». (ملاحظة من المؤلف)

يَجْـرون يمنة ويسـرة، وقد بدا عليهم الانهماك، كمـا قرروا ألا يدعوا أحـداً يقرب العربات قبـل أن يتم كل شيء حسـب الأصول. بيد أن نيكليـودوف حصل علـى الإذن بالاقتراب من العربـة، بفضل الروبل الذي دسّه في يد أحد ضباط الصف المرافقين للقافلة. لكن هذا الرجل طلب منه ألا يبقى طويلاً، خوفاً من أن يثير انتباه رئيس القافلة.

كان القطـار مؤلفاً من ثماني عشرة عربـة مكتظّة بالسجناء، ماعدا العربة المخصصة للضباط. سمع نيكليودوف، عند مروره أمام النوافذ، قعقعـة السلاسل، ومخاصمات، وأحاديث ممزوجة بالكلام البذيء. لم يسمع شيئاً عن الرفاق الذي سقطوا في الطريق. كان النزاع يدور فقط حـول الأكياس، واختيار الأماكن، وإمـكان العثور على ماء الشرب. ألقى نيكليودوف نظرة خاطفـة إلى الداخل، فشاهد حارسين واقفين في الممر المركزي، يخلّصان السجناء من قيودهم. كان السجناء يمدون معاصمهـم، كل بدوره، فيفتح أحد الحارسين القفل الذي يُغلق القيد، ويرفع الحارس الآخر القيد ويحمله معه.

بعد العربـات المخصصة للرجال، وصـل نيكليودوف إلى عربتين حُبسـت فيهما النساء. وفي العربة الأولى منهما، سمع صوتاً مبحوحاً يئن أنيناً رتيب الإيقاع.

– اوه! يا إلهي! اوه! يا إلهي!

قال ضابط الصف، إن ماسلوفا ينبغي أن تكون في العربة الثالثة. لم يكد نيكليودوف يقترب من النافذة حتى أحس برائحة العرق الكريهة تستقبلـه وتجبره على أن يلـوي رأسه، لحظة من الزمـن. كانت العربة

تضجّ بالأصوات الصارخة والحادة. وكانت النساء جالسات، على جميع المقاعد، مكشوفات الرؤوس، محلولات الستر، قد احمرّت وجوههنّ وبلّلها العرق: كنَّ يثرثرن وهنّ يتصايحن، ويأتين بمختلف الحركات. وسرعان ما استرعى انتباههن اقتراب نيكليودوف. فمَن كنّ جالسات قرب النافذة سكتن فجأة، ثم دعوْن ماسلوفا التي كانت في الجهة الأخرى من العربة، قرب فيدوسيا، شاحبة لكن مبتسمة. وما إن رأت ماسلوفا نيكليودوف حتى نهضت، وأعادت إلى شعرها الأسود الخمار الذي رفعته، وركضت إلى النافذة التي أمسكت بقضبانها الحديدية الضخمة.

فهتفت وقد بدا عليها الفرح:

– ما أشدّ هذا الحر!

– هل تسلّمتِ الحاجات التي أرسلتها؟

– نعم، أشكرك.

سألها نيكليودوف وقد أنهكه الحرّ المرعب الآتي من العربة:

– ألستِ بحاجة إلى شيء؟

– لا شكراً، لستُ بحاجة إلى شيء.

همست فيدوسيا باستحياء:

– اسألي إن كان يمكن الحصول على ماء للشرب؟

فردّدت ماسلوفا:

– آه! نعم، ليتنا نحصل على ماء للشرب.

– ألم يعطوكم ماء.

– بلى، أعطونا إبريقاً مملوءاً، لكننا شربناه كله.

فوعدها نيكليودوف:

– سأكلّم الحارس بذلك، بعد قليل. أما الآن فلن نلتقي إلا في نوفغورود...

فهتفت ماسلوفا، متظاهرة بأنها لا تعرف شيئاً من ذلك:

– أأنت ذاهب إلى هناك أيضاً؟

وحدّقت في نيكليودوف بفرح عميق.

– نعم، سأسافر في القطار القادم.

تنهّدت ماسلوفا وهي تغضّ بصرها، دون أن تجيب.

سألته إحدى السجينات، وهي فلاحة قديمة، بارزة الملامح:

– أصحيحٌ، أيها النبيل، أن اثني عشر سجيناً ماتوا في الطريق.

أجاب نيكليودوف:

– لم أسمع أن اثني عشر سجيناً ماتوا، لكنني رأيت اثنين من السجناء يُحملان.

– سمعنا مَنْ يؤكّد أن الموتى اثنا عشر سجيناً. ألن يرد أحد على هؤلاء الجلاّدين؟

استخبر نيكليودوف:

– بين النساء، ألم تقع حوادث؟

قالت إحدى السجينات مازحة:

– إن حياتنا، نحن النساء، أشد خشونة.

وأضافت وهي تشير بإصبعها إلى عربة مجاورة.

– تصوّر أن سجينة خطر لها أن تضع هنا. اصغِ، أتسمع أنينها؟

قالت ماسلوفا وهي تحاول جاهدة كتم ابتسامتها الفرحة:

– سألتني إن كنتُ أحتاج إلى شيء. لا تهتم بتأمين الماء لنا، لكن، لعلك تطلب إلى رؤساء القافلة أن يعملوا على نقل هذه المسكينة إلى المستشفى. لأنها ستموت حتماً إذا أُجبرت على متابعة الطريق.

– سأحدثهم في ذلك.

ابتعد نيكليودوف مُخلياً المكان لزوج فيدوسيا الذي سُمح له أخيراً بالاقتراب من العربة. واضطُرّ نيكليودوف أن يجري طويلاً على الرصيف دون أن يجد من يتوجّه إليه. وبدا الحراس أكثر حركة من ذي قبل. فبعضهم كان يضع السجناء في أماكنهم، وبعضهم كان يشتري مؤن الطريق أو يرتّب متاعه في العربة؛ ومنهم مَنْ كان يسارع وراء امرأة، هي امرأة أحد الضباط، وقد استعدّت للسفر مع زوجها. و لم يكن بينهم من يجد وقتاً للإصغاء إلى نيكليودوف.

دقّ الجرس الدقة الثانية، عندما شاهد نيكليودوف أخيراً رئيس القافلة. كان الضابط الضخم يُصدر أوامره إلى مساعد من المساعدين، وهو يمسح العرق عن جبينه.

سأل نيكليودوف:

– أأنت بحاجة إلى شيء؟

– في إحدى العربات امرأة تلد. وقد خطر لي...

صاح الضابط وهو يركض بساقيه القصيرتين، الضخمتين:

– تَلد؟ جيد جداً، دعها تفعل!

في اللحظة نفسها، وضع سائق القطار الصافرة بين شفتيه. وتلا الصفرة قرع الجرس الأخير، وتعالت من العربات ومن الرصيف صرخات وداع قوية. ورأى نيكليودوف العربات الثقيلة تمرّ أمامه، واحدة بعد الأخرى، وبين قضبان نوافذها ازدحمت رؤوس السجناء الحليقة. ثم ظهرت عربة النساء الأولى، ثم الثانية، ثم التي كانت فيها ماسلوفا. كانت المرأة الشابة واقفة أمام النافذة. فرمت نيكليودوف بنظرة أخيرة تصحبها ابتسامة حزينة تأثر بها كثيراً.

× × ×

-٣٩-

كان على نيكليـودوف أن ينتظر ساعتين حتى يحين موعد القطار الـذي سيُقلّه إلى «نيجني نوفغورود». وخطر له أن يستغل هذا الوقت ليزور أختـه. لكن انطباعات الصباح قد أتعتبه كثـيراً حتى أحس بأنه لا يقوى على الحركة. فدخـل قاعة الإنتظار، وجلس على مقعد، و لم تمض لحظة حتى غفا، ورأسه مستند إلى مخدة.

أيقظـه خادم بخلعتـه الرسميـة، وفي عروة سترته رقـم، وفي يده محفظة:

– يـا سيدي! يا سيـدي! ألسـتَ الأمير نيكليـودوف؟ ثمة سيدة تبحث عنك.

وثـب نيكليودوف، وفرك عينيه، وتذكّر أين هو، كما تذكّر كل ما وقع له في الصباح.

في ذكرياته، رأى قافلـة السجناء، والميتين، والعربات ذات النوافذ المشبكـة، والنسـاء المحبوسـات فيهـا، وبينهن امرأة تتوجـع أوجاع الـولادة، وما من معين لها؛ وامـرأة أخرى ابتسمت له بحزن من وراء القضبان.

أمــا المشهد الذي رآه أمامه فكان مختلفــاً جداً عن هذه الذكريات: رأى طاولــة مثقلة بالزجاجــات، والآنيــة، والشمعدانات، والزهور؛ وحول الطاولة خدم بخلعهم الرسمية ينامون، وفي صدر القاعة، أمام مكتب مغطّى أيضاً بالزجاجات، وقف، مسافرون أداروا له ظهورهم ليشتروا مؤناً.

عندما صحا مــن غفوته، لاحظ أن جميع الأشخاص الجالسين في القاعــة، كانوا ينظرون بفضول إلى شيء يجري أمام باب المدخل. وإذ التفــت إلى هذه الجهة، رأى جماعة من الرجال يحملون على كرسي سيدة ملفوفة بأخمرة.

كان أول الحاملــين خادمــاً تذكّــر نيكليودوف على الفــور أنه رآه مــن قبل، كما عــرف الشخصــ الــذي كان يمشي خلــف الكرسي، وهــو بواب بخلعة رسميــة، وعلى رأسه قبعة مزدانــة بأشرطة. وقرب الكرسي وقفت وصيفة أنيقة، تحمل حقيبة سفر، شيئاً مدوّراً في قراب من الجلــد وعدة مظــلات. وفي الجهة الأخرى، شاهــد نيكليودوف الأمــير العجوز كورتشاغين، بلباس السفر، وبشفتيه الغليظتين، ورقبة المصــاب بالسكنة. وكانت ميسي هنا أيضاً، وكذلك دبلوماسي شاب يعرفــه نيكليودوف جيــداً، والكونت أوستن، برقبتــه الطويلة التي لا نهاية لهــا، وبوجهه الدائم الابتسام. كان أوســتن يحدّث ميسي التي بدت مستمتعة بنكاته. رأى نيكليودوف أيضاً الطبيب يدخّن سيجارة بمظهره المألوف، مظهر الرجل السيء المزاج.

هــذا الموكب المهيب كان يجتاز القاعة الكــبرى متجهاً إلى الصالة

الصغرى المخصصة للسيدات، فأثار في طريقه فضولاً ممتزجاً بالاحترام. بيد أن الأمير عاد بعد لحظة إلى القاعة الكبرى، وجلس إلى طاولة، ونادى الخادم، وألقى إليه بأوامره. ثم جاء اوستن وميسي بدورهما، وذهبا ليجلسا، عندما شاهدت ميسي عند المدخل سيدة من معارفها فهُرعت إلى لقائها.

كانت السيدة ناتاليا ايفانوفنا، أخت نيكليودوف. كانت تسير بصحبة اغرافينا بيتروفنا، وتنقّل بصرها في كل الاتجاهات. باحثة عن شخص ما. فرأت أخاها وميسي في آن واحد. وحين اقترب نيكليودوف منها، قالت له، بعد أن شدّت على يد الفتاة:

– وأخيراً وجدتُكَ! كدتُ أيأس من لقائك!

صافح نيكليودوف ميسي وأوستن، وعانق أخته، وأخذوا يتحدّثون. روت ميسي أن بيتهم في الريف احترق، مما اضطرّهم إلى قضاء عدة أسابيع عند عمة لها تقيم على خط نيجني نوفغورود. فروى اوستن بفرح، في هذه المناسبة، قصة حريق. التفت نيكليودوف إلى أخته، دون أن يصغي إليه، وهتف:

– ما أعظم سعادتي بمجيئك!

قالت:

– أنا أبحث عنك، منذ ساعتين، لقد فتّشنا المدينة بأسرها، أنا وأغرافينا بيتروفنا، فلم نعثر عليك.

وأومأت بحركة مـن رأسها إلى المربية الضخمة التي كانت ترتدي معطفاً واقياً، وقبعة مشجّرة، وتقف بتواضع على حدة، لكي لا تعوق الحديث بينهما.

وردد

– تصـوّري أنني نمتُ هنا، على مقعد. مـا أعظم سعادتي مجيئك! كنت بدأت رسالة لكِ.

فسألت وهي بادية القلق:

– حقاً؟ وماذا كتبتَ لي؟

وإذ رأت ميسـي أن الأخ والأخـت بدأا حديثـاً خاصاً، رأت من واجبهـا أن تبتعـد هي وفارسها. قـاد نيكليودوف أختـه إلى النافذة، وجلسا علـى مقعد صغير مـن المخمل الأخضر وُضعـتْ عليه حقيبة وغطاء للسفر وكرتون قبعات.

اعترف نيكليودوف:

– نعم، خَطَر ببالي أمس، وأنا خارج من عندكم، أن أعود أدراجي لأقـدّم اعتذاري لزوجك. لكنني خفتُ أن يحمل زوجك ذلك محملاً سيئاً. كنتُ فظّاً البارحة، وهذا يقض مضجعي.

فهتفت ناتاليا ايفانوفنا:

– كنتُ أعلم، كنت واثقة أنك لم تكن سيء النية. أنت تعلم أن....

واستبقت الدموع إلى عينيها، فضغطت بحرارة على يد أخيها، وفهم نيكليودوف على الفور معنى الجملة التي لم تُتمّها. أرادت أن تقول إنها وإن أحبت زوجها فوق كل شيء في العالم، تحبّ أخاها، وكل انقسام بينهما يؤلمها.

فهتف نيكليودوف وقد تذكر فجأة السجينين الميتين:

– أشكركِ. آه! لو كنتِ تعلمين ماذا رأيت اليوم! رجلين قتيلين، يا ناتاشا!

– قتيلين، وكيف ذلك؟

– قتيلين، نعم، بالتأكيد. لقد عبروا بهم المدينة كلها، في هذا الحر، فمات اثنان منهم بضربة شمس.

– اليوم؟ قبل قليل؟

– نعم، رأيت جثتيهما.

دُهشت ناتاليا:

– لكن لماذا قتلوهما؟ مَنْ قتلهما!

– مَنْ قَتَلهما؟ قَتَلهما أولئك الذين أجبروهم على السير، في وهج هذه الشمس.

قال نيكليودوف ذلك وقد اهتاج لأنه أحسّ أن أخته ترى ذلك بعينٍ مختلفة عن عينه.

تعجبت أغرافينا بيتروفنا التي لم تستطع أن تمنع نفسها من الإستماع:

– يا إلهي، أممكن هذا!

تابع نيكليودوف، وهو يحوّل تلقائياً نظره إلى الأمير العجوز كورتشاغين الذي كان جالساً إلى طاولة، وفوطته في عنقه، أمام النبيذ البارد، وكأنه لا يفكّر في شيء آخر:

– ليس لدينا أدنى فكرة عمّا يكابده هؤلاء البائسون. بيد أن من واجبنا الإستعلام عن ذلك!

وفجأة رفع الأمير العجوز رأسه فأبصر نيكليودوف، فصاح:

– نيكليودوف! ألا تريد أن تتبرّد؟ هذا ضروري للسفر!

شكره نيكليودوف بإيماءة من رأسه.

استفهمت ناتاليا ايفانوفنا:

– وماذا ستفعل أنت؟

– سأفعل ما بوسعي. أحس، على كل حال، أنني يجب أن أفعل شيئاً. سأفعل ما بوسعي أن أفعله.

– نعم، نعم، فهمت.

وأردفت وهي تشير إلى آل كورتشاغين:

– هل انتهى كل شيء بينك وبينهم؟

– كل شيء، ودون أسفٍ، في تصوّري، لا منّي ولا منهم.

وسألته بحياء:

– خسـارة! فأنا أحـب ميسي كثيراً... بل ليس لـدي ما أقوله... لكن لماذا تريد أن تربط نفسك، لماذا تسافر؟

فأكّـد نيكليودوف بلهجة رصينة، جافة جداً، وكأنه يريد أن يُنهي الحديث.

– أسافر لأنني يجب أن أسافر!

وسرعان ما لام نفسه على هذا الموقف من أخته. وحدّث نفسه:

«لمـاذا لا أقول لها كل ما أفكر فيه؟ أنا واثق من أن أغرافينا بيتروفنا تسمعنا، لكن ما قيمة ذلك! فلتسمعنا هي أيضاً!»

وهتف بصوت مرتعش:

– تقصديـن مشروع زواجي بكاتيوشا. الحقيقـة أني وضعتُ هذا المشـروع منذ أول يوم لقيتُها فيه. لكنها رفضت الزواج بي رفضاً باتاً. وأبـت تضحيتي. وهي تُؤثر أن تضحي بنفسها، لأن لهذا الزواج، في وضعها الراهن، مزايا كثيرة. لكنني أنا لا أقبل أن تضحّي بنفسها. وأنا الآن أسافـر معها؛ وسأذهب إلى حيـث تذهب؛ وسأحاول أن أخفف من قسوة مصيرها!

لم تجـب ناتاليا ايفانوفنـا بشيء، وأخذت المربيـة العجوز تنظر إلى نيكليـودوف طـوراً وإلى أخته طوراً آخر، وهي تهـز رأسها، وقد بدا عليها الأسف.

في هذه اللحظة، خرج الموكـب المثير من قاعة انتظار النساء: كان الخـادم الجميل فيليب والبـواب ذو القبعة المزدانـة بالأشرطة يحملان الأميرة العجوز ليضعاها في القطار. وعندما وصلت السيدة إلى وسط القاعـة، أوقفت الحاملين، وأشـارت إلى نيكليودوف أن يقترب منها، ومدّت إليـه بخوفٍ يدها البيضاء المحمّلة بالخـواتم وكأنها تدعوه إلى مصافحتها بحذر.

وقالت وهي تئن:

– ماهـذا الحر المخيـف! إني لا أقوى على احتمالـه. هذا الطقس يقتلني.

فلما أنهت شكواها من الطقس الروسي ومن صحتها، أشارت إلى الحاملـين أن يستأنفا طريقهما. وقامت وهـي تدير نحو نيكليودوف وجهها الطويل:

– تعال إلى زيارتنا في الريف، لابد أن تأتي، أليس كذلك؟

سـار نيكليودوف نحـو الرصيف. كان موكب الأمـيرة يتجه إلى اليمـين، نحو عربات الدرجة الأولى. ومضـى نيكليودوف إلى الجهة الأخرى مـع «تاراس» زوج فيدوسيا الذي يحمـل كيسه على كتفه. وتبعهما خادم محمّل بمتاع نيكليودوف.

قال نيكليودوف لأخته وهو يشـير إلى «تاراس» الذي حدّثها عن قصته:

– انظري، هذا رفيقي في الطريق.

ذهلت أخته عندما رأتـه يقف أمام عربة من عربات الدرجة الثالثة ويشير إلى الخادم أن ينقل إليها حقائبه، وقالت:

– كيف؟ أتريد أن تسافر في هذه؟

أجاب:

– بدون شك، هذه أمْتعُ لي، ثم إني أحرص على رفقة هذا الإنسان الطيب.

واستأنف بعد لحظة صمتٍ:

– اسمعي، يا ناتاشا، أراضيَّ في كوزمنسكوي، لم أهبها للفلاحين، وإذا ما متُّ فإنها ستؤول على أولادك.

فهتفت ناتاليا:

– دميتري، أتوسل إليك، لا تكلمني في ذلك.

لكن نيكليودوف رأى في عينيها أن ما قاله لها قد ابتعث سرورها.

في الطرف الآخر من القطار، تجمّع جمهور من الفضوليين أمام المقصورة التي دخلتها الأميرة كورتشاغين. في هذه الأثناء استقر جميع المسافرين في أماكنهم، إلا بعض المتخلفين الذين هرعوا إلى العربات وهم يوسعون الخطا فوق درجات المرقاة؛ وأخذ السائقون يغلقون الأبواب. صعد نيكليودوف إلى العربة ووقف قرب النافذة.

ظلت ناتاليا ايفانوفنا واقفة على الرصيف، ومعها أغرافينا بيتروفنا. وإذ ضايقها أن تكون هنا بزينتها الأنيقة، وبقبعتها التي هي من آخر طراز، أخذت تبحث بوضوح عن موضوع للحديث فلا تجده. لم تكن تستطيع أن تطلب من أخيها: «اكتبْ»، لأنهما طالما ضحكا من هذه الجملة المعتادة التي يرددها المسافرون. وفضلاً عن ذلك، فقد كان يبدو أن الحديث عن مسألة المال والإرث أجهز على ما بقي بينهما من

علاقــات أخوية. أخذا يحسّان منذ الآن، نهائياً، أن كلاً منهما غريب عن الآخر.

اغتبطــت ناتاليا ايفانوفنــا، في أعماق قلبها، عندمــا تحرّك القطار واستطاعــت أن تقول لأخيها، مع إيماءة من رأسها وابتسامة: "وداعاً، يا دميتري، وداعاً!".

وحــين ابتعد القطار، لم تعد تفكّــر إلا في الطريقة التي ستروي بها لزوجها تفاصيل حديثها.

وكذلك نيكليودوف، فمع أنه لم يكن يشعر نحو أخته إلا بعواطفه كريمــة، ومع أنه لم يكن عنده ما يخفيــه عنها. غير أنه، أحس بالضيق. كان يستعجــل الإبتعاد، لشعــوره أنه لم يبق شيء من تلك الأخت التي كانــت شديــدة القرب منــه، فيما مضــى، والتي لا يمكــن أن تبدو له الآن سوى أمــة لرجل يثير اشمئزازه. ولقــد رأى بوضوح زائد كيف أن وجههــا انتعش عندما حدثهــا في موضوعات تهم زوجها: تسليم الأراضي للفلاحين، إرثه. فملأ قلبه حزن عميق.

× × ×

-٤٠-

كان الحـر لا يُطـاق في عربـة الدرجـة الثالثـة المـلأى بالمسافرين والمعرضـة للشمس منـذ الصباح، حتـى إن نيكليـودوف اضطر إلى النهوض والبقاء في الموقف الخارجي، مع أنه لم يكد يجلس بعد. لكن الحـرب كان خانقاً هنا أيضـاً، ولم يستطع نيكليودوف أن يتنفس بملء رئتيـه إلا عندما انتهى القطار من سيره بين البيوت، وبلغ هواء الحقول الطلق.

كان يقـول في نفسه، وهو يتذكر حديثه مـع أخته بشأن السجناء: "قَتَلَه، قَتَلَه!" ومن بين الانطباعات التي ساورته منذ الصباح، انطباع واحد كان يلاحقه: كان يتذكر بدقة وشدة خارقتين للعادة ذلك الوجه الجميـل، وجه الميت الثاني بشفتيه الباسمتـين وجبهته الصارمة، وأذنه الصغيرة المغبونة بنحافة، والظاهرة في الجانب الحليق من رأسه.

وقـال في نفسه: "لكن الفظيع، على الخصوص، أن هذين التعسين قُتـلا، دون أن يعلـم أحـد مَنْ الـذي قتلهما. لقـد سيقـا إلى المحطة مثـل سائـر السجناء، بنـاء على أمرٍ خطـي مـن ماسيلينيكوف. لكن ماسيلينيكوف، بطبيعة الحـال، اقتصر على إتمام إحدى الشكليات؛ إذ حُملت إليـه ورقة كُتِبـتْ في الدواوين ليوقّعها. ولعـل الغبي قد وقع

بالأحـرف الأولى أجمل توقيع، دون أن يسأل عما فيها. وهو لن يقبل على الإطلاق أن يرى نفسه مسؤولاً عن الحوادث التي وقعت. ولسنا نستطيع أيضاً أن نضع هـذه المسؤولية على عاتق طبيب السجن الذي استعرض السجناء قبل رحيلهم. لقد قام هذا بواجباته المهنية أدق قيام، فعـزل المرضى وأركبهم في عربـات، و لم يتوقع، بدون شك، أن يُسيّر السجنـاء، في الهاجـرة، وفي مثل هذا الحر، بجماعـات متراصة. أما المديـر فلم يفعل شيئـاً سوى أنه نفّذ هو أيضاً أوامـر رؤسائه. ذلك أنه سفّـر، في الموعد المحدد، عـدداً معيّناً من السجنـاء: كذا رجلاً وكذا امـرأة. ومن المستحيل اتهام رئيس القافلـة: لقد أمر بإحضار السجناء مـن ذلك الموضـع وسوقهم إلى موضع آخر؛ هذا مـا فعله كأحسن ما يستطيـع. وقـاد القافلة اليوم كما قادها آخر مـرة. وهو لا يستطيع أن يتنبّـأ أيضاً أن رجالاً أشداء، أصحّـاء، مثل الرجلين اللذين رأيتُهما، لن يتحملـوا التعب، وسيموتون في الطريق. ما مِنْ مُذنب مسؤول. ومع ذلك فقـد قُتل هذان التعسـان، قتلهما هؤلاء الرجـال أنفسهم الذين ليسوا بمذنبين، بمسؤولين عن موتهما!

وقال نيكليـودوف في نفسه، بعد ذلك: "إن ذلـك يأتي أيضاً من أن جميع هـؤلاء الرجال والحكام والمديرين وضبـاط الأمن، ورجال الشرطة، يرون أن في الحيـاة أوضاعاً لا تكون فيها العلاقة المباشرة بين الإنسان والإنسـان إجبارية. ذلك أن هؤلاء الرجال من ماسلينيكوف إلى رئيـس القافلة، لـو لم يكونوا موظفين لفكّـروا عشرين مرة في أن مـن غير الممكن تسيير هذه القافلة، في مثل هذا الحر، ولأوقفوا القافلة عشرين مـرة في الطريـق، إن رأوا سجيناً يتوجّع ويلهـث من التعب، ولأخرجوا ذلك السجين من صفوف السجناء، ولسقوه ماء، ولأبدوا

عطفهـم عليه، في حال إصابتـه. لكنهم لم يفعلوا شيئـاً من ذلك، بل إنهـم لم يسمحـوا لغيرهم بـأن يفعل ذلـك، لأنهم لم يكونـوا يرون أمامهـم أناساً، وواجباتهم إزاء هؤلاء الناس، بل إنهم كانوا يرون فقط الخدمـة، أي واجباتهم التي تُعفيهم، في نظرهـم، من كل علاقة مباشرة بين إنسان وإنسـان. قال نيكليودوف في نفسه: كل شيء يكمن هنا؟ وعندمـا نسلّم بأن هناك شيئاً أعظم أهمية من الشعور بالإنسانية. ولو لساعـة واحدة، وحتى في حالة استثنائية، فما من جريمة تتوانى حينئذ عن ارتكابها بحق الإنسان، معتقدين بأننا غير مسؤولين عنها.

كان نيكليـودوف مستغرقـاً في تأملاته استغراقاً عظيمـاً حتى إنه لم ينتبـه لتغير الجو: لقد تغطّـت الشمس بالغيـوم المنخفضة، وأقبلت ببـطء من أعماق الأفق سحابة رماديـة تدفقت على الحقول والغابات مطـراً مدراراً. وكنست الجو هبّة ريح. وبين الفينة والفينة، كان البرق يخـدّد السحابة، على قصف الرعد البعيـد. وأخذت قطرات عريضة مـن المطر، ساقتها الريح، تتحطم على سـترة نيكليودوف. فانتقل إلى الجهة الثانيـة من مسطحة القطار، وتأمل الحدائـق والغابات وحقول الشليـم الأصفـر، وحقـول الشوفان التـي ماتزال خضـراء، والأثلام السـوداء تتلوها خضرة البطاطا المزهـرة، وهو يتنشق بملء رئتيه رطوبة الأرض العطشى ورائحتها المنعشة. وفجـأة بدا كل شيء كأنها غطته طبقـة من الطلاء البـراق؛ فالخضرة غدت أشد خضـرة، والصفرة أشد صفرة، والسواد أشد سواداً.

وهتف نيكليودوف تلقائياً: "أهطـل أيها المطر، اهطل أيها المطر" مشاركاً في فرح الحقول والحدائق والبساتين التي بعث الحياة فيها هذا المطر المنعش.

وبالفعـل، اشتد هطول المطر، لكنه استمر قليلاً. وانتقلت السحابة الداكنـة بعيداً، بعـد أن صبّت شيئـاً من حمولتها علـى الأرض. فلم تسقـط بعد ذلك على الأرضـ المبللة سوى قطـرات صغيرة، رخوة، متباعدة. وعـادت الشمس إلى البروز، واستنـار كل شيء من جديد، وظهر في الأفق من جهة الغرب، قوس قزح مظلل تغلب عليه اللوينات البنفسجية.

سـأل نيكليـودوف نفسه، عندما انتهت هذه التبـدلات الطبيعية، ودخـل القطار بين الردم العميق الـذي لا يسمح بتأمل الحقول: "فيم كنتُ أفكّر، قبل قليل؟ آه! نعم، كنت أفكر في جميع هؤلاء الموظفين، وهم في معظمهم صالحون، مسالمون، حوّلتهم مهنتهم إلى شريرين، لا ينفـذ إليهم الشعور الإنساني كما لا ينفذ إلى حجارة هذا الردم. ولعل من الضروري حفر مثل هذه المنشآت وتغطيتها بالحجارة، لكننا نأسف أن نـرى الأرض محرومة من المطر الذي تنتظره، هذه الأرض التي كان بإمكانهـا هي أيضـاً، أن تُنتج القمح والعشـب والأدغال والأشجار. وكذلـك الأمـر بالنسبـة إلى الناس. كل الشـر يأتي مـن أن ثمة بعض المؤسسات التي يمكن أن يعمل فيها الإنسان دون رحمة إزاء أمثاله من البشر. نحن نستطيع أن نعمل بلا رحمة إزاء الأشياء؛ نستطيع أن نقطع الخشـب، ونطرق الحديد، ونشوي القرميـد، بدون محبة. لكن المحبة في العلاقـات بين البشر ضرورية، كما هـو ضروري، مثلاً، الاحتراس في علاقـات مربي النحل مـع النحل. الطبيعة تأمر بذلـك. إذا بدا لنا أن نهمـل الاحتراس في علاقتنا بالنحل أضررنـا بالخلية وبأنفسنا. بيد أننـا لا يمكن أن ننحّـي الأخوة جانباً، بين البشـر. فالمحبة المتبادلة بين الكائنـات الإنسانية هي الأساس الوحيد، الممكن لحياة الإنسانية. ولا

شـك، أن الإنسان لا يستطيع أن يُكره نفسه على المحبة، كما يستطيع أن يجبر نفسه على العمل. لكن لا ينتج عن ذلك أن الناس يستطيعون أن يتصرّفـوا بعضهـم مع بعضـ دون محبة، لأن كل واحـد يحتاج إلى الآخر. وعلى مَنْ لا يشعر بالمحبة لأمثاله من البشر ألا يهتم إلا بنفسه، وبالأشيـاء الجامـدة، وبكل ما يروق لـه، ماعدا النـاس، وكما أننا لا نستطيـع أن نـأكل إذا لم نشعـر برغبـة في الأكل، إلا إذا آذينا أنفسنا، فكذلـك لا نستطيع أن نتصرف مع البشر إلا إذا بدأنا بمحبّتهم. وإذا ما أجزتُ لنفسي أن أتصرف مع الآخرين دون محبة، كما فعلتُ أمس مع صهـري، فلا حدود بعد ذلك لما يمكن أن تُقدم عليه وحشيتي من شر. الأمر كذلك، نعـم، هذا صحيح!". هذا مـا كان يردده نيكليودوف علـى نفسه، وهو في آن واحد فـرح بأنه لقي شيئاً من البرودة بعد حر النهار الرهيب، وسعيـد لأنه خطا خطوة نحو حل المشكلة الأخلاقية التي كانت تشغل باله.

× × ×

-٤١-

كان ثلاثة أرباع العربة التي فيها نيكليودوف ملأى بالمسافرين؛ وبينهم الخدم والصنّاع وعمّال المصنع واللحامون واليهود ونساء الشعب؛ وكان هناك أيضاً جندي وامرأتان، الأم وابنتها. وكانت الأم تضع في كل من معصميها العاريين سواراً ضخماً، وكان بصحبتها رجل قاسي الوجه، لباسه كلباس البرجوازيين الميسورين. جميع هؤلاء، وهم من عامة الناس، استقروا الآن في أماكنهم، بعد أن اضطربوا كثيراً، في البداية، ليجدوا تلك الأماكن وليرتاحوا فيها. كانوا يأكلون ويدّخنون، وبدأت بين الجيران أحاديث نشطة.

كان تاراس، زوج فيدوسيا، جالساً إلى اليمين، في وسط العربة، محتفظاً بمقعد أمامه لنيكليودوف. كان وجهه الطيب يشع بالسعادة. وكان يحدّث فلاحاً آخر، يجلس على المقعد الصغير نفسه، ويرتدي وزرة فضفاضة من القماش، وقد علم نيكليودوف فيما بعد، أنه بستاني يعود من عطلته. كان نيكليودوف يهم بالرجوع إلى مكانه، عندما شاهد، في الممر المركزي، شيخاً أبيضا اللحية يحدّث امرأة شابة بلباس الفلاحات، إلى جانبها طفلة بنت ست سنوات أو سبع، لها

ضفيرتــان مصفّرتان، ترتدي فستاناً فلاحياً جديداً بلا كمّين، وترقّص ساقيهــا المسرفتي القصر لعلها تبلغ بهما خشب الأرض، ولا تكفّ عن قضم بــزر دوار الشمس. ومن غير قصد، وقف نيكليودوف أمامهم. وسرعــان ما رفع الشيخ أطراف وزرتــه التي كانت منتشرة على المقعد وقال له بصوت جذاب:

– إجلس، أرجوك.

شكــره نيكليــودوف وجلس بجنبــه. واستأنفــت الفلاحة القصة التــي قطعتها، بعد أن صمتت برهــة. كانت تتحدّث عن الطريقة التي استقبلها بها زوجها، وقد جاءت لتعيش معه بضعة أسابيع:

– ذهبــتُ في عيــد المرفع، واستطعت الآن، بفضــل الله، أن أزوره زيارة ثانية، أنــا عائدة في الوقت الحاضر، إلى القرية. وفي عيد الميلاد، سنلتقي ثانية، إن شاء الله.

فحكمَ الشيخ على ذلك بقوله:

– هذا حسن جداً.

وأوضح، وهو يلتفت إلى نيكليودوف:

– مــن المناسب جداً أنهما يستطيعان الإلتقــاء بين حين وآخر وإلا تَعرّض الزوج لكثير من المخاطر، بسبب كونه شاباً ووحيداً في المدينة.

– لا، يــا جــدي، فزوجي ليس من هذا النــوع! وهو لا يقدم على تلك الحماقــات. لأنه وديع كالحمل. إنه يبعــث إلى القرية بكل ما له،

حتى آخر فلس فيه. كم كان سعيداً برؤية ابنته، من المستحيل التعبير عن ذلك!

أخذت الصبية التي كانت تصغي إلى الحديث دون أن تكفّ عن ترقيص ساقيها وعن لَفظ قشور بزر دوار الشمس الذي تقضمه، تنقّل عينيها الوديعتين، الزرقاوين، الذكيتين، من الشيخ إلى نيكليودوف، كأنها تريد أن تؤكّد أقوال أمها.

وافق الشيخ:

– إن كان عاقلاً فذلك أحسن.

وسألها وهو يشير بعينيه إلى زوجين من العمال جالسين في الجهة الأخرى من الممر.

– وهذا، ألا يحبّه؟

كان الزوج يعبّ، وقد رد رأسه إلى الخلف، زجاجة من الخمر، بجرعات كبيرة، في حين كانت امرأته تنظر إليه وهو يشرب، ممسكة بيدها الحقيبة التي أخرجت منها الزجاجة.

أكّدت الفلاحة، وقد أسعدها أن تتاح لها الفرصة لتمدح زوجها:

– لا إن زوجي لا يشرب بتاتاً. إن أمثاله قليلون على الأرض... لو كنتَ تعلم ما أكرم نفسه!

– وهذا أحسن.

قال الشيخ ذلك دون أن يستطيع الامتناع عن الالتفات إلى المشهد الذي كان يجري في الجهة الأخرى من الممر.

ذلك أن العامل بعد أن شرب، ناول امرأته الزجاجة فأخذت تحتسي الخمر بدورها، وقد ملأها السرور. وفجأة التفت الزوج إلى الشيخ وإلى نيكليودوف، حين رأى تطلّعهما إليه، وهو يصرخ:

– ما بك، أيها النبيل؟ ألأننا نشرب؟ لا أحد ينظر إلينا كيف نعمل، فإذا شربنا نظر الجميع إلينا! اشتغلتُ بأجرتي وها أنا ذا أشرب الآن. وامرأتي تفعل مثلي. أما ما يفكر فيه الآخرون فلستُ أبالي به!

قال نيكليودوف ،وهو لا يدري ما يجيبه به:

– بلا شك، بلا شك.

– أليس صحيحاً، أيها النبيل؟ امرأتي قوية، وأنا مسرور منها، كما أنها مسرورة مني. أليس صحيحاً، يا "مافرا"؟

أجابت المرأة:

– هيا، دونك الزجاجة، شربتُ ما يكفي. أمازلتَ تهرف بحماقاتك!

فقهقه العامل:

– أرأيت إليها! إنها امرأة عنيدة، لكنها إذا أخذت تتأوه فإنها تصرّ صرير عربة لم تُشحّم عجلاتها. أليس صحيحاً، يا مافرا؟

هــزّت المرأة كتفيها وهــي تضحك ضحكاً عريضــاً وتلوّح بيدها كالسكرى.

وأردف العامل:

– إنهــا طيبــة إلى حد ما. لكنها إذا ما أُثــيرتْ أو ضُيِّق عليها، فمن المستحيــل كبح جماحها. ما أقولــه صحيح! أنت، أيهــا النبيل، أرى بوضوح أنــك تظنني سكران. نعم، تجاوزت الحــد قليلاً، وما حيلتي في ذلك؟

قــال العامل ذلك، ومدد ساقيــه، وأراح رأسه علــى كتف امرأته، وأغفى. ظــل نيكليودوف بعض الوقت أيضاً قرب الشيخ الذي روى لــه قصته. كان صانع مدافــئ. وهو يعمل منذ اثنتــين وخمسين سنة: لقــد أصلح ما لا يُحصى من المدافئ. وهو الآن يتمنى أن ينال شيئاً من الراحة. ولذلك جــاء بأولاده إلى المدينة، للعمــل، وعاد هو إلى القرية لــيرى أسرتــه. وعندما فرغ من قصتــه، نهض نيكليــودوف واتجه إلى المكان الذي احتفظ له به زوج فيدوسيا.

قال البستاني في مواجهة تاراس وهو يرفع إليه نظرة باسمة:

– أيها النبيل، ألا تريد أن تجلس؟ سنزيح هذا الكيس لتجد راحتك.

وقال "تاراس" مازحاً بصوته الرخيم:

– في الضيق يصبح الناس أقرب بعضهم من بعض.

ورفــع كيســه الضخم كما يرفــع ريشة، ووضعه بــين ساقيه، على أرض القاطرة.

كان تاراس يقول عن نفسه: إنه عندما لا يشرب فإنه لا يعثر على الكلمات، لكن الكحول تحلّ عقدة لسانه، وحينذاك يستطيع أن يعبّر عن كل شيء. والواقع أن تاراس كان سَكوتاً، لكنه ما إن يشرب، وهو لا يشرب إلا نادراً، حتى يتكلم بطلاقة، وبوداعة ساخرة، وهي وداعة كانت تُقرأ أيضاً في عينيه الجميلتين، الزرقاوين، وفي ابتسامته البريئة. وبما أنه شرب قليلاً، هذا اليوم، قبل السفر، فقد كان فياض القريحة. قطع قدوم نيكليودوف عليه حديثه في أول الأمر؛ لكنه تابع روايته بعد أن استقر، وكيسه بين ساقيه؛ كان يروي للبستاني جميع تفاصيل قصة امرأته، ولماذا حُكم عليها، ولماذا يذهب هو إلى سيبيريا. كانت قصته تثير اهتمام نيكليودوف بشدة، و لم يكن يعلم من هذه القصة إلا ما روته ماسلوفا له. ومن المؤسف أن تاراس كان بعيداً جداً عن البداية فلم يجد نيكليودوف من اللياقة أن يدعوه إلى استئنافها من جديد. لكنه علم على الأقل أن الأمور جرت بعد التسميم عندما اكتشف أهل تاراس جريمة فيدوسيا.

أوضح له تاراس بمودة:

– إنني أروي له مصائبي. لقد روى لي هذا الرجل الطيب مصائبه، وجاء دوري الآن. كنتُ أقول إذن: إن كل شيء اكتُشف. حينئذ قالت أمي لأبي: "اذهب إلى رئيس الشرطة". لكن أبي كان رجلاً مُنْصفاً، فقال لها: "يا عجوز، إنها ماتزال طفلة، وهي لا تعلم ما تفعل. ينبغي أن نشفق عليها، فلعلها تتوب". لكن أمي أبت أن تصغي إليه، وقالت له: "حقاً، تريد أن نحتفظ بها في البيت لتسممنا، نحن أيضاً، كالخنافس!" وإذا بها ترتدي ثيابها وتذهب على رئيس الشرطة.

وسرعان ما يشتبه بالقضية، فيصل إلى البيت ويقتاد فيدوسيا...

سأله البستاني:

– طيّب! وأنتَ؟

– أنـا، كنت هناك مصاباً بالمغص والغثيان! كان بطني مقلوباً رأساً على عقـب، من المستحيـل أن أعبّر عمـا أصابني بكلمـات أخرى. وفي الحـال رُبطت الجياد لاقتياد فيدوسيـا إلى مركز الشرطة. وسرعان مـا اعترفت بكل شيء، يا صاحبي. قالـت كيف حصلت على السم، وكيف أعـدّت الفطائر. وعندمـا سُئلت: "لكن لمـاذا فعلتِ ذلك؟" أجابـت: "لكي أتخلّص منـه، وأنا أفضل سيبيريا علـى العيش معه!" وأضـاف الفلاح وهو يبتسم: "هي تعني: "معـي أنا". اعترفت بكل شـيء، واتّضحت القضيـة، ولم يبق سـوى السجن. ثـم يأتي موسم الحصـاد. وأمي وحيدة، عجوز، لا تـكاد تقوم بشؤون الطبخ. حينئذ يذهـب أبي إلى القاضي، فلا يُفلح؛ ويذهـب إلى موظف آخر، ثم إلى خمسة موظفين واحداً بعد الآخر، فيرفضون الإستماع إليه. وأوشكنا أن نـدع الأمـر لـولا أن وقعنا على موظـف ماكـر، لا يُدانيه أحد في المكـر. قال لنـا: "أعطوني خمسة روبلات، وأنـا سأخرجها لكم من السجن". فاتفقنا علـى ثلاثة روبلات. ورهنتُ أمتعتها. ففعل ما قاله لنا. وكانت صحتي قد تحسنت، فذهبتُ بنفسي لأحضرها من المدينة. وضعت الجـواد في النزل، وأخـذت الأوراق، وجريتُ إلى السجن. "ماذا تريد؟" قلت: "امرأتي محبوسة هنا!" سألوني– "أمعك أوراق؟" أعطيتهـم الأوراق، فنظروا إليها، وقالـوا لي: "هيا، ادخل!" جلستُ على مقعـد. وإذا بالرئيس يدخل ويسألنـي: "أنت فارغوشوف؟" –

"أنـا هو" – "طيب! انتظـر قليلاً" وفي ظرف ساعـة، يُفتح الباب، ويُؤتى بفيدوسيا، وهي بثيابها التي لبستها من البيت. قالت لي:

– "أجئـتَ ماشيـاً؟" "لا، الجواد في النـزل". ونذهب إلى النزل، وأدفـع ثمن العلف، وأضع في العربـة ما بقي من الشوفان وتجلس هل ملتفة بخمارها الكبـير، ونمضي في طريق العودة، فلا تقول شيئاً، ولا أقـول شيئـاً، حتى إذا اقتربت مـن المنزل، إذا بها تسـأل: – "وأمك، أمـا تزال حية؟" فأجيبها: –"نعم" – "وأبـوك؟" – "نعم، إنه مايزال حياً". فتقول لي:

– أوه! سامحني، يا تاراس، فلم أكن أدري ماذا أفعل!"

فأجيبها:

– لا داعي للكلام، لقد صفحتُ عن كل شيء، منذ زمن بعيد.

وبعد ذلـك لم نجد ما نقوله، وحين نصل إلى المنـزل، إذا بها ترتمي على قدمي أمي، فتقول لهذا العجوز:

– "ليسامحك الله!".

ويُعانقها أبي قائلاً:

– مـا مضى مضى. عيشي الآن كما ينبغي أن تعيشي. جئت الآن، في الوقـت المناسب، لمساعدتنا. الحمـد لله أن القمح قد نما نمواً حسناً الآن، ولابـد من حصاده. اذهبـي غداً صباحاً مـع تاراس لتحصدي معه".

ومنذ هذا الوقت، أكبّت على العمل، يا صاحبي. ليتك تراها وهي تعمل! كان عندنا إذ ذاك ثلاثة هكتارات من الأرض استأجرناها. وقد طلع القمح والشوفان بوفرة، والحمد لله. فأخذت أحصد وهي تربط حزم الحصيد. وإذا بها تمهر في هذا العمل حتى دهش كل مَنْ في البيت. وما كان أعظم اندفاعها! كنا نعود إلى البيت، وأصابعنا متيبسة، وأذرعنا متعبة؛ فلا أفكر إلا في شيء من الاستراحة، لكنها لا تلبث أن تجري إلى المستودع، قبل العشاء لتحضر ربطات الحصاد لليوم التالي. لو رأيتها لصعبَ عليكَ أن تصدق!

سأله البستاني:

– وأصبحت أرقَّ معك؟

– لا تسأل! تعلّقت بي تعلقاً شديداً حتى صرنا نفساً واحدة. فما يجول بخاطري يجول بخاطرها. أمي ذاتها التي لم تكن متسامحة قالت: "لقد بدّلوا لنا ابنتنا فيدوسيا، فلم تعد هي نفسها!" وذات يوم سألتها ونحن ذاهبان لجمع الحزم:

– قولي لي، يا فدوسيا، كيف عنّتْ لك تلك الفكرة؟

فقالت لي:

– كنتُ أحسب أنني لا أستطيع العيش معك، وأن الموت أفضل.

– والآن؟

– الآن، أنتَ الذي في قلبي.

توقف تاراس ليهــز رأسه، وعلى وجهه ابتسامة مشرقة. لكنه تنهّد واستأنف:

– وأعــود ذات يوم من الحقل، فأجــد مفوّض الشرطة ينتظرنا أمام الباب. جاء ليأخذ فيدوسيا من أجل المحاكمة. ونحن لم يخطر لنا أنهم سيحاكمونها! لقد نسينا كل شيء!

وأبدى البستاني رأيه فيما فعلته فيدوسيا:

– مــن المؤكد أن الشيطان هو الذي أغواها. أيخطر ببال إنسان أن يهلك نفسه هكذا. وهذا شبيه بما جرى عندنا، ذلك أن رجلاً...

وبدأ البستــاني قصة، لكن القطار خفّف سرعتــه، في هذه اللحظة نفسها. فأعلن البستاني:

– لقد توقف القطار، فهلمّ نحتسِ جرعة.

هكذا انقطع الحديث. ولحق نيكليودوف تاراس والبستاني ليتمشى جيئة وذهاباً على أرضية المحطة الصغيرة، المبللة.

-٤٢-

شاهــد نيكليودوف في فناء المحطة، حتى قبل أن ينزل من القطار، عدداً مــن العربات الفخمة، المربوطة بجياد بديعة. وعندما نزل، رأى تجمعــاً يتشكل أمام إحدى عربــات الدرجة الأولى في وسط الجماعة، ظهــرت سيدة طويلة القامة، جسيمة، ترتــدي مشمعاً واقياً من المطر، وعلى رأسها قبعة مزدانة بالريش الثمين. وكان يصحبها شاب طويل، هزيــل الساقين، يرتدي ثياب سائقي الدراجات، وكلب ضخم يقوده الشاب. وحول السيدة العجوز والشاب خف خادم مقصورة يحمل علــى ذراعه معاطف، ووصيفة وحوذي. وكانــت هذه الجماعة، من السيــدة الضخمة إلى الحــوذي، تكوّن مزيجاً غريباً مــن الثقة بالذات والرضــا عنهــا. والناظــر إلى هؤلاء الناســ كان يحس أنه بــإزاء أناس مرفّهــين، صحيحــي الأجسام، مسروريــن من وجودهــم في العالم. ولم تلبــث أن تشكلت حول هــذه الجماعة حلقة من الفضوليين الذين جذبهــم منظر الــثروة؛ وفي عدادهــا رئيس المحطة بعمرتــه الحمراء، ودركي، وفــلاح شاب كان يبيــع أرغفة صغــيرة، ومستخدم البرق، ونحو عشرة مسافرين خرجوا عن عرباتهم.

عرف نيكليودوف في الشاب ذي الكلب، أخا ميسي. ولم تكن السيدة البدينة غريبة عنه، لأنها عمة ميسي التي يقصد آل كورتشاغين إلى بيتها لقضاء الصيف فيه. فتح حارس القطار باب المقصورة، وأمسك بالباب مفتوحاً، مبدياً ضروب الاحترام، حتى فرغ الوصيف فيليب ومستخدم المحطة من إنزال الأميرة العجوز في كرسي المرضى. تعانقت الأختان، وسمعهما نيكليودوف تتبادلان عدة جمل بالفرنسية حول ما إذا كان ينبغي أن تصعد الأميرة في عربة مغلقة أو مكشوفة. وبدأ الموكب سيره، في مقدمته السيدتان، وفي مؤخرته الوصيفتان المحمّلتان بالمظلات والأخمرة والمشاجب.

خوفّته فكرة لقاء آل كورتشاغين ووداعهم من جديد، فاستظل بعمود حتى خرج الموكب من المحطة. كانت الأميرة العجوز وابنها، وميسي والطبيب يسيرون على رأس الموكب، وجاء الأمير وأخت زوجته في الصف الثاني. وبين نتف الجمل التي تناهت على سمع نيكليودوف واحدة أذهلته، دون أن يَعرف لماذا، كما يقع ذلك كثيراً، وظلت ثابتة في ذاكرته، مع نبرة الصوت التي رافقتها. كانت الجملة جملة قالها الأمير وهو يحدّث أخت زوجته عن أحد الناس:

– أوه! هو من أكابر الناس، من أكابر الناس حقاً.

قال الأمير العجوز كورتشاغين هذه الجملة بصوته الرنان المليء بالرضا عن الذات، في اللحظة التي كان يمر فيها أمام باب المخرج، وقد حياه باحترام صفان من المستخدمين، والعمال حملة الأمتعة.

وفي الوقت نفسه، ظهرت على الرصيف جماعة من العمال

بصنادلهـم الخشبيـة، وأكياسهم علـى ظهورهم، يأتـون من الطرف المقابـل للمحطة. تقدّموا بخطـاً ثابتة من أول عربـة أمامهم، وهمّوا بدخولهـا. وعلى الفور هَـرَعَ حارس القطار ليمنعهـم من الدخول. فاستأنف العمال سيرهم واستطاعوا، مع شيء من التدافع، أن يتمكنوا مـن الصعود إلى عربة القطـار الثانية. ولاشك أن هـذه العربة لم يكن فيها أماكـن لهم، ذلك لأنهم أمروا بالنزول، وقد صُبّت عليهم جميع أنواع الشتائم. حينئذ اتجـه العمال إلى العربة الثالثة، وهي نفسها التي كان نيكليـودوف فيها. ومرة أخرى، جـاء الحارس ليأمرهم بالبحث في عربـات أخـرى. لكن نيكليودوف الذي حضـر المشهد قال لهم: إنهـم يستطيعون أن يجـدوا لهم أماكن هنا. فصعـدوا إذ ذاك وصعد نيكليودوف في إثرهـم.

في العربـة، تقـدّم العمـال على طـول الممـر، بحثاً عـن الأماكن التي يمكنهم الجلوس فيها، فتصدّى لهم البرجـوازي والمرأتان اللتان تصحبانـه، واعترضوا علـى قبولهم فيمـا بينهم، معتبريـن، من دون شك، دخول هؤلاء العمال إهانة شخصية لهم، وأمروهم أن يخرجوا بأسـرع وقت. وسرعان ما استأنف العمـال سيرهم في الممر، صادمين بأكياسهم المقاعد والحواجز والأبـواب. وكان واضحاً أنهم يحسّون بالضيق إحساساً صادقاً، وأنهم مستعدون للطواف من عربة إلى عربة حتى آخر العالم، بحثاً عـن الأماكن التي يستطيعون أن يستقروا فيها. كانوا حوالي عشرين، بينهم الشيوخ والفتيان، لكنهم جميعاً قد جفّت وجوههم وسُفعـت، وقد حملوا في نظرات عيونهـم المجوّفة مزيجاً واحداً من التعب والإذعان.

صاح بهم الحارس الذي أقبل عليهم من الطرف الآخر من القطار:

– إلى اين تذهبون، أيها الأوغاد؟ صعدتُم إلى هذه العربة، فدبّروا أنفسكم لتظلّوا فيها!

هتفت الشابة وهي مقتنعة بأن فرنسيتها الأنيقة ستحمل نيكليودوف على الإنتباه:

– وهذا أيضاً من الطرائف.

أما السيدة العجوز ذات الأسورة، فقد اقتصرت على أن أبدت اشمئزازها، وسدت أنفها، وقطّبت حاجبيها، وأعربت بتعجب عما تجده من انزعاج حين تضطر إلى السفر برفقة مثل هؤلاء الفلاحين الفظيعين، الكريهي الرائحة.

في أثناء ذلك، توقّف العمال في الممر، من غير تردد، وهم يحسّون بالراحة، كمن يخرج من الخطر سليماً، معافى، وأخذوا يحتلون أماكنهم، وهم يهزّون بحركة أكتافهم الأكياس الثقيلة التي يحملونها على ظهورهم ليطرحوها، فوق المقاعد.

ترك البستاني مكانه الذي كان يشغله في مواجهة تاراس، بعد أن وجد صديقة له في قطار آخر، فشغرت ثلاثة أمكنة بجنب تاراس وأمامه. فسارع ثلاثة من العمال إلى الجلوس فيها؛ لكن، عندما اقترب نيكليودوف منهم، اضطربوا لمرأى ثيابه الجميلة اضطراباً شديداً حتى لقد نهضوا ليبحثوا عن أمكنة أخرى. واضطر نيكليودوف إلى أن يُلح عليهم ليقبلوا بالجلوس: وظل هو نفسه واقفاً مستنداً إلى حافة أحد المقاعد.

تبادل أحد العمال، وكان رجلاً طويلاً وهزيلاً، في الخمسين من عمره، نظرة تنم على الحذر مع رفيقٍ له، أصغر سناً منه، جالس في مواجهته. لقد أصيبا، من غير شك، بالدهشة وبشيء من القلق من أن يتخلى نيكليودوف عن مكانه لهم، بدلاً من أن يطردهم ويهينهم، كما يجدر بالنبيل أن يفعل. لم يكن باستطاعتهما أن ينزعا من فكرهما أن شيئاً سيئاً سينجم عن ذلك. لكنهما عندما لاحظا أن ليس وراء ذلك نية إيذائهما، وأن نيكليودوف يتحدث مع تاراس بكل بساطة، اطمأنا. وأصر الذي يجلس بجنب تاراس على الانتقال إلى مقعد آخر، حتى يتيح لنيكليودوف أن يجلس. وفي بداية الأمر، أظهر العامل المسن كثيراً من الارتباك، فانقبض على مقعده جهده، مخفياً قدميه المحتذيتين حذاء خشبياً تحت المقعد، خوفاً من مضايقة النبيل. بيد أنه سرعان ما تشجع وأخذ يحادث نيكليودوف بكثير من الدالة حتى أنه شد بيده الخشنة على ركبة نيكليودوف عدة مرات، لينبّه إلى أهمية ما كان يقوله.

عرّف نيكليودوف باسمه وبقريته. وروى له أنه ورفاقه عائدون إلى قريتهم بعد أن اشتغلوا شهرين ونصف في مَتْربة. وقد أتاح له ذلك أن يعود بمبلغ عشرة روبلات، كما أنه قبض خمسة روبلات في الشهر السابق. وفي مقابل هذه الخمسة عشر روبلاً اشتغل في عمل قوامه دخول الماء حتى الركبتين، بدون انقطاع، من الصباح إلى ساعة الغداء. وأعلن:

– مَنْ لم يتعود ذلك العمل، يشق عليه، في بادئ الأمر، أن يألفه ، فإذا تمرّس به زالت آلامه. لكن ليت الطعام كان صالحاً للأكل! في

الأوقـات الأولى لم نكـن نستطيـع أن نقربه، لكننـا احتججنا فصار أفضل. وصار العمل أخف.

وروى أنـه كان يشتغل بالمياومة هكذا منذ أكثر من ثمانية وعشرين عامـاً. وكان دائماً يحمل المـال الذي يكسبه إلى بيته: إلى أبيه أولاً، ثم إلى أخيـه الأكبر. وهو الآن يعطيه ابن أخ له أصبح رب العائلة. أما هو فلـم يكن يَستَبقي لنفسه من الستـة والخمسين روبلاً التي يكسبها كل عام سوى روبلين أو ثلاثة «ليلهو بها»، ليشتري تبغاً وعلب كبريت.

وأضاف مازحاً وهو يبتسم كالمذنب:

– ثم إني خاطئ من الخطاة، وذلك عندما أشرب بما بقي معي قدحاً صغيراً من الخمر.

وتحـدث العامل أيضاً عن رفاقه المتزوجين الذين بقيت نساؤهـم في القريـة يعشن من المال الـذي يرسلونه إليهـن. وروى كيف أن رئيس العمـال قدّم لهم، هذا اليوم، قبل أن يصرفهم، نصف سطل من الخمر، وكيف أن أحد رفاقه مات، وأنهم يحملون معهم رفيقاً آخر مريضاً.

كان هـذا المريض جالساً في المقصورة المجـاورة. كان شاباً نحيلاً وشاحباً، شفتاه زرقاوان. ولاشك أنه أصيب بحمّى المستنقعات وهو يعمـل في الماء. اقـترب نيكليودوف منه. فرفع المريضـ إليه نظرة قلقة ومليئـة بالألم في آن واحد، حتى أن نيكليودوف لم يجسر على إنهاكه بطـرح الأسئلة عليه. واكتفى بأن طلب من العامل أن يشتري شيئاً من الكينـين. وكتب اسم الدواء على ورقـة صغيرة. وأراد أن يعطيه بعض

المال لكن العامل أبى ذلك بقوة، وقال لتاراس بينما كان نيكليودوف يدير ظهره:

– رأيتُ كثيراً من النبلاء، أما مثل هذا النبيل فإني لم ألقَ قط! إنه لا يمتنع فقط عن إزعاج الآخرين، بل إنه يقف ليتخلى لهم عن مكانه. وهذا يدل، يا صاحبي، على أن النبلاء أيضاً، أنواع شتّى!

وفكّر نيكليودوف في نفسه، وهو ينظر إلى أعضاء هؤلاء الرجال الهزيلة، القوية العضلات، وإلى ثيابهم الخشنة، وإلى وجوههم المُتعبة: «نعم، إنه عالم مختلف، عالم جديد». كان يحس بنفسه مُحاطاً، من كل جانب، بإنسانية جديدة عليه، إنسانية لها مصالحها وأفراحها وآلامها. أحس أنه بحضرة حيوات إنسانية يعمل فيها كل واحد.

قال في نفسه، وهو يتذكّر الجملة التي قالها الأمير كورتشاغين، ويفكّر في ذلك العالم العاطل، الذي يحيا حياة مترفة، منصرفاً إلى ما في مصالحه من دناءة وتفاهة:

«هؤلاء هم أكابر الناس حقاً».[٤٢]

حينئذ أحس الإحساس الفرح لمسافر انفتح له عالم جديد، مجهول، عجيب.

٤٢– هؤلاء نعم «أكابر الناس حقاً»: في هذه الفترة كان تولستوي يدعو الفلاحين أكابر الناس.

الجزء الثالث

-١-

قطعت القافلة التي كانت ماسلوفا فيها حوالي ثلاثة آلاف ميل. وحتى «بيرم» سافرت كاتيوشا بالقطار وبالباخرة، بصحبة سجناء الحق العام. وبدءاً من بيرم فقط، أفلح نيكليودوف في نقلها إلى جماعة السجناء السياسيين، كما أشارت عليه بوغودوكوفسكايا، التي كانت ضمن القافلة، وفي الجماعة نفسها.

كانت الرحلة حتى «بيرم» شاقة جداً على ماسلوفا، من الناحية الجسمية ومن الناحية النفسية على السواء. من الناحية الجسمية بسبب الإزدحام والقذارة، والحشرات الكريهة التي لم تكن تترك لها لحظة من الراحة. ومن الناحية النفسية، لأن الرجال الذين كانوا كريهين كالحشرات ذاتها، قد صبّوا عليها مضايقاتهم حيثما حلّت، بضراوة لا تتغير، وإن تغيروا هم من مرحلة إلى مرحلة، دون أن يدعوها وشأنها بسلام. ولقد قامت بين السجينات وبين السجناء والحراس والجنود صلات فاسدة، فاجرة إلى الحد الذي كان ينبغي فيه لكل امرأة أن تكون محترسة على الدوام، ولاسيما إذا كانت شابة. وكانت هذه الحالة من الخوف والصراع المستمر حالة يصعب احتمالها. وكانت

ماسلوفا أكثر تعرضاً لها من غيرها جراء جسدها الجذّاب وماضيها الذي يعرفه الجميع جيداً. وقد بدت المقاومة العنيدة التي كانت تواجه بها الرجال الآن وكأنها إهانة لهم، وحملته على أن يُضمروا الشر لها. بيد أن كانت تجد سنداً عظيماً في جوار فيدوسيا وتاراس. ذلك أن تاراس عندما علم بالمضايقات التي تتعرض لها زوجته، آثر أن يدخل السجن ليُحسن الدفاع عنها. وسافر منذ نيجني نوفغورود بصفته سجيناً بين السجناء المُبْعَدين.

إن نقل ماسلوفا إلى زمرة السجناء السياسيين قد حسّن أحوالها من كل الوجوه. ففضلاً عن أن «السياسيين» كانوا أفضل مسكناً وغذاء، وأقل عرضة للفظاظات، لقد كان لهذا النقل فضل إنقاذها من إزعاج الآخرين. فهي تستطيع الآن أن تعيش دون أن تذكّرها كل لحظة ماضيها الذي تتمنى أن تنساه. بيد أن أعظم مزايا هذا النقل يكمن في الإحتكاك ببعض الأشخاص الذين أثّروا فيها تأثيراً نافعاً وحاسماً.

سُمح لماسلوفا أثناء الوقوف أن تبقى مع السجناء السياسيين، لكن، كان ينبغي لها أن تنضم إلى سجناء الحق العام، أثناء السير، باعتبارها امرأة صحيحة الجسم. وهكذا، فمنذ «تومسك» سايرت القافلة مشياً على قدميها، وبجنبها كان يسير، مشياً، على الأقدام، «سياسيان» هما «ماريا بافلوفنا ستيتينين» -الفتاة الجميلة البارزة العينين التي جذبت انتباه نيكليودوف، أثناء حديثه مع بوغودوفسكايا- ورجل يدعى سيمونسون. كان هذا المنفي إلى مقاطعة إياكوتسك ذلك الرجل ذا الشعر الأسود المشعث، والعينين اللتين نُزّلتا بعمق تحت جبهة مقوّسة، الذي لاحظه نيكليودوف في المناسبة نفسها. كانت ماريا بافلوفنا

تمشي علـى قدميها لأنها تخلّت عن مكانهـا في العربة لامرأة حامل، من سجنـاء الحق العام. وكان سيمونسون يسير علـى قدميه أيضاً لأنه يرى أن من الظلم استغلال الامتياز الطبقي.

هكـذا كان الوضـع أثناء الوقفـة الأخيرة قبل الوصـول إلى المدينة الكبيرة. وفي هذه المرحلة تسلّم القافلة ضابط جديد.

كان ذلك في صبيحة باردة من أوائل أيام أيلول. كان الثلج يتساقط غزيراً تارة، والمطر يهطل مدراراً تارة أخرى، تصحبهما ريح جليدية. وقد دلـف جميع سجناء القافلـة –أربع مائة رجـل وحوالي خمسين امـرأة– إلى فناء المكان الذي توقّفـوا فيه. كان بعضهم يتدافعون حول الضابـط المرافـق الذي انهمـك في توزيع المال المخصص لشراء مؤنة يومـين، على رؤساء المجموعـات. وكان صياح البائعات الحاد يغطي أصوات السجناء الذين كانوا يعدّون المال ويشترون المؤن.

دخلـت الفناء كاتيوشـا وماريا بافلوفنا. كانـت كل منهما تحتذي جزمة، وترتدي معطفاً من الفرو قصيراً، وتغطي رأسها بخمار. اقتربتا من البائعات اللواتي حللن في الجهة الشمالية من الفناء ليكنّ بمأمن من الريح، واللواتي كن يعرضن بضاعتهن الواحدة بعد الأخرى من فطائر بطحين الشيلم، وسمك، ومعكرونة، وبرغل الحنطة السوداء، وكبد، ولحم العجل، وبيض وحليب. وكانت إحدى البائعات تعرض خنزيراً صغيراً مشوياً.

كان سيمونسـون ينتظر في الفناء ساعة ذهاب القافلة، مرتدياً سترة مـن القماش الشمّع، ومحتذياً حذاءً مطاطياً مربوطاً ببريم فوق الجورب

الصوفي. لقد كان يأبى أن يرتدي جلود الحيوانات المذبوحة، باعتباره نباتيــاً. كان واقفاً قرب المدخــل، يسجل على دفتر صغير، فكرة عنّت لــه وتمت على الشكل التالي: «لو أن جرثومة أمكنها أن تلاحظ وتحلل ظفر إنسان، لانتهت إلى أنه مؤلف من مادة غير عضوية مثلنا بالضبط، عندما نفحصــ القشرة الأرضية ونحكم بأنهــا مصنوعة من مادة غير عضوية، إن ذلك خطأ».

اشترت ماسلوفــا بيضاً، ومشكاكاً من البسكويت وسمكاً، وخبزاً أبيض طازجاً، ووضعت ذلك كله في كيس، بينما كانت ماريا بافلوفنا تدفــع الثمن للبائعات. في هذه اللحظة، حدث هرج بين السجناء. ثم خيم الصمت؛ وأخذوا يصطفون. وخرج الضابط المرافق ليُصدر آخر تعليماته قبل السفر.

جــرى كل شــيء كالعــادة: أُحصــي السجنــاء، وتم التحقــق من السلاسل، ووُضعت الأغــلال في أيدي الذين سيمشون مُقيدين اثنين اثنين. وفجأة سُمع صراخ الضابط وهو يلقي أمراً بصوت حاد، هائج. وتبــع ذلك صوت صفعات، وبــكاء طفل. ثم ســاد الصمت الواجم في مــدى لحظة، قبــل أن يسري بين الجمهور همســ مخنوق، فاتجهت ماسلوفا وماريا بافلوفنا إلى المكان الذي انبعثت منه الضوضاء.

× × ×

-٢-

عندما بلغت ماريـا بافلوفنا وماسلوفا المكان، رأتا المشهد التالي: كان الضابـط، وهو رجل قصير وسمين، ذو شارب كثيف وأشقر، قد بـدا عليه الهياج، وهو يفرك بيـده اليسرى راحة يده اليمنى التي صفع بها سجيناً حتى أدماه. وكان لا يني يجدف تجديفاً فظاً وبذيئاً. وأمامه وقف سجين نحيـل وطويل، يمسح بيد وجهه المدمّـى، ويمسك باليد الأخرى طفلة ملفوفة بخمار، تصرخ صراخاً شديداً. كان نصف رأسه حليقاً، وكان يرتدي سترة قصيرة مبطنة بالفرو، وبنطالاً أقصر.

صرخ الضابط:

– سأعلّمـك (هنـا، تجديـف وقح) كيـف تحتج (تجديـف آخر). ستذهب هذه مع النساء! قيّدوا يديه.

كان الضابط يطلب أن يُقيد محكوماً بالنّفي. لقد حمل هذا الرجل، طوال الطريق، الصغيرة التي ماتت أمها بالتيفوس في «تومسك». وقد أغضبت احتجاجات السجين الذي أعلن أنه لا يستطيع حمل الصغيرة إذ قُيّدت يداه، أغضبت الضابط الذي كان سيء المزاج من قبل. وبما أن السجين تمرد فقد ضربه الضابط[٤٣].

٤٣– وصف هذا الحادث في كتاب «لينييف» على مراحل.

أمــام الرجل المصفــوع وقف جندي وسجين ذو لحيــة سوداء، في أحــد معصميه قيدٌ، كان ينظر، وهو متجهم الوجــه إلى الضابط تارة، وإلى السجين المحمّل بالولد تارة أخرى. وكرر الضابط أمره بأن يأخذ الجندي الطفلة.

صاح صوت أبح من الصفوف الأخيرة.

– لقد جاء من «تومسك» بدون قيد!

– هذه ليست كلبة، إنها طفلة صغيرة.

– وأين سيضعها، هذه الصغيرة؟

واحتجّ أحدهم:

– ليس هذا منطبقاً مع الأنظمة.

انقضّ الضابط على الجمهور، كأن زنبوراً لسعه، وصرخ:

– سأعطيك أنا، أنظمة! مَنْ هذا الذي احتجَّ؟ أنتَ؟ أنت؟

فاعترض سجين ربعة، عريض الوجه:

– الجميع تكلّموا، لأن...

ولم يستطــع أن يتم جملته. لأن الضابط أخذ يضربه بكلتا يديه على وجهه.

– آه! أنتــم تثورون؟ سأعلّمكم أنا، كيف تتمردون! سأقتلكم كما تُقتل الكلاب. وسيشكرني رؤسائي على ذلك. أنت، خذ الطفلة.

صمت الجمهـور. وانتزع جنـدي من ذراعـي الأب الطفلة التي كانت تزعق، يائسة. ووضع جندي آخر القيد في يدي السجين الذي مد معصميه مذعناً.

صاح الضابط بالجندي وهو يعيد نطاقه إلى مكانه:

– خُذها إلى قافلة النساء.

حاولـت الطفلة التي تضرّج وجهها لفرط البكاء، أن تخلّص يديها الصغيرتـين من الشـال الذي يمسكهـا. فخرجت ماريـا ايفانوفنا من الجمع، ودنت من الضابط وقالت له:

– اسمحْ لي يا سيدي الضابط، أن آخذ الصغيرة...

وقف الجندي الذي يحمل الطفلة.

سألها الضابط:

– ومَنْ أنت؟

– «سياسية».

والظاهر أن وجه ماريا بافلوفنا الجميل، بعينيها البديعتين البارزتين، قـد ترك أثراً قويـاً في الضابط، وكان قد لاحظها أثنـاء تسلّمه القافلة. فتفرّس فيها بصمت، كمن يجترُّ شيئاً في داخله. وقال أخيراً:

– سيّان عندي، احمليها، إذا شئتِ. أنا أدرك أن ذلك يثير شفقتك، لكن إذا هرب هذا الرجل فمن المسؤول؟

أجابت ماريا بافلوفنا:

– كيف يستطيع أن يهرب ومعه الصغيرة؟

– ليس لدي متّسع من الوقت الوقت لمناقشتك. خذيها إذ شئتِ.

سأله الجندي:

– أيجب أن أعطِها إياها

– أعطها إياها.

قالت ماريا بافلوفنا برفق محاولة كسب رضا الطفلة:

– تعالي معي، يا صغيرتي...

لكن الطفلة التي مازالت بين ذراعي الجندي، أخذت تتطاول نحو والدها وهي تصرخ. لم تشأ أن تذهب مع ماريا بافلوفنا.

تدخلت ماسلوفا وهي تخرج من كيسها بسكويتاً:

– انتظري، يا ماريا بافلوفنا، سوف ترضى بالمجيء معي.

اقتربت الطفلة، عند مرأى ماسلوفا، وأيضاً عند مرأى الحلوى. واستتب الهدوء. وفُتحت الأبواب فخرجت القافلة من الفناء، وصدر الأمر بالمسير. أُحصي السجناء مرة أخرى، ورُتبت الأكياس في العربات، وأُصعد أضعف السجناء إليها.

انضمت ماسلوفا إلى النساء واختارت مكاناً لها قرب فيدوسيا. اقترب سيمونسون الذي تابع المشهد بانتباه، من الضابط بخطا ثابتة

وكان هذا الضابط يهم بالصعود إلى عربته، بعد أن أصدر آخر أوامره.

فأعلن له سيمونسون:

– لقد أسأت التصرف، سيدي الضابط.

– إمضِ إلى مكانك، فهذه القضية لا تعنيك.

– بل يعنيني أن أقول لك: إنك أسأت التصرف، وها أنا ذا أقول لك ذلك.

هكذا أجاب سيمونسون وهو يحدد النظر في الضابط بعينيه الغارقتين تحت حاجبيه الكثيفين.

فأمر الضابط:

– مستعدون؟ إلى، الأمام سرّ!

واتكأ على كتف الجندي الذي كان يقوم بمهمة الحوذي وصعد إلى عربته، ودون أن يأبه لسيمونسون.

تحـرّك الرتل، وامتد على طريق محفّرة تحيط بها حفر، ودلف إلى غابة عميقة.

× × ×

-٣-

بعد الحياة المنحلّــة التي عاشتها ماسلوفا أثنــاء السنوات الست في المدينة، وسط مظاهر الترف والدعة، وبعد شهرين من السجن بصحبة سجنــاء الحق العام، بــدت لها الحياة الحاضرة بــين السجناء السياسيين رائعــة بالرغــم من قسوتها. فالمراحــل التي كانت تقطعهــا مشياً على الأقــدام، مــن عشرة كيلومــترات إلى خمسة عشر كيلو مــتراً كل يوم، والغــذاء الجيد، ويــوم الراحة بعد يومين من الســير، كل ذلك قد أعاد إليها قواهــا. ومن جهة أخرى، فإن الإحتكاك المستمر مع السياسيين فتح لها آفاقاً لم تكن تخطر لها على بال. إن أناساً «ممتازين» مثل هؤلاء، على حد قولها، لم تَلْقهم من قبل، بل لم تكن تتصور وجودهم.

وهتفت:

– العجيــب أنني بكيت عندما حُكم علي! يجب أن أشكر السماء حتى آخر أيامي. تعلّمت هنا أشياء ما كنتُ لأعرفها أبداً!

لقد اعتنقت المثل الأعلى الذي كان يحفزهم دون مشقة ولا جهد، وامتلأت بالحماسة لــه، باعتبارها من أبناء الشعب. كانت تدرك أنهم يناضلــون من أجل الفقراء ضد الأغنيــاء، وإذ كانت تعلم أنهم ينتمون

إلى الطبقة المسيطرة، فإن تخلّيهم لمصلحة الشعب عن امتيازاتهم وحريتهم وحياتهم المترفة، مع أنهم نبلاء أو بورجوازيون، قد حملها على تقديرهم والإعجاب بهم إعجاباً شديداً.

كانت تُعجب بجميع رفاقها الجدد، لكنها كانت تجلّ على الخصوص ماريا بافلوفنا. لم يكن ذلك إعجاباً فقط؛ كانت تكنّ لها محبة مصنوعة من الاحترام والحماسة. لقد أذهل كاتيوشا أن هذه الفتاة الجميلة التي تتكلم ثلاث لغات، والتي هي ابنة جنرال ثري، كانت تتصرف كأية عاملة. كانت ماريا بافلوفنا تعطي الآخرين كل ما كان يرسله إليها أخوها الذي كان يملك ثروة طائلة. كانت تلبس وتحتذي ببساطة، بل بفقر، دون أن تُعنى أدنى عناية بجمالها. وكان يُدهش ماسلوفا ويسحرها على الخصوص، عزوف ماريا بافلوفنا عن الغنج والتأنق. لقد رأت كاتيوشا أن ماريا بافلوفنا لم تكن تغتبط قط بجمالها. على العكس، لقد كانت تخاف من الأثر الذي يحدثه جمالُها في الرجال، لأنها كانت تشعر أمام الحب بالرهبة، بالنفور الحقيقي. وكان رفاقها يعلمون ذلك، فمع إحساسهم بالانجذاب نحوها، بيد أنهم لم يكونوا يسمحون لأنفسهم بإظهار ذلك الانجذاب. كانوا يعاملونها معاملة الرفيق، كما لو كانت رجلاً. إلا الغرباء فكانوا يضايقونها كثيراً، وكانت تروي كيف أنها كانت تلجأ إلى قوة عضلاتها للتخلص منهم، وهي قوة لم تكن تخفي افتخارها بها.

روت وهي تضحك.

– في ذات يوم، تبعني رجل في الشارع، وأبى أن يتركني. فضربته ضربة قوية حتى هرب مذعوراً.

وكانت توضح أنها أصبحت ثورية لأنهـا كانت، منذ الصغر، لا تستسيـغ حياة الأغنيـاء؛ وكانت تفضّل حياة البسطـاء. ولقد وبّخها أهلهـا دائماً لملازمتها المطبخ أو الاصطبـل بدلاً من أن تكون في قاعة الاستقبال.

وكانت تؤكد:

– لكننـي أنا لم أكن أجد المتعة إلا مـع الطاهيات والحوذيين؛ كان الضجر ينتابني مع السيدات الجميلات والرجال الذين كانوا يزوروننا. وفيمـا بعـد، عندما بدأتُ أفهـم، أدركتُ أن نمط حياتنـا كان كريهاً. وتركـتُ البيت وأنـا في التاسعة عشرة، بصحبة رفيقـة لي، واشتغلتُ عاملة في أحد المصانع.

بعـد المصنع عاشت في الريف، ثم عـادت إلى المدينة، فأُوقفت في شقة كانت تختفي فيها مطبعـة سرية. وحكم عليها بالأشغال الشاقة. أمـا ما لم تكـن ترويه ماريـا بافلوفنا لأحـد، وما عرفتـه كاتيوشا من الآخرين، فهو أنهـا قد حُكم عليها لتحمّلهـا مسؤولية طلقة مسدس أطلقها ثوري، في الظلمة، أثناء التفتيش.

لم ترهـا كاتيوشا قـط، منذ أن عرفتها، مشغولـة بنفسها. لقد كان همُها الدائـم، إينما كانت، وكيفما كان وضعهـا، أن تنفع الآخرين، أن تُساعدهـم في كل شـيء. وكان أحـد رفاقهـا في القافلـة، وهـو «توفوغـورودوف»، يقول عنهـا ضاحكاً: إنها تمارس «رياضة البِر والإحسان» نحو الآخرين. وكان ذلك حقا.. فكما أن هدف الصياد أن يعثر علـى الطريدة، فكذلك كان هدف حياة ماريا بافلوفنا ينحصر في البحـث عن المناسبة التـي تهب فيها إلى مساعـدة الآخرين. ولقد

أصبحت تلك الرياضة عادة لها، وعلة لوجودها. كانت تفعل الخير بكثير من الصدق حتى إن جميع الذين كانوا يعرفونها اعتبروا طيبتها شيئاً طبيعياً، واستفادوا منها.

عندما نُقلتْ ماسلوفا إلى جماعة ماريا بافلوفنا، أحسّت هذه بالكره لها وبالاشمئزاز منها. وتبيّنت كاتيوشا ذلك. لكنها لاحظت فيما بعد، أنها تحاملت على نفسها وغدت شديدة اللطف والطيبة معها. إن هذا اللطف وتلك الطيبة من كائن فذّ مثل ماريا بافلوفنا قد أثّرا في ماسلوفا تأثيراً عميقاً حتى أنها استسلمت لها بكل نفسها، دون أن تعي ذلك، فاعتنقت أفكارها، من دون قصد، وقلّدتها في كل شيء. هذه المحبة المخلصة انتهت بأن رقّقت قلب ماريا بافلوفنا عنها، فمحضتها صداقتها. وفضلاً عن ذلك، فقد كان يجمع هاتين المرأتين شعور مشترك: هو نفورهما من الحب الجسدي. كانت ماسلوفا تمقت هذا الحب لأنها خبرت كل ما فيه من أهوال، أما الأخرى التي لم تخبره بعد فكانت تعتبره شيئاً عصياً على الفهم ومنفّراً في الوقت نفسه، وإهانة للكرامة الإنسانية.

× × ×

-٤-

جاء تأثير ماريا بافلوفنا في ماسلوفا من الحب الذي حملته ماسلوفا لها. أمـا تأثير سيمونسون فكان مختلفـاً كل الاختلاف، وقد نتج هذا التأثير عن أن سيمونسون أحبها.

إن الناس يعيشون ويتصرفون جزئياً بحسب أفكارهم، أما الجزء الآخر فبحسب أفكار الآخرين. والفرق بينهم يقوم على الطريقة التي يفكّرون بها: من تلقاء أنفسهم، أو تبعاً للآخرين. فبعضهم –وهؤلاء هم الأكثرية– يعتبرون أفكارهم الخاصة وكأنها عمل دماغي؛ إنهم يستخدمون محاكمتهم كما تُستخدم عجلة قائدة تحررت من السير الناقل للحركة. فهم يُخضعون أعمالهم لأفكار الآخرين، للأفكار، والتقاليد، والقانون القائم. وبعضهم الآخر، يعتبرون فكرتهم الفردية وكأنها المحرّك الرئيسي لسلوكهم. إنهم يصغون دائماً، تقريباً، إلى صوت العقل وينقادون لمقتضياته ولا يتبعون قرارات الآخرين إلا نادراً، وبعد فحص دقيق. كان سيمونسون ينتمي إلى هذه الفئة الأخيرة؛ لقد كان يزن الحسنات والسيئات، ويقرر وفقاً للنتائج التي يتوصل إليها، فإذا اتخذ قراره، وضعه موضع التطبيق.

لقــد قدّر، وهو مايزال طالباً، أن ثــروة أبيه، وهو معتمد عسكري سابــق، كسبٌ غير مشــروع. فأعلن أن من واجبه إشــراك الشعب في أموالــه. ولما زجره أبــوه، بدلاً من أن يستمع إليــه، هجر المنزل، وأبى الإستفــادة من المعونــات الأبوية. واستخلصــ أن مصدر جميع الآلام يكمــن في جهل الشعب، ولهــذا السبب، ترك الجامعــة وانتسب إلى «حــزب الشعــب الثــوري». وبعد أن عُــيِّن معلم مدرســة في إحدى القرى، قام بدعاية جريئة بين الطلاب والفلاحين، معلماً إياهم مايبدو له عدلاً، ومبيناً لهم ما يعتبره خطأً. فأُوقِف وحوكم.

وخــلال الجلسة، قدَّر أن القضاة لا يملكون الحق في محاكمته، فقال لهــم ذلك. وبما أن القضاة لم يكونوا يشاركونه هذا الرأي، فقد تابعوا الدعوى. حينئذ رفض سيمونسون أن يجيب عن أسئلة القضاة. فنُفي علــى مقاطعة «آركانجلسك»، حيث وضع مذهبــاً دينياً كان ينوي أن يطبّقه. تقول هذه النظرية: إن كل ما يوجد يحيا؛ والموت غير موجود، والمــواد اللاعضويــة التي نظنها ميتــة جزء من عضويــة هائلة لا يمكننا الإحاطــة بها. ولهــذا السبب كان سيمونسون يعتــبر كل إبادة للحياة جريمة؛ وكان عدواً للحــرب، وللحكم بالإعدام، ولكل طرائق القتل على العمــوم، لا قتل الناس فحسب، بل قتــل الحيوانات أيضاً. وكان لسيمونســون أيضاً نظريته في الــزواج. كان يرى أن التناسل هو أحقر وظائــف الإنسان، في حــين أن أسمى وظائفه هــي مساعدة الأحياء. وهذا الرأي، كان يجد تأييداً له في وجود الهضّامات في الدم؛ العزّاب، برأيه، هم الهضّامات التي تنحصر مهمتها في مساعدة الأجزاء الضعيفة أو المريضــة في العضوية. ومنذ أن وضع هــذه النظرية تقيّد بها في كل

شيء، على الرغم من أنه عاش منذ مراهقته حياة متهتكة. لقد كان يعتبر نفسه الآن ويعتبر ماريا بافلوفنا، شبيهين بالهضّامات في هذا العالم.

لم يدمّــر حبُه لكاتيوشــا هذه النظرية، لأنــه أحبها حبــاً أفلاطونياً؛ وكان يرى أن مثل هذا الحب، لا يمنع الناس من ممارسة نشاطهم، نشاط الهضّامــات، في خدمــة الضعاف، بل إنــه يبث فيهم، علــى العكس، قــوة جديدة. وفضــلاً عن طريقتــه في حل مشــكلات الأخلاق، كان لسيمونسون أيضاً طريقته في حَسْم معظم المسائل العملية. وبصدد هذه المسائــل وضع قواعد تتعلق بعدد ساعات العمل والراحة، وكيف ينبغي أن يتغذى، ويلبس، وكيف يُشعل المدفأة وينظّم الإضاءة.

ومع هذا كله، كان سيمونسون يتّصف بحياء وتواضع بالغين. لكنه إن عَزَم على أمرٍ، لم يَثنه عن عزمه شيء.

لقد حظي هذا الرجل إذاً بتأثير غالب في ماسلوفا لأنها أحبها. تبيّنت ذلــك كاتيوشا على الفور بحدسها النسائــي. وكونُها قد استطاعت أن تُلهــم الحــب رجلاً «غير عــادي» مثلــه، رفَعَهــا في عينــي نفسها. إن نيكليــودوف عرض عليها الزواج، بكرم نفســه، ولكي يُصلح ما فرط منه، أمــا سيمونسون فكان يحبّها كما هــي، كان يحبها وكفى. ثم إن سيمونســون كان يراها امرأة غير عاديــة، مختلفة عن الأخريات، أوتيت صفــات خُلُقية رفيعة جــداً. ولم تكن تعلم بالضبط مــا عسى أن تكون تلــك الصفات، لكنهــا كانت في كل الأحوال، ولكــي لا تخيّب ظنّه، تحرص على أن تحرّض في نفسها أعلى الفضائل التي يمكن أن تتصوّرها. وكان هذا يضطرّها إلى أن تقوم بجهدٍ دائم بُغية تحسين ذاتها.

بــدأ ذلك في السجــن، في يوم مخصص لزيــارة السجناء السياسيين. أحسّــت كاتيوشا حينــذاك بهاتين العينــين العميقتي الزرقــة، البريئتين والمليئتي بالطيبة، تحــت هذه الجبهة المقوسة وذينك الحاجبين الكثيفين، أحسّت بهما تحطّان عليهــا. وعلى الفور أدركت ما في هذا الرجل من تفــرّد. كان يَنظر إليها نظــرة مختلفة عن نظــرة الآخرين، وقد لاحظت التناقضــ المدهش حقــاً الذي شكّلته علــى وجهه قســوة الشعر المعقّد والحاجبــين المقطبين في مقابلة العذوبة الطفوليــة والبريئة في نظرته. ثم رأته بعد ذلك في «تومسك» عندما نُقلتْ إلى زمرة السجناء السياسيين. وعلى الرغم من أنهما لم يتبادلا كلمة واحدة بينهما، فإن نظراتهما قالتا إن كلا منهما يذكر الآخر، وباحثاً بالتقدير المتبادل بينهما. لم تَجرِ بينهما أية مكاشفــة، لكن ماسلوفا كانت تحس، في حضرتــه، أنه يوجه كلامه إليهــا، ويتكلم لأجلها، ويعبّر بطريقة يمكن أن تفهمها أحسن فهم. لقد بدأ تقاربهما الحقيقي منذ التاريخ الذي انضمّ فيه إلى سجناء الحق العام، ليسير بصحبتهم.

× × ×

-٥-

مــن «نيجني نوفغورود» إلى «بــيرم»، لم يتمكن نيكليودوف من أن يــرى كاتيوشا سوى مرتين: مرة في «نيجني» قبل إبحار السجناء على باخرة مغطاة بشبكــة كثيفة من الفضيان، ومرة ثانية في «بيرم» في مكتــب مدير السجــن. وفي المرتــين وجدها منغلقــة على ذاتها وعدائيــة. وعن سؤاليه: «كيف صحتُهــا؟» و»ألا تحتاج إلى شيء؟» أجابــت بطريقــة، مرتبكة، وبلهجة الملامــة التي تذكّر بمــا أبدته من عــداء في مناسبات أخــرى. إن هذا المزاج السيء الــذي يرجع فقط إلى المضايقــات التــي كانت عُرضــةً لها، في هذه البرهــة، قد أقلقت نيكليــودوف مع ذلك. كان يخشى ألا تعود كاتيوشا، بتأثير الحرمان والأجــواء المشؤومــة التي تعيش فيهــا، إلى السقــوط في تلك الحالة من عــدم الوئام الداخلي ومن اليأس الــذي كان يؤجج حقدها عليه ويدفعها إلى الشراب والتدخين لتنسى.

لم يستطع أن يساعدها في شيء، لأنه لم يحصل على الإذن برؤيتها، في المرحلة الأولى. بعد انتقالها إلى ما بين السجناء السياسيين فقط، لم يقتنع نيكليودوف فقط بأن مخاوفــه كانت باطلة بل وأيضاً بأن التغير

الداخلي الـذي تمنّاه بشدة، كان يتعاظم فيها عنـد كل مقابلة. ومنذ أول لقاء في «تومسك» وجدها كما كانت قبل السفر. فعندما رأته لم تعبس في وجهه؛ على العكس، لقد استقبلته بفرح صادق، وشكرته على أنه أتاح لها مرافقة هؤلاء الذين ترافقهم الآن.

وبعد شهرين من المسير على مراحل، تجلّى التغير الذي طرأ عليها حتى في مظهرها الخارجي. فنحفت، ولوّحتها الشمس، وبدا عليها الكبر، وتكونت التجاعيد على صدغيها وحول فمها. وكانت تلفّ رأسهـا بخمار، بدلاً من أن تغطّي جبهتهـا بشعرها. ولم تحتفظ بأي أثـر من غنجها السابـق، لا في لباسها، ولا في زينـة شعرها، ولا في قوامهـا. وكان هذا التغير المتعاظم يوفّـر لنيكليودوف فرحاً عظيماً. أخـذ يحس نحوها بشعور جديد، لا جامع يجمع بينه وبين اندفاعته الشعريـة الأولى قديمـاً، ولا بينه وبـين الغرام الجنسي الـذي ساوره فيمـا بعـد. وإنمـا كان إحساساً بالشفقـة والحنان الـذي انتابه لدى أول زيـارة له للسجن، والذي اشتد بعـد انتقالها إلى المشفى، وذلك عندما غالب اشمئزازه، وغفـر لكاتيوشا مغامرتها الغرامية المفترضة مـع الممرض، وهي قصة استطـاع، فيما بعـد، أن يكشف عن عدم صحتهـا. إحساس واحد، مع هذا الفرق الوحيد هو أنه غدا مستمراً بعـد أن كان متقطّعـاً. كان نيكليودوف يحس، مهمـا فكّر أو فعل الآن، باندفاعة الشفقة والحنـان تتملّكه، لا نحوها فحسب بل نحو الإنسانيـة بأسرها. فكأن نبعاً ثرّاً من الحب قد انبجس في نفسه، نبعاً لم يكن يجد مخرجاً في بادئ الأمر، لكنه أخذ يسيل الآن نحو جميع الذّيـن يلقاهم. وأثناء هذه الرحلة كلهـا، ألفى نيكليودوف نفسه في حالـة من التسامـح نحو أمثاله من البشر. كان يهتـم بكل الناس بدءاً

مــن الحوذيين والجنود المرافقين إلى مديـري السجون والحكام الذين له بهم علاقة.

وعلـى أثر انتقال ماسلوفا إلى ما بـين السجناء السياسيين، سنحت الفرصــة لنيكليودوف أن يتعرف إلى الكثير مــن هؤلاء. سنحت هذه الفرصة أولاً في «إيكاتيرنبرج»[٤٤] حيث كان «السياسيون» يتمتعون بحرية عظيمة لاجتماعهــم في مَهْجع واسع، واحد. وبعد ذلك، أثناء مراحل الســير، أقام نيكليودوف علاقات مباشـرة مع خمسة الرجال وأربع النساء من المجموعة التــي كانت ماسلوفا فيها. وهذه الصلات بالسجناء السياسيين بدّلت رأيه فيهم.

ففــي بداية الحركة الثورية في روسيا، ولاسيما بعد الأول من آذار، كان نيكليودوف يشعر نحو الثوريين بالعداء والاحتقار. كان يستنكر قبــل كل شــيء قسوتهم وطرائقهــم المتخفيّة التــي يستخدمونها ضد الحكومة. وأســوأ من ذلك ما كان يستفظعُه مــن وحشية الاغتيالات المرتكبــة، كما كان مشمئــزاً من اعتدادهـم الذي لا حد له والذي كان يميزهــم جميعاً، بلا استثناء. لكنه عندما ازداد معرفة بهم، وعندما علم كيــف تُعاملهم الحكومة، أدرك أنه لم يكن من الممكن أن يكون غير ما كانوا عليه.

مهمــا تكــن طائشة المعاملة السيئــة التي يُعامل بها مَــنْ يُزْعَم أنهم

---

٤٤ – ايكاتيرنــبرج: مدينة في الأورال أسست في عهــد كاترين الثانية، وهي تسمى اليــوم «سفيردلوفسك» على شرف المفوض جــاك سفيردلوف الذي قضى فيها على العائلةالإمبراطورية في ١٨ تموز ١٩١٨.

مجرمو الحق العام، فقد كانت الإجراءات معهم تتخذ مع ذلك مظهراً من مظاهر العدالة، بعد الحكم وقبله على حد سواء. أما القضايا السياسية فلم تكن تحظى بهذا المظهر من العدالة، كما تحقق نيكليودوف من ذلك أثناء محاكمة شوستوفا، وفيما بعد، وهو يصغي إلى ما كان يرويه له معارفُه الجدد. أما الإجراءات نحو الثوريين فكانت شبيهة بصيد الشبكة، إذ يُلقى على حافة النهر كل ما تحمله الشبكة من سمك، ويُختار كبار السمك، ثم يُهمل صغارها ليتعفن في مكانه. وهكذا كان يُلتقّط مئات الأبرياء، العاجزين، بطبيعة الحال، عن إيذاء الحكومة. وهؤلاء الأبرياء، كان يُحتفظ بهم في السجن، لمدة سنوات أحياناً، فيُصابون فيه بالسل، أو يفقدون عقولهم، أو ينتحرون. كانوا يحتفظون بهم، لعدم وجود الأسباب الموجبة لإخلاء سبيلهم، أو لأن بقاءهم تحت الطلب قد يفيد في توضيح نقطة غامضة في التحقيقات. ومصير جميع هؤلاء البائسين، وهم في كثير من الأحيان أبرياء حتى في نظر الحكومة، منوط بتعسّف الدركي أو رئيس الشرطة، أو الواشي أو النائب العام، أو قاضي التحقيق أو الحاكم أو الوزير، ومنوط بأوقات فراغهم، وبأمزجتهم. فإذا انتاب الضجر أحد هؤلاء الموظفين، أو إذا شاء أن يُبرز ذاته، أمر باعتقال الناس، واستبقاهم في السجن أو أخلى سبيلهم تبعاً لمزاجه أو مزاج رؤسائه. والرئيس الأعلى، هو أيضاً، يأمر بالنفي إلى الطرف الآخر من العالم، ويقرّر الحبس الإنفرادي أو يحكم بالنفي وبالأشغال الشاقة وبالإعدام، تبعاً لحاجته إلى البروز أو إلى تحسين علاقاته بالوزير، ما لم يَفتح أبواب السجن لأن سيدة نبيلة قد رجته أن يفعل ذلك.

كان الثوريون الذين يُعامَلون كما يُعامَل العدو في أوقات الحرب

يتبنّون بصورة طبيعية الأساليب نفسها التي استُخدمت ضدهم. وكما أن الجنود يخضعون فيما يفعلونه لتأثير الرأي العام الذي لا يكفيه أن يتستّر على ما في أفعالهم من إجرام، بل إنه يعرضها عليهم بألوان بطولية، فكذلك الثوريون كانوا يتقيّدون برأي مَنْ حولهم. فالجرائم الوحشية التي يرتكبونها، مجازفين بحريتهم وبحياتهم وبأعز ما يملك الإنسان، لا تبدو لهم جرائم وحشية، وغنما مآثر حقيقية.

بهذه الطريقة، كان نيكليودوف يفسر لنفسه تلك الظاهرة الخارقة للعادة إذ يُقدِم أناس أوتوا طبعاً مسالماً، أناس لا يحجمون فقط عن إيلام الآخرين، بل إنهم لا يقوون على احتمال منظر الآلام، يقدمون على القتل بهدوء. وكانوا جميعاً، تقريباً، يؤكدون أن القاتل صاحب حق، في بعض الحالات، مهما يكن سلاح جريمته، ومهما تكن الوسائل لبلوغ هدفه: أي لخير الإنسانية. إن هذا التصور العالي الذي يحمله الثوريون عن قضيتهم، وبالتالي عن أنفسهم، ناشئ، بصورة طبيعية، عن الأهمية التي تنسبها إليهم الحكومة، من جهة، ومن جهة ثانية، عن شدة العقاب الذي يتعرضون له. وينبغي أن يكون للمرء هذا الرأي العالي بنفسه ليقوى على احتمال ما يكابده هؤلاء الناس.

استطاع نيكليودوف أن يقتنع. من معاشرته لهم، أنهم لم يكونوا جميعاً مُسيئين، كما قد يتصور ذلك بعضهم، ولا أبطالاً كما يعتقد ذلك آخرون. وإنما كانوا أفراداً عاديين جداً، بينهما الصالح والطالح ومَنْ هو بَيْن بين، شأنهم شأن الناس في كل مكان. بعضهم صار ثورياً لأنه كان يعتقد بصدق أن من واجبه محاربة الشر المحدق. وبعضهم اختار هذه الطريق لدوافع أنانية، طموحة. أما الأكثرية العظمى فقد

جذبها إلى الثورة ميلُها إلى الخطر والمجازفة، ولذة المغامرة بالحياة. هذه المشاعــر التي خبرها نيكليودوف بنفســه في الحرب، مشاعر معهودة لــدى الشباب المُثقلــين بطاقاتهم. والفرق بين الثوريــين وعامة الناس –وهــو فرق يمتازون به من غيرهــم– يكمن في أن تطلّباتهم الأخلاقية أعلى بالقياســ إلى التطلبات المقبولة في أوســاط الناس العاديين. ومن بينها يجــب ألا نعدّ فقــط الزهــد والتقشف الأخلاقــي، والصراحة، والتجــرّد من المصلحــة الذاتية، بل وأيضاً تلك القــدرة على التضحية بــكل شــيء في سبيل القضيــة، حتى بالحيــاة. وبمــا أن الثوريين الذين يتجــاوزون المستوى العام إنمــا يتجاوزونه إلى آماد بعيــدة، فقد كانوا نموذجــاً لسمو أخلاقي نــادر. في حين أن الثوريــين الذين كانوا دون الوســط لم تكن لهم قيمــة تُذكَر في الحقيقة. كانــوا يبدون في الغالب كذابــين، منافقين وفي الوقت نفسه ممتلئين بالغــرور والكبرياء. ولهذا السبب، كان نيكليودوف يشعر بالاحــترام، بل بالمودة لبعض معارفه الجدد؛ بينما لم يكن يحس تجاه غيرهم بغير اللامبالاة.

× × ×

-٦-

تعلّق نيكليودوف تعلّقاً خاصاً بشاب مسلول يُدعى كريلستوف، محكوم بالأشغال الشاقة، كان يسافر برفقة كاتيوشا. تعرّف به نيكليودوف في «ايكاتيرنبرج، وأثناء الطريق، أُتيح له، غير مرة، التحدث معه. وفي ذات يوم من أيام الصيف، أثناء التوقف، قضى معه النهار بأكمله تقريباً، فروى له كريلستوف قصته، وأوضح له كيف أصبح ثورياً. وكانت قصته مقتضبة، على الأقل حتى فصل اعتقاله. كان أبوه ملاّكاً ثرياً للأرض في إحدى مقاطعات الجنوب، وقد مات وهو مايزال طفلاً. كان وحيداً، فربّته أمه. وأنهى بسهولة دراسته في المعهد الثانوي، وفي الجامعة التي تخرّج منها الأول في كلية العلوم. وعُرِض عليه السفر إلى الخارج على نفقة الجامعة، فتردد لأنه كان عاشقاً لفتاة كان يفكر في الزواج بها، كما كان ينوي دخول الإدارة الإقليمية، وكان، في أعماقه، يود الحصول على كل شيء، لكنه لم يكن يقرر شيئاً. في هذا الوقت، طلب إليه بعض رفاقه الجامعيين القدامى التبرع بمبلغ من المال في سبيل القضية العامة، وكان يعلم أنها قضية الثوريين التي لم يكن يهتم بها بتاتاً. ورضي بالتبرع مدفوعاً بروح الرفقة، وأيضاً بحب الذات كي لا يرى نفسه متهماً بالجبن.

وبعد قليـل، اعتُقِل الرفاق. وبمـا أن الأوراق المكتوبة التي تثبت تبرع كريلتسوف عُـثر عليها معهم، فقد أُوقف وسُجـن، في مركز الشرطة أولاً، ثم في السجن.

روى كريلتسـوف، وهو جالس على طاولـة عالية، مقعّر الصدر، متكئاً بمرفقيه على ركبتيه:

– في السجن الذي أرسلوني إليه، لم يكونوا شديدي القسوة.

كان يرمـي نيكليودوف بين وقت وآخر بنظرة من عينيه الملتمعتين من الحمى، الذكيتين والوديعتين. وأردف:

– لم يكن بوسعنا فقط تبادل الرسائل بالدق على الجدران، لكننا كنا نستطيـع التمشي في الأروقة، والمحادثة، واقتسـام مؤننا والتبغ. وفي المسـاء، كانوا يسمحـون لنا بالغناء الجماعـي. كان صوتي جميلاً... نعـم... ولولا أمـي المسكينة التـي أرهقها أساها، لكنـتُ مرتاحاً في السجن، ولكنتُ اعتبرت سجني تجربة مثيرة وجديرة بالإهتمام. وفي السجـن عرفتْ بيتروف الشهير الذي شق شرايينـه، فيما بعد، بشظية زجـاج. في سجن القلعـة. وعرفت كثيرين غيره أيضـاً. لكنني لم أكن ثوريّـاً. عرفت جاريـن من جيران الزنزانـة حُبسـا في قضية واحدة: في قصـة بيانـات بولونية، وكانا سيحاكمان بتهمـة محاولة الفرار أثناء سوقهما إلى المحطة. كان أحدهما البولوني «لوزنسكي»، وكان الآخر يُدعى روزوفسكي. نعـم... وروزوفسكي لم يكن بعد سوى صبي؛ كان يؤكـد أن عمره سبعة عشر عاماً، له عينـان سوداوان، متوقّدتان، وكان موسيقيـاً جيداً. لم يكن صوته قد تشـكّل بعد، لكن غناءه كان

رائعــاً. اقتيدا منــذ الصباح الباكر فلمــا عادا في المساء، قــالا لنا إنهما حُكمــا بالإعدام. لم يكن أحد يتوقع هذا الحكم، لأن حالتهما لم تكن خطــيرة.... لقد حاولا أن يفرّا مــن حرسهما، دون أن يجرحا أحداً. كيــف يجوز إعــدام طفل مثل روزوفسكي! نحــن جميعاً في السجن حسبنــا أنهم يحاولون تخويفه فقط، وأن الحكم لــن يثبّت، بالتأكيد. انفعلنــا، في بــادئ الأمر، لكــن الحياة ما لبثــت أن عــادت إلى سابق مجراها. نعــم... بيد أن الحارس جاء ذات مساء إلى بابي، وأخبرني سراً أن النجاريــن جاؤوا لينصبوا المشنقة. لم أفهم في البداية: عم يتحدث؟ أيــة مشنقة؟ لكن الحارســ كان مضطرباً جداً حتــى أني أدركت حين نظــرت إليه أنها ستنصب لجاري. أحببــت أن أدق على الجدار لأكلم رفاقــي، لكنني خشيت أن يتمكنا من سماعنــا. وقد صمتَ الآخرون أيضــاً، والظاهر أنهم كانوا على علم بالأمر. وخيّم صمتُ الموت، في هذا المساء، على الأروقة والزنزانات. لم يتخاطب السجناء بالإشارات ولم يغنّــوا. وفي الساعــة العاشــرة، عــاد الحارســ ليخــبرني أن الجلاد سيأتي من موسكو. قال هذا وانصــرف فناديته ليعود. وفجأة سمعتُ روزوفسكي يصيح بي من زنزانته، عبر الرواق:

– ماذا تريد؟ لماذا ناديته؟

فأجبتــه بما عــنّ لي من جواب، قلت له: إني طلبــتُ إلى الحارس أن يأتينــي بتبغ. ولاشك أن الشكوك قــد أخذت تراوده، لأنه سألني لماذا انقطعنا عــن الغناء، ولماذا لم نتبادل الإشارات المعهودة. ولا أذكر بماذا أجبته، لكنني سارعت إلى الابتعاد عن الكوة لكي لا أضطر إلى الكلام معه.

كانـت ليلة رهيبة. كنتُ أصيخُ السمـع لألتقط أدنى نَأْمة. وفجأة، سمعتُ في الفجر أبواب الرواق تنفتح. الآتون كُثرٌ. وقفت قرب كوة البـاب: في الممر، مصبـاح مضيء جاء المديـر أولاً، وهو رجل بدين، يبدو واثقاً من نفسه. كان وجهه هذه المرة، شاحباً ممتقعاً، كالمرعوب. وخلفـه كان يسير نائب المديـر، متجهماً، لكنه واثـق الهيئة. وأخيراً الحراس. مروا أمام بابي ووقفوا أمام الزنزانة المجاورة. أصغيتُ: كان نائب المدير يصرخ: «لوزنسكي، انهض! والبس ثياباً داخلية نظيفة!» نعـم... سمعتُ الباب يصرّ؛ لقـد دخلوا إلى زنزانتـه... وبعد ذلك، خطـوات لوزنسكي. كان يمر مـن جهة الرواق المقابلـة. لم أر سوى المديـر. كان شاحباً لا يني يحل أزرار سترته، ثم يزرِّرُها بعصبية، وهو يهز كتفيه. وفجأة انتحى جانباً، كالمروّع: لقد تخطّاه لوزنسكي ودنا من بابي. كان فتى جميلاً، من ذلك النمط البولوني الجميل، كما تعلم، ذا جبهـة عريضة وعالية، وشعر أشقر غزير، ناعم جداً ومجعّد، وعينين زرقاوين، بديعتين. كان شاباً في أوج تفتّحه، مليئاً بالحياة والصحة... وقف أمام كوّتي بحيث أمكننـي أن أراه مواجهة. كان وجهه مُرعباً، منهوكاً، أدكن. سألني: «كريلتسوف، أمعك سيجارات؟»).

أردتُ أن ألبـي طلبـه، لكن النائـب المدير خشي، مـن غير شك، أن يصـل متأخـراً، فأخرج من جيبـه علبة السجائر وناولـه إياها أخذ لوزنسكـي سيجارة، فأشعـل نائب المدير عود ثقـاب وقدّمه له. ظل لوزنسكي واقفاً يدخن، كمن غاب في أفكاره. ثم صرخ، وكأن فكرة عنّت له: «إن هذا لقاسٍ وظالم. إني لم أقترف إثماً. أنا...»

وعلى عنقـه البيضاء، الفتية، التي لم أستطـع أن أرفع بصري عنها،

أخذ شـيء يرتعش. وتوقـف... نعم... في هـذه اللحظة، سمعتُ روزوفسكـي يصـرخ بشـيء في الـرواق، بصوتـه الرخيـم. رمى لوزنسكـي عقب سيجارتـه. ومن الفتحة ظهر وجـه روزوفسكي المتصبب عرقاً. كانت عيناه مبللتين. وكان هو أيضاً يلبس ثياباً نظيفة؛ كان بنطالـه مفـرط الاتساع، فكان يرفعه بكلتـا يديه وهو يرتجف. اقترب من كوتـي: «أناتولي بيتروفتش، ألم يصف لي الطبيب منقوع الأعشـاب للسعال؟ أنا مريض، وأحـب أن أشرب هذا المنقوع...» لم يُجبـه أحد. وأخذ ينظـر إلي تارة، وإلى المدير تـارة أخرى، نظرة مستفهمـة. و لم أتمكـن من فهم ما أراد أن يقولـه لي، نعم... وفجأة راح نائـب المدير يصرخ بصوت ثاقب، وهو بادي الصرامة: «ماهذا المزاح؟ لنمشِ!» وكان واضحاً أن روزوفسكي لم يدرك ما ينتظره. فقـد انطلـق كالمستعجـل، وهو يـكاد يركـض، سابقـاً الجميع في الرواق. وفجأة توقـف، وسمعتُ صوته الحاد، ونحيبه. واختلطت الأصوات، ثـم سُمعَ وقعُ الأقدام. كان روزوفسكي يصرخ بصوت مثير للشفقة، كان يبكـي. وابتعد الصوت، ثم ابتعد... وأغلق باب الرواق بجلَبَة. وعاد كل شيء إلى الصمت... نعم... وهكذا شُنُقا! خنقوهمـا بالحبل كليهمـا. لقد رأى الحارس –وهـو حارس آخر– كل شـيء، وروى لي أن لوزنسكـي لم يُبـدِ مقاومـة، بينمـا تخبّط روزوفسكـي كثيراً بين أيديهم، وكان لابد لهـم من أن يجروه جراً إلى المشنقـة وأدخلوا رأسه في أنشوطة الحبل بالقوة... نعم.... كان هـذا الحارس شاباً غبياً! «لقد قيل لي، يـا سيدي، إن الشنق رهيب، لكنـي لم أر فيـه ما يرهب. فمـا كادوا يشنقوهما حتـى فعلا هكذا مرتين بكتفهما –وأراني كيف أن الكتفين ارتفعتا وانخفضتا بحركة

تشنّجية–... ثم جذب الجلاد الحبل جذبة قوية، ليُحكِم شد العقدة، كما تعلـم، وانتهى كل شيء، وكفّا عن الحركـة. وليس في ذلك ما يُرهب!...». وختم كريلتسوف كلامه وهو يردد كلمات الحارس.

أراد أن يبتسـم، لكنـه أخذ ينتحب. ولـزم الصمت طويلاً وهو يتنفس بجهد، بالعاً زفراته التي كادت تخنقه.

وقال بعد أن هدأ:

– ومنذ ذلك الوقت، أصبحتُ ثورياً. نعم...

وروى حينئذٍ بإيجاز بقية قصته.

لقـد انضم إلى حزب محرري الشعـب ووُضع على رأس جماعة مـن المخربين الذيـن مهمتهم إرهاب الحكومة حتـى يجبروها على التنـازل عن السلطـة لمصلحة الشعب. وعنـد خروجه من السجن، قصد تارة إلى بطرسبرج، وتارة أخرى إلى الخارج، أو إلى كييف، أو إلى أوديسا، فوُفِّق في مهمته حيثما ذهب. لكن رجلاً كان يثق به ثقة تامة باع نفسه ووشى به. فاعتُقـل، وحوكم، وأُلزِمَ السجن سنتين، ثم حُكم عليه بالإعدام الذي خُفف إلى الأشغال الشاقة المؤبّدة.

في السجـن أُصيب بالسـل، ولعله لم يبق لـه، في هذه الظروف التـي يعيش فيهـا، سوى أشهر معدودات يحياهـا. كان يعلم ذلك، لكنه لم يكن نادماً على ما فعل، مؤكّداً أنه لو وُهب حياة ثانية، لكان مستعـداً أن يضحّي بها في سبيل القضيـة نفسها، لكي يَقْلب النظام الذي تمّت فيه تلك الأحداث التي كان شاهداً عليها.

إن قصة هذا الرجل، ومصاحبته له، فتحتا عيني نيكليودوف على كثير من الأشياء لم يستطع فهمها قبل ذلك.

× × ×

-٧-

في اليــوم الذي حدثــت فيه المشادّة بين الضابــط المرافق والسجناء بشــأن الطفلة الصغيرة، نام نيكليــودوف في النزل، واستيقظ متأخراً. وتأخــر أيضــاً في كتابــة الرسائل التــي أراد أن يضعهــا في بريد مركز المقاطعة. ولذلك سافر متأخراً عن عادته، ولم يستطع أن يدرك القافلة في الطريــق، كالمرات السابقة، ولكنه لحــق بها في القرية حيث كانت القافلة تستريح استراحة نصــف المرحلة. وأخذ النهار يؤذن بالانتهاء. فعــرّج على نزل تديره أرملــة عجوز بدينة. ضخمــة العنق إلى حد لا يصدق، وجفــف ثيابه، وشرب الشــاي في غرفة المسافريــن، المزدانة بعدد من الأيقونات واللوحات، ثم أسرع في الذهاب إلى مكان توقّف القافلــة في تمــام المرحلة، وذلك لكي يطلب مــن الضابط أن يسمح له بمقابلة ماسلوفا.

في أثناء المراحل الست السابقة، لم يَسمح أي من الضباط المرافقين لنيكليودوف بدخول فناء التجمّع، ولذلك فهو لم ير كاتيوشا منذ ستة أسابيع. وقد جاءت هذه القسوة من أنهم كانوا ينتظرون زيارة موظف كبير، مرتبط بالسجــون. أما الآن فإن هذا المسؤول مرّ، حتى دون أن

يلقــي نظرة. وكان نيكليودوف يرجو أن يسمح له الضابط الذي تولّى إدارة القافلة في هذا الصباح، بمقابلة كاتيوشا.

عرضت عليه صاحبة النزل عربة تحمله إلى الطرف الآخر من القرية حيــث توقفت القافلة، لكنــه آثر أن يذهب مشياً علــى قدميه. وتقدّم عامــل شاب، عملاق حقيقي، عريض المنكبين، يحتذي جزمة دُهنت حديثاً بشحم أسود نفّاذ الرائحة، فعرض أن يقود الزائر. كان الضباب الكثيف قد تشكّل، وأظلم الجو حتى توارت أضواء المنازل على ثلاث خطــوات. لم يكــن نيكليودوف يميّــز دليله، لكنــه كان يسمع جزمته الثقيلة تخبط في الوحل السميك، اللزج.

بعد أن عَــبَرَ نيكليودوف ساحــة الكنيسة، واجتــاز شارعاً طويلاً تضيئـه نوافـذ البيوت، بلـغ أطراف القريـة، وهو غــارق في الظلمة الحالكــة. لكن ما لبثت أضواء المصابيح التي تنير مركز حراسة القافلة، أن بــددت ظلمة الضبــاب. وشيئاً فشيئــاً، أخذت تشتــد بقع النيران الحمــراء، وأمكن تمييز أوتاد السياج، وشبــح الحارس المظلم، وعموداً مخدداً، وكوخ حراسة. صرخ الحارس صرخته المعتادة: «مَنْ الآتي؟»، ولما علم أنه بإزاء شخصين غريبين عن القافلة، أمرهما بمتابعة طريقهما، صائحــاً بهمــا أن التوقف محظور في هذا المــكان. فلم يكترث له دليل نيكليودوف، وصاح به:

– مهــلاً، يا رجــل، ولا تغضــب! اذهب ونادِ رئيســك، وسوف ننتظر.

صرخ الحارســ بشيء من خلال القضبــان، دون أن يجيب. وظل

مكانـه يحـدق في العمـلاق الشـاب الـذي جهد في تنظيـف حذاء نيكليـودوف مـن الوحـل العالق بـه، بقطعة من خشـب، على ضوء المصابيـح. وخلـف الحباك كانـت تُسمع ضوضـاء أصـوات النساء والرجال. ومضت ثلاث دقائق في الانتظار، ثم سُمع صرير قفل؛ فُتح الشبـاك، وظهر في النور عريف، ومعطفه مُلقـىً على كتفيه. سألهما مـاذا يريدان. فمدّ نيكليودوف إليه بطاقته التي كتب عليها طلبه الإذن بمقابلـة الضابط، مـن أجل قضية شخصية. بـدا العريف أقل قسوة من الحارس، لكنـه أظهـر، بالمقابل، قـدراً أكبر من الفضـول. كان يريد أن يعلـم. بأي ثمـن، مَنْ نيكليودوف، ولماذا يريـد أن يقابل الضابط. والظاهر أنه تحسس إمكان كسـب مكافأة، ولم يشأ، أن يدع الفرصة تمـر. فأنبأه نيكليودوف أن القضية قضية خاصة، وأنه سيكافئه. وكرر رجـاءه بأن يسلّم الضابط بطاقته. فقبل العريف ذلك مع إيماء من رأسه بالموافقـة وابتعد. بعد قليل، صرّ القفل مرة أخرى، وعبرت العتبة نساء يحملـن سلالاً، وطاسـات من الخشب، وأباريق للحليـب، وأكياساً. وتحدّثن حديثاً صاخباً بلهجـة سيبيرية غريبة. كن جميعاً لابسات، لا كما تلبس الفلاحات، بل كما تلبس نساء المدن: من معاطف ومن ستر الفرو، وقد شمرن تنانيرهـن حتى ركبهن، وغطّين رؤوسهن بخمار. تفرّسـن في نيكليودوف ودليلـه بفضول، على ضـوء المصابيح. وقد سُرّت إحدهن سروراً ظاهراً برؤية هـذا الدليل القوي البنية، فخاطبته باللهجة السيبيرية قائلة له:

- هيه! أيها الشيطان المَريد، ماذا جئت تفعل هنا؟

أجاب الشاب:

– اصطحبتُ مسافراً. وأنتِ ماذا تحملين؟

– حليبا. قالوا لي أن آتي في الصباح.

فقال الفتى مازحاً:

– ألم يحتفظوا بكِ لليلتهم؟

صاحت وهي تضحك:

– قطع الله لسانك، أيها المهذار! لنعد إلى القرية معاً، اصحْبنا.

قال الدليل شيئاً دفع الجميع إلى الضحك الصاخب، النساء والحارس أيضاً، ثم التفت إلى نيكليودوف وسأله:

– تستطيع أن تهتدي إلى طريقك وحدك؟ ولن تضلّ فيه؟

– سأهتدي إليه، بدون شك.

وأضاف وهو يُعطي نيكليودوف العصا التي هي أطول منه والتي استخدمها في سيره:

– بعد مرورك بالكنيسة، البيت الثاني، على اليمين، بعد البيت الذي بطابقين.

وتوارى في الظلمات، بصحبة النساء، وهو يجر حذاءه الضخم جراً.

× × ×

-٨-

هـذه الوقفـة، في نصف المرحلـة، كانت شبيهة بجميـع الوقفات الأخرى على طريق سيبيريا: ففي الفناء الذي يحيط به حباكٌ من الأوتاد المسننة، ثلاثة بيوت للسكن بطابق واحد. وإلى أحدها أوى السجناء؛ كان أكـبر البيوت، ولـه نوافذ مسيّجـة بقضبان حديديـة. وخُصِّص البيت الثـاني للحراس. وفي الثالث أقام الضابـط المشرف على القافلة ورجـال الإدارة. وكانت نوافذ البيوت الحسنـة الإضاءة توقع الناظر في وهـم خادع، وهـو أن في داخل هذه البيوت ضربـاً من الرفاهية. كانت المصابيح تضـيء درج المداخل، وكانت خمسـة مشاعل مثبتة في الجدران تنشر النـور في الفناء. قاد العريف نيكليودوف على طول الرصيف الخشبي حتى درج مدخل أصفر البيوت الثلاثة. وأدخله غرفة انتظـار يضيئها مصباح صغير تنبعث منه رائحة كريهة من غاز الفحم. وقرب المدفأة، انحنى جندي بقميص خشن، وربطته العسكرية حول عنقه، وببنطال أسود، وفي قدميه فردة جزمة واحدة لها ساقيّة شقراء، ليسعّر جمر السماور بواسطة فردة الجزمة الأخرى(٤٥).

٤٥- ليسعـر جمـر السماور بواسطـة فردة الحـذاء الأخـرى: أي أن الجندي كان يستخدم ساقية جزمته كما يستخدم المنفاخ ليؤجج الجمر في أنبوب السماور.

عنـد مرأى نيكليودوف، ترك السماورَ مكانه، وساعد الزائر على خلع سترته الجلدية، ومضى إلى الغرفة المجاورة ليُعلن:

– لقد حضرَ، يا صاحب السيادة.

فدمدم صوت غاضب:

– حسناً! أدخله.

قال له الجندي الذي عاد في الحال إلى تسعير السماور.

– تفضل، من هنا.

في الغرفـة المجاورة التي كان يُنيرها مصبـاح معلّق بالسقف. كان الضبـاط جالساً إلى طاولة ماتـزال مغطاة ببقايا الطعـام وبزجاجتين، وكان وجهـه محتقناً جداً، وقـد ازدان بشاربين أشقرين كثيفين. وكان يرتدي سترة تـبرز صدره الهائل الحجم وكتفيه العريضتين. وانتشر في الغرفـة الدافئـة، عطر واخز وسوقـي، فضلاً عن رائحـة التبغ. نهض الضابـط نصف نهضة. عندما رأى نيكليـودوف، وحدجه بنظرة تنمّ في آن واحد على الحذر وعلى السخرية، فيما يبدو. وسأله:

– فيمَ ترغب؟

ودون أن ينتظر الجواب، صرخ نحو الباب:

– بيرتوف! هذا السماور، إلامَ سيبقى؟

– في الحال، يا صاحب السيادة.

فأرعد الضابط وقد برقت عيناه:

– سأعطيك «في الحال» شيئاً لن تنساه!

صاح الجندي وهو يدخل حاملاً السماور:

– ها قد جئتُ به، يا صاحب السيادة!

انتصر نيكليودوف أن يضع الرجل السماور على الطاولة، في حين كان الضابط يلاحِق مرؤوسه بنظرة، من عينيه الصغيرتين الشريرتين، وكأنه يريد أن يباغته متلبّساً بجرمه. وعندما وُضع السماور في مكانه حضّر الضابط الشاي. ثم تقدّم من الصوان فتناول منه زجاجة مربّعة ملأى بالكونياك، وبسكويت «ألبير»، وبعد أن وُضع كل ذلك على الطاولة، التفت إلى نيكليودوف وهو يسأله:

– إذن، فيم أستطيع أن أخدمك؟

أجاب نيكليودوف، دون أن يجلس:

– أود أن أرجوك أن تسمح لي بمقابلة سجينة.

أجاب الضابط:

– «سياسية»؟ النظام يحظّر ذلك.

فأوضح نيكليودوف:

– هذه المرأة ليست سجينة سياسية.

قطعه الضابط:

– أرجوك أن تجلس.

استأنف نيكليودوف وهو يتّخذ مكانه:

– إنها ليست سجينــة سياسية، لكن السلطات العليا سمحت لها، على أثر الطلب الذي قدّمتُه، أن تنضمّ إلى زمرة السياسيين...

قاطعه الضابط:

– آه! أعلــم! سمــراء قصــيرة؟ و لِمَ لا، الأمر ممكن جــداً. أتحب أن تدخّن؟

ومــدّ نحو نيكليودوف علبــة السجائر. ثم ملأ بأنــاة فنجانين من الشاي، وقدم لزائره أحدهما قائلاً:

– أرجوك.

– أشكرك. أود أن أراها...

– الليل طويل، وفي الوقت متّسع. سأستدعيها.

سأله نيكليودوف:

– أليس من الممكن السماح لي بالذهاب إليها، بدلاً من استدعائها.

– الذهاب إلى «السياسيين»؟ هذا مخالف للأنظمة.

– لقــد سُمح لي بذلك عــدة مرات. وإذا كنــت تخشى أن أعطي السجناء شيئاً، فأنا أستطيع أيضاً أن أفعل ذلك بواسطتها...

أعلن الضابط بضحكة كريهة:

– إيه! لا، فنحن نفتّشها.

– في هذه الحالة، فتّشوني.

قهقـه الضابط وهو يقـرّب الزجاجة التي نـزع سدادتها من كأس نيكليودوف.

– يمكننـا الاستغناء عن ذلـك. أتريد شيئاً مـن الكونياك؟ لا؟ كما تشـاء. عندما يعيش المرء في سيبيريـا فإن مما يُثلج صدره أن يجد رجلاً حسن التربية. لابد أنك تعلم إلى أي حد خدمتنا كئيبة. والأمر أسوأ إذا كان المرء قد تعوّد شيئاً آخر. الناس يتصورون أن الضابط المرافق وحش فظ، ولا يريد أحد أن يصدّق أنه خُلق لشيء آخر.

إن وجهـه الأحمـر، ورائحته، والخـاتم الذي يحملـه في إصبعه، وبخاصـة ضحكته الكريهة، كل ذلـك قد نفّر نيكليودوف على نحو غريـب. لكنه كان في هذا المسـاء، كما كان في الرحلة كلها، في حالة عظيمة من التفهّم والجدّ، بحيث أنه لم يكن بوسعه أن يعامل أحداً، أياً كان، باحتقار واستخفـاف. وكان يرى من الضروري أن يكلّم الناس «بعمق»، كما كان يدعو في نفسه طريقته في التدفّق.

خُيِّل إليه، وهو يصغي إلى الضابط، أنه فهم حالته النفسية، ولاحظ بلهجة جادة:

– أرى أنـك تستطيـع، في قيامـك بواجبـك، أن تجـد عـزاء لك بتخفيفك من آلام هؤلاء المساكين.

– أية كلام؟ أنت تعلم جيداً أي صنف من الناس هم.

فسخط نيكليودوف:

– كيـف، أي صنف من الناس؟ إنهم بشـر مثل بقية الناس. وفيهم أبرياء.

– هذا مفهوم، ففيهم مـن جميع الأنواع، وأنا أرثي لحالهم، بكل تأكيـد! بعض الضباط لا يتهاونون في شيء، فإني أحاول أن ألطّف من قسـوة مصيرهم، كلما استطعـتُ ذلك. الأفضل أن أتـألم أنا، لا هم. مِـنَ الضباط مَن يلجأ إلى الأنظمة، على الفـور، عند أقل حماقة؛ وقد يطلقون النار، حقاً! أما أنا فأرثي لهم...

وأردف وهو يصب الشاي، من جديد، لنيكليودوف :

– هلاّ شربتَ! لكن مَنْ هي بالضبط، تلك المرأة التي تحب أن تراها؟

فأوضح نيكليودوف:

– إنهـا بائسـة، سقطت في منـزل للدعارة، واتُهمـت ظلماً بأنها سمّمت هناك رجلاً. إنها امرأة طيبة جداً.

هز الضابط رأسه، وقال:

– نعـم، هذه أشيـاء تقع. دعني أقل لك إنني عرفتُ في «كازان» امـرأة... تُدعى «إيمّـا، هنغارية المولـد، لكن عينيها كانتـا حقاً عيني فارسية، وكان لها أناقة الكونتيسة...

لم يستطع الضابط أن يخفي ابتسامته عند هذه الذكرى. فقاطعه نيكليودوف ليُعيده إلى بداية حديثه، ملاحظاً:

– أرى أنك تستطيع أن تخفف من وضع هؤلاء المساكين؛ على الأقل، ماداموا تحت إشرافك. وأنا مقتنع بأنك ستجد في ذلك سروراً عظيماً.

كان نيكليودوف يلفظ كلماته، وهو يقول ذلك، بالطريقة التي نخاطب بها الأجانب أو الأطفال. كان الضابط يتأمل زائره بعينين ملتمعتين، وكان واضحاً أنه ينتظر بفارغ الصبر انتهاءه من كلامه ليستأنف قصة الهنغارية ذات العينين الفارسيتين التي شدّت ذكراها انتباهه كله.

وافق الضابط قائلاً:

– نعم، هذا صحيح، كما أعتقد. وأنا حقاً أرثي فهم. لكني كنتُ أنوي أن أروي لك قصة «غيما». اسمع ما فعلت...

فقاطعه نيكليودوف:

– هذه الأشياء لا تهمّني. أنا معترف لك بصراحة أنني إن كنت كذلك فيما مضى، فأنا اليوم أستفظع مثل هذا الموقف من النساء.

صُعقَ الضابط، وحدّق في نيكليودوف. ثم عَرَض عليه:

– أتريد شاياً، أيضاً؟

- لا، شكراً.

صاح الضابط:

- بيرنـوف! رافـق السيـد إلى «باكولـوف». قل لـه أن يسمح له بدخـول الغرفـة المنفصلة، غرفـة «السياسيين». ويمكـن أن يبقى فيها حتى ساعة التفقد.

× × ×

-٩-

خرج نيكليودوف، يقـوده الحاجب، إلى الفناء المظلم الذي تُرسل فيه المصابيح نوراً أحمر باهتاً.

أقبل جندي حارس على دليل نيكليودوف وسأله:

– إلى أين تذهب؟

– إلى الغرفة المنفصلة رقم خمسة.

لا تستطيـع أن تمـرّ مـن هنا، فالبـاب مغلق. يجـب أن تذهب إلى المدخل الآخر.

– ولماذا أغلق؟

– العريف هو الذي أغلقه؛ ذهب إلى القرية.

– طيب، تفضّل من هنا، يا سيدي.

قاد الجندي نيكليودوف إلى درج المدخل الآخر، ماشياً على طول الرّصيـف الخشبـيّ، وكان يسمع من الباحـة دويٌّ مُبهم، وضوضاء

حركات مختلطة، كخلية توشك أن تُفرق، لكن، عندما اقترب نيكليودوف وفُتح الباب، تحوّل هذا الدوي إلى صخب يصم الآذان. كانت الأصوات تتنادى وتتشائم، والقهقهات تتعالى مختلطة بقعقعة السلاسل، وسط النتانة الثقيلة المعروفة.

هذان الإحساسان، الإحساس بجلبة الأصوات مختلطة بقعقعة السلاسل، والإحساس بتلك النتانة الفظيعة، كانا يختلطان لدى نيكليودوف في إحساس من الغثيان النفسي الذي يتحول بعد ذلك إلى غثيان جسدي. كان الإحساسان يندمجان ويُدعم أحدهما الآخر.

أول شيء رآه نيكليودوف، لدى دخول منزل السجناء الذي وُضع عند مدخله حوض نتن ضخم، امرأة جالسة على حافة ذلك الحوض. وأمامها رجل على رأسه طاقية بشكل فطيرة، أمالها على رأسه الحليق. كانا يتحدثان بصوت منخفض. وعندما رأى السجين نيكليودوف غمز بعينه وهو يقول مازحاً:

– حتى القيصر نفسه ليس بوسعه أن يفعل غير ذلك...

غضت المرأة بصرها، وخفضت أطراف معطفها.

من المدخل كان يبدأ ممشى تنفتح عليه أبواب المهاجع. وكان المهجع الأول مخصصاً للأزواج. ثم يأتي بعده مهجع العزّاب. وفي نهاية الممشى غرفتان أصغر مخصصتان للسجناء السياسيين. إن هذا البناء الذي أُعدَّ لإيواء مائة وخمسين شخصاً، يحتوي على أربعمائة وخمسين. لقد ضاق المكان بالسجناء حتى أن الممشى كان يكتظ بمَنْ

لم يجـد مكانـاً له في الغـرف. كان بعضهم يجلس أو ينبطح أرضاً. وبعضهم الآخـر يروحون ويجيئون، وهـم يحملون غلايات فارغة أو مـلأى بالماء المغلي. وكان بينهم تاراس الذي لحق بنيكليودوف وحياه بحـرارة. وقد تغطّى وجهه الجميل بكدمـات ومنها كدمة زرقاء عند أنفه، وأخرى تحت عينه المتورمة.

سأله نيكليودوف:

– ماذا فعلت بنفسك هنا؟

أوضح تاراس وهو يبتسم:

– حدثت لي حادثة.

قال الجندي الحارس باحتقار:

– إنهم لا يتفوؤن يتقاتلون.

وأضاف سجين كان يتبعهما:

– ومن أجل النساء. لقد تعاركوا مع «فيدكا» الأعور.

استخبر نيكليودوف:

– وكيف حال فيدوسيا

أجاب تاراس وهو يدخل مهجع العائلات:

– هي بخير، وها أنا أحمل إليها الماء للشاي.

ألقى نيكليـودوف نظرة إلى الداخل. كانـت الغرفة تعجّ بالرجال والنساء، فوق الأسرّة وتحتهـا. وكانت تنبعث رائحة كثيفة من الثياب

المبللــة، المعلّقــة لتجف. وتعالت أصــوات النساء وهــن يزعقن بدون توقــف. كان الباب التالي باب مهجع العزّاب. كانت الحال هنا أسوأ. لقــد تكدس السجناء فيه حتى البــاب، وحتى الممشى. وكان جمهور صاخــب من السجناء بثيابهم المبللــة، يتقاسمون شيئاً وهم يتناقشون. وشرح الجندي لنيكليودوف أن رئيس الجماعة يوزّع المال لشراء المؤن، وأن هــذا المال قد قامر به السجناء أو اقترضــوه مقابل وصلٍ مكتوب على ورق اللعب. ولدى مرأى الجندي الحارس والسيد، صمتَ أقرب السجناء إليهما، وهم يتفرّسون بعداء في الوافدين الجديدين. وفي هذه الجماعــة، شاهد نيكليودوف المحكوم بالأشغال الشاقة «فيدوروف» ومعه ذلك الفتى الزري، الشاحب، المنتفخ الوجه، المقوّس الحاجبين. كمــا رأى أيضــاً متشرداً ذا وجه مجدور وخال مــن الأنف، منظره يثير الاشمئــزاز. وقد عُــرف بأنه قتل رفيقــه، أثناء فــراره في غابة سيبيريا العــذراء، وبأنه أكل لحمه. كان هذا المتشرد يقف في الممشى، ومعطفه المبلــل ملقى علــى كتفه. أخذ يتفرّســ في نيكليــودوف بهيئة ساخرة ووقحــة، دون أن يحيد له عن الطريــق. فاضطر نيكليودوف أن يدور حوله ليمر.

لم يكــن هذا المشهد جديداً عليــه. إذ طالما رأى خلال هذه الأشهر الثلاثة، هؤلاء السجناء في أشد الظروف تنوّعاً. رآهم خلال مسيراتهم، في القيظ، عندما كانوا يجرّون السلاسل في أقدامهم، فيثيرون سحابة مــن الغبار؛ رآهم أثنــاء الاستراحات في الطريــق، أو أثناء المراحل، في الهــواء الطلق، عندمــا يكون الجو جميلاً، رأى حينئــذ مشاهد مرعبة من التحلل. ومع ذلك فكلما كان بينهم وأحس أنهم يلاحظونه، كما يلاحظونه الآن، انتابه شعور بالخجل والذنب، وهو شعور يزداد إيلاماً

لامتزاجه باشمئزاز لا سبيل إلى التغلب عليه. وكان يعلم أنه لا يستطيع أن يكـون غير ذلك، في الأحوال التي يكون فيهـا هؤلاء الناس، ومع ذلك، فهو لم يتمكن من التغلب على نفوره.

سمع السجناء يقولون عندما اقترب من باب السجناء السياسيين:

– إنهم هانئون بعيشهم، هؤلاء الحشرات!

هذه الكلمات قالها صوت أضاف تجديفاً سفيهاً.

وسمع قهقهة عالية، ساخرة وعدائية.

× × ×

-١٠-

بعد أن اجتاز الجندي الذي يقود نيكليودوف مهجع العزّاب، قال لــه، قبل أن يعود أدراجه، سأرجع لأخذك بعد التفقد. وما كاد الرجل يبتعــد، حتى اقترب من نيكليودوف سجين حافي القدمين، يرفع قيده بكلتا يديه، ناشراً رائحة التعرّق القوية والحادة، وأسرَّ إليه:

– يجب أن تتدخل أيهــا النبيل، لقد لعبوا بعقل الفتى، وأسكروه، فادّعى اليوم، عند التفقد أنه كارمانوف.

وهمســ السجــين وهو يرمــي بنظراته القلقة حولــه، قبل أن يترك نيكليودوف:

– ساعده! نحن لا نستطيع أن نساعده؛ لو فعلنا لقتلونا!

كانــت القضيــة هــي التاليــة: إن المحكــوم بالأشغــال الشاقــة «كارمانــوف» أقنــع فتــى يشبهــه، محكوماً بالنفــي فقــط، أن يتبادلا اسميهمــا. وهكذا يصبح كارامانوف منفيــاً، ويذهب الفتى المسكين إلى سجــن المحكومين بالأشغــال الشّاقــة. وكان نيكليودوف يعرف هــذه القصــة، لأن السجين نفسه رواها له، خــلال الأسبوع الفائت.

أومـأ نيكليـودوف برأســه ليُريه أنه فهــم وأنه سيبذل وسعــه، ثم تابع طريقــه، دون أن يرفــع بصره. لقــد عرف نيكليودوف هــذا السجين في ايكاتيرنــبرج حيث توسّــل إليه هذا الرجل، راجيــاً منه أن يحصل لــه علــى الأذن بأخذ امرأته معــه إلى سيبيريا. دهشــ نيكليودوف من هــذه البادرة. كان رجلاً ربعةً، في الثلاثــين من عمره. نموذجاً حقيقياً للفلاح، محكوماً بالأشغال الشاقــة لمحاولة السرقة والقتل. كان يُدعى «مــاكار دييفكين». كان جرمه شديد الغرابة، لأن الذنب لم يكن ذنبه «هو» ماكار دييفكين، وإنما كان ذنبه «هو»، ذنب الشيطان، ففي ذات يــوم، حسب ما روى، جاء مسافر إلى أبيــه، واستأجر بروبلين زلاّجة وجــواداً لينتقل إلى قريــة تبعد أربعين كيلومتراً. وأمــر الوالد «ماكار» بمرافقــة المسافر. فربط ماكار الجواد، وارتدى ثيابه، وشرب فنجاناً من الشــاي مع الغريــب. وقد روى هذا، وهو يشــرب الشاي، أنه ذاهب ليتزوج، وأنه يحمل معه خمسمائة روبل كسبها في موسكو. وعندما سمــع «ماكار» ذلك، خرج إلى الفناء ليخفــي فأساً في الزلاجة، تحت القش. وقال:

– لســتُ أدري أنــا نفســي لمــاذا أخــذت الفأس. سمعــت صوتاً يقول لي: «خــذ الفأس»... فأخذتها وجلســنا في الزلاجة، ومضينا. ونسيــتُ الفأس. وكدنا نصل القرية، إذ لم يبق سوى ستة كيلومترات. وفي درب مختصــرة للطريــق الكــبرى، درب شديــدة الصعود نزلت، وأخــذت أمشي خلــف الزلاجة، وإذا «به» يهمســ إلي: «فيم تفكّر؟ إذا بلغــتَ أعلى الــدرب فستعود إلى الطريق، وهنــاك الناس والقرية. وسيحمــل مالَه معــه. إذا أردتَ أن تفعل شيئاً فافعلــه الآن، ولا تُضع الوقــت». انحنيت على الزلاجة، كأني أريــد أن أُصلح موضع القش.

فكأن الفأس وثبت إلى يدي. ويلتفتُ إلي المسافر قائلاً: «ماذا تفعل؟» فأرفـع الفأس لأهـوى عليه بها، لكنه يثب مـن الزلاجة، وكان رجلاً سريـع الحركة، ويقبض علي من ذراعي، ويصيح بي: «ماذا تفعل، أيها اللص؟» ويَقلبني على الثلج، فلا أقاوم، وأستسلم على الفور. ثم يربط يدي بزناره ويقذف بي إلى الزلاجة، ويقودني رأساً إلى مركز الشرطة. فأُحبَس. وفي المحكمة، يشهد الناس أنني رجل صالح، وأنني لم أفعل شـراً في حياتي. كما يشهـد أيضاً صاحب العمل الـذي كنت أشتغل عنده شهادة لمصلحتي.

وختم كلامه قائلاً:

– لكنـي لم أكن أملك المال الذي أدفعـه للمحامي، ولهذا السبب حكموا علي بأربع سنوات.

وهو الآن، يبـوح لنيكليودوف بسر من أسـرار السجناء. من أجل إنقاذ أحد أبناء قريته، وهو يعلم أنه يجازف بحياته حين يتكلم. فلو أن الآخرين علموا بذلك لخنقوه دون تردد.

× × ×

-١١-

كان مــأوى السجنــاء السياسيين يتألف من غرفتــين ينفتح باباهما على زاوية الممشى. وعندما دخلــه نيكليودوف، شاهد سيمونسون، مقرفصاً عند المدفأة الموقــدة مرتدياً سترة القماش المشمّع. كان يمسك بيده حطبة من الصنوبر، وباب المدفأة يرتجف من جرّاء حرارة اللهب. فلمــا رأى نيكليــودوف مد إليه يــده، دون أن ينهضــ، ونظر إليه من الأسفل، من تحت حاجبيه الكثيفين. وقال له:

– أنا سعيد بمجيئك. كنتُ بحاجة إلى رؤيتك:

كان ينظر إلى نيكليودوف نظرة ذات دلالة، نظرة مباشرة إلى عينيه.

استعلم نيكليودوف:

– ما الأمر؟

– فيما بعد، أنا الآن مشغول.

وعــاد فصرف انتباهه إلى المدفأة التــي كان يوقدها بحسب نظريته الشخصية حول الحد الأدنى لضياع الطاقة الحرارية.

همّ نيكليودوف بدخول المهجع الأول، عندما خرجت منه ماسلوفا. كانت تتقدم منحنية، طاوية ظهرها على فرشاة تدفع بها نحو المدفأة كومة كبيرة من الفضلات والغبار. كانت ترتدي قميصاً أبيض، وتنورة مشمّرة وجورباً، وتلفّ رأسها بمنديل أبيض، مشدود على حاجبيها. انتصبت، عند مرأى نيكليودوف، وقد احمر وجهها وانتعشت. وضعت الفرشاة على الأرض، ووقفت أمامه، وهي تمسح يديها بتنورتها.

سألها نيكليودوف الذي مد يده إليها:

– أنتِ ترتّبين المسكن؟

أجابت وهي تبتسم:

– نعم، هذا شغلي المعتاد. كان ثمة قذارة لا تُصدَّق. ونحن ننظف، وننظّف!...

وسألت سيمونسون:

– وغطاء السفر، هل جف؟

أجابها هذا وهو يوجّه إليها نظرة أدهشت نيكليودوف:

– تقريباً.

– آه! جيد... في هذه الحالة سأعود لآخذه، وسأحمل معاطف الفرو التي يجب تجفيفها.

وقالت لنيكليودوف، وهي تُريه أقرب باب، قبل أن تدخل هي نفسها الغرفة الأخرى:

- جميع أصدقائنا في الداخل.

كان البـاب مفتوحاً، والفـى نيكليودوف نفسـه في غرفة صغيرة يضيئها إضاءة ضعيفة مصباح معدني وُضع على أحد الأسرّة. كان الجو بارداً في الداخل مع رائحة الغبار المُثار، والرطوبة والتبغ. كان المصباح يُضيء الذيـن هم على مقربة من أشعته. لكن الأسرّة ظلت في الظلمة، في حين كانت تتراقص على الجدران ظلال متحركة.

كان الجميـع حاضرين هنا، في هذه الغرفـة الصغيرة ماعدا رجلين مكلّفـين بالتموين، وقد خرجا ليأتيـا بالماء المغلي وبالطعام. كانت هنا فـيرا ايفريموفنا، وهـي صديقة لنيكليودوف، وقد غـدت أكثر نحولاً وشحوبـاً، بعينيهـا الكبيرتين، ونظرتها الخائفـة، وعرْقها المنتفخ على جبهتهـا، وشعرها القصـير. كانت ترتـدي قميصاً رماديـاً، وأمامها صفحة جريدة انتثر عليها التبغ الذي كانت تلف منه سجائر، بحركات نزقة.

وكانـت هنا أيضاً سياسية من أقرب السجناء إلى قلب نيكليودوف هي: إميليا رانتسيف التـي كُلّفت الأعمال المنزلية، والتي كانت تملك فـن جعل الجو لطيفاً ووديـاً، حتى في أسوأ الظـروف. كانت جالسة تحت المصباح، مشمّرة عن كميها، تغسل بيديها الجميلتين، الملوّحتين، الحاذقتـين، القصاع والكؤوس ثم تضعها فوق منشفـة ممدودة على الفراش. كانت رانتسيفا شابة؛ ومع أن وجهها لم يكن جميلا، إلا أنه كان يستطيـع أن يتحوّل وهو يبتسم ليغدو حينئذ فرحاً وجذّاباً. ولقد استقبلت نيكليودوف بإحدى هذه الابتسامات.

وهتفت:

– حسبناك عدت إلى روسيا!

وأبعـد قليلاً، في ركن مظلم، جلست ماريـا بافلوفنا. كانت تُعنى بطفلة شقراء لا تفتأ تُثغثغ بصوتها الطفولي العذب.

سألت نيكليودوف:

– هل رأيت كاتيا؟ ما أحسن ما فعلته إذ جئتَ!

وأضافت وهي تُريه الطفلة:

– أُنظر إلى مدعوتنا الصغيرة.

كان هنا أيضاً أناتولي كريلتسوف، شاحباً مهزولاً، محتذياً جزمة من اللبد مطوية تحته، منكمشاً على نفسه، مرتجفاً من الحمى في زاوية من فراشـه. حدّق في نيكليودوف بعينيه المحمومتين. أراد هذا أن يذهب إليـه، لكنـه وجد إلى يمين البـاب رجلاً ذا شعر أحمـر، قصير وجعد، وأنـف ضُبطت عليه نظـارة؛ كان يرتدي سترة مـن القماش المشمع، ويفتش في كيسه وهو يحادث «غرابيتـز»، وهي فتاة جميلة مبتسمة دائمـاً. كان هذا الرجل هو الثوري الشهير «نوفودفوروف» وقد بادر نيكليودوف إلى السلام عليه، لهذا السبب الوجيه وهو أنه أكره الناس إلى قلبـه، بـين جميع السجنـاء السياسيين. تفرّس فيـه نوفودفوروف بعينيه الزرقاويـن اللتين كانتا تبرقان من خلـف زجاجتي النظارة. مد يده الضيقة، وهو مقطّب الحاجبين، وسأل بلهجة ساخرة:

– أكانت رحلتك موفّقة؟

أجاب نيكليودوف وقـد تظاهر بأنه لم يلحظ السخرية وبأنه يعتبر

السؤال ملاطفة منه؟

– نعم، كانت شائقة جداً.

ومضى نحو كريلتسوف مُظهراً لا مبالاة تامة كان بعيداً عن استشعارها ذلك أن الكلمات التي قالها نوفود فوروف وهو يقصد بوضوح إلى الإساءة، قد زعزعت استعدادات نيكليودوف الخيّرة، فأحس بالحزن يجتاحه.

سأل كريلتسوف وهو يشد على يده المثلّجة والمرتعشة:

– كيف الصحة؟

أجاب كريلتسوف وهو يسارع إلى دس يده تحت الفرو:

– حسنة. لكني لا أستطيع أن أجد الدفء. أنا مبلل، والبرد هنا قارس.

وأضاف وهو يشير إلى لوحي زجاجي ناقصين خلف قضبان الحديد:

– أُنظر إلى هذا الزجاج المكسّر. وأنت؟ لمَ لمْ تأت قبل الآن؟

– لم يُسمَح لي بالمجيء. أظهرت السلطات تشدداً. اليوم فقط أفلحتُ في العثور على ضابط أكثر تساهلاً.

فهتف كريلتسوف:

– أكثر تساهلاً، حقاً! اسأل ماشا إذن كيف تصرّف هذا الصباح!

روت ماريا بافلوفنا، دون أن تترك مكانها، حادث الصباح، عند انطلاق القافلة، بصدد الطفلة.

تدخّلت فيرا ايفريموفنا بصوت حاسم، بينما كان نظرها يطوف بينهم:

– أما أنا فأرى أنه ينبغي تقديم طلب جماعي. لقد احتج فلاديمير، لكن هذا لا يكفي.

قال كريلتسوف بحنق وحاجباه مقطبان:

– وكيف نحتج؟

كان واضحاً أن فقدان البساطة لدى فيرا ايفريموفنا، ولهجتها المصطنعة، وثورتها العصبية الدائمة، أن كل ذلك كان يضايقه منذ زمن بعيد.

وتابع كلامه مخاطباً نيكليودوف:

– أتبحث عن كاتيا! إنها تشتغل بلا انقطاع، إنها تنظف. في البداية نظّفت هنا، لدى الرجال؛ وهي الآن مشغولة بغرفة النساء. لكن لا حيلة لنا بالبراغيث، فهي تعضنا كالمسعورة.

ثم استفهم وهو يومئ برأسه إلى المكان الذي جلست فيه ماريا بافلوفنا:

– لكن، ماذا تفعل «ماشا» هناك؟

أجابت رانتسيفا:

– هي تمشط شعر ابنتها المتبناة.

قال كريلتسوف بقلق:

– لعلها ستُعدينا بقملها؟

فأكّدت ماريا بافلوفنا:

– لا، لا، أنا منتبهة لذلك. إنها الآن نظيفة تماماً.

وقالت مخاطبة رانتسيفا:

– خذيها. سأذهب لأساعد كاتيا. سأحمل إليها غطاء السفر.

أخـذت رانتسيفا الطفلة، وأجلستها على ركبتيها، وهي تشد على ذراعيها العاريتين والسمينتين بحنان الأم، وأعطتها قطعة من السكر

خرجت ماريا بافلوفنا، ودخل بعد ذلك سجينان يحملان غلايات ملأى بالماء الساخن، كما يحملان المؤن.

× × ×

-١٢-

كان أحد القادمــين الجديدين شاباً، متوسط القامة، نحيلاً، يرتدي ســترة من الفراء ويحتذي جزمة عالية. كان يسير بخطاً خفيفة وسريعة حامــلاً غلايتين ممتلئتين بالماء المغلي، ويشد على رغيف ملفوف بمنديل كبير، تحت إبطه. هتف هذا السجين:

– آه! ها إن أميرنا يعود!

وضع الغلايتين وســط الفناجين، وناول ماسلوفــا الرغيف وأعلن وهو يخلع سترته ويرميها من فوق رأسه إلى زاوية أحد الأسرّة.

– اشترينــا أشياء رائعة. اشترى ماركل الحليب والبيض. نستطيع أن نقيـم حفلة حقيقية بذلك!

وأضاف وهو يبتسم، وعيناه على رانتسيفا:

– وسوف تحضّــر كيريلوفنا كل شيء بأناقتهــا الفنية. هيا، صبّي لنا الشاي، الآن.

كان كل شــيء في المظهر الخارجي لهذا الرجــل، حركاته، ورنين

صوته، ونظرته، كان كل ذلك ينم على القوة والبهجة. أما رفيقه فكان متجهّم الوجه، كئيبه. كان هو أيضاً متوسط القامة، لكن بنيته كانت أمتن عظاماً. كان ذا وجنتين بارزتين، وخدين غائرين، ولون رصاصي، وشفتين رقيقتين وعينين خضراوين، بديعتين، متباعدتين جداً وكان يرتدي معطفاً مبطناً بالقطن وينتعل حذاء خشبياً فوق حذائه. وبعد أن وضع الغلايتين والسلتين أمام رانتسيفا، حيّا نيكليودوف بانحناءة من رأسه، دون أن يرفع بصره عنه، ومد إليه كارهاً يده الرطبة، قبل أن يبدأ بإخراج المؤن من السلة.

خرج هذان السجينان السياسيان من الشعب. كان الأول، ناباتوف، فلاحاً؛ وكان الثاني، ماركل كوندراتييف، عاملاً. وبينما انضم ماركل إلى الحركة الثورية في الخامسة والثلاثين من عمره، أي في سن النضج، انتسب ناباتوف إليها في الثامنة عشرة. لقد برهن ناباتوف على كثير من الإستعدادات، وهو في مدرسة القرية، فأُرسل إلى المعهد الثانوي، واستطاع أن يبقى فيه بما أعطاه من دروس خاصة. ومع أنه تخرج من المعهد الثانوي بميدالية ذهبية، إلا أنه لم يدخل الجامعة، لأنه صمم، منذ الصف السابع، أن يعود إلى وسط الشعب الذي خرج منه. وكان يبغي أن يكرّس نفسه لتعليم إخوانه المنسيين. وبدأ عمله كاتباً في قرية كبيرة سرعان ما أُوقف فيها لأنه قرأ على الفلاحين أنواعاً شتّى من النشرات. وفضلاً عن ذلك، فقد نظّم تعاونية إنتاجية واستهلاكية. بقي في السجن، أول مرة، مدة ثمانية أشهر، ثم وُضع بعد ذلك تحت الرقابة الخاصة. وعندما أُخلي سبيلُه انتقل إلى مقاطعة أخرى، وعمل معلماً في إحدى قراها حيث استأنف نشاطه السابقز فاعتُقل من جديد، وأودع السجن، هذه المرة، لمدة عام

وشهرين. وفي السجن توطّدت قناعاته توطّداً أعظم. ونُفي بعد سجنه الثاني إلى مقاطعة «بيرم» ونجح في القرار. وقُبضَ عليه وسُجن سبعة أشهر، ثم نُفــي إلى مقاطعة «آركانجسك» وفرّ ثانية فقبض عليه أيضاً، وأُبعد هذه المــرة إلى مقاطعــة «إياكوتسك». وهكذا قضى نصــف شبابه في السجن أو المنفــى. كل هــذه المغامرات لم تزد طبعه حدة، بــل زادته صلابة، بدلاً مــن أن تثبط عزيمته. كان رجــلاً عظيم النشاط، يتمتع بمعــدة ممتازة؛ كان مشغولاً دائماً، فرحاً، مفعماً بالقوة. لم يحسّ بالندم قط، ولم يشغل نفسه بالمستقبــل قط؛ كان يكرّس كل طاقات ذكائــه وقدراته، ومواهبه العملية ليحيــا يومه. كان يتابع، وهو حر، الهدف الذي حدده لنفسه وهو: تعليم العمــال والفلاحــين على وجه الخصوصــ، وتوحيدهم. أمــا في السجن فــكان يضع كل ما يملــك من طاقة ومن حس عملي لتوثيــق الصلة بالعالم الخارجي. وكان يسعى لا إلى تنظيم حياته الخاصة فحسب، بل وأيضاً إلى تنظيــم حياة رفاقه، بأفضل طريقة ممكنة، وتبعاً لظروف اللحظة. كان قبل كل شيء غيريــاً. لم يكن يحتاج إلى شيء، كما كان يبدو، من أجل نفسه، بــل إنه كان يرضى بالقليل القليل من الأشيــاء. أما من أجل رفاقه، فكان، بالمقابل، شديد التطلّب.

كان قادراً على القيام بأية مهمة جسدية أو عقلية، دون أن ينام أو يأكل. وإذ كان فلاحاً فقد كان يحب العمل. وكان حاذقاً، خبيراً بما يعمل، رقيقاً بطبيعته، مُحترِماً لعواطف الآخرين وآرائهم. كانت أمه العجوز ماتزال حية، وهي فلاحة مسكينة لا تعرف القراءة والكتابة، أرملة، ملأى بالخرافات. وكان يزورها، وهو حر، ويبــذل وسعه حينئذ في مساعدتها، ويهتم بها، حتــى أصغر تفاصيــل حياتها. وكان حــين يساعدهــا، يخالط الفلاحين ويدخن معهم «التُتُن» في لفائف يضعها بنفسه مع الفلاحين، ويلاكمهم،

ويُظهرهــم على جميع الأضاليل التي كانوا ضحية لها. وعندما كان يفكر فيما ستحمله الثورة إلى الشعب، أو يتكلّم على ذلك فإنه كان يتصوّر هذا الشعــب الذي خرج منه وهو يحيا منــذ ذاك ظروف متماثلة تقريباً، لكنه يصبــح سيداً للأرض. ولن يبقــى إذ ذاك ملاّكون للأراضي ولا موظفون. والثورة، في نظره، لا ينبغي أن تغيّر أشكال حياة الشعب. كان يختلف في ذلك عن «نوفودوروف» وتلميــذه ماركل كوندراتييف. الثورة، بالنسبة إلى ناباتــوف، لا ينبغي أن تقلب النظام القائم كله، لكن ينبغي لها فقط أن تعدل التنظيم الداخلي لهذا البنــاء القديم، المتين، الهائل والعجيب، الذي كان يحبه بحرارة.

ومــن وجهة النظر الدينية، كان ناباتــوف فلاحاً، على نحو نموذجي. لم يكــن يفكر قط في المشكلات الميتافيزيكية، في أصل جميع المبادئ، في الحياة بعد الموت. لقــد كان الله، بالنسبة إليه، كما كان بالنسبة إلى آراغو، فرضيــة لم يتبــين ضرورتها حتــى الآن. لم يكن يهمه كثــيراً أن يعلم كيف بــدأ العالم، بحسب ما قــال موسى أو بحسب ما قــال داروين. ولم تكن الداروينيــة التــي يعلق عليها كثير مــن رفاقه أهمية كبيرة، ســوى ألهية من ألهيــات الفكر بالنسبة إليه، شأنها شأن خلق الكون في سبعة أيام. لم يكن يهتــم بأصل العالم لأنه كان مستغرقاً أبداً في المشكلة التالية: وهي أن يعلم كيف يستطيع الناس أن يحيوا، في هذا العالم، حياة أفضل. ولم يكن يفكر أيضاً في الحياة الآتية لأنه كان، في أعماقه، على قناعة صلبة ومطمئنة، وهي قناعــة موروثة من الأجداد وعامة بــين جميع شغيلة الأرض، بأن الإنسان لا يمــوت بل يتحــوّل. إنه يتحوّل تمامــاً كما هي الحــال في العالم الحيواني والنباتــي حيث لا يتلاشى شيء، ويتحوّل كل شيء: الزبل إلى حبّ، الحبّة إلى دواجــن، فــرخ الضفدع إلى ضفدع، الشرنقــة إلى فراشة، البلّوطة إلى

سندیانـه. وإذ كان مقتنعاً بهذا المبدأ، فقد كان يواجه الموت بشجاعة، بل بفـرح. وكان يحتمل آلامه بثبـات، لكن هذا الموضـوع لم يكن يميل إلى الكلام عليه، بل قد كان عاجزاً عن الكلام عليه. كان يحب أن يعمل؛ كان مشغولاً أبداً بشيء ذي طابع عملي، حاثاً رفاقه على الاحتذاء به.

كان السجـين الآخر من أبنـاء الشعب، ومن طينة أخـرى، هو أيضاً. لقـد دخل ماركل كوندراتييف المصنع وهو في الخامسة عشرة ومالبث أن أخذ يدخّن ويشرب، لكـي يُنوّم شعوراً مبهماً من الحرمان. هذا الشعور، خالجـه لأول مـرة، خلال حفلة في عيد الميـلاد دُعي إليها مـع سائر أبناء العمـال، ليتأملوا شجرة الصنوبر التي زُينـت بإشراف زوجة المدير. ولقد قُدِّمت لماركل ورفاقه صافرة بفلس، وتفاحة وجوزة مذهبة، وتينة مجففة. أمـا أولاد صاحب العمل فقـد قُدِّمت لهم لعب بـدت أسطورية في نظر مـاركل الصغير. وقـد كلّفت هذه اللعـب، كما علم فيما بعـد، أكثر من خمسين روبلاً. كان عمر مـاركل كونراتييف ثلاثين عاماً، عندما شُغِّلت في المصنـع عاملة معروفـة بأنها ثوريـة. وقد لاحظت هـذه العاملة ذكاء مـاركل فأعارته الكتب والنشـرات. وفي المناقشات الحامية، كانت تُظهر لـه بؤس وضعه، والأسباب التي دعت إلى هذا الوضع، والوسائل الكفيلة بتحسينه. وعندما أدرك إمكان تحرير نفسه وتحرير الآخرين من الاضطهاد الـذي يعيشـون تحت وطأته، بدا له الظلم شديـداً، لا يطاق، أكثر من ذي قبـل. وكان يتوق بشغف لا إلى التحرر فقط، بل وإلى معاقبة أولئك الذين أقاموا وثبّتوا هذا الظلم الفادح. ولقد قيل له: إن إمكان بلوغ هذا الهدف يكمـن في المعرفة. فأكب كوتدراتييف على الثقافـة. ولم يكن يفهم، بينه وبـين نفسـه، بأية طريقة يستطيـع المثل الأعلى الإشتراكـي أن يتحقق من خلال المعرفة. بيد أنه بعد أن تأكّد من أن المعرفة أتاحت له أن يدرك ما في

وضعه من ظلم، فقد رضي أن يؤمن أن الثقافة ستساعده على إزالة ذلك الجـور. وفضلاً عن ذلك، كان العلم، برأيه، يرفعه إلى ما فوق الآخرين. ولذلك انقطع عن التدخين والشراب، ووقف جميع ساعات فراغه على الدراسـة. وبما أنه رُفِّع إلى مرتبـة أمين مخزن، فقد حصل على قسطٍ أكبر من الحرية.

قامت العاملة الثورية مقام الأستاذ له. ودهشت حين تبينت السهولة المُذهلـة التي يتوصـل فيها إلى التمثـل، دون أن يشبع مـن التعلم. ففي مدى سنتين، تعلّم الجبر والهندسة والتاريخ الذي كان يحبه حباً خاصاً. وقـرأ جميع المؤلفات الخياليـة، والنقدية، ولاسيما الكتـب التي تعالج الاشتراكية.

بيد أن الثورية أوقفت، ولقِي كوندراتييف مصير معلمته، إذ وجدت في حوزتـه كتبـاً محظـورة. أُودع السجـن أولاً، ثـم نُفـي إلى مقاطعة «فولوغـدا». وهناك تعـرّف بنوفودفوروف. وقرأ هنـا أيضاً كثيراً من المؤلفـات الثورية، وتأثّـر تأثّراً أكبر بالنظريـات الاشتراكية. فلما انتهى النفـي، غدا المنظّم لإضراب عمالي كبير انتهـى إلى إحراق المعمل وقتل المديـر. وعندما أُوقف، حُكم عليه بالحرمـان من الحقوق المدنية وبنفي جديد.

كان موقفه من الدين سلبياً كموقفه من النظام الاقتصادي. فقد تحرر مـن العقيدة التي كبر فيها، بخوفٍ، أول الأمر، ثم بحماسة، وذلك بعد أن اقتنع من مخالفتها للعقل. وكان لا يكفّ عن السخرية من الكهنة ومن العقائد الدينية، بطريقة سامّة وخبيثة، وكأنه يريد أن ينتقم، من إبقائه في

الضلال، هو ورفاقه. تعوّد الزهد ورضي بالحد الأدنى للمعيشة. لقد أوتي عضلات قوية، شأنه شأن جميع الرجال الذين تعوّدوا العمل منذ الطفولة، فكان قادراً على القيام بأي عمل يدوي، أثناء ساعات طويلة بلا انقطاع، محافظاً أبداً على مهارته. وكان يقدّر أكثر من أي شيء آخر لحظات الإستراحة التي يُمنحها، لأنه يستطيع أن ينصرف فيها إلى الدراسة، سواء أكان ذلك في السجن أم أثناء المراحل. وفي هذه اللحظة، كان منهمكاً في قراءة الجزء الأول من ماركس الذي كان يُخفيه في كيسه، وكأنه كنز. كان يبدو متحفظاً، ولا مبالياً إزاء جميع رفاقه، ماعدا نوفودفوروف الذي أخلص له وقبل أحكامه في جميع القضايا وكأنها حقائق لا يتطرّق إليها الخطأ.

أما النساء اللواتي كان يعتبرهن عقبة في وجه كل قضية مهمة، فكان يكنّ لهن احتقاراً لا يُقهر. بيد أنه كان يرثي لماسلوفا التي كان يعاملها برقة، لأنه رأى فيها مثالاً للإستغلال: إستغلال الطبقات العليا للطبقات الدنيا. ولهذا السبب، لم يكن يحب نيكليودوف، وكان يبدو قليل الكلام بصحبته، وكان يكتفي بأن يسمح له بشد يده، دون أن يشد هو يد الأمير.

× × ×

-١٣-

كانت المدفأة موقدة وكانت تدفئتها حسنة؛ وأُعِدّ الشاي وصب في الكؤوس والقصاع، مضافاً إليه الحليب. وأُخرَج من الأكياس البسكويت، والخبز الأبيض والخبز الأسود والبيض المسلوق والزبدة، ورأس العجل وقوادمه. دنا الجميع من السرير الذي قام مقام الطاولة وأخذوا يشربون ويأكلون. وكانت رانتسيفا جالسة على صندوق، تصبّ الشاي وتثرثر، وقد تحلّق الجميع حولها، ماعدا كريلتسوف الذي ظل متمدداً يحادث نيكليودوف، بعد أن خلع سترة الفراء المبللة، وتغطّى بغطاء السفر الجاف.

بعث فيهم الغذاء والشاي المغلي مرحاً منعشاً، بعد البرد والرطوبة اللذين كابدوهما خلال السير، وبعد القذارة والفوضى اللتين وجدوهما في هذا المكان، وبعد العذاب الذي تعذّبوه ليرتّبوا كل شيء.

وكانت أصوات سجناء الحق العام، وصرخاتهم، وتجديفاتهم، من جانب الحاجز الآخر، تزيد من إحساسهم بالهناءة، من جراء تناقضها مع ما هم فيه. كانت جماعة السجناء السياسيين، كجزيرة في المد،

تحسّ إحساساً موقتاً أنها في مأمن من الإهانات والآلام التي تحيط بها. وكان هـذا الأمر يُقضـي بالسجناء السياسيـين إلى حالة من الحماسة، والنشوة النفسية. كانوا يتحدثون في كل شيء، إلا في وضعهم الحاضر وفيمـا ينتظرهـم. وكمـا يحدث دائماً بين الرجـال والنساء الشابات، ولاسيمـا عندما يُكرهون على العيش معـاً، فقد قامت بينهم علاقات مـن المودة المتبادلة على نحو ما. كانوا جميعاً عاشقين. نوفودفوروف شُغف بغرابيتز الجميلة، المبتسمة أبداً. كانت طالبة، ومنذ أيام دراستها، لم تُعنَ كثيراً بالقضايا الثورية التي كانت تشعر إزاءها باللامبالاة التامة، لكنهـا خاطـرت بنفسها، على نحو مـا، بتأثير العصـر. فحُكم عليها بالنفـي. وكان همها الرئيسي أن تحظى بقلوب الرجال. ولم يغير ذلك في شـيء كونُها في السجن. وإذ أُجبـرت الآن على الاشتراك في هذه الرحلـة، فقد وجدت العـزاء عن ذلك في أن نوفودفـوروف هام بها وهامت به.

أمـا فـيرا ايفريموفنا، فقلّما كانـت توحي بالحـب، وإن وقعت فيه بسهولة، لكنها لم تفقد الأمـل بسبب ذلك، فكانت مغرمة بناباتوف تارة، وبنوفودروف، تارة أخرى.

وكان كريلتسـوف يشعر إزاء ماريا بافلوفنـا بشعور شبيه بالحب. كان يحبهـا كما يحب الرجال النسـاء؛ لكن بما أنه كان يعرف موقف الفتـاة من الحب. فقد كان يخفي بمهارة عواطفـه تحت قناع الصداقة والعرفـان بالجميل من أجل الرعايـة المليئة بالعطف التي كانت تُغدقها عليه.

وقامــت بين ناباتوف ورانتسيفا علاقــات غرامية غريبة. وكما أن ماريــا بافلوفنــا كانت فتاة نقية، بــكل معنى الكلمــة، فكذلك كانت رانتسيفــا نموذجــاً للزوجة العفيفة. ففــي السادسة عشــرة من عمرها عندما كانــت طالبة في المعهد الثانوي، وقعــت في حب «رانتسيف» وكان طالبــاً إذ ذاك في جامعة بطرسبرج. وفي التاسعة عشرة تزوّجت به، مع أنه لم يكن قد ترك الجامعة بعد. كان في السنة الجامعية الرابعة، عندمــا اتُّهم بالاشتراك في تمرّد طلابي، فنُفي مــن بطرسبرج، وأصبح ثورياً.

وكانت امرأته تدرس الطب، فتركت دروسها وتبعته، وأصبحت هــي أيضاً، ثورية. ولولا أن زوجهــا أفضل الناس وأذكاهم، برأيها، لما أحبّتــه، وبالتالي لما تزوّجته. لكن بسبب حسن ظنها به، كانت تتصوّر الحيــاة والمثل الأعلى كمــا يتصورهما. لم يكن لــه، أول الأمر، سوى هدف واحد هو الدراسة، فشاركته حماسته. ثم غدا بعد ذلك ثورياً، فتبنّت آراءه، بتأثير منه. وكانت رانتسيفا من أقدر الناس حين تتصدى للبرهنــة علــى أن النظــام القائــم غير مقبــول، مؤكّــدة أن من واجب الجميــع محاربته، وإقامــة نظام جديــد، سياسي واقتصــادي على حد سواء، يُتيــح للفرد أن يتطور بحرية. وكانت لها نظريات أخرى كثيرة من هــذا النمط. وكان يبدو لها أن هذه الأفــكار والعواطف أفكارها وعواطفها، في حين أنها كانت، في الحقيقة، من عند زوجها. وكانت تعــدّ هذه الآراء حقائــق لا جدال فيها، ولا تهدف إلا إلى شيء واحد: أن تنسجــم انسجامــاً كلياً، تاماً معه. كان هذا هــو سبيلها الوحيد إلى بلوغ السكينة الداخلية.

كان انفصالها عن زوجها وابنها الذي أخذته أمها إلى بيتها، شديداً عليهـا. ومـع ذلك، فقـد كانت تحتمل هـذا الفراق بثبـات وبهدوء، لعلمها أنها تضحّي بنفسها في سبيل زوجها، وفي سبيل قضية لابد أن تكـون عادلة لأنه يعمل من أجلها. كانت بفكرها معه أبداً، وكما أنها لم تحـبّ أحداً قبله، فكذلك لم يكن ممكنـاً أن تحب أحداً غيره. بيد أن حب ناباتوف المخلص والعفيف لها، كان يثير انفعالها واضطرابها.

لقـد كان هـذا الرجل القـوي جـداً، ذو الأخلاقيـة الرفيعة جداً، صديـق زوجها، يجهد في أن يعاملها كأخت. لكن شيئاً ما، كان يُطلّ برأسه من خلال صلاتهما، شيئاً أخافهما وإن جمّل حياتهما الشاقة.

ومن ثم، فالشخصان اللذان كانا مستقلّين استقلالاً تاماً إزاء الحب، في هذه الجماعة، كانا ماريا بافلوفنا وكودراتييف وحدهما.

× × ×

-١٤-

جلس نيكليودوف بجنب كريلتسوف يثرثر معه، وهو ينوي أن يبقى على انفراد مع كاتيوشا، كعادته، بعد الشاي والعشاء. فروى له، فيما روى، التقاءه ماكار، وقصة بادرته لينقذ رجلاً من قريته. كان كريلتسوف يصغي باهتمام، دون أن يحوّل نظره المحموم عن وجه محدّثه. وقال بغتة:

– نعم. كثيراً ما أفكر في أننا نمشي معهم، بجانبهم. لكن مَنْ هم؟ هؤلاء ناس نُفينا من أجلهم، ونحن لا نعرفهم، بل إننا لا نريد أن نعرفهم. وهم أسوأ منا، إنهم يكرهوننا ويعدّوننا أعداء لهم. إن هذا لفظيع!

تدخل نوفودفوروف الذي كان يُصغي إلى الحديث:

– ليس في ذلك ما هو فظيع.

وأضاف مؤكّداً بصوته المرتعش:

– الجمهور يعبد دائماً السلطة وحدها. والسلطة في يد الحكومة،

وإذن فالجمهـور يعبـد الحكومة ويكرهنـا. غداً سنصـل إلى السلطة، وحينذاك سيعبدنا الجمهور، وسوف...

في هـذه اللحظة، تعالـت في الجانب الآخر مـن الحاجز أصوات مشاجرة مـع قعقعة السلاسل، وصدمات أجسـام تُلقى على الجدار. كان أحد السجناء يُضرب هناك. وصرخ صوت:

– النجدة!

سأل نوفودفوروف دون أن ينفعل:

– هـؤلاء هم الوحوش المفترسـة حقاً! ما الصـلات التي يمكن أن تكون بيننا وبينهم؟

فقال كريلتسوف محتداً:

– تقـول إنهم وحوش مفترسـة؟ لكن نيكليـودوف روى لي قبل هنيهة حادثاً...

ثـم روى كيف أن ماكار خاطر بحياته لينقـذ حياة فلاح من قريته وختم كلامه بقوله:

– ليس هذا التصرف تصرّف وحش مفترس، بل إنه مأثرة بطولية.

فهزئ نوفودفوروف قائلاً:

– كل ذلك مظاهر عاطفية. ومن الصعب فهم الاندفاعات العاطفية

لـدى هؤلاء الناس، ودوافع تصرفاتهم. أنت، ترى فيها شيئاً من عظمة النفس، في حين أنها يمكن ألا تكون سوى حسد للآخرين...

سألـت ماريا بافلوفنـا نوفودفوروف الـذي كان يخاطب الجميع بضمير المفرد.

– لماذا تأبى أن ترى الخير في الإنسان؟

– لا يمكننا أن نرى ما ليس موجوداً.

– كيف ذلك، عندما يتعرّض امرؤ للموت الزؤام؟

أجاب نوفودفوروف:

– أعتقـد أننا إذا شئنا خدمة قضيتنا، فالشـرط الأول اللازم هو ألا ننساق وراء تخيلاتنا، بل أن ننظر إلى الأشياء مواجهة.

بينمـا كان يتكلّم، وضع كوندراتييف الكتـاب الذي كان يقرؤه، وكان جالساً قرب المصباح، وأخـذ يصغي بانتباه إلى ما يقوله مُرشده الذي تابع كلامه وكأنه يُلقي محاضرة:

– مـن واجبنا أن نعمل كل شيء من أجل الجماهير، دون أن ننتظر شيئاً لقـاء ذلك. إن الجماهير تشكل غرض نشاطنا، لكنها لا يمكن أن تتعـاون معنا، مادامـت في جمودها الحالي. وبالتـالي، فمن الوهم أن نتوقّع مساعدة من جانبها، قبل أن نُنضج مسيرة التطور التي نُعدّها.

سأله كريلتسوف وهو يحمرّ:

- أية مسيرة تطوّر؟ نحن نذهب إلى أننا أعداء للطغيان التعسفي، لكن أليس هذا أسوأ أنواع الطغيان جميعاً؟

فأكّد نوفودفوروف وهو رابط الجأش:

- ليس ها هنا أي استبداد. إنني أبغي فقط معرفة الطريق الذي يجب أن يسلكه الشعب والذي أستطيع أن أدلّه عليه.

- كيف تستطيع أن تكون علي يقين من أن هذه الطريق هي الصالحة؟ أليس ذلك من نمط الطغيان الذي ولّد تفتيش الثورة الفرنسية وعقابها؟ هم أيضاً، كانوا واثقين من أنهم يسيرون على الطريق الصحيحة.

- إذا كانوا هم قد أخطؤوا، فهذا لا يَسْتتبع أن أكون مخطئاً. ثم إن الفرق عظيم بين سراب دعاة المذاهب الفكرية والوقائع الموضوعية للعلم الاقتصادي.

كان صوت نوفودفوروف يملأ القاعة، وكان يتكلم وحده، والآخرون صامتون. سأل نيكليودوف ماريا بافلوفنا:

- وأنتِ، ما رأيك الشخصي في ذلك؟

- أرى أن أناتولي على حق؛ فنحن لا نستطيع أن نفرض أفكارنا على الشعب.

وسأل نيكليودوف ماسلوفا وهو يبتسم، خائفاً من أن تُجيب بجواب في غير مكانه:

- وأنتِ، يا كاتيوشا؟

فردّت وهي تحمر:

– أنا، أرى أن الفقراء يعامَلــون معاملة سيئة. إنهم يُعاملون معاملة سيئة، على نحو رهيب.

فصاح ناباتوف:

– صحيــح تماماً، صحيح تمامــاً! الشعب يُعامَــل بطريقة فاضحة. ويجب أن يتغير ذلك. وتلك مهمتنا!

انتقده نوفودفوروف:

– يا له من تصور غريب لواجبات الثورة؟

وعاد إلى صمته، وأخذ يخن بحنق.

همس كرينتسوف:

– النقاش معه مستحيل!

ختم نيكليودوف الحديث:

– الأفضل ترك النقاش.

× × ×

-١٥-

بالرغـم مـن أن نوفودفوروف يحظـى باحترام جميـع الثوريين، ومع أنه كان عظيم الثقافـة وأنه يحسب نفسه عظيم الذكاء، فقد كان نيكليـودوف يصنّفه في هـذه الزمرة من الثوريين الذيـن يظلون دون الوسط، بموقفهـم الأخلاقي. إن مواهب هذا الرجـل العقلية، صورة الكسـر إن صـح القول، كانـت عظيمة؛ لكن مخرج الكسـر، أي رأيه بنفسه، كان عالياً جداً إلى درجة أنه تجاوز قدرات عقله منذ زمن بعيد.

كان، من الناحية الروحية، نقيض سيمونسون. لقد كان سيمونسون ينتمـي إلى فئة الأفراد ذوي الطبع الرجـولي الذين تصدرُ أعمالهم عن نشاط الفكر، وتحمل طابع هذا الفكر.

أمـا نوفودفـوروف فـكان ينتمـي إلى زمـرة الأفراد الذيـن أوتوا خصائصـ أنثويـة قبل كل شـيء. إن نشاط الفكر عند هـؤلاء الأفراد يتّجـه نحو أهداف عاطفية جداً، وأيضـاً إلى تبرير الأفعال التي أثارتها العاطفة.

إن نشـاط نوفودفوروف الثوري بأسـره، قائم، برأي نيكليودوف

علـى الغرور وعلـى الرغبة في التفـوّق على الآخرين. هـذا برغم أن نوفودفـوروف قد بذل كثـيراً من البلاغة في وصــف نتائج سَبْقه. في البدايـة، كانــت موهبته في تمثّل أفـكار الآخرين ونقلهـا إلى الآخرين مقدّرة تقديراً عالياً. ففي المعهد، والجامعة، وفي وقت تقديم الدكتوراه كان دائمــاً الأول، ولم يكــن يتمنى شيئاً غير ذلــك. لكنه ما إن حصل علـى شهادتــه، وأنهى دراسته، حتــى غيّر رأيه تغيــيراً جذرياً، بهدف احتــلال الأوّليــة في ميدان آخــر. لقد تحوّل فجأة من تحــرّري تقدّمي إلى «محــرّر للشعــب» متعصّب. وكان نيكليــودوف. يعلم ذلك، عن طريق كريلتسوف الذي لم يكن يطيق نوفودفوروف. وإذ كان محروماً مــن هذه المبادئ الأخلاقيــة والجمالية التي تولّــد الشك والتردد، فقد حصــل بسرعة على مركز رئيس حزب الثوريين. وأرضى هذا النجاح طموحه. فلما اختار وجهته، لم يدع للشك منقذاً إلى نفسه، واثقاً من أنه لــن يخطئ أبداً. كان كل شيء يبدو له. بسيطــاً، واضحاً، بديهياً، إلى أبعد الحدود.

كان كل شــيء بالفعل بسيطاً وواضحاً بسبــب ضيق آرائه: يكفي المــرء أن يكون منطقياً ليتكلّم مثلــه. وكان اعتداده بنفسه عظيماً، فإما أن يُقنــع الآخرين وإمــا أن ينحّيهم عن طريقــه. وكان نشاطه يتم بين الشبــاب، الذين اعتبروا هذا الزهــو الذي لا حدود له حكمة عظيمة. كان معظمهــم يخضع له حتى أنه كان يلقــى نجاحاً هائلاً في الحلقات الثورية. كان نشاطه ينحصر في الإعداد للثورة المسلحة التي سيستولي فيها علــى السلطــة ويؤلف الجمعيــة التأسيسيــة. وقد وضــع برنامجاً إصلاحيــاً سيقدّمه للجمعية المذكورة، وكان واثقاً من أن هذا البرنامج سيحلّ جميع المشكلات بحيث لا يُمكن ألا يُقبَل.

كان رفاقه يقدّرونه لجرأته وصلابته؛ لكنهم لم يكونوا يحبونه. أما هو، فلم يكن يحب أحداً، معتبراً جميع الذين يبزغ نجمهم أعداء له. ولو استطاع لعاملهم راضياً كما تتصرف القرود الهرمة مع قرودها الفتية. كان بودّه أن يخنق كل ما لدى الآخرين من ذكاء ومن قدرة، حتى لا يحولوا دون نشر مواهبه الشخصية. لم يكن يتصرف تصرفاً لائقاً إلا مع الذين يكرّمونه. ولهذا السبب كان يهتم، أثناء الرحلة، بكوندراتييف الذي تبنّى مذهبه، وبفيرا ايفراموفنا وغرابينز الجميلة، وكانت مغرمين به كلتاهما. كان، نظرياً، من أنصار تحرير النساء. لكنه كان يراهن، في أعماقه، غبيات، دون الرجال، كلهن، ماعدا اللواتي يحببهن بطريقة عاطفية، وهو ما كان يقع له غالباً. في هذه المرة، وقع اختياره على غرابيتز. وفي هذه الحالة، كان يحكم على هؤلاء النسوة بأنهن غير عاديات، ويعتقد أنه وحده القادر على تمييز صفاتهن. وكانت مسألة العلاقات الجنسية تبدو له، ككل المسائل، في أقصى البساطة الوضوح: كان حلّه هو الحب بلا زواج. كانت له امرأة «صورية»[٤٦]؛ وامرأة أخرى حقيقية انفصل عنها بعد أن استنتج أنه لم يكن بينهما حب حقيقي. وهو الآن ينوي أن يقيم مع غرابيتز علاقة بدون زواج.

كان يحتقر نيكليودوف لما كان يدعوه «تكشيراته» مع ماسلوفا، وعلى الخصوص، لأن الأمير كان يُبيح لنفسه أن يُفكّر، بصدد عيوب

---

٤٦ كانت له امرأة صورية: زواج شكلي يعقد لأسباب سياسية، وذلك لتخليص الفتاة من سلطة أهلها، ولكي يتاح لها أن تكرس نفسها للنشاط الذي تختاره.

النظـام الاجتماعي والوسائل الكفيلـة بمعالجة هذه العيوب، تفكيراً لا يتلاءم مع أفكاره هـو، نوفودفوروف، لكن على طريقته الأميرية، أي المخالفـة للعقـل. وكان نيكليودوف يعـرف رأي نوفودفوروف فيه. ومع أن الأمير كان، في هذه الفترة، دائـم الاستعداد للمعاملة بالحسنى، فقـد أسف لأنـه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يرد على الإساءة بمثلها، ولأنـه لم يُفلح في التغلب على ذلك النفـور العميق الذي شعر به نحو هذا الرجل.

× × ×

-١٦-

دوّت الأوامــر في الغرفــة المجاورة. وفي الصمــت الذي خيّم من جديــد، دخل القاعة عريف ومعه حارسان من حرّاس القافلة، لإجراء التفقّــد. أحصى العريف الجميع مشيراً بإصبعــه إلى كل سجين منهم. وعندما وصل إلى نيكليودوف قال له بلهجة لا كلفة فيها:

– لا تستطيــع بعــد الآن أن تبقى هنــا، يا أمير. ويجــب عليك أن تخرج مع انتهاء التفقد.

اقترب منه نيكليودوف، وقد أدرك معنى هذه الكلمات، فدسّ في يده ثلاثة روبلات.

– طيّب... كيف نفعل معك؟ ابقَ لحظة أيضاً...

كان العريــف يهمُّ بالخروج عندما أدخــل ضابط صف آخر، يتبعه سجين طويل ونحيل، ذو لحية نادرة الشعر، وعين متورّمة.

أعلن السجين:

– جئتَ من أجل الصغيرة.

صرخ صوت طفولي حاد:

- هذا بابا!

وبدا خلف رانتسيفا رأس أشقر.

كانــت رانتسيفــا تخيط ثوبــاً للطفلة قصتــه من تنــورة قديمة لها، تساعدها في ذلك ماريا بافلوفنا وكاتيوشا.

همس بوزوفكين بصوت مداعب:

- هذا أ،ا، يا بنتي الصغيرة، هذا أنا.

اعترضــت ماريــا بافلوفنا التي نظرت بعطــفٍ إلى وجه بوزوفكين المكدوم:

- إنها مسرورة هنا، عندنا، فدعها عندنا...

فأعلنت الطفلة وهي تشير إلى عمل رانتسيفا:

- السيدات يخطن لي ثوباً جديداً، ثوباً جميلاً أحمر.

سألتها رانتسيفا وأرفقت سؤالها بمداعبة:

- أتحبين أن تظلي لتنامي معنا؟

- نعم. وبابا أيضاً....

فابتسمت رانتسيفا ابتسامتها العادية المشرقة، وقالت:

- بابا لا يستطيع أن يبقى.

وأصرّت على بوزوفكين:

- دعها لنا.

وافق العريف الواقف قرب الباب:

– تستطيع أن تتركها إذا شئت.

وخرج مع ضابط الصف.

لم يكد الحارسان يخرجان حتى اتجه ناباتوف نحو بوزوفكين. فسأله وهو يلمس كتفه:

– قل لي، أيها الأخ، أصحيح أن كارمانوف يريد أن يضع أحد المساجين عندكم محلّه؟

حلّت الرصانة محل ذلك التعبير السمح والمتودد على وجه بوزوفكين. وأغمض عينيه نصف إغماضة ليجيب:

– لسنا نعلم شيئاً عن ذلك. هذا لا يكاد يُصدَّق!

ثم أضاف دون أن يرفع جفنيه:

– طيب! كسيوكا، ابقي هنا لتعذّبي هؤلاء السيدات، إذا شئتِ.

قال ذلك وبادر إلى الخروج.

صرّح ناباتوف:

– إنه يعرف كل شيء. الأمر إذن صحيح. لقد تبادلا اسميهما إذن. وأنت ماذا تنوي أن تفعل؟

أجاب نيكليودوف:

– سأخبر السلطات بذلك إذا بلغنا المدينة. أنا أعرفهما كليهما بالوجه.

صمت الجميع، وهم في خوف ظاهر من العودة إلى النقاش.

لم يفتـح سيمونسون فمه، خلال هذا الوقـت كله، وظل منكمشاً على نفسه، في زاوية من سريره، ويداه متصلّبتان خلف رأسه.

ثم نهض، واثق الهيئـة، ودار بحذر حول جماعة الجالسين، حتى إذا وصل إلى قرب نيكليودوف، سأله:

– أتستطيع أن تصغي إلي الآن؟

وافق نيكليودوف:

– بكل تأكيد.

ونهض ليتبعه.

وعندما رأته كاتيوشـا ينهض، ولقيت نظرتُها نظرته، هزّت رأسها وهي تتضرّج حمرة، وقد بدت الحيرة عليها.

بـدأ سيمونسون كلامه عندمـا بلغا الممر الـذي دوّت فيه جلبة لا توصف، وتعالت صيحات المحكومين بالأشغال الشاقة.

– إليك ما أردت أن أقول لك...

قطّـب نيكليودوف حاجبيه، لكن لم يبدُ على محدّثه أنه لحظ ذلك، فتابع كلامه، وعيناه مثبّتتان في وجه نيكليودوف:

– بمـا أنني أعرف علاقاتـك بكاترين ميخايلوفنا، فقـد رأيتُ من واجبي...

واضطُر إلى أن يقطع كلامه، لأن صوتين وراء الباب أخذا يصرخان معاً، في شجار عنيف. صرخ أحد الصوتين:

– قلتُ لك، يا غبي، إنها ليست لي!

فزعق الصوت الآخر:

– اذهب واشنق نفسك:، يا شيطان؟

في هذا الوقت بالذات مرّت ماريا بافلوفنا في الممشى. فدهشت وقالت:

– كيف يمكنكما أن تتحدثا هنا؟ تعالا إلى هذه الغرفة، فليس فيها سوى فيرا ايفريموفنا.

وسبقتهما إلى غرفة مجاورة صغيرة، الظاهر أنها كانت سجناً انفرادياً. وقد وُضعت هذه الزنزانة الآن تحت تصرف نساء زمرة السجناء السياسيين. كانت فيرا ايفريموفنا مستلقية على السرير، وهي مكشوفة الرأس.

أوضحت ماريا بافلوفنا:

– إن بها صداعاً. وهي نائمة ولن تسمع شيئاً. أنا ذاهبة.

احتج سيمونسون:

– على العكس، أرجوك أن تبقي. ليس عندي أسرار أكتمها عن أحد، ولاسيما عنك.

فوافقت ماريا بافلوفنا:

– طيّب، كما تشاء.

وذهبت لتجلس بحركات تنم علــى رشاقة طفولية. هيّأت نفسها لسماع ما سيُقال، وعيناها البارزتان شاخصتان إلى الفراغ.

استأنف سيمونسون:

– قلــتُ إذن: بمــا أنني أعرف علاقاتك بكاتريــن ميخايلوفنا، فقد رأيت من واجبي أن أُطلعك على عواطفي نحوها.

فســأل نيكليــودوف الــذي أُعجــب على الرغــم منــه بالبساطة والصراحة اللتين عبّر بهما سيمونسون:

– ما معنى هذا؟

– معناه أنني أريد الزواج بكاترين ميخايلوفنا..

هتفت ماريا بافلوفنا وهي تحطّ عينيها على سيمونسون:

– حقاً؟

وتابع سيمونسون:

وقررتُ أن أطلب إليها الإقتران بي.

فرد نيكليودوف:

– وما علاقتي بذلك؟ الأمر منوط بها.

– فعلاً لكنها لا تستطيع حل هذه المسألة بدونك.

– لماذا؟

– لأنها لا تستطيع أن تتخذ قراراً ما لم تتحدّد نهائياً علاقاتك بها.

– المسألة محلولة، من جانبي. لقد فعلتُ ما ظننت أن من واجبي فعله؛ وسعيت إلى التخفيف من وضعها، ولست أريد في أي حال من الأحوال أن أكون عائقاً...

– حسن جداً، لكنها لا تقبل بتضحيتك.

– ليس هناك أية تضحية.

– وأنا أعلم أيضاً أن قرارها لا رجوع عنه.

فثار نيكليودوف:

– إذن لماذا تكلّمني في ذلك؟

– هي بحاجة إلى أن تراك مقتنعاً بذلك، أنت أيضاً.

– كيف تريدني أن أقتنع بالإمتناع عما أعتبره واجباً علي؟ ليس بوسعي أن أقول سوى شيء واحد: إنها حرة، أما أنا فلست حراً.

بدا سيمونسون كمن يفكّر، بصمت، وقال في نهاية الأمر:

– طيب سأحدّثها في ذلك. لا تظن أنني أُغرمتُ بها. إني أحبها

كما يمكن أن نحب مخلوقاً رائعاً، غير عادي، تألم كثيراً. ولست أطلب شيئــاً منها، وإنما تحفزني رغبة عارمــة في مساعدتها، في التخفيف من وَضْـ...

صُعق نيكليودوف حين سمع تهدّج صوت سيمونسون الذي تابع كلامه:

– ... في التخفيــف من وضعهــا. إذا أرادت ألا تقبل بمساعدتك، فَلْتقبل، علــى الأقل، بمساعدتي. وإذا وافقت فسوف أطلب أن أُرسَل إلى المــكان الــذي ستُرسل إليــه. أربعة أعــوام ليست دهــراً؟ سأعيش بقربها، وربما كان بوسعي أن أجعل الحياة أقل قسوة عليها.

توقّف عن الكلام وقد غلبه الإنفعال . فقال نيكليودوف:

–بمــاذا أستطيــع أن أُجيب عن ذلك؟ أنا سعيــد لأنها وجدت من يشملها بحمايته مثلك...

أعلن سيمونسون:

– وعنــدي أيضــاً ســؤال أطرحه عليــك. أود أن أعلــم: هل تعتبر زواجها بي مناسباً لها، إذا كنتُ أحبُّها وأريد لها الخير.

فهتف نيكليودوف بلهجة المقتنع:

– بالتأكيد!

همس سيمونسون:

- كل شـــيء منوط بها. ولست أرغــب إلا في شيء واحد: أن تجد هذه المرأة المسكينة شيئاً من الطمأنينة.

كان ينظـر إلى نيكليـودوف بحنان طفولي لا يصـدّق أحدٌ أن مثل هــذا الرجــل ذا المظهـر الرصين قــادر عليه. ثــم نهض وأمسك بيد نيكليودوف، ومد إليه خده بابتسامة خجلة، وعانقه.

وقال وهو يندفع خارج الغرفة:

- أنا ماضٍ لأخبرها بكل شيء.

× × ×

-١٧-

دهشت ماريا بافلوفنا، وقالت:

أرأيته؟ إنه عاشق،عاشق مجنون، ما كنتُ أتوقع قط أن يعشق فلاديمير سيمونسون وكأنه طالب معهد.

وختمت كلامها وهي تتنهد:

– هذا أمر غير عادي، وأمرٌ يُؤسَف له، في حقيقة الأمر.

سألها نيكليودوف:

– لكن هي، كاتيا؟ ما ردود فعلها، برأيكِ؟

– هي؟...

وتوقفت ماريـا بافلوفنا. كان واضحاً أنها تريد إعطاء أدق جواب ممكن:

– هي؟ إنها طبيعة من هذه الطبائع الأخلاقية بعمق، إن لها مشاعر بالغـة الرقة... وهي تحبك... حباً رفيعاً جداً؛ وستكون سعيدة لو أنها

وفّرتْ لك سعادة سلبية: وهي ألا تُضطر إلى الاقتران بها. وسيكون زواجها بك زلة مروّعة، أسوأ من جميع الزلات السابقة. ولذلك فهي لن تقبل به. وفي الوقت نفسه، فإن وجودك يثير اضطرابها.

سأل نيكليودوف:

– وماذا ينبغي أن أفعل؟ أأتوارى؟

ابتسمت ماريا بافلوفنا ابتسامتها العذبة البريئة، وقالت:

– نعم، جزئياً.

– وكيف يمكن أن أتوارى جزئياً؟

– كنتُ أمزح... أردتُ أن أقول لك إنها، من غير شك، تعتبر حب سيمونسون المشبوب لها حباً غير معقول. ونظراً لأنه لم يصرّح بحبه، فقد كانت تحسّ بوجود هذا الحب، وكان ذلك يرضي غرورها ويرعبها. أنت تعلم أنني لست خبيرة في هذه القضية، لكن يلوحُ لي أن عواطف سيمونسون هي العواطف المشتركة بين جميع الرجال؛ لكنه يُقنِّعها، ويزعم أن حبه أفلاطوني، وأنه يزيده قوة، لكنني على يقين من أن هذا الحب، في حقيقته، يحمل شيئاً مثيراً للاشمئزاز...

تماماً مثل ما في حب نوفودفوروف لليوبوتشكا.

ما إن وقعت ماريا بافلوفنا على موضوعها المفضّل حتى انحرفت عن حجّتها الرئيسية.

فألح نيكليودوف عليها:

– لكن، ماذا ينبغي أن أفعل؟

– أظـن أنك يجب أن تحـدّث كاتيا. فمن الأفضـل دائماً توضيح الأمور. حدِّثها؛ سأدعوها إذا شئت؟

فقبل نيكليودوف:

– ادعِها، أرجوك.

تملّكه إحساس غريب، عندما بقي وحده في المهجع، وسمع تنفس فـيرا ايفريموفنا المنتظم الذي كانت تقطّعه التنهّدات، بين وقت وآخر. وكانت ضوضاء سجناء الحق العام ماتزال تُسمع عبر البابين.

أعْتقت كلمـات سيمونسون نيكليودوف من الإلتزام الذي فرضه علـى نفسه. وهو التزام كان يُثقـل كاهله، ويبدو له غريباً، في لحظات ضعفـه. ومع ذلك فقد شعـر الآن، لا بالاستياء فقط، بل وبألم حقيقي أيضاً. فبين الكثير من المشاعر المتناقضة تغلّب ذلك الشعور بأن عرض سيمونسون قد جرّد بادرته مـن طابعها الاستثنائي. ولسوف تتناقض قيمـة التضحية التي ألزم بها نفسه، في نظره وفي نظر العا لم. وإذا كان رجـل طيب مثل سيمونسون يرغـب في أن يوحّد بين مصيره ومصير ماسلوفـا، في حين لا يُجبره شيء على ذلك، فـإن تضحيته هو نفسه، نيكليـودوف، ستغذو أقل بطولية مـن ذي قبل. ولعل في هذا الشعور شيئاً من الغيرة. فلقـد تعوّد أن يرى كاتيوشا تحبه، و لم يكن يحتمل أن يراها تحبّ رجلاً آخر. وكان يأسف فوق ذلك على انهيار مشروعه في

العيش بقربها حتى نهاية عقوبتها. وإذا تزوجت سيمونسون فإن بقاءه سيغدو بلا فائدة، وسيتعيّن عليه أن ينظّم حياته بطريقة أخرى.

كان يحلّل نفسه بلا جدوى، عندما انفتح الباب وسمح بدخول صخب يصمُّ الآذان أحدثه سجناء الحق العام. فلابد أن شيئاً غير عادي يجري هناك.

اقتربت كاتيوشا بخطاً سريعة، وهمست وهي تقف قرب نيكليودوف:

- أرسلتني ماريا بافلوفنا إليكَ.

- نعم، أنا بحاجة إلى أن أكلمكِ. لكن اجلسي... لقد أخبرني فلاديمير إيفانوفتش....

جلست، وحطت يديها على ركبتيها؛ كانت هادئة في الظاهر، لكن وجهها مع ذلك اصطبغ بالحمرة عندما ذكر نيكليودوف اسم سيمونسون. وسألت:

- ماذا قال لك؟

- إنه يريد الزواج بك.

تقلّص وجه كاتيوشا وبدت عليه أمارات الألم، لكنها لم تفه بكلمة، واكتفت بأن غضّت بصرها.

وأعلن نيكليودوف:

- سألني الموافقة، أو بالأحرى سألني النصيحة. فقلت له: إن كل شيء منوط بك؛ ولكِ أن تقرري...

فهتفت، وهي تنظر إليه بعينيها الحولاوين نظرة شديدة الخصوصية. نظرة طالما هزّت نيكليودوف:

– آه! ماذا تقول؟ لماذا؟

تفرّس فيها وتفرّست فيه، خلال ثوان، وكانت نظرتهما بليغة الدلالة.

فردد نيكليودوف:

– لكِ أنتِ أن تقرري.

اعترضت قائلة:

– أقرّر ماذا؟ لقد تقرّر مصيري منذ زمن بعيد.

– ينبغي أن تقرري إن كنتِ تقبلين عرضَ فلاديمير إيفانوفتش.

فهتفت وهي متجهّمة:

– أية زوجة يمكن أن أكون له، أنا المحكومة بالأشغال الشاقة؟ ولماذا يُراد مني أن أحطّم أيضاً حياة فلاديمير إيفانوفتش.

– وإذا ووفِقَ على طلب الإلتماس؟

– آه! دعني! الأفضل ألا أقول شيئاً!

قالت ذلك، ونهضت، وغادرت الغرفة.

× × ×

-١٨-

عندما عاد نيكليودوف إلى مهجـع الرجال، بعد ذهاب كاتيوشا، وجد جميـع الحاضرين في اضطـراب. ذلك أن ناباتـوف الذي كان يذهـب إلى كل مـكان، ويعرف كل شيء، ويلاحـظ كل شيء، حمل النبـأ التـالي وهو أنه اكتشف علـى أحد الجدران كتابـة بخط الثوري بيتلين، المحكـوم بالأشغال الشاقة. وكان يُظن أنه في «كارا»، وها إن السجناء يملكون الآن الدليل على مروة الحديث العهد، وحده في قافلة سجناء الحق العام.

تقول الكتابة:

« في ١٧ آب، أنـا مسافـر وحدي مع المجرمـين. كان نيفييروف معـي، لكنه شنق نفسه في ملجأ المجانين في «كازان». صحتي جيدة، وأنا مفعم بالشجاعة، وكلي أمل بأن كل شيء سيكون أفضل...»

أخـذ الجميـع يعلّقـون على وضـع بيتلين وعلـى أسبـاب انتحار نيفيـيروف. فظـلّ كريلتسوف صامتـاً، غارقاً في أفـكاره، محدّقاً في الفراغ بعينيه المحمومتين.

صرّخت رانتسيفا:

– قال لي زوجي إن نيفييروف تراءت له الرؤى منذ أن كان في قلعة بيتروبافلوفسك.

وعلّق نوفودفوروف:

– كان شاعـراً، حالمـاً. هـؤلاء الناس لا يطيقون الوحـدة. عندما وُضعـتُ أنا في الزنزانة لم أطلق العنان لخيـالي، ونظّمتُ وقتي تنظيماً دقيقاً. فأتاح لي ذلك احتمال السجن الإنفرادي بشكل مناسب.

وأكّد نابلوتـوف بصوته القوي، وهو يقصد تبديـد الغمّ الذي ألمّ بهم:

– ولماذا لا نحتملـه؟ كم من مرة كنتُ سعيداً. بكل بساطة، لأنني حُبسـتُ وحـدي! عندما يكون المرء خـارج السجن، يخاف من كل شيء: يخاف مـن أن يُقبض عليه، من أن يُعرض رفاقه للخطر، من أن يُسـيء إلى القضية. لكن ما إن يدخل السجن حتـى تنتهي المسؤولية! حينئذ يستطيع أن يتنفس؛ لا يبقى عليه سوى الجلوس والتدخين.

سألت ماريا بافلوفنا كريلتسوف، وقد أقلقها أن ترى وجهه النحيل يتبدّل فجأة:

– هل عرفته معرفة عميقة؟

انفجر كريلتسوف وهو يلهث كمن صرخ أو غنّى طويلاً:

نيفييروف حا لم؟ نيفييروف كان رجلاً «قلما تُطلع الأرض أمثاله»، إذا شئنـا استخدام تعبـير بوّابنا... نعم... كان رجـلاً... شفافاً تماماً. كنـا نستطيع أن نرى من خلالـه، إن صح التعبير، نعم... لم يكن فقط عاجـزاً عن الكـذب، بل عن التصنـع أيضاً. كانـت حساسيته خارقة للعـادة، كانت أعصابه على سطح جلـده، حيّةً، بكل بساطة. نعم..، طبيعة غنية، متعددة الجوانب، لا مثل... ما جدوى الكلام على ذلك؟

صمتَ لحظة، ثـم استأنف كلامه وهو مقطّـب الحاجبين، خبيث الهيئة:

– نحـن نُتعـب أنفسنا لنعلم أيهمـا أفضل، أن نعلّـم الشعب أولاً ثـم نغيّر النظـام الاجتماعي بعد ذلك، أم أن نغـيّر كل شيء أولاً وبعد ذلـك... وكيـف نناضـل: بالدعاية السلميـة أم بالإرهـاب؟ نحن نتخاصـم، أمـا «هم» فـلا يتخاصمون. إنهـم يعلمون مـا عليهم أن يفعلوه! لا يهمهـم أبداً أن يهلك آلاف الرجال. وأي رجال!... على كل حـال، هذا هو بالضبط مـا يلزمهم. يجب أن يهلك أفضل الناس. نعـم... «هرزن»[٤٧] قـال ذلك: عندما تخلّصوا مـن «الديسمبريين» انخفض المستوى الاجتماعي. وكيف انخفض! ثم تخلّصوا بعد ذلك من هرزن وأشياعه. والآن، جاء دور نيفييروف...

اعترض ناباتوف بصوته القوي:

---

٤٧ هرزن: الكسندر هرزن (١٨١٢ – ١٨٧٠) كاتب وصحفي ثوري عظيم الموهبة، هاجر منذ ١٨٤٦. نشر «الجلجل» في لندن.

– لــن يستطيعوا أبداً القضاء على جميع الناس. وسوف يبقى منهم أبداً من يحمل المشعل.

انفجر كريلتسوف رافعاً صوته لكي لا يقاطعه أحدٌ:

– كلا، لن يبقى أحد، مادمنا نوفّرهـم «هـم»! أعطني سيجارة.

فاحتجت ماريا بافلوفنا:

– أنت تعلم أن التدخين يضرك، يا أناتولي. لا تدخّن، أرجوك.

احتد كريلتسوف:

– أوه! أنتِ، دعيني وشأني!

أصابته نوبة سعال وبذل جهداً كأنه سيتقيّأ. وبعد أن تنخّم وبصق، استأنف كلامه:

– نحن لم نُحسن التصرف، كان يجب ألا نضيّع وقتنا في النقاش. بل أن نتّحد ونستأصلهم.

اعترض نيكليودوف:

– مع ذلك، فهم بشرٌ مثلنا.

– لا، فالذين أقدموا على فعل ما فعلوه ليسوا بشراً... لا! يُقال إنهم اخترعــوا قنابل ومناطيد مُسيّرة. فلنبعث بهم إلى الهواء في مناطيدهم، ولنبدُهــم بقنابلهم، كما يُباد القمــل، حتى لا يبقى منهم أحد... نعم، لأن...

لم يستطــع أن يو اصــل كلامه. فقــد غدا لو نه قرمزيــاً، وهزته نوبة سُعال أعنف من الأولى، واندفع الدم غزيراً من فمه.

أســرع ناباتــوف إلى الخارج ليأتــي بالثلج، ولقيت ماريــا بافلوفنا قنينة الناردين فرضتها عليه، لكنــه ردّها بيده الشاحبة الهزيلة، وعيناه مغمضتــان. وحــين هدأ بفضل الثلــج والماء البارد. حُمــل إلى فراشه. استأذن نيكليودوف الجميع. وخرج بصحبة ضابط الصف الذي جاء يدعوه والذي كان ينتظره منذ برهة.

خمدت ضوضــاء سجناء الحق العــام؛ وكان أكثرهم ينام. ومع أن السجنــاء ناموا فــوق الأسرّة وتحتهــا، وعلى عتبات الأبــواب، إلا أن الجميــع لم يجدوا مكاناً يــأوون إليه. فقد نام قســم منهم في الممشى، علــى الأرض، ورؤوسهم فــوق أكياسهــم، مستخدمــين قمصانهم الرمادية غطاء لهم. في الممرات، كان يُسمع الشخير والأنين، والكلام بصــوت عال في الحلم. وأينما تطلّع الناظر رأى جماعات متراصة من الأشبــاح البشرية، مغطّاة بقمصانها. في قاعــة العزّاب لم ينم بعضهم، بــل تجمّعوا حول بقايا شمعة أطفؤوها عندما لمحوا ضابط الصف. في الممشى، جلس شيخ قصير تحــت المصباح يفلّي قميصه من البراغيث، وهــو عارٍ. كان هواء مهجــع السجناء السياسيين العفــن نقياً إذا قيس بالنتانــة المخيّمــة في هذا المكان. وكان المصبــاح المدخِّن يضيء وكأنه يضــيء من خلال البخار، وقد غــدا التنفس شاقاً. وكان على من يريد اجتياز الممشى، دون أن يصــدم النائمين، أن يراقب قدمَه أين يضعها. فحتــى في المدخل، قرب الحوض النتن الــذي يرشح منه سائل موبوء، استلقــى ثلاثــة سجنــاء لم يجــدوا مكاناً لهــم في الممشــى. كان أحد

هــؤلاء السجنــاء المجنون العجوز الذي كثيراً مــا لاحظه نيكليودوف أثناء المراحــل السابقة، وكان الثاني صبياً ابن عشــر سنوات، نائماً بين الرجلين، ملقياً خده على راحته بين ساقي أحد الرجلين.

عندما بلع نيكليودوف خــارج السجن وقَف ليتنفّس طويلاً، بملء رئتيه، الهواء البارد والمنعش.

× × ×

-١٩-

كانــت النجوم تلتمع فوق الفناء، وقد تجمّد الوحل تقريباً من جراء الــبرد. وعندما بلغ نيكليودوف النزل، قرعَ الزجاج المعتم فهبّ الفتى المتين القــوى وفتح له الباب، وهو حافي القدمــين. وسمع، في الجهة اليمنــى من المدخل، شخــيراً صاخباً هو شخير الحوذيــين النائمين في القاعــة العامة. وفي مواجهة المدخل، ووراء باب يطل على الفناء، بلغتْه أصوات الخيل وهي تلوك شوفانها. وإلى اليسار، ينفتح باب على غرفة المسافريــن من ذوي المنزلــة الرفيعة، حيث انتشــرت رائحة الأبسنت الجــاف والعرق الزنخ. وخلف حاجزٍ، سَمَع غطيطاً منتظماً، مرتاحاً، لرجل قوي الرئتين، وأمام الأيقونات كانت تشتعل شمعة ضئيلة النور في زجاج أحمر.

خلع نيكليودوف ملابسه. كان غطــاء السفر ممدوداً على الأريكة المغطاة بالفــرو، فرتّب وسادته الجلدية واضطجــع. إن ما رآه وسمعه خــلال هذه الأمسية كان يتردد على ذهنه. وحاصرته، على الخصوص صــورة مؤلمة، هــي صورة الصبي الــذي رآه نائماً، مستنــداً إلى ساق السجين، مستلقياً في الماء القذر الذي يرشح من مواصل الحوض.

لم يقف طويلاً عند أحاديثه مع سيمونسون وكاتيوشا ليفكّر فيها. ومهما تكن مفاجئة ومهمة تلك الأحاديث فإن الدور الذي قام به أثناء هذه المحاورة كان مفرط التعقيد والغموض. ولذلك آثر أن يطرد هذه الفكرة. وبالمقابل، فقد استحوذت عليه بقوة أشد، ذكرى هؤلاء البائسين الذي كانوا يختنقون في هذا الجو الخانق، وهم مضطجعون وسط هذا السائل الموبوء الذي يسيل من ذلك الحوض المنتن، ولاسيما ذكرى ذلك الصبي ذي الوجه البريء، النائم بين ساقي السجين المحكوم بالأشغال الشاقة.

لأن نعرف أن ثمة أناساً، في مكان ناءٍ من الأرض، يُعَذَّبون بتعريضهم لجميع أنواع الإذلال والآلام اللاّبشرية، شيء مختلف عن مشاهدة ذلك كله، خلال ثلاثة أشهر متواصلة. إن نيكليودوف جرّب هذه التجربة بنفسه. فلقد تساءل غير مرة، أثناء هذه الأشهر الثلاثة: «أنا المجنون، أنا الذي يرى ما يبدو أن الآخرين لا يرونه، أم أن المجانين أولئك الذي يفعلون الشر أو يسمحون بفعله؟» لكن الآخرين –وهم كُثُر– كانوا يتصرفون، وهم على يقين مطمئن بأنهم لا يقومون بواجبهم فحسب، بل بأنهم يقومون بعمل عظيم الأهمية والنفع. كان نيكليودوف يتردد في اعتبارهم جميعهم مجانين. ومن جهة أخرى، فإنه لم يكن يستطيع أن يعتقد بجنونه هو نفسه، لأن أفكاره بدت له واضحة، ومنطقية تماماً. كان إذاً فريسة للشك.

من كل ما رآه خلال هذه الأشهر الثلاثة، أمكنه أن يستخلص النتائج التالية: أولاً، إن القضاء والهيئة الإدارية يختاران، من بين الأشخاص الأحرار، أشدّهم حيوية واحتداماً وحماسة، وفي الوقت نفسه أقلهم

مكــراً وحذراً، وإن كانوا أكثر موهبة وقوة. هــؤلاء الأشخاص الذين ليســوا أكــثر إجراماً وخطراً مــن الآخرين، يحبسانهــم في السجون، ويرسلان بهــم إلى الأشغال الشاقة، ويحكمان عليهم بالعطالة المطلقة سنــين طوالاً. من الناحيــة المادية، هم يحصلون علــى قوتهم اليومي، لكنهــم يُبْعَدون عــن الحياة الحرة الطليقة، وعــن عائلاتهم، وعملهم، وبالاختصار عن جميع شروط الحياة العادية. ثانياً، إن السجناء يلاقون، في هذه البيوت التأديبية. كثيراً من أصناف الإذلال التي لا فائدة منها، مــن مثل السلاسل، وحلْــق الرؤوس، والثياب المحقّــرة، أصناف من الإذلال تهدف إلى حرمان الضعفاء مما يكوّن خصائص الحياة الشريفة: اهتمام الرأي العام، الاحترام الإنساني، الشعور بالكرامة الإنسانية.

ثالثــاً، إن هــؤلاء الأفــراد مُعرّضون دائمــاً للأخطــار المميتة، مثل الإنهــاك، والجَلْد. هذا إذا لم نذكر الأخطار الاستثنائية، من مثل ضربة الشمــس والغــرق والحريق، والأمراضــ المعدية التــي لا مفرّ منها في السجون. وبالتالي فإن أفضل هؤلاء الأفراد وأشرفهم يعيشون في حالة ذهنيــة تحمل أصحابهــا، مدفوعين بغريزة البقاء، علــى ارتكاب أبشع الدناءات، بل وعلى تسويغها.

رابعــاً، إن الذين يُجْبَرون هكذا على العيشــ برفقة كائنات فاسدة كالقتلــة والأشقيــاء، أي الكائنات التي أفسدتها الحيــاة على العموم، وحيــاة السجون على الخصوص، ينتهون بالخضــوع لتأثير هؤلاء. إن هــذا الفساد ليَفْعَل فعل الخميرة في العجــين، إنه يفعل فعله في أفراد لم يفسدوا فســاداً تاماً بعد، وهو يغدو أشد إيــذاء حين يُصيب أشخاصاً حُرموا حريتهم، وألزموا الشقاء، ورُمي بهم بين براثن اليأس.

وخامساً وأخيراً، إن الذين يعاملون أي شخص هذه المعاملة، يرسّخون في ذهنه، وبأشد الطرائق إقناعاً، أن مبدأ العنف والقسوة والوحشية بجميع أنواعها ليست مقبولة فحسب بل إن الحكومة تحث عليها، في حالة نفعها. وهذا المبدأ يُطبّق بواسطة سلسلة من التدابير غير الإنسانية، مثل تعذيب الأولاد والنساء والشيوخ: الجلد بالعصا وبالسوط، منح المكافآت لمن يُسلّم هارباً، حياً أو ميتاً، الفصل بين الأزواج، المساكنة الإجبارية بين النساء وغير أزواجهن، الإعدام قتلاً وشنقاً.

فكأن هذه التدابير جميعاً قد اختُرعت خصيصاً لتبث، لُباب الإنحلال والرذائل في جميع طبقات السكان، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

وحدّث نيكليودوف نفسه، وهو يفكر فيما رآه خلال الرحلة إلى سجن الأشغال الشاقة: «تماماً، كما لو أنهم فرضوا على أنفسهم مهمة هي: كيف يمكن إفساد أكبر عدد من الناس، بأوثق الطرق وأنجعها». إذ إنّ مئات آلاف الأشخاص كانوا يُدْفعون، في كل عام، إلى قمة الإنحلال. ثم يُخلى سبيلهم لكي ينقلوا إلى بلاد كلها وباء الفساد الذي أُشبعوا به في السجن.

ففي سجون «تيومن» و«اكترنبرج» و«تومسك» أثناء الوقفات، استطاع نيكليودوف أن يتحقق من نجاح هذا المشروع الذي يبدو كأنه يتوافق مع خطة موضوعة. ذلك أن أناساً بسطاء جداً، عاديين جداً، من ذوي المبادئ الصلبة، الخاصة بالأخلاق الاجتماعية والمسيحية

لـدى الفلاح الروسـي وابن المدينـة الروسي، كانوا يهجـرون التعاليم ليتبنـوا تعاليم غيرها، مطبوعة بطابع السجن. هذه «الأخلاق» الجديدة تنحصـر في التسليم بـأن جميع الإهانـات، والتجـاوزات، وصنوف الإذلال، مشروعة مادام بالإمكان جني النفع منها.

إن مـن يعيش في السجون ويشهد سـوء المعاملة التي تنزل بالسجناء ينتهي إلى الإعتقاد بأن قوانين الإحترام الإنساني المقدسة، ومحبة القريب، والقوانـين التي يدعو إليها أحبـارُ الكنيسة وأساتـذة الأخلاق، ليست سوى كذبٍ نحن غير مُلزَمين بطاعته.

رأى نيكليـودوف تأكيـداً لذلك لدى جميع معارفـه من السجناء: لـدى فيـدوروف، لدى ماكار، وحتـى لدى تاراس. ولقـد أذهله هذا الأخير بـلا أخلاقية أحكامه، بعد شهرين من مسـيرة القافلة. وفي أثناء الطريـق، علـم نيكليـودوف كيف أن بعضـ المتشردين كانـوا يهربون إلى الغابـة السيبيرية ويقـودون رفيقاً لهم يقتلونه ليقتاتـوا به بعد ذلك. وعَرف نيكليودوف واحداً من هؤلاء، قُبض عليه من جديد وأقرّ بذنبه. والأدهى أن حالات أكل اللحم البشري هذه لم تكن حالات مفردة؛ بل كانت كثيراً ما تتكرر.

إن مزاولـة الرذيلـة على هذا النحـو الكثيف، كمـا تُمارس في هذه المؤسسات الإصلاحية، يمكنها وحدها أن تقود الروس إلى هذه الدرجة مـن حقارة المشرّدين. إن هذا التعليم الذين يُؤذن بمذهب نيتشه الحديث العهـد، قبل وجوده، والذي يذهـب إلى أن كل شيء مشروع ولا شيء ينبغي أن يُحظر، قد شاع أولاً بين السجناء، ثم في أوساط الشعب بأسره.

إن المسوِّغَ الوحيد لهذه التدابير يكمن في ضرورة عزل هؤلاء الأفراد الخطرين، وتخويفهم، وإصلاحهم، وفي ضرورة اللجوء إلى الإنتقام الشرقي. ولم يُثْبت أي من هذه التدابير نفعه، في الواقع. فبدلاً من العزل، شاع الإنحلال، وبدلاً من التخويف، تشجّع المجرمون. ومنهم مَنْ كانوا يذهبون، من تلقاء أنفسهم إلى السجن، مثل هؤلاء المشردين. وبدلاً من الإصلاح، انتشرت بذور جميع الرذائل انتشاراً منهجياً. أما الإنتقام فإن العقوبات التي نص عليها القانون لم تكن لتحد منه البتّة، بل لقد جعلت الشعب يألف هذا المبدأ الذي كان غريباً عليه حتى الآن.

وتساءل نيكليودوف دون أن يجد جواباً عن سؤاله: «لماذا يفعلون ذلك كله إذن؟»

لقد دهش بخاصة حين تأكّد من أن ذلك لم يكن يجري مصادفة، أو خطأ، أو استثناء. بل إن ذلك قد جرى على هذا النحو منذ قرون، مع هذا الفرق وهو أنهم كانوا قديماً يقطعون أنف الإنسان وأذنيه، ثم أخذوا يحرقونه حياً ويَشِمونه بالحديد المحمي. أما في الوقت الحاضر فهم يغلّون يديه ويرسلونه إلى سجن الأشغال الشاقة بالباخرة أو القطار بدلاً من العربات.

إن نظام الأشياء هذا الذي ملأ نيكليودوف سخطاً ناتج، بحسب ما قاله له موظّفو السجون، عن نقص التنظيم الجزائي. ولو أمكن بناء سجون حديثة لتحسّن كل شيء. مثل هذه المحاكمة لم تكن ترضي نيكليودوف الذي كان يحسّ أن الشر لا يرتبط بتنظيم السجون

المتفـاوت الحسن. فقد قرأ وصفاً لسجـون نموذجية مجهزة بجهاز من الأجراس الكهربائية، والموت على الكرسي الكهربائي، والنظام الذي أشاد به تارد، لكن هذا الإتقان للعنف قد زاد من سخطه.

ولقـد كانت تُثير سخط نيكليودوف على الخصوص هذه الفكرة: وهـي أن القضاة والموظفـين الوزاريين يتلقون مرتّبـات عالية تُبْتَز من الشعـب نفسه، لكي يكتشفوا في الكتب التي كتبها موظفون آخرون مـن أجل كسب المـال، ما مواد القوانـين التي عنـوا بتجميعها يمكن أن تُطبـق على منتهكي القانـون. هذه المواد كانت تتيـح لهم إذن أن يتخلّصـوا من المضايقين بإرسالهـم إلى أماكن نائية، بعيدة عن العيون، يقعون فيها تحت وطأة السلطة المطلقة للمديرين والسجّانين، وحرّاس القافلة، القساة. المتبلّدي الإحساس. وهكذا كانوا يموتون بالملايين، موتاً معنوياً إن لم يكن موتاً جسدياً مأساوياً.

بعـد أن عرف نيكليودوف السجون وقوافـل السجناء عن كثب، أدرك أن رذائـل السجنـاء كالسكْر والقمار والقسـوة وسائر الجرائم بمـا فيها أكل اللحم البشري، لم تكن ظواهـر متفرّقة، كما أنها لم تكن مظهـراً غير طبيعي مـن مظاهر المجرم النموذجـي، كما ينادي بذلك علماء بُلَداء، لمصلحة حكوماتهم. بل يجب أن نرى فيها نتيجة حتمية لذلـك الضلال الفظيع الذي يقضي بأن يملك بعض الأفراد حق الحكم على أمثالهـم من البشر. لقد أدرك نيكليودوف أن أكل اللحم البشري لم يولـد في غابـات سيبيريـا، بل في الـوزارات، واللجـان والأقسام الوزاريـة. إن صهره مثلاً، وجميـع القضاة والموظفين من أصغر قاضٍ حتى الوزير، قد نفضـوا أيديهم من العدالة ومن رفاه الشعب الذي لا

ينفكون يتحدّثون عنه. ولا هدف لهم إلا جمع الروبلات التي تُدفع لهم لإتقان العملَ الذي ينتج عنه كل هذا الفساد وكل تلك الآلام. تساءل نيكليودوف: «أيمكن أن يكون ذلك كله نتيجة لنقص في المحاكمة؟ وكيف يمكن الإستمرار في تأمين مرتّبات هؤلاء الموظفين، وفي وعدهم بالمكافآت إذا امتنعوا عن فعل ما يفعلونه؟».

عند هذه التأملات، وبعد أن صاح الديك مرتين، وعلى الرغم من أن البراغيت كانت تهاجمه لدى أدنى حركة، شبيهة بقطرات صغيرة تفلّتتْ من فوّارة ماء، أغفى نيكليودوف واستغرق في نوم ثقيل.

× × ×

-٢٠-

عندمـا استيقظ نيكليـودوف، كان الحوذيون قد انصرفوا منذ زمن بعيـد. شربت صاحبة النـزل شايها وجاءت تتنبّـأ نيكليودوف، وهي تمسح بمنديلها عنقها الغليظة المبللة بالعرق، أن جندياً حمل بطاقة إليه.

كانـت البطاقة من ماريـا بافلوفنا. وقد كتبت إليـه أن كريلتسوف أصيب بنوبة أشد مما توقّعوا. «خَطَر لنا أن نبقيه هنا، وأن نبقى، لكنهم لم يسمحـوا بذلك. وها نحن نحملـه معنا إذاً، متخوّفين مما هو أسوأ. لعلك تستطيع، إذا ما بلغنا المدينة، أن تحاول الحصول على إبقائه فيها، وعلى الإذن لأحدنا بالبقاء معه. وأنا مستعدة للزواج به، إذا كان ذلك ضرورياً».

بعد أن أرسل نيكليودوف الخادم إلى البريد لاستئجار الجياد، أسرع وتهيّـأ للسفـر. و لم يكد يُفرغ فنجـان الشاي الثاني حتـى سمع رنين الجلاجـل وصرير العربة على الوحـل المتجلّد الذي غـدا قاسياً وكأنه طريق مبلّطة. وقفت العربة أمام درج المدخل.

دفع نيكليودوف بسرعة الحساب لصاحبة النزل ذات العنق الغليظة

وأمـر الحوذي أن يحث جياده، ليُدرك القافلـة. وغير بعيد من أبواب القرية اصطدم بآخر عربـات القافلة المحمّلة بالصُرر والمرضى. كانت العربات ترتج بصخب على الوحل المتجلّد الذي بدأ يلين. سار الضابط في المقدمـة. أما الجنود الذين ثملوا قليـلاً وأخذوا يثرثرون بمرح، فقد حاذوا القافلة على حافتي الطريق. في عربات المقدّمة، تكدّس في كل عربـة ستة سجناء من أضعف سجناء الحق العـام. بيد أن السياسيين لم يكونـوا سوى ثلاثة في كل عربـة. وكانوا يشكّلـون المؤخّرة. العربة الأخـيرة كانت تضمّ نوفودفـوروف، غرابيتـز، وكوندراتييف؛ وفي العربـة قبل الأخيرة جلـس ناباتوف ورانتسيفـا والمريضة المصابة بداء المفاصل التي تنازلت لها ماريا بافلوفنا عن مكانها. وفي العربة الثالثة، وقـد كريلتسوف على القشـ والوسائد. وبقربه، علـى حافة العربة، جلست ماريا بافلوفنا. أوقف نيكليودوف حوذيه، مع أن حارساً ثملاً أشـار إليه بالانصراف. وضع نيكليودوف يده على حافة المركبة، دون ان يبالي بالحارس، وسار هكذا بحذائها.

كان كريلتسـوف مدثّـراً بمعطـف فـراء، ورأسه مغطـى بقبعة من جلد الحمـل، وعلى فمه منديـل يغطّيه. لقد بدا أشد هـزالاً وشحوباً مـن عادته، وبدت عيناه البديعتان كأنهما زادتا اتساعاً واتّقاداً إلى حد بعيد. أخذ يحدّق في نيكليودوف، وجسده الضعيف يهتز مع رجّات العربة، لكـن عندما سأله نيكليودوف عن حالتـه، اكتفى بان أغمض عينيـه وهزّ رأسه مغتاظـاً. وكان واضحاً أنه بحاجـة إلى أن يستجمع قواه ليحتمل مشقّات السفر. رَمـتْ ماريا بافلوفنا التي كانت جالسة في الجانب الآخـر من العربة، نيكليودوف بنظـرة لها دلالتها لتُفهمه قلقَها بصدد حالة المريض.

صرخت بكل قواها ليَطْغى صوتُها على قرقعة العجلات:

– لاشك أن الضابط أحسّ بالحرج. لقد أمر بفك قيد بوسوفكين، فصار يمكنه الآن أن يحمل طفلته. ومعه كاتيا وسيمونسون وفيروتشكا التي حلّت مكاني.

لفظ كريلتسوف كلمات غير مفهومة. كان يشير بيده إلى ماريا بافلوفنا، مقطباً حاجبيه من جراء الجهد الظاهر الذي يبذله لكي لا يسعل، ثم هزّ رأسه. وقرّب نيكليودوف أذنه من فم كريلتسوف الذي أزاح المنديل الذي يغطّيه وهمس:

– حالتي أحسن بكثير. على شرط ألا يصيبني البرد...

وافق نيكليودوف بإيماءة من رأسه، وهو يُبادل ماريا بافلوفنا النظر.

واستعلم المريض أيضاً، وهو يبتسم ابتسامة مقتسرة:

– حسناً! ومشكلة الأجرام الثلاثة، إلى أين وصلت؟ أما تزال صعبة الحل، كما كانت من قبل؟

وبما أن نيكليودوف لم يفهم معنى هذا السؤال، فقد أوضحت له ماريا بافلوفنا أن المقصود هو المشكلة الرياضية الشهيرة عن العلاقة بين الأجرام السماوية الثلاثة: الشمس والقمر والأرض، وهي مشكلة طبّقها نيكليودوف، على سبيل المزاح، على حالة نيكليودوف، وكاتيوشا، وسيمونسون. وأيّد كريلتسوف أقوال ماريا بافلوفنا بهزّة رأسه.

فأكّد نيكليودوف:

- الحل لا يتوقف عليَّ.

سألت ماريا بافلوفنا:

- هل وصلتك بطاقتي؟ ستهتمّ بها؟

فوعدها قائلاً:

- بكل تأكيد، سأهتمّ بها.

وإذ لمح تعبيراً من الاستياء يمر على وجه كريلتسوف، عاد إلى عربته. وجلس فوق المقعد متشبثاً بحافة العربة التي كانت تثب به لدى كل وعورة على الطريق المحفّرة الآن، ومضى ليلحق بذلك الصف الطويل الذي يمتد كيلومتراً، صف القمصان الرمادية ومعاطف الفراء التي يرتديها المحكومون بالأشغال الشاقة. كان هؤلاء يسيرون مقيدي الأرجل مربوطين اثنين اثنين بواسطة الأغلال.

في الجانب الآخر من الطريق، تعرّف منديل كاتيوشا الأزرق، ومعطف فيرا ايفريموفنا الأسود، وسترة سيمونسون المشمّعة، وقبعته، وجوربه الصوفي الأبيض، وحذاءه الخشبي المشدود بريم. وكان يمشي بين المرأتين يحدّثهما بحيوية.

وجّهت المرأتان التحية إلى نيكليودوف، عندما رأتاه. ورفع سيمونسون قبعته وحرّكها، وقد بدا عليه التهلل. وبما أن نيكليودوف لم يجد ما يقوله لهم، فقد مر دون أن يوقف عربته. وعندما عاد

الحوذي إلى الطريـق المطروقة، حثّ جياده، لكنه كان مضطراً في كل لحظـة إلى أن ينتحـى إلى جانـب الطريق ليسمح بمـرور العربات التي كانت تجري في كلا الاتجاهين.

تزايدت الحفر العميقة في الطريق، إذ أخذت تجتاز الآن غابة مظلمة مـن الأشجار الصنوبريـة التي كانـت تضيف إليها خضـرة الأشجار الأرزية وأشجـار البتولة ظلالاً فاتحـة. وفي ومنتصف الطريق، حلّت الحقـول محل الغابة، وكانت تمتد على جانبـي الطريق، فبرزت صلبان أحد الأديرة وقبابه المذهبة.

صحا الجو، وتبدّدت الغيـوم، وألقت الشمس المرتفعة فوق الغابة لألاءها علـى الأوراق الرطبة والحقول والقباب التي تعلوها الصلبان. وأبعد منها، في الأفق البعيد تراءت رسوم الجبال البيضاء. دلفت العربة إلى بلدة كبيرة هي ضاحية متقدمة للمدينة. كان الشارع الرئيسي يعجُّ بالناس، منهم الروس ومنهم السكان المحليون الذين تسهل معرفتهم بقبعاتهـم الجلدية ومعاطفهم القصيرة. وتدافع خلق من كلا الجنسين، كثير منهم ثمل، أمـام الدكاكين والنُزُل والحانات والعربات. كان كل ذلك يشعر بأن المدينة قريبة.

سـاط الحوذي جياده، وشدّ رسن الجـواد الأيمن، وجلس منحرفاً، بحيث يظل العنان إلى يمينه، وهو ما يملؤه زهواً. اجتاز الشارع الرئيسي جرياً، وبلغ النهر دون أن يخفّف سرعته، وكان عليه أن يجتازه بالمُعدِّية التي كانت في عرض مجرى النهر السريع، مقتربة ببطء من حافة النهر، حيـث كانت تنتظرها نحو عشرين عربة. لم يطل انتظار نيكليودوف،

ذلــك أن المعدّيــة ما لبثــت أن بلغــت الشاطئ، يدفعها التيــار، منصبة بمقدمتها في المجرى الذي تشقّه.

كان المعــدّون رجــالاً أشــداء، عراض المناكــب، مفتولي عضلات الأذرع، يرتــدون معاطف من فرو، ألقــوا حباكهم بصمت، وبحركة حاذقة، آليــة، ثم ربطوها بالأوتاد ربطاً محكمــاً. ثم سحبوا العارضة، وتركــوا العربات تنزل قبل أن يسمحوا بصعود العربات الأخرى التي تجرهــا جياد نفرت لدى رؤيــة الماء. كان النهر عميقــاً وهائجاً، يصل إلى حاجــز السفينــة، وكان ماؤها يشد الحبال. فلمــا امتلأت المعدية، وحُشرت عربة نيكليودوف بين بقية العربات، في جانب من السفينة، وفُكّــت الجيــاد، أعاد المعــدّون العارضــة إلى مكانهــا، دون أن يبالوا باحتجاجــات الذين ظلّوا على الأرض. ثم أرخــوا القلوس، ومضت المعدّيــة إلى عرض النهــر. كان كل شيء هادئاً علــى ظهر المعدّية، و لم تكــن تُسمع سوى خطوات النوتية، ووقــع حوافر الخيل على السطح الخشبي.

× × ×

-٢١-

كان نيكليودوف يتأمل النهر الكبير الجيّاش، وهو يضع قدميه على حافـة المعدّية . وتناوبـت ذهنه صورتان: رأسـ كريلتسوف المحتضر والمهتاج، الذي تهـزّه رجّات العربة، وشبح كاتيوشا وهو يسير بخطا واثقة على أطراف الطريق بجانب سيمونسون. هناك، من جهة، رؤيا محزنة، مؤلمة، هي رؤيا كريلتسوف المسكين الذي لم يوطّن نفسه على المـوت، والذي أشرف مع ذلك على نهايته؛ وهناك، من جهة أخرى، رؤيـا كاتيوشا الشجاعـة التي وجدت حب رجل مثـل سيمونسون، والتي استقرّت أخيراً على الطريق المستقيم. وكان جديراً بهذه الصورة الأخـيرة أن تحمل الفرح إلى نفس نيكليودوف، لكنها، على العكس، أحزنته، وأثارت فيه ألماً لم يُفلح في التغلب عليه.

تناهى إليه قرع ناقوس كنيسـة المدينة متموّجاً، رناناً، محمولاً على الماء. فنزع الحوذي وسائقو العربات قبعاتهم ورسموا إشارة الصليب. بيـد أن شيخاً قصيراً، أشعث لم يحذُ حذوهم. وحتى هذه اللحظة، لم يكـن نيكليودوف قد لاحظه؛ كان يقف قـرب متراس السفينة وينظر إلى الأمـير، رافعـاً رأسه. كان يرتـدي قفطاناً مرقّعاً، وبنطـالاً مخملياً

مضلّعاً، ويحتذي حـذاء متهرّئاً وموحلاً. ومن كتفه تدلّى خرج؛ وقد غطى رأسه بقبعة عالية من الفرو الرث.

سأله حوذي نيكليودوف بعد أن أعاد قبّعتَه إلى رأسه:

– وأنتَ، يا شيخ، ألا تصلّي؟ ألم تُعمّدْ؟

أجاب الشيخ بلهجة حازمة، وبإلقاء سريع:

– لِمَنْ ينبغي أن أصلّي؟

هتف الحوذي ساخراً:

– معروف لِمَنْ نصلي... لله!

– أتريد أن تريني أين هو، الله؟

كان تعبـير وجه الشيخ يدل علـى كثير من الصرامة الرزينة، فأحس الحوذي أنه يواجـه إرادة لا تلين، فتحيّر قليلاً. لكنه بادر إلى الجواب، لكي لا يفقد ماء الوجه أمام الذين كانوا يصغون إليه:

– أين؟ كل الناس يعلمون ذلك: هو في السماء.

– أكنتَ، أنتَ، في السماء؟

– من جهة الذهـاب إليها، لا، لم أذهب، لكن الجميع يعلمون أننا يجب أن نصلي لله.

أعلن الشيخ بلسانه الطلق والغاضب:

– اللهُ، لم يره أحد. وقد شهد بذلك «ابنه الوحيد» الذي هو في أحضان الأب.

فقدّر الحوذي:

– لستَ إذن بمسيحي! إنك تصلّي في الفراغ.

ودسّ سوطه في زنّاره، وأصلح عدة أحد الجوادين الجانبيين.

انفجر أحد الحضور ضاحكاً. واستفهم رجل متوسط العمر، يقف قرب عربته، على حافة المعدّية.

– لكن أنت، يا شيخ، ما دينُك؟

وكان جواب الشيخ واثقاً وسريعاً، على عادته:

– لا دين لي. لستُ أومن بأحد إلا بنفسي.

سأله نيكليودوف:

– كيف يمكن للإنسان أن يؤمن بنفسه؟ قد يخطئ.

ردّ الشيخ بحسمٍ، وهو يهزّ رأسه:

– لن يخطئ، على الإطلاق!

فقال نيكليودوف بدهشة:

– كيف جرى إذن أن هناك كثيرٌ من الديانات.

– ذلك لأن الناس يؤمنون بغيرهم لا بأنفسهم. أنا أيضاً، آمنت بالإنسانية، وتهتُ، كما يتيه المرء في غابات سيبيريا العذراء. لقد ضللت سبيلي حتى حسبتني لن أهتدِ إلى الطريق. عن المؤمنين القدامى، والمؤمنين الجدد، والسبتيين، وأصحاب مذهب الجَلْد، والكهنوتيين، واللاكهنوتيين، والنمساويين، والملكيين، والسكوبتسيين(٤٨)، كل هذه الطوائف الدينية تزعم أنها تمتلك الحقيقة. وهي مشتّتة مثل جِراء صغيرة عمياء. الديانات شتّى، لكن الروح واحدة. والروح فيك وفيّ، وفينا جميعاً. ولو أن كل واحد آمن بالروح الذي فيه إذن لاتّحد الجميع. ليكن كل واحد هو نفسه، وسوف يصبح الجميع كالواحد.

كان الشيخ يتكلم بصوت عالٍ جداً؛ وكان ينظر حواليه كأنه يُحاول أن يُسمع أكبر عدد ممكن.

استفهم نيكليودوف:

– أأنت تبشّر بذلك منذ زمن بعيد؟

– أنا، منذ زمن بعيد جداً. لقد مضت أربع وعشرون سنة وهم يضطهدونني.

– كيف يضطهدونك؟

– كما اضطهدوا المسيح. هم يسوقونني إلى أمام المحاكم والكهنة

٤٨– ... السكوبتسيين: هذه الأسماء أسماء طوائف دينية روسية.

والفرّيسيـين؛ بل لقـد ألقوا بي في مصح للمجانـين. ومع ذلك، فليس بوسعهم أن يفعلوا شيئاً بي، لأنني حر. هم يسألونني: «ما اسمك؟» ظناً منهم أن لي اسماً، لكن ليس لي اسم، لقد تخلّيت عن كل شيء. ليس لي اسم ولا قرية ولا وطن ولا شيء. أنا أنا. يسألونني:

– ما اسمك؟

– إنسان.

– ما عمرك؟

– أنا لا أعدُّ السنين، ولا أستطيع أن أحصيها، لأنني كنت منذ الأزل وسأبقى إلى الأبد.

– مَنْ أُمك وأبوك؟

– ليس لي أم ولا أب، سوى الله والأرض. الله أبي، والأرض أمي.

– والقيصر، ألا تعترف به؟

– ولِمَ لا؟ هو قيصر لنفسه وأنا قيصر لنفسي.

فيقولون لي:

– عجباً! لا سبيل إلى مخاطبتك!

وأُجيبهم:

– لمْ أسألكم مخاطبتي.

هكذا يعذّبونني.

سأله نيكليودوف:

– إلى أين أنت ذاهب الآن؟

أجاب الشيخ:

– إلى حيث يرسلني الله. إنني أعمل، فإذا لم أجد عملاً سألت الإحسان.

وعندما رأى المعدّية تدنو من الضفة الأخرى، نظر إلى مستمعيه بهيئة المنتصر.

رست المعدّية. أخرج نيكليودوف محفظته وأراد أن يعطي الرجل شيئاً من المال. لكن الشيخ رفض قائلاً:

– لستُ أقبل المال. وأريد خبزاً فقط.

– اعذرني.

– أجاب الشيخ وهو يرد خرجه على كتفه.

– لا حاجة إلى الإعتذار. فأنت لم تُسِء إليَّ. ولا يستطيع أحد أن يُسيء إلي.

في هذه الأثناء، أُنزلت العربة إلى اليابسة. ورُبطت الجياد بها. وبعد أن فتح نيكليودوف المعدّين الأشداء مكافأة، صعد إلى العربة. فقال له الحوذي:

– أيطيب لك أن تحادث هذا الشيخ، أيها النبيل. ماهذا سوى مشرّد لا عقل له.

× × ×

-٢٢-

عندما هبط الحوذي الطريق الذي يُفضي إلى المدينة، التفت وسأل:

– إلى أين– أي فندق ينبغي أن أوصلك؟

– أي الفنادق أفضل؟

– السيبيري، لكن فندق ديوكوف حسن أيضاً.

– إلى حيث تشاء، إذن.

عــاد الحوذي إلى جلسته الجانبية وأجــرى جياده خبباً. كانت هذه المدينــة تشبه جميع المدن الأخــرى؛ المنازل ذاتهــا بطوابقها الأرضية المنخفضــة وسطوحها الخضــراء؛ الكنائس ذاتهــا، والدكاكين ذاتها، وهي تغدو مخازن في الشارع الرئيسي، حتى عناصر الشرطة البلدية هم ذاتهــم. بيد أن معظم البيوت كانت من الخشــب، ولم تكن الشوارع مبلّطة. أوقف الحوذي عربته في شارع من أكثر الشوارع حركة، لكن بمــا أنه لم يجد محلاً في الفندق، فقد وجــب أن يبحث في مكان آخر. وأخيراً وجــدا غرفة فارغــة، واستطاع نيكليــودوف، لأول مرة منذ

شهرين، أن يسترجع شيئاً من عاداته القديمة، عادات الراحة والنظافة. ومع أن الغرفة لم تكن فخمة، فقد أحس بالارتياح العظيم، بعد هذه الرحلات على مقاعد العربات، وبعد الأنزال والمراحل. كان يتوق بخاصة إلى التخلص من الحشرات التي لم يستطع أن يتخلّص منها كلياً بعد زياراته للسجناء.

ما إن وضع متاعه، حتى استحمّ مباشرة وارتدى ثياب المدينة: قميصاً منشّىً، بنطالاً لا غبار علي طيّته، السترة الرسمية والمعطف. وعندما فرغ من ذلك قصد إلى مقرّ حاكم المنطقة.

دعا له بواب الفندق عربة يجرها جواد «قرغيزي» فاره، فحملته مصحوباً بالجلاجل إلى بناية مهيبة يحرسها حراس وأفراد من شرطة البلدية. كان بيت الحاكم تُحيط به حديقة ظهرت منها، بين أغصان الحور والبتولة العارية، خضرة الصنوبر والتنوب القاتمة والكثيفة.

كان الجنرال مريضاً لا يستطيع أن يستقبل أحداً. بيد أن نيكليودوف رجا الخادم أن يحمل إليه بطاقته ، فعاد الأخير بردٍّ إيجابي قائلًا:

– أنت مدعو إلى الدخول.

كان غرفة الانتظار، والخادم، والنظام السائد في كل مكان، والدرج، وقاعة الاستقبال بأرضيتها الملمّعة بالشمع، كان كل ذلك يذكّر ببطرسبرج، مع قَدْرٍ أقل من النظافة، وقدرٍ أكبر من تحرّي العظمة. أُدخل نيكليودوف إلى مكتب المدير.

كان الجنرال، وهو رجل دموي، منتفخ الوجه، ضخم الأنف،

أصلـع الرأس مع حدبـات جبهية وجيبين تحت العينـين، جالساً وراء مكتبـه، مرتدياً مبذلاً تترياً من الحرير، وبـين أصابعه سيجارة، يشرب الشاي في فنجان مؤطّر بالفضة.

قال وهو يرفع قبّة مبذله على قذاله ذي التجاعيد الدهنية:

– طاب يومُك، يا أمير، اعذرني على استقبالك بالمبذل. استقبالّك هكذا أفضل مـن عدم استقبالك، أليس كذلـك؟ أنا منحرف الصحة ولذلـك لا أخـرج. مـا المناسبـة السعيدة التـي جاءت بـك إلى هذه الأراضي البعيدة؟

أجاب نيكليودوف:

– تبعـتُ قافلة السجنـاء لأن فيها شخصاً عزيـزاً علي. وقد جئتُ أرجـو سيادتكـم أن تمنح هذا الشخص معروفـك. وفضلاً عن ذلك، فإن لي قضية أخرى أودّ أن أكلمك بشأنها.

نفـث الجـنرال نفساً مـن الدخـان، وشـرب جرعة مـن الشاي، وأطفـأ سيجارتـه في منفضـة من الملكيـت، وتهيـأ للإصغـاء بانتباه إلى نيكليـودوف، دون أن يرفـع عـن وجهه عينيـه المغمضتين نصف إغماضه، المبلّلتين واللامعتين. ولم يقاطعه إلا ليعرض عليه سيجارة.

كان الجـنرال ينتمـي إلى هذه الفئـة من العسكريين التـي تظن أنها تستطيع التوفيق بين النزعة التحررية والأفكار الإنسانية وبين مهنتهم. وبمـا أنه كان ذكياً وطيباً فقد أدرك بسرعـة عدم الجدوى من جهوده. ولكـي يتخلص من التناقضـات التي كان يجد نفسـه فيها باستمرار،

تعاطى الشراب شيئاً فشيئاً، وتلك رذيلة منتشرة بين العسكريين. ولقد ترسّخت فيه هذه العادة حتى غدا ما يسميه الأطباء مدمناً. كان متشبّعاً بماء الحياة، تكفي أقل قطرة من الكحول لتُسكره. كان الشراب ضرورة حيوية له، فكان يسكر كل مساء سكراً تاماً. بيد أنه لم يُر قط مترنَحاً، أو ناطقاً بحماقات. ولو نطق بها لعُدّت حماقاته حصافة بسبب من مركزه الرفيع. في الصباح فقط، في مثل الساعة التي جاءه فيها بالضبط نيكليودوف، كان يبدو راجح العقل، قادراً على فهم ما يقال له. حينذاك كان يطبّق، بكثير أو قليل من التوفيق، المثل الذي كان يحلو له أن يردده: سكران وذكي، فضيلة يتحلّى بها قلةٌ من الناس. وكانت السلطات العليا تعلم أنه سكّير. لكن بما أنه كان أكثر ثقافة من كثيرين غيره، – مع أن ثقافته توقّفت حيث بدأ سكره – وبما أنه كان جريئاً وحاذقاً ومهيباً ومليئاً باللباقة، حتى في حالة السكر، فقد أُوكلت إليه هذه الوظيفة الهامة وتُركتْ له.

روى له نيكليودوف أن الشخص الذي يهتم به امرأة حُكمت ظلماً. وحدّثه عن التماس العفو.

فاستعلم الجنرال:

– ممتاز، وماذا بعد ذلك؟

– وعدوني في بطرسبرج أنهم سيرسلون إلي، خلال هذا الشهر، أنباء بصدد مصيرها. وسوف يراسلوني، إلى هذا المكان...

قدّم الجنرال يده القصيرة الأصابع نحو الطاولة، دون أن يحوّل

نظره عن نيكليودوف وقرع الجرس، وأصغى إلى نيكليودوف بصمت، ساحباً من سيجارته أنفاساً، وساعلاً بصخب.

تابع نيكليودوف كلامه:

– أود أن أرجوك السماح بإبقاء هذه المرأة هنا، إن أمكن، ريثما يصل الردّ على طلب التماسها.

في هذه اللحظة دخل المكتب خادم ببزة الحاجب العسكرية فقال له الجنرال:

– اسأل إذا كانت آنا فاسيلييفنا قد نهضت، وهات لي مزيداً من الشاي.

انصرف الخادم فالتفت الجنرال إلى زائره وسأله:

– وفيمَ ترغب أيضاً؟

– طلبي الآخر يتعلق بسجين سياسي في القافلة نفسها.

فاعترض الجنرال وهو يهزّ رأسه هزة لها دلالتها:

– هكذا، هكذا!...

– وهو مُدنَفٌ، موشك على الموت... وربما تركوه هنا في المستشفى. وهناك سجينة سياسية ترغب في أن تظل بجنبه.

– أهي من ذويه؟

– لا، لكنها مستعدة للزواج به، إذا منحها الزواج حق البقاء.

حـدّق الجنرال الذي ظل يدخّن في نيكليودوف، بعينيه الملتمعتين. وعندمـا توقـف نيكليودوف عن الـكلام، تناول كتاباً عـن الطاولة، وقلّـب بسرعة صفحاته بأصابع مبللة بلعابـه، وعثر على المقطع الذي ينصّ على الزواج وأخذ يقرؤه.

واستخبر وهو يرفع عينيه عن الكتاب:

– ما العقوبة التي حُكمتْ بها؟

– هي؟ بالأشغال الشاقة.

– الواقع، أن ظروف المحكوم بالأشغال الشاقة لا يمكن أن تتحسّن بالزواج.

– لكن، مع ذلك...

– عفـواً. وإذا تزوجت رجلاً طليقاً فينبغي عليها مع ذلك أن تنفّذ عقوبتهـا. والمسألة هي إذن معرفة من الـذي يخضع لأشد العقوبتين، هو أم هي؟

– كلاهما محكوم بالأشغال الشاقة.

قال الجنرال وهو يضحك.

– في هذه الحالة، هما متخالصان، لا فضل لأحدهما على الآخر. يمكنـه، هو، أن يبقى هنا بسبب المرض، وسنفعل، بالطبع، كل ما هو

ممكــن للتخفيف من مصــيره. أما هي، فلا يمكنها البقــاء هنا، حتى لو تزوَّجت به...

دخل الخادم وأعلن:

– السيدة الجنرالة تتناول القهوة.

أومأ الحاكم برأسه إيماءة الموافقة. قبل أن يتابع:

– على كل حــال، سأفكّر في هذه المسألة. ما أسماؤهـم؟ سجّل لي أسماءهم هنا، أرجوك.

سجّــل نيكليــودوف الأسمــاء، لكن عندمــا طلــب الإذن بزيارة المريض، رفض الحاكم رفضاً قاطعاً، وأكّد قائلاً:

– ليســ معنى هذا، بالطبــع، أنني أشتبه بك. لكنــك تهتم بهؤلاء السجنــاء وبغيرهـم أيضــاً. وأنت تملك المال وعندنــا، في سيبيريا، كل الناســ يمكــن أن يرتشوا. وقد كُلِّفــتُ أن أضع حداً لإمــكان الرشوة هــذه. وكيف أستطيع أن أفعل ذلــك إذا كان الجميع يقبلون بالرشوة، ولاسيمــا ذوي المراتب الدنيا؟ وكيف تُراقب منطقة تمتد خمسة آلاف «فرست»؟ كل موظف قيصر على أرضه... كما أني قيصر هنا.

قال هذه الجملة وهو يضحك، وأضاف:

– لابــد أنــك قابلتَ سجنــاء سياسيين، ومن أجــل ذلك لابد أنك بذلت الرشوات.

وسأله الحاكم وهو يبتسم:

– ألم يسمحوا لك بمقابلتهم؟

– بلى، بالتأكيد.

– أنا أدرك بوضوح لماذا تصرّفتُ على هذا النحو. أنت تريد أن ترى «سياسياً» تَعْطفُ عليه. فيقبل مدير السجن والضابط المرافق مالك، لأن تلك الكوبيكات الحقيرة التي تشكّل راتبهم لا تكفي لإعالتهم هم وأسرهم. ولو كنت مكانهم أو مكانك، لفعلتُ ما فعلتم. لكني لا أستطيع، في الوضع الذي أنا فيه، أن أُجيز لنَفسي تجاوز المراعاة الدقيقة للأنظمة، وذلك بالضبط لأنني لست سوى إنسان ويمكن أن أستسلم للشفقة. لستُ سوى مجرد موظف، أنا. لقد عهد إلي بمنصبٍ خطير، ثقة بي، في شروط محددة، ويجب أن أبرهن أنني جدير بتلكَ الثقة. هذه مسألة انتهينا منها. والآن قل لي شيئاً مما يجري عندكم في العاصمة؟

أخذ الجنرال يطرح طائفة من الأسئلة، ويروي جملة من القصص تحدوه رغبة واضحة في معرفة الأخبار، وفي التفاخر بأهميته، وفي إبراز عواطفه الإنسانية.

× × ×

-٢٣-

سأل الحاكم:

– حسناً! قل لي أين نزلتَ؟ في فندق ديوكوف؟ لعنه الله، يبدو أنه شديد السوء. تعال إلى تناول العشاء، في الساعة الخامسة. أتتكلم الإنجليزية؟ نعم؟ ممتاز إذن. عندنا هنا زائر إنجليزي جاء يدرس السجون والحبوس المنفردة في سيبيريا. سيتعشّى عندنا، فتعال أنتَ أيضاً. سيبدأ الطعام في الخامسة، وزوجتي تصرّ على دقة المواعيد. وسأعطيك الجواب إذ ذاك بصدد المرأة وبصدد المريض أيضاً. فلعل بإمكاننا أن نترك أحداً بقربه.

بعد أن حيا نيكليودوف الحاكم، قصد إلى مكتب البريد. أحس بالاضطراب، لكنه أحس بفيض من القوة.

كان مكتب البريد غرفة منخفضة ومقوّسة. وكان المستخدمون الجالسون وراء الكوى، يوزّعون البريد على الجمهور الواقف في الصف، وقد حنى أحدهم رأسه على عمله، وأخذ يختم المغلّفات بسرعة مذهلة. لم يطل الانتظار بنيكليودوف. وعندما طلع اسمه،

سلّمه المستخــدم ظرفاً بريدياً كبيراً يحتوي إرساليــة مالية، وعدداً من الرسائل، وكتاباً، والعدد الأخير من «حوليات باريس»[٤٩]. بعد تسلّمه بريده اتّجه إلى مقعد خشبي، جلس عليه جندي يحمل بيده كُتيّباً وكأنه ينتظـر شيئاً. فجلس قربه، وفحص المغلّفـات أولاً. كان أحدها رسالة مضمونــة حسنة المظهر بختــم الشمع الأحمر الكبـير عليها. فتحها، وحــين رأى أنها رسالة من سيلينين، مرفقة بوثيقة رسمية، أحس بالدم يتدفّق إلى جبهته، في حين كان قلبُه يخفق خفقاناً شديداً. كان هذا إذن هو الجــواب المتعلق بكاتيوشا. فما القرار المتّخذ؟ هل رُفض الإلتماس يا ترى؟ ومرّ نيكليودوف بسرعة على الخط الصغير، الذي يكاد يكون غير مقروء بسطــوره غير المنتظمة. فأرسل زفرة العــزاء: لقد كان الرد إيجابياً.

كتب سيلينين إليه:

«أيهــا الصديق العزيز، لقد ترك فيّ حديثُنا الأخير أثراً عميقا. كنتَ علــى حق بصدد ماسلوفــا. فلقد اقتنعتُ، بعد فحصــ القضية فحصاً عميقــاً، أنهــا كانت ضحية ظلم فــادح. وأن لجنة التماســ العفو التي تقدّمت بالتماسك إليها، هي وحدها القادرة على تدارك ذلك الظلم. وبعد أن أسهمتُ في الوصول إلى النتيجة المرجوّة مع تلك اللجنة، فإني أرسل إليك طيّة نسخة عن قرار العفو، على العنوان الذي أعطتني إياه كاتريــن إيفانوفنــا. أما الوثيقة فقد أُرسلــت إلى المدينة التي جرت فيها المحاكمــة. والأرجح أنها ستُرسَل مباشرة من هناك إلى الإدارة المركزية

٤٩- حوليات باريس: مجلة تحررية، ظهرت من ١٨٥٩ إلى ١٨٨٤.

في سيبيريـا. وأنا أبادر إلى اطلاعك على هذا النبـأ السعيد وأشدّ على يدك بحرارة».

المخلص سيلينين.

وكان نصّ الوثيقة كمايلي:

«ديـوان صاحب الجلالـة الإمبراطورية، لجنة العفـو، القسم كذا، المكتـب كذا، التاريخ كـذا. بأمر المدير العام لديـوان صاحب الجلالة الإمبراطوريـة الموكّل بالتماسـات العفو المقدمـة إلى صاحب الجلالة الإمبراطوريـة، تُبلّغ كاتريـن ماسلوف عاملة في المدينـة، أن صاحب الجلالـة الإمبراطورية قـد شاء، بعد النظـر في التقريـر، أن ينظر بعين العطف إلى التماس المرأة المذكـورة. فتفضّل بتحويل الحكم بالأشغال الشاقة إلى عقوبة الإبعاد إلى مكان غير ناء من سيبيريا».

كان النبأ سعيداً وذا أهمية عظيمة. فكل ما كان نيكليودوف يرجوه لكاتيوشـا ولنفسه على حد سواء، قد تحقـق. بيد أن هذا التغير سيعقّد علاقاتهمـا. ذلك أن الزواج الذي عرضـه نيكليودوف عليها ما كان يمكـن أن يكون سوى زواج صـوري، مادامت في السجن، ولم يكن له هدف إلا التخفيف من وضع المحكومة. أما الآن فلا شيء يقف في وجـه حياتهما المشتركة، وهو أمر لم يكن نيكليودوف قد هيّأ نفسه له على الإطلاق. وعلاقات كاتيوشا بسيمونسون؟ ما المعنى الذي يصح أن أنسبـه إلى ما قالتـه أمس؟ لم يستطع أن يهتدي إلى الحقيقة في متاهة أفكاره. وفكّر في نفسـه: «سأتّخذ قراراً فيما بعد. أما الآن فينبغي أن أذهـب بأسرع وقت لأراها ولأبلّغها النبأ السعيد، ولأخرجها من هذا المكان».

كان يتصوّر أن النسخة التي في حوزته تكفي لإطلاق سراح كاتيوشا. وإذ خرج من مكتب البريد أمَرَ حوذيّه بأن يوصله إلى السجن.

ومع أن الحاكم قد أبى عليه، في هذا الصباح بالذات، دخول السجن، فإنه كان يعلم بتجربته أن ما لا يمكن الحصول عليه من السلطات العليا، يستطيع أن يحصل عليه في الغالب من المأمورين. وقرر أن يُقدم على هذه المحاولة. ففضلاً عن النبأ السعيد الذي سينقله إلى كاتيوشا، كان يرغب في أن يستعلم عن حالة كريلتسوف وأن يخبره هو وماريا بافلوفنا بما قاله له الحاكم بصددهما.

تبيّن أن مدير السجن شخص مهيب الطلعة، طويل القامة، بدين جداً، يلتقي شارباه وسالفاه عند زاويتي الفم. استقبل نيكليودوف بهيئة صارمة، وأعلن له بلا مواربة، أن الأشخاص الغرباء عن المؤسسة لا يمكنهم دخولها دون إذن رؤسائه. وعندما بيّن له نيكليودوف أنه قد حصل دائماً على هذا الإذن، حتى في المدن الكبرى، أجاب الموظف:

– هذا ممكن، لكني، أنا أمنحك هذا الإذن.

كانت لهجة صوته تقول ضمناً وبوضوح: «أنتم، كبار نبلاء العاصمة، تظنون أنكم تخدعوننا؛ لكننا نحن في سيبيريا الشرقية، نعرف النظام معرفة ممتازة، بل قد نستطيع تلقينكم درساً فيه».

حتى نسخة قرار ديوان جلالته الإمبراطورية لم تستطع أن تُحدث أثراً فيه. ورفض المدير رفضاً قاطعاً أن يدع نيكليودوف يدخل حرمَ

السجــن. وعندما سألــه الأمير بسذاجة إن كانــت نسخة القرار كافية لإخــراج ماسلوفا من السجن، ابتسم المدير بازدراء. وأنبأه أنه لا يطلق سراح أي سجين إلا بأمر من رئيسه. بيد أنه قَبلَ إبلاغ ماسلوفا مضمون الوثيقة. ولسوف يُخلي سبيلها مباشرة إذا ما تلقّى أمراً بذلك. ورفض أن يخبره بشيء عن صحة كريلتسوف، مؤكداً أنه لا يعلم حتى إن كان في السجــن سجــين بهذا الاسم. وبما أن نيكليــودوف لم يحصل على شيء، فقد اضطُّر إلى ركوب عربته والتوجه إلى الفندق.

جــاءت صرامة المدير بخاصة من أن وباء التيفوس انتشر في السجن الذي تضاعف نازلوه. ولقد علم نيكليودوف ذلك من الحوذي الذي أخبره بهذا النبأ، أثناء الطريق.

– الناس يموتون في السجن، كالذباب. لقد حلّ بهم مرض خطير لا أدري ما هو. وفي كل يوم يُدفَن نحو عشرين سجيناً.

× × ×

-٢٤-

بالرغــم من الفشل الــذي لقيه نيكليــودوف في السجــن، فإنه لم يفقــد شجاعته، فلقد توجّه إلى مقر الحاكــم، مفعماً بالحماسة وبروح المبادرة، ليعلم إن كان العفو عن ماسلوفا قد وصل. لكنه وجد أن قرار العفو لم يصل بعد. ولما عاد إلى الفندق، أسرع بالكتابة إلى سيلينين وإلى المحامــي، حتى إذا فــرغ من ذلك، تطلّع إلى ساعتــه: لقد حان موعد العشاء لــدى الحاكم. وفي الطريق، تساءل كيف ستستقبل كاتيوشا نبأ العفــو عنها. وأين سيرسلونهــا الآن؟ وسيمونسون، ما العواطف التي تخالــج كاتيوشا نحــوه؟ فكّر في التغير الذي طــرأ عليها، وفي ماضي هذه المرأة المسكينة.

قــال في نفسه: «يجب نسيان ذلك كلــه، يجب محوه»، ثم حاول جاهــداً طرد هذه الأفــكار، فقال، وهــو يؤثر أن يفكّر فيمــا سيقوله للحاكم: «سأرى ذلك فيما بعد.

إن العشاء الذي أُعِدَّ بكل البذخ الذي تعوّده نيكليودوف، والذي هــو سمة مميزة للأغنياء ولكبــار الموظفين، قد طاب له كثيراً، بعد ذلك الحرمان الطويل من أسباب الترف، بل مما هو ضروري.

كانت ربة المنزل، وهي سيدة راقية من بطرسبرج، ووصيفة شرف قديمة في بلاط الامبراطور نيقولا الأول، امرأة من العهد القديم؛ كانت تُتقن الفرنسية، ولا تحسن الروسية. كانت تقف دائماً منتصبة القامة، ولا تُبعد أبداً مرفقيها عن خصرها، حتى عندما تلوّح بيديها. وكانت تعامل زوجها باحترام تشوبُه الكآبة، وتُبدي تجاه مدعوّيها رقة بالغة، متنوعة الدرجات ومتناسبة مع أشخاصهم. استقبلت نيكليودوف استقبالها للذين يتردّدون على بيتها، وآثرته بشيء من الإطراء المرهف، الخفي، الذي جعله يشعر بمزاياه الخاصة، والذي ملأه رضاً وغبطة.

أشعرته الجنرالة بأنها تعرف سبب مجيئه إلى سيبيريا، وهو سبب على شيء من الطرافة، بكل تأكيد، لكنه سبب مُشرّف. وأظهرت له أنها تعتبره رجلاً فذاً. إن هذا الثناء الخفي، وجوّ الأناقة المرهفة التي تسود منزل الجنرال، إن ذلك كله قد حمل نيكليودوف على الاستسلام إلى لذة هذا الجو المحبب، وذلك العشاء اللذيذ، وتلك العلاقة السهلة، اللطيفة، بأشخاص مهذّبين من عالمه. وبدا له أن الحياة التي عاشها، في هذه الأشهر الأخيرة، لم تكن سوى حلم أفّاق منه بغتة، ليجد نفسه في هذا الواقع الحاضر.

حضَر العشاء، ماعدا المتردّدين على المنزل –ابنة الجنرال يصحبها زوجها، ومساعد الحاكم العسكري– الزائر الإنجليزي، وصاحب منجم للذهب، وحاكم مدينة نائية في سيبيريا، هو في طريقه منها. استأنس نيكليودوف بجميع الحاضرين. كان الإنكليزي أحمر الوجه، وافر الصحة، يكسّر الفرنسية تكسيراً بشعاً، لكنه كان يتكلم

لغته الأصلية بإتقان فريد، ويُعبّر ببلاغة أخّاذة. وكان يسترعي الإنتباه العام وهو يروي رحلاته إلى أمريكا والهند واليابان وسيبيريا.

كان مالك منجم الذهب، الشاب، وهو ابن فلاح، يرتدي ثياباً مصنوعة في لندن. وكان مقدّم قميصه مزداناً بالماس. وكان يملك مكتبة واسعة، ويتبرّع بسخاء لأعمال البر، ويجهر بآراء متحررة على الطريقة الأوروبية. وقد وجده نيكليودوف قريباً من النفس ومثيراً للاهتمام. رأى فيه نموذجاً جديداً، ناجحاً أحسن نجاح: نتيجة التطعيم الأوروبي لجذعٍ صلب، جذع الأصل الفلاحي.

أما حاكم المدينة السيبيرية النائية فكان ذلك الرئيس السابق لأحد دوائر الوزارة، وهو بعينه الذي كثُر اللغط حوله عندما كان نيكليودوف في بطرسبرج. كان منتفخ الوجه، مُكرشاً، قصير الشعر جعده، له عينان زرقاوان وديعتا التعبير، ويدان بالغتا النظافة، محمّلتان بالخواتم، وعلى فمه ابتسامة متكلّفة اللطف. كان ربُّ البيت يقدّره لأنه شذّ عن أولئك الناس الذين تسهل رشوتُهم. أما ربة المنزل المولعة بالموسيقى والعازفة الماهرة على البيانو، فكانت تقدّر الحاكم السيبيري لمزاياه الموسيقية، لأنها كانت تعزف معه على البيانو عزفاً مزدوجاً. ارتاح نيكليودوف إلى هؤلاء الناس جميعاً، حتى أنه لم يجد هذا الرجل كريهاً إلى قلبه.

وكان المساعد العسكري، وهو رجل مرح، قوي خدوم، قادراً على أن يغدو جذّاباً بطيب مزاجه. لكن نيكليودوف أحس بانجذاب أكبر نحو الزوجين الشابين ابنه الجنرال وزوجها. ولقد كانت هذه

الزوجة عظيمة البساطة، دون أن تكون جميلة، تعبد أولادها. وكان زوجُها الذي تزوجته بعد مقاومة أهلها الطويلة، تحرّرياً، تخرَّج من جامعة موسكو، متواضعاً وذكياً، معييناً بالإحصائيات، ولاسيما إحصاء العروق المحلية التي كان يدرسها بشغف، آملاً أن يساعد في إنقاذ العروق التي توشك أن تندثر.

لم يَبْدُ هؤلاء الناس مُلاطفين، محبَّبين إلى النفس فحسب، بل لقد كان واضحاً أنهم مغتبطون لأنهم وجدوا في نيكليودوف شخصاً مثيراً للاهتمام. فقد حياهُ الحاكم الذي أقبل على المائدة بالبزّة الرسمية، وبالصليب الأبيض في قبّة سترته، وكأنه صديق قديم. وقاده على الفور إلى مائدة المقبلات التي كانت تُقدّم مع الفودكا. ورداً على سؤال الحاكم حول استخدامه ليومه، روى نيكليودوف أنّه مرّ على مكتب البريد حيث وجد نبأ العفو عن الشخص الذي حدّثه عنه. وكرّر رجاءه في أن يُسمح له بدخول السجن.

قطّب الجنرال حاجبيه، دون أن يجيب، وبدا عليه الإنزعاج من إقحام شؤون الخدمة أثناء الطعام.

عَرضَ بالفرنسية على المدعو الإنكليزي الذي دنا منهما:

– أتريد شيئاً من الفودكا؟

أفرغ الإنكليزي قدحاً صغيراً وروى أنه زار الكنيسة ومصنعاً وأعرب عن رغبته في زيارة السجن الكبير أيضاً.

قال الجنرال وهو يلتفت إلى نيكليودوف:

– إنها لمصادفة رائعة. تستطيعان أن تذهبا معاً.

وقال لمساعده العسكري:

– أعط هذين السيدين إذناً مكتوباً.

سأل نيكليودوف الإنكليزي:

– متى تنوي أن تذهب إلى السجن؟

أجاب هذا:

– أفضّل أن أزور السجون مساء. ففي المساء، يكون جميع السجناء حاضريـن، ولا يكون فيه استعداد للسفر، وهكذا نحصل على انطباع حقيقي عن الواقع.

أعلن الجنرال وهو يتّجه إلى المائدة الكبرى حيث عيّنت امرأته لكل من المدعوين المكان الذي يجب أن يجلس فيه:

– آه! تُريـد أن تراهـم في كامل أبّهتهم؟ كما تشـاء! لقد طالبت، فلم يُصغ أحـد إلي. لعل من الأفضل أن يعلموا ذلك بصوت الصحافة الأجنبية.

كان مـكان نيكليودوف بين ربة الدار والإنكليزي. وفي مقابلتهم جلست ابنة الجنرال بجنب رئيس دائرة الوزارة القديم.

دار الحديث، أثناء الطعام، على الهند التي كان الإنكليزي يتحدّث عنهـا، وعلى حملة «تونكين»[٥٠] التي دانَها الجنرال بقسوة. ثم انتقل الحديث إلى الفساد وغياب النزاهة العامَين في سيبيريا، وهو حديث لم يكن يشد نيكليودوف إليه إلا قليلاً. لكن حديثاً شائقاً جداً نشب بين

٥٠– حملة «تونكين»: الحملة الفرنسية التي أخضعت تونكين سنة ١٨٤٨.

الجنرالة والإنكليـزي، بصدد غلادستون[٥١]، بعد الغـداء، أثناء تناول القهوة في قاعة الاستقبال. وبدا لنيكليودوف أن الإنكليزي يتكلم عن معرفة بالوقائع، وهو يتلقّى ردوداً باهرة سريعة من محدّثيه.

أحس نيكليـودوف، بعد الغداء الفاخر، والخمـر، والقهوة، وهو جالس على مقعد مريـح، بصحبة أشخاص لطيفين ومثقفين، أنه أكثر ارتياحـاً، وبنـاء على طلب الإنكليـزي، جلست الجنرالـة إلى البيانو، بجانـب رئيـس الدائرة السابق، وأخـذا يعزفان بحماسـة السمفونية الخامسـة لبيتهوفن، فأحس نيكليودوف بالوئام مع نفسه، وهو أمر لم يقـع له منذ زمن بعيد، حتى لاح له أنه يتبين الآن فقط إلى أي حد كان رجلاً شهماً.

كان البيانـو آلـة موسيقية ممتازة، وكان عـزف السمفونية بريئاً من العيب، على الأقل كذلك كان انطباع نيكليودوف، الذي كان يحب السمفونية الخامسة ويعرفها معرفة عميقة. وأحس وهو يسمع القطعة الرائعـة المعتدلـة البطء بوخزٍ في أنفه، لفرط ما تحـنن على نفسه وعلى فضائله.

بعد أن شكر نيكليودوف ربة البيت على تلك المتعة التي وفّرتها له والتي لم يكن يتوقّعها أراد أن يستأذن، لكن ابنة الجنرال تقدمت نحوه بهيئة واثقة، وقالت له، في شيء من الخجل:

– سألتَني عن أولادي، أتحب أن تأتي لتراهم؟

٥١– غلادستـون: (١٨٠٩–١٨٩٨): سياسي إنكليزي، رئيس وزراء من ١٨٨٠ إلى ١٨٨٥. وعاد إلى السلطة سنة ١٨٨٠

قالت الأم وهي تبتسم، معتذرة عن انعدام الذوق لدى ابنتها:

– إنها تظن أن جميع الناس يتحرقون شوقاً لرؤية صغيريها. دعي هذا، فذلك لا يُهمّ الأمير في شيء.

فأكد نيكليودوف، وقد تأثّر بهذا الحب الأمومي الفائض:

– على العكس، إن هذا ليهمني كثيراً. أرجوك أريني ولديك.

قهقه الجنرال الذي كان جالساً إلى طاولة اللعب مع صهره، ومع مالك مناجم الذهب والمساعد، وقال:

– ابنتي تريد أن تُري الأمير صغيريها! ادفع، ادفع ضريبتك، يا عزيزي!

سبقت المرأة الشابة نيكليودوف، بخطوات، سريعة على داخل المنزل، وهي ظاهرة التأثر لأن نيكليودوف سيُصدر حكمه على ولديها. كان في الغرفة التي في الصدر، والمغطّاة بورق أبيض، والمضاءة بمصباح له كمة قاتمة اللون، سريران من أسرّة الأطفال جلست بينهما مربية الولدين التي غطت كتفيها بوشاح أبيض، وكانت فلاحة طيبة سمحة الوجه، بارزة الوجنتين، كنساء سيبيريا. نهضت لتحيي سيدة البيت والزائر. انحنت الأم على السرير الأول الذي اضطجعت عليه طفلة صغيرة ابنة عامين، فاتحة فمها، ذات شعر طويل، جعد، مُنتثرٍ على الوسادة.

قالت الأم وهي تكفّ الغطاء الصوفي المسرود، والمخطط باللون الأزرق، الذي برزت منه قدم بيضاء:

– هذه كاتيا. أتراها جميلة! ليس لها سوى عامين.

– إنها فاتنة.

– وهذا فاسيوك، كما يسميه جدُّه. هذا نموذج آخر، سيبيري حقاً، أليس كذلك؟

فقال نيكليودوف، بعد أن شاهد صبياً ضخماً ينام مضطجعاً على صدره، مثنياً عليه.

صبي رائع!

فألحّت الأم ببسمتها المشرقة:

– حقاً؟

تذكّر نيكليودوف السلاسل والرؤوس الحليقة، والمشاجرات، والفساد، وكريلتسوف محتضراً، وكاتيوشا وماضيها... فأصابه ضرب من الغيرة. هو أيضاً، كان يحس بالحاجة إلى سعادة عائلية بمثل هذا الكمال.

بعد أن ردد مدحَه للأولاد، وأرضى، ولو جزئياً، نهم الأم التي كانت تحب مدحه، عاد معها إلى القاعة. كان الإنكليزي ينتظره ليذهب معه إلى السجن كما اتّفقا.

ودّع نيكليودوف ورفيقه صاحبي البيت، وهبطا درج المدخل. كان الجو قد تغيّر. وأخذ الثلج يتساقط بندف كبيرة، فغطى الشارع والسطح وأشجار الحديقة، والبوابة. وغطاء العربة وظهر الجواد. كانت للإنكليزي عربته، فأمر نيكليودوف حوذيّه بأن يوصله إلى

السجـن. وتهادى وحيداً في عربته علـى الثلج الرخو الذي كان يعيق سير الجواد. كان نيكليودوف يحس إحساساً مزعجاً بأنه يؤدي واجباً شاقاً.

× × ×

-٢٥-

بــدت بناية السجــن السوداء بحارسهــا ومصباحه تحــت البوابة، أشد دكنــة منها في الصبــاح، بالرغم من الكفن الأبيضـ الذي غطّى كل شــيء، المدخل والسطح والجدران. وعلــى الواجهة كلها، كانت النوافذ مضيئة.

جاء المدير المهيب إلى عتبة الباب ليفحص إذن المرور لنيكليودوف والإنجليــزي. هزّ كتفيه العريضتين. وهو بــادي الدهشة، لكنه انصاع لأوامــر رئيسه ودعــا الزائريــن إلى أن يتبعاه. وبعد أن اجتــازوا الفناء وعــبروا من أحد الأبواب، صعدوا الدرج ودخلوا المكتب. قدّم المدير لهما مقعداً وسأل فيم يمكنه أن يخدمهما. وعندما أعلمه نيكليودوف برغبتــه في مقابلة ماسلوفا، أرسل حارساً يدعوها. وفي غضون ذلك، تهيّــأ للإجابــة عن الأسئلة التــي يريد أن يطرحهــا الإنكليزي بواسطة نيكليودوف.

– مــا عدد الأشخاص الذين بُني هذا السجن من أجلهم؟ وما عدد السجنــاء فيه الآن؟؟ ما عدد الرجال، وعــدد النساء، وعدد الأطفال؟

مـا عـدد المحكومين بالأشغـال الشاقـة، وما عددالمنفيـين، وما عدد الأشخاص الذين تطوعوا لمرافقة السجناء؟ وما عدد المرضى؟

كان نيكليودوف يترجم هذه الأسئلة وأجوبة المدير، دون أن يتعمّق في معناها. كان يحس باضطـراب فريد لترقّبه الحديث الذي سيكون بينه وبين كاتيوشا. وعندما سمع، وسط جملة كان مشغولاً بترجمتها، وَقْعَ خطـوات وسمع الباب يُفتح ليدخل منـه -كما كان يحدث من قبـل علـى الأغلب- الحارس تتبعه كاتيوشـا مغطّية رأسهـا بخمار، مرتدية ثيـاب السجناء، خالـجَ نيكليودوف شعـور بالقلق الحقيقي. وحـدّث نفسه بلمح البرق: «أريـد أن أعيش! أريد أن تكون لي أسرة، وأن يكون لي أولاد، وأن أحيا حياة طبيعية!» دخلت بخطوات سريعة، خافضة رأسها، غاضّة بصرها. هبّ نيكليودوف لملاقاتها. بدا له وجه كاتيوشـا مُشرّبـاً بالقسوة، عدائياً، مطبوعاً بـذاك التعبير الذي طُبِعَ به يـوم أن وجّهت إليه اللوم. كانت تحمـرّ وتشحب تباعاً، وتدعك بين أصابعها بحركـة تشنجية أهداب قميصها. وكانـت ترفع بصرها إليه تارة، وتارة أخرى تغضّه.

سألها نيكليودوف:

– أتعلمين أنكِ مُنحتِ العفو؟

– نعم، أخبرني الحارس بذلك.

– في الوقـت الذي تصل فيه الوثيقة إلى هنا، سيكون بإمكانك أن تخرجي، وأن تحددي إقامتك حيث تشائين وسوف نفكر في ذلك...

فقطعت كلامه هاتفة:

–مـا الحاجـة إلى التفكـير؟ حيثمـا يذهـب فلاديمـير ايفانوفتش فسأذهب أنا أيضاً.

علـى الرغم مـن اضطرابها الـذي لا يوصف، رفعـت عينيها إلى نيكليودوف وهي تنطق بهذه الكلمات التي ألقتها بسرعة، وهي تقطّع المقاطع، وكأن هذه الجمل قد أُعّدت من قبل.

فقال نيكليودوف:

– آه! هكذا...

– ومـاذا أفعل، يا دميتري ايفانوفتش، بما أنـه يرغب في أن أعيش معه...

لكنها توقّفت كالخائفة لتصحّح كلامها:

– .... في أن أكـون بجنبه. هـل بوسعي أن أتمنـى خيراً من ذلك؟ ينبغـي أن أرى في ذلـك سعـادة لي... ومـاذا أستطيـع أن أفعل. غير ذلك؟..

قال نيكليودوف في نفسه: «أحد أمرين: إما أنها تحب سيمونسون ولا ترغب بتاتاً في التضحية التي أظهرت استعدادي لتقديمها لها، وإما أنهـا ماتزال تحبني وهي تتخلّى عني مـن أجل مصلحتي... إنها تقطع على نفسها خط الرجعة إذ تربط مصيرها بمصير سيمونسون».

شعر نيكليـودوف بالخجل وهو يفكّر هكـذا. وأحسّ انه يحمرّ. وقال متردداً.

– إذا أحببتِه...

– أحب أو لا أحـــب، لا معنى لذلك! لقد أقلعتُ عن الحب الآن. ثـم إني أرى فلاديمير ايفانوفتش رجلاً غير عادي حقاً، أليس كذلك.

وافق نيكليودوف:

– بالتأكيد. وهو رجل رائع وأظن...

فقاطعته مرة أخرى، وكأنها كانت تخشى ان يقول أكثر من اللازم، أو كأنها كانت تخاف ألا تستطيع مصارحته بكل شيء. وقالت وهي تنظر إليه في عينيه، بنظراتها الحولاء المحمّلة بالمعاني الخفيّة:

– لا، يجب أن تغفر لي، يا دميتري ايفانوفتش، إذا لم أفعل ما تريد. يجــب أن تكون الأمور هكــذا، وهذا واضح! أنــتَ أيضاً، يجب أن تعيش...

كرّرت لــه ما فكر فيه قبل هنيهة. لكنه كــفّ عن التفكير في ذلك الآن، لأن أفــكاراً أخــرى ومشاعــر أخرى كانت تشغلــه. لم يخالجه الخجل فحسب، بل أسف على ما سيفقده معها.

وهمس:

– ما كنتُ أتوقّع ذلك...

فاعلنت وهي تبتسم

– لماذا تريد أن تعيش هناك معذّباً نفسك؟ كفاك ما لقيتَه من آلام.

– لم ألق آلاماً، وكنتُ مرتاحاً، وأود لو أكون نافعاً لك، إن أمكن.

– نحن –ولفظتْ «نحــن» وهي تحدّق في نيكليودوف– نحن لا

نحتاج إلى شيء. لقد فعلت الكثير من أجلي. ولو أنك لم تكن هنا...

أرادت أن تتابع، لكن صوتها تهدّج.

قال نيكليودوف:

– ليس لكِ في الحقيقة، أن تشكريني.

فأجابت، وعيناها السوداوان ملتمعتان بالدموع:

– ولَمَ الحساب بيننا؟ الله هو الذي يتولّى الحساب بيننا.

فقال بصوت خفيض:

– ما أكرم نفسك!

ابتسمت بحزن عبر دموعها وقالت:

– أنا، كريمة النفس؟

في هذه اللحظة سأله الإنكليزي بالإنكليزية:

– أأنت جاهز؟

أجاب نيكليودوف الذي كان يسأل كاتيوشا عن أخبار كريلتسوف:

– في الحال.

سيطرت على انفعالها، وروت له بصوت أهدأ ما تعرفه: لقد توجّع كريلتسوف كثيراً من الطريق. فوُضع مباشرة في المشفى. وكانت ماريا بافلوفنا شديدة القلق، ذلك أنها طلبت الإذن بالإشراف عليه، لكن طلبها رُفِض.

سألته حين رأت الإنكليزي ينتظره:

- أأنصرف؟

قال نيكليودوف وهو يمد يده إليها:

- لن أودّعك. لأني سأراك أيضاً.

فهمست بصوت خفيض لم يكن يسمعه:

- اغفر لي...

تلاقت عيونهما. وفي النظرة الغريبة لهاتين العينين غير المتساويتين، وفي هذه الإبتسامة المتألمة التي قالت من خلالها «اغفر لي» لا «وداعاً» أدرك نيكليودوف أن الفرضية الحقيقية بين الفرضيتين المتعلقتين بقرار كاتيوشا، هي الثانية. إنها تُحبه، لكنها ترى أنها إن اقترنت به أفسدت حياته. وهي حين تذهب مع سيمونسون ترد لنيكليودوف حريته. وهي الآن مغتبطة لانها نفذت المهمة التي فرضتها على نفسها. وفي الوقت نفسه، كانت تتألم لفراقه. شدّت يده، واستدارت وخرجت من الغرفة.

نظر نيكليودوف إلى الإنكليزي، وهو مستعد للحاق به. لكن الإنكليزي كان مشغولاً بتسجيل بعض الملاحظات على دفتر صغير. جلس نيكليودوف على مقعد من الخشب مستنداً إلى الجدار، دون أن يزعجه. وفجأة، أحس أنه منهوك القوى. و لم يكن تعبُه ناجماً عن أَرَق ليلته، ولا عن السفر، ولا عن الإنفعال: لقد كان متعباً حتى الموت من الحياة ذاتها. استند إلى ظهر المقعد، وأغمض عينيه، ونام لحظة نوماً ثقيلاً محطّماً.

سأل المدير:

– حسناً؟ أتريد أن تزور المهاجع، الآن؟

هــب نيكليودوف مدهوشاً من أن يجد نفسه هنا. فرغ الإنكليزي مــن تسجيــل تعليقاته وأعــرب عن رغباتــه في رؤية المهاجــع. وتبعه نيكليودوف كالإنسان الآلي المُسيَّر، وهو متلاشي القوى.

× × ×

-٢٦-

بعــد أن اجتاز الزائــران بهواً وممشى منتنين إلى حــد إثارة الغثيان، حيث رأيا ما أذهلهمــا: سجينين يبولان على الأرض، أدخلهما المدير إلى المهجع الأول، المخصص للمحكومين بالأشغال الشاقة.

كانــت الأسرّة المنضّدة تشغل وسط المهجــع؛ وكان السجناء الذين يبلغ عددهــم السبعين، مضطجعــين، كلهم في اتجــاه واحد. وعندما دخــل الزائران، نهضوا مــع قعقعة السلاسل. وكانــت رؤوسهم التي حُلقت حديثاً في نصف منهــا تلمع في الغبش. وظل رجلان ممددين: شاب قرمــزي الوجه، بدا عليه أنه فريسة للحمى، وشيخ لم يكف عن الأنين.

ســأل الإنجليزي إن كان الشاب مريضــاً منذ زمن بعيد. فقيل له إن ذلك قد أصابــه منذ الصباح؛ أما الشيخ فكان يشكو من ألم في معدته منذ زمن بعيــد، لكنهم لم يعلموا إلى أين ينقلونه إذ كان المشفى ملآن. هزّ الإنكليزي رأســه مستنكراً، ورجا نيكليودوف أن يترجم له بعض الأقــوال التي يحب أن يوجهها إلى السجناء. وتبيّن أن للإنجليزي هدفاً آخــر غير دراسة نظام السجون في سيبيريا، وهو أن يدعو إلى الخلاص بواسطة الإيمان والفداء.

- قُل لهم إن المسيح يشفق عليهم وأنه يحبّهم وأنه مات ليفتديهم. فإذا آمنوا نجوا.

بينما كان الإنكليزي يتكلم هكذا، ظل السجناء واقفين قرب أسرّتهم، صامتين، وأيديهم متدلية.

وأردف:

- قُلْ لهم أن كل شيء مشروح في هذا الكتاب. هل بينهم من يُحسن القراءة؟

تبيّن أن أكثر من عشرين بينهم متعلّمون. أخرج الإنكليزي من حقيبته عدداً من الكتب المجلّدة هي نسخ من «العهد الجديد». فامتدت أيديهم القوية ذات الأظافر السميكة السوداء خارج أكمام قمصانهم القطنية، متزاحمة، متدافعة. ترك لهم الإنكليزي نسختين من العهد الجديد. وانتقل إلى المهجع الذي يلي حيث تكرر المشهد، مع انعدام الهواء والنتانة ذاتهما. في هذا المهجع وفي الذي قبله كانت تتدلى صورة مقدّسة بين النافذتين؛ وإلى يسار الباب وُضع الحوض النتن. وهنا أيضاً، كان السجناء ينامون في صفوف، والرؤوس جميعها في اتجاه واحد؛ هبّ الجميع ماعدا ثلاثة مرضى. اثنان منهما نهضا قليلاً، أما الثالث فلم يلتفت ليرى مَنْ الداخل. أعاد الإنكليزي موعظته ووزّع نسختين من الإنجيل.

في المهجع الثالث، وجدا أربعة مرضى. ورداً على سؤال الإنكليزي الذي أبدى دهشته من أن المرضى لا يُجْمَعون في مكان واحد، أجاب

المدير أن المرضى يرفضون ذلك، وأن مرضهم غير مُعدٍ، وأن ممرضاً يزورهم ليقدّم لهم العناية الضرورية.

فصاح صوت:

- ها قد مضى خمسة عشر يوماً دون أن نرى وجهه.

انتقل المدير إلى المهجع التالي، دون أن يجيب. فُتح الباب مرة أخرى، ونهض الجميع بصمت، ووزّع الإنكليزي الأناجيل. وتكرر المشهد في المهجع الخامس والسادس، وعلى يمين الممشى وعلى يساره، وفي كل مكان. ومن المحكومين بالأشغال الشاقة، انتقلا إلى المنفيين، ثم إلى سجناء الحق العام، ثم إلى الأشخاص الذين رافقوا السجناء بمحض إرادتهم. كان كل شيء متشابهاً، فحيثما ذهبا وجدا أناساً آذاهم البرد والجوع والفراغ، وحُبِسوا كما تُحبس الحيوانات المتوحشة.

بعد أن وزّع الإنكليزي عدداً من نسخ العهد الجديد، لم يقل كلمة واحدة. لأنّ ذلك المنظر المحزن، وذلك الهواء الفاسد، على الخصوص، قد استنفدا طاقته بوضوح. وكان يكتفي بأن يقول «حسناً» عند كل إيضاح من المدير عن السجناء في كل قاعة.

× × ×

-٢٧-

في أحد مهاجع المنفيين، ذهل نيكليودوف حين وجد ذلك الشيخ الغريب الذي لقيه على المعدّية. كان جالساً قرب سريره، على الأرض، حافي القدمين، مغضّن الوجه، أشعث الشعر، في قميص وسخ بلون الرماد، ممزق عند الكتف، وفي بنطال مثقوب. نظر إلى القادمين وقد بدت عليه الحيرة، وقطّب حاجبيه. كان جسده المهزول الذي تراءى من خلال مزق الثياب، يثير الشفقة، لفرط ما هو مُضني؛ لكن وجهه كان أكثر رصانة وقسوة منه أثناء عبور المعدّية. وقف السجناء في هذا المهجع وقفة الاستعداد، كما وقفوا في المهاجع الأخرى، لدى رؤية المسؤولين، لكن الشيخ ظل جالساً. وأخذت عيناه تبرقان، تحت الحاجبين الغاضبين.

صاح به المدير:

- قفْ!

ابتسم الشيخ بازدراء، ولم يتحرّك. ثم قال وهو يشير إلى جبهة المدير:

– خُدامُـك يقفون أمامـك، لكني لستُ خادماً لـك. أنت تحمل خَتْم...

اغتاظ المدير، وخطا نحوه خطوة، مهدداً:

– كيـ... كيف؟

بادر نيكليودوف إلى التدخل قائلاً:

– إني أعرف هذا الرجل. لماذا أوقفتموه؟

فأوضح المدير الذي كان يرشق الشيخ بنظرته الصاعقة:

– أرسلتْـه الشرطـة إلينا لأنه لا يحمل أوراقـاً. ونحن نرجوهم ألا يرسلوا إلينا أمثاله، لكن بدون جدوى.

خاطب الشيخ نيكليودوف وسأله:

– وأنت أيضاً في جيش المسيح الدجّال؟

أجاب نيكليودوف:

– لا، وإنما جئت زائراً.

– إذن، جئتَ تتأمل الطريقة التي يُعذِّبُ بها المسيح الدجّال الناس؟ طيـب؟ انظر. لقـد قبض على جيش كامل ووضعـه في قفص. يجب علـى الناس أن يكسبـوا خبزهم بعرق جبينهم، أما هـو فإنه يحبسهم كالخنازير، ويطعمهم دون أن يسمح لهم بالعمل، ليغدوا مسعورين.

استعلم الإنكليزي:

– ماذا يقول؟

أوضح له نيكليودوف أن الشيخ يتّهم المدير بإبقاء السجناء في السجن.

سأل الإنكليزي:

- اسأله إذن كيف ينبغي أن يُعامَل مخالفو القانون.

عندما ترجم نيكليودوف هذا السؤال، ابتسم الرجل ابتسامة غريبة، كشف من خلالها عن صف من الأسنان المتراصة. وردد باحتقار:

- القانون! لقد بدؤوا بحرمان الناس جميعاً، انتزعوا منهم أراضيهم وأملاكهم، وضربوا الذين عارضوهم في ذلك، ثم عملوا القانون الذي لا يجوز بموجبه القتل والسرقة! كان يجب عليهم أن يعملوا القانون قبل ذلك!

- لكن في الوقت الحاضر، كيف يجب أن يكون التصرف إزاء اللصوص والقَتَلةِ؟ اسأله، أرجوك!

ترجم نيكليودوف من جديد؛ فازداد الشيخ تجهّماً، وزمجر:

- قلْ له ليُمْحَ خَتْمَ المسيح الدجال، ولن يكون هناك قتلة ولا سارقون. قُلْ له ذلك.

هتف الإنكليزي عندما ترجم له نيكليودوف كلام الشيخ:

- إنه معتوه!

ثم هز كتفيه وخرج من القاعة. بيد أن الشيخ ثار على نيكليودوف صارخاً:

– اعتنِ بشؤونك ودع الآخرين وشأنهم. الله أدرى بمن يعاقب وبمن يعفو عنهم. وليس لنا أن نعلم ذلك. كنْ سيداً لنفسك، ولن تكون بحاجة إلى الأسياد.

وأضاف وهو يرشق نيكليودوف الذي ظل واقفاً بنظرته الصاعقة:

– انصرفْ، انصرف! لقد رأيت كيف يجعل المسيح الدجّال الناس طعمة للقمل. انصرف، انصرف!

عندما خرج نيكليودوف إلى الممشى، وجد الإنكليزي يسأل المدير عن فائدة الغرفة المقابلة، غرفة الموتى.

فهتف الإنكليزي عندما فهم:

– أوه!

وأبدى رغبته في زيارة غرفة الموتى هذه.

كانت غرفة صغيرة ليس فيها شيء خاص، ثُبِّت في جدارها مصباح يضيء إضاءة باهتة أكياساً وخشباً مكدّساً في الزاوية. وإلى اليمين مُدِّدت أربع جثث على ألواح خشبية. كان الأول الذي يرتدي قميصاً وبنطالاً قطنياً، رجلاً فارع الطول، له عثنون على شكل قرن، ونصف رأسه حليق؛ وتراخت يداه البنفسجيتان المضمومتان إلى صدره، وكذلك قدماه العاريتان. وإلى جنبه رقدت امرأة عجوز، تلبس قميصاً وتنورة بيضاء، وهي حافية القدمين، مكشوفة الرأس.

كانـت لهـا ضفـيرة رقيقـة مـن شعرهـا القصـير، وكان وجهها نحيـلاً أصفر، مجعّـداً، ذلقَ الأنف، ووراء العجـوز مُدّدت جثة رجل مغطّـى بشيء لونـه بنفسجي. فأيقظ هذا السكـون الذكرى في نفس نيكليودوف، واقترب من الجثة لينظر إليها.

كان عثنونه مقرّناً، قصيراً، متّجهاً إلى الأعلى، وأنفة كبير قليلاً لكنه حسن التكوين، وجبهته العريضة عاجية، وشعره نادر لكنه جعد: لقد تعـرّف نيكليودوف هذه الملامح المألوفة وهـو لا يصدّق عينيه. أمس بالـذات، تأمل هـذا الوجه الـذي شنّجه الاحتقـار والألم. وهو الآن يرقـد هنا بسـلام، لا حراك فيـه، بجماله المرعب. نعـم كان هذا هو كريلتسوف، أو، على كل حال، جثمان كريلتسوف.

تسـاءل نيكليـودوف: «لماذا تـألم؟ ولماذا عاش؟ أيكـون قد أدرك ذلـك، الآن؟» وبدا له أن هـذه الأسئلة لا جواب لهـا، وأنه لا يوجد شيء خارج الموت، فآلمتهُ هذه الفكرة.

رجـا الحارس أن يوصلـه إلى خـارج السجـن، دون أن يستأذن الإنكليـزي. أحس بالحاجة إلى أن يكون وحـده كي يفكّر في كل ما عاشه، هذا المساء. فقفل راجعاً إلى الفندق.

× × ×

-٢٨-

لم ينم نيكليودوف. وذرع غرفته زمناً طويلاً. لقد انتهت قصتُه مع كاتيوشـا، فهي لم تعد بحاجة إليه، وأحزنته هذه الفكرة ملأته خجلاً. سـؤال آخر كان يعذّبه أيضـاً، وهو سؤال أخذ يلـحّ عليه أكثر من أي وقـت مضـى، دون أن يجد حلاً. ذلـك أن الشر المخيـف الذي كان شاهـداً عليه، ولاسيمـا أثناء زيارته الأخيرة للسجـن، هذا الشر الذي قتل كريلتسوف المسكـين، ينتصر في كل مكان و لم يكن نيكليودوف يتبـين وسيلـة للتغلب عليـه. كان يـرى بخياله هذه المئـات والآلاف مـن الكائنات البشريـة مُذلة، مهانـة، محبوسة في جو موبـوء، بمشيئة كل أولئـك الجنرالات والنـوّاب العامين، وهؤلاء المـدراء اللامبالين. وخَطَـر بباله الشيخ الغريب، المتعطّـش إلى الحرية، الذي ندد بالسلطة في هـذا المساء، والذي يعتـبره الناس مجنونـاً. رأى بخياله مرة أخرى غرفة الموتى، ورأى، بين الجثـث، وجه كريلتسوف الجميل وكأنه من الشمـع، ميتاً في غيظه. فشعر بَهجمـة الشك عليه أقوى من ذي قبل: مَـنْ المجنون، هو أم أولئك الذين يحسبون أنفسهم عقلاء، ويتصرّفون على هذا النحو؟

أعيـاه المشي والتفكـير، فجلس على مقعد، تحـت المصباح، وفَتَح بحركـة آلية الإنجيل الذي أهداه إياه الإنكليـزي، والذي ألقى به على الطاولة، عندما دخل وأفرغ جيوبه.

قـال في نفسه: «يقولون: إن مـن الممكن أن نجد فيه جواباً عن كل شيء». وفتح الكتاب على غير هدى، وقرأ:

متّى الإصحاح الثامن عشر –١– في تلك الساعة تقدّم التلاميذ إلى يسوع قائلين: «فمنْ هو أعظم في ملكوت السموات؟».

٢– فدعا يسوع إليه ولداً، وأقامه في وسطهم.

٣– وقال: «الحق أقول لكـم إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد، فلن تدخلوا ملكوت السموات».

٤– «فمـن وضع نفسَه مثل هذا الولد، فهـو الأعظم في ملكوت السموات».

حدّث نيكليودوف نفسـه: «نعم، نعم، وهو كذلك»، متذكّراً أنه قد ذاق لذة السكينة والفرح بالحياة عندما تواضع فقط.

٥– «ومن قَبلَ ولداً واحداً مثل هذا باسمي، فقد قبلني».

٦– «ومَنْ أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي، فخيرٌ له أن يُعلّق في عنقه حجر الرحى ويُغْرَق في لجة البحر».

وتساءل نيكليودوف: ما معنـى «مَنْ قَبِلَ بي»؟ وأين يَقبل به؟ وما معنى «باسمي»؟. وإنما تساءل إذ أحسّ أن هذه الكلمات لم تكن تعني

شيئــاً عنده. ولماذا «في عنقه حجر الرحى»، و»لجة البحر»؟ لا، إن ها هنــا خللاً. ليس ذلك واضحاً، و لم يُشرَحْ ذلــك شرحاً حسناً. وتذكّر حينئــذ أنه عكفَ، غير مرة، خــلال حياته، على قــراءة الإنجيل، فنفَر دائماً من هذاالمقطع. بيــد أنه قرأ أيضاً الآيات الأربع التالية، تلك التي تتناول العثرات التي تقع في هــذا العالم، وعقاب نار جهنم، والصغار الملائكيــين الذين ينظرون وجه الأب السماوي. وفكّر: «من المؤسف أنــه قد عُبِّر عــن ذلك كله هذا التعبير الضعيــف. وإن كنا نحس أن في صميم هذه الآيات شيئاً حسناً». واستأنف قراءته:

١٢– «مــاذا تظنــون، إن كان لإنسان مائة خــروف وضلَّ واحد منها، أفلا يترك التسعة والتسعين على الجبال، ويذهب يطلب الضال».

١٣– «وإن اتفــق أن يجده فالحــق أقول لكم: إنه يفرح به أكثر من التسعة والتسعين التي لم تضلّ».

١٤– «هكــذا ليســت مشيئة أمــام أبيكم الــذي في السموات أن يهلك أحد هؤلاء الصغار».

فكّر نيكليودوف «نعم، ليست مشيئة الأب أن يهلكوا، ومع ذلك فهم يهلكون بالمئات، وبالآلاف. ولا سبيل إلى إنقاذهم. وتابع قراءته:

٢١– «حينئــذٍ تقدم إليه بطرس وقال: يا رب، كم مرة يُخطِئ إلي أخي وأنا أغفر له. هل إلى سبع مرات؟»

٢٢– «قــال له يسوع: لا أقول لــك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات».

٢٣- لذلك يُشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً أراد أن يحاسب عبيده».

٢٤- «فلما ابتدأ في المحاسبة قُدِّم إليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة».

٢٥- وإذا لم يكن له ما يُوفي، أمرَ سيده أن يُباع هو وامرأته وأولاده وكل مالَه ويُوفى الدين».

٢٦- « فخرّ العبد وسجد له قائلاً: يا سيد تمهل علي، فأوفيك الجميع».

٢٧- «فتحنن سيد ذلك العبد وأطلقه وترك له الدين».

٢٨- «ولما خرج ذلك العبد، وجد واحداً من رُفقائه كان مديوناً له بمائة دينار. فأمسكه وأخذه بعنقه قائلاً: أَوْفني مالي عليك».

٢٩- «فخرّ العبد رفيقه على قدميه، وطلب إليه قائلاً: تمهّل علي فأوفيك الجميع».

٣٠- «فلم يُردْ: بل مضى وألقاه في سجن حتى يوفي الدين».

٣١- «فلما رأى العبيد رفقاؤه ما كان، حزنوا جداً، وأتوا وقصّوا على سيدهم كل ما جرى».

٣٢- «فدعاه حينئذ سيده، وقال له: أيها العبد الشرير، كل ذلك الدين تركته لك، لأنك طلبت إلي».

٣٣- أفمـا كان ينبغـي أنك أنـتَ أيضاً ترحم العبـد رفيقك كما رحمتك أنا؟»

هتـف نيكليودوف فجـأة، بعد أن قـرأ هذه الكلمـات الأخيرة: «أيكون هذا هـو الجواب؟». فأجابه صوت داخلـي. «نعم، هذا هو الجواب، ليس غير».

حينـذ حدث لنيكليـودوف ما يحـدث غالباً للذين لهـم حياتهم الداخليـة فالفكرة التي كانـت تبدو له، في البدايـة، غريبة، متناقضة، بـل ومخالفة للعقل، والتي أخذت الحياة تؤيدها على نحو متزايد، هذه الفكـرة تجلّت له، بغتة، علـى أنها حقيقية من أبسـط الحقائق، لكنها حقيقة لا سبيل إلى دحضها.

لقد رأى بجلاء أن العلاج الوحيد للشر الفظيع الذي يتألم منه الناس، يكمن في اعترافنا، أمام الله، بأننا مذنبون، وبأننا غير مؤهّلين، من جراء ذلك، للحكم على الآخرين ومعاقبتهم. لقد أدرك فجأة، أن ذلك الشر الـذي كان شاهـداً عليه في السجون، وعدم اكـتراث الذين يرتكبون هذا الشر، ينجمان عن أن الناس يريدون أن يقوموا بمشروع مستحيل. إنهـم يسعون إلى إصلاح الشر، في حين أنهم هم أنفسهم شريرون. إن إناسـاً فاسدين يبتغون إصلاح أناس آخريـن فاسدين، ويحسبون أنهم يبلغـون هدفهم بحركات فارغة من المعنـى. والنتيجة الوحيدة هو أن هؤلاء الرجال العاطلين والجشعين الذي جعلوا من تطبيق العقاب مهنة لهم، كانوا هم أنفسهم فاسدين حتى مخ العظم. إنهم يجعلون أولئك الذين يخضعونهم لسوء المعاملة أسوأ مما كانوا عليه.

لقد أخذ نيكليودوف يرى بوضوح كل هذه الفظاعات التي تُرتكب، وأخذ يعلم ماذا ينبغي أن نفعل لاستئصالها. إن الجواب الذي بحث عنه عبثاً هو جواب المسيح لبطرس: يجب أن نغفر دائماً، أن نغفر للجميع، أن نغفر عدداً لا يُحصى من المرات، لأنه لا يوجد بشر بلا خطيئة، ولأنه لا يوجد إنسان جدير بأن يعاقِب ويؤدِّب.

وقال نيكليودوف في نفسه: «كلا، ذلك غير ممكن، لا يمكن أن يكون الأمر بهذه البساطة». قال ذلك وهو يحسّ بيقين أن هذا هو الحل الوحيد، هو الطريقة الوحيدة لحل المشكلة من الوجهة النظرية والعملية على حد سواء، وإن بدا ذلك شديد الغرابة في بداية الأمر، لأنه تعوّد التفكير بطريقة متعارضة كلياً. ولم يعد يُقلقه الاعتراض المعتاد: «ماذا نفعل بالمجرمين؟ أنتركهم بلا عقاب؟». فهذا الاعتراض يمكن أن يكون له معنى لو استطعنا البرهنة على أن العقوبات تقلل من عدد الجرائم، وتُصلح المجرمين. لكن بما أن العكس هو الثابت، وبما أن من الجليّ أن ليس في مقدور البعض معاقبة الآخرين، فإن الشيء الوحيد المعقول هو الإقلاع عن أعمال ليست عديمة الفائدة فحسب، بل إنها مَضرّة ولا أخلاقية، وفظة. ومنذ قرون يُعاقب الذين يُعدُّون مسيئين، فهل أدّى ذلك إلى استئصالهم؟ على العكس، إن عددهم لا يني يتزايد، لأن الذين أفسدهم العقاب قد انضاف إليهم، وكذلك انضاف إليهم كل هؤلاء القضاة وهؤلاء النوّاب العامين وهؤلاء القضاة المحققين وهؤلاء السّجانين المكلّفين بالحكم والقصاص.

لقد أدرك نيكليودوف الآن أن المجتمع والنظام القائم موجودان، لا بسبب وجود هؤلاء المسيئين الشرعيين الذين يحاكمون أمثالهم

مــن البشر ويحكمون عليهم، بــل لأن الناس، بالرغم من هذا الفساد، يتعاطفون فيما بينهم، ويتحابّون بالرغم من كل شيء.

أخــذ نيكليودوف يقرأ الإنجيل أملاً بالعثور على تأييد لهذه الفكرة فيــه. فقــرأ الموعظة على الجبل التــي طالما هزّتــه. ولأول مرة اكتشف فيهــا، لا الأفكار المجردة الرائعة الصعبة التحقيق، وإنما اكتشف تعاليم بسيطــة، واضحة، ممكنة التطبيق، جديرة، إذا مــا طُبقت —وهو شيء غــير مستحيل البتــة— أن تخلق مجتمعاً جديداً حقــاً، مجتمعاً يزول فيه العنــف الذي يأبــاه نيكليودوف، من ذاتــه. إذ ذاك تُزهر على الأرض مملكة الله، الخــير الأسمى التي طمحت إليــه الإنسانية. وهذه التعاليم خمسة:

التعليــم الأول (متى ٥: ٢١ —٢٦). يجــب على الإنسان ألا يمتنع فقــط عن قتل الإنســان، بل يجــب ألا يَغْضب على أخيــه؛ يجب ألا يحتقره، وألا يقول له «راقا»[٥٢]. وإذا خاصم أحداً فيجب أن يصالحه قبل أن يقدِّم قربانه للرب، أي قبل أن يصلي.

التعليــم الثاني (متى ٥: ٢٧ —٣٢). يجب علــى الإنسان ألا يمتنع فقــط عن الزنى، بل يجب عليه ألا ينظــر إلى امرأة بشهوة. وإذا تزوّج فيجب أن يظل وفياً لزوجته طوال حياته.

التعليم الثالث (متى ٥: ٣٣ —٣٧) يجب على الإنسان ألا يَحلف البتة.

٥٢— راقا: كلمة آرامية معناها «رأس فارغ».

التعليـم الرابع (متى ٥ : ٣٨ –٤٢). يجب على الإنسان ألا يرد السيئة بمثلها: العين بالعين والسن بالسن؛ بل يجب عليه أن يُحوِّل الخد الآخر لمن لطمه على أحد الخدين. يجب أن يغفر السيئات، وأن يحتملها بخضوع، وألا يرفض شيئاً مما يُطلَب منه.

التعليم الخامس (متى ٥: ٤٣ –٤٨) يجب على الإنسان ألا يمتنع فقط عن بغض أعدائه، بل يجب أن يحبهم ويساعدهم ويخدمهم.

حدّق نيكليودوف في ضوء المصباح، وشَردت به أفكاره فعندما تذكر ما في هذه الحياة من أهوال، تصوّر جيداً ما يمكن أن تكون عليه الحياة على الأرض لو رُبِّي الإنسان على مثل هذه التعاليم. وأحس بموجة من الحماسة تجتاحه، لم يشعر بمثلها منذ زمن بعيد. فكأنما عَثَر فجأة على السكينة والحرية، بعد جهود مضنية، وآلام شتّى.

لم ينم ليلتَه. وكما يقع للكثيرين ممن يقرؤون الإنجيل، فهم لأول مرة، المعنى الحقيقي لهذه الكلمات التي قرأها و لم يفهمها حتى الآن. وكما يبتلّ الاسفنج بالماء، كذلك تشرّب هو التعاليم المفيدة والهامة والمضيئة التي كشفها له هذا الكتاب. بدا له كل ما قرأه مألوفا، وكأنما حمل إلى شعوره أشياء يعرفها منذ زمن بعيد، لكنه قبلها يتحفّظ ودون أن يؤمن بها.

لقد آمن من الآن إيماناً راسخاً أن الإنسانية، إذا اتّبعت هذه التعاليم استطاعت أن تبلغ الخير الأسمى الذي هي قادرة عليه. لقد آمن إيماناً قاطعاً أن من واجب كل إنسان أن يطبّق عملياً هذه التعاليم

التـي تجسّـد علّة الحيـاة، العلّة الوحيـدة والصّحيحة. فـإذا انتهك الإنسان هذه التعاليم ارتكب خطأ وجرّه ذلك إلى عقابه ذاته.

هـذه النتائج تتبع مـن تعاليم الكتاب المقدس كلـه؛ لكن قد عُبِّر عنهـا بقـوة خاصة في مَثَل الكرّامين. لقـد ظنّ الكرامـون الذين أرسلهـم رب الأسرة ليعملوا في كرمه، أن الكرم وما فيه ملك لهم. ومـا عليهـم إلا الاستمتاع بالحياة، دون أن يبالـوا بصاحب الكرم، قاتلين كل من يذكّرهم بالالتزامات المستحقة له.

فكّـر نيكليودوف: هـذا هو ما نفعله، نحن أيضـاً. نحن نعيش مقتنعـين بأننا أسياد وجودنا، وأن هذه الحياة قد وُهبت لنا من أجل أن نَنْعَـم بها. لكن هذا غير معقول. ذلك أن الإنسان إن وُجِد على الأرض فبمشيئة غير مشيئته، ولسبب ما، أياً كان ذلك السبب. أما نحن فقد قررنا أننا ما جئنا إلى هذا العالم إلا من أجل لذّتنا. وبالطبع فنحـن نعاني ضيقاً، كالضيق الذي يعانيـه عامل يأبى أن ينفّذ مشيئة سيده. ومشيئة سيدنا عُـبِّر عنها في هذه الصفحة. فإذا راعى الناس هذه التعاليم أقامـوا مملكة الله على الأرض، وبلغوا أسمى درجة من الغبطة يمكن أن يبلغها البشر.

«اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه، وهذه كلها تُزاد لكم».

وبـدلاً من ذلك، ترانا نبحـث عما «يُزاد»، ثـم ندهش من أننا لا نجـده. هوذا هدف حياتي. ما كـدت أبلغ هدفاً حتى تكشّف لي هدف آخر!

منذ هذه الليلة، بدأت حياة جديدة، بالنسبة إلى نيكليودوف، لا لأن شـروط حياته قد تحوّلت فحسب، بل لأن كل ما جرى في هذه اللحظة بالذات قد اتّخذ في عينيه دلالة أخرى.

أمـا كيـف ستنتهي هـذه المرحلة الجديـدة من حياتـه، فسوف يكشف المستقبل عن ذلك.

موسكو في ١٧ كانون الأول ١٨٩٩



تعـود بذرة هذا العمـل إلى عام ١٨٨٧ . وهـي تُولَد من حـدث واقعي. كان لتولسـتوي آنذاك علاقـات ممتازة مع النائـب العام «أناتـول فيدوروفتش كوني» (١٨٤٠ -١٩١٨). وهو حقوقي شهير، ذو فكر متحرر، ونزاهة خلقية عظيمة، وأفضل ممثل للحقوقيين الروس من جيل ١٨٦٠ . ولقد أوتي موهبةً أدبية حقيقية، فنشر مرافعاتـه كما نشر مذكراته، ولاقت نجاحاً كبـيراً. وهو الذي قصّ ذات يوم علـى تولسـتوي واقعةً مؤثرة من حياتـه القانونية: زاره شاب مـن المجتمع الراقي أراد أن يسلّم ظرفاً مختوماً إلى إحدى السجينات. وأبت الإدارة عليه ذلك، فقصد النائـب العام «كـوني» يطلب عونـه. اهتم كوني بالأمـر وعلم أن تلـك السجينة مومسٌ اسمهـا «روزالي أوني»، وأنهـا محكومـة بسبب سرقتها مائـة روبل. لكن كان وراء ذلـك قصة طويلة: لقـد كانت «روزالي» فلاحة صغـيرة يتيمة اشتغلت خادمـة لـدى سيدة ثرية دللتهـا. فأغراها ابن تلـك السيدة -وهـو الشاب الذي قصـد النائب العـام- وحملتْ منه، وما لبث أن طُردت مـن البيت وغرقت شيئاً فشيئـاً في الدعارة. وإذ اتُهمت ذات يوم بالسرقة، أُحيلـتْ إلى المحكمة التي كان بـين محلّفيها ذلك العشيـق القديم، فحُكم عليها بالسجـن. وعندما تعرّف العشيق تلـك الفتاة التي أغواها قديماً، عضّه النـدم لأنه دفعها على طريق الهلاك، وعرض عليهـا الزواج ليكفّر عن خطيئته. لكن البائسة أصيبت بالتيفوس الذي كان يفتك بالسجن حينئذ، وماتت في المشفى، قبل أن يتم الزواج.

ISBN 978-2-843090-60-8
9 782843 090608

DeCamp Joseph - The Blue Cup